
موجز تاريخ مصر
من العصر الفرعوني إلي العصر الجمهوري
بقلم
محمد عرموش
Dr. Binibrahim Archive

موجز تاريخ مصر

من العصر الفرعوني إلي العصر الجمهوري

بقلم

محمد عرموش

مقدمة

كان كل مؤرخ يقرأ ما كتبه المؤرخون من قبله ويعيد كتابته بأسلوب يتناسب مع روح عصره ثم يستكمل ويبني علي ما سبق كشاهد عيان لما يدور حوله ، فمثلاً عندما كتب المقريزي كتابه الشهير المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار قام أولاً بالاستفادة ممن سبقوه وجمع المعلومات التاريخية عن مصر ثم بدأ يصف ما رآه في عصره ، وكذلك فعل ابن تغري بردي وابن اياس الحنفي والجبرتي وغيرهم ولذلك نجد في كتاب كل منهم شهادة عن مجريات الأمور في عصر كل منهم وهي أدق معلومة في كتاب كل منهم ، بمعني أنه ينقل ما سبق ثم يكتب لمن سيأتي بعده

وكأنه سباق تتابع متتالي حيث يستلم كل مؤرخ ممن سبقه "كتاب تاريخ مصر" ثم يضيف ما يخص عصره ثم يسلمه لمن بعده وهكذا في حلقات متتابعة ، فما رأيك عزيزي القارئ أن أفعل كما فعلوا واستكمل الحلقة التي تخص هذا العصر الذي أعيش فيه الآن ولكن هناك بالنسبة لي عدة معوقات ومشاكل والمشكلة الأولي هي أنني مجرد هاوي ومحب لقراءة التاريخ أما المشكلة الكبري التي تواجهني ، هي أن التاريخ تتضح معالمه مع مرور الوقت وتصبح أكثر دقة وتنجلي أمور كثيرة لم تكن مفهومة ، وخاصة عندما تُنشر حقائق ووثائق جديدة أو أن يكتب أحدهم مذكراته مثلاً أو يموت كل من له مصالح خاصة بحدث ما ، وبالتالي لن يضر أحد كشف هذا الحدث ، ولذلك يمكن القول باختصار شديد ومجازاً مع بعض التحفظات أن الحدث التاريخي كلما كان قديماً كلما كان دقيقاً وأقرب إلي الحقيقة ، أما كلما كان حديثاً فيحتاج إلي تدقيق أكثر وقد يشوبه بعض الغموض ، ولكن علي أي حال سأكتب كشاهد عيان كما كتب الجبرتي مثلاً ، فقد كتب العديد من الأحداث دون أن يدري الدوافع التي تحركها أو قد كان يعتقد دوافع أخري واتضح بعد ذلك خلاف بعض ما كتب ، ولكن مشكلتي حالياً أكبر وأعمق وأعقد من المشاكل التي واجهت المقريزي وابن تغري بردي وابن اياس الحنفي والجبرتي وغيرهم من عمالقة التأريخ في مصر الذين لا أدعي أنني أقاربهم في مستواهم بل لا أجرؤ حتي علي أن انتسب إليهم كمؤرخين ، فبالرغم من أنه تبدو الأمور حالياً ميسرة في الحصول علي المعلومات أكثر من أيامهم ، ولكن المصادر مختلفة ومتباينة ومتشبعة بالأغراض والنوايا التي قد تكون حسنة أو سيئة ، وبالتالي أعتقد أن مهمتي لن تكون سهلة ، فظروف كل عصر تختلف عن باقي العصور ، كما أن هناك فرق كبير جدا بين المثقف ومعايير ثقافته في العصور القديمة وبين المثقف ومعايير الثقافة الآن

وبشكل عام يتم الاعتماد علي وصف المؤرخ للظواهر الموجودة في المجتمع الذي عاش فيه وعاصره أكثر من أي شئ آخر كتبه فأنت مثلاً عندما تقرأ لأحد المؤرخين القدماء ستستمتع بقراءة وصفه للمجتمع أكثر من سرده للأحداث التاريخية نفسها وأعتقد أنني إذا كتبت عن أي ظاهرة موجودة كشاهد عيان للمجتمع ستكون هذه محاولة لإضافة حلقة لكتب التاريخ المصري حتي إذا كانت الأحداث التي أذكرها غير مؤكدة بحكم تعدد وتضارب المصادر ، مع العلم أنني سأكتب الأحداث إن شاء الله متحرياً الدقة إلي أبعد

الحدود ولكن سيكون تركيزي علي وصف المجتمع أكثر من تركيزي علي سرد الأحداث ، فالأحداث سوف تُكتشف في يوم من الأيام وبطريقة أو بأخري ولكن قد يكون وصف ظاهرة موجودة في المجتمع مفسراً للعديد من الأحداث فطبيعة المجتمع هي التي تسوقه إلي التصرف في كل حدث طبقاً لرؤيته وفكره ومبادئه ، وقد يدمر المجتمع نفسه بنفسه عند التعرض لظروف معينة ، وقد لا تؤثر نفس هذه الظروف علي مجتمع آخر

وأعتقد أن احتمال أن يقرأ أحد هذا الكلام احتمال ضعيف جدا وليس هناك مبرر لأن أبرر ما أقوم به أثناء تناولي للتاريخ أو أن اضطر لتوضيح رؤيتي له ، فأنت حر عزيزي القارئ في أن تقرأ أو أن تنصرف عن القراءة هذا بفرض أنك لازلت تقرأ حتي الآن ، فالعديد من الناس يفضلون مشاهدة فيديو للحدث أو الخبر مثلاً بالصوت والصورة ويطلب منك رابط علي شبكة المعلومات الإنترنت كي يصدق هذا الحدث أو الخبر ، وعلي فكرة هذه إحدي ظواهر المجتمع الذي أعيش فيه والتي سوف أذكرها إن شاء الله ، وهذا علي سبيل المثال ، ولا يهم معظم الناس قراءة الموضوع بل يهمهم مشاهدته ، بل حتي لا يمل من المشاهدة لابد أن تذكر له التوقيت المحدد الذي ستبدو عنده اللحظة المقصودة بالفيديو ، وبالتالي أنا مطمئن تماماً أن ما أكتبه الآن لن يقرأه أحد أو علي الأقل لن يكمل قراءته ، وبالتالي سأكتب لأنني سأكون أكثر حرية

وكل مؤرخ قد كتب حلقة في هذا التاريخ تمثل العصر الذي عاش فيه كما ذكرت ، ولكن يبقي الفصل الأخير في كل كتاب كتبه هؤلاء هو الأفضل ، لأنه الفصل الذي عاشه كل منهم كشاهد عيان ، فما سبقه من فصول مجرد نقل عن المؤرخين السابقين ، أما الفصول الأخيرة من كل كتاب تاريخ فهي فترة عاشها المؤرخ وشاهدها وتفاعل معها ، وبالرغم من صدق المشاعر فإن معلومات المؤرخ عن الفترة التي عاش فيها بالذات أقل دقة مما سبق كما ذكرت لأن المعلومات التاريخية في تقديري تزداد دقة مع القدم ويصعب الوثوق بها كلما كانت حديثة ، ولكن يبقي أهم ما يكتبه كل مؤرخ هو وصفه للمجتمع الذي عاش فيه بصدق وتجرد ، فقد نعرف الأحداث من مصادر عديدة مع مرور الزمن ولكن وصف المجتمع وظواهره يبقي أثمن ما تركه المؤرخ من تراث)[1]

وقبل أن أبدأ سرد تاريخ مصر طبقاً لما ورد في المراجع والكتب يجب أن تعرف أولاً أن المصريين لم يحكموا مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة تقريباً فقد يعرف الكثيرون أن المصريين قد استعادوا حكم مصر بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م وبالتحديد بعد حوالي سنة كاملة من قيام الثورة حيث تم إنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية سنة ١٩٥٣ م ولكن قد لا يعرف البعض متي كانت آخر مرة حكم فيها المصريون مصر قبل هذا التاريخ ، ويمكن اعتبار أن الملك نقطانب الثاني (نختنبو الثاني) هو آخر حاكم مصري حكم مصر ، وهو آخر ملك من ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية التي تعتبر آخر أسرة فرعونية في التاريخ المصري ، وقد انتهي حكم هذا الفرعون الأخير علي يد الفرس حوالي سنة ٣٤١ قبل الميلاد ، وليس معني

[1] نقلاً عن كتاب –دردشة تاريخية–ملخص تاريخ مصر بالكامل –محمد عرموش–مقتطفات من الفصل الأخير

هذا أن العصر الفرعوني نفسه كان خالياً من الحكام الغير مصريين فقد حكم مصر خلال العصر الفرعوني علي فترات متباعدة الهكسوس والليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس سواء بالاحتلال المباشر أو بالهجرات السلمية الكثيفة ولكن كان المصريون يحررون مصر ويعودون للحكم في كل مرة خلال العصر الفرعوني . ، ولكن الذي طرد الفرس عندما أعادوا احتلال مصر لم يكن المصريون هذه المرة ، بل طردهم الإسكندر المقدوني الشهير حوالي سنة ٣٣٢ ق م وتلاه في حكم مصر أسرة البطالمة ثم تبع البطالمة الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ قبل الميلاد ثم تعرضت مصر لغزو فارسي في أواخر حكم الرومان سنة ٦١٨ م ثم استعادها الرومان مرة أخري سنة ٦٢٧م ، إلي أن تم فتح مصر سنة ٦٤٠م أثناء الاحتلال الروماني لها ، وكان فتح مصر في عهد دولة الراشدين ثم تلتها الدولة الأموية فالعباسية ثم تأسست في مصر الدولة الطولونية سنة ٨٦٨م ثم الإخشيدية سنة ٩٣٥م ثم حكم مصر الفاطميون سنة ٩٦٩م وتلاهم الأيوبيون سنة ١١٧١م ، ثم دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠م ثم المماليك البرجية سنة ١٣٨٢م ، ثم الحكم العثماني لمصر سنة ١٥١٧م ثم جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م لمدة ثلاث سنوات ، ثم حكم مصر محمد علي باشا وأسرته من سنة ١٨٠٥م وقد قامت بريطانيا باحتلال مصر خلال عصر أسرة محمد علي حوالي سبعين سنة من سنة ١٨٨٢م ، ثم انتهي حكم أسرة محمد علي بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبالتالي لم يجلس علي عرش مصر حاكم مصري منذ عهد نقطانب الثاني إلا بعد قيام ثورة يوليو ، أي منذ سنة ٣٤١ قبل الميلاد إلي سنة ١٩٥٣ م وبالتالي تكون المدة بالكامل ٢٢٩٤ سنة كاملة

ولنبدأ معاً في استعراض تاريخ مصر بالكامل بإيجاز ولكن دعنا نتفق أن قراءة كتب التاريخ قد تكون مملة للبعض ولذلك سأحاول تخفيف الملل بقدر الإمكان عن طريق سرد الأحداث علي شكل حوار بين شخصين أحدهما يسأل والآخر يجيب مستخدماً ما تيسر له من كتب ومراجع تاريخية وبذلك يمكن تشجيع القارئ علي الاستمرار في القراءة ، كما أرجو أن يلتمس لي القارئ العذر عن أي خطأ قد يجده في الكتاب ويفترض فيه حسن النية ، والله من وراء القصد وهو المستعان

محمد عبد العزيز عرموش

mzizoihhm@gmail.com

الفصل الأول العصر الفرعوني

أهم مصادر التاريخ الفرعوني

- ما هي أهم مصادر التاريخ الفرعوني ؟
- سنبدأ بحجر بالرمو وقد تم تسمية حجر بالرمو بهذا الاسم نسبة لمدينة بالرمو الإيطالية الموجود بها أكبر قطعة من هذا الحجر بعد تحطمه ويوجد في المتحف المصري بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثة منها في عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد علي القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب في منف أما القطعة السادسة فهي الآن في لندن في متحف الجامعة
- لماذا تتواجد آثار بهذه الأهمية خارج مصر ؟
- أعتقد أن هناك من أخذها من مصر أثناء فترات الاحتلال وما أكثرها في تاريخ مصر وكذلك هناك من حكام مصر من أهدي بعضها لبعض حكام العالم فضلاً عما تم تهريبه من محترفي سرقة الآثار ولكن ليس هذا موضوعنا لأنه يطول شرحه
- حسناً فما المعلومات المتوفرة لديك عن حجر بالرمو ؟
- لقد ورد في صفحة ٦٣، ٦٤ بكتاب مصر الفرعونية "لأحمد فخري" عن هذا الحجر ما يلي : (في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمتراً نقش وجهاه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولي مع مدة حكم كل منهم ، مقسماً إلي سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حُطِّم هذا الحجر إلي قطع صغيرة عُثِر حتى الآن علي ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلي متحف مدينة بالرمو في عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتي الآن
- فماذا عن بردية تورين ؟
- أما بردية تورين فقد ورد عنها في صفحة ٦٥ بنفس المرجع السابق ما يلي : (حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر – – وتنتهي بأسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة)
- يعجبني أن معك مصادرك تسعفك بقراءة ما تحتاجه ولكن بالتأكيد سرعة وصولك للكتب والصفحات المطلوبة تعني أنك متعايش معها بشكل شبه مستمر

- أنا يا صديقي دائماً ما أهرب إلي التاريخ وأعيش في الماضي فهو يريحني نفسياً عندما أعرف أن كل هذا إلي فناء
- وبالطبع مانيتون قد مات أليس كذلك ؟ أردت فقط أن نخفف قليلاُ من جدية الحديث
- نعم يا صديقي لقد مات مانيتون بكل تأكيد وقد كتب عنه أحمد فخري ما يلي : (كان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمنود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فُقِد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس – – ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب وخاصة جوليوس الإفريقي "٢١٧ ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس)
- حسناً فهل هناك مصادر أخري بخلاف حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ؟
- ومن مصادر التاريخ الفرعوني أيضاً ثبت الكرنك وثبت أبيدوس وثبت سقارة وما يسمي بنصوص الأنساب وكلها تحتوي علي أسماء ملوك وأحداث شهدتها فترات حكمهم ولكن كل مصدر منهم إما أنه تهشم وفقدت منه معلومات مهمة أو أن كاتبه كان له مقاصد خاصة في كتابته وبالتالي حذف أسماء بعض الملوك أو فترات كاملة من تاريخ مصر كانت لا تعجبه فمثلاً ثبت أبيدوس (أهمل ملوك إهناسيا الأسرتين التاسعة والعاشرة ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة – – ولم يذكر ثبت أبيدوس أي ملك من ملوك عصر الفترة الثانية –الاضمحلال الثاني– بما في ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا في نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلي أن يصل إلي الملك امنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط "إخناتون" و "سمنخ كا رع" و "توت عنخ آمون" و "آي" لأنهم كانوا في رأيه ملوكاً مارقين وخارجين علي ديانة آمون وكذلك فعل بالملكة حتشبسوت لأن خروجها علي التقاليد واغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية في نظر الأجيال التالية) ، ويضيف الدكتور أحمد فخري ما يلي : (ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتي الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية في مصر الوسطي مازالت تحتفظ بأكثر ما أبقي عليه الزمن من مخلفاتها ، حتي طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمي الكافي ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما يمتد إلي أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن

يقولوا بأنه لم يعد هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون أنهم قد قالوا كلمتهم النهائية في تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات في ذلك التاريخ)

- سبحان الله القائل : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الآية ٨٢ سورة غافر

ملخص العصر الفرعوني

- سنبدأ بملخص تاريخ الفراعنة علي أي حال وهو تاريخ يمكن تبسيطه كالآتي : ينقسم العصر الفرعوني إلي ثلاثة عصور رئيسية : عصر الدولة القديمة – عصر الدولة الوسطي – عصر الدولة الحديثة ، وتسبق هذه العصور الثلاثة عصر يسمي بالعصر العتيق ويلي كل عصر من هذه العصور فترة اضمحلال ، الاضمحلال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطي ، والاضمحلال الثاني بين الدولة الوسطي والدولة الحديثة ، والاضمحلال الأخير في نهاية الدولة الحديثة ونهاية العصر الفرعوني بالكامل
- أعتذر عن المقاطعة ولكني تذكرت الآن أن هذا التقسيم موجود بالفعل في تسلسل عرض الآثار في المتحف المصري بميدان التحرير (الدولة القديمة والدولة الوسطي والدولة الحديثة)
- بالفعل ، وقد قام المؤرخ المصري القديم (مانيتون) بحصر عدد الأسر في العصر الفرعوني ، فذكر أنه مكون من ثلاثين أسرة فرعونية ، موزعة علي العصور الفرعونية المختلفة ، والأسرة الفرعونية تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه ويليه أبناءه ثم أحفاده حتي يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا
- وهل يختلف عدد الملوك في كل أسرة عن الأخري ؟
- بالطبع يختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخري في أغلب الأحيان فمثلاً عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن ١٤ ملك وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط
- وكيف كانت تنتهي كل أسرة لتبدأ أسرة جديدة ؟
- عادةً ما ينتهي حكم أي أسرة لعدة أسباب أهمها هو انتهاء نسل الذكور في هذه الأسرة فيأتي مؤسس جديد لأسرة جديدة ، ويشترط أن يتزوج من إحدي أميرات الأسرة الملكية السابقة حتي تجري الدماء الملكية في عروق أبناءه فيكتسب شرعية الحكم لأسرته
- فهل يمكن أن تذكر لي توزيع عدد الأسر علي كل دولة من الدول الثلاثة وعصور الإضمحلال مع ذكر أشهر ملوك كل عصر مشكوراً ؟

- العصر العتيق (عصر تأسيس الدولة) : يتكون من أسرتين فقط (الأولي والثانية) من حوالي سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م ، وأشهر ملوك هذا العصر هو الملك مينا موحد القطرين والفرعون الأول في الأسرة الأولي
- طبعاً لقد اتفقنا أنه لا يوجد تاريخ دقيق في هذه العصور السحيقة
- بالتأكيد فتاريخ بداية العصر الفرعوني نفسه مختلف في عدة مراجع
- سأتركك تكمل هذا التلخيص الرائع ولكن اسمح لي أن نتكلم عن الملك مينا لأهميته في تاريخ مصر
- إذا تكلمنا عن الملك مينا لأهميته كما تريد فسوف تطلب نفس الطلب عن ملوك آخرين في العصر الفرعوني وسيطول الحديث
- لا توجد مشكلة إذا تكلمنا عن بعض ملوك الفراعنة المشهورين في بضع دقائق ، وأعتذر مرة أخري ، ولنكمل فقد وصلنا للدولة القديمة
- الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام) : من الأسرة الثالثة إلي الأسرة السادسة من حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م إلي حوالي سنة ٢١٨٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة والملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة وكذلك خوفو وخفرع ومنقرع أشهر ملوك الأسرة الرابعة وأصحاب الأهرامات الثلاثة بالجيزة وبدون أن تقاطعني فسوف أذكر لك معلومات مختصرة عن بعض ملوك الدولة القديمة وعن أهراماتهم ، ودعني أكمل الحديث عن الاضمحلال الأول (عمت الفوضي البلاد) : من الأسرة السابعة إلي الأسرة العاشرة من حوالي سنة ٢١٨٠ ق م إلي حوالي سنة ٢٠٦٠ ق م ، ثم الدولة الوسطي (عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية) : يتكون من الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة فقط من سنة ٢٠٦٠ ق م إلي سنة ١٧١٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١١ (منتوحتب) الأول والثاني وهكذا وملوك الأسرة ١٢ (امنمحات وسنوسرت) الأول والثاني وهكذا ، ثم الاضمحلال الثاني (تخلله احتلال الهكسوس لمصر) : من الأسرة ١٥ إلي الأسرة ١٧ من سنة ١٧١٠ ق م إلي سنة ١٥٦٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك سقنن رع والملك كامس الذين كافحوا الهكسوس ولم يتمكنوا من طردهم ، ثم الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية المصرية) : من الأسرة ١٨ إلي الأسرة ٢٠ من سنة ١٥٨٠ ق م إلي سنة ١٠٨٥ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك أحمس الأول وهو أول ملوك الأسرة ١٨ وطارد الهكسوس ، ومن أشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١٨ بشكل عام مثل الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية والملك امنحوتب الرابع (اخناتون) والملك توت عنخ آمون والملك حور محب وأشهر ملوك الأسرة ١٩ الملك سيتي الأول والملك رمسيس الثاني والملك مرنبتاح وأشهر ملوك الأسرة ٢٠ الملك رمسيس الثالث ثم الاضمحلال الأخير (نهاية الفراعنة وتخلله حكم مصر ملوك ليبيين ونوبيين وآشوريين وفرس علي فترات مختلفة): من الأسرة ٢١ إلي الأسرة ٣٠ من سنة ١٠٨٥ ق م

إلي سنة ٣٤١ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك شاشنق الأول وهو مصري من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة ٢٢ ومن أشهر ملوك هذا العصر أيضاً الملك بعنخي وهو مصري نوبي مؤسس الأسرة ٢٥ ، والملك بسماتيك الأول مؤسس الأسرة ٢٦ ، أما الملك (نقطانب الثاني) ويطلق عليه ايضا اسم (نخت نبف) الثاني أو (نختنبو) الثاني فهو آخر ملك في الأسرة الثلاثين الفرعونية أي أنه آخر فرعون مصري تقريباً

- بالتأكيد قد لاحظت ما أنا فيه من حيرة بسبب محاولاتي لعدم مقاطعتك بسبب كل هذه الأسماء اللامعة التي ذكرتها ، فهل أثقل عليك إن طلبت معلومات عن بعضها ؟
- لقد لاحظت بالطبع اهتمامك ببعض أسماء الملوك وأنت محق بالطبع فكما قلت لك قلما تجد دولة مثل مصر لها تاريخ متصل بهذا الطول والامتداد فليس من الممكن أن نذكر مثل هذه الأسماء ولا نتحدث عنها وبالمناسبة وحتي لا تنسي ، لقد ماتوا جميعاً هم ورجال دولتهم وشعوبهم وأعداءهم وحلفاءهم ولم يبق منهم أحد فسبحان الحي الذي لا يموت
- أشكرك لأنك التمست لي العذر علي اهتمامي بمعرفة معلومات عن بعض ملوك الفراعنة ، وعلي تذكيري بالموت أيضاً وأرجو أن تحدثني عن بعض ملوك الفراعنة ولنبدأ بالملك مينا إذا سمحت
- سأحدثك عما تريد ولكن دعني أولاً أوضح بعض المعلومات المهمة عن ذلك العصر بشكل عام
- مثل ماذا ؟

بناء قبر جيد في الدنيا يضمن لك حياة جيدة في الآخري (اعتقاد فرعوني)

- فمثلاً بناء قبر جيد في الدنيا يضمن لك حياة جيدة في الآخرة وهو اعتقاد فرعوني معروف وستلاحظ أن المصري القديم كان يعتقد أن ما يوجد في مقبرته من صور حياته اليومية والطعام والشراب والأثاث كل هذا هو الذي سيضمن له السعادة في الآخرة
- من الطريف أن هذا ينطبق ظاهرياً فقط مع قول الشاعر " لا دار للمرء بعد الموت يسكنها - - - إلا التي كان قبل الموت يبنيها ، فإن بناها بخير طاب مسكنه - - - وإن بناها بشر خاب بانيها " وهذا الشعر بالطبع يعبر عن وسيلة البناء التي تعبر عن الأعمال الصالحة في الدنيا ورضا المولي عز وجل وليس ما كان يفعله المصري القديم من صور وتماثيل وتحنيط لأن كل هذا لا ينفع بشئ في الآخرة إنما الذي يبقي هو العمل الصالح ودعاء الأبناء والصدقات الجارية والله أعلم
- بكل تأكيد أما المصري القديم فقد كانت رغبته أن يتم بناء المقبرة في حياته ، فهداه تفكيره إلي عمل المدخل الموصل إلي حجرة الدفن علي شكل أحدور خارج البناء العلوي لكي يسحب عليه الجثمان ليستقر في حجرة الدفن ، ثم يسد مدخل الحجرة بكتلة من الحجر ويملأ المنحدر بالرمال ، وبهذه الطريقة استطاع المصري أن ينتهي من البناء العلوي دون حاجة لانتظار الانتهاء من مراسيم الدفن أما عن العناصر الضرورية في الدولة القديمة لإعداد مصطبة يعتبرها المصري كاملة لضمان مستقبله

في العالم الآخر فهي في رأي "عالم الآثار" ديفز كما يأتي : (١)اللوحة المشكلة علي هيئة باب " أي الباب الوهمي " وهذه غالباً ما تحمل رسم المتوفى داخلاً وخارجاً أو تمثاله ، وعادة تكون حافلة بالدعوات (٢) تمثال وأسماء وألقاب المتوفى (٣)قائمة بأصناف الطعام والشراب تشمل نحو مائة صنف إذا كانت كاملة (٤) صورة المتوفى جالساً أمام مائدة غنية بالطعام (٥) مواكب الخدم تحمل الزاد ، ومناظر ذبح الحيوانات للطعام (٦) النصوص التي تتحول بواسطتها المأكولات المصورة إلي حقيقة (٧) صورة زوجة المتوفى وأسرته والحيوانات الأليفة ، والخدم المقربين لضمان مصاحبتهم له في حياته الجديدة) وهذه المعلومات من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٠٣ وما بعدها

- كل هذا مفهوم ولكن حتي الخدم يريد أن يقوموا علي خدمته مرة أخري في الحياة الآخرة ؟
- بكل تأكيد ، أما الذي قد يدهشك حقاً أنهم كانوا يتمنون ذلك ، لأنهم لا يملكون إمكانيات بناء مقابر خاصة بهم أو تحنيط جثثهم بعد موتهم أو إقامة تماثيل لهم وبالتالي لن يعودوا إلي الحياة مرة أخري ، فخير لهم في اعتقادهم أن يرسمهم سيدهم حتي يعودوا لخدمته أفضل من عدم العودة علي الإطلاق
- شئ عجيب فعلاً ، وماذا يميز ذلك العصر أيضاً ؟

علاقة البيئة الفيضية بنظام الحكم في مصر القديمة

- نظام الحكم في مصر كان مرتبط ببيئة المجتمع النهري أي البيئة الفيضية
- ماذا يعني ذلك ؟
- فلتستمع إلي ما قاله الدكتور جمال حمدان عن هذا الموضوع : حيث كتب ما ملخصه : الحقيقة الكبري في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية ، لا تعتمد علي المطر في حياتها ، وإنما علي ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الري – – ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته ، ففي البلاد التي تعيش علي الأمطار مباشرةً يختزل المجهود البشري إلي حده الأدني ، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر ، يتوقف العمل أو يكاد حتي الحصاد ، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه ، من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه ،
- كلام منطقي جداً
- أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف – – لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلي مساقي الحقول حتي تزرع ، ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم تسيطر علي أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعني أي جدوي فيها بغير ضبط النهر ؟ ، وأكثر من هذا ما جدوي الجميع بغير ضبط الناس ؟
- ما المقصود بضبط الناس ؟

- إن زراعة الري إذا تُرِكت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن كل من يقيم علي أعلي الماء يستطيع أن يسئ استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماماً عمن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع علي أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع علي نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمَّن تريد ، المحصلة إذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلي شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلي عملية دموية ويسيطر علي الحقول قانون الغاب والأدغال ، في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسُلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع ،
- سُلطة الحكومة ؟
- سُلطة عامة أقوي بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها ، وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم ،
- أضاف الري سيد آخر هو الحاكم ، تحليل رائع وبعد
- فإذا ما التفتنا إلي مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح ، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلي حد نادر المثال ، فقد عُد فرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلي جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس
- لذلك عبدوا الحاكم والشمس والنهر ، فماذا عن المجتمع
- هذا عن الحكومة أما عن المجتمع فهو أساساً مجتمع تعاوني منظم – – وهنا نجد في القرية المصرية في صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدراً كبيراً متوطناً ومتأصلاً من التعاونية والمشاركة التلقائية ، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة
- لقد اتضح لي أهمية دور الحاكم في مصر القديمة ،

<u>أول حكومة في التاريخ كانت في مصر</u>

- فليس من المستغرب أن أول حكومة في التاريخ كانت في مصر كما يوضح د جمال حمدان في موضع آخر من كتابه القاهرة حيث كتب ما يلي : (--- فالبيئة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ، ولهذا أصبح الري مرادفاً للتنظيم ، والتنظيم المركزي ، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . وإن كان هذا من أقوي عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر ، كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة ، إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاغي وأرسي نواة الموظفين الثقيلة ، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً في مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلا عنيدا في موكبها .

- البيروقراطية عريقة في مصر بكل تأكيد
- أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً كما نقول ، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل ، العمل الكبير علي أية حال ، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل – – ، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان ، وهنا ، مرة أخري ، نجد أن الحكومة المركزية الأولي في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن ، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد علي طوله بغير انقطاع ، حتي لتشكل نغمة دالة عليه وملمحاً أساسياً آخر من ملامحه ، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ،––– ويكفي بعدها أن نري صور كبار الموظفين علي النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغاً ، ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتي تمثال شيخ البلد فهذه جميعاً نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة
- من هنا يمكن القول أن الشعب المصري يحتاج أو احتاج حاكماً قوياً علي طول تاريخه ، وحاجة الشعب إلي هذا الحاكم القوي تفوق كثيراً حاجة هذا الحاكم للشعب أليس كذلك ؟
- نعم فهناك تناسب طردي بين قوة الحاكم وإحساس الشعب بالأمن ، فكلما كان الحاكم قوياً كلما شعر الشعب بالأمن ، فهو دائماً يحتاج إلي المبادرة من أعلي ، ودائماً ينتظر ما سيحدث لا ما سيصنعه هو ، فهو غالباً لا يصنع شيئاً من تلقاء نفسه بل عليه أن يتلقي التوجيهات من أعلي ، من حاكم ترنو إليه الأبصار وتتعلق به الآمال ، وإذا تأملنا الآثار الفرعونية في طول البلاد وعرضها سنجد أن أروعها وأكثرها تم بناءه في فترات السيطرة الكاملة للحكومة المركزية في الثلاث دول القديمة والوسطي والحديثة ولن نجد آثاراً بهذه الروعة في فترات الاضمحلال خلال العصر الفرعوني ، فلم تحدث إنجازات معمارية يمكن مقارنتها بما حدث في هذه الدول الثلاث
- وهل استمرت هذه الظاهرة بعد الفراعنة ؟
- إذا تركنا العصر الفرعوني واستعرضنا عصر البطالمة ثم العصر الروماني في مصر سنجد الإنجازات تتحقق في فترات حكم الأقوياء فقط ، وحتي بعد فتح مصر وانضمامها إلي العالم الإسلامي سنجد أن رغبة الحاكم في حدوث أي أعمال ضخمة تكون هي المحركة للأحداث ، لأن المبادرة تأتي من أعلي غالباً ، فتأمل وراجع معظم الإنشاءات والمشروعات الكبري في تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة كالأهرامات والمعابد قديماً والأعمال المعمارية الضخمة في العصر المملوكي وعصر أسرة محمد علي وحفر قناة السويس وبناء السد العالي وكذلك الانتصارات الكبري في تاريخ مصر ، وحتي الهزائم

والانكسارات والإخفاقات ستجد أن المحرك للأحداث غالباً لا يكون الشعب ، بالرغم من أن الشعب هو الذي يصنع كل هذا ولكن ليس من تلقاء نفسه في معظم الأحوال

- إلي هذا الحد ينعدم دور الشعب كمحرك للأحداث ؟ حتي بعد انتهاء أسباب حاجة الشعب للحاكم كأحد أضلاع مثلث الحياة إذا جاز التعبير ؟
- للأسف استمرت هذه الظاهرة حتي بعد انعدام وجود المبرر لحدوثها ، وقد تكلم عن هذه الاستمرارية الدكتور جمال حمدان فقال : – فعلي طرفي النقيض الأقصي والمطلق من مصر الاقتصادية ، وعلي خلاف مصر الاجتماعية ، إلي حد بعيد ، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسي بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهري في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا ، المتغير الوحيد هو الشكل ، – – فقديما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد الرئيس ، فنحن يقيناً مازلنا بين فراعنة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، – – – وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت – الخديو اسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخري ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة – – هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخري ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية – – إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط – – من هنا جميعاً فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصيلة والأصلية ، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شئ نسبية إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضاً أن تسميها

ديموقراطية العالم الثالث – – – وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس – –وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم – – – وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها – – إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد – – – – لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المُعدية ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس

– ماذا لديك أيضاً عن ذلك العصر ؟

الاحتفال بالعيد الثلاثيني عند الفراعنة

– عيد السد أو عيد الحب سد كما ورد في كتاب مصر الفرعونية لشيخ الأثريين أحمد فخري : كان هذا الاحتفال معروفاً في مصر دون شك قبل الأسرة الأولي بزمن كبير ، ويرجع أصله إلي عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتي الآن ، وهي تحديد ثلاثين سنة لحكم أي زعيم ، لأن رخاء الناس يتوقف علي قوة ذلك الزعيم ، فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه في حفل ديني

– شئ عجيب حقاً

– كما تقدم البعض الآخر في تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشتري بذلك سنوات أخري من الحياة ، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل علي سنوات أخري باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد أو تقديم قرابين خاصة في حفل يثبت فيه هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة ،

– أما هذا فمقدور عليه

– ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة في مصر في وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلي مرحلتها الأخيرة وهي تجديد الحق في البقاء في الحكم قبل أن تنتهي فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك في احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المباني الخاصة – – وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولي حتي آخر أيام حضارتها ، مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نري

الإشارة إليه ، ونري بعض طقوسه علي جدران المعابد في جميع العصور حتي ما شيد منها في أيام الرومان

الفراعنة والحياة الآخرة (الآثار مقابر ومعابد فأين قصورهم)؟

- هل تسمح أن نتناول موضوع الديانة الفرعونية بشكل أكثر تفصيلاً لأنه من الواضح أنها السبب في كل ما تركوه من آثار ؟
- بالفعل إن معظم ما تركه الفراعنة إن لم يكن كله يتعلق بما بعد الموت أما قصورهم وبيوتهم وما إلي ذلك من أمور دنيوية فلم يتبقي منها شئ علي ما أعلم وقد يكون قصر التيه أو اللابرنت بالفيوم من الآثار الدنيوية ولكن كان له دور ديني أيضاً
- إذن فآثارهم مقابر ومعابد فقط تقريباً أليس كذلك ؟
- نعم لأن الدنيا بالنسبة لهم كانت تمهيد للآخرة فتراهم يحتفظون بأغلي ما يملكون من ذهب واحجار كريمة وتحف وغير ذلك في قبورهم وليس في بيوتهم
- لأنه يعتبر قبره هو بيته في الآخرة والله أعلم صحيح ؟
- هذا ما يبدو ، حتي إذا عادت روحه إلي قبره يجد كل ما تركه به وعندما يقرأ النص المخصص والتعاويذ اللازمة تتحول كل ما في المقبرة من رسوم وتماثيل وكتابة إلي حقيقة ، وتجده أيضاً يكتب أعماله الصالحه وإنتصاراته وأمجاده وكل ما يفخر به في الدنيا يضعه أو يكتبه في قبره
- فإذا حصل أحدهم علي شهادة تقدير مثلاً بلغة عصرنا الحالي أو ميدالية أو هدايا قيمة يضعها في مقبرته وأكيد أنت تعرف أمثلة علي ذلك
- بمناسبة هذا الكلام هناك موقف يمكن ذكره يؤكد كلامك بالفعل فمثلاً حدث في عصر أحد ملوك الأسرة الخامسة وكان اسمه نفر اير كا رع موقف قد ورد بكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق صفحة ٨٩ حيث كتب : (نعرف اسم الملك نفر اير كا رع من عدة مقابر لكبار موظفيه علي سبيل المثال مقبرة "رع ور " التي اكتشفها سليم حسن عام ١٩٢٩ وهذا القبر لا تقل حجراته عن الخمسين وعثر فيه علي أكثر من مائة تمثال أكثرها مهشم وكان "رع ور " يحمل أكثر من ثلاثين لقباً من بينها لقب مدير القصر الملكي ، ونذكر هنا حادثة لطيفة تدل علي عطف الملك ذكرها "رع ور " في مقبرته فقد حدث ذات مرة في احتفال رسمي أن الملك وكز بعصاه ساق رع ور من غير قصد ولاحظ الملك هذا واعتذر عما بدر منه وقال له " انك أحب رجل لدي وأخص الناس بعطفي " ولم يكتف بذلك بل جعل هذه الحقيقة واضحة للناس فأمر بنقشها علي حجر لكي تودع في قبر رع ور ، وهناك حادث مشابه حدث للوزير والقاضي " واش بتاح") ، ومن هذه القصة يتضح مدي جبروت ملوك مصر الفراعنة مما يجعل مثل هذا الحدث العادي إشادة بعطف الملك وسنلاحظ أيضاً أن الحاشية فقط هي

التي تحظي بهذه الرعاية أما باقي الشعب فالوضع مختلف كما سنري عند الحديث عن الثورة العارمة التي حدثت في نهاية الدولة القديمة

- **المهم في هذه القصة هو الحجر الذي أوصي الملك بوضعه في قبر رع ور وهذا ما يعنينا في موضوعنا**
- **نعم إنها إشارة واضحة لأهمية محتويات المقابر الفرعونية**
- **إذن يكفي أن تكون غنياً وذو منصب محترم ومن صفوة المجتمع ولك نفوذ كبير ولك العديد من الألقاب الفخمة كي تبني قبراً يليق بك ثم تعيش حياة رائعة في الآخرة ومعك خدمك وحاشيتك وزوجتك وأموالك ولا عزاء للفقراء أليس كذلك ؟**
- **بالطبع مقبرة ملك تختلف عن مقبرة قائد بالجيش أو مقبرة كاهن أو أحد كبار الموظفين بالدولة فمثلاً الملك حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨ كانت له مقبرتين بني أحدهما قبل أن يتولي الملك ثم شيد الأخري بعد أن أصبح ملك لأن الوضع قد اختلف ، وأكيد قد شاهدت محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون التي كانت مختفية عن أعين اللصوص حتي تم اكتشافها ، ووجد فيها كنوز رائعة بالرغم من أنه لم يكن ملكاً في نفس أهمية تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو غيرهم من ملوك الفراعنة**
- **ولكن ماذا عن آلهة الفراعنة ؟**

آلهة الفراعنة

- **طبعاً ليس من الممكن أن أذكر هنا أسماء جميع الآلهة التي وردت في موسوعة سليم حسن وذلك لكثرتها ولكن سأحدثك عن بعض هذه الآلهة في إيجاز لتوضيح بعض النقاط فمثلاً إذا تحدثنا عن عدد الآلهة بالكامل تقريباً سنجد أنها تزيد عن عدد المقاطعات لأن بعض المقاطعات كان لها أكثر من إله أما عدد هذه المقاطعات بالكامل فيبلغ عشرين مقاطعة في الوجه البحري واثنين و عشرين مقاطعة في الوجه القبلي أي اثنان وأربعون مقاطعة طبقاً لما ورد بالجزء الأول من موسوعة مصر القديمة لسليم حسن ويمكن إعطاء بعض الأمثلة عن إله كل مقاطعة فمثلاً المقاطعة الأولي في الوجه القبلي كان المعبود فيها أربعة آلهة منهم الإله الكبش خنوم والإله ست أما آمون رع الشهير فقد كان يعبد في عدة مقاطعات مع آلهة أخري مثل المقاطعة السادسة والمقاطعة السابعة عشرة في الوجه البحري والمقاطعة الرابعة في الوجه القبلي وعلي فكرة الكبش خنوم أيضاً كان يعبد في العديد من المقاطعات وعندما تم توحيد جميع المقاطعات وضم الشمال للجنوب وتكونت الدولة المصرية والحكومة المركزية استطاع الكهنة وما أدراك ما الكهنة استطاعوا أن يحافظوا علي جميع الآلهة والتوفيق بينها بقدر الإمكان في جميع المقاطعات بحيث تعترف كل مقاطعة بكل الآلهة الخاصة بالمقاطعات الأخري لأن كل إله له وظيفة مختلفة عن الآخر وأصبح له دور مهم في حياة المصريين القدماء فنجدهم يوزعون الأدوار علي الآلهة فيوجد إله للخصوبة وإله للحب والغزل وإلاهان للحرب وإله التحنيط وإله الشمس**

وهكذا وبالتالي لم يفقد أي إله سلطاته في العبودية في باقي المقاطعات ولكن معبده الرئيسي الخاص به يكون في المقاطعة الأصلية التي نشأ بها ، وطبعاً كل هذا كلام فارغ وكفر والعياذ بالله لكن هذا ما حدث وهذا الذي أدي إلي بناء كل هذا الحشد الرهيب من المباني الدينية بكافة أشكالها وأحجامها لعبادة هذه الآلهة التي ازدحم بها الجزء الأول من كتاب موسوعة سليم حسن مصر القديمة وعلي فكرة لم تكن الحيوانات فقط التي يقدس بعضها الفراعنة ولكن كان هناك بعض الطيور والزواحف والأشجار ايضاً ومن أمثلة الحيوانات المقدسة التي تقمصتها الآلهة البقرة والثعلب والقطة والذئب ومن أمثلة الطيور الصقر والأوز ومن أمثلة الزواحف الثعبان والتمساح ومن أمثلة الشجر المقدس شجرة الجميز التي ظهرت في العديد من اللوحات الفرعونية بل إن الحشرات أيضاً لم يتركوها بل كانوا يقدسون الجعران وهناك العديد من الأساطير التي تم اختراعها بواسطة الكهنة مثل اسطورة إيزيس وأوزوريس الشهيرة وكل ما أريد أن تعرفه علي الأقل أن هذه الآلهة كانت محور حياة المصريين القدماء وبسببهم أقيمت كل هذه الآثار التي نراها حالياً وإذا أردت أن تعرف المزيد عنها فيجب أن تقرأ الكتب الخاصة بذلك وجدير بالذكر أن أسماء ملوك الفراعنة كانت مرتبطة إلي حد كبير بأسماء الآلهة فمثلاً الملك خوفو مرتبط باسم الإله خنوم (والواقع إن اسم خوفو هو الاسم المختصر له إذ أن الاسم الكامل هو "خنم خواف وي " أي الإله خنم هو الذي يحميني ") واسم رمسيس أصله (رع مس سو) أي الإله رع هو الذي أنجبه

- فماذا عن الحساب في الآخرة من وجهة نظر الفراعنة ؟

أسئلة محاكمة الميت من وجهة نظر الفراعنة

- بالطبع كانوا يعتقدون أن هناك حساب في الآخرة ، وقد وردت أسئلة محاكمة الميت في كتاب (مصر علمت العالم) للدكتور وسيم السيسي – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ٢٠١٣ حيث كتب الأسئلة الآتية : هل حفظت جسدك طاهراً ؟ ، هل قتلت نفسا بغير حق ؟ ، هل عذبت حيواناً ؟ ، هل تعلقت بالدنيا بسلاسل من ذهب ؟ ، هل عميت من أمور الآخرة ؟ ، هل صنت نفسك ولسانك عن الشهادة الزور ؟ ، هل عرفت السحر الأسود ودنست نفسك به ؟ ، هل تذكرت الإله وسألته دوماً الهداية والرشد ؟ ، هل خنت جارك أو صديقك الذي ائتمنك علي عرض بيته ؟ ، هل اعتنيت بالنباتات وأطفأت ظمأها ؟ ، هل عاملت الحيوانات بالرفق والشفقة كما تود أن يعاملك بالرفق من هو أقوي منك ؟ ، هل استمعت لصوت ضميرك ؟ ، هل كرهت إنساناً ؟ ، هل جلبت الرضا لقلب أمك والشرف لبيت أبيك ؟ ، هل أعطيت خبزك للمحتاج ؟ وبعض ثمار حقلك للمنهكين ؟ ، هل امتدت يدك لسرقة ما ليس لك ؟ ، هل كنت في أي حال تكذب ؟ ، يجيب المتوفي عن هذه الأسئلة ثم يضيف : كنت عيناً للأعمي ، ويداً للمشلول ، ورجلاً للكسيح ، وأباً لليتيم ، ولم أجعل أحد يبكي مني ، وإن قلبي نقي ويداي طاهرتان ، وعندما ترجح كفة قلب المتوفي ، ، يعلن تحوتي براءة قلب المتوفي من الذنوب

- إنها أسئلة رائعة بالفعل
- بالتأكيد فأي حضارة ناجحة لابد أن تقوم علي أخلاق حميدة
- فعلاً إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
- بالطبع ، ولكن كل هذا مع عبادة غير الله لا يجدي في الآخرة ، فمن أعظم الظلم أن يترك البشر عبادة الله وحده ويعبدون البشر والحيوانات والطيور والجمادات ويسيطر عليهم الكهنة والفراعنة ويستعبدونهم ثم يقتعونهم بأن بناء القبر له أهمية خاصة فيتمنون أن يصبحوا خدماً لسادتهم في الدنيا والآخرة ، فكلما أعددت مقبرتك بشكل لائق كلما كانت حياتك في الآخرة أفضل وكلما كنت تشغل وظيفة كبري في الدولة الفرعونية ستكون بالتأكيد قادر علي تشييد مقبرة محترمة تليق بك وفيها كل ما تتمناه
- كل هذا مفهوم ولكن بالنسبة لأسئلة المحاكمة التي ذكرت أن الميت يتعرض لها أمام الآلهة ، هل كان الآلهة في اعتقاده يسجلون كل أعماله وأقواله في الدنيا حتي يحاسبونه عليها
- المؤكد أنه هو الذي كان يسجل أعماله في مقبرته
- وهل كان يعتقد أن آلهته ستصدق ما كتبه بنفسه أم أن لها مرجعيات أخري ، بل الأغرب من ذلك إذا لم يقم بحفظ جثمانه ويوصي بتحنيطه بعد الموت هل آلهته لن تستطيع إعادته إلي ما كان عليه ؟
- سبحان الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، أما موضوع الديانة الفرعونية فلا تكثر الأسئلة فيه حتي لا يعتقد البعض أنك تنتقدها فتتعرض للوم من المفتونين بها بدون علم مع أني لا أعتقد أن لومهم سيجدي معك
- بالطبع فهذه الحضارة كانت محل احترام الجميع ولكن العقيدة شئ آخر وربما كانت فتنة للكثيرين وقد قال المولي عز وجل عنهم {وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } سورة الفجر من ١٠ إلي ١٤
- صدق الله العظيم
- هل كان هناك أنبياء خلال العصر الفرعوني ؟
- لم يسجل الفراعنة بالطبع أي شئ عن الأنبياء فقد كان كل منهم عندما يكتب التاريخ يحذف من قوائم الملوك من يخالف عبادة آلهته فما بالك بمن يخالف معتقداتهم بالكامل ، فلم تسجل علي آثارهم أي إشارة لوجود نبي أو رسول بالرغم من حضور العديد من الرسل والأنبياء إلي مصر خلال العصر الفرعوني إلا أن هناك إشارة إلي إسرائيل في لوحة مرنبتاح الشهيرة عندما نصل إلي الحديث عنها إن شاء الله
- ولكن هل لديك كتابات عن موضوع الأنبياء في مصر ؟

الأنبياء في مصر

- بالتأكيد وهذا بعض ما ورد بكتاب عندما دخلت مصر في دين الله للدكتور محمد عمارة وهي مقتطفات دونتها من صفحة ٤ إلي صفحة ١٠ : – – إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس – عليه السلام – ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقي بعلم النبوة الذي جاء به رسولها إدريس عليه السلام – – فيقولون أنه أقام ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله – – فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب – – – وعبر هذا التاريخ المصري الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة علي انتماء المصريين إلي دين الله ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم – ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم – وأيضاً في حكمائها الذين جددوا الدعوة إلي التوحيد ورفعوا راياته في مواجهة الوثنية والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم – – فإلي مصر رحل إبراهيم الخليل – عليه السلام – وهو أبو الأنبياء ومن بنات مصر هاجر عليها السلام أنجب نبي الله ورسوله إسماعيل عليه السلام – وإلي مصر جاء يوسف عليه السلام وفيها أوحي إليه ربه وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح – – – وباستدعاء من يوسف جاء نبي الله يعقوب وعدد من بنيه إلي مصر وعاش فيها وعبد الله ودعا إليه – وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسي وأخوه هارون عليهما السلام وأوحي الله إليهم وأنزل عليهم التوراة والألواح فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية علي ضفاف وادي النيل – – وإلي مصر لجأ المسيح عيسي ابن مريم عليه السلام مع أمه سيدة نساء العالمين طلباً للأمن
- إن أفضل ما في حواري معك أنه ليس معك وحدك فأنت كما لوكنت تستدعي المؤرخين والكتاب والمفكرين وغيرهم للجلوس معناً للرد علي الاستفسارات ، فعلاً إن خير جليس في الزمان كتاب ، فهل أطمع في الاستفسار عن حياة المصري القديم في العصر الحجري قبل تأسيس الدولة المصرية ؟

كيف كان يعيش المصري القديم في العصر الحجري

- (كان المصري في ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل علي حاجته مما يجده من ثمار الأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات ، ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ولا تحتاج إلي ضرورة إقامة العائلات علي مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج

إلي أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه ، وجاء اليوم الذي عرف فيه الإنسان٢ أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها علي كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخري أخذ المصري يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلي منتج له ، فأجبرته الزراعة علي الإقامة في مكان معين ليرعى حقله وليحصل علي ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً٣ ، ويبني له مستقراً يأوي إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضاً يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته ، وعندما وصل الإنسان إلي هذه المرحلة ، أي بعد ترك اعتماده علي حياة الصيد وجمع القوت اعتماداً كاملاً ، أخذ يودع حياة العصر الحجري القديم وأخذ يبدأ العصر الحجري المتوسط الذي حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقي قليلاً قليلاً في مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة ، وما جاء العصر النيوليتي أو العصر الحجري الحديث حتي كان هذا الإنسان يعيش في قري صغيرة)٤ ، (وتسمي الفترة بين بداية العصر النيوليتي " أي العصر الحجري الحديث " ويين ظهور الأسرات في مصر ، وتقرب من ألفي سنة العصر الحجري النحاسي أحياناً – ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتي الدلتا والصعيد مميزات خاصة)٥ وبعد انتهاء العصر الحجري بدأ عصر الأسرات الفرعونية

- فهل حان الوقت للحديث عن الملك مينا الشهير بموحد القطرين ؟
- بل سنتحدث عن الملك العقرب
- ومن هو الملك العقرب وما حكايته ؟

الملك العقرب

- نعرف جميعاً اسم الملك مينا كموحد للقطرين وكأول فراعنة الأسرة الأولي الفرعونية ، ولكن القليل يعرف الملك المسمي بالملك العقرب والذي تم في عهده محاولة لتوحيد القطرين في مصر وإن لم تنجح هذه المحاولة ولم تستمر طويلاً ، إلا أنها كانت محاولة سبقت ما أنجزه الملك مينا بفترة ، فمما لا شك فيه أن هناك تطوراً كبيراً قد حدث في مصر حوالي سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد ، إذ أن البلاد كانت في مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث إلي عصر بداية الأسرات ، بمعني أن طبيعة البلاد والمصلحة المشتركة نقلتهم من حياة القرية إلي المدينة ومنهما إلي حياة الأقاليم التي كانت تتمثل في إمارات صغيرة ، وبدأت هذه الأقاليم تتحد مع بعضها البعض بوسيلة أو أخري ، فقد فرض بعضها نفوذه علي البعض الآخر عن طريق الحرب أو عن طريق النمو الطبيعي وتغلب المصالح المشتركة ووصلوا في

---

[٢] كل ما عرفه الإنسان ويتعلمه بإرادة الخالق عز وجل فهو سبحانه الذي يلهم الإنسان العلم والمعرفة المناسبة لكل مرحلة من حياة الإنسان علي الأرض ولا شأن للصدفة في ما يتعلمه الإنسان وإنما هي أسباب يسببها المولي عز وجل

[٣] {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} (٧١) ، (٧٢) سورة يس

[٤] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٥-٣٦

[٥] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٧

النهاية إلي مملكتين ، مملكة الشمال وتتمثل في الدلتا وعاصمتها مدينة (بي) بوتو بمعني المقر أو العرش (قرب دسوق) وإلهها الصقر حورس وتاجها التاج الأحمر ورمزها النحلة ، أما المملكة الأخري ففي الجنوب وعاصمتها مدينة (نخن) بمعني الحصن (قرب إدفو) وإلهها أيضاً الصقر حورس وتاجها التاج الأبيض ورمزها نبات السوت (ربما البوص أو الخيرزان) ، ونعرف من الملوك المحاربين الملك العقرب ، الذي كان أغلب الظن أحد ملوك مصر قبل الملك مينا (نعرمر) مؤسس الأسرة الأولي الفرعونية ، وتدل آثار الملك العقرب التي عثر عليها في نخن أنه قام بأعمال إنشائية ، فمثلاً نراه علي دبوس قتاله لابساً التاج الأبيض ماسكاً بفأس يضرب بها الأرض ، ربما يشق ترعة جديدة أو يقوم بأحد المراسم الدينية ، وفوق هذا نري مجموعة من الألوية تمثل مقاطعات الصعيد ويتدلي منها طيور مذبوحة ربما لتعبر عن قبائل الدلتا وقد يدل هذا علي انتصار الملك العقرب علي الشمال وتوحيد البلاد ، ومن الملاحظ أن هذه الوحدة قد انفصمت عراها لأسباب دينية تقريباً ثم عادت من جديد في أول العصر التاريخي ، عندما أخضع أهل الجنوب أهل الشمال ، وقامت الوحدة التاريخية التي بدأتها الأسرة الأولي التي أنهت عصر ما قبل التاريخ وبدأت التأريخ منذ الملك مينا ، وهناك خلاف حول شخصية موحد مصر ، هل هو الملك نعرمر أم ابنه الملك حور عحا (بمعني الصقر المحارب) ؟ فمينا لم يكن اسماً أو لقباً مستخدماً أثناء حياة الفرعون ، ولكنه نعت أطلقه عليه أبناء الأجيال التالية وهو يعني الخالد وهناك خلاف أيضاً حول تاريخ توحيد القطرين ويظن بعض المؤرخون أنه تم حوالي سنة ٢٩٢٠ قبل الميلاد[٦]

- فلنتحدث عن الملك مينا

الملك مينا

- يُعد الملك مينا أول شخصية بارزة في تاريخ مصر بل إن مصر لم تصبح دولة موحدة إلا في عهده فهو كما نعلم جميعاً موحد القطرين وهو الملك الأول في الأسرة الأولي الفرعونية يُعد الملك مينا أول شخصية بارزة في تاريخ مصر بل إن مصر لم تصبح دولة موحدة إلا في عهده فهو كما نعلم جميعاً موحد القطرين وهو الملك الأول في الأسرة الأولي الفرعونية وقد وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا = منا= نعرمر = نارمر) وقد استخدم الدكتور سيد توفيق اسم "مني" للفرعون الأول كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعني الخالد أو المثبت وهو مؤسس الدولة والجد الأكبر لجميع ملوك الفراعنة تقريبا ويقول عنه سليم حسن أنه قد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه حتى أنهم ألهوه بعد موته وبقيت عبادته زمناً طويلاً حتى أنه بعد عشرين قرناً من وفاته وجد تمثاله محمول في مقدمة كل تماثيل

[٦] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رمسيس الثالث في معبده ويقول سليم حسن أن ملوك الأسرة الأولي يبلغ عددهم سبعة فقط واستمروا نحو ٢٠٠ سنة من سنة ٣٢٠٠ ق م إلي سنة ٣٠٠٠ ق م والملك مينا قد وضع أساس متين لكل من جاء بعده من الفراعنة فالنظام الحكومي والإداري الذي كانت تسير عليه البلاد في عهده بقي نحو ٣٠٠٠ سنة لم يطرأ عليه تغيير إلا نادراً

- أعتقد أن هذا النظام الحكومي موجود حتي وقت قريب وليس فقط ٣٠٠٠ سنة
- أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم وتعتبر لوحة الملك مينا من أهم الآثار الفرعونية الموجودة حالياً واللوحة توضح معاركه لتوحيد القطرين ، وظهوره بتاج الوجه القبلي علي أحد أوجه اللوحة وبتاج الوجه البحري علي الوجه الآخر ، وقد عثر عليها العالم البريطاني كويبل في هيراكونبوليس بالقرب من إدفو وهى من حجر الشيست الأخضر. وتعتبر لوحة نارمر من أول اللوحات التاريخية، كتبت ورسمت في عهد الفرعون نارمر الذي وحد الوجهين المصريين
- هل يمكن شرح المرسوم علي هذه اللوحة ؟ فقد بحثت عنها وهي أمامنا الآن علي شاشة الكمبيوتر
- حسناً فلتتأمل معي أولا الوجه الأول من اللوحة : في أعلى اللوحة نجد وجهان لإمرأه لها أذنى وقرنى بقره وهى الإلهه حتحور وبين والوجهين نجد واجهة القصر "السِرخ" ونقش بداخله اسم نعرمر. وفي الصورة اسفلها نجد الفرعون مصورا بحجم كبير يلبس تاج مصر العليا(الجنوبية)الأبيض ويمسك بيده سلاحه ليضرب به أحد أعدائه الشماليين (التي تميزه باروكة الشماليين)، وخلف الملك حامل صندل الملك ومعه وعاء من الماء. وأمام الملك نجد الإله حورس في هيئةالصقر وهو يقدم للملك رأس أسير وجسمه عبارة عن علامة الأرض عند المصريين القدماء ويخرج منها نبات البردى أى دليل على أنها أرض الشمال ومعنى ذلك أن حورس يقدم للملك أرض الدلتا ليحكمها ويبسط عليها نفوذه. بعد ذلك نجد في أسفل اللوحة اثنان من الأعداء يهربان وبجوار كل منهما اسم مقاطعته (بوتو وسايس) كل منهما ينظر ورائه دليلاً على قوة ما يهربان منه، وبجوارهما رسما لحصنهما الذي استولى عليه نارمر. ثانياً الوجه الثاني : نجد أولا في أعلى الصورة المنحوتة نفس وجهى المعبودة حتحور وبينهما السِرخ، أسفلها منظر يصور انتهاء الحرب ويمشى الملك في موكب النصر المتجه لمعبد مدينة بوتو المقدسة، وهنا يلبس الملك التاج الأحمر تاج الدلتا وورائه حامل الصندل وأمام الملك كبير وزرائه وفوقه كلمة "سات" يعنى وزير، وأمام الوزير حملة الأعلام. ومن الأعلام نستنتج أن مصر القديمة كانت أول من يكوّن حكومة مركزية في التاريخ، حيث يرجع تاريخ تلك اللوحة وهذا الحدث إلى ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد. ونجد على أقصى اليمين مجموعة من الأسرى مقطعة رقابهم وموضوعة بين أقدامهم ونرى أن جميع الأسرى أقدامهم مواجهة لبعضها ما عدا إثنين منهم، وذلك تمييزاً لهما ويعتقد أنهما قائدين من الشمال. أسفل هذا المشهد نجد صورة لحيوانين خرافيين متشابكة الأعناق ليشكلوا بؤرة الصلاية لطحن

كحل الملك وفى نهاية اللوحة نجد الملك مصوّرا على هيئة "ثور" قوي دليلاً على قوته يدمر أحد حصون الأعداء ويطأ بقدمه أحد الأعداء

- من الواضح أن الملك كان يقاتل بشراسة وعنف لم تشهده البلاد من قبل وقد قام بالتمثيل بالجثث ووضع رأس كل قتيل بين ساقيه ، وهي رسالة لكل من تسول له نفسه أن يفكر في عصيان الملك
- بالتأكيد فقد وضع مينا القوانين والقواعد التي ستطبق علي عصره وما بعده من عصور ويجب أن نتذكر أن هؤلاء القتلي هم من أهل مصر أيضاً ولكنهم كانوا يعيشون في الشمال أي في الوجه البحري أي أنهم ليسوا من دولة معادية لمصر بل هم نصف مصر الشمالي
- الطريف أنه قد قامت حروب طاحنة بين شمال وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث حتي أصبحت علي الحالة التي عليها الآن ، فهل الحروب لتوحيد الدولة أمر حتمي حدث في عدة أماكن من العالم القديم والحديث ؟
- علي أي حال لقد وضع مينا القانون فأنت إذا خالفت مينا فأنت لا تخالف شخص الملك مينا بل إنك تخالف القانون وسيصبح هذا هو الطبيعي والدائم في مصر بعد ذلك فالحاكم هو القانون بل هو مصر نفسها فإذا أسأت له أو انتقدته فأنت تسئ إلي مصر وتنتقدها فمصر ستصبح هي حاكمها

الملك زوسر

- سبحان الله ، نحن لم نتكلم في تاريخ مصر حتي هذه اللحظة إلا عن الملك مينا فقط ، فكيف وصل بنا الكلام إلي كل هذا ، فهل عصر الملك مينا قد تكرر في جميع عصور التاريخ المصري مع تغيير اسم الحاكم فقط ؟
- علي أي حال كان من الطبيعي أن يستغرق الكلام عن الملك مينا كل هذا الوقت لأن البداية والتأسيس يحتوي علي تفاصيل كثيرة مطلوب توضيحها أما بعد ذلك فسيكون الكلام عن باقي الفراعنة أكثر وضوحاً دون الحاجة إلي كل ما قد قيل عن الملك مينا
- حسناً فمن الفرعون الذي سنتحدث عنه بعد الملك مينا ؟
- أعتقد أن الملك زوسر هو الذي يستحق أن ننتقل للحديث عنه فهو ثاني شخصية بارزة في التاريخ الفرعوني فهو مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية وقد بدأ عصر الدولة القديمة حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م بالأسرة الثالثة وفي الحقيقة عصر الدولة القديمة يتميز أنه عصر بناة الأهرام لذلك ستجد أسماء عديدة في هذا العصر تعرفها ويعرفها معظم الناس حالياً مثل مؤسس هذه الأسرة وهو الملك زوسر الذي بُني في عهده هرم سقارة المدرج الشهير وعلي فكرة هذه الأسرة مكونة من خمسة ملوك فقط أولهم الملك زوسر وهو يعتبر من الشخصيات البارزة وقد دام ملكه حوالي ٢٩ سنة علي عرش مصر وهو صاحب أول هرم في التاريخ وبالرغم من أنه كان علي الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء

مؤسساً لأسرة مالكة جديدة ولقد حكم الملك جُسر" زوسر" طبقاً لما ورد في تاريخ مانيتون ٢٩ سنة رأت فيهم مصر نهضة شاملة ، وجوسر هو الاسم المستخدم في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتي الفتح العربي والمكون من قسمين كتب أحدهما الدكتور سيد توفيق والآخر الدكتور سيد الناصري وقد تم استخدام كلمة جوسر بتعطيش الجيم وهو اسم يعني المقدس في اللغة المصرية القديمة ، (وليس من شك في أن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الأسرة الثالثة هي تلك المجموعة الهرمية التي أمر الملك جسر "زوسر" ببنائها بسقارة – – ومن الطريف أن الملك جسر قبل أن يبدأ في بناء مجموعته الجنائزية في سقارة سار علي نهج من سبقوه من ملوك الأسرتين الأولي والثانية فبني مقبرته الأولي علي شكل مصطبة كبيرة الحجم وهي من الطوب اللبن– – أما مقبرته الثانية بسقارة ونقصد بذلك الهرم المدرج فقد ترك تشييدها لوزيره الشاب أيمحتب وهو المهندس الذي استخدم الحجر علي نطاق واسع لأول مرة – – وقد خلد هذا البناء الضخم مهندسه أيمحتب) الذي (كان واحداً من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم في أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه علي فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر في الفن المصري بل نبغ أيضاً في الطب وألف فيه ، كما ألف في الحكمة وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد في أواخر أيام حضارتهم)

- فما هي أبعاد هرم سقارة المدرج ؟
- أما عن أبعاد هذا الهرم فقد أثبتت الأبحاث الحديثة وما تعري وتهدم من بعض أجزاء الهرم "هرم سقارة المدرج" أنه بني علي أساس تصميمات مختلفة– –وأصبحت قاعدة الهرم بعد كل هذه التعديلات ١٢١ متر من الشرق إلي الغرب و ١٠٩ متر من الشمال إلي الجنوب وارتفاع الهرم يصل إلي ٥٩.٦٤ متر– – وغير هذا فهناك العديد من الممرات والغرف التي حفرت في الصخر الطبيعي تحت بناء الهرم وتشعبت في اتجاهات مختلفة بأطوال متباينة وعلي أعماق مختلفة ووجد بها عشرات الآلاف من الأواني الحجرية الضخمة ويعتقد بأن عددها يزيد علي ٣٠٠٠٠ إناء من المرمر والجرانيت والديوريت والشست وهي تمثل الإتقان الذي وصلت إليه صناعة الأواني في عصر الملك جسر وقد زينت إحدى جدران هذه الغرف بثلاثة أبواب وهمية مثل عليها الملك جسر يقوم بطقوس عيد السد يصاحبه اسمه وألقابه ، وكانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتي آخر أيام الأسرة لم يخلفه علي العرش من نستطيع أن نقارنه به ، ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا في هذه الأسرة بينما لا نجد في ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء ، (وكانت فترة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة علي الأرجح وقد بدأت بعهد زاهر وهو عهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها علي الصورة التي كنا نتوقعها ، فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهي معرفة بناء الهرم الكامل – ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأسرتين الأولي

والثانية علي شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتي ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرماً مدرجاً وظل تجديد إيمحوتب مثلاً أعلي مدة تقرب من قرن كامل حتي انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة) (أما الملك حوني آخر ملوك هذه الأسرة فقد حكم ٢٤ سنة ويذكر نقش يحمل اسمه في جزيرة الفنتين أنه أقام عند الجندل الأول حصناً ليؤمن حدود مصر الجنوبية وهذا النقش هو الإشارة الوحيدة للأحداث السياسية التي تمت في عهده كما بدأ خلال فترة حكمه ببناء هرمه في ميدوم " ٧٥ كم جنوب القاهرة " ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكمله الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة)

الملك سنفرو

- الأسرة الرابعة التي تضم خوفو وخفرع ومنقرع ؟
- نعم ولكننا سنتحدث أولاً عن مؤسس هذه الأسرة وهو الملك سنفرو
- كلي آذان صاغية
- أسس الملك سنفرو الأسرة الرابعة – – ويري مانيتون أنه حكم ٢٩ سنة وبردية تورين ٢٤ عاما كما نعرف من حجر بالرمو أنه قام ببعثات حربية إلي بلاد النوبة وأحضر معه من هناك ٧٠٠٠ أسير ، ٢٠٠٠٠٠ رأساً من الماشية وبعد ذلك اتجه إلي ليبيا وانتصر عليها وعاد منها ومعه ١١٠٠٠ أسير و ١٣١ ألف رأس من الماشية
- ألا توجد مبالغات في هذه الأرقام ؟
- إن هذا مدون علي حجر بالرمو ، فإذا كنت لا تصدقه فاذهب إلي إيطاليا وراجعه بنفسك
- لا داعي استمر
- كما يذكر حجر بالرمو أيضاً أنه أرسل أسطولاً بحرياً إلي لبنان لإحضار أخشاب الأرز) وكان سنفرو متزوجاً من الأميرة حتب حرس ابنة الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة والتي كانت تحمل بحكم دمها الملكي حق وراثة العرش وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير وكان نظام وراثة الحكم كما ذكرنا إذا انقطع نسل الذكور من الأسرة المالكة فإن الملك الجديد لا بد أن يتزوج من إحدي بنات البيت الملكي السابق حتي يجري الدم الفرعوني في عروق أبناءه كما فعل سنفرو مع ابنة الملك حوني ولقد أكمل الملك سنفرو هرم الملك حوني في ميدوم بالفيوم وشيد لنفسه هرمين في دهشور ، الأول يسمي الهرم المنكسر الأضلاع ويبلغ ارتفاعه ١٠١.١٥ متر ويبدو أنه الحلقة التالية لتقدم فكرة بناء المقبرة الملكية بعد المصطبة المدرجة الخاصة بالملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وكتب سليم حسن عن سنفرو ما يلي (وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل ، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي)
- فما أبعاد الهرم المنكسر ؟

- الهرم المنكسر عبارة عن قاعدة ضخمة عالية بنيت جوانبها بزاوية ٥٤.١٤ درجة وفوق هذه القاعدة بني القسم الثاني بزاوية قدرها ٤٣.٢١ درجة ونتج عن تغيير الزاوية ذلك الهرم المنكسر الأضلاع ، أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨.٦ متراً ، ويمتاز هذا الهرم عن جميع أهرام مصر بأن له مدخلين ، مدخل في الجهة الشمالية والآخر في الواجهة الغربية ، كما يمتاز أيضاً بأن الكساء الخارجي له لا يزال علي حالته الأولي ، وإلي الشمال من هذا الهرم علي بعد لا يقل عن ٢ كم نجد الهرم الثاني لسنفرو والذي يعتبر أول هرم حقيقي في تاريخ العمارة المصرية ويبلغ ارتفاعه حوالي ٩٩ متر وطول ضلع قاعدته حوالي ٢٢٠ متراً ،
- وهل ترك سنفرو آثار أخري ؟
- ضمن آثار الملك سنفرو وجدت قائمة كاملة لأغلب الأقاليم المصرية في ذلك الوقت فيما تعتبر أول وثيقة لتقسيمات مصر الإدارية في عصر يرجع إلي أكثر من ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، وإذا تكلمنا عن الملك سنفرو سنجد أن عصره امتلأ بحوادث كثيرة منها الحملة البحرية التي أرسلها إلي المواني السورية وعادت هذه الحملة بحوالي أربعين سفينة محملة بالأخشاب التي تستخدم في البناء وتم قطعها من غابات لبنان ويبدو أن الملك سنفرو كان ملكاً جاداً لأن سليم حسن كتب عنه ما يلي بالحرف الواحد : وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان) ، وعندما يتنقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزاماً علي رعيته أن يركعوا أمام جلالته ويقبلوا التراب الذي تحت قدميه علي حد تعبير سليم حسن وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس وكانت حاشيته وعظماء البلاد في عهده تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتي يقدموا له خدماتهم في الدار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص
- يريد خدماتهم وإخلاصهم في الدنيا والآخرة ، فأين القصر الذي كان يعيش فيه ؟
- أما عن سبب عدم وجود آثار تخص بيوت وقصور الفراعنة فيقول سليم حسن (وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر علي حين أن الملك كان يسكن في مأوي بسيط من الطوب اللبن أو من طين النيل المجفف في الشمس ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يعدون كالآلهة) وهذه المعلومات بالطبع نقلاً عن موسوعة سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الأول وكتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان
- وقبل أن تقولها أنت سأقول أنا : لقد مات سنفرو وماتت حاشيته ومات شعبه ومات أعداءه أيضاً
- بكل تأكيد ، فأهم درس في التاريخ أن الدنيا لا تدوم لأحد ، والآن سنقرأ عن أشهر ملك في الأسرة الرابعة وصاحب أشهر بناء في التاريخ يُعد من عجائب الدنيا

الملك خوفو والهرم الأكبر

- الملك خوفو بالطبع

- بعد أن مات سنفرو جاء الملك خوفو للحكم وأياً كان السبب الرئيسي لبناءه هذا الهرم العملاق وأياً كانت ظروف حكمه إلا أن الهرم الموجود حالياً باسمه يعتبر من عجائب الدنيا بالفعل فيكفي أن اذكر لك بعض الحقائق عن هذا الهرم لتعرف حجم العمل الذي تم فيه رغم أن فترة حكم خوفو لم تتجاوز العشرين عاماً مما يدل علي أن فن الإدارة وتنظيم الأعمال كان متقدماً في عهده لإنجاز هذا العمل الضخم في توقيت قصير نسبياً ،
- ألم يكن سبب بناء هذا الهرم توفير قبر ومثوي أبدي للملك ؟
- بالطبع كما فعل من قبله من الملوك ويعتقد بعض علماء الآثار أن من أسباب بناء هذا الهرم أيضاً أن الملك قرر تأمين شعبه ضد البطالة وخاصة في الفترات التي تتوقف فيها أعمال الزراعة ولذلك كان يتم العمل في الهرم في هذه الفترات فقط من السنة وهي فترات مرتبطة طبعا بتوقيتات حدوث فيضان النيل
- فما أبعاد هذا الهرم ؟
- يبلغ طول قاعدة الهرم ٢٢٧.٥ متر وارتفاعه حوالي ١٣٧ متر وعدد أحجاره تقريباً مليونين وثلاثمائة ألف حجر ومتوسط وزن الحجر الواحد حوالي ٢.٥ طن يعني وزن الهرم بالكامل ستة ملايين طن تقريباً وحجمه ٢.٥ مليون متر مكعب وبالرغم إن خوفو كان يريد أن يكون هذا الهرم المقر الأبدي لجثمانه إلا أن حلمه لم يتحقق وقد تم اقتحام حجرة الدفن في عهد الثورة التي كانت في نهاية الأسرة السادسة الفرعونية لأن حجرة الدفن الخاصة بالملك خوفو خالية تماماً وعليها آثار تخريب واضحة من مخلفات الأسرة السادسة
- الأسرة السادسة ، سبحان الله ، لم يستمر تواجد الملك في حجرة دفنه بهذا الهرم العملاق إلا لمدة أسرتين فقط ؟
- نعم وسوف نتكلم عن الثورة التي حدثت في عصر الأسرة السادسة في حينها ويقول سليم حسن عن الملك خوفو (وربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل خوفو عن باقي أعمال ملكه ولكن الواقع أننا نجد له آثاراً باقية في مدن ملكه وقد ترك خوفو اسمه منقوشاً في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء) (والظاهر أن بعد وفاة خوفو قامت منازعات علي الملك إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو ددف رع ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام) وهذه الصراعات استمرت حتي في عصر خفرع صاحب الهرم المعروف باسمه في الجيزة حيث أن خفرع لم تكن بيده مطلق الصلاحيات في الحكم أو بمعني أصح سلطاته كانت غير كاملة علي مصر بسبب هذه الصراعات مع أبناء ددف رع أخوه ومع كل هذه الصراعات استطاع بعزيمة فولاذية بناء هرمه الفخم بجوار هرم خوفو وقد أنجب خفرع ١٦ فرد من الذكور والإناث وفي الغالب أن الفرعون منقرع أحد هؤلاء وقد خلف أبوه في الحكم وبني هرمه الصغير بجوار هرم خوفو وهرم خفرع كما نعلم جميعاً

- يبدو أن منقرع كان ملكاً طيباً
- تقريباً فيقول عنه د سيد توفيق : (– –لم تستطع الآثار المصرية المعروفة لدينا الآن أن تعطينا الشئ الكثير عن حياة الملك منكاورع وإن تغلبت الذكري الطيبة عند الحديث عنه في العصور المتأخرة – – بعكس ما اتصف به والده خعفرع وجده خوفو من قوة واستبداد – – والاحتمال كبير في صدق هذه الرواية لسبب بسيط هو أن بناء مثل هذين الهرمين الكبيرين وما يتبعهما من معابد للملكين خوفو وخعفرع لا شك حمّلا الدولة ما لا تستطيع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية – –
- فماذا عن هرم منقرع ؟
- يقع هرم منكاورع في الركن الجنوبي من الهضبة ويبلغ ارتفاعه الآن ٦٢ متر " كان ٦٦.٥ متر" وطول ضلع قاعدته ١٠٨.٥ متر – – وعلي الرغم من أن فترة حكم منكاورع قد تزيد عن ١٨ عاماً فإنه لم يستطيع أن يتم تشييد هرمه الصغير وما يتبعه من معابد فأكملها له ابنه شبسكاف – – ولم يقم شبسكاف بتشييد هرم له في الجيزة واتخذ منطقة سقارة جبانة له وقام في جنوبها بتشييد تابوت ضخم مستطيل (١٠٠×٧٥ متر وارتفاع ١٨ متر) بني من الحجر الرملي – – وهو المعروف الآن بمصطبة فرعون ويبدو أن نفوذ كهنة الشمس ازداد وازداد معه قوة وسيطرة الإله رع في هليوبوليس – – ومن أهم الأسباب التي سمحت لهم بتحقيق هذه السياسة أن ملوك الأسرة الرابعة بعد الملك خعفرع كانوا ملوكا ضعافاً فاستطاع هؤلاء الكهنة أن يفرضوا سيادتهم ويسقطوا الأسرة الرابعة – – وجعلوا بعد ذلك الإله رع إله الدولة وقللوا من أهمية الإله حورس الذي كان يهيمن علي مصر قبل ذلك كإله للدولة)
- ما رأيك في موضوع غلبة إله علي إله ؟ والعياذ بالله من هذا الكلام ، فإنني أشعر عند كلام عن آلهة الفراعنة أنني في حاجة إلي الكثير من الاستغفار مما يقال
- مسألة غلبة إله علي إله بالطبع كلام غير صحيح ولكن الموضوع له علاقة بالمصالح المرتبطة بالكهنة أنفسهم فكل معبد له ما يشبه الأوقاف من الأراضي وخلافه تدر مبالغ كبيرة لكهنة المعبد وكلما زادت أهمية أحد المعابد زاد بالتالي دخله ولتسهيل الموضوع يمكن إعطاء مثال أن كهنة كل معبد كانوا يديرون مشروعات تدر أرباحاً ضخمة كما لو كانت شركات وأسماء الآلهة عبارة عن أسماء لهذه الشركات (شركة رع – شركة حورس وهكذا) {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (٢٢) سورة الأنبياء
- أي أن الموضوع كله مرتبط بمصالح الكهنة ليس أكثر والمنافسة فيما بينهم ؟
- بالتأكيد ، ولكن دعنا نأخذ فكرة بسيطة وسريعة عن الأسرة الخامسة
- لا مانع

الأسرة الخامسة ومتون الأهرام

- الأسرة الخامسة مكونة من تسعة ملوك أولهم يسمي (أو سر كاف) وآخرهم الفرعون (أوناس) وهي أسرة من بناة الأهرامات ولكنها ليست علي نفس مستوي الأسرة الرابعة من الشهرة حالياً (ويؤكد حجر بالرمو بأن ملوك الأسرة الخامسة تميزوا بإقامة المعابد الكثيرة ، أما هيرودوت فأوضح أن هذه الأسرة تميزت بنزعة دينية خالصة ، ويفضل الترتيب الآتي لملوك هذه الأسرة : وسر كاف – ساحورع – نفر إير كا رع – شبسكارع – نفر اف رع – ني وسر رع – من كاو حور – جد كا رع اسسي – ونيس) ،
- (ونعرف من المصادر التاريخية أن وسر كاف هو أول ملك شيد معبد لإله الشمس رع في منطقة أبو غراب " علي بعد ميل شمال أبو صير جنوب الجيزة) ، ثم (أتي ساحورع بعد الملك وسر كاف وقد حكم طبقا لما جاء في حجر بلرمو ١٤ سنة وإن كانت بردية تورين تعطيه ١٢ سنة فقط أما مانيتون فيذكر له ١٣ عاما – – اهتم بتزيين المعابد بالمناظر والنقوش ، التي نعرف منها نشاط الملك ساحورع الحربي فنعرف أنه قام بحملات ضد الليبيين الذين حاولوا غزو الدلتا وضد البدو في الشمال الشرقي ، ونعرف أيضاً أنه أرسل أسطولاً إلي شواطئ فينيقيا – –
- لماذا كان يريد الليبيون غزو الدلتا ؟
- إنه معروف بالاستعمار الاستيطاني ولم يكفوا عن هذه المحاولات كما سنري طوال التاريخ الفرعوني وقد كان ملوك الفراعنة يلقنوهم دروساً كثيرة دون جدوي إلي أن نجحوا في النهاية عن طريق الهجرات السلمية التدريجية إلي البقاء في مصر بل ووصلوا للحكم كما سنري في عصر الاضمحلال الأخير للفراعنة ، المهم أنه أتي بعد ساحورع أخوه نفرإير كارع المعروف بكاكاي ويشير حجر بلرمو الذي تم نقشه – أغلب الظن – في عهده أنه حكم فترة عشر سنوات ، ويعطيه المؤرخ مانيتون عشرين عاماً – – أصدر نفر اير كا رع مرسوماً بإعفاء رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأعمال أخري تتصل بمشاريع الإصلاح في الدولة هذا المرسوم الذي ساعد علي تقوية الكهنة وزاد من نفوذهم وفي نفس الوقت بدأ يتقلص نفوذ الملك وأخذت سلطته تضعف وبالتالي أخذت سلطة الحكومة المركزية تضعف مما أدي فيما بعد إلي انهيار الدولة القديمة وبداية عصر الاضمحلال الأول
- أليس هذا هو الملك الذي وكز بعصاه ساق رع ور
- نعم ، ويبدو أنك قوي الملاحظة أيضاً
- بعض ما عندكم
- – أتي بعد الملك كاكاي الملك شبسكا رع وتلاه الملك نفر اف رع وكل ما نعرفه عن هذين الملكين خلاف اسميهما هو فترة حكمهما فقد حكم الأول ٧ سنوات والثاني ٤ سنوات – – بعد ذلك جاء إلي العرش الملك ني وسر رع الذي حكم فترة تقرب من ثلاثين سنة وقام ببناء هرمه ومعبده لإله الشمس رع في منطقة أبو صير) ، (الملك ونيس " أوناس " آخر ملوك الأسرة الخامسة حكم فترة ثلاثين عاماً

وهو أول ملك نقش في حجرة دفنه نصوص اصطلح علي تسميتها بنصوص الأهرام – متون الأهرام – وهي التي كشف عنها –عالم الآثار الشهير – ماسبيرو عام ١٨٨٠ في هرمه المشيد في الركن الجنوبي الغربي لسور الهرم المدرج بسقارة وهي عبارة عن مجموعة تعاويذ وصلوات وطقوس دينية مختلفة تم اختيارها بواسطة الكهنة – ويصل ارتفاع هرم ونيس الآن ١٩ متر بعد أن كان في الأصل ٤٤ متر وطول قاعدته المربعة ٦٧ متر وهو مهدم إلي حد كبير – – وانتهت الأسرة الخامسة وإن لم تترك لنا أهرامات ضخمة مثل أهرامات الأسرة الرابعة إلا أنها تركت ثروة لغوية تمثلت في نصوص الأهرام هذا بجانب مناظر الحياة اليومية الممثلة علي جدران مقابر كبار رجال الدولة) والآن حان الوقت للكلام عن موضوع مثير في تاريخ مصر وهو الثورة التي حدثت في عهد الأسرة السادسة

- وعصر الاضمحلال الأول أليس كذلك ؟

ثورة الجياع في العصر الفرعوني

- نعم ، جاءت الأسرة السادسة وهي مكونة من خمسة ملوك وقد دامت هذه الأسرة لمدة حوالي قرنين من الزمان وهذه الأسرة من الأسر التي يكتنفها الغموض والتي لا يعلم عنها التاريخ إلا القليل لكن هناك ملك تكلم عنه سليم حسن بحماس شديد وهذا الملك اسمه الملك (بيبي الأول) ويقول عنه (وهو يعد بحق من أكبر الفراعنة الذين قبضوا علي ناصية الحال في مصر في كل عصور تاريخها بحزم ونشاط) وقد عثر العلماء علي تمثال لهذا الملك آية في دقة الصنع من النحاس ويعد من أعظم الكنوز التي تم العثور عليها وعلي فكرة هذا الملك كان محبوب من شعبه لكن للاسف علي ما يبدو لم يكن يعيش حياة أسرية سعيدة لدرجة أنه أمر بمحاكمة زوجته في بعض النقوش التي وردت من آثار عصره القليلة الباقية ولم يعلم العلماء السبب الحقيقي وراء هذه المحاكمة لعدم وجود تفاصيلها في النقوش وكان لهذا الملك هرم في سقارة يمتاز في إخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات في طريق الوصول إليها
- ولكن ما الداعي لإخفاء حجرة الدفن ؟
- علي ما يبدو لقد مرت عملية الدفن بعدة مراحل ، كان أولها بالطبع المصاطب والأهرامات الواضحة للجميع علي اعتبار أنه لا يوجد أي خوف أو قلق من اقتحامها وتحدي سلطة الدولة والفرعون المؤله ، ولكن بعد أن زادت الاضطرابات والسرقة والجرأة علي المقدسات ، قرر الملوك أن يأمروا المهندسين بعمل حيل كثيرة وألغاز هندسية وعقبات حتي لا يستطيع أحد أن يصل إلي حجرة الدفن ، وكانت هذه المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فقد كانت إخفاء المقبرة بالكامل عن الأعين كما حدث في وادي الملوك ، والاكتفاء بتشييد المعابد فقط في أماكن واضحة للجميع
- بالنسبة للملك بيبي الأول كان في المرحلة الثانية بالطبع

- نعم ولكن رغم هذه التحفظات التي بُذِلت في هذا السبيل كما يقول سليم حسن فإن اللصوص استطاعوا الوصول إلي تابوت الملك المصنوع من حجر البازلت وهشموه ومزقوا جثة هذا الفرعون ومن المحتمل أن هذا التخريب البالغ قد حدث في نهاية هذه الأسرة في الفترة التي كانت الثورة متأججة في البلاد وجدير بالذكر أن بيبي الأول قام بحملة إلي فلسطين يصاحبها الأسطول وتعتبر هذه الحملة الأولي من نوعها في التاريخ حيث صاحب الحملة البرية أسطول بحري يحميها وكان سبب هذه الحملة منع هجرة الأسيويين إلي مصر بعد تجمعهم بشكل ملحوظ في فلسطين استعداداً للهجرة إلي مصر
- لهذا الحد مصر كانت مطمع للاستعمار الاستيطاني من الشرق والغرب ؟
- بالتأكيد لهذا فقد قرر بيبي الأول إحباط المحاولة من بدايتها أما الملك الذي جاء بعده وهو ابنه الكبير (مرن رع) فقد تم العثور علي مومياؤه سليمة سنة ١٨٨٠م داخل هرمه وتعتبر أقدم جثة تم العثور عليها بقيت إلي وقتنا هذا وطبعا تم العثور عليها بدون كنوز لأن القبر تم نهبه وتلاحظ عند العثور علي هذه الجثة أن الملك مات صبياً صغيراً وجاء بعده الملك بيبي الثاني أخوه وكان عهده يتميز بإرسال العديد من البعثات خارج مصر وخاصة إلي بلاد الصومال بالاستعانة بالأقزام وفي عهده قامت الثورة
- وما الأسباب التي أدت لهذه الثورة ؟
- لقد حكم هذا الملك أطول فترة ممكنة في التاريخ الفرعوني وربما في تاريخ العالم - - واستمر يحكم ٩٤ سنة وهي رواية ليس من سبيل إلي تأكيدها أو نقضها ، فلقد احتفل بالعيد الثلاثيني مرتين علي الأقل - وطال الحكم بالملك بيبي الثاني الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة المركزية فدب فيها الضعف وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم وقل ولاءهم لصاحب العرش - - واشتدت المظالم مما أدي إلي القيام بثورة ، ثورة علي كل شئ ، ثورة علي الظلم وعلي الحكم وحتي علي الآلهة - - ولقد تولي الحكم بعد بيبي الثاني ملك وملكة الأول يدعي "مرن رع" وحكم سنة واحدة والثانية الملكة "نيت أقرت " أو "نيتوكريس" التي حكمت فترة تقرب من سنتين ثم بعدها سادت الفوضي البلاد وانتهت أيام الأسرة السادسة وبانتهائها انتهت الدولة القديمة
- كيف كانت ثورة علي الآلهة ؟
- المقصود هنا ثورة علي الديانة الفرعونية نفسها ، لأن المصري في ذلك الوقت كان يشعر بالجوع والظلم دون أن ينتظر حياة سعيدة في الآخرة لعدم إمكانية بناء قبر يضمن له حياة سعيدة في الآخرة كما ذكرنا ، فأصبح مع إهمال شأنه يشعر بضياع الدنيا والآخرة معاً فثار علي كل شئ
- وماذا كانت مظاهر هذه الثورة ؟
- لقد قرر الثوار أن يفسدوا علي أصحاب القبور آخرتهم فاقتحموا جميع المقابر ونبشوها ونهبوا محتوياتها وسرقوا كل ما وجدوه

- وهل تم التأريخ لهذه الثورة ؟
- نعم وأريد أن أضع بين يديك وصف لعصر الاضمحلال كتبه أحد المصريين القدماء في مقطوعة أدبية رائعة تصف الثورة التي حدثت بعد ضعف السلطة المركزية بعد عهد الملك بيبي الثاني (من ٢١٨١ إلي ٢٠٤٠ ق م وهي تمثل الفترة التي تفصل بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة والوسطي – – ولقد استمرت ما يقرب من قرن ونصف وتشمل الأسرات من السابعة حتي نهاية العاشرة – – لقد سقطت مصر في هوة عميقة من الاضمحلال بعد موت الملك بيبي الثاني ، فانهار صرح الملكية وتدهورت سلطة البلاد المركزية وبدأ الشعب يفكر في الثورة ليتحرر من قيوده فكانت الثورة ، ثورة علي قدسية الملوك وقدسية الآلهة – – وازدهر الأدب التهذيبي في ظل هذه الثورة ويصف لنا الحكيم المصري "أيب ور" الذي يحتمل أنه عاش في أواخر عهد الملك بيبي الثاني أو أحد خلفائه الضعاف ، البلاد وصفاً ممتعاً علي الرغم مما فيه من قسوة "من وجهة نظره " فيعدد صور البؤس ويؤنب الملك الحاكم علي استهتاره وضعفه بقوله " ما هذا الذي يحدث في مصر ؟ إن النيل لا يزال يأتي بفيضانه وليس هناك من يقوم بحرث حقله ، لماذا حقاً أصبح الفقراء يمتلكون الكنوز ؟ ، إن من كان لا يملك نعلاً أصبح الآن من الأثرياء – – لماذا حقاً عم الحزن الأشراف ؟ بينما ساد الفرح والسرور الفقراء – – أنظر كيف أصبحت نساء الأشراف متسولات ، ومن لم يمتلك خرقة ينام عليها أصبح اليوم وهو صاحب سرير ، ومن كان يفتقد الرغيف أصبح الآن يمتلك مخزناً من الغلال ، انظروا : إن من كان لا يمتلك ثوراً أصبح الآن من أصحاب القطعان ") تأمل بنفسك هذه المقطوعة مرة أخري لتكتشف الكثير لأن ما يأسف عليه هذا الأديب كان يحدث عكسه تماماً قبل الاضمحلال ،
- لا أدري لماذا هو حزين كل هذا الحزن علي أن الفقراء أصبحوا أغنياء
- لقد لاحظت معي عند تأمل ما كتبه الحكيم المصري أنه مستاء لأن الفقراء وعامة الشعب أصبحوا أغنياء ومعهم أموال كثيرة وأن الملك وحاشيته وكبار رجال الدولة يعيشون حياة سيئة ومن هنا يتضح أن الطبقة العليا في الدولة هي الجديرة بالحياة الكريمة بل وبالدفن الكريم أيضاً إذا جاز التعبير أما عامة الشعب فيري المؤرخ المصري القديم أنه من البؤس علي حد تعبيره أن يراه يتنعم بالحياة وهذا شئ محير جداً
- لاحظ أيضا أن هذا الحكيم وأمثاله هم أحد أهم مصادر التاريخ الفرعوني وبالتالي من الممكن أن يكونوا قد حذفوا فترات التوحيد وظهور الأنبياء وغياب ألوهية الفرعون وفقدانه السيطرة علي أنحاء مملكته واعتبروها فترات مظلمة من وجهة نظرهم بالطبع وربما والله أعلم تكون هذه الفترات هي ومضات النور القليلة التي عرفت فيها مصر دين الله سبحانه وتعالي ثم تعود وتترك عبادة الخالق وتعبد المخلوق {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي } (٣٨) سورة القصص
- بقي أن نتحدث عن قصة القروي الفصيح الشهيرة والتي تعبر أيضاً عن فترة الاضمحلال

- وما هي قصة القروي الفصيح

قصة القروي الفصيح

- عندما كتب المظلوم شكواه بأسلوب رائع فلم يتم الاستجابة لها حتي يتم الاستمتاع بالمزيد من الشكاوي الرائعة فهي قصة طريفة من العصر الفرعوني وقد كتب أحداثها أديب من العصر الأهناسي ويسمي هذا العصر بالعصر الإهناسي نسبة إلي مدينة إهناسيا حيث كانت مكان عاصمة الدولة في ذلك العصر بدلا من منف وطيبة وغيرهم ، والقصة في حد ذاتها بسيطة في وقائعها إلا أنها تمتاز ببلاغة الأسلوب ويبدو أن الهدف ليس القصة نفسها بل الشكاوى التسعة التي ناقش فيها القروي النظم الاجتماعية والفوارق بين الطبقات كما طالب بمحو الظلم وإعطاء كل ذي حق حقه وحماية الفقير من الحاكم الغني الظالم ، وتعود أحداثها إلي عصر الملك نب–كاو–رع أحد ملوك أهناسيا في الأسرة العاشرة الفرعونية
- لقد شوقتني لسماع أحداث هذه القصة
- تتلخص مقدمة هذه القصة في أن قروياً يدعي خون أنبو ، أحس أن مخازن الغلال في منزله كادت تفرغ مما فيها ، فاستأذن زوجته في السفر إلي العاصمة أهناسيا للحصول علي المزيد من الطعام والغلة التي تكفي أولاده وطلب منها أن تعد له ما يكفيه من زاد الطريق وخرج هذا القروي من قريته حقل الملح بالقرب من وادي النطرون يحمل علي حميره بعض السلع التي اشتهرت بها قريته وكان عليه أن يخترق في طريقه إلي العاصمة ضيعة رنسي مرو مدير القصر الفرعوني ، وكان أحد عماله ويدعي جحوتي نخت طماعاً فلما رأي حمير خون أنبو بمنظرها الخلاب وما عليها من سلع ثمينة متنوعة طمع فيها ، ففكر في حيلة للاستيلاء عليها بطريقة تخدع القروي ويستسلم لها ، وقد أمر خادمه بأن يسرع بإحضار بعض قطع من قماش الكتان وأسرع فمدها علي الطريق الضيق بين ماء الترعة وحقل القمح ، فاحتار القروي إين يتجه فلم يكن أمامه إلا أن يميل بحميره فيسير علي الجانب الذي به القمح فصاح فيه جحوتي نخت وبالطبع فقد انتهز الحمار الفرصة التي انشغل فيها صاحبه بالكلام وملأ فمه بحزمة من القمح وحينئذ كشف جحوتي نخت عن مؤامرته الدنيئة للاستيلاء علي حمير القروي بحجة أنه أكل قمحه
- واستولي عليه بالفعل ؟
- نعم هكذا تقول القصة ثم اتجه القروي إلي الجنوب ليلتقي رئيس الحجاب رنسي مرو بعد أن ظل عشرة أيام كاملة يتوسل إلي جحوتي نخت ليعيد إليه حقه ، وقد استمع كبير الحجاب إلي الشكوي وسرعان ما نقلها إلي جلالة الملك نب كاو رع فسارع الملك بدوره نتيجة إعجابه ببلاغة هذا القروي بإصدار توجيهاته إلي كبير الحجاب بأن يلزم الصمت حتي يستمر القروي في شكواه حتي يمكن للملك الاستمتاع ببلاغة القروي وفصاحته في التعبير
- وهل يغني الإعجاب بالفصاحة عن الطعام ؟

- لقد أصدر الملك توجيهاته في ذات الوقت بأن يتولي رنسي تدبير حياة أسرة القروي بإرسال المعونات الغذائية إليهم دون أن يعلم القروي شيئاً عن ذلك ، وفي نهاية القصة اقتص الملك من الظالم بأن أخذ كل ما كان يملكه وأعطاه لذلك القروي الفصيح ولم يكتف بأن رد إليه ما سرق منه وهذا يعني أنه قد عوضه عما أصابه من ألم
- فماذا كان يقول القروي في شكواه ؟
- يقول القروي مخاطباً رنسي ليحثه علي العدل في شكواه الأولي :إذا نزلت إلي بحيرة العدالة من المؤكد أنك ستبحر فيها مع ريح مواتية ، ولن يقتلع شراعك ، ولن تتقدم سفينتك ببطء ، ولن يصيب ساريتك الضرر ، ولن تنكسر عوارض السواري ، ولن تجرفك المياه ولن تعاني من مشاق النهر ولن تشاهد وجوهاً مرعبة ، بيد أن الأسماك ستتجه إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة لأنك أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ، ومئزر لمن فقد أمه ، أيها الخالي من كل حسد ، الرجل العظيم المجرد من الشراسة ، الذي يقضي علي الكذب ويوقظ الحقيقة تعال علي صوت من يتحدث إليه وأجهز علي الشر ، أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذي يمتدحه الذين يمدحون ، اطرد ضيقي ، لاحظ أنني أرزح تحت وطأة حزني ، لقد وهنت بسببه
- أسلوب بليغ بالفعل
- لقد اختصرت لك القصة من كتاب الخطاب السياسي في مصر القديمة للدكتور مصطفي النشار –أستاذ الفلسفة القديمة
- حسناً فهل هناك ما يستحق أن يُذكر أيضاً من عصر الأضمحلال الأول ؟
- نعم هناك نصائح مشهورة من ذلك العصر تسمي نصائح الملك خيتي الرابع لابنه وسوف أقرأها لك من كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – والمراجعة العلمية د ناصر الأنصاري
- وكيف وصل الملك خيتي الرابع للحكم في ظل كل هذه الفوضي والاضمحلال ؟

<u>نصائح الملك خيتي الرابع لابنه</u>

- كان الملك خيتي الأول من أبرز من حكموا مصر في فترة الاضطرابات وتعدد الأسر الفرعونية وتعدد الحكام (خلال عصر الاضمحلال الأول) فقد استطاع الأمير خيتي حاكم الإقليم العشرين من أقاليم الصعيد في ظل الاضطرابات التي سادت الفترة الانتقالية الأولي من نهاية الأسرة السادسة حتي قيام الأسرة الحادية عشرة ، استطاع أن يؤسس الأسرة التاسعة الفرعونية حوالي سنة ٢١٣٤ قبل الميلاد ، ويتخذ من عاصمة إقليمه وهي مدينة أهناسيا عند مدخل الفيوم عاصمة لمصر ، ولقبه الأثريون باسم الملك خيتي الأول ، ويسمي هذا العصر بالعصر الإهناسي ، أما الملك خيتي الرابع (واح كا رع) فقد جلس علي عرش أهناسيا خلال الأسرة العاشرة ، وكان ملك حازم ، ومشهور بوصيته لابنه (مري كا

رع) تلك الوصية التي تلقي الضوء علي ذلك العصر ، والتي يعطي فيها خلاصة تجاربه لابنه حتي لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ويبدأ هذه النصائح بتحذير ابنه من أي تابع له يكثر من الكلام وراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس ، ويوصيه بأن يكون فناناً في الحديث ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة ، وألا يفعل الشر وأن يتحلي بالصبر ويترك وراءه ذكري حسنة من حب الناس له ، ويحذر ابنه من الطمع ، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده وأن يعلي من شأن رجاله ويقويهم ، وينصحه باتباع الحق وإقامة العدل ، ويحذره من ظلم الأرملة ، ويوصيه بألا يحرم شخصاً من ثروة أبيه ، وألا يطرد الموظفين من وظائفهم وألا يعاقب أحداً دون خطأ وينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه وأن يمنحهم الحقوق ، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ، ويحذره بشده أن يميز ابن شخص غني علي ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية ، ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وتقديم القرابين – – – ، ويختم نصائحه بحث ابنه علي طاعة الإله والخوف منه ، – – ويذكره بألا ينسي آخرته وأن يعمل لليوم الآخر وأن يذكر دائماً نعم الإله عليه

- إنها نصائح قيمة جداً بلا شك
- تلك كانت نصائح ثالث ملوك الأسرة العاشرة الفرعونية إلي رابع ملوك تلك الأسرة
- ولكن كيف انتهي عصر الاضمحلال الأول وبدأ عصر الدولة الوسطي ؟
- تعتقد في رأيك ما المتغير الذي يجب أن يحدث في مثل هذه الأحوال لتتغير ؟
- تقصد ظهور شخصية بارزة علي مسرح الأحداث ؟
- بالتأكيد ، فالأوضاع قد وصلت لمرحلة تحتاج لشخص من وزن مينا وزوسر وسنفرو
- ومن يكون هذا الشخص الذي بدأ عصر الدولة الوسطي وانتهي عصر الاضمحلال الأول عند ظهوره ؟
- إنه منتوحتب الثاني ولكنها قصة تستحق أن تروي ، ولكن قل لي بماذا كنت ستشعر إذا كنت قد ولدت وعشت في عصر الاضمحلال الأول ؟
- كنت علي الأرجح سأموت قبل أن أعرف ما حدث
- هذه إجابة رائعة
- لقد عرفت أنها ستروقك ، المهم ، هات ما عندك مشكوراً من البداية

منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطي

- القصة بدأت بظهور عائلة محترمة في طيبة وقد ذكرنا أن عصر الاضمحلال الأول من الأسرة السابعة إلي العاشرة وكانت الأسرتين السابعة والثامنة تحكمان مصر من (منف) أما التاسعة والعاشرة فمن (إهناسيا) وكلاهما في الوجه البحري في شمال مصر وكانت طبعاً الأقاليم والمقاطعات شبه مستقلة عن الحكومة المركزية ، ووسط كل هذه الظروف وأثناءها ظهرت عائلة محترمة في الجنوب وتحديداً في

مدينة طيبة التي يقال عنها أنها مدينة الأقصر الحالية وكان عميد هذه العائلة رجل قوي وكان حاكم لهذه المنطقة وكان اسمه (إنيو تف) وظل هذا الرجل وكل من جاء بعده في هذه العائلة علي خلاف واضح مع ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا بل وقد وقعت بعض الحروب بين الطرفين وقد تم توسيع نطاق حكم هذه العائلة الحاكمة حتي شمل خمسة أقاليم في جنوب مصر وكان هذا في عهد (إنيوتف الثاني) الذي حكم طيبة لمدة خمسين عاماً كما يقول أحمد فخري ثم تلاه في هذه العائلة إنيوتف الثالث ثم (منتو حوتب الأول) ثم (منتو حوتب الثاني) وهنا يتوقف التاريخ ويغير مجراه فقد جاء قائد من مؤسسي الدول ومن الشخصيات الفذة البارزة وهو منتو حوتب الثاني الذي لم يحكم الجنوب فحسب مثل سابقيه وجدوده ولكنه استطاع الإطاحة بملوك الشمال الضعفاء في إهناسيا ليصبح مؤسس الأسرة الحادية عشرة بل مؤسس الدولة الوسطي بالكامل ، وإذا اعتبرنا أن مينا مؤسس الدولة القديمة فإن منتو حوتب الثاني هو مؤسس الدولة الوسطي وكان ذلك حوالي سنة ٢٠٥٢ ق م

- مينا قد وحد القطرين أما منتوحتب الثاني فقد وحد جميع مقاطعات مصر المفككة
- بالتأكيد ، ويقول عنه أحمد فخري في كتابه الرائع مصر الفرعونية (ولهذا يري بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولي من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، لكن الإنصاف في البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أي قبل ذلك باثنين وثمانين عاماً) ويتضح من كلام الأستاذ أحمد فخري أن الأسرة الحادية عشرة الفرعونية كانت علي التوازي مع الأسرة العاشرة ولكن إحداهما في الجنوب والأخري في الشمال ، وهكذا عادت الحكومة المركزية القوية وسيطرت وأعادت كل شئ إلي أصله وعاد الفن والبناء والمعمار وعادت الأمجاد الفرعونية ومكتوب في موسوعة د ناصر الأنصاري (حكام مصر) إن بداية الأسرة الحادية عشرة سنة ٢٠٦٠ ق م واعتبر أن إنيوتف الكبير الأول هو أول ملك في هذه الأسرة واسمه في الموسوعة (انتف الأول) أو (سهرتاوي) أما منتوحتب الثاني فقد ذكره علي أنه الملك الخامس في هذه الأسرة المكونة من ثمانية ملوك وآخرهم الملك منتوحتب الخامس وعلي العموم هذه الأسرة كانت تمهيداً للأسرة الثانية عشرة وهيئت لها الجو للاستقرار والبناء ،
- وهل شعر الشعب بالرخاء في ذلك العصر ؟
- لقد شعر الشعب بالأمان والاستقرار وهو أهم ما يعنيه في هرم الحاجات الذي ذكرناه
- ولا يوفر الأمن والاستقرار والعدل إلا الحكام الأقوياء بالطبع
- لقد قال أحمد فخري (وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)
- يبدو أن المصري دائماً يترك أمر سعادته بين أيدي حكامه

- وقد تم العثور علي بعض الرسائل المكتوبة علي أوراق البردي تنتمي إلي عصر الأسرة الحادية عشرة وتحتوي عند تأملها علي معلومات كثيرة عن هذا العصر وهي من الآثار المشهورة بين المهتمين بتاريخ الفراعنة ومعروفة باسم رسائل الكاهن الماكر
- وعلي ماذا كانت تحتوي هذه الرسائل ؟

رسائل الكاهن الماكر

- ضيفنا الآن في الحوار هو (الكاهن المزارع "حقا نخت " وهو شيخ شحيح ماكر اضطر إلي السفر إلي الشمال وترك بقية عائلته في طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر الذي كتب له عدة رسائل "تم العثور عليها " تعطينا صورة طريفة من صور المجتمع في هذه الفترة) ، وهذه مقتطفات قليلة جدا من رسائله بدون تعليق : (كيف حالكم في معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم – – إنكم أشبه بمن يأكل حتي يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعاً في البلاد كلها ، لقد نزلت إلي الجنوب وحصلت علي مؤونة لكم بقدر ما استطعت ، أليس النيل منخفضاً جداً ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك – – فإنكم ترون أنني تمكنت من إعالتكم حتي اليوم – – إن نصف الحياة خير من الموت الكامل – لا يوجد أحد في أي مكان يحصل علي مثل هذه المؤن – – احرثوا الأرض ولا تكفوا عن العمل – ما أسعدكم لأني أعولكم – –)
- يبدو أنه لا يخلو عصر من وجود البخلاء ، ولكن كيف انتهي عصر الأسرة الحادية عشرة وبدأ عصر الأسرة الثانية عشرة ؟
- عندما تُذكر الأسرة الثانية عشرة يُذكر مؤسسها بالطبع الملك امنمحات الأول ، فلقد ساد عدم الاستقرار نهاية عصر الأسرة الحادية عشرة لمدة حوالي سبع سنوات بعد أنتهاء عصر الملك منتوحتب الثالث الذي كان آخر الملوك الأقوياء في هذه الأسرة ويبدو أن امنمحات الأول قد استغل ذلك لتأسيس أسرته
- وكيف اكتسب شرعيته في الحكم وهو ليس من البيت المالك
- هذا الموضوع كان متيسراً أيام الفراعنة ويتلخص في اختراع نبوءة ينسبونها للآلهة تبشر بتولي شخص معين حكم مصر أي أن تعيينه بإرادة الآلهة وسنري ذلك أكثر من مرة أثناء حديثنا عن العصر الفرعوني وجدير بالذكر أن أشهر نبوءة في تاريخ الفراعنة هي المكتوبة علي لوحة تسمي لوحة الحلم بين مخالب أبو الهول وموجودة حتي الآن وسوف أحدثك عنها عند الوصول إليها أما ما حدث بالنسبة لبداية الاسرة الثانية عشرة فقد قام آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة علي ما يبدو بتكليف وزيره (إمنمحات) بإحضار الأحجار اللازمة لتشييد المعابد وعمل التابوت الخاص به فقام امنمحات هذا بإعداد حملة كبيرة جداً إلي وادي الحمامات لقطع الأحجار وأخذ معه ما يقرب من عشرة آلاف شخص وطبعاً هذا العدد كان مبالغ فيه جداً ولا يتناسب مع طبيعة المهمة لأنه كان قد قرر إنهاء حالة

الفوضي والإنقلاب علي الملك وتأسيس أسرة حاكمة جديدة باستخدام هذه القوة الكبيرة التي أصبحت تحت قيادته

- علي أي حال يبدو أن امنمحات لم يكن شخصية عادية أليس كذلك ؟

الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية

- بالتأكيد فقد قال عنه أحمد فخري : لم يكن امنمحات إلا رجلا عصاميا من الشعب رفعه ذكاءه وجده إلي المكان الذي يستحقه - - وكان من بين أساليب رده علي خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبوءات نفرتي المحفوظة الآن في متحف لينينجراد والتي أطنبت في وصف ما سيحل بمصر من فوضي وأن إنقاذها سيتم علي يدي ملك سيأتي من الجنوب يسمي أميني " امنمحات" ابن امرأة من النوبة ويولد في الصعيد سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ويقع الليبيون صرعي أمام لهيبه - - ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة - - وطالت الأيام بأمنمحات حتي وصل حكمه إلي ثلاثين عاما ولم يقدر له أن يموت وهو في شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو في قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولي عهده وشريكه في الملك سنوسرت ، في حملة علي ليبيا ودبروا مقتله – ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما من بردية شخص يسمي سنوهي ، أما البردية الثانية فهي معروفة باسم نصائح امنمحات لابنه وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها علي لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلي ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك - - وكانت من أحب الموضوعات الأدبية إلي قلوب المصريين في الدولة الحديثة من الأسرة ١٨ حتي الأسرة ٢٠ وكانت موضع دراسة كثير من العلماء
- هذا يعني أن الفراعنة كانوا يهتمون بدراسة تاريخهم وما حدث في الأسر السابقة
- بالتأكيد (وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع) كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار ، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر في عهد هذه الأسرة الأدب والفن
- يبدو أن هذه الأسرة كانت مسيطرة تماماً ولها العديد من الإنجازات
- نعم وسوف أقرأ لك بعض إنجازات هذه الأسرة لأنها تستحق بالفعل ويقول الرافعي عن هذه الأسرة في كتابه تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة : وتمتاز هذه الأسرة عامةً بأنها نزلت قليلاً عن السلطة القدسية التي كانت لملوك الدولة القديمة ، وتقربت إلي الشعب بإقامتها منار العدل ، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الإقتصادية والعمرانية التي زادت من رخاء الشعب ، وقد استمر حكم هذه الأسرة

ما يقرب من مائتي عام ، تقدمت البلاد تقدماً عظيماً في شتي النواحي ، وكانت مصر في عهدها أقوي دولة في المنطقة ، وكان الملك سنوسرت الأول ثاني ملوك هذه الأسرة ، وقد أقام مسلة شهيرة باقية إلي الآن (بالمطرية) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً ، وهي قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر ، وقد أقامها في مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما في عين شمس (التي يسميها اليونانيون هليوبوليس) – مدينة أون – وهي أقدم مسلة قائمة في مكانها الأصلي ، ويقول الدكتور أحمد بدوي في كتابه (موكب الشمس ج٢ صفحة ١٣٠) إن مسلة عين شمس إحدي خمس مسلات مازالت في مكانها الأصلي وأما باقي مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوي السياسي إلي ما وراء البحار إلي لندن وباريس ونيويورك وروما واستانبول وفي روما وحدها مسلات تسع

- الضعف والهوي السياسي ، يا له من تعبير ، وتخيل معي إذا كان الفراعنة سيعرفون إلي أين ستذهب آثاراهم هل كانوا سيشيدونها ؟
- بل تخيل إذا عاد أحدهم إلي قبره كما يدعون في يوم من الأيام
- سيجد جميع محتويات القبر في جميع متاحف العالم بالتأكيد ، المهم فماذا عن باقي مشروعات هذه الأسرة ؟
- من أهم المشروعات العملاقة لهذه الأسرة بلا شك مشروعات الملك امنمحات الثالث التي انبهر بها المؤرخ هيرودوت المعروف عندما حضر إلي مصر وكتب عنها وبمناسبة الحديث عن امنمحات الثالث فإنه توجد حاليا بمتحف اللوفر بفرنسا رأس تمثال رائعة لهذا الملك
- هيرودوت هذا هو الذي قال قولته الشهيرة أن مصر هبة النيل فماذا قال عن هذه المشروعات

عندما انبهر المؤرخ اليوناني هيرودوت بمشروعات الملك امنمحات الثالث

- ورد بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين صفحة ٨٠ وما بعدها وتحت عنوان امنمحات الثالث حوالي ١٨٤٢ قبل الميلاد : حكم امنمحات الثالث مصر وقد سمي باسم ني ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمساً وأربعين سنة مرت علي مصر في هدوء وسلام وملئت بالمشاريع الكبري العمرانية ، كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذي ابتكره للوجه البحري بأن اتخذ من منخفض اقليم الفيوم الذي ينخفض في بعض أجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدماً خزاناً للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية علي ذلك فشيدوا علي الفتحة في سلسلة الجبال التي تربط وادي النيل بمنخفض الفيوم سداً عظيماً – سد اللاهون– فنشأت هذه البحيرة الهائلة في التاريخ التي عرفت باسم بحيرة موريس والتي كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق أشبه بخزان أسوان أو السد العالي في عصرنا الحديث ، وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فهو أنقذ الفيوم من الغرق الذي كانت تتعرض له كل عام ، واستصلح أراضي زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحاريق ، ومن الأعمال العمرانية العظيمة التي تنسب إلي امنمحات الثالث ، القصر العظيم

الذي اطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت – قصر التيه – وكان طوله يبلغ ألف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهداً دينياً وإدارياً ، وقد وصف هيرودوت هذين الأثرين ونعني بهما بحيرة موريس وقصر اللابيرانت ، فقد رآهما رأي العيان ووصف ما رأي عامة وسجل انبهاره كما ورد في كتاب هيرودوت يتحدث عن مصر لمحمد صقر خفاجة

- فماذا قال هيرودوت ؟
- يقول : إن اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان ، إذ لو قدر لإمرئ أن يجمع معرضاً للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون لبدت عملاً أقل من هذه اللابيرانت – – – – ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس فيقول : ومع أن اللابيرانت علي هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة ببحيرة موريس والتي بني اللابيرانت بالقرب منها تثير إعجاباً أشد ، وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم وكيف يصل إليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ثم يرجع منها إلي النيل مدة ستة أشهر ثانية ، وهي القناة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف ، كما تحدث هيرودوت عن تمثالين لامنمحات الثالث ، وفترة حكم امنمحات الثالث حل فيها النعيم والأمن والسكينة علي البلاد ، حتي ترنم القوم بالفرعون قائلين : أنه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظيم ، لقد زاد القطرين قوة ، كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ، هو الذي يوزع الخيرات علي تابعيه ، هو المغذي لخلفاءه ، هو الفداء وفي فمه الخير
- يبدو أن الحاكم هو كل شئ في مصر وكلما قرأت لي أكثر كلما يتأكد هذا المعني ، مع أن الشعب هو الذي يصنع كل شئ ولكن لابد أن تأتيه المبادرة من أعلي وبقوة ، فالحاكم القوي كل ما عليه أن يرغب فقط في فعل أي شئ
- بالتأكيد إن رغبة الحاكم في مصر تلعب الدور المحوري إن لم يكن الدور الوحيد في تنفيذ أي مشروع ولكن من الإنصاف أن نقول أن الحاكم القوي إذا كان عادلاً في نفس الوقت يكون ذلك من حسن حظ الشعب فهو لا يملك تغييره علي أي حال
- قد يكون ما تقوله صحيحاً ولكن هناك اعتبارات أخري في غاية الأهمية والخطورة وهي أن مصر كانت في ذلك الوقت دولة قوية ذات سيادة بل أقوي دولة في المنطقة وبالتالي فإن حاكمها كان لا يخضع لأي ضغوط خارجية تفرض عليه اتخاذ قرارات معينة ليست نابعة منه شخصياً
- بالفعل معك كل الحق فمصر في ذلك الوقت لم تعرف التبعية ولم يتم السيطرة عليها أو علي حكامها بأي صورة من الخارج فكانت كل مشاكلها واضطراباتها تحدث داخلها فقط فإذا حكمها حاكم قوي وعادل لا يوجد ما يمنعه علي الإطلاق من فعل ما يريد دون أن يضع في اعتباره الموقف الدولي أو توازنات من أي نوع في المنطقة أو أي شئ من هذا القبيل ، كما أن كل ما يجمعه الحاكم

وحاشيته وكهنته وكبار رجال دولته لا يخرج من مصر بل يتم إنفاقه داخلها ، وبالتالي فإن جميع خيرات مصر تبقي داخل مصر

- **حسناً ، فهل توجد إنجازات أو مواقف تاريخية أخري مهمة لهذه الأسرة ؟**

<u>في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرانيت</u>

- **حدث موقف تاريخي نادر عندما قرر الملك سنوسرت الثالث ١٨٧٤–١٨٥٥ ق.م. إجراء أعمال حربية في النوبة لتأمين حدود مصر الجنوبية فقد وجد عقبة كبيرة أمام سفن الأسطول ، فشق لأسطوله طريقاً بين صخور الشلال الأول ، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائي في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدماً بعرض أربعة وثلاثين قدماً وعمق ستة وعشرين قدماً ، وحمل علي النوبة عدة حملات وطدت فيها السلطة المصرية ، وشيد حصنين متقابلين في آخر الحدود الجنوبية للدولة علي شاطئ النيل ، ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية الآن تشهد لمصر في تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاية في اختيار مواقع الدفاع الحصينة ، والمقدرة علي تشييد الحصون المنيعة ، وكان سنوسرت الثالث من أهم ملوك الأسرة الثانية عشرة الفرعونية بالدولة الوسطي ، وقد نصب لوحته المشهورة التي يتحدث فيها إلي المصريين عن الكفاح الوطني ويحثهم عليه**
- **إن هؤلاء الملوك كانوا حريصين علي كتابة وتسجيل أمجادهم فماذا كتب علي هذه اللوحة ؟**
- **بعض من المكتوب علي اللوحة نقلاً عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تاليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٥٤: (– – ولقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي ، وزدت في مساحتها علي ما ورثته ، وإني ملك يقول وينفذ ، وما يختلج في فؤادي تفعله يدي ، وإني طموح إلي السيطرة ، وقوي أحرز الفوز ، ولست بالرجل الذي يرضي بالتقاعس عندما يعتدي عليه ، أهاجم من يهاجمني حسبما تقتضيه الأحوال فإن الرجل الذي يركن إلي الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو ، والشجاعة هي مضاء العزيمة – –)**
- **يقول وينفذ أم يقول والشعب هو الذي ينفذ ؟**
- **علي أي حال لن ينفذ أحد أي شئ إلا بقرار من الفرعون ، وعموماً فقد حكمت هذه الأسرة ما يقرب من قرنين ، وتتكون من مجموعة من الملوك اشتهروا باسم امنمحات وسنوسرت علي التوالي وهذا هو الترتيب المفضل لملوك هذه الأسرة : امنمحات الأول – سنوسرت الأول – امنمحات الثاني – سنوسرت الثاني – سنوسرت الثالث – امنمحات الثالث – امنمحات الرابع – الملكة سبك نفرو وقد امتاز عصر هذه الأسرة بالرقي في الذوق الفني كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار مثل فلسطين وسوريا وبعض جزر البحر المتوسط مثل قبرص وكانت الدول التي**

ارتبطت بمصر بعلاقات صداقة هي المستفيدة أكثر بهذه العلاقات بطبيعة الحال لأن مصر في ذلك الوقت كانت أعظم الأمم ثقافة وقوة وحضارة في بلاد الشرق القديم علي حد تعبير أحمد فخري

- أو كما ورد في الأغنية الشهيرة طوف وشوف لكوكب الشرق أم كلثوم : كان نهار الدنيا لسه ما طلعش ، وهنا عز النهار
- كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر الأدب والفن في عصر هذه الأسرة ، وقد كتب عنها أيضاً المؤرخ والأثري الكبير د أحمد فخري في كتابه الممتع مصر الفرعونية وتحديداً في الصفحة رقم ٢٤٠ (وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)
- أعتقد أنك ذكرت هذا من قبل ، فماذا حدث لهذه السعادة والحضارة ؟

<u>نهاية غامضة للأسرة ١٢ وعصر الاضمحلال الثاني</u>

- تخيل نفسك تعيش في ذلك العصر فبالتأكيد ستشعر أن هذا الرخاء دائم ولا نهاية له وستموت بالتأكيد قبل أن تعرف أن مصر قد تعرضت لفترة ضعف ونهاية غامضة للأسرة ١٢ وبداية عصر الاضمحلال الثاني
- وكيف حدث ذلك ؟
- عصر الاضمحلال الثاني يبدأ بنهاية الأسرة الثانية عشرة ومع بداية الأسرة الثالثة عشرة وأصل الحكاية أن البيت الملكي للأسرة ١٢ لم يعد به رجال علي ما يبدو فتولي الحكم إمرأة اسمها الملكة (سبك نفرو رع) ويبدو أن ما حدث في هذه الفترة أيام نهاية حكم هذه الملكة غير مدون بدقة في كتب التاريخ ويكاد يكون مجهول فأنا أمامي الأن كتابين أحدهما الجزء الرابع من موسوعة سليم حسن والأخر كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري وكلاهما لا يجد سبب واضح لظهور أول ملك في الأسرة ١٣ فمثلاً يقول سليم حسن في صفحة ٤ الجزء الرابع (لم تصل إلي أيدينا معلومات وثيقة عن حال نهاية حكم الملكة سبك نفرو رع آخرة ملوك الأسرة الثانية عشرة ويظن بعض المؤرخون أنها لابد قد تزوجت الملك " سخم رع خوتاوي " وأنه بزواجه منها أصبح ملكاً شرعياً ولكن ليس لدينا ما يدعم ذلك الزعم) بينما في كتاب أحمد فخري صفحة ٢٢٩ (– – فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذي قضي علي حكم تلك الأسرة وربما علي الملكة أيضاً فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة ما لدينا من وثائق) ،
- أي أن السبب الحقيقي غير معروف والمهم أن الملك (سخم رع خوتاوي) وصل للسلطة

- نعم ، وعلي فكرة اسمه في موسوعة حكام مصر (خوتاوي رع) والغريب أن ملوك الأسرتين ١٣ ، ١٤ مدرجين معاً بدون فاصل في موسوعة حكام مصر وهناك العديد منهم حكموا مصر لفترات قصيرة جداً مما يدل علي أن مصر كان يسودها عدم الاستقرار لكن لفت نظري إن اسم الملك (نحسي) مكتوب في آخر قائمة ملوك الأسرة ١٤ وجاءت بعد اسمه مباشرةً أسماء ملوك الهكسوس ومن المحتمل أن هذا الملك كان علي صلة بالهكسوس وموالي لهم في تقدير بعض المؤرخين لأن من ألقابه التي وجدت في الآثار الفرعونية لقب (حبيب "ست" رب أواريس) والإله (ست) هذا هو الإله المعبود عند الهكسوس أما مدينة (أواريس) فهي عاصمة ملكهم في مصر ،
- يبدو أن هذه الفترة ليست واضحة تماماً
- نعم حتي أن عدد ملوك هاتين الأسرتين يكاد يكون غير معلوم بالرغم أن هناك أثار كثيرة وجدت من هذه الفترة ويبدو أن الهكسوس كانوا موجودين فعلاً في مصر أيام حكم فراعنة هذه الفترة ولكن بشكل غير رسمي لأن سليم حسن يعتقد أن الهكسوس تسربوا إلي مصر ببطء وعلي مهل ونشروا ثقافتهم ومبادئهم ودرسوا البلاد جيداً ثم انقضوا عليها بجيش جرار سيطروا به علي الدلتا فقط في البداية ثم امتد سلطانهم إلي مصر الوسطي حتي تمكنوا من البلاد وحكموها لمدة أسرتين ١٥ ، ١٦ وطبعاً لن أشغل بالك يا عزيزي بما تم من أحداث خلال فترات حكم الأسرتين ١٣ ، ١٤ لسببين ، أول سبب هو عدم وجود معلومة مؤكدة وواضحة تماماً مكتوبه عنهم والسبب الثاني لأنها فترة أجمع المؤرخون علي أنها عصر اضمحلال وضعف
- ولكن ما هي حكاية الهكسوس وأصلهم وفصلهم ومن هم ومن إين قدموا وما مدي تأثر البلاد بهم ؟ لأنني سمعت أنه قد حدث تطور كبير في ثقافة المصريين بعد تعرضهم لهذا الغزو ، كما أريد أن أعرف معلومات عن مظاهر الضعف في مصر قبل وصول الهكسوس إذا كانت هذه المعلومات متاحة لديك لنستفيد من الدروس وإلا فما الفائدة ؟
- لقد وصف سليم حسن بعض مظاهر الضعف في الأسرة ١٣ فكتب ما يلي : (- - - غير أن هذه الهزة القاسية - - لم تحدثنا النقوش الباقية حديثاً شافياً يجعلنا نصل إلي كنهها، ومع ذلك فإنا نلمس حقيقتها من اضطراب البيت المالك فما يكاد الفرعون يستقر في عرشه حتي يغتصب منه الملك ويطرد ثم يتلوه غيره وتتجدد المأساة ، مما يدل علي أن البلاد كانت منحدرة نحو الخراب والتدهور المشين ، ولا يبعد أن يكون الملوك الذين يموتون علي فراشهم ميتة طبيعية قلائل جدا) كما أشار سليم حسن عن انتشار ظاهرة بيع الوظائف الحكومية فقال (- - علي حسب ما تسمح به الوثائق التي في متناولنا يكشف لنا بعض الشئ عن الحالة الحقيقية لهذه الأزمة التي ارتسمت في عهد الأسرة الثالثة عشرة، وهي أن كبار الموظفين الخاضعين للتاج، وبخاصة الضباط منهم الذين كانوا وقتئذ يغتصبون العرش ، وكانوا يتشاحنون فيما بينهم ، وكان كل منهم يطمح إلي أن يكون الفائز فكان يحل الواحد

منهم مكان الآخر دون أن يفوز مغتصب بأن يضمن لنفسه مركزا ثابتا أو يفلح في تأسيس أسرة قوية الأركان مدعمة البنيان ، هذا إلي أن كبار رجال الدولة كانوا يبيعون وظائفهم كما تباع السلع ، فلا غرابة في أن يكون العرش كذلك يباع ويشتري لمن في يده قوة وجاه) (وعلي أية حال فإن ظاهرة بيع وظيفة حكومة بلد من بلدان القطر تدل علي تفكك أواصر الروابط الحكومية في البلاد ولا غرابة إذن في أن نشاهد ذلك في عهد الأسرة الثالثة عشرة التي كان ملوكها علي جانب عظيم من الوهن والضعف مما أدي إلي غزو البلاد علي أيد الهكسوس)

- من هذا الكلام يبدو أن هناك أشخاص من كبار رجال الدولة ومن الضباط كانوا يعتقدون أنهم من مؤسسي الدول ولكنهم كانوا دون المستوي ففشلت كل محاولاتهم في السيطرة علي الأمور وطبعا لا وجود للشعب في هذا الصراع بكل تأكيد
- يبدو ذلك بالفعل
- ولكن هل يوجد حساب تقريبي لمدة الاضمحلال ؟
- د سيد توفيق حسب مدة عصر الاضمحلال الثاني تقريباً فكتب ما يلي : (تعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة وطوال قرنين أي حتي الأسرة السابعة عشرة للضعف وللانحلال واجتازت فترة أخري مظلمة
- عفوا للمقاطعة ولكن لماذا وصف الفترة أنها مظلمة مع عدم توفر معلومات كافية عنها ؟
- لا أدري ما هو المقصود بالفترة المظلمة هل لأن الفرعون فقد سيطرته وعبوديته في مصر بالكامل أم لعدم وجود آثار رائعة باقية من تلك الفترة أم لأن الشعب المصري تخلص من قهر الحكومة المركزية أم لعدم وجود استقرار للعرش أم لوجود احتلال لا ندري هل كان أرحم بالشعب من الفرعون نفسه أم كان أكثر قسوة ويبدو أن مفهوم العصور المظلمة والعصور الزاهرة له علاقة وثيقة بعبادة الفرعون نفسه فكلما كان الفرعون شديد القوة والبطش والسيطرة والبناء والتشييد للمقابر والمعابد الخاصة به وبكبار رجال دولته وكهنته كلما وصف المؤرخون عصره بالعصر الرائع الزاهر
- أعتقد أن الموضوع مرتبط بالآثار والله أعلم ، فما تكملة حديثه عن هذه الفترة ؟
- يقول أن مصر اجتازت فترة أخري مظلمة أشد من التي اجتازتها أعقاب الدولة القديمة فتحكم فيها ملوك ضعاف – ، من الملاحظ أن فترة الحكم التي أعطاها مانيتون للفترة الانتقالية والتي وصلت في رأيه إلي ١٥٩٠ عاما والتي قام بالحكم فيها عدد من الحكام وصل عددهم إلي ٢١٧ حاكما تؤكد لنا المصاعب التي واجهت مانيتون عند كتابته تاريخ هذه الفترة وهي المصاعب التي واجهت فريق من العلماء والمتخصصين لمعرفة فترة حكم كل أسرة وعدد ملوكها ، علي أنه أصبح في حكم المؤكد الآن أن الملكة سوبك نفرو آخر ملكات الأسرة الثانية عشرة قد ماتت في عام ١٧٨٦ ق م كما أن الأبحاث الحديثة أكدت أن الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة تولي الحكم في عام ١٥٦٧ ق م أي أن الفترة الانتقالية الثانية استمرت ما يقرب من ٢٢٠ عاما وهي مقسمة –في رأي هيز– علي

الوجه التالي : الأسرة الثالثة عشرة من ١٧٨٦ ق م إلي ١٦٣٣ ق م ثم الأسرة الرابعة عشرة حتي سنة ١٦٠٣ ق م ثم الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة [من الهكسوس] ثم الأسرة السابعة عشرة الوطنية – – ومن هنا نري أن هناك أكثر من أسرة كانت تحكم في جزء من مصر في وقت واحد عندما كانت مصر مفككة العري وليس كما كان يعتقد مانيتون أن كل أسرة من هذه الأسرات كانت تحكم وتتحكم في جميع أنحاء مصر ثم تليها أسرة أخري جديدة وهكذا –

- أي أن هذه الأسر الضعيفة كانت تحكم علي التوازي ولكن اعتبرها مانيتون متوالية يعقب بعضها بعضا فأخطأ في حساب المدة بالكامل
- نعم وقد غزا الهكسوس مصر في الأسرة الخامسة عشرة وأطلق عليهم العالم الألماني أوتو اصطلاح الهكسوس الكبار فقد أعطوا لأنفسهم الحق بالاحتفاظ بالألقاب الملكية المصرية ويبدو أنهم استطاعوا في البداية السيطرة علي جميع أنحاء مصر وانتشرت اسمائهم – ونخص بالذكر هنا الملك خيان والملك أبوفيس من النوبة إلي فلسطين ثم بعد ذلك أتت مجموعة أخري من حكام الهكسوس أطلق عليهم نفس العالم اصطلاح الهكسوس الصغار أو الضعاف وهم الذين ينتمون للأسرة السادسة عشرة ولم يستطع هؤلاء السيطرة علي جميع أنحاء مصر إذ قام في هذه الفترات بيت حاكم قوي في الصعيد اتخذ من طيبة مقرا له وأسس الأسرة السابعة عشرة وأخذ علي عاتقه تحرير مصر من الهكسوس – – قلنا أن الفوضى بدأت تسود مصر في الفترة التي بدأت تظهر في غرب آسيا حركة هجرة قبائل واسعة تنتمي إلي العنصر الهندو أوروبي وقد وصل أثرها إلي مصر وبدأت تشعر بها في أوائل الأسرة الرابعة عشرة وذلك بعد أن استقرت هذه القبائل في سوريا وفلسطين وأخذوا بمظاهر الحضارة السامية الموجودة هناك وعرفوا في التاريخ باسم الهكسوس)

<u>من هم الهكسوس ؟</u>

- من هم الهكسوس ؟
- الهكسوس كتب عنهم الفراعنة أنفسهم بعد ذلك ووصفوهم بأوصاف تعبر عن مدي استياءهم الشديد منهم فقالوا عنهم الرعاة البدو وقالوا عنهم الطاعون أما كلمة هكسوس نفسها فتعني (حكام الأقاليم الأجنبية) وهو المعني المقبول تفسيره من وجهة نظر سليم حسن في موسوعته (صفحة ١ بالجزء الرابع) ، وكان عدد ملوكهم الذين حكموا مصر ٢٣ ملكاً تقريباً منهم ثمانية ملوك لقبوا أنفسهم بلقب الإله الطيب وستة ملوك لقبوا أنفسهم بلقب ابن الشمس وقد تركوا آثاراً موجودة إلي الآن وكان الثلاثة وعشرين ملكاً موزعين علي أسرتين ١٥ ، ١٦ وكانت عاصمتهم في أواريس في الوجه البحري طبعاً وكانوا يقدسون الإله (ست) الذي يعتبره المصريون القدماء إله سئ السمعة
- أعوذ بالله هل يوجد إله سئ السمعة ؟ لا إله إلا الله سبحانه وتعالي عما يشركون

- الهكسوس أو الرعاة عبارة عن شعوب من البدو جاءت من الشرق واستوطنت البلاد لمدة ١٥٠ سنة تنشر ثقافتها في مصر إلي أن جاءت الأسرة السابعة عشرة الفرعونية وظلت تقاومهم وتحاربهم حتي نجح أحمس في طردهم من البلاد وأسس الأسرة ١٨ بل إنه أسس دولة جديدة فرعونية تسمي عصر الدولة الحديثة ، لكن في الحقيقة توجد معلومة غريبة جداً قرأتها وهذه المعلومة أنكرها بشدة سليم حسن برغم أنه ذكرها منسوبة إلي صاحبها وبالرغم من إنكار هذه المعلومة وعدم صحتها إلا أنها تدل علي أمور كثيرة جداً ، إن اليهود والهكسوس هما عنصر واحد والذي قال هذه المعلومة طبعاً مؤرخ يهودي عاش خلال القرن الأول من الميلاد واسمه (فلافيوس يوسفس) ويقول سليم حسن عن هذا الموضوع (– – وقد كان غرض يوسفس الأول فيما نقله عن مانيتون العمل جهد الطاقة في الرفع من شأن قومه اليهود الذين كان يحتقرهم كتاب الإغريق ويحطون من شأنهم)[٧] ،
- أي أنه أراد أن يرفع من شأن اليهود فأكد أنهم هم أنفسهم الهكسوس ونسب ذلك لمانيتون شئ عجيب فعلا ، ولكن بالمناسبة هل لديك معلومات عن اليهود الذين ربما كانوا متواجدون في تلك الفترة من تاريخ مصر ؟
- يمكن بالطبع أن نوضح بعض المعلومات عنهم وعن نشأتهم لأن الكثير من هذا الجيل لا يعرف قصة (بني إسرائيل وبني اسماعيل) إذا جاز التعبير أي بني إسرائيل والعرب المستعربة وعلاقتهم بعضهم ببعض ونسبهم إلي سيدنا ابراهيم عليه السلام ومتي كان ذلك وعلاقته بالفراعنة ،
- سيكون ذلك ممتعاً

بني اسرائيل وعلاقتهم بالفراعنة

- عموماً لا يوجد تاريخ معروف علي وجه الدقة لدخول بني اسرائيل مصر عندما كان سيدنا يوسف بها (عليه السلام) ولكن المؤكد في هذا الموضوع أنهم مكثوا بمصر حتي خروجهم مع سيدنا موسي عليه السلام
- أي أن سيدنا يوسف أدخلهم وسيدنا موسي ، أخرجهم ولكن من هم وكم كان عددهم عند دخول مصر وعند الخروج ؟
- هذا هو ما سنتحدث عنه إن شاء الله ، وفي الحقيقة إن بداية القصة تعود إلي سيدنا ابراهيم عليه السلام الذي ولد ببابل[٨] وتزوج من السيدة سارة التي كانت عاقراً لا تلد ثم هاجر من بابل إلي فلسطين (الأرض المقدسة) وقد يكون تزوج من السيدة سارة بعد أن هاجر ، ومعروف طبعاً عن سيدنا ابراهيم أنه حطم الأصنام وأنه واجه النمرود ملك ذلك العصر (بفرض أن اسمه نمرود) والذي كان يقول أنا

---

[٧] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ٤ صـ ٥٧

[٨] قصص الأنبياء (الإمام الحافظ ابن كثير) صـ ١٠٥

أحيي وأميت وقد تم إلقاءه عليه السلام في حفرة من نار وأحاطه المولي عز وجل برعايته كما أنه خليل الله وصاحب لسان صدق في العالمين كما أنه عليه السلام أبو جميع الأنبياء الذين جاءوا بعده لأن الله سبحانه وتعالي جعل في ذريته النبوة والحكمة ، وطبعاً ليس هذا مقام الحديث عن مناقبه عليه السلام وإنما أريد إلقاء الضوء علي ذريته ببساطة شديدة لنتعرف علي أبناءه وأحفاده وظروف نشأتهم وأماكن تواجدهم بعد ذلك لكي نقف علي ما نريد من معلومات تخص بني اسرائيل وبني اسماعيل وقد كان سيدنا لوط عليه السلام علي صلة قرابة بسيدنا ابراهيم وآمن له ويقول المولي عز وجل عنهما {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}[٩]

- وهذه الأرض التي باركها الله سبحانه هي منطقة القدس الشريف وما حوله أليس كذلك ؟
- نعم والله أعلي وأعلم والمعروف أن سيدنا إبراهيم جاء إلي مصر مع زوجته سارة وعاد ومعه السيدة هاجر المصرية وكانت جارية ورزقه الله من هاجر مولوداً ذكراً هو سيدنا اسماعيل عليه السلام وهو يعتبر أكبر أبناءه ثم ذهب بهاجر وإسماعيل إلي مكان بيت الله الحرام وتركهما متوكلاً علي الله ودعا لهما وللمكان {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[١٠] ومن المؤكد أن سيدنا ابراهيم قام بزيارة السيدة هاجر وابنها اسماعيل بعد ذلك وكلنا يعرف قصة رفع القواعد من البيت الحرام وكذلك قصة الذبح {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[١١] ونعلم جميعاً أن المولي عز وجل فداه بذبح عظيم وظل اسماعيل علي قيد الحياة
- كل هذا معروف بالطبع
- بالرغم من أنني علي ثقة من أنك علي علم بهذه المعلومات إلا أنني أقوم بربط الأحداث وإيجازها فقط لتتضح الصورة أمامك ، وظل سيدنا اسماعيل في مكة ووهبه الله الذرية عندما تزوج من العرب العاربة وأصبح أولاده وأحفاده يشكلون ما يسمي بالعرب المستعربة والفرق بينهما أن العرب العاربة هم الذين كانوا يسكنون الجزيرة العربية قبل مجئ سيدنا اسماعيل عليه السلام مثل قبائل جرهم والعماليق أما العرب المستعربة فهم أبناء وأحفاد سيدنا اسماعيل أنفسهم ويعتبر سيدنا اسماعيل عليه السلام الجد الأكبر لهم وجدير بالذكر أن قبيلة قريش (قوم رسول الله صلي الله عليه وسلم) يعود نسبها إلي سيدنا اسماعيل عليه السلام ، نترك الآن سيدنا اسماعيل في مكة ليؤسس مع أبناءه وأحفاده هذه القبائل والبطون بجوار بيت الله الحرام (الحرم الآمن) ونعود إلي سيدنا إبراهيم والسيدة سارة زوجته

---

[٩] (٧١) سورة الأنبياء

[١٠] (٣٧) سورة إبراهيم

[١١] (١٠٢) سورة الصافات

- وهل يتفق اليهود معنا في هذه المعلومات ؟
- طبعاً لم يتركوا هذه القصة كما هي ولكنهم زعموا أن سيدنا ابراهيم ذهب بهاجر وابنها بعيداً عن سارة لأنها كانت تشعر بغيرة من الجارية التي أنجبت بينما هي لا تلد١٢ فاضطر إلي إبعادها لهذا السبب ولكن طبعاً هذا الكلام كله لا أساس له من الصحة لأن السبب الرئيسي لما فعله هو امتثالاً لأمر المولي عز وجل والذي كان سبباً في تعمير بيت الله الحرام وإنشاء حياة حوله وليس كما يدعي بني اسرائيل أو بعضهم بل إن بعضهم يدعي أن الذبيح ليس اسماعيل بل اسحق وكل هذا لا أساس له من الصحة والله أعلم .
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- حدث أن السيدة سارة أنجبت بمعجزة إلهية كما نعلم جميعا وكان عمرها تسعين سنة١٣ مولوداً ذكراً وهو سيدنا اسحق عليه السلام {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}١٤ بمعني أن سيدنا اسماعيل وسيدنا اسحق إخوة عليهما السلام ومن أب واحد وهو سيدنا ابراهيم عليه السلام وبعد ذلك أنجب اسحاق سيدنا يعقوب بمعني أن سيدنا اسماعيل هو عم سيدنا يعقوب ويعتبر سيدنا يعقوب هو حفيد سيدنا ابراهيم عليهم السلام جميعاً ولاحظ معي يا صديقي إنني أقوم بتفصيل ذلك ليكون الموضوع شديد الوضوح وأهم ما في الموضوع إن سيدنا يعقوب هو نفسه سيدنا اسرائيل أي أن يعقوب وإسرائيل شخص واحد له اسمين وهو أيضاً كما نعرف جميعاً والد سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته أي أن بني اسماعيل من أحفاد السيدة هاجر وبني اسرائيل من أحفاد السيدة سارة ونعلم جميعاً أن سيدنا يوسف وجه دعوة إلي أبيه وإخوته وأسرته بالكامل للحضور إلي مصر بعد أن مكن له الله فيها {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ}١٥ وكانت هذه العائلة الصغيرة المكونة من أب وأبناءه وزوجاتهم وأبناءهم هي النواة الأولي لبني اسرائيل في مصر في ذلك الوقت بمعني أن اسماعيل وأبناءه كانوا في مكة واسرائيل وأبناءه كانوا في مصر في تلك الفترة وكلاهما يعود نسبه إلي سيدنا ابراهيم كما ذكرنا ،
- ولكن متي تم دخول بني اسرائيل مصر أو بمعني أدق متي دخل اسرائيل (يعقوب) وأولاده مصر ؟ بعد فترة من بيع سيدنا يوسف بها وما علاقة ذلك بالعصر الفرعوني ؟
- في الحقيقة إن هذا حدث بالتأكيد قبل عصر فرعون موسي بزمن طويل لأنه من المعروف أن الفراعنة كانوا علي علاقة سيئة جداً ببني اسرائيل وكانوا يقتلون أبنائهم ويستحيون نساءهم ويستعبدونهم ويستخدمونهم في الأعمال الدنيئة والحقيرة وكان عددهم كبير جداً وقد أصبحوا اثني عشر سبطاً أو

---

١٢ قصص الأنبياء (ابن كثير) صـ ١٢٣

١٣ قصص الأنبياء (ابن كثير) صـ ١٧٢

١٤ (١١٢) سورة الصافات

١٥ (٩٩) سورة يوسف

قوماً بعدد أبناء سيدنا يعقوب (اسرائيل) بما فيهم سيدنا يوسف نفسه لأن عدد أبناء سيدنا يعقوب ١٢ ولد منهم سيدنا يوسف وبالتالي نسل كل واحد منهم أصبح فيما بعد مجموعة كبيرة جداً من البشر وبالمناسبة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما يذكر سيدنا يوسف يقول (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم)١٦ يقصد بذلك (يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم) عليهم جميعا وعلي نبينا الصلاة والسلام ، وبالمناسبة أيضاً أحفاد سيدنا اسحاق الذين يطلق عليهم وعلي ذريتهم الأسباط يقول عنهم ابن كثير في كتاب قصص الأنبياء أنهم ليسوا جميعاً من أم واحدة فقد أنجب سيدنا يعقوب من أربعة نساء (أختين هما ليا وراحيل وجاريتيهما) بمعني إن سيدنا يعقوب تزوج من أختين واحدة اسمها "ليا" والثانية اسمها "راحيل" ولم يكن هذا محرماً في شريعتهم في ذلك الوقت وأنجب من الأختين ، وكانت لكل واحدة فيهم جارية تملكها (أمة) ووهبتها لزوجها يعقوب وقد أنجب سيدنا يعقوب من الجاريتين أيضاً ، ونقول مرة أخري للتأكيد أن يعقوب هو نفسه إسرائيل وورد كلا الاسمين في القرآن الكريم {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } (٩٣) سورة آل عمران ، {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (١٣٢) سورة البقرة

- هل لديك أسماء أولاد يعقوب عليه السلام ؟
- يقول الإمام ابن كثير رضي الله عنه (وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن " ليا " روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وإيساخر وزايلون ومن "راحيل" يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالي ومن أمة ليا حاد وأشير)١٧ ومن هؤلاء جاء شعب بني اسرائيل بالكامل واعتقد والله أعلم أن هذا الشعب يتبع نظرية نقاء العنصر وهذه النظرية تمنع الزواج من عناصر وشعوب أخري وبالتالي ظل بني اسرائيل يتناسلون دون أن يدخل بينهم أي عنصر من أي شعب آخر علي ما يبدو والله أعلم وهناك خلط واضح يحدث دائماً بين بني اسرائيل والديانة اليهودية فعندما نتكلم عن الشعب الإسرائيلي نقصد به هذه العائلة الضخمة التي استعرضنا جذورها منذ قليل وفي نفس الوقت نقصد بهم من يعتنقون الديانة اليهودية وهذا خطأ شائع لأن بني إسرائيل كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالي لفترة طويلة قبل ظهور الديانة اليهودية بل كانوا الشعب الوحيد علي الأرض الذي يعرف الله سبحانه وتعالي وكان منهم العديد من الأنبياء {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (٤٧) سورة البقرة ، وكان بنو إسرائيل يطلقون علي أنفسهم شعب الله المختار ٠
- ومن هم أنبياء بني إسرائيل ؟

---

١٦ قصص الأنبياء (ابن كثير) صـ ١٧٩

١٧ قصص الأنبياء (ابن كثير) صـ ١٧٦

- كان في بني اسرائيل العديد من الأنبياء بل يكاد لا يخلوا عصر من عصورهم من وجود نبي مرسل وآخر أنبياء بني اسرائيل هو سيدنا عيسي عليه السلام الذي بشر بنبي يأتي من بعده وقد توقع بني اسرائيل أن هذا النبي سيأتي من ذرية بني اسرائيل ولكنه صلي الله عليه وسلم جاء من ذرية سيدنا اسماعيل وإذا ضربنا أمثلة علي أسماء بعض أنبياء بني اسرائيل سنجد طبعاً سيدنا يوسف عليه السلام وسيدنا موسي وسيدنا داوود وسيدنا سليمان وسيدنا زكريا وسيدنا يحيي عليهم جميعاً السلام ولم يبعث المولي عز وجل من ذرية اسماعيل نبي غير سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خاتم الأنبياء جميعاً ، بمعني أن كل الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم كانوا من نسل إسرائيل عدا خاتم الأنبياء فمن نسل إسماعيل صلي الله عليهم أجمعين ، وبالتالي نجد العديد من الأنبياء من بني إسرائيل {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} (٣٢) سورة المائدة {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} (٧٠) سورة المائدة
- فما علاقة كل هذا بالفراعنة ؟
- مما سبق يتضح أن شعب بني اسرائيل عاصروا في بدايتهم عصور الدولة الفرعونية وأغلب الظن أنهم دخلوا مصر بناءاً علي دعوة يوسف عليه السلام في عصر الهكسوس ويستدل علي ذلك من القرآن الكريم والله أعلم حيث أن المولي عز وجل عندما يذكر حاكم مصر يقول عنه فرعون أما حاكم مصر الذي ذُكِر في عهد يوسف عليه السلام فقال عنه المولي عز وجل (الملك) وليس (الفرعون) ونقرأ في سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}[١٨] بل إن من أدلة ذلك أيضاً أن يوسف وعائلته كان لهم وضع ومكانه خاصة ومرموقة في مصر في ظل احتلال الهكسوس وعندما طرد الفراعنة الهكسوس اضطهدوا بني اسرائيل علي اعتبار أنهم أعوان الاحتلال والله أعلم كما أن السيدة هاجر كانت قبل تلك الفترة عندما ذهب بها سيدنا ابراهيم من مصر كانت جارية مصرية وطبعاً المصريات لم يكن جواري إلا في عهد الاحتلال وهذا قد يفسر دخول سيدنا ابراهيم نفسه مصر في عصر الهكسوس وبالتالي دخل حفيده سيدنا يعقوب وأبناءه في عصر الهكسوس أيضاً أثناء وجود سيدنا يوسف بها ثم تم استعبادهم بعد ذلك بفترة في عصر الفراعنة الذي تلي عصر الهكسوس وعلي العموم كلها مجرد آراء ولا يوجد ما يؤكد بشكل قاطع توقيت دخول بني اسرائيل مصر وفي أي عصر من العصور الفرعونية وأغلب الظن أن هذا الاستعباد تم في عصر الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بعد طرد الهكسوس مباشرةً وقد لا تندهش يا صديقي إن ذكرت لك اسم رمسيس الثاني أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والذي يعتقد البعض أنه فرعون موسي وهذا يربط الأحداث التي ذكرناها طبقاً

[١٨] (٤٣) سورة يوسف

للسياق الزمني ويزيد في احتمالية ذلك أن بني اسرائيل إذا عدنا لما ذكرناه عن المؤرخ اليهودي الذي أشار إلي أن الهكسوس واليهود عبارة عن عنصر واحد بالرغم من أنها معلومة غير صحيحة إلا أنها تشير علي الأقل إلي أن كل منهم كانوا في فترة زمنية واحدة ،

- أعتقد أنه يجب أن نتدبر سورة يوسف (أحسن القصص) ونقرأ سورة البقرة والسور الأخري التي تتحدث عن هؤلاء القوم وعن ما دار بينهم وبين أنبياءهم {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} (٤) سورة الإسراء ، فماذا حدث لبني اسماعيل بعد ذلك ؟
- أما بني اسماعيل فظلوا علي ملة ابراهيم لفترة طويلة من الوقت حول البيت الحرام ثم بعد أن مات اسماعيل بفترة كبيرة انتشرت الأصنام حول الكعبة بحجة أنها تقربهم إلي الله وظهرت الوثنية بينهم إلي أن بعث الله نبيه محمد صلي الله عليه وسلم ليحطم هذه الأصنام وينشر الحق في كل مكان بل إن بعض من بني اسرائيل كانوا يسكنون المدينة في ذلك الوقت وكانوا في انتظار النبي الذي سيرسله الله وكانوا يعتقدون أنه سيكون من بينهم من نسل إسرائيل فلما بعث الله نبيه من نسل إسماعيل كفروا بما عرفوا من الحق كما نعلم جميعاً {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} (٨٩) سورة البقرة وقد آمن منهم القليل بل آمن من كبار علماءهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم
- هل يمكن تلخيص تاريخ بني إسرائيل ؟
- خلاصة القول عن بني اسرائيل أنهم عائلة كبيرة يعود نسبها إلي سيدنا يعقوب عليه السلام ودخلوا مصر في ظل سيدنا يوسف عليه السلام ثم تكاثروا بها إلي أن خرجوا مع سيدنا موسي عليه السلام وقد تمكنوا من إنشاء مملكة لهم في أورشليم في عهد نبي الله داوود عليه السلام كما سيأتي الكلام عنها في حينه وظلت فترة من الزمان ثم انهار ملكهم بعد ذلك علي يد ملك بابل (بختنصر) وتشتتوا في البلاد في انتظار وعد الآخرة وعلي أمل إعادة تأسيس دولة جديدة {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}[١٩] وجدير بالذكر أن بني اسرائيل عندما خرجوا من مصر مع سيدنا موسي كان عددهم كما يقول ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء وتحديداً في صفحة ٢٧٢ (وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوي الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمي سنة الفسخ) انتهي كلام ابن كثير وطبعاً هذا الكلام نقله ابن كثير من كتابهم أي من الإسرائيليات ومهما كانت المبالغة في هذه الأرقام فإن من المؤكد أن عددهم كان كثيراً جداً بالنسبة

[١٩] الإسراء ١٠٤

لبدايتهم في مصر مع سيدنا يوسف عليه السلام بفرض أنهم أقاموا في مصر خلال الأسرات الفرعونية من الخامسة عشرة إلي التاسعة عشرة وهو مجرد فرض

- هناك ملحوظة أريد أن تلاحظها معي خارج هذا الموضوع وهو الحديث عن مصر في كتاب الله سبحانه وتعالي عندما وصف مصر لحظة خروج بني اسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده ({فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }٢٠ فتخيل معي عندما يصف الخالق عز وجل مصر بالمقام الكريم وكيف لنا أن نجد وصفاً أفضل من كتاب الله سبحانه وتعالي فهذا يؤكد مما لا يدع مجالاً للشك روعة وجمال هذه الأرض في ذلك الوقت في عهد فرعون موسي عليه السلام ولكن من هو هذا الفرعون الذي أبقي المولي عز وجل علي جثته لتكون آية لمن خلفه ؟
- إذا تأملنا وفحصنا جثث ملوك الفراعنة في تلك الفترة التقريبية سنجد أن هناك العديد من جثث الملوك المحنطة وموجودة إلي الآن ويتم عرضها في المتاحف لنأخذ منها العبرة لا لكي ننبهر بها ولا بد أن من بينها جثة هذا الفرعون وسبحان من له الدوام {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}٢١
- وقد وردت إمرأة فرعون أيضاً في القرآن
- نعم ولا بد أن نتكلم عن زوجة فرعون التي دعت الله سبحانه أن يبني لها بيتا في الجنة وينجيها من فرعون {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (١١) سورة التحريم ،
- مؤكد أنها لم تكن مقتنعة بما يفعله الفراعنة من بناء مقابر وتحنيط وما إلي ذلك
- بل إنها تعلم جيداً أن تعمير البيت في الدار الآخرة يكون بالإيمان والعمل الصالح وليس بتزيين القبور بالنقوش وتحنيط وحفظ الجثث بها فلا ينفع الإنسان بعد الموت إلا الإيمان والعمل الصالح ورحمة الله الواسعة ، وقد حان الوقت الآن لنتحدث عن الإمبراطورية المصرية الفرعونية وعهد الدولة الحديثة وبداية الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس بعد طرد الهكسوس من مصر والقصة تبدأ منذ أن كان ملوك الأسرة السابعة عشرة متواجدون في طيبة في الجنوب يدفعون الجزية إلي ملوك الهكسوس في أواريس في الشمال إلي أن استفزهم الهكسوس وطلبوا منهم طلبات غير منطقية ولا يمكن تحقيقها وتمس العقيدة الدينية لهم وما أدراك ما العقيدة الدينية ،
- من أجلها تتحرك الجيوش وتفني الأنفس وتهون التضحيات ،

---

٢٠ الشعراء ٥٧ ، ٥٨

٢١ يونس ٩٠

- قام صراع رهيب مع الهكسوس بدأه الملك (سقنن رع) إلي أن قتلوه ثم استكمل الكفاح الملك (كامس) وأخيراً الملك (أحمس الأول) الذي نجح في طرد الهكسوس من البلاد بالكامل بل قام بتأسيس أسرة جديدة وهي الأسرة ١٨ وكانت بداية عصر الدولة الحديثة وأمجادها
- بمعني أن الملك أحمس الأول كبداية للدولة الحديثة يمكن مقارنته بالملك مينا والملك زوسر والملك منتو حتب الثاني كبدايات للدول الرئيسية في العصر الفرعون قديمة ووسطي وحديثة وقبلهم العصر العتيق
- بالتأكيد فبالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقنن رع فإن المؤرخ المصري القديم وضعه كما سبق القول علي رأس عائلة جديدة[٢٢] وهي الأسرة الثامنة عشر الفرعونية وكانت فترة حكمه ٢٤ سنة[٢٣] وبالمناسبة هذه الأسرة كانت تقدس إله القمر ويتميز عصرهم بأن النساء أصبح لهن دور كبير في البلاد وأول شخصية نسائية لمعت في هذه الأسرة هي الملكة (تتي – شري) وهي أم سقنن رع
- يعني تعتبر جدة أحمس الأول ؟
- نعم ، وكان لها دور علي ما يبدو في إشعال روح القتال ضد الهكسوس في أبناءها وأحفادها وكانت محبوبة من الجميع وقد ظل أحمس وفياً لذكري جدته إلي آخر سنة في عمره حيث أقام لها مقبرة وكتب عنها لوحة خالدة وكانت هناك سيدة أخري اسمها (إعح حوتب)
- اسمها يصعب النطق به
- لكن هذه السيدة كان لها دور كبير في الحرب ضد الهكسوس وهي أم الملك أحمس[٢٤]
- وهل هناك سيدات أخريات شهيرات في هذه الأسرة ؟
- أما السيدة الثالثة فكانت (أحمس نفرتاري) وهي أخت أحمس وكامس وقد تزوجت من كامس ثم من أحمس[٢٥] بعد موت كامس وكان ذلك أمر عادي أن الملك يتزوج من أخته في هذه العصور وكلمة أحمس تعني (ولد القمر) أو القمر هو الذي أنجبه أو أنجبها وتليق مع المذكر والمؤنث كاسم ، ويعتبر أحمس الأول بصفة عامة هو بطل التحرير بلا منازع والطريف أنه كان يوجد شخص آخر اسمه (أحمس ابن إبانا) وكان أحد أبطال حرب التحرير وترك لوحات تشير إلي انتصاراته وأمجاده أثناء المعارك وقد قام بتكريمه الملك أحمس الأول لشجاعته وأعماله الحربية أثناء المعارك
- هل يمكن وصف معارك أحمس ضد الهكسوس أم أنها تفاصيل لا تؤثر علي سياق حديثنا ؟

---

[٢٢] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٧١

٢٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٧٢

٢٤ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٧٤

مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٧٤

الملك أحمس الأول وطرد الهكسوس وبداية الدولة الحديثة الفرعونية

- الحروب التي انتصر فيها الملك أحمس الأول علي الهكسوس كانت طويلة المدة حيث أنهم تحصنوا في مدينتهم أواريس ووقعوا تحت الحصار لفترة ليست بالقليلة لأن الهكسوس تميزوا في أعمال التحصينات والاستحكمات الدفاعية كما أنهم أول من استخدم الخيول والعربات الحربية في مصر وتعتبر من الأسلحة المتطورة في ذلك العصر ويقول سليم حسن عن ذلك (والواقع أن الهكسوس كانوا يعتبرون منذ زمن بعيد أنهم الذين جلبوا هذه العناصر الجديدة الهامة من المدنية إلي مصر)[٢٦] فكما ذكرنا أن الهكسوس أضافوا إلي مصر بحضارتهم وثقافتهم وأخذ منهم المصريون أحسن ما عندهم هذا والله أعلم
- كما قال ابن خلدون أن المغلوب مولع بتقليد الغالب
- إذا قام المغلوب بتقليد الغالب فيما يعود عليه بالفائدة فسيكون ذلك أفضل بالطبع ، أما وصف المعارك التي دارت لتحرير البلاد فلا تحتاج إلي تعليق وغاية ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن تسرح يا عزيزي بخيالك الواسع وتتخيل طبيعة هذه المعارك ومدي شراستها وقد لا تصل إلي مستوي الحدث ولكن يمكن أن تقرأ رواية كفاح طيبة للكاتب الكبير نجيب محفوظ وتوفر علي نفسك التخيل وتتركه يتخيل بدلاً عنك بأسلوبه الرائع الأحداث التي مرت بالبلاد أثناء قيام أحمس بطرد الهكسوس فقد اعتمد أحمس علي تهريب المصريين من الشمال للجنوب لإعدادهم للقتال حيث كان معظمهم يعيش تحت الاحتلال وينتظرون القيادة التي تقودهم للكفاح ضد الغزاة الرعاة وكان كل ما يشغل أحمس تجميع القوات نفسها من أفراد الشعب ثم تدريبهم وقد نجح في هذه الخطة نجاح ساحق إلي أن حقق أهدافه بالكامل ،
- وهل ترك أحمس آثار توضح ما حدث في عهده ؟
- توجد لوحة جدارية لأحمس في معبد الكرنك تخليداً لأعماله
- سمعت أن الفراعنة كانوا مغرورين جداً عندما يصفون أنفسهم في كتاباتهم علي الجدران (وقد ورث بعضنا موضوع الكتابة علي الجدران ولكن ليست جدران المعابد ولكن جدران البيوت والمرافق العامة) ، فهل بالفعل كان الفراعنة يثقون في أنفسهم أكثر من اللازم ؟
- كان الفرعون عندما يكتب عن نفسه يُمجِّد نفسه بالطبع وسأقرأ لك الآن بعض ما جاء في لوحة الملك أحمس الأول لتكون علي سبيل المثال لا الحصر وستلاحظ أن الملك يحاول توضيح علاقته الوثيقة بالآلهة وهذا أهم شئ بالنسبة له فيقول إنه حبيب الإله آمون مثلاً وابن الإله رع ويشبه الإله حور وهكذا وهذه مقتطفات مختصرة من اللوحة : (--- ابن آمون رع من جسده ومحبوبه ووارثه ، ومن أعطي له عرشه ، الإله الطيب حقيقة ، قوي الساعد - - ، وإنه أمير يشبه الإله رع --- وشديد البأس -- معطي الحياة ومقيم العدالة ، ملك الملوك علي كل الأرض ، وهو واحد في السماء والثاني

[٢٦] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ٤ صـ ١٦٣ (مكتبة الأسرة)

علي الأرض ، ومن يخلق من صوته النور ، محبوب آمون ، ومن يثبت الوظائف مثل الإله ، المسيطر علي السنين مثل جلالة رع ، ومن استولي علي ما تحيط به الشمس ، ومن ثبت علي رأسه التاج الأبيض والأحمر -- والمضئ الطلعة في شبابه ، ومن قدر لتاجه أعجوبة مزدوجة في كل ساعة ، رفيع الريشتين ، ومن يكون أمامه الصلّان القويان علي جبينه مثل ما يكونان علي جبين حور عندما يسيطر علي الأرضين وهو ملك له الحياة والسعادة ---)[٢٧]

- طبعاً أنا لم أفهم جيداً ما تعنيه كل هذه الأوصاف ويبدو أنه يصف الإله أحياناً ويشبه نفسه به أحياناً أخري
- تعتبر هذه اللوحة نموذج لما كان يمجد به الفراعنة أنفسهم في لوحاتهم الموجودة إلي الآن ، ويقول سليم حسن عن هذا النص الموجود بالكامل في موسوعته (هذا النص علي ما يحتويه من تفاصيل دقيقة وإشارات بعيدة إلي أمور جسام في حياة الفرعون أحمس يري فيه المؤرخون أنه عبارات مدح تقليدية تشغل نحو ستة وعشرين سطراً منه وستة الأسطر الباقية تعدد إصلاحات هذا الملك التي قام بها لإعادة أثاث معبد آمون وأوانيه وأن الملك لم يشر إلا إشارة عابرة مبهمة عن حروبه في خلال تلك الجمل المملة المتتابعة ولكن الواقع أن هذه اللوحة تعد علي جانب عظيم من الأهمية من الناحية التاريخية والثقافية والأدبية في عهد هذا الفرعون)[٢٨]
- حسناً ، دعنا نتحدث عما حدث بعد أحمس

ماذا بعد أحمس ؟

- كان لدي أحمس زوجات كثيرات بالإضافة إلي أخته (أحمس نفرتاري) وهي أيضاً زوجته وكان عنده أولاد كثيرين منهم امنحتب الأول ابن نفرتاري وهو الذي تولي الحكم من بعده ولكنه لصغر سنه كانت أمه وصية علي العرش وقد قام الملك امنحتب الأول بعدة حروب ناجحة ولكنه توقف لعدم ميله للحروب ولكي تستريح البلاد من رحلة الكفاح الطويلة التي خاضوها مع والده أحمس وقد كانت فترة حكمه فترة استقرار وراحة ويقول عنها سليم حسن (أن المدن قد استعادت حياتها العادية ونمت فيها الزراعة وازدهرت التجارة مما زاد في ثروة مصر وجعلها علي استعداد تام للقيام بفتوحها المقبلة علي يد فراعنتها الشجعان)[٢٩] ثم جاء بعد امنحتب الأول الملك تحتمس الأول وبالمناسبة وقبل أن نترك الملك امنحتب الأول لابد أن نذكر ما قاله عنه أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية حيث ذكر أن هذا الملك كان رفيقاً برعيته طيلة سنوات حكمه الواحد والعشرين التي قضاها علي العرش
- فمن هم أهم ملوك الأسرة ١٨ بعد أحمس ؟

---

[٢٧] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ٤ صـ ٢٠٢ (مكتبة الأسرة)

[٢٨] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ٤ صـ ٢٠٤

[٢٩] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ٤صـ ٢٣٤

- إن مجموع ملوك الأسرة ١٨ بالكامل ١٤ ملك واعتقد أنك تعرف معظم أسماءهم دون أن تدري أنهم من هذه الأسرة أو غيرها فمنهم طبعاً الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة وتحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية وحتشبسوت صاحبة معبد الدير البحري الشهير ومنهم الملك توت عنخ آمون الذي بهرت مقبرته ومحتوياتها العالم كله عند اكتشافها كاملة وكذلك منهم الملك حور محب القائد الهمام وقد يكون أكثر ملك شهرة هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون الذي كان يؤمن بالتوحيد وقام بانقلاب ديني كبير هز كيان الأسرة المالكة بل الإمبراطورية كلها ، وطبعاً لم أذكر أسمائهم طبقاً للترتيب الزمني لهم ولكن سيأتي ذلك أثناء الحوار لأن هذه الأسرة تستحق أن نتحدث عنها لأن عصرها ثري جداً ومكتوب في موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري أن هذه الأسرة الثامنة عشرة حكمت مصر من حوالي سنة ١٥٨٠ ق م إلي سنة ١٣١٤ ق م٣٠ أي تقريباً ٢٦٦ سنة ،
- ٢٦٦ سنة فماذا كان سيحدث لي إذا كنت قد وُلِدت في هذه الفترة ؟
- يجب أن أسألك أنا هذا السؤال لتعرف أنك إذا كنت تعيش في ذلك العصر لن تعرف أن الإمبراطورية قد تأسست ثم انهارت ولنبدأ الحديث عن أهم الملوك فقط في هذه الأسرة ولنبدأ بالملكة حتشبسوت
- كم كنت أتشوق لمعرفة معلومات عن هذه الملكة

الملكة حتشبسوت(ماعت كا رع)

- تعتبر الملكة حتشبسوت هي أول شخصية نسائية من الشخصيات البارزة التي حكمت مصر فقد كانت هناك شخصيات نسائية بارزة قبلها في الأسرة ١٧ كما ذكرنا مثل تتي شيري ولكنهن لم يحكمن مصر أما اللاتي حكمن مصر قبلها فلم يكن بنفس مستواها وشهرتها ، وتبدأ قصتها بأن تولي الملك تحتمس الثالث عرش مصر بعد وفاة والده الملك تحتمس الثاني ، ولقد تزوج من ابنة الملكة حتشبسوت الأميرة نفرو رع ليؤكد حقه في وراثة العرش ، وكان تحتمس عند تتويجه صغير السن وكانت حتشبسوت زوجة أبيه وأم زوجته وعمته في آن واحد امرأة قوية ناضجة طموحة تحمل الألقاب (ابنة الملك ، أخت الملك ، الزوجة الملكية ، الزوجة الإلهية لآمون)٣١ فاستطاعت بقوة شخصيتها منذ البداية أن تتولي شئون البلاد وأن تدير دفة الأمور ، ولم تكن حتشبسوت بالمرأة التي تكتفي بهذا ، فتمكنت في العام الثاني من حكم تحتمس الثالث من أن تنحيه عن العرش نهائياً ، بل أرغمته علي الاعتكاف وأمرت بتتويجها بموافقة الإله آمون ورغبته كما هو منقوش علي جدران معبدها الجنائزي بالدير البحري بطيبة ،
- طبعاً الرغبة المزعومة للإله المزعوم أيضاً كانت وسيلة تدَّعيها لإضفاء الشرعية علي حكمها بالتأكيد

---

٣٠ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٣٢

[٣١] لاحظ عزيزي القارئ أن الألقاب عند الفراعنة في غاية الأهمية ولذلك كانوا يحرصون علي تدوينها في مقابرهم

- بالطبع ، وهكذا أصبحت حتشبسوت ملكة علي مصر ، وقامت بدور الإله حورس ومثلته علي الأرض ، واتخذت لقب ابن الشمس بل تشبهت بمظهر الرجال وارتدت زيهم ، كما استعملت الذقن الملكية المستعارة الخاصة بالملوك ، ولقد حكمت الملكة حتشبسوت مصر ما يقرب من ٢٠ سنة كرست فيها كل جهودها للإنشاءات المعمارية ، وذلك غير حملة عسكرية واحدة أرسلتها إلي النوبة للقضاء علي الثوار هناك ، ولقد أبحرت خمس سفن ضخمة في عهد حتشبسوت إلي بلاد بونت ، قرب الصومال لإحضار منتجات هذه البلاد إلي مصر وقد صورت هذه الرحلة البحرية التي تعتبر من أهم النقوش لدراسة بلاد بونت ومنتجاتها علي جدران معبدها بالدير البحري ، كما أرسلت الملكة حتشبسوت التي حكمت مصر من حوالي ١٤٧٨ ق م إلي سنة ١٤٥٨ ق م ، بعثات إلي محاجر أسوان لإحضار الزوج الأول والثاني من مسلاتها ، ولقد استغلت مناجم الفيروز بشبه جزيرة سيناء خير استغلال ، أما معبدها الجنائزي فهو المعبد المشهور الآن باسم معبد الدير البحري بالبر الغربي بطيبة حيث احتضنه الجبل في حنان ، ويتكون من ثلاثة طوابق يتوسطها طريق صاعد إلي أعلي في المنتصف
- هل يمكن أن تقرأ وصف لهذا المعبد إن كان متوفراً لديك الآن ؟
- رواق المدرج الأول : ناحية اليمين يشاهد الزائر فيه مناظر صيد الطيور بالشباك والقوارب ، أما ناحية اليسار وعلي الجدار الخلفي فصور احتفال نقل المسلات من أسوان بواسطة النيل علي قوارب كبيرة ونري حتشبسوت تقدم قرباناً للإله آمون ، المدرج الثاني : يري (إيوان الولادة) وتمثل مناظره الميلاد المقدس للملكة حتشبسوت ، ويري الزائر في أقصي اليمين مقصورة مكرسة لعبادة الإله أنوبيس حارس الجبانة وعلي اليسار من الناحية الأخري (إيوان بونت) وعلي جدرانه نقوش تمثل البعثة التجارية التي أرسلتها حتشبسوت إلي بلاد بونت (الصومال حالياً) ، المدرج الثالث : يوجد فناء تزين واجهته الأعمدة التي يستند إليها بعض تماثيل ملكية في هيئة أوزيريس ، ويتوسط هذا الفناء باب من الجرانيت الأحمر الجميل عليه نقوش باسم الملك تحتمس الثالث الذي أزال اسم حتشبسوت ، أما ناحية الشمال فتوجد حجرة فيها الصورة الوحيدة الباقية لحتشبسوت والتي سلمت من أيدي المخربين[٣٢]
- من الواضح أن تحتمس الثالث كان يكره هذه المرأة بشدة وحاول التخلص منها وخرب ما قامت بتشييده
- بالتأكيد فمواهبه لم تظهر إلا بعد موتها أو مقتلها أو أياً كانت نهايتها التي ربما كانت مأساوية ، ولنتحدث الآن عن مؤسس الإمبراطورية المصرية نابليون العصر الفرعوني
- دعنا قبل أن نتحدث عن مؤسس الإمبراطورية المصرية نتحدث عن دوافع وأسباب تأسيس هذه الإمبراطورية فمثلاً هل كانت طموحات شخصية بحتة أم أن هناك مبررات حربية لها وهل كانت أول إمبراطورية في التاريخ ؟

---

[٣٢] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢

- أعتقد أن ما كتبه د جمال حمدان عن هذا الموضوع سيكون إجابة شافية لأسئلتك الوجيهه
- فماذا كتب عن هذا الموضوع ؟

أول إمبراطورية في التاريخ كانت في مصر

- في كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه : السؤال الأول هو : لماذا أول إمبراطورية ؟ من الواضح أن عوامل الطبيعة ، عوامل الموضع والموقع ، تتضافر هنا لتمنح مصر ثقلاً غير عادي من البداية ، والموضع الجغرافي كما قلنا هو البيئة الطبيعية المحلية داخل مصر نفسها – شكلها وطبيعتها ووزنها ، فهي كواحة فيضية تستقطب حول النهر قد تجانست بشرياً وتوحدت سياسياً منذ البداية وعلمتها دورة النهر النظام والقانون ثم منحتها زراعة الري (قاعدة أرضية) تعد بمقياس العصر ضخمة هائلة ، قوة إنتاجية سخية ، واكتفاء ذاتي تقريباً وقوة بشرية نادرة قوامها الكثافة لا المساحة ، وعلي ضوء إمكانيات الري الحوضي يمكن أن نقدر قوة تحمل مصر بالسكان طوال العصور القديمة هذه بنحو ١٢ مليون ، مع احتمالات خطأ معقولة ، وحول هذا كله كانت الصحراء (الرحم الجغرافي) الذي ولد فيه هذا الموضع في الأول ، ثم (الدرقة) الطبيعية التي حمته جميعاً بعد ذلك ، إن أولي الإمبراطوريات في التاريخ –رغم فولتير وإمبراطورية المناخ– هي إمبراطورية النيل ، فإذا أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا إنما نقف في واسطة العقد في كل معني ، فحولنا منتثراً في كل الجهات شتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ضعيفة الموارد والتنظيم – – – والحقيقة أن مصر طوال الجزء الأكبر من تاريخها القديم ، كما كانت النواة النووية لمنطقة حضارية بكاملها ، هي معظم العالم المعروف حينئذ ، كانت أيضاً من الناحية الاستراتيجية النواة النووية لمنطقة قوة عالمية لا تكاد تختلف في الامتداد والأبعاد بلغة ماكيندر كان الشرق القديم هو (هارتلاند) العصور القديمة ومصر محور ارتكازه PIVOT AREA ، بهذا كله كانت مصر القمة والقلب معاً ، القمة موضعاً والقلب موقعاً ، وبفضل هذا الأخير كان من السهل عليها أن تمد زراعيها بعيداً يميناً ويساراً وشمالاً وجنوباً – – – من الناحية الأخري كان طبيعياً أن يغري ثراء مصر وخصبها بعض هذه الأطراف الفقيرة إما في تسللات متلصصة أو في مغامرات تشنجية ، لا تخرج في مجموعها عن طمع من جانب الرمل في الطين ، أو الرعاة في الزراع ، وبهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر هي أرض المعركة ، والمعركة التأديبية أساساً ، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الأوسط تقريباً
- بمعني أن الأمن القومي لمصر في ذلك الوقت كان يشمل الشرق الأوسط الحالي بسبب طمع الجميع في استيطانها والهجرة إليها ، أعتذر للمقاطعة ، أكمل القراءة من فضلك
- ومن هنا توسعت الإمبراطورية إلي حدودها القصوي كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعني المفهوم وإنما لنشر السلام المصري ، بل إننا لنستطيع أن نزعم بقليل من خشية أن الإمبراطورية المصرية

كانت في جوهرها وفي معني ما (إمبراطورية دفاعية) أساساً حتمتها ظروف الصراع الإقليمي والاستراتيجية العريضة في الشرق القديم[٣٣]

- **إذن لقد كان التوسع حتمي وليس لتحقيق أمجاد شخصية**
- **لقد وصفها الدكتور جمال حمدان بأنها كانت إمبراطورية دفاعية مع بعض التحفظات**
- **نعود للحديث عن الإمبراطور تحتمس الثالث**

تحتمس الثالث والإمبراطورية

- **لم يكد تحتمس الثالث يصبح حاكم البلاد ، حتي اضطربت أحوال البلاد الآسيوية فكون الآسيويون حلفاً ، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر علي أعداءه في معركة مجدو الخالدة التي تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة ، مبتدئاً بذلك هذه السلسلة من المعارك التي بلغت سبعة عشرة حملة ، استولي في بعضها علي الساحل الفينيقي كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر في ذلك التاريخ البعيد ، وأعظم هذه الحملات تلك التي قام بها في السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتي بلغ فيها الفرات ودُونت وقائع تلك الحملة علي جدران معبد الكرنك وعلي لوح جبل بركل فهابته الملوك والأمراء والدول في هذه الأنحاء ، وراحوا يخطبون وده بالهدايا والجزية ، وقد اتبع تحتمس الثالث سياسة حكيمة ، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيد مقررة ، وعمل علي أن يتعلم أنجالهم بمصر ليغرس في قلوبهم حب مصر وليعودوا إلي بلادهم وكلهم عطف ومحبة علي البلد الذي علمهم ، وقد صاغ كهنة آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفي هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده تحتمس الثالث – – –– وكان تحتمس الثالث قائداً حربياً ممتازاً لم يكلف أحداً من رجاله القيام بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، وكان إدارياً ممتازاً فقد وصفه وزيره رخ مي رع أنه كالصقر الذي يري ما لا يبصره البشر العادي واتصفت حملاته بلون آخر ، فإلي جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ في ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها إلي مصر ، وأقام تحوتمس الثالث المسلات التذكارية فشاد اثنتين منها في معبد الكرنك واثنتين في مدينة الشمس ،**
- **وأين هذه المسلات حالياً أم أنها مازالت في أماكنها الأصلية ؟**
- **وكأن القدر شاء أن يخلد تحوتمس الثالث ، فتوزعت مسلاته الأربع في أرجاء المعمورة ، تختال بها بلاد العالم العظمي ، وتقف في أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحتمس الثالث ، تقف إحدي مسلاته في مدينة القسطنطينية – أحضرها الإمبراطور الروماني تيودوسيوس ٣٧٩–٣٩٥م – ، وتقف الثانية في**

---

[٣٣] نقلاً عن كتاب (مختارات٣– من شخصية مصر) – مكتبة مدبولي

مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد علي لحكومة إنجلترا في مدينة لندن علي شاطئ التيمس ، كما أهدي الخديوي اسماعيل المسلة الرابعة إلي حكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم في حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك ،

- وطبعاً مات تحتمس الثالث قبل أن يعرف أن إمبراطوريته قد انهارت
- ومات تحتمس الثالث بعد أن حكم أربعاً وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عاماً[٣٤] ، وفي عهد هذا الملك تم إنشاء البحيرة المقدسة بمعبد الكرنك بطول ٨٠ مترًا، وعرض ٤٠ مترًا، وكان يحيط بها سور. ويوجد على جانبيها الشمالي والجنوبي مقياس للنيل ، له مدخلان أحدهما من الجهة الشرقية، والثاني من الناحية الغربية بكلا منها سلالم حجرية تلك التى كان يغتسل فيها الكهنة قبل أداء المراسم الدينيه او الاحتفالات القوميه التي تقوم الآلهه بحضورها. وكان يتم تغذيتها عن طريق قناة تصل البحيرة بمياه النيل والاعجاز في هذه البحيرة ان المياه فيها ثابتة ولا يزيد منسوب المياه او ينقص حتى مع تغير ارتفاع او نقصان منسوب النيل من أكثر من ٣٠٠٠ سنة ولم تجف البحيرة أبدا وهذا واحد من اهم براهين اثبات عبقرية المهندس المصري القديم مياه منسوبها ثابت لا يقل رغم عوامل البخر والفقد والتسرب
- ولكن لا عجب فهو المهندس المصري الذي شيد وبني وعمر وحير كل مهندسي التاريخ ،
- وجدير بالذكر أن الملك تحتمس الثالث هو سادس ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بالدولة الحديثة وكانت طيبة عاصمة ملكه تتدفق إليها خيرات العالم القديم وعن هذا الموضوع كتب شيخ الأثريين أحمد فخري : (كانت طيبة في أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخري وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة ، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلي فرعون ، وكثيراً ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر علي جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها ، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا ، وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد علي مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب –)[٣٥]

---

[٣٤] ملخص ما ورد عن الملك تحتمس الثالث بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين من صفحة ١٠٣ وما بعدها تحت عنوان حكم تحتمس الثالث – حوالي سنة ١٤٦٨ قبل الميلاد

[٣٥] مصر الفرعونية – أحمد فخري صفحة ٢٩٧

- بمعني أن لدينا في طيبة سجل تاريخي حافل للحضارت التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، ومن يريد أن يعرف كيف كان يعيش أجداده وماذا كانوا يرتدون من ملابس وماذا كانوا ينتجون من منتجات فليحضر إلي مصر ليتعرف علي حضارة بلاده في عهد الإمبراطورية المصرية ، يالها من فترة نادرة في تاريخ مصر ، ولكن أين تم دفن تحتمس الثالث ؟
- في وادي الملوك
- ومن أول من تم دفنه في وادي الملوك ؟
- الملك تحتمس الأول الذي جاء بعد امنحتب الأول وكان أحد أمراء الأسرة ولم يكن ابن امنحتب الأول لأن الأخير لم ينجب بنين ولكن تحتمس الأول تزوج من ابنة امنحتب الأول ليضفي شرعية علي حكمه السعيد وكان تحتمس هذا عندما تولي الحكم رجل ناضج قد جاوز الأربعين من عمره وقد وضع اللبنة الأولي في صرح الإمبراطورية المصرية وكان قائد عسكري من الوزن الثقيل واتسعت حدود مملكته وحكم مصر حوالي ٣٠ سنة وترك العديد من الآثار الخالدة وكان هذا الملك أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن في هرم أو مقبرة يعلوها هرم وفضل أن يدفن في مكان خفي بعيداً عن العيون ووجدت مقبرته في المكان المعروف حالياً بوادي الملوك[٣٦] وبالمناسبة لقد كانت هذه الأسرة من أكثر الأسر التي تركت آثاراً ضخمة خالدة إلي الآن ومعظمها في الأقصر ،
- واضح أن تصرف هذا الملك كان تصرف منطقي لأن كل المقابر الضخمة والأهرامات وخلافه تكون واضحة للجميع وعند حدوث أي مشاكل أو ثورات يتم اقتحامها بسهولة وسرقتها وإلقاء المومياء خارجها وبالتالي فالأضمن إخفاء القبر تماماً عن العيون ومن الممكن إظهار المعبد فقط ، هل تعرف شيئاً عن الملك تحتمس الثاني ؟ لأننا قفزنا إذا جاز التعبير إلي حتشبسوت وتحتمس الثالث ولم نذكر أي معلومات عن من قبلهم من ملوك إذا كانت معلومات تستحق أن تقال
- بالفعل لقد أغفلنا الحديث عن تحتمس الأول برغم أنه وضع أول لبنة في صرح الإمبراطورية المصرية وجاء الفرعون تحتمس الثاني بعد موت تحتمس الأول ويعتبر رابع ملوك الأسرة ١٨ وكان هذا الملك تحتمس الثاني رجل مريض علي ما يبدو وليس له طموحات وأهم ما حدث في عهده القضاء علي ثورة نشبت في شمال السودان حيث كانت هذه البقعة تحت سيطرة الأسرة ١٨ في ذلك الوقت ، وهذا الملك كانت له زوجة هي أخته في نفس الوقت وهي حتشبسوت التي تكلمنا عنها وكانت لها شخصية طاغية وقوية كما ذكرنا وهي أحق بوراثة العرش لأنها بنت الأميرة الوراثية ذات الحق في الوراثة أما باقي أبناء الملك تحتمس الأول فقد كانوا أبناء زوجات ثانويات ومنهم طبعاً الملك تحتمس الثاني الذي كان أصغر منها سناً وكان يشعر بأنه دون أخته (زوجته حتشبسوت) في المرتبة الاجتماعية وقد كانت

---

٣٦ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٨٢

هذه السيدة شريكته في الحكم وكانت صاحبة الأمر والنهي وقد ورثت الشخصية القوية عن نساء هذه الأسرة العظيمات اللاتي ذكرناهن

- وطبعاً بمجرد موت تحتمس الأول قامت صراعات علي الحكم انتهت بالزواج لحل المشكلة أليس كذلك ؟
- بالفعل فالزواج في تلك الفترة كان يحل مشاكل عديدة خاصة بشرعية الحكم فبعد أن مات زوجها تحتمس الثاني تزوجت من ابنه (من زوجة أخري) تحتمس الثالث لتشاركه الملك أيضاً واستمرت في وضعها من القوة والسيطرة ويقال أن تحتمس الثالث هو أخ أصغر لتحتمس الثاني وليس ابنه ، وسواء كان تحتمس الثالث قد تزوج أخته أو عمته حتشبسوت فهذا لم يغير شئ من فرض سطوتها وجبروتها علي الجميع ، بل إن مواهب تحتمس الثالث لم تظهر إلا بعد وفاة حتشبسوت التي كان يكرهها بشدة فقد كانت تعامله باحتقار علي ما يبدو فلما ماتت قام بتحطيم تماثيلها ومحو اسمها من المعابد وما إلي ذلك من الأعمال الانتقامية ويقول أحمد فخري أن علماء الآثار لم يعثروا علي جثتها وعموما قد تكون نهايتها نهاية مفجعة بلا شك[37] ، ومع ذلك تم الإعلان مؤخراً عن اكتشاف جثة يحتمل أن تكون جثة حتشبسوت وكانوا يعتقدون أنها جثة سيدة أخري .
- موضوع أنها عمته أو أخته بالطبع قد يشغل المهتمين بالتفاصيل التي لا تقدم ولا تؤخر في العبرة التاريخية
- بالتأكيد فهل مثل هذا الاختلاف في الرأي قد يؤدي إلي مشاكل كبيرة جداً أم أن مضمون الحدث هو الأساس ؟ ، الغريب أن مثل هذه االأمور يتم مناقشتها أحياناً بعصبية شديدة وفي فترات أخري أهم من تاريخ مصر وتضيع الحقيقة الأساسية المقصود منها العبرة في وسط كلام فارغ (عمته لا بل أخته لا بل خالته)
- بهذا الكلام تم بلورة قصة بداية الأسرة ١٨ وتحتمس الثالث فماذا بعد تحتمس الثالث ؟
- إن هذا الملك أراح المؤرخين جداً فقد كان يصطحب معه في حملاته كتاباً يسجلون تفاصيل ما يحدث ويكتبون التقارير عن المعارك[38] وبالتالي كان من السهل معرفة أدق تفاصيل معاركه وحملاته التي بلغ عددها ١٦ حملة عسكرية[39] وكان يعتمد علي الأسطول مع قواته البرية وكان بارعاً في وضع الخطط الحربية وتنفيذها ولا يأمر جنوده بأي أمر لا يستطيع أن يفعله هو شخصياً وكان شجاعاً لدرجة غير عادية فتراه دائماً في مقدمة الصفوف في أشد مراحل المعركة شراسة ، ويقال أنه أول من قام بتقسيم الجيش إلي ميمنة وميسرة وقلب وقد استطاع السيطرة علي جميع البقاع المعمورة في ذلك الوقت في الأرض وكانت طيبة في أيامه عاصمة العالم القديم وكانت تتدفق عليها خيرات أفريقيا وأسيا

---

[37] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٨٨

[38] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٨٩

[39] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٩٢

وجزر البحر المتوسط٤٠ ، ويعتبر هذا الرجل من الشخصيات البارزة التي تحدثنا عنها من قبل واستطاع أن يفرض نفسه علي كتب التاريخ

- يبدو أنك مولع بالحديث عن هذا الملك ، فلقد تكلمنا عنه بما فيه الكفاية فما الداعي للمزيد من الكلام إلا إذا كنت بالفعل معجب بهذا النوع من القادة ، وأرجو أن تحدثني عما حدث بعد موته

امنحتب الثاني يؤكد سيطرته

- معك كل الحق فلنكمل الحديث ، فبعد أن مات تحتمس الثالث خلفه علي العرش ابنه امنحتب الثاني الذي نشأ وترعرع علي دقات طبول الحرب ورأي العالم كله ينحني أمام أبيه صاحب الشخصية الفذة والذي قام بتربية ابنه تربية عسكرية تحت إشراف أحد ضباطه الموثوق بهم
- ومن المؤكد أن الضابط الذي كان يدرب امنحتب الثاني قد سجل ذلك في مقبرته
- بالطبع فجدران المقابر يا عزيزي توضح الكثير والكثير عن العصور الفرعونية لأن كل شخص كان يسجل كل أعماله التي يفخر بها داخل مقبرته كما ذكرنا وهذا الحدث يستحق التسجيل ليؤكد أنه كان يدرب ابن الملك تحتمس الثالث (إذ نري صورته علي أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي كان يشرف علي تربية أمنحوتب العسكرية ويعلمه الرماية ، وهو يوجه الحديث لأمنحوتب قائلاً : شد القوس حتي أذنك مستعم كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير أمنحوتب)[٤١]
- فهل كان هذا الملك مقاتل شجاع علي نفس مستوي والده ؟
- بمجرد موت تحتمس الثالث أعلنت بعض الولايات في سوريا استقلالها عن الحكم المصري وهذا بالطبع يعد استخفافاً بامنحوتب الثاني فقام علي رأس جيش وخاض معركة انتقامية بشعة نكل فيها بأعدائه أشد التنكيل مما أدي إلي توطيد أركان إمبراطوريته وعرف الجميع أن الجالس علي العرش لا يقل قوة عن أبيه وسارعت كل الولايات بإرسال الهدايا وتقديم فروض الطاعة للملك الجديد ، وظل امنحتب الثاني جالس علي عرش الإمبراطورية لمدة ٢٥ سنة٤٢ كاملة ثم مات ودفن في وادي الملوك كما مات من قبله وكما مات من بعده وسبحان الحي الذي لا يموت ،
- فماذا حدث بعد موته ؟
- تولي الحكم تحتمس الرابع آخر الملوك المحاربين في الأسرة ١٨ وجاء بعد صراع علي الحكم مع أخوته بعد وفاة أبيه امنحوتب الثاني ، وكان تحتمس الرابع ملك محارب مثل أبيه وجده ويعتبر آخر الملوك المحاربين في هذه الأسرة٤٣ وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية

---

٤٠ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٢٩٧

[٤١] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٨٨

٤٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٠٥

٤٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٠٧

وترك العديد من الآثار الموجودة حتي الآن (ومن أشهر الآثار الباقية من عهده ، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للآن بين مخالب تمثال أبو الهول بالجيزة ، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها ، أنه ذهب عندما كان شاباً ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأي فيما يري النائم الإله حور–ام–أخت "المجسد في تمثال أبو الهول " يبشره بتاج مصر عندما يحرره من الرمال التي عليه ، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور–ام–أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة ، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور –ام–أخت)٤٤ وتسمي هذه اللوحة بلوحة الحلم

- طبيعي كما ذكرت أن يتم اختلاق هذه النبوءة خلال وجود صراع علي العرش ، فهل ترك آثار أخري بخلاف النبوءة المزعومة بين مخالب أبو الهول
- لقد ترك آثار أخري بالطبع من بينها مسلة موجودة حالياً في روما وتعتبر من أعلي المسلات المصرية إذ يصل ارتفاعها إلي ٣٠.٧ متر (وقد خطي تحتمس الرابع خطوة جريئة في السياسة الخارجية وهي أنه تزوج من ابنة الملك الميتاني "ارتاتاما" وهي خطوة لها أكثر من مدلول إذ أن هذا الزواج الدبلوماسي يؤكد اعتراف فرعون مصر بدولة الميتاني وفي نفس الوقت يعلن إنهاء حالة الحرب بين مصر وهذه الدولة وأصبحت من الآن مملكة الحيثيين هي العدو المشترك لمصر وللميتانيين وقد أطلق المصريون علي هذه الأميرة الميتانية اسماً مصرياً هو "موت أم أويا" وهي التي أصبحت فيما بعد أم الفرعون المصري أمنحوتب الثالث)٤٥ وقد مات تحتمس الرابع شاباً حيث دام ملكه ١٤ سنة فقط ، وكان قد تولي الملك وهو في العشرين من عمره فمات وقد بلغ ٣٤ سنة ودفن في وادي الملوك
- عظيم جداً ، فماذا بعد ؟

الملك امنحتب الثالث وزوجته الملكة (تي)

- بعد أن مات تحتمس الرابع تولي ابنه الملك امنحتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمي (أيام السلم)٤٦ وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية وطبعاً مصر في عهده كانت قد تأثرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وبالمناسبة زوجته كان اسمها (تي) وفي هذا العصر بدأ المصريون يقيمون التماثيل للملكات جالسات جنباً إلي جنب بجوار الملوك وفي نفس الحجم وعندما جلس هذا الفرعون علي عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع

---

[٤٤] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٨٩ ،

[٤٥] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٩٠

٤٦ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٠٩

الولايات مستقرة ، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف والمتعة وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان

- أشعر أن الأمور ستتدهور أليس كذلك ؟
- بالفعل لقد كان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع ، ولم يفكر هذا الفرعون أن يذهب إلي أي مكان في إمبراطوريته الشاسعة ليراه الناس ويرهبونه هو وجيشه إنما عاش حياته يتمتع بالرفاهية ، واستمتع بالرقص والغناء ولأن الناس علي دين ملوكهم فإن هذه الروح انتشرت في المجتمع المصري
- هذا الملك خير مثال علي الأحفاد الذين يعيشون حياة الترف والمتعة ويضيعون ما صنعه الأجداد العظماء فقد ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب ،
- أليس من المحتمل أن تكون أمه الميتانية هي السبب في تأثره بعادات غير مصرية وجعلت منه شاب لا يرقي لمستوي فراعنة مصر الكبار السابقين
- أكيد امنحتب الثالث قد ضعفت صحته من كثرة الملذات وأصبح رجلاً محطماً
- نعم مما أدي إلي سيطرة الملكة (تي) علي مقاليد السلطة في يدها كما أنه أشرك ابنه معه في الحكم في أواخر أيامه وهذا الابن هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون ،
- أشم رائحة انهيار الإمبراطورية المصرية مع وصول اخناتون للحكم

امنحتب الرابع (اخناتون)

- في الحقيقة بدأ امنحتب الرابع المعروف حالياً باسم اخناتون بداية عادية جداً كأي ملك في طيبة وقام بتقديم الولاء لإله الدولة آمون واتخذ لنفسه الألقاب الخمسة التقليدية المتوارثة وتزوج من نفرتيتي صاحبة أشهر تمثال لامرأة فرعونية حالياً (رأس نفرتيتي وهو غير موجود بمصر بالطبع) ، وكانت أمه الملكة تي تساعده في الحكم في سنواته الأولي
- الملكة تي التي هي من عامة الشعب
- نعم (وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة – أن الملكة تي أم أمنحوتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبلغه فيه بموت زوجها أمنحوتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد أمنحوتب الرابع وقد أجاب توشراتا –وهو ابن الملك السابق – علي خطاب تي بأن عليها أن تقنع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن أمنحوتب الرابع لم يعتل عرش مصر إلا بعد وفاة والده – أي لم يكن

شريكا معه في الحكم – وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية) ٤٧

- من الجيد أن تتواجد سيدة بهذه القوة والذكاء لتساعد ابنها الملك في بداية توليه الحكم
- (وما كادت الأمور تستتب لاخناتون حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، الدعوة إلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه آتون)٤٨
- وهذا يُعد انقلاب ديني خطير علي معابد آمون وباقي الآلهة المزعومة في طيبة
- بالطبع فقد أقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير بالرغم أن الشمس كانت تعبد من قبل بصورة أو بأخرى ، ثم قام بتغيير اسمه من امنحتب الرابع إلي إخناتون وترجمتها (المفيد للشمس)٤٩ واشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أبيه وأمه غضبوا منه كثيراً لأنهم كانوا مشاركين له في الملك حتي هذه الفترة في بعض الروايات والآراء وبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وهو غير مهتم ،
- فهل ترك طيبة ؟
- نعم وقام بتشييد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي٥٠ مما أدي إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الأسرة المالكة ، وكان إخناتون يرفض أن يُعبد أي إله آخر سوي الإله آتون (قرص الشمس) وأعلن التوحيد والتخلص من تعدد الآلهة وهذا طبعاً سيؤدي إلي إن الكهنة سيفقدون مكانتهم
- هل لديك نماذج من أقواله ؟
- سأعطيك فكرة بسيطة عن النشيد الذي كان يتعبد به إلي الإله الواحد الذي يعبده لتتعرف علي طبيعة أفكار هذا الملك وإليك مقطع صغير من أحد أجزاء النشيد من منتصفه تقريباً (ما أعظم أعمالك التي عملتها ، إنها خافية علي الناس أيها الإله الأوحد ، الذي لا شبيه له ، لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك ، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما علي الأرض يسعي علي قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه ، تضع كل شئ في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل شخص علي طعامه وسنوات حياته مقدره له)٥١ وطبعاً لا تعليق علي ما ورد في هذا النشيد لكن

---

[٤٧] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٩٨

[٤٨] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٩٩

[٤٩] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣١٧

[٥٠] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠١

٥١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٢٦

من المهم أن نعرف أن اخناتون وعائلته فقط هم المسموح لهم بعبادة الإله آتون لأن اخناتون اعتبر نفسه الخادم الأول للإله آتون أما رعيته فكانوا يقدسون اخناتون الذي أصبح في مصاف الآلهة فقد ثبت أن اخناتون نفسه كان له كاهن مخصص له ويحمل نفس لقب اخناتون بالنسبة لآتون[٥٢] ،

- فماذا حدث للإمبراطورية المصرية ؟
- الإمبراطورية المصرية كانت تحتضر وفي طريقها إلي الموت ولم يتبقي سوي إعلان وفاتها ، وبالمناسبة اخناتون كان لديه ثلاثة بنات فقط ماتت إحداهن وهي صغيرة ولم يكن له أولاد ذكور وكانت عاصمة ملكه العمارنة بعيداً عن طيبة التي مات فيها والده وبقيت أمه (تي) التي قررت أن تنغص عليه حياته وتوقع بينه وبين زوجته نفرتيتي علي ما يبدو حيث أنها زارته في العمارنة وظلت ضيفة عنده لفترة ثم عادت إلي طيبة مرة أخري ومن بعد هذه الزيارة ساءت العلاقات جداً بين اخناتون وزوجته وكل منهما أقام وحده ، وكان يوجد إخوة صغار لإخناتون في الغالب منهم أمير اسمه (سمنخ كا رع) والثاني اسمه (توت عنخ آتون) وكان اخناتون يميل أكثر إلي (سمنخ كا رع) فقام بتزويجه من ابنته وجعله شريكاً له في ملكه بينما عاش توت عنخ آتون في ضيافة نفرتيتي بعيداً عن اخناتون ثم بدأت المؤامرات التي في الغالب قادتها الملكة الأم (تي) وقائد الجيش (حور محب) علي ما يبدو للتخلص من اخناتون وشريكه في الملك (سمنخ كا رع) وتم اغتيال (سمنخ كا رع) ثم بعد ذلك تم قتل اخناتون أيضاً بعد عامين من قتل شريكه في الملك
- كل هذا من أجل المحافظة علي كيان العرش بالطبع
- بالتأكيد ، وقد (مات اخناتون وهو لا يزال شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، مات الملك الإله ولهذا لم يتمكن أتباعه من الاستمرار في دينهم ، فقد مات اخناتون ومات معه دينه وعقيدته إذ بموته فقدت الرعية الرمز الحي الذي يقدسونه وبالتالي فقدوا وسيلة الاتصال بالإله آتون)[٥٣]
- فماذا نستفيد من هذه القصة ؟
- أعتقد أن أي نظام حاكم مستقر إذا شعر أن أحد حكامه قد خرج عن المألوف وبدأ سياسة تؤثر علي نظام الحكم لابد أن يتم التخلص منه وبواسطة أقرب الناس إليه وهناك العديد من الأمثلة علي مر التاريخ مثل ما حدث مع يوليوس قيصر في روما وما حدث مع الحاكم بأمر الله في القاهرة وهكذا
- فمن تولي الحكم بعد مقتل اخناتون ؟

---

[٥٢] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠٠

[٥٣] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠٣-٢٠٤

توت عنخ آمون يصل للحكم

- تولي حكم البلاد توت عنخ آتون الذي تزوج من إحدي بنات اخناتون وكان صغير السن وقام بتغيير اسمه تحت ضغط من الكهنة ليصبح توت عنخ آمون٥٤ وأعاد العاصمة مرة أخري في طيبة وتم تحطيم معظم آثار اخناتون وخربوا عاصمته في العمارنة وكان الملك الصغير توت عنخ آمون مستسلم تماماً لقرارات الكهنة وكان علي ما يبدو ملك ضعيف بالرغم من شهرته حالياً في هذه الأيام التي يرجع السبب فيها إلي العثور علي مقبرته كاملة بكل كنوزها لأنها كانت مختفية عن اللصوص كل هذه السنين ، وقد تم اكتشاف المقبرة في ٤ نوفمبر ١٩٢٢ (بكل ما فيها من ثروة تدل علي البذخ والإسراف الذي عاش فيه ملوك الإمبراطورية ، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار بأن توت عنخ آمون كان له كل هذه الثروة من الأثاث الجنازي ولم يكن ملكاً له مكانته التاريخية ،
- ماذا لو قيس بغيره من الملوك وفي هذه الحالة قد يستطيع الإنسان أن يتخيل ما يجب أن يكون عليه الأثاث الجنازي بالنسبة للملوك العظام أمثال تحتمس الثالث وأمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني)٥٥
- لم يكن لهذا الملك وريث في الحكم ومات بعد عشر سنوات فقط من حكمه وهو صغير السن ولم يكن له ولد من بعده ووصل الأمر إلي أن حكم البلاد رجل ليس من الأسرة المالكة وهو الملك (آي) الذي كان كاهناً ومقرباً من الكهنة ولكنه كان علي عداء شديد مع حور محب قائد الجيش الذي تولي الحكم بعد موت (آي) بإجماع الآراء وبدون إراقة نقطة دم واحدة لأن البلاد كلها كانت تسعي إلي قائد شجاع يقودها إلي بر الأمان ولأن حور محب كان يريد أن يكون ملك شرعي قام بالزواج من إحدي أميرات الأسرة المالكة السابقة وقام بإجراء بعض الإصلاحات الإدارية وإعادة ترتيب الجيش وأعاد الطمأنينة إلي الشعب وحكم مصر حوالي ٣٠ سنة كاملة وكان آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس الأول
- لفت نظري في كلامك عبارة (البلاد كلها كانت تسعي إلي قائد شجاع يقودها إلي بر الأمان) فهل الشعب هو الذي كان يسعي لذلك القائد أم المستفيدين من هذا النظام من نخبة الكهنة ومن شابههم من كبار رجال الدولة ؟
- من المؤكد أن استقرار نظام الحكم في مصر في تلك الفترة كان يعتمد علي وجود قائد قوي يسيطر علي الأمور بحسب البيئة الفيضية التي تحدثنا عنها من قبل وكان ما يهم النخبة والكهنة في ذلك الوقت هو ولاء الملك للآلهة المعترف بها لديهم فمثلاً (اعتبر كاتب كل من قائمة أبيدوس وسقارة

---

٥٤ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٤٠

٥٥ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢١١

الملك حور محب أول ملك شرعي بعد الملك أمنحوتب الثالث وتجاهل عن عمد كل من أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي الموصومين بالآتونية) [٥٦]

- علي أي حال إذا كان لابد من وجود ديكتاتور مؤله علي العرش فمن الأفضل للشعب أن يكون عادلاً فهل كان حور محب ملكاً عادلاً ؟

قوانين حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨

- كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن الملك حور محب ما ملخصه : (كادت البلاد أن تقع في هاوية الإنقسام الداخلي والانحلال ، لولا أن قيض الله لها زعيماً من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن وهو (حور محب) الذي كان من ضباط الجيش في عهد اخناتون وقائد الجيش في عهد توت عنخ آمون ، ولم يكن طامعاً ولا راغباً في أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون ملكاً ، تولي حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلي ذلك دفعاً ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها ، - -
- الهاوية هنا هي عدم السيطرة علي الشعب وإقامة آثار وتحقيق انتصارات والمحافظة علي مصالح الكهنة والنخبة الحاكمة أم ماذا يقصد بالهاوية ؟
- أعتقد أنه يقصد عدم استقرار الحكم
- فماذا كتب أيضاً عن حورمحب ؟
- وقد تزوج حور محب من الأميرة موت نجمت أخت الملكة نفرتيتي ليكتسب شرعية الحكم كما كانت تقتضي الأمور في العصر الفرعوني عندما يكون الملك الجديد لا ينتمي للأسرة الحاكمة السابقة ، وقد شيد حور محب في معبد الكرنك بوابة من الجرانيت ويمتد من هذه البوابة طريق الكباش إلي الجنوب حتي معبد الإلهة موت ثم يأخذ طريقاً آخر إلي معبد الأقصر ، وقد استطاع هذا الملك أن يعيد الاستقرار للبلاد ولاستكمال هذا الاستقرار حارب الحيثيين وعقد مع ملك خيتا معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتاً علي الحدود وتفرغ للإصلاح الداخلي حتي تستعيد البلاد قوتها وهيبتها) ،
- أي أنه كان رجل دولة بالمعني الحقيقي ومن الواضح أنه كان محبوباً من المؤرخين علي الأقل
- نعم فقد كتب عنه الدكتور أحمد بدوي بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما ملخصه : (كان يؤذيه ما رأي من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام حور محب ، فعزم علي إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلي إصدار قانون ينظم حياة الأمه أملاه بنفسه علي كتابه ،
- الحاكم هو القانون في مصر فإذا خالفت الحاكم فأنت تخالف القانون

---

[٥٦] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢١٦

- كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاختارهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقاً ، وأجرأهم قلباً ، وأطهرهم لساناً ، وأعفهم يداً ، وحرم علي القضاة أن يصادقوا أحداً من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية ، وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين في الحق ، ولا تأخذه في تنفيذه لومة لائم ، وقال الملك حور محب عن القانون الذي وضعه : (إني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي) ويعتبر الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وقد حكم مصر ما يقرب من ١٢ سنة ، من حوالي سنة ١٣١٩ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ١٣٠٧ قبل الميلاد[٥٧]
- ومات حور محب
- ويموت حور محب انتقلت السلطة إلي الملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة ١٩ وتم انتقال السلطة بهدوء شديد وبدون صراعات لأن حور محب أساساً لم يكن يطمع في الملك ولم يعمل لمصالحه الشخصية أو لتوريث ملكه من بعده لعائلته بل إن مصلحة البلاد كانت عنده أهم من ذلك كله وبالتالي لم تحدث صراعات علي خلافته فتولي الحكم أحد زملاءه بالجيش وهو رمسيس الأول وكان رجل مسن جداً وكان له ولد يسمي (سيتي الأول) وكان أيضاً ضابط بالجيش كأبيه وورث عنه الملك بعد وفاته
- وكانت هذه بداية الأسرة ١٩ فإن أمكن تلخيصها بالكامل قبل الحديث عن أهم ملوكها سيكون ذلك أفضل

الأسرة ١٩ الفرعونية

- إجمالي عدد ملوك هذه الأسرة ١١ ملك أولهم رمسيس الأول وأشهرهم سيتي الأول ورمسيس الثاني صاحب التمثال الشهير الذي كان موجود في الميدان الذي يحمل اسمه بالقاهرة حالياً وهو ميدان رمسيس وقد تم نقله من الميدان ومع ذلك لا يزال الميدان يحتفظ باسمه ، ومكتوب في موسوعة حكام مصر أن هذه الأسرة حكمت مصر من سنة ١٣١٤ ق م إلي سنة ١٢٠٠ ق م[٥٨] أي حوالي ١١٤ سنة ، بينما في كتاب مصر الفرعونية مكتوب أنها حكمت مصر من سنة ١٣٠٤ ق م إلي سنة ١١٩٥ ق م[٥٩] أي حكمت مصر حوالي ١٠٩ سنة
- وهذا دليل علي أن تواريخ حكم الفراعنة تقريبية كلها فلا تشغل بالك كثيراً بدقة التواريخ
- علي أي حال الإحصائية التي أقوم بذكرها في هذا الحوار معتمدة بالكامل علي كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري ، أما إذا عدنا للملك رمسيس الأول المسن فقد حكم مصر أقل من

---

[٥٧] نقلاً عن كتاب (تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة)– من فجر التاريخ إلي الفتح العربي– تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف – صفحة ١٠٢ ، ١٠٣ – وكتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – صفحة ٦٧ –

[٥٨] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٣٣

[٥٩] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٥٦

عامين فقط وجاء بعده (سيتي الأول) ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقي للأسرة ١٩ لأنه بدأ عصر جديد يُطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات وهزم البدو في سيناء وجنوب فلسطين بل إنه اندفع بجيشه في كل مكان (ليبيا ، سوريا ، فلسطين --- إلخ) لإعادة أمجاد تحتمس الثالث وسجل انتصاراته علي الجدران وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك وقد بلغت مساحة بهو الأعمدة ٥٤٠٠ متر ، فالنصف الشمالي من هذا البهو ينتمي إلي سيتي الأول والنصف الثاني ينتمي للملك رمسيس الثاني وكل هذه الأعمدة مزينة بالنقوش والمناظر واهتم بالمناجم وحفر الآبار وأشرك ابنه في الحكم لتدريبه علي الحكم وبعد أن مات تولي ابنه رمسيس الثاني حكم مصر وهو يعد أشهر فرعون في تاريخ مصر بالكامل في هذه الأيام وقد حكم مصر لمدة سبعة وستين عاماً وامتلأت مصر بآثار عديدة ومتنوعة من عهده واسم رمسيس أصله (رع مس سو) أي الإله رع هو الذي أنجبه ، ولقد خلد رمسيس الثاني نفسه بما أقامه من معابد ومسلات (١٠٠مسلة) ومقاصير وتماثيل ضخمة تزن مئات الأطنان ولوحات في جميع أنحاء مصر وكذلك شيد الملك رمسيس الثاني معابد في تنيس وأبيدوس والنوبة ولعل من أشهرها معبد أبي سمبل الكبير الذي كرسه لعبادة الإلهين آمون رع وبتاح والملك رمسيس الثاني نفسه ، وكذلك معبد أبي سمبل الصغير الذي كرسه لعبادة الإلهة حتحور وزوجته الملكة نفرتاري التي كانت الزوجة الرئيسية لرمسيس الثاني أو كبيرة الزوجات الملكيات واسمها تم ترجمته بمعاني مختلفة مثل جميلة الجميلات أو التي لا مثيل لها هذا إلي جانب بناء معبده الجنائزي الذي شيده في البر الغربي بطيبة ويعرف باسم معبد الرمسيوم والجدير بالذكر أن الشمس تتعامد علي وجه تمثال رمسيس الثاني في معبده في مدينة أبي سمبل ، جنوب أسوان مرتين كل عام مرة يوم تتويجه ومرة أخري يوم مولده وتتوغل الشمس لمسافة حوالي ٦٠ متر من مدخل المعبد لتصل إلي قدس الأقداس ، وبرغم أن الملك رمسيس الثاني شيد مقبرة عظيمة في وادي الملوك إلا أنه لم يدفن بها ، أما الملكة نفرتاري فقد دفنت في مقبرتها الشهيرة بوادي الملكات بطيبة الغربية وتعتبر من أروع المقابر الفرعونية في مصرومما يذكر أيضاً للملك رمسيس الثاني أنه لم يهمل الناحية البحرية لمصر ، فقد بني أسطولاً من السفن المحاربه ليرد به هجمات قراصنة البحار

- أعتقد أن اسم رمسيس الثاني مرتبط بمعركة قادش أليس كذلك ؟
- بالطبع فهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال لصالح العدو في بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصفح وقبلوا الأرض تحت قدميه ، وسيطر رمسيس الثاني علي فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا[٦٠] بعد ان اتفق مع الأعداء (الحيثيين) علي احترام الحدود من كلا الطرفين وإنهاء الحرب بالرغم من انتصاره الساحق الذي جاء

٦٠ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٦٩

بعد هزيمة كادت تقضي علي حياته في بداية المعركة وتفرق عنه جنوده وفقد ثقته بهم وهذا يفسر قبوله الصلح بعد انتصاره لعدم ثقته في رجاله ويقول احمد فخري في كتابه عن ذلك (وربما كانت حالته النفسية هي السبب في قبول الصلح وهو في انتصاره مادام رجاله لا يستحقون الاعتماد عليهم)٦١ ، وقد سجل الحيثيون في آثارهم أن نتيجة معركة قادش كانت لصالحهم هم وأنهم قاموا بمطاردة الجيش المصري (وقد يحتار المؤرخون بين الروايتين ، فالبعض يميل إلي الرواية المصرية والبعض الآخر يفضل الرواية الحيثية ، علي أنه من الطبيعي أن يحتفظ كلا من الملكين المصري والحيثي لنفسه بكرامته ، – – وظلت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلي أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما ،

- ماذا حدث ؟
- أبرموا معاهدة " أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها ، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية المكتوبة بالهيروغليفية علي أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة علي لوحين من الطين عثر عليهما في بوغاز كوي – – بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين ، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضاً كلاً من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيلي الثالث الملكة بوتو خيبا ، بل أكثر من هذا لقد قام خاتو سيلي الثالث بزيارة ودية لمصر)٦٢
- واضح أن رمسيس الثاني كان فرعون من الفراعنة الأقوياء وكان حكمه مستقر وحافل بالإنجازات
- نعم ولقد كان رجل مزواج وله أولاد وبنات كثيرين لم يستطع المؤرخون حصرهم ويقال أنه تزوج ثلاثة من بناته وكان عنده ما يزيد عن ١٠٠ ولد وبنت تقريباً ، ثم مات واعتلي العرش ابنه مرن بتاح وقد كان في حوالي الستين من عمره نظراً لأن والده امتد به العمر في الحكم وكبر سنه وأغلب الحروب التي خاضها هذا الملك حروب دفاعية علي ما يبدو ومات بعد ١١ سنة من حكمه ويبدو أن هذا الملك قد قاتل بني إسرائيل لأن اسمهم علي لوحة انتصاراته (لوحة مرنبتاح الشهيرة) ولكن هذا الموضوع غامض حتي الآن ولكن أكد بعض العلماء أن بني اسرائيل قد خرجوا من مصر أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة٦٣ وليس في عهد هذا الملك ، وعلي العموم توقيت خروج بني إسرائيل من مصر لم يؤكده أي عالم من علماء التاريخ حتي الآن بشكل محدد كما ذكرنا من قبل ،
- فما المكتوب علي لوحة مرن بتاح ؟

---

٦١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٦٩

٦٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٢٤–٢٢٥

٦٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٧٨

- يقول د سيد توفيق : (علي أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن من الشرق أو من الجنوب بل أتي هذه المرة من الغرب من ليبيا ، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة –مري– رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتي ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع في معركة الست ساعات من أن يقتل ٦٠٠٠ وأن يأسر ٩٠٠٠ وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمثالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهده تفاصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولي التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية –) ٦٤
- لقد كان ملك مقاتل بالفعل ويفخر بذلك
- بالفعل كان مرن بتاح في أغلب الظن آخر الرجال المحترمين في الأسرة ١٩ لأن باقي ملوك الأسرة كانت فترات حكمهم قصيرة وتدهورت البلاد في عهدهم بل إنهم قد يكونوا ليس لهم أي علاقة أو قرابة للأسرة أساساً ولن أشغلك بكل الاحتمالات التي أدت إلي هذه الأحداث ، وعندما مات مرنبتاح تم دفنه بقبره بوادي الملوك ولكن تم العثور علي مومياءه في مقبرة أمنحوتب الثاني التي استخدمت بعد ذلك كمقبرة جماعية لمجموعة من مومياوات الملوك لحمايتها
- إذن لا توجد أسماء تستحق أن نتحدث عنها في الأسرة ١٩ بعد مرنبتاح

رمسيس الثالث أبرز ملوك الأسرة رقم ٢٠

- المهم أن هذه الأسرة قد انتهت إلي الأبد وجاءت أسرة جديدة هي الأسرة رقم ٢٠ المكونة من سبعة ملوك وكل ملك منهم اسمه رمسيس (من الثالث إلي التاسع) وحكموا مصر حوالي ١١٥ سنة٦٥ بحسب الدكتور ناصر الأنصاري وكان مؤسس هذه الأسرة هو الملك رمسيس الثالث الذي حكم البلاد لمدة ٣٢ سنة ، يقول عنها أحمد فخري (–– كانت في الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين)٦٦ وهذا الرجل يعتبر مثل للشخصيات البارزة التي جاءت في فترات غير مستقرة فصنعت الاستقرار وانتهي الاستقرار بعد انتهاء حكمها والطريف أن كل من جاء بعده من أسرته اسمه رمسيس أيضاً

---

[٦٤] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٢٦–٢٢٧

٦٥ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٤

٦٦ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٣٨٩

- ولكن ليس كل من سمي نفسه رمسيس يمكنه أن يصنع ما صنعه رمسيس الثاني أو رمسيس الثالث ، فلنكمل الحديث عن الملك رمسيس الثالث
- في عهده تم تشييد العديد من الآثار الرائعة واستطاع أن يحمي مصر من جميع الأخطار التي تعرضت لها وفي عهده حصل كهنة آمون علي امتيازات خاصة (إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلي ١٠% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن ٥% من هذه الأراضي ، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده ٨٦٤٨٦ خادماً و ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد ٢٨٤٤٣٥٧ والطيور ١٢٦٢٥٠ كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له ، وقد يوضح هذا مدي ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث) ٦٧
- هذا معناه أن كهنة آمون كانوا مرفهين عن باقي المعابد وهذا يفسر ما كان يحدث من صراعات بين نفوذ الآلهة طوال تاريخ العصور الفرعونية إنه صراع اقتصادي علي ما يبدو بين الكهنة لامتلاك المال والنفوذ معاً ومن دقة الأرقام المسجلة من هذه الفترة يتضح أنها كانت تخضع لحسابات صارمة
- وكان رمسيس الثالث من المعجبين جداً بالملك رمسيس الثاني وقلده في كل شئ وأطلق اسمه علي أولاده تيمناً به ثم سرعان ما تدهورت البلاد مرة أخري من بعده وأهم ما يميز هذا العصر الذي كان تمهيداً لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة بعد ذلك أن الأجانب تولوا وظائف هامة في الدولة وفي البلاط الملكي وتسبب هؤلاء الموظفون في إحضار الجنود المرتزقة الغير مصريين وساءت الحالة الاقتصادية في البلاد في آخر أيام هذا الملك وتولي حكم مصر من بعده ملوك ضعفاء عجزوا عن التغلب علي الأزمة الاقتصادية وسيطر عليهم الكهنة إلي أن انتهت هذه الأسرة تماماً وبداية ما يسمي بعصر الاضمحلال الأخير
- أي أننا وصلنا لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة ، فهل توجد أي أحداث مهمة أو معلومات عن فترة حكم الأسرة ٢٠
- ما يمكن أن يقال من معلومات تاريخية عن فترة حكم رعامسة الأسرة ٢٠ فمعلومة قد تكون مهمة بالنسبة لك وهي من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الأول) صفحة ٢٣٢ ، ٢٣٣ وهي تتحدث عن سرقات قبور الملوك نظراً لفقدان الشعب لإيمانه بالآلهة وزيادة معدلات انتشار الفساد في عهد رمسيس التاسع حيث يقول الدكتور سيد توفيق (-------- جلس علي عرش مصر بعد ذلك الملك رمسيس التاسع واستمر يحكم أكثر من عشرين عاماً ولعل شهرته ترجع للبرديات التي تتحدث عن سرقات مقابر الملوك التي حدثت في عهده ، وقد وصل الفساد الإداري ذروته في العام السادس عشر من حكمه وبدأت العصابات في طيبة تتجه لسرقة المقابر وما بها من ذهب وفضة ولم تسلم

---

[٦٧] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٣٠

مقابر فراعنة مصر العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني من عبثهم ، وبدأ الناس يفقدون أيمانهم بآلهتهم وبملوكهم وحكامهم ، إذ تسجل إحدي هذه البرديات كيف أن "باسر" عمدة مدينة الأحياء الممثلة في الضفة الشرقية لطيبة تقدم بتقرير للوزير " خع إم واست " الذي كان ينوب عن الملك رمسيس التاسع يبلغه فيه عن السرقات التي تحدث في مدينة الموتي " الضفة الغربية لطيبة " تحت سمع وبصر عمدتها "باورعا" فأمر الوزير بتشكيل لجنة للتأكد من صحة ما جاء بالتقرير

- لجنة تقصي حقائق في العصر الفرعوني شئ طريف فعلاً
- ، وقد سجلت هذه اللجنة النتائج التي وصلت إليها علي أكثر من بردية لعل أهمها هي بردية "أبوت" التي أبقاها لنا الزمن لنعرف منها تفاصيل هذه السرقات وما تم بخصوصها فقد اعترف اللصوص بانتهاكهم لقدسية مومياوات فراعنة مصر كبيرهم وصغيرهم مما اضطر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة أن ينقلوا – سراً – بعض مومياوات فراعنة الدولة الحديثة لحمايتها من عبث اللصوص إلي أكثر من مخبأ ، فنقلوا ١٣ مومياء إلي مقبرة أمنحوتب الثاني ثم اختاروا مقبرة لم تتم بالدير البحري ووضعوا فيها ٤٠ مومياء أخري وهي ما يطلق عليها اصطلاحاً خبيئة الدير البحري ،
- ومتي تم الكشف عن هذه المومياوات ؟
- ظلت مومياوات الملوك في مخبأها إلي أن توصل "إميل بروكش " عام ١٨٨١م إلي مومياوات الدير البحري "ولوريه" عام ١٨٩٨م إلي المومياوات المختبئة في مقبرة أمنحوتب الثاني وهم جميعاً الآن بصالة المومياوات بالمتحف المصري) ، ويعتبر الملك رمسيس الحادي عشر هو آخر ملوك الأسرة العشرين واستمر حكمه لمصر ٢٨ سنة وقد ازدادت في عهده قوة ونفوذ وجرأة كبير كهنة آمون المدعو حريحور (– كما تشهد بهذا مناظر معبد خنسو في منطقة معابد الكرنك – أن يسمح لنفسه أن يصور في نفس مرتبة الملك وبحجمه بل نراه يلبس تاج الوجهين ويعتبر نفسه ملكاً في طيبة علي الأقل وأمر بوضع اسمه داخل الخرطوش الملكي وإضافة الألقاب الملكية بل وأطلق علي فترة حكمه اصطلاح " عصر النهضة " وأخذ يؤرخ الحوادث طبقاً لهذا العصر ورضي رمسيس الحادي عشر بالأمر الواقع مغلوباً علي أمره . وتنتهي الأسرة العشرون وبالتالي عصر الدولة الحديثة)٦٨ .

عصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة

- أتمني أن نتحدث باختصار وفي عجالة عن نهاية العصر الفرعوني لأننا تكلمنا عنه أكثر من اللازم علي ما أعتقد
- كما تشاء فلنتكلم عن عصر اضمحلالهم الأخير وخضوعهم لدول أخري مثل ليبيا والنوبة والآشوريين ثم الفرس

[٦٨] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٣٤

- وأرجوا أن نقف علي أسباب الضعف والانحلال والاضمحلال حتي نأخذ العبرة والدرس ،
- يرجع السبب الرئيس في هذا الاضمحلال من وجهة نظر بعض المؤرخين إلي زيادة عدد الجنود المرتزقة في الجيش المصري وضعف الحكام والهجرة السلمية الكثيفة التي حدثت من ليبيا إلي مصر في عصر الأسرة الحادية والعشرين المكونة من سبعة ملوك حكموا مصر من سنة ١٠٨٥ ق م إلي سنة ٩٥٠ ق م٦٩ حتي أن هؤلاء الليبيين تمكنوا من بسط نفوذهم في الوجه البحري بالكامل ولا داعي لذكر أسماء ملوك الأسرة ٢١ لأن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التي لم يتفق عليها علماء الآثار اتفاقاً كاملاً٧٠ ، أما عصر الاضمحلال الأخير للفراعنة فمكون من عشرة أسر ويمكن أن نعتبره قد بدأ في الأسرة ٢١ وحتي الأسرة ٣٠ وهي آخر الأسر الفرعونية بالكامل وكما تعودنا سنلخص العصر بالكامل بسرعة فهذا العصر مكون من خليط من الجنسيات التي حكمت مصر فحكمها الليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس والمصريون أيضاً الذين كافحوا من أجل الاستقلال عدة مرات وقاموا بتأسيس أسر فرعونية حتي انتهي العصر الفرعوني علي يد الفرس بلا رجعة
- فهل يوجد ملك بارز من الملوك الليبيين ؟
- الجدير بالذكر أن أول من حكم مصر من الليبيين هو الملك (شاشنق الأول) وهو من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، أما قصة الليبيين فتتلخص في أنهم لم يملكوا مصر بالقوة أو بجيوش جراره بل إنهم تسربوا في هجرات جماعية إلي مصر وعاشوا فيها أجيالاً كاملة لفترات طويلة وتمكنوا من الوصول إلي العديد من المناصب الدينية الرفيعة لأنهم دخلوا الديانة المصرية من أوسع أبوابها ، حتي أن الملك شاشنق الأول كان يحتل منصب ديني راقي في هذا العصر قبل توليه الحكم وعائلة هذا الملك كان قد مضي عليها في مصر ستة أجيال كاملة٧١ أي حصلت علي الجنسية المصرية بلغة هذه الأيام التي نعيشها حالياً وبالتالي قد لا يعتبر هذا احتلالاً بالمعني المفهوم فكم من الملوك والرؤساء في العالم يعود أصلهم من بعيد إلي دول أخري نتيجة الهجرة القديمة أو التزاوج وخلافه ، والمؤكد أنهم كانوا من أصل ليبي ونجحوا في الوصول للحكم وجعلوا عاصمتهم في منطقة (تل بسطة) بمحافظة الشرقية الحالية وقد تزوجوا من البيت الملكي الفرعوني ليضيفوا شرعية علي حكمهم حيث تزوج الملك شاشنق الأول من ابنة الملك المصري الفرعوني السابق له وكانت هناك سلطة أخري في مدينة طيبة جنوب مصر لكهنة معبد آمون ، وشاشنق هذا استطاع أن يوطد أركان حكمه للبلاد واستطاع إرهاب هؤلاء الكهنة مما اضطرهم إلي الهروب جنوباً٧٢ وأرجوا أن تسجل ذلك

---

٦٩ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٥

٧٠ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤١٤

٧١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤١٧

٧٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤١٨

وتتذكره لأن هؤلاء الكهنة سيكون لهم دور بعد ذلك من مكان هروبهم في الجنوب ، ويبدو أن شاشنق كان من الشخصيات القوية التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ

- فما أهم الأحداث في عهده ؟

مملكة بني إسرائيل

- هناك معلومة خطيرة جداً عن هذا العصر وقد تحدث مفاجأة لك عندما تسمعها وهي أن بني إسرائيل في عصر هذه الأسرة الليبية استطاعوا تكوين مملكة قوية في فلسطين حيث ظهر نبي الله داوود عليه السلام وأصبح ملكاً عظيماً هو ثم ابنه سيدنا سليمان عليه السلام وكانت عاصمتهم أورشليم وهي التي بني فيها سيدنا سليمان الهيكل الشهير وربما تكون بداية مملكة سيدنا داوود قبل بداية الأسرة الليبية في مصر بوقت قليل أو معاصره لها ويقول أحمد فخري عن ذلك (---- وبناء علي رواية التوراة أيضاً نعرف أن ملك مصر لم يكن علي علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان ابن داوود خلف أباه علي العرش وكانت علاقته بالبلاط المصري علي خير حاله)[٧٣] بل إن مصر وإسرائيل كانت بينهما في ذلك الوقت أنواع من التعاون في مجال الهندسة والبناء ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين البلدين في عهد الملك شاشنق في مصر وعهد الملك (رحبعام) في بني إسرائيل في فلسطين وقام شاشنق بشن حملة علي فلسطين واستولي علي خيراتها ويقول أحمد فخري في ذلك (ولكن التوراة تذكر لنا أنه في السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق شيشاق ملك مصر علي أورشليم واستولي علي كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شئ)[٧٤]
- تم ذكر اسم ملك مصر في التوراة ؟
- نعم وقد حكم شاشنق واحد وعشرين عاماً وبعد أن مات خلفه ابنه (أوسر كن الأول) ثم توالي ملوك الأسرة الثانية والعشرين علي مصر من أبناء وأحفاد شاشنق وعددهم بالكامل تسعة ملوك وكان آخرهم الملك شاشنق الرابع ودام ملكهم حوالي ٢٢٠ سنة تقريباً[٧٥] وفي آخر أيامها توالت الثورات وقوي نفوذ أمراء الأقاليم وبدأ حكم الأسرة الثالثة والعشرين لمدة ٨٧ سنة تقريباً[٧٦] وعددهم ستة ملوك مع استمرار سلطة ملوك الأسرة الثانية والعشرين ولا تختلف كثيراً في الغموض عن سابقتها ، وكل ما يمكن قوله عن الأسرة ٢٣ في هذه الدردشة أن عدد ملوكها ستة ملوك وجاءت بعدها الأسرة ٢٤ وعدد ملوكها اثنين فقط ووصلت الحالة الداخلية في البلاد إلي الحضيض علي حد تعبير أحمد فخري
- فما الذي حدث بعد ذلك ؟

---

[٧٣] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤١٩

٧٤ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٢٠

٧٥ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٥

٧٦ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٢٣

الحكم النوبي لمصر

- أثناء كل هذه الصراعات علي الحكم وتعدد الأسرات المالكة في نفس الوقت ظهرت قوة جديدة طاغية اجتاحت البلاد وسيطرت عليها بقيادة ملك من طراز القادة الكبار وهو ملك النوبة في ذلك الوقت الملك (بعنخي) واستطاع أن يؤسس أسرة مالكة جديدة في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين المكونة من خمسة ملوك حكموا مصر لمدة حوالي ٥٢ سنة
- وما الذي أدي لذلك ؟
- القصة تبدأ كما ذكرت من قبل عندما هرب كهنة آمون إلي الجنوب نتيجة لعدم اعترافهم بما يحدث في مصر أثناء الحكم الليبي لها حيث استطاعوا أن يجعلوا تقديس الإله آمون هو الشغل الشاغل لكل حكام هذه المنطقة بل إن السبب الرئيسي لتقدم جيوش الملك بعنخي نحو الشمال كان لتأييد الإله آمون وإنقاذ طيبة من أعداءه والقضاء علي الفوضى والفساد الذي عم مصر كلها ويقول أحمد فخري عن ذلك (-- لم يرسل بعنخي هذا الجيش غازياً يريد الفتح والنصر وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها ولهذا نري بعنخي يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين)[٧٧]
- واضح جداً مدي تأثير كهنة آمون علي الملك بعنخي وتأثير العقيدة الدينية في قيام الأمم وانهيار الأمم الأخرى علي مدار التاريخ ،
- ويعتبر الملك بعنخي من الشخصيات البارزة أيضاً التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ بقوة فمن الواضح أنه كان شخص محترم وملك مهاب بل إن من الطريف أن هذا الملك السوداني كان يعشق الخيول وعندما شاهد خيول القصر الملكي الذي دخله فاتحاً بعد استسلامه وجد الخيول هزيلة جداً نتيجة إهمالها فوبخ الملك المستسلم علي ذلك أكثر من توبيخه علي الفساد والفوضى التي سادت البلاد في عهده وهذا يدل علي أن الملك بعنخي كان فارس أصيل ويتمتع أيضاً بأخلاق الفرسان ، واستسلم له ملوك وأمراء مصر بالكامل تقريباً ووعدوه بأن يدينون له بالولاء ثم أخطأ خطأ شنيع في حق نفسه فقد اعتمد علي هذه الوعود البراقة وعاد بجيشه إلي عاصمة ملكه (نبتا) دون أن يترك من ينوب عنه من أعوانه في مصر وبالتالي سيطر ملوك الشمال مرة أخري علي البلاد بمجرد عودة بعنخي ، وحكم مصر الملك (تاف نخت) الذي كان موجوداً قبل حملة بعنخي ثم بعد موت تاف نخت حكم مصر ابنه الملك (باك أن رنف)
- أسماء غريبة جداً ،

---

٧٧ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٢٨

- وهل اسم بعنخي اسم عادي ؟ المهم أن خليفة بعنخي استعاد مصر مرة أخري وكان اسمه (شاباكو) ويقال أن تاف نخت وولده باك أن رنف هما ملوك الأسرة الرابعة والعشرين٧٨ وقد ذكر أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية أن كلاً من تاف نخت وبعنخي كانا بطلين من الشجعان الطموحين ولكن بعنخي لم يكن له علم بفن الحكم٧٩ وفي عهد هذه الأسرة ظهر الخطر الآشوري وقويت شوكة الآشوريين وقرروا مهاجمة فلسطين المتواجد بها بني إسرائيل في ذلك الوقت والطريف والغريب في الموضوع أن الملك النوبي الذي كان يحكم مصر أثناء هذه الأحداث قام بإرسال جيش لمساعدة ملك أورشليم ضد الآشوريين والطريف أيضاً أن حملة الآشوريين فشلت فشل سريع وذريع وعادت مسرعة إلي بلادها حيث انتشر الطاعون بين جنود هذه الحملة وقد فسر بنو إسرائيل ذلك تفسيراً دينياً وقالوا أن هذه معجزة إلهية لإنقاذ أورشليم ، ولكن مع ذلك استمر نفوذ الآشوريين في منطقة الشام بل إن ملك آشور استطاع أن يقتحم مصر بجيوشه واستولي علي مدينة منف٨٠ وسيطر علي منطقة الدلتا فقط وحصلت اضطرابات وحروب بين السودانيين والآشوريين وتبادلوا السيطرة علي البلاد لفترة ، إلي أن ظهرت علي مسرح الأحداث شخصية بارزة لتضبط الأمور وتسيطر علي البلاد بقوة وحزم وتعيد الطمأنينة للشعب وعموماً الملك القوي هو أساس الأمان ورمانة الميزان في أي مكان وزمان
- فمن هو ؟

بسماتيك الأول يحرر البلاد

- جاء الفرعون المصري بسماتيك الأول ليطرد الآشوريين ويحرر البلاد من الأجانب الغزاة ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين المكونة من ستة ملوك حكموا مصر حوالي ١٣٨ سنة٨١ من سنة ٦٦٣ ق م إلي سنة ٥٢٥ ق م وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات ولكنه أخطأ خطأ فادح عندما استعان بالجنود المرتزقة اليونانيين (الإغريق) في تحقيق أهدافه بالإضافة إلي الجنود المصريين
- مشكلة كبيرة أن يفقد الشعب الروح القتالية ويعتمد علي غيره في الدفاع عن نفسه
- لنا هنا وقفة حيث أن أي شعب يفقد روح القتال والجهاد يفقد بالتالي عزته وكرامته ويهون أمره بل إن الشعب المصري في عهد هذه الأسرة لم يفقد هذه الروح بالكامل تقريباً فقط بل إنه فقد أيضاً روح الإبداع الفني فتراه يكرر ويحاكي الفن الفرعوني السابق٨٢ دون تجديد أو ابتكار نظراً لوجود العديد من اليونانيين الإغريق في بلاده سواء بصفتهم محاربين أو بصفتهم تجار فحاول أن يتمسك علي قدر

---

٧٨ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٦

٧٩ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٣٣

٨٠ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٣٨

٨١ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٦

٨٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٤٧

المستطاع بأمجاد سابقيه خوفاً علي هويته من الضياع في ظل الحضارة الإغريقية فأصبح يقلد الفراعنة الأوائل في فنونهم دون أن يقدم حضارة جديدة ، وكان هناك سبب قوي وراء استعانة بسماتيك الأول بهؤلاء الجنود المرتزقة ليحقق أهدافه في استقلال البلاد ، وفي عهد هذه الأسرة المكونة من ستة ملوك وبعد أن دام ملك بسماتيك الأول حوالي خمسين سنة أو أكثر نعمت فيها مصر بالاستقلال اضطربت الأحوال وحدث أن اختل ميزان القوي في العالم

- هل صعدت قوي جديدة وتراجع دور قوي أخري ؟
- بالفعل ظهرت قوي جديدة وتراجعت قوي أخري وظهرت الصراعات الدامية بين كل هذه الحضارات والدول ومصر بالطبع ليست بعيدة عن الأحداث لأن ما يحدث في العالم لا بد أن تتأثر به مصر وتتفاعل معه سواء برغبتها أو بدونها فمثلاً من الدول التي كانت تتصارع في ذلك الوقت أو بمعني أدق الممالك التي أصبح لها صوتاً مسموعاً في العالم مملكة الفرس ومملكة بابل ومملكة آشور واليونان (الإغريق) ومملكة بني إسرائيل في أورشليم وغيرهم ،
- فمن كان يحكم مصر في ذلك الوقت ؟
- وصل لحكم مصر الملك (نكاو الثاني) وهو من أسرة بسماتيك الأول وتدخل في الصراعات التي نشأت بين بابل وآشور وبعض التحالفات التي أحدثها الفرس في المنطقة ويبدو أنه أراد أن يجعل صوت مصر مسموعاً في سياسة هذه المنطقة من العالم[٨٣] فقرر التدخل بجيوشه في المنطقة فتوتر الموقف مع بني إسرائيل وغيرهم مما أدي إلي اصطدام الجيش المصري بجيش الملك (نبو ختنصر) ملك بابل مما أدي إلي حدوث هزيمة ساحقة وارتد الجيش المصري بخفي حنين إلي مصر ويبدو أن نكاو الثاني قد تعلم الدرس واهتم بعد ذلك بتكوين أسطول ضخم واهتم بالتجارة ومن الأحداث المهمة التي حدثت في عهد هذا الملك نتيجة لاهتمامه بالبحر والملاحة البحرية استطاع البحارة المصريون الإبحار والدوران حول إفريقيا بالكامل والعودة إلي مصر وهو ما يُعرف حالياً برأس الرجاء الصالح لأن المؤرخ الشهير القديم هيرودوت بالرغم من عدم تصديقه لذلك إلا أن الملاحين ذكروا أنهم كانوا يرون الشمس تشرق عن يسارهم أثناء الذهاب ثم تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم[٨٤] مما يؤكد زعمهم ، ومن أهم الأحداث التي وقعت أيضاً في عهد الملك البابلي (نبو ختنصر) وفي رواية أخري اسمه (بختنصر) انهارت مملكة بني إسرائيل علي يديه وسقطت أورشليم وكل هذا بالطبع بمشيئة المولي عز وجل وتشتت بنو إسرائيل بعد ذلك وجاء بعضهم إلي مصر ، وبعد أن مات نكاو الثاني تولي بعده الملك بسماتيك الثاني ثم الملك (واح إب رع) ولا توجد تفاصيل كثيرة عنهم إلا أن اليهود هربوا إلي مصر في ذلك الوقت وإلي دول أخري خوفاً من مذابح البابليين التي كانت بلا رحمة ، ثم وصل للحكم الملك

---

[٨٣] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٤٨

[٨٤] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٤٨

أحمس الثاني بعد أن اشترك مع من سبقه في المُلك لفترة وفي عهد هذا الملك أصبح الاعتماد علي الإغريق والتودد إليهم مألوفاً وقد كتب هيرودوت يمدح هذا الملك ويعد صفاته الحميدة ويعتبر عهده من الفترات المزدهرة والمستقرة إلي حد ما لأنه كان دبلوماسي ناجح وما إن مات بعد ٤٣ سنة علي العرش٨٥ حتي بدأت مشاكل من نوع جديد مع خليفته الملك (بسماتيك الثالث) آخر ملوك هذه الأسرة حيث لم يصبح خطر بابل هو الخطر الوحيد

- هل ظهرت قوة جديدة ؟
- نعم ظهر ملك قوي في بلاد الفرس اسمه قورش ولم تكن هناك أي خطورة منه في عهد أحمس الثاني ولكن ابنه بسماتيك الثالث عاصر ابن قورش المسمي بالملك قمبيز الذي قرر تحقيق حلم أبيه بعد أن اجتاح مملكة بابل وأراد أن يضم مصر إلي المملكة الفارسية وكان هذا في عهد الملك بسماتيك الثالث ، والجدير بالذكر أن أحد الضباط الإغريق العاملين بالجيش المصري ذهب إلي قمبيز وأعطاه كافة المعلومات التي يحتاجها لغزو مصر وأوضح له مواطن الضعف في الاستحكامات الدفاعية المصرية بل شجعه وأغراه علي دخول مصر ودخلها فعلاً بعد مقاومة عنيفة وحصار لمدينة منف إلي أن تم الاستسلام التام وأصبحت مصر ولاية فارسية لأول مرة

وأصبحت مصر ولاية فارسية سنة ٥٢٥ ق م

- ولكن لماذا قرر الملك الفارسي قمبيز فتح مصر في عهد الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة ٢٦ الفرعونية ؟
- يجيب عن هذا السؤال الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع في رحاب الفكر حيث كتب تحت عنوان ناموس الحياة ما ملخصه : ونسأل : لماذا قرر قمبيز فتح مصر ؟ رغم أن مصر كانت تعيش مرحلة من مراحل البيات والسكون ولم يصدر عنها أي إساءة للفرس ، ولم ترتكب فعلاً يهدد الأطماع التوسعية عند العاهل الإيراني ؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجاً إذا نظرنا إليه في إطار الفكر الاستعماري التوسعي ، الذي لا يسمح لك بأن تسأل دولة عظمي عن سبب عدوانها علي دولة صغري مسالمة ولا يجوز لك مثلاً أن تسأل بريطانيا لماذا احتلت مصر وضربت الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ ، ولا يجوز أن تسأل فرنسا لماذا احتلت الجزائر ١٨٣٠ ومكثت فيها ١٣٠ سنة ، كما لا يجوز لك أن تسأل الوحوش في الغابات لماذا تفتك بالغزلان ، ولا تسأل الأسماك الكبيرة في البحار عن سر حبها للأسماك الصغيرة .. ولكن إذا سألت دهاقنة السياسة فسيقولون لك إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه . وكانت مصر تعيش حالة الضعف عشية الغزوة الفارسية في الوقت الذي بلغت فيه الإمبراطورية الفارسية ذروة قوتها

---

٨٥ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٥٤

- فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه أعتقد أن هذه العبارة تفسر معظم المعارك والفتوحات علي مر التاريخ ، عفواً أكمل ما قاله الأستاذ جمال بدوي
- نعم كانت مصر حينئذ تعيش مرحلة آخر انبعاثة وطنية في تاريخها القديم ، عصر النهضة الأخيرة التي استعادت فيه استقلالها في العصر الصاوي وفي ظل الأسرة ٢٦ ولكن هذه الفورة كانت أقصر دورات الإمبراطورية في تاريخ مصر ، أقصرها عمرا وقامة علي حد تعبير جمال حمدان فهي لم تعمر أكثر من القرن وثلث القرن ولم تصل إلي آفاق القرون السابقة كأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ، لأن ظهور قوة بابل الصاعدة لم يسمح بالمحافظة علي تلك المكاسب ودخلت مصر مرحلة الشيخوخة التي ضعفت فيها داخلياً وتغلغل النفوذ والتوطن الإغريقي فيها بالتدريج ، إلي أن أتت النهاية علي يد الغزو الفارسي فانتهت الدولة والدورة معاً .- - - - كانت حملة قمبيز في الإطار التاريخي أمراً متوقعاً بل محتوماً من قوة متعاظمة نحو قوة غارية
- يالها من دورات علي مر التاريخ ، ومن المستحيل أن يعرف أحد في ذلك الوقت وفي جميع العصور ما الذي سيحدث ،
- الظريف أن قمبيز أرسل حملة إلي الواحات وحملة أخري إلي الجنوب وقد فشلت الحملة علي الجنوب عند حدود مملكة نبتا أما الجيش الذي ذهب في اتجاه سيوه فلم يصل إليها ولم يرجع أيضاً بل إنه مدفون حتي الآن تحت الرمال نتيجة لعاصفة رملية هائلة أطاحت به وهلك عن آخره في الصحراء ، وقام الفرس بتأسيس أسرة حاكمة جديدة في مصر وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة ٥٢٥ ق م إلي سنة ٤٠٤ ق م[٨٦] وهذه الأسرة تكونت من خمسة ملوك وبالرغم من بعض الإصلاحات والتودد الذي أبداه بعض ملوك هذه الأسرة للمصريين إلا أنهم قاوموا الاحتلال بشدة ونشبت ثورة عظيمة أدت إلي قيام الفرس بأعمال قمع وعنف للسيطرة علي البلاد بقبضة من حديد وكان أيامها الإغريق في صراع مع الفرس
- وكانوا يسعدون بالطبع كلما ثار المصريون علي الفرس ، فماذا كان موقف اليهود في مصر؟
- أما اليهود الموجودين في مصر فقد كانوا أعواناً للفرس ضد المصريين[٨٧] دائماً وفي سنة ٤٤٩ ق م تم توقيع معاهدة صلح بين الفرس واليونانيين (الإغريق) ثم بعد ذلك بسنة تقريباً قامت ثورة رهيبة ومعارك عنيفة بين المصريين والفرس انتهت بتحرير البلاد منهم وطردهم خارج مصر وبدأ المصريون هذه الثورة بقتال اليهود لشدة العداء والكراهية بينهما ثم قاتلوا الفرس وكان سبب تملق ومساعدة اليهود للفرس هو أن يسمحوا لهم ببناء معبدهم وإعادة تشييد هيكلهم فقرروا الوقوف بجانبهم ضد

---

٨٦ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٧

٨٧ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٦٢

المصريين لتحقيق مصالحهم الخاصة مما أدي إلي هذه الكراهية الشديدة لهم من المصريين فأطاحت الثورة بهم وبالفرس

- أعتقد أنه لم يختلف أسلوب اليهود بعد ذلك طوال تاريخهم مع الدول القوية في العالم فهم يتعاونون مع أقوي دولة في العالم في كل عصر وقد يسيطرون عليها ويتحكمون في قراراتها وقد يفشلون مع بعض الدول وينجحون مع دول أخري نجاحاً نسبياً ،
- بالتاكيد وسوف نري ذلك عندما كان اليهود يرسلون مندوباً لهم إلي الإمبراطور الروماني أثناء تواجدهم في الإسكندرية إذا وصلنا في هذا الحديث إلي العصر الروماني إن شاء الله
- وهل استمرت هذه الثورة فترة كبيرة من الزمن ؟
- استمرت هذه الثورة حوالي أربعة سنوات وكان قائدها أحد الشخصيات البارزة وهم القادة الذين نتحدث عنهم بصفتهم من مؤسسي الدول وقد استمر حكمه من سنة ٤٠٤ ق م إلي سنة ٣٨٩ ق م وهو مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان عدد ملوك هذه الأسرة ملك واحد فقط هو نفسه هذا الشخص واسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر (أمير تي) أما في كتاب مصر الفرعونية فاسمه (آمون حر) وعلي العموم هذا الملك هو الملك الوحيد في هذه الأسرة وكان يحكم مصر من عاصمته (سا) "سايس" صان الحجر حالياً ولا توجد أي آثار توضح ما تم في عهد هذا الملك ثم بعد ذلك وبهدوء تم نقل الحكم إلي أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٨-٣٧٨ ق م) وهي مكونة من أربعة ملوك[٨٨] أولهم الملك (نايف عاو رود) "نفريتس الأول" وكان علي ما يبدو من زملاء أمون حر في حربه ضد الفرس ، وكانت عاصمة الأسرة التاسعة والعشرين مدينة مندس (تل الإمديد وتل الربع شمال شرق السنبلاوين) ، (وكان أهم ملوك هذه الأسرة هو مؤسسها نايف عاو رود الذي حكم ست سنوات من ٣٩٩-٣٩٣ ق م وتحالف مع الأسبرطيين ضد الفرس وأمدهم بالقمح بما يكفي لتجهيز أسطول مكون من مائة سفينة مقاتلة ولكن المدد لم يصلهم إذ اعترضه القائد الأثيني " وهو قائد الأسطول الفارسي" وحطمه عند رودس ، وتولي بعده الملك هكر واستمر حكمه سبع سنوات من ٣٩٣ إلي ٣٨٠ ق م حاول فيها القيام بإصلاحات داخلية في البلاد فرمم المعابد وتعاون بالمال والمئونة مع أثينا ضد الفرس وانتهت أيامه ، وتولي بعده ملكين حكم كل منهما مصر بضع شهور ثم انتقل العرش إلي أسرة جديدة هي الأسرة الثلاثين)[٨٩]
- الأسرة الثلاثون ، أليست هذه آخر أسرة في العصر الفرعوني بالكامل ؟

---

[٨٨] موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٣٨

[٨٩] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٥٩

- بلي ، ولقد أسس هذه الأسرة ملك اسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر الملك (نقطانب الأول) بينما في كتاب مصر الفرعونية اسمه الملك (نخت نبف) أو (نختنبو) وعلي ما يبدو قد اعتلي عرش مصر بمساعدة الكهنة
- وكم عدد ملوك هذه الأسرة ؟

نهاية العصر الفرعوني

- هذه الأسرة عدد ملوكها ثلاثة ملوك فقط واستمرت في الحكم من سنة ٣٧٨ ق م إلي سنة ٣٤١ ق م وفي عهد أول ملوكها نقطانب الأول حاول الفرس اقتحام مصر لإعادة احتلالها ولكنهم عادوا فاشلين بسبب فيضان النيل الذي كان عائقاً أمام قواتهم ، وكان نقطانب الأول لا يفكر في إثارة من حوله من دول وجيوش تحيط بمصر وكان كثير البناء للمعابد والمباني وقد ترك هذا الفرعون آثاراً خالدة كما يقول أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية صـ ٤٦٦ (وتمتع نخت نبف بعد ذلك بشئ من الهدوء وكان نشاطه المعماري كبيراً فخلف آثاراً كثيرة في أكثر بلاد مصر في الدلتا والصعيد) وشيخ الأثريين أحمد فخري في هذه الجملة يقصد بكلمة بعد ذلك أي بعد ارتداد الفرس من حملتهم الفاشلة علي مصر ، وتمر الأيام ويأتي ابنه (جد حر) أو (تاخوس) الذي لم يقتنع علي ما يبدو بالسلم والهدوء فقرر أن يعيد أمجاد الفراعنة القدماء ونسي أو غفل عن أن أسباب القوة التي كانت معهم تختلف عن ما معه ، وقام بحشد جيش كبير وأسطول وكان الجيش به عدد غير قليل من الإغريق المرتزقة وإليك ما جاء عن عدد هذا الجيش في كتاب مصر الفرعونية صفحة ٤٦٧ (وكان غرض جد حر من ذلك جمع جيش كان فيه ٨٠٠٠٠ جندي مصري و ١٠٠٠٠ من المرتزقة الليبيين و ١٠٠٠ من جنود اسبرطة وكان معه أيضاً أسطول يزيد عدد سفنه علي مائتي سفينة من ذات الثلاث طبقات وتقدم جد حر علي رأس جيشه العظيم واثقاً من النصر بعد أن ترك أخاه نائباً عنه في الحكم) و كان ابن جد حر معه في الجيش بينما أخوه كان في مصر وتآمر العم مع ابن أخيه ضد الملك أثناء المعركة وأرسل إليه يبايعه بملك مصر في وجود أبيه ونتيجة لهذه الخيانة ترك الابن أبيه في المعركة وعاد إلي مصر ومعه عدد ضخم من الجنود مما أدي إلي تسرب باقي الجيش ، ووجد جد حر نفسه بلا نصير ووسط كل هذه المؤامرات هرب الملك إلي معسكر الفرس الأعداء
- إنه موقف غريب جداً أن يفر الملك إلي أعداءه أثناء المعركة مما يؤكد أن مرارة الخيانة والتواجد وسط الخونة كانت أمر من الذهاب إلي العدو
- كل هذا بالطبع كان متوقع وطبيعي أقصد الخيانة التي حدثت لأن الجيش الذي يتكون من عدة عناصر يفقد ولاءه بسهولة وفي أي لحظة ويغادر ميدان القتال وهكذا المرتزقة دائماً يقاتلون في سبيل المال ، وأخيراً جاء الحديث عن الملك نقطانب الثاني (نختنبو الثاني) آخر فرعون مصري في التاريخ وآخر ملوك الأسرة ٣٠ وقد عرفنا كيف وصل له الحكم والسلطة وكان هذا الملك لا يفضل الحروب مثل

نقطانب الأول فحاول أن يعيد الاستقرار لمصر ويبني المعابد ويهتم بالفن ، ونعمت مصر في عهده بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاماً علي الأقل[٩٠] إلي أن جاء اليوم الموعود الذي قرر فيه الفرس تكوين جيش ضخم مخصوص لغزو مصر بعد أن صفوا حساباتهم مع باقي الدول وتفرغوا تماماً لمصر وملكها الذي كان يهتم بالخطط الدفاعية فقط

- لقد أرادوا ملء الفراغ مرة أخري بالتأكيد
- بالتأكيد فقد وقعت المعركة الفاصلة التي أنهت العصر الفرعوني بالكامل
- فهل لديك معلومات ولو قليلة عن هذه المعركة التاريخية المثيرة ؟
- بالطبع إنها المعركة الفاصلة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد بل إن شئت فقل أنهت حكم المصريين لمصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة حيث أن الحاكم المصري الذي جاء بعد نقطانب الثاني هو اللواء محمد نجيب فلم يحكم مصر مصرياً واحداً بعد هذه المعركة[٩١] إلا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م ، وسيكون مصدر هذه المعلومات عن هذه المعركة من الجزء رقم ١٣ من موسوعة سليم حسن مصر القديمة حيث ذكر أعداد الجنود وجنسياتهم في الجيش المصري بقيادة نقطانب الثاني (الفرعون الأخير) بل إن هذا الفرعون لم يحتوي جيشه علي جنود فقط من الإغريق ولكنه كان يضم جنود من ليبيا وكان يعاونه في القيادة اثنين من القادة الإغريق ، فكان الجيش المصري مكون من عشرين ألف مقاتل من الجنود الإغريق المرتزقة وعشرين ألفاً من الليبيين المرتزقة وستين ألفاً من المصريين[٩٢] بينما كان الجيش الفارسي مكون من ثلاثة أضعاف الجيش المصري كله بل إن من الطريف أنه كان يضم أيضاً عدداً كبيراً من الجنود الإغريق المرتزقة وبدأت المعركة وتساقطت المدن المصرية مدينة وراء أخري وكانت بعض المدن ومن فيها من حاميات إغريقية تتفاوض علي الاستسلام بدون علم الفرعون نفسه ،
- أعتقد أن هذا وضع طبيعي فالمرتزقة متواجدون في كلا الجانبين المتحاربين ، ولكن ماذا حدث للفرعون الأخير نقطانب الثاني ؟
- نقطانب الثاني قرر الفرار بعد كل هذه الهزائم المريرة ومعه كنوز أجداده ربما لإعادة المحاولة مرة أخري من الجنوب أو ربما لفقده الثقة في الجيش أو أي سبب آخر ، ودخل الفرس مصر هذه المرة بعنف غير عادي وخربوا المعابد واحتقروا الآلهة وقبضوا علي السلطة بيد من حديد ، وبالمناسبة قد ورد في موسوعة حكام مصر أن الفرس في هذه المرة أسسوا الأسرة الواحدة والثلاثين وهي مكونة من ثلاثة ملوك فقط حكمت مصر من سنة ٣٤١ ق م إلي سنة ٣٣٣ ق م تقريباً وهي فترة قصيرة نسبياً انتهت بدخول الإسكندر المقدوني مصر وسيطرته عليها كما سيطر علي معظم دول العالم ولكن هذه قصة

---

[٩٠] مصر الفرعونية (أحمد فخري) صـ ٤٦٨

[٩١] في الواقع نجح أحد المصريين في طرد الفرس من البلاد بعد نقطانب الثاني بفترة ولم يدم حكمه طويلاً وسرعان ما استعادوها

[٩٢] موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ١٣ صـ ٣٢٦

أخري ، ولكن قبل أن نترك الفراعنة يجب أن نذكر أن عهد نقطانب الأول والثاني كان هدف الملك إرضاء الكهنة والاعتماد علي الأجانب في الدفاع عن مصر بالإضافة للجيش المصري واهتموا بالبناء حتي أن الأسرة الثلاثين تركت في طول البلاد وعرضها آثاراً تكاد تصل في كثرتها وعظمتها لآثار الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية الشهيرة ربما يكون السبب في ذلك هو حلاوة الروح الفرعونية عندما كان العصر الفرعوني يحتضر ، وها قد انتهينا من الحديث عن العصر الفرعوني فما تعليقك بشكل عام علي العصر الفرعوني بالكامل ؟

- لا شك أن الفراعنة قدموا للبشرية الكثير في العديد من المجالات كالطب والهندسة والفلك والفن والأدب والكتابة والورق وغيرها ولا زالت آثارهم الخالدة تشهد علي حضارتهم والمستوي العلمي الراقي الذي وصلوا إليه بل إن هناك العديد من آثارهم يعجز الناس حالياً عن تخيل كيفية إبداعهم لها بهذه الروعة والدقة المتناهية ولولا ادعاءاتهم الدينية وآلهتهم المتعددة وكفرهم بالله عز وجل وتأليه ملوكهم لولا ذلك كله لكنت قد افتخرت بهم وبعصورهم العريقة وقد سيطر الفراعنة علي جزء كبير من العالم في عصر إمبراطوريتهم التي أسسها الفرعون تحتمس الثالث كما ورد في حوارنا وقاموا بنشر حضارتهم لفترة طويلة من الزمن ولا زالت أسرارهم تحير العلماء إلي الآن وخصوصاً سر التحنيط الذي برعوا فيه وكان الكهنة هم محور حياتهم ولا يهنأ أي ملك فيهم علي العرش ويكتسب شرعيته إلا إذا نال رضا الكهنة وقد كان الكهنة يزينون للفرعون سوء عمله ويمجدونه وينسبون إليه ألقاباً ما أنزل الله بها من سلطان ،{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (١١) سورة آل عمران ،{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (٤٦) سورة غافر
- أعتقد أنك قد تحدثت عن العصر الفرعوني بشكل منطقي جداً ولكن قد يختلف معك البعض في تقييم ذلك العصر فالنظر إلي التاريخ يختلف من عصر إلي عصر ، حسناً يمكننا الآن متابعة الحديث عن تاريخ مصر وقد وصلنا إلي عصر الاسكندر والبطالمة
- كلي آذان صاغية

الفصل الثاني الإسكندر والبطالمة

الإسكندر والبطالمة يسيطرون علي مصر

- بدأ عصر الاسكندر والبطالمة في مصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد واستمر حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد أي حوالي ثلاثة قرون وفيه اندمجت الحضارة الإغريقية مع الحضارة المصرية وأصبحت الإسكندرية عاصمة لمصر ومركزاً للعلم والعلماء وتوافد عليها الإغريق حتي كما لو كانت قطعة من بلاد الإغريق وُضِعت في مصر أو جزيرة إغريقية في المحيط المصري
- لقد ذكرت لي أن الإغريق تواجدوا بكثرة في مصر خلال العصر الفرعوني كجنود مرتزقة أو كتجار
- نعم ، ولقد كان ذلك من أسباب نقل العديد من العلوم من مصر إلي بلادهم ، ولكن هذه المرة جاءوا ليحكموا مصر ويفرضوا حضارتهم بها
- فكيف بدأ عصر الاسكندر والبطالمة في مصر ؟ وما هي المعلومات المتوفرة عن الاسكندر ؟
- ولد الإسكندر عام ٣٥٦ ق م وكان تلميذاً للفيلسوف أرسطو وأعتلي عرش مقدونيا في سن الـ ٢٠ بعد مقتل أبيه فيليب في عام ٣٣٦ ق م ، ويلقب عادةً بالإسكندر الأكبر ، وكان شديد التعلق بأمه أوليمبياس ، وقد غيرت فتوحاته مجري التاريخ ، وفي مستهل ربيع عام ٣٣٤ ق م خرج الإسكندر علي رأس جيش مقدوني إغريقي وخرج معه عدد من العلماء والأدباء وعبر الدردنيل وكان الإسكندر معجباً بعصر البطولة وبالأبطال الإغريق الأسطوريين ، وكان يحمل معه نسخة من الإلياذة ، والتحم الإسكندر بالجيش الفارسي وانتصر عليه عام ٣٣٤ ق م ، واحرز انتصاره الثاني علي الملك الفارسي دارا الثالث في نوفمبر ٣٣٣ ق م ، وفر دارا الثالث بعد الهزيمة تاركاً أسرته التي وقعت في يد الإسكندر ، وقد عامل الإسكندر زوجة وبنات الملك الفارسي معاملة كريمة وردهن إليه ، وكانت مصر ولاية فارسية وكان التنافر شديداً بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية ، وقد دخل الإسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ ق م وأدرك الوالي الفارسي عبث المقاومة فاستسلم دون قتال ودخل الإسكندر ممفيس حيث نهج نهجاً يختلف تماماً عن نهج الفرس فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، واعتبره المصريون وريثاً للفراعنة ، وقبلوه ملكاً علي الفور ، وعند قرية مصرية قديمة تسمي راقودة أسس الإسكندر مدينة إغريقية تحمل اسمه ولاتزال ، وهي مدينة الإسكندرية في يناير ٣٣١ ق م ، وتابع الإسكندر سيره نحو الغرب حيث بلغ موقع مرسي مطروح الحالية ومنها انحرف جنوبياً ضارباً في قلب الصحراء قاصداً واحة الإله آمون المعروفة الآن بواحة سيوة ودخل قدس الأقداس بمعبد الإله آمون ، حيث حياه كاهن المعبد كابن للإله آمون ، ثم عاد الإسكندر إلي منف وأعاد نظام الحكم والإدارة علي أسس جديدة ، ومنح مصر استقلالاً داخلياً ،ولم يعين حاكماً عاماً للبلاد ، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يقوي سلطانه ويتمكن من الاستقلال بالبلاد

- وهذا يؤكد أن الإسكندر اكتشف ما لمصر من إمكانيات تؤهلها للاستقلال فاتخذ فيها إجراءات خاصة تختلف عن باقي الولايات الخاضعة لحكمه أليس كذلك ؟
- بالتأكيد ، ثم غادر الاسكندر مصر في ربيع عام ٣٣١ ق م ، ليواصل قتال الفرس وتواصلت انتصاراته وفتوحاته في آسيا ، ثم قفل راجعاً إلي بابل التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته وفيها مرض بالحمي ومات في ١١ يونيو عام ٣٢٣ ، وكان الاسكندر هو أول من نبه أذهان الإغريق إلي فكرة الإمبراطوية وما يستتبعها من السيطرة علي العالم المأهول وقتئذ ، وما فيه من شعوب وعناصر مختلفة وفتوحاته الواسعة هي أوضح دليل علي تبلور هذه الفكرة في ذهنة ، وقد أفصح عن هذا في رسالته التي بعث بها إلي دار الثالث بعد انتصاره عليه ، في معركة أسوس عام ٣٣٣ ق م ، وفيها يصف نفسه بسيد آسيا ويمضي الإسكندر قائلاً له : لقد انتصرت عليك وأصبحت أمتلك أراضيك بفضل الآلهة ، وهكذا يجب أن تراسلني الآن باعتباري ملك آسيا العظيم ، وحاذر من أن تكتب إلي كما تكتب إلي ند (نظير) لك ، لكن اذكر دائماً عندما تلتمس مني مطلباً إلي سيد كل ما تملكه ، وجدير بالذكر أن وفاة الملك الإسكندر الأكبر كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس (بطليموس الأول) الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وكانت الاسكندرية هي العاصمة التي أصبحت منارة للحضارة الإغريقية[٩٣]
- مات الاسكندر إذن ولم يعرف أنه سيتم تفتيت إمبراطوريته
- كما سيموت بعد ذلك بطليموس الأول دون أن يعرف أن دولته ستسقط في يد الرومان سنة ٣٠ ق م ، أما الاسكندر فهناك رواية تقول أنه توقع أن يحدث تنافس علي عرشه بعد موته ولكن لا أعتقد أنه توقف تفتيت إمبراطوريته ، فالرواية تقول أن أكبر قادة الاسكندر الجنرال (برديكاس) قائد القوات المقدونية الذي كان الإسكندر قد سلمه وهو في النزع الأخير أختامه الخاصة وأوراقه روت أحد الأقاويل أن الإسكندر وهو في النزع الأخير سأله أحد قواده " من أجدر بإرث الإمبراطورية ؟ " فأجاب علي الفور " للأقوي منكم "[٩٤] ، وقد اتفق القادة بعد موته علي توزيع الولايات بينهم والوصاية علي العرش لتكون للجنرال برديكاس المسن نسبياً ،
- لقد سمعت أن بطليموس الأول هذا كان أكثر قادة الاسكندر دهاء فهل هذا صحيح ؟
- بالفعل فلقد كان شخصية غير عادية وكان علي قدر كبير من المكر والدهاء وقد اختار مصر لتكون من نصيبه تمهيداً لتحقيق أغراضه لأن هذا الرجل قد عرف ما لمصر من إمكانيات تجعله يشيد ملكاً

---

[٩٣] نقلاً باختصار عن كتاب دراسات في العصر الهللينستي ، إعداد د فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية

[٩٤] معالم وتاريخ حضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٦

عظيماً له ولأولاده من بعده ، وقد كان بطليموس علي يقين أن عرش الإمبراطورية في طريقه إلي الموت وسوف يستقل رسمياً بمصر بعد ذلك وهذا ما تم بالفعل ولكنه أجّل تنفيذ هذه الأحلام والأهداف لحين استقرار الأمور وحتي لا يفطن برديكاس وباقي القادة لما يريده ، والطريف أن باقي القادة لم يرغبوا في اختيار مصر عند تقسيم الإمبراطورية وهو الوحيد الذي اختارها

- يبدو أنه كان يعرف أن كل منهم سيحكم كملك ، أما هو فسيقوم المصريون بوصفه كإله معبود والعياذ بالله ، فإذا كانت لديك معلومات عن هذا البطليموس أرجو أن تخبرني بها
- سأقرأ لك بعض ما كُتِب عنه من كتاب هؤلاء حكموا مصر حيث ورد ما ملخصه :

الملك بطليموس الأول (سوتير) Ptolemy I Soter

- رغم فتوحات الملك الإسكندر الأكبر ابن الملك فيليب المقدوني والملكة أوليمبياس ، ورغم زيجاته العديدة سواء في الشرق أو في الغرب ، فإنه لم يعقب ولداً ليكون خليفة له علي الإمبراطورية المقدونية ، فوفاته كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فلم ير ابنه الأول الوحيد من زوجته الأميرة روكسانا ابنة الملك الفارسي دارا الثالث ، وفي الوقت نفسه كان أخوه الملك فيليب أرهيدايوس مختلاً عقلياً فأصبحت الإمبراطورية بلا إمبراطور رشيد يتولي أمورها ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وفي بداية حكمه استطاع أن يعيد إلي شعب مصر التماثيل والكتب المقدسة التي كان الفرس قد نهبوها من مصر ، كرد لاعتبارهم ، فلقي بذلك تأييد الكهنة والشعب المصري علي السواء ، ثم تخلص من وزير المالية الإغريقي الذي كان يستغل أموال الشعب المصري ومحاصيلهم ، ولقد استطاع بطليموس الأول أن يأتي بالموكب الجنائزي للإسكندر الأكبر إلي مصر ، وأن يقوم بدفنه في مدينة الإسكندرية المحببه إليه ، وقد أحسن المصريون استقبال الجثمان وأثنوا علي تقوي بطليموس بن لاجوس الذي فضل أن تكون مصر هي مثوي الإسكندر الأكبر ، وليس مقدونيا كما هو متبع ، وبذلك أصبحت الإسكندرية هي كعبة الإغريق يأتون إليها من كل حدب لمشاهدة ضريح معبود الإغريق العظيم وقائدهم المظفر الذي فرض نفسه علي تاريخ البشرية ، وكانت سياسة بطليموس الأول سوتير تتلخص من خلال أعماله في حماية مصر وحدودها من الشرق والغرب ، وإقامة قاعدة بحرية للأسطول في قبرص لتساعده علي نشر نفوذه في آسيا الصغري أو بلاد اليونان ، كما كان في مخططه دائماً الإستيلاء علي سوريا لتأمين الطرق التجارية والاستفادة من أخشاب الأرز من أجل بناء الأسطول القوي ، واستطاع إخضاع منطقة ليبيا ، كما صالح حكام مملكة مروي في الجنوب وكسب صداقتهم ، ولتحقيق هذه الأهداف استلزم الأمر دخول بطليموس الأول في العديد من الحروب السياسية والعسكرية ، حتي استطاع بناء دولة بطلمية عظيمة قاعدتها مصر ، ولقد حمل الملك

بطليموس الأول سوتيروس الألقاب المصرية الفرعونية التقليدية ، أما لقب سوتيروس فيعني المنقذ أو المخلص ، وإرضاء للشعب المصري الذي ينظر إلي الملك الفرعون الذي لابد أن يجري في عروقه الدم الملكي المقدس تزوج بطليموس الأول من إحدي الأميرات المصريات حتي يعطي لنفسه الحق في تولي عرش مصر طبقاً للتقاليد المصرية المتبعة ، كما أبقي علي نظام الإدارة الفرعوني القديم واحترم حقوق طبقة الكهنة وامتيازاتها ، وجعل الإسكندرية هي عاصمة البلاد بدلاً من منف ، وقد حرص بطليموس الأول علي الحفاظ علي الدم الإغريقي نقياً حتي لا يضيع في بحر المصريين ، ولهذا فرغم احترامه لمشاعر المصريين حرم الزواج بين الشعبين ، ولقد اهتم بطليموس الأول بتوطيد ودعم تجارة مصر في حوض البحر المتوسط وقام بسك عملة مصرية تحمل إحداها علي وجهيها صورة كل من الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول ، وفي الوقت نفسه حرص علي دقة وزن العملة وصفاء ونقاء وزنها ، سواء كانت ذهبية أو فضية

- أكثر ما لفت نظري في كل هذه المعلومات أن بطليموس الأول حرص علي إرضاء الكهنة وزواجه من إحدي أميرات البيت الفرعوني ليؤكد رغبته في أن يحصل علي ألقاب الفرعون المؤله
- وقد فكر بطليموس الأول في وضع ديانة جديدة لتوحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً من أجل السلام والتعايش السلمي وهي ديانة سيرابيس المصرية المتأغرقة (عبارة عن توفيق بين الديانتين) وحرص بطليموس الأول علي حضور جميع الاحتفالات الدينية وقام بترميم المعابد الشهيرة
- لقد حرص علي توحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً أما تحريم الزواج بينهما فهو قمة العنصرية فيما أعتقد ليظل السيد سيد والعبد عبد ، ويبدو أن المسلمين فقط هم أول من تزاوجوا مع شعب مصر بعد الفتح ، فماذا كتب عنه أيضاً
- ولم يهمل بطليموس الأول النواحي الثقافية والفكرية فأحدث نهضة فنية وعلمية كبري في مصر تذكرنا بحضارة مصر الفرعونية القديمة ، وإن كانت اقتصرت علي الإسكندرية أكثر من سواها من مدن مصر ، وعندما زاد عدد العلماء والفنانين والفلاسفة في مدينة الإسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم أطلق عليها اسم الموسيون أي بيت ربات الفنون والآداب التسع ، وتم بناء مكتبة عظمي أحضرت لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان وازدادت أعداد الكتب في عهد خلفاء بطليموس الأول حتي وصلت إلي ٧٠٠ ألف كتاب بمكتبة الإسكندرية ، وقد ظل بطليموس الأول يعمل بنشاط لا يكل وبعزيمة لا تلين حتي بلغ الثمانين من عمره ثم أعلن تنازله عن العرش لابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة ٢٨٥ قبل الميلاد ، ومما يذكر لعهد الملك بطليموس الأول أنه أمر ببناء منارة الإسكندرية في جزيرة فاروس وقد اكتمل بناءها في عهد بطليموس الثاني ، وقد تواجد بالإسكندرية العديد من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفنانين فمن هؤلاء إقليدس وهيروفيلس وثيودوروس وإراستوثنيس وغيرهم فأصبحت الإسكندرية منارة للإشعاع الحضاري بعد اندماج الحضارتين المصرية والإغريقية ،

وفي عهد البطالمة كتب المؤرخ المصري مانيتون كتابه الشهير عن تاريخ مصر ورتب الأسرات الفرعونية وقوائم ملوك الفراعنة ، وقد اتخذ بطليموس الأول سياسة ثابتة لتشجيع هجرة الإغريق وتنظيمها إلي مصر ، واستمرت دولة البطالمة تحتفظ بمكانتها إلي أن دب فيها الضعف والاضمحلال ، فسقطت حين دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد فتحولت مصر إلي ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ٩٥

- يالها من معلومات تاريخية رائعة عن هذا الملك ، ولكن ألا يذكرك هذا الرجل بعض الشئ بمحمد علي باشا
- بكل تأكيد فقد كان هو ومحمد علي باشا وغيرهم من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)٩٦ ، ولقد كان بطليموس الأول ومحمد علي متشابهان في الكثير من الأمور ، ولكن هناك فرق بين الرجلين في مسألة تجنيد المصريين في الجيش المصري ، فقبل أن نترك هذا البطليموس الأول لا بد أن نتوقف عند معلومة في منتهي الخطورة تخص هذا الرجل وقد تبدو بسيطة أو عادية للبعض ولكنها من وجهة نظري المتواضعة تعد عملاً خطيراً أدي إلي قهر هذا الشعب وتحجيم دوره لفترة طويلة جداً من الزمن حيث أنه حرم علي المصريين دخول الجيش خوفاً من اندلاع الثورة ضده[٩٧] وقام بتشجيع هجرة الإغريق للاستعانة بهم في تكوين دعائم ملكه وقوته واستخدمهم كتجار وخبراء ومهندسين وجنود في الجيش وهذا العمل أدي إلي إبعاد المصريين عن القتال وهذه كارثة لا تخفي عليك نتائجها يا صديق العزيز ، وبطليموس الأول لم يهنأ بعرش مصر بسهولة ولكنه دخل في حروب طاحنة ومؤامرات مستمرة مع ورثة الإسكندر بل إن مصر تعرضت للغزو مرتين لخلعه من العرش ولكنه كان يستغل فيضان النيل في صد هجوم أعداءه وعلي العموم لو تأملت قصة بطليموس الأول ستجدها مشابهة إلي حد ما مع قصة محمد علي باشا في العصر الحديث فكلاهما دخل مصر وسيطر عليها وتودد للسلطة الدينية بها مع عدم المقارنة طبعاً بين الكهنة الخبثاء ومشايخ الأزهر الأتقياء وكلاهما كسب ود الشعب المصري وكلاهما قام بإجراءات عديدة متشابهة منها مثلاً التحالف مع بعض الأعداء ومقاتلة البعض الآخر طبقاً لمقتضيات الموقف وكلاهما أشرك أكبر أبناءه في حروبه بل كانوا قادة علي أعلي مستوي من المهارة والخبرة ولكن أكبر اختلاف بين بطليموس الأول ومحمد علي باشا أنه استبعد المصريين من الجيش بينما استعان بهم محمد علي

---

[٩٥] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – صفحات ١١١، ١١٢ ، ١١٣

[٩٦] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

٩٧ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٣٨

بعد أن اضطر لتجنيدهم وقد استطاع هذا الجيش المصري الذي وضع لبنته الأولي محمد علي أن يطيح بآخر ملوك أسرة محمد علي وهو الملك فاروق واستعادة حكم المصريين لمصر

- وماذا بعد بطليموس الأول ؟

عصر البطالمة بعد بطليموس الأول

- تولي الملك بطليموس الثاني الحكم في حياة أبيه وتولي الحكم وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكان سياسي علي أعلي مستوي ولقد استكمل ما بدأه والده وقام بإصلاحات إدارية وثقافية كبيرة وبلغت البلاد في عهده قمة الثراء والتقدم في جميع المجالات وليس معني هذا أن عهده كان خالياً من الحروب والصراعات والمؤامرات الخارجية بل إن المحافظة علي ممتلكات الدولة وتوسعاتها التي ورثها عن أبيه كلفته العديد من الصراعات والمؤامرات ولكنه كان غالباً ما يرسل القادة للقتال دون أن يذهب بنفسه علي رأس الجيش وقام بطليموس الثاني بالدعوة لعبادة أبيه وأنشأ له ضريح ضخم كما أنه كان متزوجاً من أخته وكان يحبها حباً شديداً لدرجة أن اسمه (فيلادلفوس) ترجمته (المحب لأخته) ، وقد حكم مصر من سنة ٢٨٥ ق م إلي سنة ٢٣٦ ق م٩٨ وفي رواية أخري مات سنة ٢٤٦ ق م٩٩ وتولي حكم مصر بعده ابنه بطليموس الثالث وقبل أن نترك بطليموس الأول والثاني ونبدأ في الكلام عن أولادهم وأحفادهم لابد أن نتوقف عندهما قليلاً فقد استطاع الأول أن يؤسس واستطاع الثاني أن يحافظ ويدعم المملكة واستكمال ما بدأه الأول بجدارة واقتدار ويكفي أن أقول لك أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت قبلة العلماء والشعراء والمفكرين الإغريق وغيرهم بل إن أهم ما يحسب لهما إنشاء مكتبة الإسكندرية العظيمة التي أمر بإنشائها بطليموس الأول ودعمها بالكتب الوفيرة بطليموس الثاني١٠٠ وكذلك المخطوطات النادرة ، وكذلك قام بإنشاء حديقة للحيوانات جمع فيها كل ما هو غريب من الحيوانات والطيور من أنحاء العالم وبلغت ثروة مصر في هذا العصر قمتها
- لا شك أن ثروة مصر كان يتمتع بها النخبة الحاكمة والكهنة ومن علي شاكلتهم
- بالتأكيد ولكن علي أي حال كان ثراء مصر يبقي داخلها ولا يتم إرساله للخارج كما سيحدث بعد ذلك في العصر الروماني ، وما يذهب لا يعود كما يقال
- وماذا حدث بعد بطليموس الثاني ؟
- نأتي إلي بطليموس الثالث الذي كان داهية سياسية فقد استطاع أن يحافظ علي المملكة بأقل عدد ممكن من الحروب كما أنه كان يتسم بذكاء حاد وكان علي علاقة طيبة بالكهنة وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، ويقول

---

٩٨ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٤١

٩٩ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ٦٩

١٠٠ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٦٠

عنه د سيد الناصري في القسم الثاني من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر صفحة ٧٥ (-- وبذلك نجح بطليموس الثالث عن طريق الذكاء والدبلوماسية أن يحفظ توازن القوي وهو جالس في قصره بالإسكندرية لكنه حرص في نفس الوقت علي دعم مركزه في الداخل أي عند المصريين ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة اعتدالاً واتزاناً --)

- هل ظل خلفاء الاسكندر يتقاتلون ويوسعون حدود الدول التي يحكمونها ؟
- بالتأكيد ، فكل منهم كان يحكم جزء من الإمبراطورية الضخمة التي تركها الاسكندر ، وكان يعتقد أنه لا يقل عظمة عن الاسكندر وأنه يجب أن يضم باقي الدول لحكمه ويعيد تأسيس إمبراطورية الاسكندر وبالتالي لم تتوقف الحروب بينهم ، أما بطليموس الثالث الداهية فكان يعتمد علي إثارة الاضطرابات بينهم حتي يأمن شرهم ويثير شعوبهم فيشغلهم دائماً بمشاكل داخلية ، وبالتالي لم يعتمد علي الجيش كثيراً لتحقيق أهدافه وهذا البطليموس الثالث علي ما يبدو كان آخر الرجال المحترمين في هذه الأسرة ، فمثلاً في عهد بطليموس الرابع كان الجيش في حالة يرثي لها وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيوش ، وقبل أن يأخذنا الحديث عن أهم الأحداث في عصر البطالمة أريد أن ألفت نظرك إلي المنافسات الرياضية التي كانت تتم في ذلك العصر وهي ما تسمي بالألعاب الأوليمبية
- هل من المعقول أن يقيموا منافسات وبطولات رياضية وسط كل هذه الحروب والصراعات ؟
- هذا هو الطريف في الموضوع فقد كانت تتوقف الحروب أثناء هذه البطولات الرياضية كالأشهر الحرم بالنسبة للعرب بعد ذلك وسوف أتلو عليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع

عندما كانت تتوقف الحروب بسبب الألعاب الأوليمبية في العصر الهيلنستي

- كانت فتوحات الاسكندر لها عواقب عديدة بالنسبة للدول اليونانية. فقد وسعت آفاق كبيرة لليونانيين، وأدت إلى هجرة مطردة، وخاصة للشباب والطموحين، للامبراطوريات اليونانية الجديدة في شرق البلاد فهاجر كثير من اليونانيين إلى الإسكندرية وأنطاكية والعديد من المدن الهلنستية الجديدة التي تأسست في أعقاب الاسكندر الأكبر ، فبعد وفاته قُسمت امبراطوريته، بعد فترة من الصراع، بين جنرالاته، مما أدى إلى المملكة البطلمية استنادا إلى مصر (، والإمبراطورية السلوقية) استنادا إلى بلاد الشام، بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس، وأسرة انتيجونيد التي مقرها في مقدونيا . والعصر الهيلينستي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، واستمرت حوالي ٢٠٠ سنة في اليونان وحوالي ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط .ويستخدم اصطلاح هيلينستية لتمييز هذه الفترة عن الفترة الهلينية وهي فترة الإغريقيين القدماء التي اعتبرت أوج عبقرية وعظمة الفكر والعلوم والفلسفة الإغريقية في ظل الامبراطورية الأثينية. والجدير بالذكر أن الفترات الوحيدة تقريباً التي كانت

تتوقف فيها الحروب بين الممالك الهيلينستية هي الفترات التي كانت تقام فيها دورات الألعاب الأوليمبية فتتحول الصراعات الحربية إلي منافسات رياضية ثم تعود الحروب مرة أخري بعد انتهاءها ، وكانت قبل ذلك قد بدأت الدورات الاولمبية القديمة في عام ٧٧٦ قبل الميلاد. وكانت تقام كل أربع سنوات على شرف زيوس كبير آلهة اليونان وزوجته هيرا وتدوم لمدة سبعة أيام. ولم تكن دورات الألعاب الأولمبية القديمة مجرد رياضة فقط بل كان لها معان دينية ووطنية. ولم تشهد دورات الالعاب الاولمبية القديمة أي توقفات حتى أثناء الحرب الفارسية حيث أقيمت الدورة عام ٤٨٠ قبل الميلاد.

- وهل استمرت الألعاب الأوليمبية في العصر الروماني ؟
- في عام ١٤٦ قبل الميلاد سيطر الرومان على اليونان وفرضوا سيطرتهم بالتالي على الدورات الاولمبية ورغم ذلك ظلت الدورات الاولمبية تقام كل أربع سنوات حتى عام ٣٩٣ الميلادي قبل أن يلغيها الامبراطور البيزنطي المسيحي تيودوروس الاول ليقضي علي مظاهر الوثنية وكان يعتبر أن هذه الدورات من هذه المظاهر لتتوقف الدورات الاولمبية بعد نشاط دام ١١٧٠ عاماً.
- ومتي عادت مرة ثانية ؟
- بعد ١٥ قرناً كاملة غابت فيها الشمس عن دورات الالعاب الاولمبية منذ قرار الامبراطور البيزنطي تيودوروس الأول بإلغاء دورات الالعاب الاولمبية القديمة عادت الشمس لتشرق من جديد على الدورات الاولمبية من خلال الدورات الحديثة التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان النبيل الفرنسي بيير دي كوبرتان هو صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وبالفعل بعث هذا المهرجان الرياضي من مقره الأساسي في اليونان عندما أقيمت أولى الدورات الاولمبية الحديثة في العاصمة اليونانية أثينا عام ١٨٩٦. وأقيمت الدورة الأولى في أثينا باليونان خلال الفترة من السادس إلى ١٥ نيسان/أبريل ١٨٩٦ وافتتحها الملك اليوناني جورج الأول والنبيل الفرنسي بيير دي كوبيرتان صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وذلك على الاستاد الاولمبي بالعاصمة اليونانية أثينا والذي غطي بالرخام والمرمر. وكانت الدورة مهددة بعدم إقامتها أو بنقلها إلى العاصمة المجرية بودابست لعدم وجود استاد أولمبي في أثينا، بالاضافة لعدم وجود الامكانات المناسبة لدى الحكومة اليونانية لإقامة هذا الاستاد. ولكن الاستاد بني في غضون ١٨ شهرًا فقط بعدما تبرع الثري اليوناني جورج أفيروف أحد أبناء مدينة الإسكندرية المصرية بمبلغ ١٠٠ ألف دولار لتشييد الاستاد الذي اتسع لأكثر من ٧٠ ألف مشجع
- حقاً ، قد تصنع الرياضة ما تعجز عنه السياسة
- نعود إلي الحديث عن البطالمة وقد وصلنا إلي بطليموس الرابع الذي اعتلي عرش مصر بعد بطليموس الثالث
- عرش مصر والإسكندرية أليس كذلك ؟

الاسكندرية في عصر البطالمة مدينة إغريقية

- أنت محق تماماً فقد كانتا دولتان مختلفتان تمام الاختلاف ولكل منهما شعب وثقافة وحضارة ، فقد كانت الإسكندرية عاصمة البطالمة عبارة عن قطعة من بلاد الإغريق تم انتزاعها ولصقها بمصر بمنازلها وأسواقها ومعابدها ومنشآتها ، أما باقي مصًر فكانت لشعب مصر
- إذن هو استعمار استيطاني وليس احتلال عادي
- نعم لقد اتخذ الإغريق مصر وطناً لهم وتركزوا في الإسكندرية ، ولأن الاسكندرية أصبحت تنافس بلاد الإغريق نفسها في حضارتها بل وتتفوق عليها أحياناً بمكتبتها وعلماءها بحيث أصبحت منارة للحضارة الإغريقية في العالم كله وبالتالي أصبحت منطقة جذب لكل إغريقي ، كما كان البطالمة يشجعون الإغريق علي الهجرة إلي الإسكندرية
- شئ عجيب جداً أن يأتي شعب ويسيطر علي شعب آخر ولا يختلط به ولا يتزوج منه ويحتفظ كل منهم بثقافته وحضارته ولغته
- ولكن لا تنسي أن بطليموس الأول قد وضع ديناً جديداً ليوفق بين الديانتين الفرعونية والإغريقية
- إنه قمة العبث أن يضع ديناً جديداً أو يوفق بين ديانتين فهل كان نبي مثلاً
- إنه قد اكتسب عند المصريين قداسة الفراعنة الأوائل ، وكان الكهنة يحتاجون لوجود مثله حتي يستطيعون أن يستمروا في أعمالهم
- ولكن أعتقد أن اللغة المصرية القديمة قد تأثرت بالفعل من كل هذا
- بالطبع لقد نشأت لغة جديدة نتيجة لكل هذا ، حتي أن حجر رشيد الذي سنتكلم عنه بعد قليل خير دليل علي وجود نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة علي هذا الحجر في عصر البطالمة مما سهل فك رموز اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية)
- ألم يقم البطالمة بتأسيس مدن إغريقية أخري في مصر ؟
- كان بطليموس الأول قد قام بتأسيس مدينة في الصعيد تحمل اسمه (مدينة بطلمية) تشبهاً بالإسكندر والغرض منها نشر الحضارة الإغريقية في الجنوب لأن الجنوب دائماً مصدر المقاومة والاضطرابات ، كما كانت هناك مناطق أخري يتجمع فيها الإغريق منذ العصر الفرعوني ، ولكن بالطبع أصبحت الاسكندرية قلعة الحضارة الإغريقية ليس في مصر ولكن في العالم إلي حد ما
- وهل ظلت الاسكندرية علي طبيعتها الخاصة بعد انتهاء عصر البطالمة ؟
- بالتأكيد ظلت كذلك وحتي عندما احتل الرومان مصر أعطوا لشعب الإسكندرية وضع خاص يختلف عن شعب مصر فكأن الرومان قد احتلوا مصر واحتلوا الاسكندرية أيضاً
- أي أصبح هناك شعبان تحت الاحتلال ، المصري والإغريقي أليس كذلك ؟

- في الحقيقة بل ثلاثة شعوب إذا أضفنا الأقلية اليهودية التي كانت مركزة في الاسكندرية أيضاً والشعب الرابع هم الرومان أنفسهم
- فماذا سيكون التصنيف إذا صنفناهم كمواطنين بالرؤية الحالية للمواطنة العنصرية إذا جاز التعبير ؟
- إنه سؤال وجيه فعلاً ، وأعتقد أن المواطن الروماني كان مواطن من الدرجة الأولي بالطبع فهو سيد الجميع ، ثم يليه الإغريق ثم اليهود ثم المصريين ، ولا تنسي أنهم جميعاً وثنيين عدا اليهود ، فقد كانوا الوحيدين في العالم الذين يعبدون الله ويدينون بدين سماوي ،ولكن لم يكن وجودهم يقلق أحد لكونهم أقلية علي أي حال
- ومن هنا نفهم أن شعب الإسكندرية عندما يُذكر في كتب التاريخ التي تتناول تلك الفترة من تاريخ مصر ليس مقصود به المصريين أطلاقاً
- بالتأكيد ، ولقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال عصر البطالمة ثم عصر الرومان وحتي دخلها القائد عمرو بن العاص فاتحاً فاتخذ عاصمة جديدة لمصر وهي مدينة الفسطاط ، ونعود إلي الحديث عن أهم الأحداث في عصر البطالمة وقد وصلنا لبطليموس الرابع وتعتبر معركة رفح الشهيرة هي أهم حدث وقع في عهه
- وماذا قرأت عن هذه المعركة ؟

معركة رفح تلهب الحماس وتبعث الروح مرة أخري في الشعب المصري

- حرص حكام مصر في بداية عصر البطالمة علي عدم تجنيد المصريين في جيش دولتهم كما ذكرنا ، فكان اعتمادهم علي المقدونيين والإغريق (اليونانيين) فقط في الحروب ، وكانوا يكتفون من المصريين بخدمة الجيش البطلمي من الناحية الإدارية فقط ونقل ما يحتاجه أثناء الحروب ، وكان مغزي ذلك واضحاً ، حيث أن ابتعاد المصريين عن القتال بشكل عام يفقدهم روح المقاومة ، ونجح بطليموس الأول وتلاه بطليموس الثاني في تكوين جيش بطلمي قوي بدون مصريين واستطاعا تحقيق جميع أهداف دولة البطالمة باستخدام هذا الجيش ، وقلنا أيضاً أن بطليموس الثالث عندما جلس علي عرش مصر لم يكن يعتمد علي القتال في تحقيق أهدافه حيث كان داهية سياسية وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، وبعد وفاة الملك بطليموس الثالث تولي ابنه بطليموس الرابع فيلوباتور وقد حكم مصر ما يقرب من ١٦ سنة أي من حوالي سنة ٢٢١ قبل الميلاد إلي سنة ٢٠٥ قبل الميلاد ويعتبر عهده بداية النهاية لدولة البطالمة ، وكانت الممالك الإغريقية الأخري تتطلع للنيل من الإمبراطورية المصرية البطلمية وخاصة مملكة السليوكيين بآسيا الصغري ، ففي عهد بطليموس الرابع تقدمت جيوش الدولة السليوكية نحو الشام واستطاعت إخضاع سوريا وفلسطين وأصبحت تدق أبواب مصر نفسها ، و كان الجيش البطالمي في حالة يرثي لها عندما وصل بطليموس الرابع للحكم ، وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ

لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيوش ، وبالتالي اضطر بطليموس الرابع أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه ، وحدثت المعركة الشهيرة في التاريخ باسم معركة رفح سنة ٢١٧ ق م ، التي أبرزت معدن ابن وادي النيل بالانتصار الساحق علي القوات السليوكية ، الأمر الذي جعل الملك السليوكي يعترف بالسيادة المصرية علي سوريا ، وذلك نصر اشتاقت إليه نفوس المصريين منذ أيام الفراعنة ، فمنذ ذلك التاريخ حدثت الصحوة الكبري للمصرييين في عصر البطالمة ، وبالتالي واجه البطالمة بعد ذلك ثورات عنيفة في البلاد لم تكن لتحدث قبل تجنيد المصريين

- وكأنه كما يقال في الأمثال الشعبية قام بتحضير عفريت مارد ولم يتمكن من صرفه
- بالطبع فقد كان بطليموس الرابع لا يمتلك دهاء بطليموس الثالث ولا قوة جيوش بطليموس الأول والثاني فحدث له ما حدث
- فماذا عن حجر رشيد الشهير والذي قلت أنه كُتِب في عصر البطالمة ؟
- هذا الحجر مكتوب عليه ثلاث خطوط وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد تم كتابة هذا الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس بواسطة الكهنة تمجيداً لأعماله الدينية واهتمامه بالمعابد وكان ذلك حوالي سنة ١٩٦ قبل الميلاد وكان بطليموس الخامس كسائر البطالمة يتودد إلي الكهنة المصريين ويهتم بمعابدهم اهتمام خاص ، وكان في مصر في ذلك الوقت تستخدم أكثر من لغة نتيجة لاندماج الحضارة الإغريقية والحضارة المصرية مما نتج عن ذلك ظهور لغة مشتركة ، وقد استطاع العالم الشهير شامبليون فك رموز هذا الحجر عندما اكتشف أن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة للنص الهيروغليفي أي أن المنقوش علي الحجر نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة وبالمقارنة استطاع أن يفك الرموز ، وبناءاً علي ذلك تمكن العلماء من معرفة كل هذه المعلومات التاريخية والأحداث التي دونها الفراعنة بلغتهم التي تجمع بين الحروف والرموز في وقت واحد وهذا الحجر موجود في بريطانيا حاليا
- لقد سمعت والله أعلم أن اسم الملك المكتوب داخل خرطوشة ملكية في الثلاث لغات كان السبب في تسهيل عملية المقارنة بينها ، فهل تعرف ما الكلمات التي كانت مدونة علي هذا الحجر ؟
- أعرف مقتطفات قصيرة جداً وفيما يلي بعض من المكتوب علي هذا الحجر : ملك مصر العليا والسفلي ---- تجسيد حي لآمون ----- ابن رع --- بطليموس الخالد المحبوب من بتاح --- --- (-- - حيث أن الملك يقوم بواجبه نحو الآلهة ويقدم المساعدات المالية للمعابد - -- - - وحيث أنه قدم الهبات إلي محراب عجل أبيس ونظم إجراءات دفنه وحيث أنه أمر بترميم المعابد والمحاريب للآلهة

في كافة أنحاء البلاد وحيث أن الملك قام بجميع هذه الأعمال فإن المجمع قد عقد العزم علي أن يزيد من ألقاب الشرف الممنوحة له ولأسلافه وأن يقيم في كل معبد مصري تمثالاً لبطليموس –)[١٠١]

- آمون ورع وبتاح ، يبدو أننا لم نترك الديانة الفرعونية حتي الآن ، فماذا حدث بعد ضعف دولة البطالمة ؟
- لقد صعدت روما كقوة عظمي في العالم وتدخلت في شئون مصر
- فهل لديك أمثلة علي ذلك ؟
- في حوالي عام ١٧١ قبل الميلاد خرجت روما منتصرة في الحرب التي نشبت بينها وبين مقدونيا فأطاحت بما كان لمقدونيا من سلطان وجاه وأصبحت روما صاحبة الجاه والسلطان في كل العالم كما أصبحت حكماً في كل الخصومات التي كانت تظهر بين الدول المتنافسة بوجه عام ، وفي ذلك الوقت كان يشترك في حكم مصر ملكان شقيقان من ملوك البطالمة وهما بطليموس السادس الملقب بفيلوميتور ، وأخاه بطليموس الملقب بيورجيتس الثاني بينما كان هناك خطر يهدد مصر من دولة السليوكيين في سوريا كالعادة ، فقد استطاع ملك سوريا أنتيوكوس الرابع احتلال مصر وحصار الإسكندرية واستفحل الأمر وفرض هيمنته علي مصر ، إلي أن لجأ البطالمة إلي روما فتدخلت لصالح البطالمة وأرسلت مبعوثيها لتحذير الملك أنتيوكوس الرابع ، وقد وصف المؤرخون مدي الكبرياء والتعالي الذي قام به مندوب روما وهو يسلم الملك رسالة مجلس الشيوخ الروماني ، ففي هذه اللحظة كان أنتيوكوس يحاول أن يتخلص من هذا الموقف ، غير أنه لما رأي في نهاية الأمر أنه كان مجبراً علي أن يجيب الرومان علي الرسالة ، قال بصوت متهدج : سأفعل ما يرغب فيه مجلس الشيوخ
- لهذه الدرجة بلغت قوة روما ؟
- نعم ، فقد كانت القوة العظمي الوحيدة في العالم ولا يجرؤ أحد أن يقف ضد مصالحها
- ولكن البطالمة كانوا يتوددون لها كما هو واضح ، فماذا كانت رغبة مجلس الشيوخ الروماني ؟
- كان ما يرغب فيه مجلس الشيوخ الروماني من أنتيوكوس هو أن ينسحب من مصر جميعها في الحال علي أن يكون خارج حدودها في توقيت محدد وطبقاً للترتيبات التي قررتها روما وهكذا أنقذ الرومان عرش البطالمة في مصر ، غير أن الرومان لم يتركوا البلاد المصرية وشأنها لتحكم نفسها بنفسها ولكنها كانت تتدخل في شئونها ، وتستغل الانقسام الموجود نتيجة الصراع بين الملكين الشقيقين فتشعل الموقف بينهما تارة وتقوم بدور المصالحة بينهما تارة أخري ، وطبقاً لما يحقق مصالحها وعلي حد تعبير سليم حسن : وهكذا نري أن السياسة الرومانية تحت ستار الصلح والتراضي بين الأخوين قد نقضت العمل العظيم الذي جاهد في إتمامه البطالمة الأول ، فقد ضربت بمعولها البناء الذي كانوا قد أقاموه ، وكذلك نجد أنها إدخرت لنفسها الحق في أن تثير عند الحاجة طمع أحد الأخوين عندما يشعر

[١٠١] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)ص ٨٦ ، ٨٧

أنه قد نال نصيباً أقل من ملك والده ، والجدير بالذكر أن سيطرة روما علي مصر استمرت حتي نهاية عصر البطالمة عندما قررت روما ضم مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي اتسعت حدودها وابتلعت كل دول المنطقة فكانت مصر آخر دولة سقوطاً في يد الرومان ، ودخلها الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد[١٠٢]

- أي أننا الآن قد وصلنا إلي عصر اضمحلال بطلمي

بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتذلل لروما

- نعم والفرق بين العصر الفرعوني والعصر البطلمي أن الفراعنة لهم ثلاثة عصور اضمحلال أما البطالمة فعصر اضمحلال واحد فقط ، فقد حكم مصر في بداية عصر البطالمة بطليموس الأول والثاني والثالث وغيرهم وكانت مصر في عهدهم من أقوي الدول وأعظم الحضارات وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت بمكتبتها الشهيرة وعلماءها مركزاً للإشعاع الحضاري ثم بدأ رويداً رويداً ينحدر عصر البطالمة نحو الهبوط وبدأ يعتلي عرش مصر بطالمة ضعفاء إلي أن وصل الحال أن أصبح بطليموس الثاني عشر علي عرش مصر وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) لأنه كان يحب الرقص والغناء وشرب الخمر ويحب العزف علي المزمار ، وأصبح هذا البطليموس وصمة عار في جبين الأسرة البطلمية ، وكان الزمار يتذلل لروما ويرسل لها الرشاوى والهدايا ويقول عنه الدكتور سيد الناصري (- - - ولكي يحظي باعتراف الرومان راح الزمار يتذلل ويريق ماء وجهه ويدفع الهدايا والرشاوى ويشتري ذمم القادة الرومان من أمثال بومبي ويوليوس قيصر وغيرهم وكان زعماء الحزب الجمهوري الأرستقراطي في روما يفضلون أن يظل الزمار في هذا الوضع المهين ويدفع لهم الأموال التي لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموها - -)[١٠٣] فكان حكم بطليموس الثاني عشر لمصر أفضل لقادة روما من أن يتم احتلالها وتعيين والي روماني عليها
- أعتقد أنه إذا فكر قادة روما في احتلال مصر سيقوم الوالي الروماني المعين عليها بإرسال أموال وقمح مصر إلي روما بصفة رسمية وطبقا لحسابات خاصة بولايات الإمبراطورية ولكنه بالطبع لن يضطر إلي إرسال هدايا ورشاوى شخصية للقادة في بيوتهم أما الزمار فكان يرسل ما يفيد روما بشكل عام ويفيد القادة بشكل خاص وبالتالي هذا الوضع قد يكون أفضل من الاحتلال ولهذا كانت مصر هي آخر ما سقط من تركة الإسكندر في يد الرومان وهذا منطقي إلي حد كبير

---

[١٠٢] نقلاً عن كتاب (موسوعة سليم حسن – مصر القديمة) الجزء السادس عشر (من عهد بطليموس الخامس إلي نهاية عهد بطليموس السابع) مكتبة الأسرة ٢٠٠١ بتصرف من صفحة ٢٤١ – ٢٤٤

[١٠٣] من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر – من أقدم العصور حتي الفتح العربي) – القسم الثاني – د سيد الناصري– صفحة ١٠٥ دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

- وظل هذا الحال إلي أن ثار علي الزمار شعب الإسكندرية فهرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة التي سيطرت علي قادة روما ولكن بطريقة أخري مستغلة جمالها
- أخيراً وصل الحديث إلي الملكة كليوباترا الشهيرة ، فهات ما عندك

الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر

- كانت مصر آخر الدول سقوطا في أيدي الرومان ويرجع السبب إلي أن البطالمة كانوا علي صلة طيبة بالرومان وكانوا يساعدونهم في حروبهم بتزويدهم بخيرات وقمح مصر حتي أن الرومان في فترة من الفترات وجدوا أن البطالمة في أواخر أيامهم كانوا يحكمون مصر كما لو كانوا ولاة تابعين لروما بحيث كانت تأتي الخيرات من مصر إلي روما دون الحاجة إلي احتلال فعلي ، وكان البطالمة في ذلك الوقت يفعلون ذلك ليأمنوا هجوم الرومان عليهم ، كما زاد نفوذ روما في مصر وتدخلت في شئونها الداخلية في عهد البطالمة الضعفاء في نهاية العصر البطلمي الذي كان يحتضر بل مات فعلاً وينتظر شهادة الوفاة الرسمية ، وعندما تولي بطليموس الثاني عشر حكم مصر وتزوج أخته كليوباترا السادسة كان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) ، وعندما ثار عليه شعب الإسكندرية هرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة وكان يتحتم عليها أن تتزوج من أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر طبقاً لوصية أبوها ولكنها حاولت التخلص منه والانفراد بالسلطة وحدها ، وهنا تدخلت روما أيضا في هذا الصراع حيث حاول يوليوس قيصر التوفيق وفض النزاع بين كليوباترا وأخيها وطلب حضورهما للقصر الملكي في الإسكندرية وهذا يعتبر تدخل سافر وإهانة عظمي
- أعتقد أن موكب يوليوس قيصر في شوارع الإسكندرية كان يثير كراهية الجماهير بلا شك أليس كذلك ؟
- نعم وقد استطاع يوليوس قيصر أن يدعم موقف كليوباترا ويجعلها ملكة علي البلاد بعد مقتل أخيها أثناء الصراع ، وظل قيصر في مصر مع كليوباترا لفترة ثم عاد إلي روما بعد أن ترك لكليوباترا قوة رومانية لحمايتها ، ثم أنجبت كليوباترا منه ولدا ولم تعترف روما بهذا الزواج ، ثم قامت كليوباترا بزيارة روما ومعها ابنها من يوليوس قيصر ليتم الاعتراف به دون جدوي ، وحاولت كليوباترا أن تعيد أمجاد البطالمة الأوائل وتنهض بمصر مستغلة جمالها وسيطرتها علي قادة روما ، يوليوس قيصر ثم أنطونيوس بعد مقتل يوليوس قيصر ،
- طبعاً قصة انطونيو وكليوباترا قد تم صياغتها أدبياً وأصبحت من أشهر قصص الحب في العالم
- نعم ولكن القائد الروماني الشهير أوكتافيوس لم يرض بهذا الوضع لأن أوكتافيوس وجد أن كليوباترا لها تأثير عجيب علي القادة الرومان وتقريباً تحكم نصف الإمبراطورية الرومانية مستغلة حب أنطونيوس لها ، فقرر حسم الموقف وأن يضم مصر نهائياً للإمبراطورية الرومانية

- فماذا فعل ؟
- وقعت معركة بحرية كبيرة (معركة أوكتيوم) انتصر فيها أوكتافيوس ودخل مصر منتصراً وضمها رسمياً إلي الإمبراطورية الرومانية وكان ذلك في شهر أغسطس عام ٣٠ ق م[١٠٤] ،
- فماذا حدث لأنطونيوس وكليوباترا ؟
- أما أنطونيوس فقد هرب إلي مصر عندما تأكد من هزيمة أسطوله أمام أوكتافيوس وعندما وصل أشاعت كليوباترا أنها انتحرت ولم يتحمل أنطونيوس خبر انتحار كليوباترا فانتحر علي الفور وجاء الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس إلي مصر وأرسل قوة للبحث عن كليوباترا لينتقم منها بعد كل ما فعلته في قادة الرومان يوليوس قيصر ثم ماركوس أنطونيوس ، وعندما شعرت كليوباترا أنها ستُهان وتُعاقب عقاب لا يليق بها قامت بالانتحار عن طريق لدغة ثعبان لتهرب من المصير السئ الذي ينتظرها وتم قتل ابن يوليوس قيصر الذي أنجبه من كليوباترا وبدخول أوكتافيوس تم إعلان وفاة عصر البطالمة للأبد بعد أن استمر أكثر من ثلاثة قرون تزوجت خلالها الحضارتين المصرية والإغريقية[١٠٥]
- يا له من عصر مثير بالفعل وبه أحداث كثيرة
- المهم أنهم قد ماتوا جميعاً وتركوا آثارهم لنعتبر ونتعلم
- وأصبحت مصر ولاية رومانية
- نعم ولمدة ٦٤٨ سنة تقريباً
- كم من الأجيال قد وُلِدت وعاشت وماتت في ظل الاحتلال الروماني إنها مأساة بالفعل
- ولكن هذه المدة تتضمن دولتين في الحقيقة الرومانية والبيزنطية ، ولكنه احتلال علي أي حال
- وبدأ النهب الفعلي لمصر أليس كذلك

---

١٠٤ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)صـ ١١٤

١٠٥ نقلا بتصرف عن كتاب –معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)

الفصل الثالث مصر ولاية رومانية

وأصبحت مصر ولاية رومانية

- بالتأكيد (– – – كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة ، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني ، ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبقي داخلها بالرغم من أنه يذهب إلي خزانة الفرعون أو البطليموس ، أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلي الخارج ، إلي روما ليتمتع بها الشعب الروماني ، وما يذهب لا يعود ، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي ، وكأن روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك – – –)١٠٦ ، وقد بلغ عدد الأباطرة الرومان في روما الذين سيطروا علي مصر ٢٧ إمبراطور وتولي حكم مصر في عهدهم ٨٦ والياً رومانياً١٠٧ لمدة حوالي ٣٥٣ سنة كاملة ثم جاء بعده العصر البيزنطي نسبة إلي مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة ٣٢٣ م وتولي حكم مصر في هذا العصر ٧٩ والياً عاصروا ٢٢ إمبراطوراً١٠٨
- فهل كان الإمبراطور أغسطس من الشخصيات البارزة التي احتلت مصر ؟
- شعر الإمبراطور أغسطس بأهمية مصر كولاية غير عادية في الإمبراطورية الرومانية فاتخذ بها عدة إجراءات خاصة بها فقط ، ومن أهم الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جداً من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعدداً من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي ٢٢٨٠٠ مقاتل وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف١٠٩ وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ ، كما قسم مصر إلي ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جداً يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصياً سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين١١٠ لأنه كان يخشي أن يتولي حكم مصر والي ذو طموح يمكنه الاستقلال بها باستغلال إمكانياتها وهذا يدل علي حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضاً ، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق وأعطي تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلي روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيس للقمح في

---

[١٠٦] من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ١٤٣

١٠٧ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ ٤٥

١٠٨ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٥٢

١٠٩ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ١٢٣

١١٠ ويسري هذا القرار حتي علي آل البيت الإمبراطوري الحاكم

الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق علي هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية)١١١ ،

- من الواضح أنه فهم جيداً طبيعة مصر وشعبها ، كما وضع يده علي مفتاح شخصيتها وأكبر دليل علي ذلك اهتمامه بتنظيم الري
- نعم ، (– – ولقد جعل أغسطس مصر إحدي الممتلكات الشخصية والخاصة بالإمبراطور والتي يرتبط حكمها بشخصه مباشرةً ، وقد رأي أغسطس عدم إدماج مصر إدماجاً كاملاً في الإمبراطورية ، بل أصر علي عزلها وعدم المساس بنظمها الإدارية والدينية التي كانت موجودة بها قبل دخول الرومان ، وعين علي البلاد والياً من طبقة الفرسان يساعده ثلاثة من كبار الموظفين ، هم المشرف علي العدالة والمسئول عن الحسابات الخاصة وأمين الخزانة ، وكان أغسطس بالنسبة للمصريين فرعوناً وابن الإله آمون رع وله كل مظاهر القداسة والتأليه من المصريين ، فحمل الألقاب المقدسة التقليدية حسب العقيدة والفكر المصريين
- لا يمكن للكهنة الحياة بدون وجود فرعون مؤله بالتأكيد حتي إذا كان من الرومان
- أما بالنسبة للإغريق " شعب الإسكندرية في ذلك الوقت " فقد كان الوريث لسلطان البطليموس ، وقد صادر قسماً كبيراً من أراضي المعابد ونقل إدارتها إلي الدولة مقابل صرف رواتب ومنح للكهنة ، ومما أثار حنق السكندريين " الإغريق " علي الحكم الروماني المحاباة التي أظهرها أغسطس لليهود الموجودين بمدينة الإسكندرية – التي كانت بمثابة مدينة إغريقية كاملة علي أرض مصر – إذ وافق علي استمرار كل الإمتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها إبان عصر البطالمة ، وقد فعل أغسطس ذلك لإيجاد توازن بين السكندريين واليهود ومكافأة اليهود علي ولائهم للرومان وكذلك لأن الرومان كانوا مطمئنين من ناحية اليهود لأنهم أقلية ، بالإضافة إلي أنهم سيكونون عملاء للرومان في المستقبل ، وكما ترك أغسطس حامية عسكرية بالإسكندرية ، وترك أخري بضاحية بابليون التي كانت امتداداً لمنف عبر النيل شرقاً ، كما وضع أوكتافيوس أغسطس فرقة رومانية ثالثة عند مدينة طيبة " الأقصر " ، كذلك وزع عدداً من الكتائب المساعدة لترابط عند المناطق الاستراتيجية ، وكان الوالي الروماني جايوس كورنيليوس جاللوس هو أول والي روماني يعينه الإمبراطور أغسطس علي مصر ، وكان قبل ذلك يقوم بدور الاتصال والوساطة بين الملكة كليوباترا السابعة البطلمية والقائد أوكتافيوس أغسطس الروماني وهو أحد قواد أوكتافيوس ، وقد أسدي هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولي علي منطقة مرسي مطروح ورد الهجوم البري والبحري الذي قام به ماركوس انطونيوس علي المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التي تخلت عنه ، وقد حكم كورنيليوس مصر من سنة ٣٠ ق م إلي سنة ٢٧ ق م أي ما

---

١١١ من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر – من أقدم العصور حتي الفتح العربي) – القسم الثاني – د سيد الناصري – صفحة ١٢٣

يقرب من ٣ سنوات ، وهو أحد رجال الفرسان وكان صديقاً شخصياً لأغسطس ، وبالإضافة لصفته العسكرية كان أديباً وشاعراً معروفاً لدي الأوساط الأدبية ، وأهم ما يذكر في عهده قيام أول حركة تمرد ضد الحكم الروماني بالقرب من خليج السويس ، وقد تمكن جاللوس من القضاء علي هذا التمرد ، ولم يكد يمضي عام حتي هب بركان الثورة في طيبة سنة ٢٩ ق م بمجرد وصول جباة الضرائب الرومان ، وبلغ من شدة هذه الثورة أن قام الوالي الروماني بنفسه بقيادة القوات الرومانية لقمع هذه الثورة ، وأدرك الثوار أنهم أمام والي قاسي جاد لا يسمح بأي تساهل ، واشتبك الجيش الروماني مع الثوار المصريين في معركتين سحق فيهما خمس مدن ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة قرر الوالي كورنيليوس جاللوس أن يسير جنوبياً لتأمين حدود الإمبراطورية في أفريقيا ، وقد سمح الوالي كورنيليوس بأن تقام التماثيل من أجله وأن تنقش أخبار انتصاراته علي واجهة المباني العامة ، الأمر الذي أزعج الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس فعزله ونفاه ، فاشتد الحزن بجاللوس حتي انتحر ذلك الوالي الذي كان أول من حمل لقب والي الإسكندرية ومصر)١١٢ ،

- من الواضح أن أغسطس كان يعرف كل ما يدور في مصر وله عيونه بها ، فهل كانت هناك أحداث مهمة أخري في عصر هذا الإمبراطور ؟
- سنذكر حدث من أهم الأحداث التي وقعت في عهده ، ألا وهو زيارة العائلة المقدسة لمصر ، حيث وُلِد السيد المسيح عيسي بن مريم في عهد هذا الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس وكانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية ، وقد لجأت السيدة العذراء إلي مصر بولدها وكان يحكم مصر أثناء هذه الرحلة والي روماني يسمي (جايوس تورانيوس) وكان قد تولي حكم مصر سنة ٥ قبل الميلاد ، وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم بفلسطين ، حيث كانت فلسطين أيضاً تابعة لنفوذ الإمبراطور الروماني أغسطس وكان يحكم فلسطين الملك اليهودي (هيرودس) الكبير بتكليف من الإمبراطور ، ولقد هربت السيد مريم العذراء بولدها علي ما يروي إنجيل متي إلي مصر ، وإن هناك شبه إجماع علي أن كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة عندما هربت إلي مصر من وجه هيرودس ، وقد جاءت العائلة المقدسة إلي مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما (قرب بورسعيد) ، ومنها إلي مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) ، واتجهوا غرباً فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمنود وظلوا سائرين غرباً إلي فرعه الغربي فعبروه ومروا بوادي النطرون ، ومن هناك ساروا إلي الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الاشمونين ، ثم مضوا إلي القوصية إلي قرية ميرة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق ، وبعد أن اقاموا به بضعة أشهر علي الأكثر انحدروا شمالاً حتي جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حي لليهود ونزلوا في الموقع الذي

---

[١١٢] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – مقتطفات مختصرة من صفحة ١٣٨ إلي صفحة ١٤١ ١١٢

به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة سرجة ، وغادروها إلي عين شمس ، وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ، ومن هناك انطلقوا إلي فلسطين عن طريق محافظة الشرقية [113]

- {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } (٥٠) سورة المؤمنون ، صدق الله العظيم ، ، هل يمكنك أن تحدثني عن الأباطرة الرومان بعد انتهاء عصر أغسطس ؟

الإمبراطور كاليجولا ومؤامرة اليهود علي الوالي الروماني بالإسكندرية

- بالطبع إن هناك العديد من الأباطرة الرومان يمكننا التحدث عنهم ولكن سنهتم في هذا الحوار بمن كان لهم مواقف انعكست علي مصر وشعبها ، أو كانت هناك أحداث مهمة في عصورهم كمؤامرة اليهود مثلاً علي الوالي الروماني في عصر الإمبراطور كاليجولا
- لقد سمعت هذا الاسم من قبل فهو من أشهر الأباطرة الرومان ، فماذا حدث في عهده ؟
- كان كل من الشعبين الإغريقي واليهودي علي خلاف دائم ونزاع حول الامتيازات المخصصة لكل منهم فكان الإغريق أصحاب ديانة وثنية أما اليهود فكانوا أصحاب ديانة سماوية ، وبعض المؤرخين عندما يكتبون عن شعب الإسكندرية يطلقون عليهم الإغريق المصريين أو المصريين الإغريق ويقصدون بذلك شعب الإسكندرية ، ومنذ أن تم احتلال مصر بواسطة الرومان كان يلقب الوالي الروماني بوالي مصر والإسكندرية علي أساس أن الإسكندرية تمثل دولة في حد ذاتها داخل الدولة المصرية ، أما عن قصة مؤامرة اليهود علي أحد الولاة الرومان بالإسكندرية وكان اسمه أولوس افيليوس فلاكوس ، فقد وردت في كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان) في صفحة ١٤٦ وصفحة ١٤٧ وفيما يلي بعض ماورد عن هذا الموضوع بالكتاب : تولي أفيليوس فلاكوس حكم مصر في سنة ٣٤ م ، وقد اشتهر بالحزم في إدارة شئون مصر ، وقد عاصر حكم فلاكوس أواخر عهد الإمبراطور الروماني تيبريوس وأوائل عهد الإمبراطور كاليجولا ، وأهم ما يذكر في عصر فلاكوس الحرب الأهلية بين الإغريق المصريين وبين طائفة اليهود ، ولذلك أصدر منشوراً يحرم فيه حمل الأسلحة إلا بإذن منه ، ويحدد عقوبة مخالفة ذلك بالإعدام ، فأمر بتفتيش منازل اليهود بحثاً عن الأسلحة ، وقد اندلعت الشرارة الأولي في الحرب الأهلية بين المصريين الإغريق وبين الطائفة اليهودية سنة ٣٨م ،ومن الواضح أن الوالي الروماني وقع ضحية لحرب ذكية بين فريقين متعادلين لأنه لم يكن منحازاً لأهل الإسكندرية ، بل كان رومانياً مخلصاً يهمه إرضاء سيده الجالس علي العرش قبل كل شئ ، فاستطاع اليهود عن طريق ممثلهم في روما إيغار صدر الإمبراطور كاليجولا علي الوالي فلاكوس ، فأرسل

---

[113] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – صفحة ١٤٤

الإمبراطور قوة عسكرية تحت إمرة قائد يدعي (باسوس) وحرصت القوة علي أن تنزل بالميناء ليلاً ، ثم تسللت إلي داخل المدينة واتجهت أولاً إلي بيت قائد الجيش الروماني وأبلغته أمر القبض علي الوالي ، وبعدئذ بحثت عن الوالي فعرفت أنه مدعو في وليمة عند أحد أصدقائه ، فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلي روما في أكتوبر سنة ٣٨م ، حيث قدم للمحاكمة التي قررت إدانته ، وصودرت أملاكه وأمواله ونفي إلي جزيرة أندروس الصخرية الموجودة في بحر إيجة وبقي فيها حتي إعدامه

- يا لها من مؤامرة أطاحت بشخص مخلص للإمبراطور وماذا حدث أيضاً في العصر الروماني ؟

الإمبراطور تراجانوس وإعادة القمح إلي المصريين

- سأحدثك عن الإمبراطور الروماني تراجانوس فبرغم أنه لم يزر مصر ، إلا أن اهتمامه بها كان بالغاً ، فقد تولي الإمبراطور تراجانوس عرش الإمبراطورية الرومانية من سنة ٩٨ م إلي سنة ١١٧ م ، وقد كان الإمبراطور تراجانوس حالة خاصة جداً في تاريخ الرومان ، فكان ينظر في المظالم والشكاوي بنفسه ، وكثيراً ما أبدل مركز روما التقليدي من مصر بأن أطعم الثانية علي حساب الأولي ، فقد أراد في إحدي السنوات أن يخفف من وطأة المجاعة التي كانت تجتاح مصر بسبب انخفاض النيل ، فأعاد إلي مصر أسطولاً محملاً بالقمح ،
- لقد خشي بالتأكيد أن يموت الفلاحين المصريين فلا يجد بعد ذلك من يزرع القمح
- وقد شجع تراجانوس التجارة المصرية مع الشرق وذلك بشق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق نهر النيل وهذا بالقرب من رأس الدلتا أطلق عليها قناة تراجان ، فعاد هذا العمل علي مصر بالخير فزادت تجارتها إلي حد كبير وأصبحت الهند هدف التاجر المصري المُجِد ، ورغم أن الرحلة كانت تستغرق ١٢ شهراً فإن الأرباح الناتجة عنها كانت تبرر متاعبها ومشاغلها ، وقد قام تراجانوس إبان حكمه بعدة تغييرات عسكرية وأعمال عسكرية ، منها بناء قلعة بابليون علي ضفة النيل الشرقية ، كذلك أنشأ فرقة عسكرية رومانية جديدة وجعلها تعسكر في حصن بابليون ، (كما فعل من قبل الإمبراطور أغسطس وأنشأ ضاحية النصر بالإسكندرية لتتمركز فيها أحد الفرق الرومانية وهي المنطقة المعروفة حالياً باسم فيكتوريا بالإسكندرية) ، وقد تولي حكم مصر في عهد الإمبراطور تراجانوس الوالي جايوس فيبيوس ماكسيموس الذي عزله الإمبراطور بسبب اتهامه من شعب الإسكندرية بعدة اتهامات منها الابتزاز والرشوة واستغلال النفوذ ، وكذلك تولي حكم مصر في عهد تراجانوس الوالي روتيليوس لوبوس ، وكذلك تولي حكم مصر في عهده الوالي ماركوس توريو[١١٤]
- ألم تحدث أي ثورات علي الحكم الروماني في مصر ؟

[١١٤] نقلا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان)

الإمبراطور ماركوس أوريليوس واندلاع ثورة عارمة في مصر

- عندما تم احتلال مصر سنة ٣٠ قبل الميلاد بواسطة الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس ، اعتني بمصر واتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة كي تصبح المصدر الرئيس للقمح
- أي كان كمن يعتني بالبقرة قبل أن يحلبها ،
- بالتأكيد ، ويمرور الوقت وتعاقب الأباطرة الرومان في حكم الإمبراطورية قل الاهتمام بالعناية بمصر واستمر النهب فقط حتي أصبحت مصر تعاني من الإهمال الشديد ، وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولي الحكم سنة ١٦١ ميلادياً[١١٥] قام المصريون الوطنيون بثورة عارمة وكان قائد الثورة كاهن مصري يُدعي (ايسودوروس) ، ولم يتمكن الرومان من قمع الثورة بالقوة ويقول عنها د سيد الناصري : (-- وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهاظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلي حد تسخير طاقاتهم البشرية ذاتها --)[١١٦] ، وقد أصبحت الإسكندرية العاصمة نفسها في ذلك الوقت مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدي إلي استخدام الرومان أساليب أخري للسيطرة علي الثورة لأن القوة لم تفلح معها ، وكان يوجد في ذلك الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (افيديوس كاسيوس) وقام بإحداث وقيعة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة ،
- دائماً يستخدم الطغاة سلاح الانقسام بين الثوار للقضاء علي أي ثورة إذا فشلت القوة في قمعها
- وظل الرومان يستنزفون خيرات مصر بأسلوب مبالغ فيه جداً مما أدي إلي دخول مصر في أزمات اقتصادية حادة فتم اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما[١١٧]
- أي يأخذونها لحم ويرمونها عظم كما يقال ، فهل من أحداث مهمة أخري ؟

الملكة زنوبيا تسيطر علي مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية

- في عام ٢٧٠ م استطاعت القوات العربية التدمرية غزو مصر وهزيمة القوات الرومانية المستقرة بها حيث قامت قوات الملكة زنوبيا بهزيمة قوات الوالي تيناجينو بروبوس ، الذي آثر الانتحار علي العار ،
- يبدو أن الانتحار كان شائعاً بين قادة الرومان عندما يشعرون بالعار

---

١١٥ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٤٧

١١٦ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ ٢١٠

١١٧ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ ٢١٨

- ونودي بالأمير وهب اللات (وابالاثوس) ابن الملكة زنوبيا (الزباء) والذي كان صبياً في العاشرة من عمره إمبراطوراً حيث رسمت صورته علي عملة مدينة الإسكندرية – عاصمة مصر في ذلك الوقت – جنباً إلي جنب مع صورة الإمبراطور الروماني كلاوديوس جوثيكوس مع بقاء الإدارة الرومانية ، أي كان الحكم امتزاجاً بين العربي والروماني ، ---وعندما تولي الإمبراطور الروماني أوريليانوس عرش الإمبراطورية الرومانية ، اعترف – مؤقتاً – بوهب اللات شريكاً له في حكم ولايات الشرق وظهرت عملة مدينة الإسكندرية تحمل صورة الإمبراطور أوريليانوس علي الوجه وصورة وهب اللات علي الوجه الآخر ، -- وبعد ذلك بفترة سُكَّت عملة في الإسكندرية سنة ٢٧١ م تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وتلقبه باسم (الإمبراطور المؤله) وهو اللقب التقليدي لأباطرة الرومان ، بينما ظهرت صورة أمه علي الوجه الآخر ، ٠وفي ربيع سنة ٢٧١ م تأزمت العلاقات بين وهب اللات العربي والإمبراطور أوريليانوس الروماني ، فأعلن وهب اللات نفسه إمبراطوراً لا علي الشرق فحسب بل علي الإمبراطورية الرومانية كلها ، لأنه كان يطمع في تأييد قوات الشرق له ،
- إلي هذا الحد بلغت سلبية الإمبراطور الروماني بعد كل هذا التحدي ؟
- رداً علي ذلك قام الإمبراطور الروماني بإرسال قواته للقضاء علي وهب اللات وأمه حيث استطاع القائد الروماني أن يستولي علي الإسكندرية ولكن باقي مصر ظل خارج سلطان الرومان – – – وبعد العديد من المعارك سقطت زنوبيا ووقعت أسيرة وسار بها الإمبراطور الروماني في شوارع روما مقيدة بسلاسل ذهبية وتوقف سك العملة التي تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وصورة أمه زنوبيا علي الظهر ، وحلت محلها العملة التي تحمل صورة أوريليانوس وحده إمبراطوراً[١١٨]
- وأين تقع مملكة تدمر ؟
- تقع مملكة تدمر العربية في منطقة الشام الحالية
- هل معني هذا أن الرومان في تلك الفترة كانوا في عصر اضمحلال ؟
- بالفعل بدأ عصر اضمحلال لأباطرة روما من سنة ١٩٣ م إلي سنة ٢٨٤ م[١١٩] نتيجة لوصول شخصيات ضعيفة إلي عرش روما وطبعاً تأثرت مصر بهذه الفترة كثيراً وسارت الأمور من سيئ إلي أسوأ وأبسط مثال علي سرعة تغير الأحوال في روما أن المصريين تعودوا كتابة اسم أي إمبراطور جديد في نقوشهم الفرعونية ولم يتمكنوا من كتابة أسماء بعض الأباطرة نتيجة سرعة زوالهم من علي العرش ، وقد حدثت عدة اضطرابات في الإمبراطورية الرومانية وفي مصر بالطبع وكل فترة قصيرة يأتي إمبراطور ويذهب إمبراطور وأحياناً يكون إمبراطور قوي ومسيطر وأحياناً يكون ضعيف ، والمصريون كانوا بلا شك يشعرون بكل حاكم منهم سواء كان قوي أو ضعيف لأن النوع الأول كان يقوم ببعض

---

[١١٨] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) حمدي عثمان – صفحة ١٦٧ ، ١٦٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١٩ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ ٢١٩

الإصلاحات أما النوع الثاني فتنتشر في عهده الفوضى ،ولن أشغل بالك يا صديقي بكل هذه التقلبات والصراعات التي حدثت لأنني وعدتك بالالتزام بالاختصار ، والمهم في كل هذا أن مصر لم تعد ولاية مؤثرة علي أمن الإمبراطورية الرومانية ولم تعد تشكل أي خطورة أو ثروة ويبدوا أن الرومان تحولوا إلي نهب مناطق أخري وأهملوا مصر بعد أن نهبوها تماماً كما أن الخطر الفارسي أصبح يهدد الرومان ويقلقهم ويشغلهم عن أمور أخري كثيرة وسبحان مغير الأحوال ، وقد وصل الشعب المصري في تلك الفترة إلي مرحلة قاسية جداً من اليأس والقهر والظلم

- مسكين هذا الشعب

<u>الديانة المسيحية في مصر</u>

- وأثناء هذه الفترة من الاضمحلال الروماني سعي المصريون للخلاص وأصبحوا يبحثون عن من ينقذهم من كل هذه الويلات والخراب ثم وجدوا ضالتهم أخيراً في الديانة المسيحية التي بدأت تنتشر في مصر بشكل ملحوظ ويقول عن ذلك د سيد الناصر (– – وفي أثناء ازدياد التدهور والاضمحلال الإقتصادى برز خطر سياسي عقائدي علي الإمبراطورية الرومانية ، ألا وهو انتشار المسيحية في مصر بين أواسط الفقراء والمعوزين المصريين إيماناً بفكرة الخلاص من الظلم والجور وتحطيماً لتلك الفروق الإجتماعية ، لأن الجميع أبناء الله في نظر المسيحية وأن السعادة الكبري هي سعادة الروح والرب – كما أن مبادئ المسيحية التي تدعوا المظلوم لترك الظالم لعقاب الله ، وعدم منازعته – – ولاقت صدي في نفوس المصريين المضطهدين والذين لا يستطيعون مقاومة الرومان)١٢٠ ودخل أيضاً في هذه الديانة بنسبة كبيرة المصريين المتأغرقين أو طبقة الإغريقومصريين الذين وجدوا في هذه الديانة البلسم الشافي علي حد تعبير د سيد الناصري ، وقد انتشرت المسيحية في مصر تدريجياً ، وقد كانت رحلة العائلة المقدسة إلي مصر (السيدة مريم وابنها سيدنا عيسي) هرباً من مؤامرات اليهود وقسوة الرومان كانت هذه الرحلة قد تركت انطباعاً رقيقاً لدي المصريين وتسببت في تعاطفهم مع السيدة مريم (– – ولم يكن هناك شعب أرحم بها ولا أرض أحن عليها وعلي وليدها غير شعب مصر ––)١٢١ وجدير بالذكر أن القديس مرقس الرسول كان قد حضر إلي الإسكندرية سنة ٥٠ م١٢٢ وأسس الكنيسة المرقسية بها وكانت الإسكندرية علي درجة عالية من العلم والثقافة ، ويبدأ ظهور المسيحية في مصر في عهد الإمبراطور نيرون ثم بدأت في التنامي والإزدياد بعد ذلك وكان الرومان في ذلك الوقت لا يتدخلون في العقائد الدينية لشعوبهم ثم بدأ التدخل بعد ذلك فكانت أول مواجهة حقيقية بين الإمبراطور الروماني وبين الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور (ديقيوس ٢٤٩–٢٥١ م) عندما

[١٢٠] معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ ٢٣٥

١٢١ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٢٤

١٢٢ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٢٧

شعر بخطورة هذه الديانة علي مركزه لأن المسيحيين بالطبع كانوا يرفضون مركز الإمبراطور الديني كشخص مؤله ويقول عن ذلك د سيد الناصري (-- ومن هنا فرض ديقيوس علي المصريين تقديم إثبات بأنهم قدموا القرابين والأضاحي -- وذاقوا طعم هذه القرابين توكيداً للوثنية وعبادة الإمبراطور بالقوة ومن يمتنع عن ذلك الإجراء في حضور اللجنة التي عينها الإمبراطور لهذا الغرض ، يحكم عليه بالموت --)[١٢٣]

- أعتقد أن الديانة المسيحية انتشرت في مصر بهذا الشكل لأسباب كثيرة من بينها عدم الحاجة لبناء مقبرة بشكل معين وبالتالي فالحياة الآخرة لا تحتاج إلي الطقوس الفرعونية المعقدة ففي هذه الديانة الخلاص من الديانة الفرعونية ومن عبادة الفرعون ومن سيطرة الكهنة كما أنها ديانة سماوية بعيدة عن الأوثان ، والروحانيات فيها تصل إلي أعلي مستوي فلاقت لدي المصريين قبول ووجدوا فيها ضالتهم
- لقد كانت المسيحية في مصر في ذلك الوقت بعيدة عن الجدل الذي انتشر بعد ذلك حول طبيعة السيد المسيح فكانت ديانة صافية تدخل القلوب بحب ويسر ، وكانت المحبة شعارها وجوهرها
- حسناً لنستكمل حديثنا عن باقي الأباطرة الرومان الذين تأثرت بهم مصر أو وقعت في أيامهم أحداث مهمة كما اتفقنا

الإمبراطور دقلديانوس وعندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية

- عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس علي عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبق علي جميع الولايات الرومانية ، وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية[١٢٤] واجتماعية وعسكرية[١٢٥] ، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تماماً عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته ، وكان من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية ، حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء وكان طبعاً لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدي السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وكان عدد ولاة مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة

---

[١٢٣] معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني(د سيد الناصري) صـ ٢٣٦

[١٢٤] من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

[١٢٥] من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوي

ولاة[126] حكموا مصر في عهده حوالي ٢١ سنة ، كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلاً بعد أن كانت لها عملة خاصة بها تميزها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ، وكل المزايا والقواعد التي وضعها الإمبراطور أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس ، والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية ، وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطوراً[127] وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولي لدقلديانوس مما أدي إلي حضوره بنفسه إلي مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة ٨ شهور كاملة حتي جاع الناس فيها ، ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها ثم قرر أن يتودد لأهلها ، ويقول عن ذلك د سيد الناصرى (- - وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم ، حفاظاً علي هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط ، عندما أصدر قراراً بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثراً ضخماً لشكر الإمبراطور ، ويعرف حالياً بعمود السواري - -)[128] ، لكن المشكلة الحقيقية أن دقلديانوس قرر استئصال الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة تحدياً سافراً لسلطانه المؤله علي شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور (- - - ومما دفع الإمبراطور إلي فقدان اتزانه ، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعنتها ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعنة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة فلماذا يحدث هذا لشخصه دون أسلافه ، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحدياً لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار - -)[129] ،

- أي أنه اعتبر عدم عبادته مسألة شخصية ، فما الفرق بينه وبين كل من سبقه من أباطرة رومان وبطالمة وفراعنة حتي لا يعبده المصريون كما تعودوا ذلك دائماً إنه شئ مثير للأعصاب بالفعل بالنسبة له
- وتم قتل مئات الآلاف (- - وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان علي ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقلديانوس عرش الإمبراطورية "٢٨٤م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء - -)[130] ،

---

[126] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صد ٥٠

١٢٧ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صد٢٥٤

١٢٨ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صد ٢٥٥

١٢٩ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صد ٢٦١

١٣٠ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صد ٢٦٢

- التاريخ القبطي حالياً تم حسابه منذ حكم هذا الإمبراطور ، إنها معلومة مفيدة جداً ولكنها محزنة بالطبع لما قاساه المصريون من ألوان العذاب والتنكيل في عهده
- (– – وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهلهم أن يموتوا من أجله – –)١٣١ ، وقد بلغ عدد القتلى أكثر من ٨٠٠٠٠٠ نسمة١٣٢ وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها
- هذه المعلومات لكل من يعتقد أن مصر لم تمر بفترة أسوأ من الفترة التي عاصرها
- ليست هذه الفترة فقط هي الفترة السيئة الوحيدة في تاريخ مصر فقد عاني الشعب المصري العديد من الفترات السيئة علي مر التاريخ ولا يشترط أن يكون بسبب القتل أو التعذيب بل سنجد فترات مجاعات وأوبئة أفنت ما لم يستطع المؤرخون حصره من أعداد
- فماذا فعل أيضاً هذا الإمبراطور ؟
- لقد قام دقلديانوس من ضمن إجراءاته وتعديلاته بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلي قسمين رئيسيين قسم شرقي وقسم غربي وجعل علي كل قسم حاكم بلقب أغسطس ونائب بلقب قيصر وبعد أن مات تصارع خلفاءه علي العرش ووصل الأمر إلي نشوب القتال بين الفريقين واستمر هذا الصراع والتنافس بين الأباطرة والقياصرة إلي أن استطاع قسطنطينوس (والد قسطنطين) أن يهزم منافسه ويجلس علي العرش ، واتخذ بعد ذلك قسطنطين عاصمة جديدة له وكانت عبارة عن مدينة قديمة اسمها بيزنطة وأطلق عليها اسمه لتكون القسطنطينية (مدينة استنبول حالياً بتركيا) والتي أصبحت بعد ذلك عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية١٣٣
- ومدينة بيزنطة هذه هي التي سُمِّي العصر الروماني بعد ذلك بالعصر البيزنطي نسبةً لها أليس كذلك؟

العصر البيزنطي

- بالتأكيد فيعتبر هذا الإمبراطور هو مؤسس العصر البيزنطي نسبة إلي اسم هذه المدينة ويدأ هذا العصر سنة ٣٢٣ م وتولي حكم مصر في هذا العصر ٧٩ والياً عاصروا ٢٢ إمبراطوراً١٣٤ أشهرهم بالنسبة لنا حالياً قسطنطين الأول وهرقل ، وقد حدث أن الإمبراطور قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية فهو يعتبر أول إمبراطور مسيحي في الرومان بالكامل وقد أسعد ذلك بالطبع المصريين في البداية ولكن

---

١٣١ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٤١

١٣٢ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٥٢

١٣٣ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٦٣

١٣٤ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٥٢

سرعان ما اختفت هذه السعادة لظهور خلاف بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية فقد حدثت المشاكل وبدأ الاضطهاد بعد حدوث هذا الخلاف الحاد بين الكنيسة بالإسكندرية وكنيسة الإمبراطورية حول طبيعة السيد المسيح نفسه ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - - ولكن ثبت أن اضطهاد الأباطرة الوثنيين كان عاملاً مساعداً، ليس في انتشار المسيحية فحسب بل في توحيد جبهتها وتناسي خلافاتها العقائدية إذ سرعان ما برزت هذه الصراعات العقائدية حول قانون الإيمان المسيحي والأسس الفلسفية للعقيدة الجديدة وكان الصراع الأكبر بين الأسقف الكسندر روس وشماسه أثناسيوس من ناحية وبين خصم لدود هو أسقف آخر اسمه آريوس حول علاقة الأب بالابن وهل الابن هو نفس الأب أم شبيه به ، لقد رفضت الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بشدة رأي آريوس الذي رأي أن الابن لا يمكن أن يكون وجوده مع الأب بل يليه وبالتالي فهو ليس نفسه بل شبيه به ، بينما تمسكت الإسكندرية بأن الأب ظهر في جسم الابن الذي هو المسيح وكانت خطورة هذا الجدل اللاهوتي ما نتج عنه من ردود فعل سياسية ، هددت الإمبراطورية بالعودة إلي الحروب الأهلية - -)١٣٥

- نفهم من هذا أن الضغط الرهيب الذي كان موجوداً علي المسيحيين في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية جعلهم متحدين أمام القهر الإمبراطوري ، أما بعد أن أصبحت الإمبراطورية تعترف بالديانة المسيحية فقد أعطاهم الفرصة للجدل حول طبيعة السيد المسيح فهل هي طبيعة إله أم طبيعة إنسان أم الاثنين معاً فهل فارقته طبيعته اللاهوتية أثناء وجوده علي الأرض فمثلاً عندما كان ينام من الذي كان يدير الكون وما إلي ذلك
- وهكذا استمر الجدل حول علاقة الابن بالأب وهل كلاهما واحداً أم اثنين والمؤكد أن هذا الجدل أصبح مشهور جداً في بيزنطة حتي أننا اليوم عندما نجد شخص ما كثير الجدال نقول له علي سبيل المثال (لا داعي للجدل البيزنطي) الذي لا يؤدي إلي أي نتيجة
- هل الاضطهاد الوثني تحول إلي اضطهاد من نوع آخر لاختلاف الكنيستين ؟
- لقد كان هذا الخلاف بين الكنيستين من أسباب عودة الاضطهاد الديني مرة أخري بعد أن فشلت جميع محاولات قسطنطين في احتواء هذه الأزمة ويأس من توحيد الإمبراطورية علي مذهب واحد بوضع أساس قانون الإيمان المسيحي وكان قد اعتقد أن بصفته إمبراطوراً يمكنه السيطرة علي الكنيسة ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - - وقد ردت الكنيسة التي كانت قد أصبحت قوية ومسيطرة بأن الإمبراطور مسيحي قبل أن يكون إمبراطوراً وأنه قبل توليه العرش يجب أن تباركه الكنيسة بالشعائر الخاصة ومن حق الكنيسة عدم الموافقة علي أداء مثل هذه الشعائر - -)١٣٦ بل إن الكنيسة ادعت

---

١٣٥ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٦٣ –

[١٣٦] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٦٦

لنفسها الحق في الاستقلال المالي والإداري ، وهكذا عادت الإسكندرية إلي التمرد علي الرومان ولكن بزعامة الكنيسة هذه المرة ، ويبدوا أن السكندريين (الإغريق) كانوا يتمنون أن تكون عاصمة الإمبراطورية هي الإسكندرية بدلاً من بيزنطة التي اختارها الإمبراطور وكان هذا سبباً آخر لزيادة السخط علي الإمبراطور وحدثت مشاكل بين الإسكندرية والإمبراطور رغم محاولته تفاديها ، وبالمناسبة تم تقسيم الإمبراطورية بالفعل بعد موت قسطنطين إلي شرقية وغربية وأصبحت الإمبراطورية الشرقية هي الأقوى والأكثر ازدهاراً وحضارة بينما انهارت الإمبراطورية الغربية بعد ذلك نتيجة لتعرضها لغزوات وحروب خارجية ليس هذا مجالاً للحديث عنها

- فمتي تم استخدام تعبير أقباط مصر أو قبط مصر ؟

العصر القبطي

- مصطلح العصر القبطي في مصر هو الذي أصبح سائداً بعد أن فرضت اللغة القبطية نفسها والتي نشأت في البداية في ريف مصر لإحياء اللغة المصرية القديمة وكتابتها بحروف أبجدية إغريقية مع بعض التعديلات ، وأصبح لفظ القبط والأقباط والعصر القبطي وغير ذلك هو الذي متداولاً حتي أن هناك ما يعرف بالفن القبطي واللغة القبطية والآثار القبطية وغير ذلك ، وعندما كان يتحدث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن أهل مصر فقد كان يستخدم لفظ القبط والله أعلم ، وقد استمر الاضطهاد للمسيحيين في مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية حتى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تفرض علي الكنيسة المصرية أسقفاً عليها من طرفها وكان في حراسة قوة رومانية وطبعاً هذا الأسقف كان علي علاقة سيئة برجال الكنيسة المصريين (ويقوم هذا الأسقف باضطهاد رجال الكنيسة المصريين الذين كانوا يهربون إلي الكهوف والأديرة في الصحراء)١٣٧
- معني ذلك أنه عندما نقول الكنيسة القبطية فمعناها الكنيسة المصرية لأن القبطية هنا جنسية وليست ديانة لأن مصر هي بلاد القبط
- نعم ، حتي أن كلمة قبط ستلاحظ أنها كلمة (مصر) حاليا باللغة الإنجليزية وباقي اللغات (إيجيبت) (EGYPT)، ولمزيد من التوضيح فإنه بعد دخول عمرو بن العاص مصر وفتحها أسلم العديد من الأقباط وظل أقباط آخرين علي ديانتهم المسيحية ، والذين أسلموا تزاوجوا بعد ذلك بقبائل عربية وشعوب وعناصر من المسلمين غير مصريين ، وبالتالي فقد تكون أنت أو أنا قبطي مسلم أو قبطي مسيحي بمعني مصري مسلم أو مصري مسيحي ، والفرق أن القبطي المسلم قد دخل في أصوله جنسيات مسلمة أخري تزاوجت مع المصريين .
- وهل ظل العداء بين الكنيستين مستمر ولم تحدث أي محاولات لتحسين العلاقة بينهما ؟

---

١٣٧ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٨١

- جدير بالذكر أن العلاقة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية تحسنت إلي حد ما في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأصغر (٣٨٠-٤٥٠ م) وتوقفت الاضطهادات١٣٨ وكان الأسقف كيرلس هو أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت وقد قاد المعارضة ضد شخص اسمه نسطوريوس وكان بطريرك القسطنطينية وكان يدعوا إلي الفصل بين الصفات الربانية والصفات البشرية للسيد المسيح بينما كان يصر البطريرك كيرلس علي إدماج الصفتين الربانية والبشرية في جسد المسيح ، وأصبح الأسقف كيرلس ذو مكانة خاصة عند الإمبراطور
- عظيم جداً فهي فترة هدنة لتخفيف التوتر
- ثم عادت المشاكل مرة أخري في عهد الإمبراطور مرقيانوس عام ٤٥٤ م (فقد اندلع عام ٤٥١ م خلاف بين كنيسة روما والإسكندرية أدي إلي انقسام الكنيستين حتي يومنا هذا حيث أصبح أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار علي نهجهم يعرفون باسم الأرثوذوكس أي أتباع النظرية السليمة وقد انضم إليها السوريان ، وقد أطلق علي هذه الجبهة اسم اليعاقبة بينما أصبح أتباع كنيسة روما يطلقون علي أنفسهم اسم الكاثوليك أي أصحاب المذهب الجامع لكل الآراء علي مستوي العالم بأسره أما أتباع كنيسة القسطنطينية فقد عرفوا باسم الملكيين أي أتباع مذهب الملك " الإمبراطور ")١٣٩ وفي عهد مرقيانوس عاد العنف ضد أقباط مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية مرة أخري بسبب مذهب الطبيعتين ومذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (وقامت ثورات دموية ضد القسطنطينية ، وتعرض الأقباط -- لمذابح بشعة فاقت حتي تلك التي قام بها الأباطرة الوثنيون ضدهم ، بل إن عدد الذين استشهدوا من الأقباط -- علي أيدي أتباع مذهب الطبيعتين يفوق بكثير عدد الذين استشهدوا علي أيدي الأباطرة الوثنيين)١٤٠
- هذا نستنتج منه أن بابا الإسكندرية هو بابا الأرثوذوكس في العالم كله وليس في مصر فقط والشعب المصري المسكين شعر بسعادة كبيرة جداً بعد أن أصبح الإمبراطور الروماني يدين بنفس ديانة الشعب المصري المسيحي وأعتقد الشعب أن الاضطهاد والقتل سوف ينقشع ولكن للأسف كان اختلاف المذاهب أبشع من الوثنية نفسها التي كان عليها الأباطرة الوثنيون
- كان الشعب يعاني من الاضطهاد والظلم والفقر والضرائب الباهظة فإن مشكلة المذاهب لم تكن المشكلة الوحيدة رغم أنها الرئيسية وكان الرومان قد قرروا أن يكون والي مصر هو نفسه الأسقف في نفس الوقت مما أدي إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً (وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام ٥٧٦ م)١٤١ وفي عام ٦٢٢ تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر

---

١٣٨ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صد ٢٨١

[١٣٩] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صد ٢٨٢

[١٤٠] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صد ٢٨٣

١٤١ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صد ٢٨٥

ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر ، وظلت هذه الأوضاع إلي أن بدأت تعود الإمبراطورية الفارسية للأضواء مرة أخري وأصبح لها جيوش جرارة تنافس بل تتفوق علي الرومان وتجتاح ممتلكاتهم وتضم ولاياتهم إليها ومن بينها مصر

- مسكين والله هذا الشعب المصري فهل يواجه الرومان أم الإغريق أم الفرس أم اليهود ؟
- صحيح فهو علي الرغم من اعتناقه الديانة المسيحية التي شعارها وجوهرها المحبة والتسامح {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ*وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (٨٢-٨٣) سورة المائدة ، هكذا وصف المولي عز وجل النصارى في القرآن الكريم ، فهم أقرب الناس مودة للمؤمنين علي عكس اليهود تماماً وقد قرأت في كتاب المسيحية والإسلام في مصر للدكتور حسين كفافي صفحة ٣٤ ما يلي (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلي مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم فمن لا يعرف المحبة لا يعرف الله – إنجيل متي الإصحاح ٥) ، وبالرغم من أنهم كانوا يهربون إلي الصحراء في الأديرة المختلفة التي أصبحت مراكز للإشعاع الديني ومقراً للعبادة والرهبنة إلا أن المصائب والمشاكل لم تتركهم في حالهم رغم تسامحهم مع الناس جميعاً طبقاً لتعليمات دينهم ، وبالمناسبة يعتبر أقدم دير في العالم علي الإطلاق هو دير الأنبا أنطونيوس علي ساحل البحر الأحمر (ولذلك فإن الأنبا أنطونيوس الذي أنشأ الدير المسمي باسمه يسمي أبا الرهبان أو كوكب البرية الشرقية أي الصحراء الشرقية)[١٤٢] وعلي الرغم من كل هذا إلا أن الاضطهاد الديني الروماني للمصريين أصبح روتينياً ومألوفاً فالحاكم الروماني نفسه أصبح هو البطريرك المخالف للمذهب بينما كان هناك البطريرك المصري المنتخب سراً ، وفي أثناء كل هذه الأحداث من اضطهاد وظلم وفقر وتدهور استطاع الفرس إلحاق هزيمة ساحقة بالرومان "" الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) "" سورة الروم
- فمن كان الإمبراطور الروماني عند ظهور الإسلام ؟

الإمبراطور البيزنطي هرقل

- كان الإمبراطور هرقل وهو يُعد من أعظم أباطرة الروم وأكثرهم شهرة في المصادر العربية ، لأن اسمه اقترن بالفتوحات الإسلامية وتحرير بلاد الشام ومصر من الحكم الروماني ، فبعد تمكُن الدعوة

---

[١٤٢] المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٤٨

الإسلامية حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بعث الرسائل إلى كسرى وهرقل وغيرهم ليعرض عليهم الإسلام، وقد بعث برسالة إلى هرقل يطلب فيها منه أن يُسلِم حتى يسلم، ويأتيه الله أجره مرتين، وعندما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل قرأه وهو مقيم في بيت المقدس، وقد كان عنده أبو سفيان بن حرب حيث طلبه هرقل ليسأله عن النبي الذي بُعِث فيهم. وتشير الروايات التاريخية إلى أن هرقل كاد أن يسلم ويؤمن بدعوة الإسلام لولا خوفه من قساوسته، ومن حوله الذين كانوا يكرهون العرب كرهاً شديداً، وقد توفي هرقل في سنة ٦٤١ ميلادي بعد أن شهد هزيمة الروم في اليرموك ورحيلهم عنها سنة ٦٣٦ ميلادي. ومن أبرز الأحداث التي وقعت في عهده زيارة عمرو بن العاص رضي الله عن لمصر قبل الإسلامي ،

- فهل لديك معلومات عن هذه الزيارة ؟
- قد وردت بعض تفاصيل عن هذه الزيارة في بعض المراجع كالآتي : زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريباً في (صيف عام ٦٠٢ م)١٤٣ ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلي الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين (– – – فإذا به يقابل شماساً مصرياً وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قائظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قربه له فشرب حتي ارتوي ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعبد في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها)١٤٤ وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين أصر علي أن يعطيه مكافأة مقابل لذلك فسأله كم تكون دية القتيل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين وعرض عليه أن يصحبه إلي مصر كي يتمكن من تنفيذ وعده (فقال عمرو : كم يكون مكثي في تلك الرحلة ؟ قال له الشماس : شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعاً – –)١٤٥ وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلي مصر وكانت أول زيارة له لمصر ، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر (– – مروراً بالقري والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالإضافة إلي جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء

---

١٤٣ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٩٣

١٤٤ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٩٤

١٤٥ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ٩٥

كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين ، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور ، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها ، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر – –)١٤٦

- وبالطبع كان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة
- نعم كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحاءها ودخل أسواقها وشواطئها وأحياءها ومكث بها عشرة أيام كاملة فكانت هذه الزيارة تمهيد وإعداد لفاتح مصر بعد ذلك ولقد كان العالم في ذلك الوقت قد وصل إلي مرحلة وصفها العقاد وصفاً رائعاً في كتابه الممتع عبقرية محمد صلي الله عليه وسلم ، حيث كتب ما ملخصه : (كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية – – خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام – – أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر – – طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلي قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعيف وتجزي الظالم وتختار الأصلح والأكمل من جميع الأمور ، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلي دولة تقضي بالشريعة وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد)١٤٧ هكذا وصف العقاد بأسلوبه الرائع الأحوال في العالم ثم يشرح بعد ذلك موقف كل دولة علي حدة فيقول (بيزنطة قد خرجت من الدين إلي الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتي طمع فيها من كان يحتمي بجوارها ، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس – وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة وبواعث الفتن ونوازع الشهوات ، والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة – عالم يتطلع إلي حال غير حاله – عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم البناء – –)١٤٨ ، ووسط هذا كله بعث المولي عز وجل نبيه محمد صلي الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩)}١٤٩

---

١٤٦ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ ١٠١

[١٤٧] عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس محمود العقاد) صـ٩

١٤٨ عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس العقاد) صـ ٩

[١٤٩] البقرة ١٢٦–١٢٩

- بالتأكيد كان لظهور الإسلام تأثير علي شعوب المنطقة بما فيها مصر
- بظهور الإسلام في الجزيرة العربية تم تحرير شعوب المنطقة بالكامل من بطش الفرس واضطهاد الروم لتصبح القومية الإسلامية فقط أعلي من أي قومية أخري وليس العربية أو الفارسية أو الرومانية أو أي جنسية أخري ليعيش البشر طبقاً لمنهج الله سبحانه وتعالي فليس لأحد أن يضع منهج بشري ويفرضه علي الناس وتم هزيمة الروم والفرس علي يد المسلمين ، ولقد كان النصر حليفهم لأنه دائماً من عند الله سبحانه
- فهل كان العرب علي استعداد للقيام بهذا الدور قبل الإسلام ؟
- لقد كان العرب مؤهلين لهذه المعارك قبل الإسلام ولكن كان ينقصهم أحد أهم أسباب النصر كما يقول العقاد رحمه الله (فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال علي حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها وأن البدوي قد عاش زمناً كما جاء في التوراة " يده علي كل إنسان ويد كل إنسان عليه " فحصل من ذلك حكمة مطبوعة يصح أن تسمي " حاسة الحرب " أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل أو نهار فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار وهذه الملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخري ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات)١٥٠ ويؤكد العقاد في كتابه الرائع عبقرية خالد أن العرب كانوا علي دراية بكافة أنواع الخطط الحربية وفنون القتال ويؤكد أيضاً أن (-- النهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفي بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها –)١٥١
- أتمني أن تحدثني بشكل أكثر تفصيلاً عن العرب قبل الإسلام وكيف أصبحوا بالإسلام خير أمة
- الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (١١٠) سورة آل عمران وسوف نتكلم عن نشأتها وظهورها واتساع حدودها من داخل الجزيرة العربية إلي خارجها ومن المهم جداً أن تعرف أن الإسلام هو السبب الرئيسي بل الوحيد الذي أعز الله به هذه الأمة ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا تربطهم رابطة واحدة (كانوا متفرقين بغير باعث إلي الوحدة والنهوض فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم فتم لهم ما

---

١٥٠ عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ ٦

١٥١ عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ ١١

نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء)١٥٢ ولو كان الإسلام نزل علي أمة قوية ناهضة بالفعل علماً وحضارة وقوة وثروة لأرجع البعض السبب في عزتها إلي المقومات الموجودة بالفعل فيها ولكن الرسالة نزلت في قوم متفرقين ونبي أمي صلي الله عليه وسلم مما يؤكد أن الرسالة هي التي صنع الله بها هذه الدولة القوية ، وظلت عزة هذه الأمة مقرونة بالتمسك بتعاليم الإسلام دائماً فكل من تولي أمر المسلمين بعد ذلك وأدرك هذه الحقيقة ستجده يحقق بفضل الله تعالي النصر والمجد للأمة ، أما من يبتعد عن هذه الحقيقة في هذه الأمة فستراه يذل لغير الله ويخضع هو وقومه لدول وأمم أخري ، وعندما أمسكت دولة الإسلام بعجلة القيادة العالمية إذا جاز التعبير اختلفت عن الدول الأخرى التي ذكرناها في هذا الحوار اختلاف شاسع في تطبيق المنهج والثقافة والحضارة ، فالأمم التي أخضعت العالم لحكمها مثل الفراعنة والإغريق والفرس والروم كانوا ينشرون منهجهم البشري علي البشر أما هذه الأمة فقد قامت بنشر منهج الله سبحانه وتعالي

- فهل لديك معلومات عن قبيلة قريش وفضلها علي سائر العرب ؟

١٥٢ عبقرية خالد (عباس محمود العقاد) صـ ١١

الفصل الرابع مصر في عصر الراشدين بعد الفتح

أفضل العناصر البشرية علي الأرض

- لقد كان بهذه القبيلة أفضل العناصر البشرية علي الأرض ولكنها كانت مكونة من عدة بطون تتنافس علي الشرف والسيادة فيما بينها وبالتالي لم يكن من الممكن أن يكون فيها ملك واحد يحكمها ، وخير ما يمكن أن يقال في هذا الحوار عن التنافس قبل الإسلام في هذه القبيلة العظيمة التي شرفها الله سبحانه بخاتم أنبياءه ورسله ، ما قاله العقاد (واحتالوا علي التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم علي بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهي الشرف إلي عشرة بطون هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها إلي قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهي إعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبني أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى في مهمات الأمور ، وكانت لبني تيم الديات والمغارم وكانت لبني جمح الأيسار والأزلام ولبني سهم الحكومة والأموال المحجرة وظلوا يتولونها جيلاً بعد جيل إلي ظهور الإسلام – – ولم يكن لهذه الوظائف الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال بل كانت تعلو وتهبط علي حسب الزعيم الذي يتولاها وعلي حسب القوة التي يكون عليها بيته عند ولايته إياها ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به " جبر الخاطر " والإرضاء – – – ولم تجد بينها سلطات فعالة – – غير ثلاث متفرقات وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار والسلطة السياسية لأمية والسلطة العسكرية لمخزوم)[١٥٣] ، ومن كلام العقاد يتضح أن هاشم وأمية ومخزوم تقريباً كانوا هم أكثر البطون فعالية وتأثيراً ، وسأذكر لك بعض أسماء من هذه البطون لكي تتعرف عليها فقد تعرف البطن من شخصيات تنتمي لها فمثلاً سيدنا أبي بكر من بني تيم وسيدنا عمر من بني عدي وسيدنا عثمان بن عفان من بني أمية وسيدنا علي بن أبي طالب من بني هاشم (آل البيت) وسيدنا الزبير بن العوام من بني أسد وسيدنا خالد بن الوليد من بني مخزوم وسيدنا عمرو بن العاص من بني سهم وهناك شخصيات تعرفها جيداً من بني أمية مثل أبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وكذلك مروان بن الحكم ، وكانت (هاشم وأمية وعبد الدار) ثلاثة بطون يلتقون في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين[١٥٤] ، وكان أبو جهل من بني مخزوم وكان لا يعجبه أن يكون النبي المبعوث من بطن غير مخزوم وكذلك الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم الذي قال ما معناه " أينزل علي محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟) ، وقد كان موضوع

---

١٥٣ عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ ١٥

١٥٤ عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ ١٦ ، ١٧

العصبية داخل قبيلة قريش من أهم أسباب رفض دعوة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في بدايتها حتي أن تصريحات هؤلاء الكفار يتضح منها أن المشكلة ليست في القرآن بل إنهم شهدوا بعظمته واعترفوا بإعجازه وأيضاً المشكلة ليست النبوة في حد ذاتها ولكن تكمن المشكلة في من سيكون هذا النبي الذي سينزل عليه هذا القرآن وفي أي بطن من بطون قريش {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (٣١) سورة الزخرف بل إنهم بلغ بهم عنادهم أن دعوا الله سبحانه وتعالي الذي يعرفونه جيداً {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٦١) سورة العنكبوت ، وتأمل معي هذا الدعاء العنيد الذي يطلبون فيه من الله أن يدمرهم ويهلكهم إذا ثبت أن محمداً صلي الله عليه وسلم صادقاً {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(٣٣)} سورة الأنفال

- **إذن فقد وصلنا في الحديث إلي بعثة النبي صلي الله عليه وسلم وانتشار الإسلامي**
- **نعم إنها أعظم فترة في تاريخ البشرية كلها ، فهو صلي الله عليه وسلم رحمة الله للعالمين ، وبسيرته نهتدي وننهل منها ما نقوي به علي حل كل مشاكلنا**
- **وماذا نتعلم أيضاً من سيرته العطرة صلي الله عليه وسلم ؟**

أهمية دراسة سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم

- **إن دراسة الهدي النبوي أمر له أهميته لكل مسلم ، فهو يحقق عدة أهداف ، من أهمها : الاقتداء برسول الله صلي الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته صلي الله عليه وسلم ، وأعماله وأقواله وتقريراته وتكسب المسلم محبة الرسول صلي الله عليه وسلم وتنميها وتباركها ، وتعرفه بحياة الصحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم ، والسير علي نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول صلي الله عليه وسلم بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته ، وحتي موته ، مرورا بطفولته وشبابه ودعوته وجهاده وصبره ، وانتصاره علي عدوه ، وتظهر بوضوح أنه كان زوجاً وأباً وقائداً ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسياً ، وداعية وزاهداً وقاضياً ، وعلي هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها ، فالداعية يجد له في سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم أساليب الدعوة ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرف علي الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالناس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله صلي الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات والصعوبات ، وما هو الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن ، ويجد المربي في سيرته صلي الله عليه وسلم دروساً نبوية في التربية ، والتأثير علي الناس بشكل عام ، وعلي أصحابه الذين رباهم علي يده وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً ، وكون منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، تأمر**

بالمعروف ، وتنهي عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولة نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها ، ويجد القائد المحارب في سيرته صلي الله عليه وسلم نظاماً محكماً . ومنهجاً دقيقاً ، في فنون قيادة الجيوش والقبائل ، والشعوب والأمة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحة ، ودقة في التنفيذ بينة ، وحرصاً علي تجسيد مبادئ العدل ، وإقامة قواعد الشوري بين الجند والأمراء ، والراعي والرعية ،

- ويتعلم منها السياسي كيف كان صلي الله عليه وسلم يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر والبغض لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكيف كان يحيك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسئ إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم لإضعافه وتنفير الناس منه ، وكيف عامله رسول الله صلي الله عليه وسلم وصبر عليه ، وعلي حقده ، حتي ظهرت حقيقته للناس ، فنبذوه جميعاً حتي أقرب الناس له ، وكرهوه وألتفوا حول قيادة النبي صلي الله عليه وسلم ، ويجد العلماء فيها ما يعينهم علي فهم كتاب الله تعالي ، لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول وتفسير لكثير من الآيات فتعينهم علي فهمها والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشرعية ، وأصول السياسة الشرعية ، ويحصلون منها علي المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ ، وغيرها من العلوم ، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية ، ويجد فيها الزهاد معاني الزهد ، وحقيقته ومقصده ، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها وطرقها ، ويتعلم منها المبتلون أسمي درجات الصبر والثبات فتقوي عزائمهم علي السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل ، ويوقنون أن العاقبة للمتقين ، وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسمو الروح ، وطهارة القلب ، وحب الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة في سبيله ، إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام ، علي معرفة الطريق إلي عز الإسلام والمسلمين من خلال معرفة عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ويتعرفون علي فقه النبي صلي الله عليه وسلم في تربية الأفراد وبناء الجماعة المسلمة وإحياء المجتمع وإقامة الدولة ، فيري المسلم حركة النبي صلي الله عليه وسلم في الدعوة والمراحل التي مر بها ، وقدرته علي مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلي الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة ، وعرضه لها علي القبائل في المواسم وتدرجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلي المدينة ، إن من تأمل حادثة الهجرة ورأي دقة التخطيط ودقة التنفيذ من ابتدائها إلي انتهائها ، ومن مقدماتها إلي ما جري بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة الرسول صلي الله عليه وسلم قائم ، وأن التخطيط جزء من السنة ، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم[١٥٥] ،

---

[١٥٥] نقلاً عن مقدمة كتاب السيرة النبوية –د علي الصلابي

- حقاً لا غني لأحد عن دراسة سيرته صلي الله عليه وسلم ،
- بالتأكيد ، وبعد ذلك لابد من معرفة صحابته رضي الله عنهم
- حسناً ولكننا لن نستطيع في هذا اللقاء أن نوفيهم حقهم ، فإذا عدنا إلي مصر –موضوع الحوار– مرة أخري سنجد أن فتحها قد تم في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه ، فكيف وصلت له الخلافة من الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي تم مبايعته بالخلافة بعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم بالمدينة في سقيفة بني ساعدة كما هو معروف ؟

ثاني اثنين

- سنتحدث بالتأكيد عن الفاروق عمر رضي الله عنه لأن فتح مصر تم في عهده ولكن اسمح لي أن نتحدث قليلاً عن الخليفة الأول رضي الله عنه وبالتأكيد أنت تعرف الكثير عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحيث أن الحوار الغرض منه التبسيط والتوضيح للأحداث التي قد تكون غامضة ، مع عدم تكرار المعلومات الشائعة والمعروفة للجميع ، فسوف أكتفي بلمحات سريعة ونقاط محددة عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وهي لا تفي بحقه بالطبع وإنما قد تكون معلومات جديدة بالنسبة لك فهل تعلم مثلاً أن أبا بكر رضي الله عنه كان أشجع الصحابة في القتال بشهادة سيدنا علي كرم الله وجهه حيث يقول (– – إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله صلي الله عليه وسلم عريشاً فقلنا : من يكون مع رسول الله صلي الله عليه وسلم لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف علي رأس رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يهوي إليه أحد إلا هوي إليه ، فهو أشجع الناس –)[١٥٦] ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يدفع الأذي عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ويدافع عنه في بداية الدعوة في مكة ويضرب المشركين ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وبالمناسبة هذا القول هو ما قاله مؤمن آل فرعون عن سيدنا موسي عليه السلام دفاعاً عنه من بطش فرعون ، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه في ذلك عندما سأل من معه في أحد المجالس (– – أنشدكم بالله ، أمؤمن آل فرعون خير أم أبي بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبونني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه –)[١٥٧]
- هو يقصد بالطبع أن أبا بكر أفضل من مؤمن آل فرعون لأن أبا بكر أعلن إيمانه في شجاعه أمام قريش كلها في توقيت كان فيه المسلمون يتعرضون لأذى قريش في بداية الدعوة ،
- كما أن أبا بكر كان يجود بماله في سبيل الله كما نعلم جميعاً ، كما أنه كان أعلم الصحابة بالسنة وكان خطيباً بليغاً ، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه (– – لوددت أني شعرة في صدر أبي بكر)[١٥٨] ،

---

[١٥٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٣٢

[١٥٧] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٣٣

[١٥٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٤٨

وخير مثال علي مكانة أبو بكر في الإسلام وعند رسول الله صلي الله عليه وسلم أن امرأة أتت النبي صلي الله عليه وسلم لتسأله شيئاً فأجابها وطلب منها العودة مرة أخري في وقت لاحق ، فقالت : يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك ؟ (كأنها تقصد الموت) فقال صلي الله عليه وسلم : إن لم تجديني فأتي أبا بكر١٥٩ ، ولما تولي أبو بكر الخلافة خطب في الناس وقال ما معناه (– – أما بعد فإني قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتي أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتي آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلي صلاتكم يرحمكم الله – –)١٦٠ ،

- والله إننا لفي أمس الحاجة لهذه الخطبة حالياً ، فما أهم الأحداث التي وقعت في خلافته رضي الله عنه
- أهم ما وقع في خلافة أبي بكر من أحداث (تنفيذ جيش أسامة وقتال أهل الردة ومانعي الزكاة ، ومسيلمة الكذاب وجمع القرآن)١٦١ ، أما موضوع جيش أسامة فيتلخص في أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قبل وفاته كان قد عقد لواء الجيش بقيادة أسامة بن زيد ليتوجه إلي الشام لقتال الروم ومات رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان الجيش لم يزل بالقرب من المدينة وتوقف عند سماع نبأ وفاته صلي الله عليه وسلم لينتظر الأوامر الجديدة إن وُجِدت ، وحدث أن ارتدت العرب حول المدينة عن الإسلام ، فاجتمع الصحابة حول أبي بكر ليحاولوا إقناعه بعدم دفع جيش أسامة إلي مهمته نظراً لحساسية الموقف ، فأقسم أبو بكر بأنه لن يرد جيشاً وجهه رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا يحل لواء عقده صلي الله عليه وسلم بل إنه قام بالاستئذان من قائد الجيش في أن يترك عمر بن الخطاب في المدينة ليعاونه فقد كان عمر رضي الله عنه ضمن هذا الجيش ،
- استأذن رضي الله عنه من قائد الجيش وهو خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟
- نعم وسوف أترك العقاد يوضح لك هذا المشهد الرائع كما ورد في كتابه عبقرية الصديق صد ١١٨ (– – فشيع البعثة وهو ماشي علي قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه ، بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك حتي علي الخليفة وعلي أكبر الصحابة من بعده ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا تقصرن في شئ من أمر رسول الله – –)

---

١٥٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صد ٥٠

١٦٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صد ٥٦

١٦١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صد ٥٩

وقد كان إرسال بعثة أسامة تصرفاً حكيماً من أبي بكر بلا شك فقد أعطي المؤمنين مثلاً ودرساً في الطاعة وكانت القبائل المرتدة عندما سمعت بجيش أسامة وخروجه للقتال تقول (- - لو لم يكن المسلمون علي قوة لما خرج من عندهم هؤلاء ، - - - فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة وهو يومئذ ألزم الدروس)١٦٢ وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول عن نفسه (إنما أنا متبع ولست بمبتدع)١٦٣ ، (كما تهيّب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر فقال " كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟ ثم استصوب جمعه لم فيه من خير)١٦٤ وهذا يدل علي أن أبا بكر كان يخشي أن يحدث شيئاً في الأمة بجمع القرآن ولكنه قرر جمعه في النهاية لإقتناعه بأنه أمر فيه خير للأمة ،

- فماذا كانت وصاياه رضي الله عنه لأسامة ؟
- من وصايا أبي بكر لأسامة بن زيد وهو ذاهب للقتال (- - لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا إمرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون علي قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله - -)١٦٥
- لقد كان أبو بكر رضي الله عنه مسلماً في تصرفاته مع المسلمين وغير المسلمين أيضاً ،
- نعم بلا شك وقد كان يكره التمثيل بالجثث أو أن تقطع رءوسهم وترسل إليه ويقول عن ذلك العقاد (- - وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا علي قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا نعلم بينها شاهداً لأصدق في الدلالة علي تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده ، ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدي الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد الإنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة ابن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أيستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلي رأس ، إنما يكفي الكتاب والخبر - -)١٦٦ ومن هنا يتضح أن أبا بكر لا يستن بأعداء الدين وإنما يستن بسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فليس معني أن الأعداء يفعلون بالمسلمين

---

[١٦٢] عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١١٩

١٦٣ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١٠٦

١٦٤ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١٠٨

١٦٥ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١٠٩

١٦٦ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١١٠

الأهوال أن يفعل المسلمون مثلهم (– فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال – –)١٦٧ ، أما الكلام عن حروب الردة فقد أقسم أبو بكر أن يقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة (–– وعن حنظلة بن علي الليثي أن أبا بكر بعث خالداً وأمره أن يقاتل الناس علي خمس من ترك واحدة منهن قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً : علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وسار خالد ومن معه في جمادي الآخرة ، فقاتل بني أسد وغطفان وقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلي الإسلام – –)١٦٨ ، ويقول العقاد رحمه الله عن هذه الفتنة (– ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة علي أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات ، فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولي علي لسان رجل من أصحاب طليحة " أحد زعماء الردة " : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا ، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله وإنا لنلقي قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه " يقصد المؤمنين ")١٦٩ وجدير بالذكر أن خالد بن الوليد كان بطل حروب الردة بلا شك ، كما أن جيش أسامة عاد سالماً غانماً وكانت كل هذه النتائج تؤكد نفاذ بصيرة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحسن قيادته للأمة من خير إلي خير ومدي ثقته بالله ، وقد ورد عن أبى رجاء البصري أنه دخل يوماً المدينة المنورة فوجد عمر يقبل رأس أبي بكر ويقول : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا)١٧٠ وإلي هنا أكتفي بهذا القدر البسيط جداً عن فضل إبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرجوا أن أكون قد أوضحت لك بعض ما لا تعرفه عن الخليفة الراشد الأول وسوف أختم كلامي عنه ببعض الأقوال المأثورة التي وردت عن أبي بكر ، فمن كلامه يتضح الكثير عن بلاغته وقوة إيمانه ومعدنه الأصيل ، فمن أقوال أبو بكر رضي الله عنه التي وردت بكتاب عبقرية الصديق للعقاد صـ ١٧٠ ، صـ ١٧١ : (إحرص علي الموت توهب لك الحياة) ، (أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة) ، (الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله) ، (إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه) ، وقال لأحد الولاة (إذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً) ، وكان إذا مدحه أحد يقول (اللهم أنت أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون

---

١٦٧ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١١٠

١٦٨ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٦١

١٦٩ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١٢٧

١٧٠ عبقرية الصديق (عباس العقاد) صـ ١٣١

)١٧١ ، وقال يخاطب طائراً (طوبي لك يا طير تأكل من الشجر وتستظل بالشجر وتصير إلي غير حساب ، يا ليت أبا بكر مثلك)١٧٢

- فهل تحفظ شيئاً من الشعر قيل في أبي بكر رضي الله عنه ؟
- إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة – – – فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البريـة أتقاها وأعدلها – – – إلا النبي وأوفاها بما حملا

- والثاني التالي المحمود مشهده – – – وأول الناس منهم صدق الرسلا١٧٣

ومات أبو بكر بعد أن قضي عامين في الخلافة ثم أوصي أن يكون الخليفة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول عن ذلك الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه تاريخ الخلفاء صـ ٢٦ (– – ثم ختم ذلك بمهم من أحسن مناقبه وأجل فضائله ، وهو استخلافه علي المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرسه فيه ووصيته له واستيداعه الله الأمة ، فخلفه الله عز وجل فيهم أحسن الخلافة وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام وإعزاز الدين وتصديق وعد الله تعالي بأنه يظهره علي الدين كله – –) ، ومن هنا نري أن هناك من يعتبر أن سيدنا عمر وخلافته عبارة عن حسنة من حسنات أبي بكر ،

- وكيف استقبل المسلمون قراره رضي الله عنه باستخلاف عمر رضي الله عنه عليهم ؟
- عندما سأله بعض الصحابة : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد تري غلظته ؟

فقال أبو بكر : بالله تخوفني ؟ أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عني من وراءك ثم دعا عثمان ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل إمرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده – –)١٧٤

- من هذا تتضح أهمية المبايعة لهذا العهد الذي تركه أبو بكر رضي الله عنه فهي لازمة لشرعية خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، وها قد وصلنا في حوارنا عن الفاروق عمر الذي في عهده تم فتح مصر

---

١٧١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٨٥

١٧٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٨٥

١٧٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٤٠ (شعر حسان بن ثابت)

١٧٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صـ ٦٦ ، صـ ٦٧

الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- لعلك لاحظت أننا ابتعدنا في هذا الحوار قليلاً بل كثيراً عن تاريخ مصر الذي هو الغرض الأساسي من هذا الحوار ولكن هل يمكن أن نترك هؤلاء العظماء دون أن نتحدث عنهم ؟ فلقد تحدثنا في بداية هذا الحوار عن قادة وفراعنة وملوك وبطالمة وأباطرة ، ولا يليق أن نمر علي عظماء التاريخ الإسلامي دون أن ننوه عن فضلهم أو علي الأصح بعض فضلهم ، حتي لو كان الكلام عنهم بعيداً عن تاريخ مصر ، ومع ذلك فإنني أعدك أن نعود إلي تاريخ مصر بعد أن نوضح بعض النقاط عن الخليفة الراشد الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (الفاروق) وقد اقتربنا بالفعل من العودة إلي الكلام عن تاريخ مصر مرة أخري لأن في عهده تم فتح مصر ، كما سيكون الكلام عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إيجاز شديد بقدر المستطاع لأنني علي ثقة أنك تعرف الكثير عنه وعن مناقبه وقد ذخرت الكتب والمراجع العديدة بمعلومات وافرة وغزيرة عن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه وبالتالي سأحاول أن أذكر هنا ما أعتقد أنك لا تعرفه ، وأهم ما نبدأ به عندما نتحدث عن الفاروق هو دعاء النبي صلي الله عليه وسلم أن يعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام (أبو جهل) ، وقد فرح المسلمون بإسلامه بل إن إسلامه استبشربه أهل السماء أيضاً ، وعندما أسلم عمر قال لرسول الله صلي الله عليه وسلم : يا رسول الله ألسنا علي الحق ؟ قال : بلي ، فقال : ففيم الإخفاء ، ثم خرجوا من المسجد صفين كان الفاروق في أحد الصفين وحمزة في الصف الآخر ، فنظرت قريش إلي عمر وإلي حمزة (فأصابتهم كآبة شديدة لم يصبهم مثلها ومن هنا سماه رسول الله صلي الله عليه وسلم الفاروق لأنه أظهر الإسلام وفرق بين الحق والباطل)١٧٥ ويقول ابن مسعود (كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة)١٧٦ (وعن أبي ذر قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : إن الله وضع الحق علي لسان عمر يقول به)١٧٧ ويقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن)١٧٨ ، (وقال أبو أسامة : أتدرون من أبو بكر وعمر ؟ هما أبو الإسلام وأمه ، وقال جعفر الصادق : أنا برئ ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير)١٧٩ وكان عمر رضي الله عنه يري الرأي فينزل به القرآن وهناك عدة أمثلة علي ذلك ، وكان عمر قد تولي الخلافة بعد أبي بكر كما ذكرنا من قبل وكان ذلك سنة ١٣ هجرياً ، فكان أزهد الناس وأتقاهم لله وكان شديداً في حساب نفسه وشديداً في الحق وكان أول من سمي أمير المؤمنين وأول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان

---

١٧٥ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٩٣
١٧٦ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ٩٣
١٧٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صـ ٩٥
١٧٨ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صـ ٩٨
١٧٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صـ ٩٩

(في جماعة) وأول من طاف بالليل (ليشرف علي أحوال الرعية) وأول من اتخذ الديوان ، وكثرت الفتوح في أيامه ففتحت دمشق والأردن والعراق ومصر وفلسطين وغيرها وكان أول من أمر الولاة بعودة المقاتلين إذا زادت غيبتهم عن أهلهم أكثر من أربعة أشهر وحدث هذا عندما سمع شكوي سيده غاب عنها زوجها ،

- فكيف كانت تسميته بأمير المؤمنين ؟
- أما عن لقب أمير المؤمنين وكيف بدأ استخدامه ؟ فيقول عن ذلك الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة ١١٢ (– – – وكان عمر يكتب من خليفة خليفة رسول الله حتي كتب عمر إلي عامل (والي) العراق أن يبعث إليه برجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا علي أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتما والله اصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بدا لك في هذا الاسم ؟ لتخرجن مما قلت ، فأخبره وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فجري الكتاب بذلك من يومئذ – –) ، وهناك العديد والعديد من المواقف التي تتحدث عن سيدنا عمر الفاروق (ر) وأنا في حيرة من أمري فأمامي بعض الكتب والمراجع التي تتناول حياة هذا الخليفة العظيم فمن كثرة هذه المواقف الرائعة أعجز عن الاختيار بينها ما أقدمه لك وعزائي أنك تستطيع أن تبحث في الكتب عن حياة أبي بكر وعمر وتقرأ عنهما وعن باقي الصحابة والتابعين وقبل كل هذا سيرة سيدنا رسول الله العطرة (صلي الله عليه وسلم) ، ولعل هذا الحوار يكون حافزاً لك لكي تحاول أن تعرف المزيد عن هذه الموضوعات الرائعة ، وجدير بالذكر أن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكونوا بالكامل من العرب فقد كان هناك الحبشي والرومي والفارسي وكلهم رجال لا تكفي المجلدات الضخمة في التعبير عن فضلهم وعظمتهم ، فقد تربوا في مدرسة النبوة ، وسوف أتناول بمشيئة الله بعض المواقف عن سيدنا عمر رضي الله عنه خلال حديثي عن فتح مصر عندما يأتي الكلام عنه ، وبالتالي لن يكون هذا هو نهاية الكلام عن الفاروق رضي الله عنه
- فهل تحفظ أيضاً بعض ما قيل من شعر في الفاروق رضي الله عنه ؟
- إليك مقتطفات بسيطة وقصيرة من قصيدة رائعة كتبها شاعر النيل حافظ ابراهيم في مدح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رافعاً راية الشوري وحارسها – – – جزاك ربك خيراً عن محبيها

وما استبد برأي في حكومته – – – إن الحكومة تغري مستبديها

رأي الجماعة لا تشقي البلاد به – – – رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

يا من صدفت[١٨٠] عن الدنيا وزينتها – – – فلم يغرك من دنياك مغريها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته – – – في الذهد منزلة سبحان موليها

---

١٨٠ صدف : أعرض وصد

فمن يباري أبا حفص وسيرته – – – أو من يحاول للفاروق تشبيها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت – – – بعد النبوة أخلاق تحاكيها

- **فكيف اتخذ عمر** رضي الله عنه **قراره بفتح مصر ؟**

كيف أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر

- ظل عمرو يستغل كل فرصة تتاح له لإقناع الخليفة بفتح مصر لأنه يعتبرها نصراً للإسلام ولينال شرف تنفيذ ما بشر به رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتح مصر وظل عمرو رضي الله عنه يصف لأمير المؤمنين مصر وخيراتها كما أنها أصبحت آخر معاقل الروم في المنطقة وقد يتخذونها قاعدة للهجوم علي الشام واستعادتها مرة أخري من المسلمين أي أن فتحها يعتبر ضرورة حربية أيضاً ،
- فلماذا كان عمر يرفض في البداية فتح مصر ؟
- كان أمير المؤمنين يخاف الله في دماء المسلمين (–– – كان يخشي أن يراق دم مسلم واحد ظلماً أو خطأ فيُسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر ، كان عمر أحرص الناس علي رعيته وكان يري أن أمر العرب لم يستقر بعد في الشام فكيف يستطيع أن يرسل جيشاً جديداً لفتح جديد في مصر ؟ – –)١٨١ ، ثم نجح عمرو أخيراً في إقناع الخليفة بفتح مصر (– – فوافق عمر ، علي أن تمتد المشورة إلي ما بعد عودته للمدينة – وفيها كبار الصحابة – وعلي أن يظل القرار النهائي معلقاً بنتائج الشوري – – وبدخول الجيش الفاتح إلي الديار المصرية – – وعاد عمر إلي المدينة في ديسمبر ٦٣٩ م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص علي رأس جيش الفتح المكون من أربعة آلاف مقاتل قاصداً فتح مصر فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر أدركهم رسول أمير المؤمنين بكتابه الذي يدعوهم إلي الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها)١٨٢ ، (– – لم يكد عمرو يحصل علي موافقة عمر حتي أسرع بالمسير فخرج في جوف الليل وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان وهو من نعرف من ورعاً وتؤدة ، فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو علي المسير إلي مصر فأجاب عثمان في الحال : يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام ––––– ، فأخشي أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا ، – – وندم عمر علي ما فعل ولكنه لا يدري ماذا يفعل الآن وقد سار عمرو بجيشه نحو مصر فسأل عثمان الرأي فقال عثمان : فاكتب إليه إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلي موضعك وإن كنت دخلت مصر فامض لوجهك)١٨٣ ،
- وبالطبع كان عمرو من الذكاء بحيث فهم ما تحتويه رسالة أمير المؤمنين ،

---

١٨١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ١٤

١٨٢ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة)صـ ٣٤

[١٨٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ١٦

- نعم ويقال أنه استمهل رسول الخليفة ولم يقرأ كتابه حتي دخل مصر (– – ثم سأل من حوله – وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها : أنحن في أرض مصر أم في الشام ؟ فقيل له : نحن في مصر فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : إذن نسير في سبيلنا علي بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين –)١٨٤
- وقد تم فتح مصر بالطبع كما نعلم جميعاً ، وأصبح عمرو بن العاص رضي الله عنه أول والي عليها في ظل الخلافة الإسلامية

أحداث فتح مصر علي يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه

- نعم وقد قسّم الدكتور جمال الدين الشيال حوادث فتح مصر إلي ثلاثة مراحل ، الأولي من بدء الفتح وحتي وصول المدد ، والثانية تنتهي بموقعة عين شمس – وفتح – حصن بابليون ، والثالثة تنتهي بفتح الإسكندرية١٨٥ ، ووصف د جمال الدين الشيال الطريق الذي سلكه الجيش الإسلامي فقال (– – وصل – المسلمون – إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة " يناير ٦٤٠ م " وكانت العريش أول مدينة – تم فتحها– ثم غادروها وسلكوا بعد ذلك الطريق التي تصل بين العريش والفرما (بورسعيد حالياً) وهي طريق رملية بعيدة شيئاً ما عن البحر تتخللها عيون وقري صغيرة وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد علي مصر)١٨٦ ، (– – وأدرك عمرو بعد – فتحه – هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع – فتح – حصون مصر الأخري وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصله إمدادات جديدة من – أمير المؤمنين – عمر رضي الله عنه – –)١٨٧ ، وبعد هزيمة الروم في الفرما اتجه عمرو بالجيش الإسلامي إلي الجنوب الغربي تاركاً الطريق الساحلي ، وعند بلبيس وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الروم ودامت هذه المعركة هي الأخري نحواً من الشهر انتصر فيها المسلمون علي الرومان١٨٨ ، واستمر عمرو بن العاص في التقدم إلي أن حاصر حصن بابليون ، وجاءه المدد أثناء الحصار ويقول عن هذا المدد الدكتور محمد عمارة (– – أمده أمير المؤمنين عمر بـ ٤٠٠٠ مقاتل ، وعلي رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم قدّر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفاً من المقاتلين فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨٠٠٠ ووزنه ١٢٠٠٠ من المقاتلين –)١٨٩
- فمن هم هؤلاء الأربعة ؟

---

١٨٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ١٦
١٨٥ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صـ ١٧
١٨٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صـ ١٧
١٨٧ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صـ ١٨
١٨٨ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ ٣٥
١٨٩ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ ٣٥

- الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم ، ثم حدثت المعركة الفاصلة التي انتهت بحصار حصن بابليون حصار محكم تخلله مفاوضات مع المقوقس وكان عمرو قد استقبل رسل المقوقس وسمح لهم بالتجول في معسكره ، وعندما عادوا سألهم المقوقس (– – كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إلي أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم علي التراب وأكلهم علي ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف --- سيدهم فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ، فقال المقوقس : والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوي علي قتال هؤلاء أحد – –)١٩٠ ومن هنا أيقن المقوقس أن جيش المسلمين سينتصر لا محالة ، فقرر أن يعقد صلحاً مع عمرو بن العاص وتم – فتح – الحصن بعد ذلك ثم توجه عمرو بجيشه إلي الإسكندرية وحاصرها ثم فتحها وتم عقد صلح بالإسكندرية وهو الصلح الثاني بعد صلح المقوقس ببابليون ومعاهدة الصلح تم توقيعها في أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م١٩١ ، وإذا حسبنا مدة فتح مصر بالكامل سنجدها حوالي سنتين
- وماذا حدث للأنبا بنيامين ؟

<u>الأنبا بنيامين يجلس علي كرسي بطركيته الذي كان مغتصب من قِبَل الرومان</u>

- ذكرنا أنه عند دخول عمرو بن العاص الإسكندرية -- كانت الدولة البيزنطية تفرض علي المصريين بطريرك للكنيسة في مصر مخالف لمذهب مصر مما أدي إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً (وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام ٥٧٦ م)١٩٢ وفي عام ٦٢٢ تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر ، ويقول د حسين كفافي في كتابه الممتع (المسيحية والإسلام في مصر) صفحة ١٩٤ (– – – لم تكن الإسكندرية تهون علي الرومان إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولة البيزنطية ، فحشدوا لها الحشود لكي تبقي في أيديهم إلا أن المصريين كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة في القتال ، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان ، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة ، فما زالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء ، الحالكة الظلام ، هكذا تعود المصريون علي التضحية والفداء والاستشهاد ، وها هي الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبذلوا النفس والنفيس) ليتخلصوا من حكم الروم والاضطهاد الديني البغيض ، ويقول المقريزي المؤرخ الشهير في كتابه (

---

١٩٠ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ ٣٧

١٩١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ٢٥

١٩٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ ٢٨٥

الخطط) صفحة ٥٣٤ ، ٥٣٥ بالجزء الثالث (– – وكتب عمرو لبنيامين بطرق اليعاقبة أماناً ، في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك وقدم علي عمرو وجلس علي كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة – فغلبت اليعاقبة علي كنائس مصر وأديرتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية – –)١٩٣ ، ويقول الدكتور محمد عمارة في كتابه (عندما دخلت مصر في دين الله) صفحة ٥٣ (– – – وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبة من قبل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ومذهبها الملكاني – حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلي الأقباط فكانت المرة الأولي التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر – –)١٩٤

- **فهل لديك نص العهد المكتوب لأهل مصر ؟**

ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول عن فتح مصر

- **لقد كتب المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول عن هذا الموضوع عندما ذكر أحداث فتح مصر وتكلم عن مدينة كانت تعرف باسم مدينة مصر بالقرب من حصن بابليون الروماني ، ثم نشأت بعد ذلك مدينة عربية تعرف باسم الفسطاط بالقرب من نفس الحصن فكتب ما ملخصه : ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس – الذي نعتمد علي تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية – أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الإستيلاء علي الحصن ، ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماماً من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها ، وأخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها عمرو بن العاص ، وهاك نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه عمرو بن العاص أهل مصر ، علي أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لا يدخل في شئ من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألف إذا هبط ماء نهرهم ، وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف ، ومن لم يدخل في هذا الصلح أدي ما علي غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته ، وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعاً لهذا النقصان ، ومن رضي من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ، ومن أبي وأراد الخروج أمن علي نفسه حتي يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا ، وستجمع الضرائب علي أقساط ثلاثة كل ثلث منها علي حدة ، وعلي عهد الله وعهد رسوله وعهد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين ، ، شهد علي ذلك الزبير وولداه عبد الله ومحمد وكتبه وردان) ، ويربط المؤرخون العرب هذه المعاهدة ، التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها ، باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس ، ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر المصري كما يقصد بها**

---

١٩٣ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ ٥٣

١٩٤ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) صـ ٥٣

الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربي قد توخي الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر ، فهي لا تذكر شيئاً واضحاً صريحاً عن مدينة مصر التي أصبحت تسمي بعد قليل الفسطاط [١٩٥]

- **ما يلفت النظر في هذه المعاهدة هو ارتباط قيمة الجزية بموقف الزيادة والنقصان في ماء النيل مما يدل علي مدي إلمام الفاتح المسلم بظروف وطبيعة البلد الذي قام بفتحه**
- **بالتأكيد ، وقد كان عمرو بن العاص هو أول والي في عصر الولاة وقد اتسم هذا العصر بالكثير من الإيجابيات**
- **حسناً ، فهل لك أن تحدثني عن عصر الولاة بشكل عام ؟**

عصر الولاة

- **منذ أن تم فتح مصر علي يد القائد العربي عمرو بن العاص١٩٦ حرص الخلفاء في الدول الإسلامية المختلفة علي انتقاء أفضل العناصر من القادة والولاة لحكم مصر ، بحيث يتسم والي مصر بالولاء والإخلاص وكذلك الكفاءة ، وقد وصل الأمر إلي أن قام الخليفة الأموي مروان ابن الحكم بتعيين ابنه شخصياً عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر كما أقره علي حكمها أخوه عبد الملك بن مروان عندما تولي الخلافة ، وقد كتب المؤرخون عن عصر الولاة ما يلي : تولي حكم مصر في أعقاب الفتح العربي لها ولاة كانوا يعينون من قبل الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة١٩٧ ثم دمشق١٩٨ ثم بغداد١٩٩**

---

[١٩٥] نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لينبول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، وإداور حليم – صفحة ٥٠ وصفحة ٥١ – مكتبة الأسرة ١٩٩٧– الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٦ وصل العرب إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة " يناير ٦٤٠ م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م

[١٩٧] المدينة المنورة عاصمة دولة الخلفاء الراشدون وقد بلغ عدد ولاة مصر ستة ولاة في عصر الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم أجمعين ، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص فاتح مصر تولي من سنة ٦٤٠ م إلي سنة ٦٤٦ م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة ٦٤٦ م إلي سنة ٦٥٦ م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة ٦٥٦ م إلي سنة ٦٥٧ م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر ٦٥٧ م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو ٦٥٨ م والجدير بالذكر أن عمرو بن العاص تولي حكم مصر مرتين مرة بعد فتحها في عصر الراشدين والمرة الثانية مع بداية الدولة الأموية في عصر معاوية بن أبي سفيان

[١٩٨] دمشق عاصمة الدولة الأموية التي استمرت من سنة ٤٠ هجرياً ٦٦١ ميلادياً إلي سنة ١٣٢ هجرياً ٧٥٠ ميلادياً أي حوالي ٨٩ سنة ، تولي فيها الخلافة ١٢ خليفة وتولي خلالها علي مصر ٢٥ والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلي أن توفي بها سنة ٦٦٤ ميلادياً ، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقرة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان

، وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتي قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ "٨٦٨م" بعصر الولاة وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو

- استبد بأهلها عزله الخليفة وأتي بغيره طبقاً لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له ، ولهذا كان الولاة أو علي وجه الدقة معظمهم ، يحرصون علي استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع علي الشعب المصري الذي ارتضي الإسلام ديناً وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح ، وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية ، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا علي زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري ، ويلاحظ أن الصناعة في مصر في عصر الولاة كان يقوم بها القبط ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا علي دينهم والذين أسلموا لأن العرب في أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب
- فما هي أهم الأحداث التي وقعت في عصر الولاة ؟
- يقول بن عبد الحكم رحمه الله (المؤرخ المعروف) في كتابه (فتوح مصر والمغرب) صفحة ٨٧ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه (– – – واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض علي كل من بلغ الحلم ديناران ويستثني من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ – –)٢٠٠ ، ومن هنا يتضح أن المصريين قد عاشوا فترة من أفضل فترات تاريخهم كما ذكرنا فلم يعد هناك اضطهاد ديني أو ضرائب فادحة ظالمة بل إن عمرو قام بإصلاحات ضخمة في العديد من المجالات وخاصة مشاريع الري التي تهم المصريون بوجه خاص ، كما قام ببناء عاصمة جديدة لمصر هي مدينة الفسطاط ، كما أنها أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً فقد كانت السفن تصل إليها من البحر المتوسط عن طريق أفرع النيل الممتدة من الفسطاط للبحر المتوسط كما أن خليج أمير المؤمنين ربط بينها وبين البحر الأحمر أيضاً وقد أمر بحفره أمير المؤمنين ، وبالتالي انتعشت الحركة التجارية بل والصناعية أيضاً في الفسطاط ، كما أنها أصبحت مركزاً علمياً كبيراً حيث برز فيها بعد ذلك العديد من العلماء في مجالات عديدة مثل علوم الدين (عبد الله بن عمرو ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد) وعلم التاريخ (عبد الرحمن بن عبد

ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة

١٩٩ بغداد عاصمة الدولة العباسية وقد أسسها العباسيون علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدي إلي ضعف شأن الخلافة إلي أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقد حدث أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله ، وتولي حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (٩٦) والياً

٢٠٠ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ٥٩

الحكم) والأدب والشعر والطب والهندسة وغيرها من العلوم الدنيوية وبالمناسبة استمر تشجيع الولاة المسلمون للعلم بكافة مجالاته وخصوصاً في مدينة الإسكندرية التي كانت منارة للعلم كادت أن تخبو لولا الفتح الإسلامي الذي شجع علماءها (- - - وقد نشأت في مصر إلي جانب هذه الحياة الدينية حياة علمية خالصة هي في الواقع استمرار للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة ، وكانت أنشط ما تكون في الإسكندرية ، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم - - إلخ ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية ، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم-)٢٠١ ، وجدير بالذكر أن عصر الراشدين يعد من أفضل العصور التي مرت بها مصر طوال تاريخها بالكامل إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق ،

- هذا وضع طبيعي فبالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يعيش في المدينة المنورة إلا أن كل فرد في الأمة بالكامل كان يشعر بعدله ،
- وكانت مصر كما نعرف قبل الفتح في حالة لا تُحسد عليها ثم تحولت إلي ولاية إسلامية تنعم بالأمن والأمان والعدل والرحمة في ظل خلافة عمر وولاية عمرو بن العاص ، وسنذكر هنا مثال واحد فقط علي ذلك قد يغنينا عن الكثير من الأمثلة ، وهو ما ورد في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي حيث كتب ما يلي : ومما تضمنته أخبار الأخيار : ما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر رضي الله عنه : لقد عذت بمجير فما شأنك ، فقال : سابقت بفرسي ابناً لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير علي مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ عمراً أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك ، فكتب عمر بن الخطاب إلي عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقم حتي يأتيك ، فأقام حتي قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضي عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلي جانبه قام المصري فرمي إليه عمر رضي الله عنه بالدرة ، قال أنس رضي الله عنه : فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتي أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين : قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، قال : ضعها علي ضلع عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني : قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتي تكون أنت الذي تنتزع ، ثم أقبل علي عمرو بن العاص وقال : يا عمرو متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فجعل عمرو يعتذر إليه
- وهل هناك مواقف أخري حدثت بين عمرو بن العاص وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟

---

٢٠١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صفحة ٩٢

- سأتلو عليك بعض المواقف التي وردت في كتب التاريخ عن ولاية عمرو في عهد عمر رضي الله عنهما ، فقبد قال بعض المؤرخين : إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه علي ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن صف لي مصر فكتب إليه : ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر ، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر (أيام) ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتي إذا ما اصلخم (اشتد) عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض علي جانبيه فلم يمكن التخلص من القري بعضها إلي بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب - - فإذا تكامل في زيادته ، نكص علي عقبيه كأول ما بدأ في جريته ، وطما في درته ، (زيادته وفيضه) ، فعند ذلك يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، - - فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندي وغذاه من تحته الثري ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء ، -- - - - فلما ورد الكتاب علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لله درك يابن العاص ، لقد وصفت لي خبراً كأنني أشاهده [٢٠٢]
- لؤلؤة بيضاء وعنبرة سوداء وزمردة خضراء وديباجة رقشاء ، يا لها من بلاغة
- وقال ابن عبد الحكم : حدثنا عبد الله بن صالح وغيره ، عن الليث بن سعد ، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة ، فكتب إلي عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلي عمرو بن العاص : سلام عليك ، أما بعد : فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك ، أن أهلك أنا ومن معي ، فيا غوثاه ، ثم يا غوثاه ، يردد قوله ، فكتب إليه عمرو بن العاص : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، أما بعد فيالبيك ، ثم يالبيك ، قد بعثت إليك بعِير أولها عندك وآخرها عندي ، والسلام عليك ورحمة الله ، فبعث إليه بعير عظيمة ، فكان أولها بالمدينة و آخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضاً ، فلما قدمت علي عمر وسع بها علي الناس[٢٠٣]
- حقاً لقد كان عصر الراشدين من أفضل العصور في الأمة الإسلامية بالكامل وليس في مصر فقط ، ولكن هل لديك معلومات عن الفتنة التي حدثت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه واستمرت إلي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

- [٢٠٢] نقلاً باختصار عن كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤) – قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – صفحة ٤٢ ، ٤٣

[٢٠٣] نقلاً عن كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

- بالطبع يمكننا أن نتطرق إلي الحديث عن هذه الفتنة ولكن بحذر شديد حتي لا نقع في المحظور ولكن أحب أولاً أن أقوم بتلخيص سريع لعصر الراشدين من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري حيث ذكر (صفحة ٥٨ ، ٥٩) في كتابه ما يفيد أن عدد ولاة مصر ستة ولاة في عصر الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم أجمعين ، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص من سنة ٦٤٠ م إلي سنة ٦٤٦ م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة ٦٤٦ م إلي سنة ٦٥٦ م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة ٦٥٦ م إلي سنة ٦٥٧ م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر ٦٥٧ م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو ٦٥٨ م ، وفي الحقيقة حدثت في خلافة سيدنا عثمان وسيدنا علي فتنة كبري في الأمة الإسلامية تأثرت بها مصر بالطبع وبالتالي سنجد أن الولاة الذين سنتحدث عنهم في هذه الفترة مر بعضهم بفترات عصيبة بل تم قتل بعضهم أيضاً أثناء أحداث هذه الفتنة وجدير بالذكر أن سياسة الخلفاء الراشدين في مصر وغيرها لم تختلف عن بدايتها مع سيدنا عمر وحتي سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الأحداث المأساوية الناتجة عن الفتنة تؤثر فقط علي الولاة وتغييرهم وانتمائهم إلي أحد الفريقين المتنازعين ولا تؤثر علي سياستهم تجاه مصر وشعبها حتي أن غالبية الشعب كان يشاهد ويراقب هذه الأحداث في دهشة ويتساءل عن الأسباب التي أدت إلي هذا الصراع الدامي بعد مقتل سيدنا عثمان شهيداً وكذلك سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الفتنة الكبري امتحاناً للأمة الإسلامية إذا جاز التعبير أثبتت فيها أن الخلافات والصراعات ليست لها علاقة برسالة هذه الأمة تجاه الشعوب التي تحت قيادتها كما سنري ، وجدير بالذكر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد تحدث عن هذه الفتنة في عدة مواقف وأشار إليها صلي الله عليه وسلم وسوف نتحدث عنها في هذا الحوار كما قلت في حذر شديد ومن المصادر الموثوق بها وبإيجاز شديد أيضاً لأنها جزء من التاريخ الذي يجب أن تعرفه ولأن اسم مصر تردد في كتب التاريخ التي تناولت هذه الأحداث وبالتالي تعتبر جزء من تاريخ مصر الذي يتناوله هذا الحوار
- ولكن قبل أن نخوض في هذا الحديث أرجو أن نتوقف عند انتهاء خلافة سيدنا عمر بن الخطاب عندما قُتِل شهيداً أيضاً وسبحان الذي يهب الشهادة لمن يشاء حتي ولو كان في عاصمة الخلافة وجيوشه تقاتل في كل مكان بعيداً عن العاصمة لتنال الشهادة أو النصر

<u>مقتل أمير المؤمنين والخلافة من بعده</u>

- رفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يديه إلي السماء يدعو ربه ويقول (– – اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط ، فما انسلخ ذو الحجة حتي قتل ،

أخرجه الحاكم)٢٠٤ ، كما أخرج البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال (– – اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك)٢٠٥ ، هكذا طلب عمر من الله الشهادة وكان مقتله علي يد أبو لؤلؤة المجوسي وكان عبداً للمغيرة بن شعبة وقام بطعن الخليفة بخنجر في صلاة الفجر وهو يؤم الناس في الصلاة وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم ستة وقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدّعي الإسلام ، وأرسل ابنه عبد الله إلي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستئذنها في أن يتم دفنه مع رسول الله صلي الله عليه وسلم وأبي بكر فوافقت علي ذلك ، وأوصي أن تكون الخلافة من بعده شوري بين ستة من كبار الصحابة ليختاروا من بينهم الخليفة وقال (– – ما أري أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو عنهم راض – –)٢٠٦ وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، وكان سيدنا عمر وهو يحتضر يتمني أنه مات في صحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم حيث قال (– – أما والله وددت أني خرجت منها كفافاً لا عليّ ولا لي وأن صحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم سلمت لي – –) ويقول أيضاً (– – لو أن لي طلاع " ملء " الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع – –) وأوصي الخليفة من بعده بتقوى الله وقال (– – أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين والأنصار وأوصيه أهل الأنصار خيراً – –)٢٠٧ ،

- **فماذا حدث بعد ذلك بين الصحابة الستة رضي الله عنهم ؟**
- **ملخص ما حدث أن أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف الذي كان لا يريد الخلافة قد أشار عليهم أن يدير عملية الشورى في اختيار الخليفة من بينهم فقال (– – إن شئتم اخترت لكم منكم – –)٢٠٨ ووافقوه علي ذلك فكان نِعم الرأي فقد استطاع سيدنا عبد الرحمن بن عوف أن يدير الأمور بحكمة شديدة بفضل الله سبحانه وتعالي حيث كان يسأل كل منهم سؤال مهم جداً علي انفراد ألا وهو (إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟) (ويروي أن عبد الرحمن قال لعثمان في خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ فقال : علي ، وقال لعلي خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : عثمان ، ثم دعا الزبير فقال : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : علي أو عثمان ثم دعا سعداً فقال : من تشير علي فأما أنا وأنت فلا نريدها ؟ فقال عثمان ، ثم استشار عبد الرحمن الأعيان فرأي هوي أكثرهم في عثمان –)٢٠٩ وظل عبد الرحمن يسأل المسلمين ويستطلع رأيهم ووجد أن الأغلبية تؤيد خلافة عثمان بن**

---

٢٠٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٠٨

٢٠٥ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٠٨

٢٠٦تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٠٩

٢٠٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١١٠

٢٠٨ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ١٢٣

٢٠٩ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ١٢٣ ، ١٢٤

عفان فبايع الناس عثمان علي الخلافة عندما جمعهم عبد الرحمن في المسجد ودعاهم إلي مبايعة عثمان وقال في آخر حديثه (- - اللهم اشهد اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان - -)٢١٠ ، وهكذا تولي عثمان الخلافة بعد عمر وكان ذلك في ذي الحجة ٢٣ هجرياً الموافق شهر أكتوبر سنة ٦٤٤ م وتولي عبد الله بن سعد بعد ذلك بفترة قصيرة ولاية مصر من قبل عثمان بن عفان بعد عزل عمرو بن العاص عنها

- إن هذه المعلومات أسمعها لأول مرة ، وقد كنت أعرف من قبل أن هناك ستة من كبار الصحابة كانت بينهم الشوري ولكنني لم أكن أعرف تفاصيل ما دار إلي أن تم مبايعة عثمان رضي الله عنه ، فأشكرك علي هذه المعلومات القيمة ، فكم كانت مدة خلافة عثمان رضي الله عنه وما الذي يمكن أن تخبرني به عن خلافته ؟

ذو النورين

- تولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة لمدة ١٢ سنة٢١١ وكان ليناً عن عمر رضي الله عنه وأحبه الناس وكان من بني أمية وهي بطن قوية من بطون قريش وكان غنياً ذا مال وفير وكان ينفقه في سبيل الله وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من هاجر من المسلمين إلي الحبشة بأهله ثم إلي المدينة بعد ذلك ، ويعتبر رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام وكان متزوجاً من السيدة رقية ابنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فلما مرضت وماتت تزوج أختها السيدة أم كلثوم بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم ولذلك سمي بذي النورين لأنه تزوج بنتين من بنات رسول الله صلي الله عليه وسلم (وأخرج ابن عساكر عن علي – رضي الله عنه – قال : سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول لعثمان : لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتي لا يبقي منهن واحدة - -)٢١٢ فقد كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يحب عثمان ويقول عنه (- - إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله - -)٢١٣ وأخرج الشيخان عن عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة٢١٤ وقد كان عثمان قد جهز في أحد الغزوات ثلاثمائة بعير بكافة لوازمها علي نفقته الخاصة في سبيل الله وهذه الغزوة اشتهر جيشها باسم جيش العسرة لتعسر نفقات تجهيزه وعندما قام عثمان رضي الله عنه بتجهيز هذا الكم الكبير من الجيش في سبيل الله قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما علي

---

٢١٠ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ١٢٤

٢١١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٦

٢١٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٣

٢١٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٤

٢١٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٢

عثمان بعد هذه شئ٢١٥ وقال صلي الله عليه وسلم عن عثمان أيضاً (– – مر بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال : شهيد يقتله قومه ، إنا نستحي منه)٢١٦ ، وفي عهد خلافة عثمان كثرت الفتوحات الإسلامية حتي أن المسلمين ركبوا البحر وفتحوا قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان وقام والي مصر في عهده عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالتوسع في فتح أفريقيا وفتح الكثير من بلادها ووصل إلي الحبشة أيضاً كما أن الأندلس أيضاً فتحت في عهد عثمان٢١٧ وكان عهده يتسم بالاستقرار والرخاء حيث زاد دخل الدولة الإسلامية بشكل ملحوظ وذلك نتيجة لكثرة الولايات التي تم فتحها ، ولسيدنا عثمان مناقب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ، يقول سعيد بن المسيب (– – قتل عثمان مظلوماً ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً)٢١٨ ،

- فكيف بدأت الفتنة ؟

بداية الفتنة

- وبدأت مقدمات الفتنة عندما قام عثمان رضي الله عنه بتولية العديد من الولاة من بني أمية وكان يوصيهم بتقوى الله وكان معاوية بن أبي سفيان من بني أمية وكان والياً علي الشام ، وكانت تولية بني أمية من الأسباب التي أثارت قلق وغضب البعض وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن أهل مصر كانوا يتظلمون من واليهم عبد الله بن أبي سرح٢١٩ ،
- المقصود هنا بأهل مصر القبائل العربية التي دخلت مصر مع عمرو بن العاص وسكنت بها لأن القبط في مصر كان أغلبيتهم لم يدخل الإسلام بعد بل إن اللغة العربية لم تكن قد انتشرت في مصر أيضاً أليس كذلك ؟
- بالطبع فلما حدث ذلك كتب عثمان إلي الوالي علي مصر كتاباً ينهاه ويشدد عليه فيه ولكنه لم ينتهي فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلي الصحابة فتحدث الصحابة إلي عثمان في هذا الأمر فقرر عثمان عزل الوالي وتولية من يرضي به أهل مصر فطلبوا منه تولية محمد بن أبي بكر الصديق عليهم فوافقهم علي ما أرادوه وعادوا من حيث جاءوا ومعهم الوالي الجديد ، وفي طريق عودتهم وجدوا رسولاً برسالة متوجهاً إلي والي مصر وكان مضمون الرسالة أن يظل الوالي كما هو ويحتال في قتل هؤلاء ويحبس المعارضين له ، وبالطبع لم يكن عثمان رضي الله عنه قد كتب هذه الرسالة ولم يأمر بكتابتها ويؤكد المؤرخون أن الذي كتب هذه الرسالة وأرسلها وعليها ختم عثمان

---

٢١٥ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٢

٢١٦ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٣

٢١٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٥

٢١٨ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٦

٢١٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٧

بدون علمه هو مروان بن الحكم وهو أحد الشخصيات البارزة في بني أمية وسيأتي الحديث عنه في حينه ولكن يبدو أن مروان بن الحكم والله أعلم قد تعامل مع هؤلاء علي أساس أنهم متمردون وخارجون علي أولي الأمر ويستحقون القتل عندما تتاح الفرصة لذلك

- التعامل مع مثل هذه المواقف تختلف من شخص إلي آخر طبقاً لخبرته وطبقاً لحماسه لحل المشكلة واجتهاده لتفريق المتمردين الخارجين الذين استفحل خطرهم وحاصروا الخليفة في داره و تبقي حسن النوايا التي هي من علم المولي عز وجل وحده
- وبالطبع وفد مصر عندما وجد هذه الرسالة عاد بأكمله إلي المدينة مرة أخري وعرضوها علي الصحابة فواجهوا الخليفة فأنكرها بشدة وورد عن ذلك في كتاب تاريخ الخلفاء ما يلي (– – وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان وشكوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبي وكان مروان عنده في الدار فخرج أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم غضاباً وشكوا في أمره ، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل إلا أن قوماً قالوا : لن يبرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان حتي نبحثه ونعرف حال الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم بغير حق ؟ فإن يكن عثمان كتبه عزلناه ، وإن يكن مروان كتبه علي لسان عثمان نظرنا ما يكون في أمر مروان ولزموا بيوتهم ،

أمير المؤمنين محاصر في داره

- (وأبي عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه من القتل وحاصر الناس عثمان – –)٢٢٠ ، وملخص هذا الكلام أن عثمان رضي الله عنه عندما رفض تسليم مروان بن الحكم حدثت هذه المشكلة الضخمة فقد خاف الخليفة أن يفتك الناس بمروان الذي اجتهد في التعامل مع هؤلاء المتمردين حفاظاً علي هيبة الخلافة من وجهة نظره ، أما كبار الصحابة فقد غضبوا من موقف الخليفة الخاص بمروان ولزموا بيوتهم وظل الخليفة محاصراً في داره وكان كبار الصحابة لا يتوقعون علي الإطلاق أن حصار عثمان كان الغرض منه قتله وإنما كانوا يعتقدون أن الغرض منه هو تسليم مروان لهم ليواجهوه بالرسالة وينظروا في أمره وبالرغم من هذا الاعتقاد فإنهم خافوا علي الخليفة من القتل فأرسل كل صحابي منهم ابنه ليقف علي باب دار عثمان وكان وجود أبناء كبار الصحابة أمام الباب كدرع بشري علي قدر كبير من الأهمية حيث أن أحداً لن يجرؤ علي اقتحام الباب وأمامه أحب الناس إليهم وأفضلهم فقد كان أبناء الصحابة من الشباب الذي تربي في مدرسة النبوة وشبوا علي مبادئ الإسلام ونموا مع نموه واتساع دولته وكانت لهم مكانة لا حدود لها عند المسلمين جميعاً ومن هؤلاء الذين وقفوا علي باب الدار الحسن والحسين ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، وورد في كتاب تاريخ الخلفاء عن هذا الموقف ما يلي (– – فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنما أردنا

---

٢٢٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٨

منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا ، وقال للحسن والحسين اذهبا بسيفيكما ، حتى تقوما علي باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدة من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا علي عثمان ويسألونه إخراج مروان

- أنا لا أريد أن أسأل أو أقطع حديثك حتي تنتهي لأن هذه المعلومات لم أسمعها من قبل ولا تحتمل حتي المناقشة ، فاستمر في السرد

اقتحام الدار

- من هنا يتضح أن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا أحرص الناس علي الخليفة والدفاع عنه فقد قاموا بعملاً إيجابياً يحسب لهم في هذا الموقف ، وقد نجحت خطة الدفاع عن دار عثمان بالفعل فلم يجرؤ أحد علي اقتحام الباب ، وشاء المولي عز وجل أن يصعد ثلاثة من المحاصرين إلي سطح الدار ومن بينهم محمد بن أبي بكر دون أن يشعر بهم أحد ونزلوا من أعلي الدار إلي الخليفة ، وقال أمير المؤمنين إلي محمد بن أبي بكر عندما واجهه (– – والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني – –)٢٢٢ ، فشعر محمد بن أبي بكر الصديق بندم شديد وتراجع علي الفور عن موقفه وتاب إلي الله ، ولكن الاثنين الذين كانا معه قاما بقتل الخليفة رضي الله عنه ، (– – وصرخت امرأته فلم يسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة وصعدت امرأته إلي الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحاً وبلغ الخبر علياً ، وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم حتى دخلوا علي عثمان فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا وقال علي لابنيه : كيف يُقتل أمير المؤمنين وأنتما علي الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وخرج وهو غضبان ، حتى أتي منزله وجاء الناس يهرعون إليه ، فقالوا له نبايعك فمد يدك فلابد من أمير ، فقال علي : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلي أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر٢٢٣ فهو خليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتي علياً فقالوا له : ما نري أحداً أحق بها منك ، مد يدك نبايعك ، فبايعوه وهرب مروان وولده –)٢٢٤
- فما الخيارات التي كانت أمام الخليفة رضي الله عنه في هذا الموقف العصيب ؟

---

٢٢١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٨

٢٢٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٩

٢٢٣ أهل بدر المقصود بهم الذين قاتلوا في غزوة بدر الشهيرة وكانت لهم مكانة خاصة جداً عند المسلمين

٢٢٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٢٩

الخيارات التي كانت أمام الخليفة

- **وهكذا انتهت مأساة حصار عثمان** رضي الله عنه **لتبدأ مأساة جديدة وفتنة كبري حيث أن أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان قرروا عدم مبايعة علي بن أبي طالب إلا بعد الأخذ بثأر عثمان أولاً ودخل المسلمون في الفتنة الكبرى والتي وصلت إلي القتال بين الشام والحجاز ، وجدير بالذكر أن عثمان بن عفان** رضي الله عنه **رفض أن يقاوم الحصار بالقوة وكان قادراً علي ذلك بل إن البعض قد عرض عليه القتال لفك الحصار عنه ولكنه رضي الله عنه كان لا يريد أن يراق دم من دماء المسلمين في عهده كما أنه كان في إمكانه الهرب إلي معاوية بن أبي سفيان في الشام لحمايته وإعادة الأمور إلي ما كانت عليه وهو قادر علي ذلك ولكنه رفض أيضاً هذا العرض ، كما كان بمقدوره الهرب إلي مكة بجوار بيت الله الحرام حيث لن يمسه أحد بسوء هناك ولكنه رفض أيضاً وظل محصوراً في بيته صابراً متماسكاً ينتظر قضاء الله :**

فكف يديه ثم أغلق بابه - - - وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم - - عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل

فكيف رأيت الله صب عليهم -- العداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده - - عن الناس إدبار الرياح الجوافل٢٢٥

ومات الخليفة مقتولاً شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وكان ينفذ وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم له عندما أخبره بهذه الفتنة من قبل ، فعندما استأذن يوماً ليدخل إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لمن جاء بالإذن (-- ائذن له وبشره بالجنة علي بلوى تصيبه)٢٢٦ ، (عن عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم جعل يسار عثمان (أي يتحدث إليه سراً) ولون عثمان يتغير ، فلما كان يوم الدار وحصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟ قال : إن رسول الله صلي الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وإني صابر نفسي عليه)٢٢٧ ، ومن هنا يتضح أنه رضي الله عنه كان قد عرف من رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه سيصبر علي شدة حتي يلقاه ، فكان صابراً إلي النهاية عاملاً بوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكان من أهم ما حدث في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالإضافة إلي الفتوحات الكثيرة ورخاء الأمة أنه رضي الله عنه قام بفضل الله بجمع الأمة علي مصحف واحد وأدركها قبل الاختلاف رضي الله عنه ، وقبل أن نترك الحديث عن سيدنا عثمان رضي الله عنه هناك مقارنة بين طبعه وبين طبع سيدنا عمر رضي الله عنه أريد نقلها كما هي كالآتي (كان عمر رضي الله عنه شديداً ، وكان عثمان رضي الله عنه حليماً رءوفاً

---

٢٢٥ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣١ شعر كعب بن مالك

٢٢٦ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ١٨٧

٢٢٧ ٢٢٧ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ ابق صـ ١٨٩

، غير أنه لم يكن ضعيفاً كما يدعي كثير من الناس ، بل كان حليماً ، ولذلك عندما حاصروه في البيت قال : أتدرون ما جرأكم علي ؟ ما جرأكم علي إلا حلمي ، وقال عبد الله بن عمر : والله لقد نقموا علي عثمان أشياء لو فعلها عمر ما تكلم منهم أحد ، إذن لماذا نقموا علي عثمان ؟ لأن عثمان كان يسامح ويترك ويفوت لهم تلك الأخطاء ويعفوا رضي الله عنه)٢٢٨

- ثم كانت خلافة علي رضي الله عنه

الإمام علي كرم الله وجهه

- تولي الإمام علي كرم الله وجهه الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والإمام علي هو رابع الخلفاء الراشدين وهو ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهو أبو الحسن والحسين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ويقول عنه الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة ١٣٤ (– – وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأخو رسول الله صلي الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، وصهره علي فاطمة سيدة نساء العالمين – رضي الله عنها – وأحد السابقين إلي الإسلام وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين – –) ، ولم يعبد الأوثان قط في الجاهلية ، ولما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المدينة نام علي رضي الله عنه علي فراشه كما نعلم جميعاً وظل بمكة لفترة يؤدي الأمانات والودائع التي تركها مشركي مكة عند رسول الله صلي الله عليه وسلم لأنهم كانوا يتركون الودائع عنده صلي الله عليه وسلم لعلمهم أنه الصادق الأمين ، وشارك علي رضي الله عنه في جميع الغزوات مع رسول الله صلي الله عليه وسلم عدا غزوة واحدة فقط وهي غزوة تبوك عندما استخلفه النبي صلي الله عليه وسلم علي المدينة (– – فقال : يا رسول الله ، تخلفني في النساء والصبيان ؟ ، فقال٢٢٩ صلي الله عليه وسلم: أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي غير أنه لا نبي بعدي – –)٢٣٠ ، ويعتبر سيدنا علي رضي الله عنه أول خليفة من بني هاشم ، وكلنا يعلم الكثير من المعلومات عن مناقب وفضل سيدنا علي وشجاعته في القتال والأمثلة علي ذلك كثيرة ومنها أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أعطاه الراية يوم فتح خيبر وقال (– – لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله –)٢٣١ فبات الناس يتمني كل واحد منهم أن يكون صاحب الراية فلما أصبح الناس وتوجهوا إلي رسول

---

٢٢٨ حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه – عثمان بن محمد الخميس – صفحة ٩٧

٢٢٩ برجاء مراجعة جميع الأحاديث الواردة بهذا الحوار ومدي صحتها

٢٣٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٥

٢٣١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٥

الله صلي الله عليه وسلم سأل عن علي بن أبي طالب الذي كان يشكو مرض في عينه فعالجه رسول الله صلي الله عليه وسلم وأعطاه الراية وكان الفتح بالفعل علي يديه رضي الله عنه ويقول عن ذلك (- - ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله صلي الله عليه وسلم وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية -)٢٣٢ ، وقال (دعاني رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : يا علي إن فيك مثلاً من عيسي ، أبغضته اليهود حتي بهتوا أمه ، وأحبته النصاري حتي أنزلوه بالمنزل الذي ليس به ألا وإنه يهلك فيّ اثنان محب مفرط يفرطني بما ليس فيّ ، ومبغض مفتر يحمله شنآني علي أن يبهتني - -)٢٣٣ وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يحب علياً وعنه أنه قال (- - من أحب علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله - -)٢٣٤ ، وعلي رضي الله عنه من آل البيت وكان عالماً فقيهاً قاضياً مقاتلاً شجاعاً وإماماً وشاعراً وخطيباً وأميراً للمؤمنين زاهداً عادلاً (- - وعن أبي سعيد الخدري قال : كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً - -)٢٣٥ ، وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبعد مبايعته مباشرةً حدث أن خرج طلحة والزبير رضي الله عنهما مع السيدة عائشة رضي الله عنها إلي البصرة يطلبون دم عثمان (- - وبلغ ذلك علياً فخرج إلي العراق فلقي بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم وكانت وقعة الجمل وكانت في جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين " هجرياً " - - ، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلي الكوفة ، ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام فبلغ علياً فسار إليه فالتقوا بصفين٢٣٦ في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال بها أياماً فرفع أهل الشام المصاحف يدعون إلي ما فيها - - ، فكره الناس الحرب وتداعوا إلي الصلح وحكموا الحكمين - - وكتبوا كتاباً علي أن يوافوا رأس الحول (بعد سنة) بأذرح (إحدي قري الشام) فينظروا في أمر الأمة فافترق الناس ورجع معاوية إلي الشام ، وعلي إلي الكوفة ، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا : لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء (موضع بالكوفة) فبعث إليهم ابن عباس - -)٢٣٧ ومن هنا يتضح أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أول خليفة يتم في عهده انفصال جزء من الأمة الإسلامية سياسياً فقد كانت الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان لم تبايع أمير المؤمنين علي بالخلافة ، ولم يعلن معاوية نفسه خليفة أو أمير للمؤمنين بل اكتفي بعدم المبايعة وكان السبب الرئيسي لعدم المبايعة هو طلب الثأر أولاً من قتلة عثمان رضي الله عنه ثم النظر ثانياً في

---

٢٣٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٨

٢٣٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٩

٢٣٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٩

٢٣٥ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٣٦

٢٣٦ معركة صفين

٢٣٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٤٠

موقف المبايعة لأنه كان يشعر بمسئوليته عن البيت الأموي وأنه أصبح ولي دم عثمان والله أعلم أما سيدنا علي رضي الله عنه فكان يقدم وحدة الأمة أولاً علي الأخذ بثأر سيدنا عثمان فهي قضية تخضع للاجتهاد في فقه الأولويات فمن اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فهل المبايعة أولاً ثم الثأر لدم الخليفة أم الثأر أولاً ثم المبايعة ؟ ، مجرد أولويات طبقاً للاجتهاد في فقه الأولويات

- وهل قرأت شيئاً عن هذا الخلاف لأحد المفكرين المعاصرين ؟

الصراع سياسي وليس ديني

- رأي الدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي الكبير والذي أورده في كتابه (الإسلام والحرب الدينية) حيث أكد أن الصراع بين علي رضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان صراعاً سياسياً وليس اختلافاً عقائدياً ، واسمح لي أن نقرأ معاً بعض ما كتبه د محمد عمارة في هذا الموضوع (– – وفي القتال بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان كاد إجماع المسلمين أن ينعقد علي أن معاوية وأنصاره يمثلون الفئة الباغية علي أمير المؤمنين علي وأنصاره ، وعلي أن قتال هذه الفئة الباغية واجب حتي تفئ إلي أمر الله ، ومع ذلك فهم مؤمنون مسلمون ، وقتالهم سياسة بلغت مرحلة العنف المسلح وليست ديناً ، لأن الفريقين أبناء دين واحد ، يؤمنون بإله واحد ، ويشهدون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ويحتكمون إلي القرآن الكريم ويصلون إلي ذات القبلة الواحدة وليس بعد شهادة علي بن أبي طالب بإيمان خصومه هؤلاء شهادة تقطع بالطبيعة السياسية لهذا القتال وتنفي عنه أية شبهة دينية – – فلقد سأل أبو سلامة الدالاتي وهو من أصحاب علي – سأله عن أمر معاوية وصحبه فقال :
- – يا أمير المؤمنين ، أتري لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا به من هذا الدم (أي دم عثمان بن عفان) إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟
- – نعم
- – وتري لك حجة بتأخيرك ذلك ؟
- – نعم ، إن الشئ إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوط وأعود نفعاً
- – فما بالنا ومالهم إن ابتلينا بقتال غداً ؟
- – إني لأرجوا أن لا يقتل أحد نقي قلبه منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة
- فهو قتال سياسي بين فرقاء اختلفت وجهات نظرهم في السياسة – – والحكم علي المواقف فيها داخل في نطاق الخطأ والصواب وليس في نطاق الكفر والإيمان ، بل إنه بنص كلمات علي بن أبي طالب قتال بين أهل الجنة ، فلم يكن علي يشك في عقيدة خصومه ، أو يشك في إيمانهم – –)[٢٣٨] ،

---

٢٣٨ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صـ ٥٨ ، ٥٩

ومن هنا يتضح أن القتال الذي دار بين علي ومعاوية لم يكن سوي اختلاف حول قضية سياسية وهي مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان وكيفية معالجة الموقف من وجهة نظر كل منهما (المبايعة ثم الثأر لدم عثمان أم الثأر أولاً ثم المبايعة) ، بل إن معاوية كان يرسل من يسأل علي في بعض الأمور الفقهية ويستفتيه في الدين وليس الخلاف في نطاق الكفر والإيمان ، حتي أن الخوارج الذين أقحموا الدين في هذه القضية واستخدموا مصطلحات الكفر والإيمان في هذه المسألة تصدي لهم الإمام علي وقال (- - إننا والله ما قاتلنا أهل الشام علي ما توهم هؤلاء " الخوارج " من التكفير والفراق في الدين وما قاتلناهم إلا لنردهم إلي الجماعة وإنهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ورأينا : أننا علي الحق دونهم - - لقد أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام علي ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل - -)٢٣٩ وظل علي أميراً للمؤمنين من سنة ٦٥٦ م (٣٥ هـ) إلي أن مات شهيداً سنة ٦٦١ م (٤٠ هـ)٢٤٠ وتولي مصر في عهده قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ثم الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي الذي مات قبل وصوله مصر ثم تولي مصر محمد بن أبي بكر الصديق ، ويعتبر سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه آخر الخلفاء الراشدين الأربعة وقامت من بعده الدولة الأموية في الشام وله العديد والعديد من الأقوال المأثورة والشعر والحكم البليغة التي رويت عنه رضي الله عنه والتي تنم عن بلاغته وقدره ، فمن أقواله (- لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي من لا يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان وإذا ذهبت الرأس ذهب الجسد - -)٢٤١ ومن أقواله أيضاً (- - الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم معاصي الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبه عنه إلي غيره ، لأنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فهم معه ، ولا قراءه لا تدبر فيها - -)٢٤٢ (وقال الحسن البصري عن قيس بن عباد قال : قال علي يوم الجمل : يا حسن ، ليت أباك مات منذ عشرين سنة ، فقال له : يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا ، قال : يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا -)٢٤٣ وكان مقتله رضي الله عنه علي يد أحد الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا علي قتل كل من (علي ومعاوية وعمرو بن العاص) بحيث يقتل كل واحد منهم أحد هؤلاء الثلاثة في توقيت متزامن لاعتقادهم أن بموتهم ستنتهي خلافات الأمة ، وفشل قاتل معاوية وفشل قاتل عمرو والوحيد الذي نجح في الثلاثة هو قاتل

---

٢٣٩ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صـ ٦٠

٢٤٠ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٦٠

٢٤١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٤٨

٢٤٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٤٨

٢٤٣ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ١٩٤

علي رضي الله عنه ومات أمير المؤمنين شهيداً ورثاه أبو الأسود الدؤلي بأبيات من الشعر هذه مقتطفات منها :

ألا يا عين ويحك أسعدينا – – – ألا تبكي أمير المؤمنينا

ألا قل للخوارج حيث كانوا – – – فلا قرت عيون الحاسدينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا – – – بخير الناس طراً أجمعينا

قتلتم خير من ركب المطايا – – – وذللها ومن ركب السفينا

وكل مناقب الخيرات فيه – – – وحب رسول رب العالمينا

لقد علمت قريش حيث كانت – – – بأنك خيرهم حسباً ودينا

إذا استقبلت وجه أبي حسين – – – رأيت البدر فوق الناظرينا

وكنا قبل مقتله بخير – – – نري مولي رسول الله فينا

يقيم الحق لا يرتاب فيه – – – ويعدل في العدي والأقربينا

وليس بكاتم علماً لديه – – – ولم يخلق من المتكبرينا

- هل تعرف شيئاً عن شخصية مروان بن الحكم الذي أثير حوله مشاكل كثيرة والذي أعتقد أنه كان يعمل طبقاً لاجتهاده الشخصي ومن وجهة نظره والله أعلم لصالح الخليفة والخلافة وسواء كان مخطئاً أو غير مخطئ فحسابه علي الله ونرجو له العفو والمغفرة كما نرجو لجميع أمة محمد صلي الله عليه وسلم ،
- بالتأكيد فمن حقه علينا بعد تحدثنا عنه أن أذكر جوانب أخري من شخصيته حتي نكون منصفين في حوارنا وسأتلو عليك ترجمته من كتاب تاريخ الإسلام للإمام الذهبي رحمه الله حيث كتب ما يلي : (مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس أو عبد الملك القرشي الأموي –––– وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حديث الحديبية بطوله ، وفيه إرسال ، لكن أخرجه البخاري – – ، وكان كاتب ابن عمه عثمان وولي إمرة المدينة والموسم لمعاوية غير مرة ، – – وقال عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بن جابر قال : بعثني زياد إلي معاوية في حوائج ، فقلت : من تري لهذا الأمر من بعدك ؟ فسمي جماعة ، ثم قال : وأما القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله : مروان ، وقال أحمد بن حنبل : يقال : كان عند مروان قضاء ، وكان يتبع قضاء عمر ، – – وقال يونس ، عن ابن شهاب ، عن قبيصة بن ذؤيب : أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة ، وقدمت المدينة تستفتي ، فجاءت ابن عمر ، فقال : لا أعلم في النذر إلا الوفاء ، قالت : أفأنحر ابني ؟ قال : قد نهي الله عن ذلك ، فجاءت ابن عباس فقال : أمر الله بوفاء النذر ، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم ، – – فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة ، فقال : إنه لا نذر في معصية الله ، فاستغفري الله تعالي وتوبي إليه

، واعملي ما استطعت من الخير ، فسُر الناس بذلك وأعجبهم قوله ، ولم يزل الناس يفتون بأنه لا نذر في معصية الله)٢٤٤ ،

- أعتقد أنك تحدثت عن هذه الفتنة من الكتب التي قرأتها عنها فكيف ينظر إليها الناس حالياً ؟

العدسة التي تري الأحداث

- اختلفت الآراء حول الفتنة التي وقعت أحداثها عند حصار الخليفة الراشد الثالث عثمان رضي الله عنه ثم أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخليفة الراشد الرابع رضي الله عنه ، فكل إنسان ينظر إليها بالعدسة التي يفضلها فهناك من ينظر إليها بعدسة الشماتة في الإسلام والمسلمين وخاصة المؤرخين الأجانب المستشرقين وهم بالطبع غير مسلمين وبالتالي لم يفهموا طبيعة هذا الدين جيداً فهم لا يؤمنون به ، وبالرغم من أنهم يؤرخون الأحداث بحياد كامل كما يزعمون إلا أنهم يمسكون بالعدسة التي تري الأشياء من وجهة نظر بعيدة عن الإيمان ، وهناك من يري هذه الفتنة بعدسة العصبية القبلية ويعتبر ما دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما هو مجرد صراع بين بطنين كبيرين من بطون قريش علي الحكم والإمارة كما كانا يتصارعان قبل الإسلام علي الشرف والفخر بالأعمال البطولية ، وهناك من ينظر إلي هذه الفتنة علي أنها صراع سياسي مجرد ولا علاقة له بالدين وهناك من ينظر بعدسة التكفير لإحدي الطائفتين المتصارعتين كالخوارج مثلاً ، وهناك من يعتبر أن هذا الصراع هو صراع بين الخلافة الدينية والخلافة الدنيوية إذا جاز التعبير أو بمعني أوضح : هل يظل الخليفة زاهداً ينام تحت شجرة ويرتدي ثياباً بسيطة ؟ أم يسكن الخليفة في قصر كبير وحوله الحاشية والأتباع كملوك تلك الفترة في العالم ، ويعتقد من يمسك بهذه العدسة أن علي رضي الله عنه آخر رمز للخلافة الزاهدة وأن معاوية رضي الله عنه هو أول رمز للخلافة التي تنعم برفاهية الحكم مع التمسك بتعاليم الدين ، وهناك عدسة أخري تنظر إلي هذه الفتنة بإشفاق وتعتبرها ابتلاء للأمة ، وهناك من يعتقد أن هذه الفتنة قد أصابت الصحابة في ذلك العهد بهذه القوة لتتناسب مع مستوي إيمانهم علي اعتبار أن الابتلاء يكون علي مستوي الإيمان وهؤلاء قد تعرضوا لفتن التعذيب قبل ذلك ولم تؤثر في إيمانهم وفتحت لهم كنوز الدنيا كلها في بلاد الفرس والروم ولم تؤثر في إيمانهم أيضاً وجاهدوا في سبيل الله وشاركوا رسول الله صلي الله عليه وسلم في غزواته فأي ابتلاء يمكن أن يصيب هؤلاء فسبحان الله لقد كانت هذه الفتنة فيما بينهم شديدة وقوية كما كان إيمانهم شديداً وقوياً أيضاً وهناك من لا يعرف أي شئ عن هذه الفتنة حالياً من عامة المسلمين ، فهل أنت من هؤلاء ؟ وإذا كنت تعرف ما حدث أو بعضه فبأي العدسات التي تحدثنا عنها تنظر إلي هذه الأحداث ؟

---

٢٤٤ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي – الجزء الثاني – صفحة ٤٩٩ ، ٥٠٠ (مقتطفات)

- يبقي السؤال المهم الذي أردده بيني وبين نفسي دائماً : هل يجب أن نعرف هذه الأحداث ونفكر فيها ؟ أم أن الأفضل ألا نعلم عنها شيئاً ولا نقرأ عنها شيئاً ؟ ويحضرني هنا بيت طريف من الشعر كتبه أبو الطيب المتنبي عن الشقاء الذي يسببه العقل لصاحبه حتي إذا كان يعيش في النعيم وعن النعيم الذي يعيش فيه الجاهل حتي ولو كان في شقاء حقيقي ولا يعلم : ذو العقل يشقي في النعيم بعقله – – – وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
- عموماً لعلك لاحظت أنني ذكرت ما ورد في الكتب والمراجع دون أن أذكر وجهة نظري الخاصة في هذه الأحداث لأنني غير مؤهل لذلك ، بل إنني مجرد قارئ يقوم بتلخيص ما يقرأه ويحاول تبسيطه بقدر المستطاع ، ولكني أنصحك إذا أردت أن تعرف المزيد عن هذه الفتنة من كتاب قيّم يتناولها بأسلوب علمي حديث وملتزم بالكتاب والسنة فيمكنك أن تقرأ كتاب اسمه (حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه) وهو من تأليف عثمان بن محمد الخميس وصادر عن مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، وفي مقدمة هذا الكتاب يقول المؤلف عن جيل الصحابة كلاماً جميلاً وإليك القليل مما كتبه المؤلف (ولما كانت كلمة الحق نوراً يهتدي به ، ولما لذلك الجيل المبارك من فضل علينا ، كان لزاماً أن نؤدي بعض ما لهم علينا من حقوق ، فشأنهم ليس كشأن غيرهم ، وعلمهم وعملهم لم يُسبقوا إليه ، ولن يُلحقوا به ، فبهؤلاء أعز الله الدين وأظهره ، ونحن وإن كنا نلهج بفضائل أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، إلا أننا لا ندعي لهم العصمة ، فما جعل الله عز وجل العصمة ، إلا لأنبيائه وملائكته عليهم السلام ، نعم ، لقد أخطأ بعضهم في حياة النبي صلي الله عليه وسلم وبعد وفاته لأنهم بشر وغير معصومين مثلهم مثل باقي البشر ، لكن ما تحملوه من الأذى والقهر والتنكيل في سبيل الإيمان بالله ورسوله والدعوة إلي الدين القويم وملة إبراهيم ، وما بذلوه من هجرة الأهل والأوطان ، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وذبهم عن رسول الله صلي الله عليه وسلم بكل ما يملكون ، يجعل هذه الأخطاء في جانب هذه الحسنات العظيمة والأعمال الصالحة كحبات رمل في جبال ، وقطرات ماء في عباب)[٢٤٥] ،
- إنه كلام رائع بالفعل
- نعم وأعتقد أنه بقي ما يجب أن تعرفه عن هذه الفتنة ومن الذي أوقد نارها وأشعل فتيلها (والفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها)
- وهل هناك من أشعل نار هذه الفتنة وأغضب الناس وأثارهم علي الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ؟

---

٢٤٥ حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه – عثمان بن محمد الخميس – صفحة ٥

فتش عن اليهود

- بالطبع فقد كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ودخل الإسلام واعتنقه خصيصاً ليشعل نار الفتنة بين المسلمين وتنقل في بلاد الإسلام يحاول ضلالتهم٢٤٦ فذهب إلي الحجاز ثم البصرة ثم الشام ثم مصر وكان يحاول جاهداً أن يثير المسلمين ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بحجة أن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحق بالخلافة منه وأن عثمان أخذها بغير حق ، وزعم عبد الله بن سبأ (– – أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد)٢٤٧ وقال (محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء)٢٤٨ وللأسف كان لهذا الرجل اليهودي السابق أعوان يساعدونه في تحريك الفتنة وكانوا يتظاهرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتي يستميلوا الناس إليهم وللأسف وجد عبد الله بن سبأ صدي لما يقول في مصر وكانت كل ولاية تصلها أخبار مزيفة عن باقي الولايات تثير فيهم السخط علي الخليفة حتي أن أهل كل ولاية كانوا يقولون : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء (– – إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار (البلدان) فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس – –)٢٤٩
- فماذا حدث في مصر أثناء تلك الفتنة ؟

محمد بن أبي حذيفة يسيطر علي مصر

- عندما وصل الخبر إلي عثمان رضي الله عنه استدعي إليه الولاة لاستشارتهم وليعرف حقيقة الأمر (– – فخرج إليه عبد الله بن سعد والي مصر واستخلف عقبة بن عامر الجهني أو السائب بن هشام في رجب سنة ٣٥ هجرياً فثار عليه محمد بن أبي حذيفة في شوال وأخرجه من الفسطاط واستولي علي إمارة مصر وتابعه أهل مصر جميعاً إلا جماعة من أنصار عثمان ودعا محمد بن أبي حذيفة إلي خلع عثمان وحرض عليه بكل ما استطاع فكان يكتب الرسائل علي ألسنة زوجات النبي صلي الله عليه وسلم ثم يأخذ النوق فيضمرها والرجال الذين يريد أن يتظاهروا بالإتيان بهذه الرسائل من المدينة فيجعلهم علي ظهور البيوت لتلوحهم الشمس تلويح المسافر ثم يأمرهم بالخروج إلي الطريق الآتي من المدينة إلي مصر – –)٢٥٠ ومن هنا يتضح أن المؤامرة كانت محكمة ومخططة ولك أن تتخيل مفعول هذه الرسائل في قلوب المسلمين في مصر ، فإن مضمون هذه الرسائل المزيفة يؤكد شكوى أمهات المؤمنين من عثمان ، ويطلبن إنقاذ الإسلام منه ولم تفلح محاولات عثمان رضي الله عنه في تهدئة

---

٢٤٦ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ٩

٢٤٧ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٠

٢٤٨ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٠

٢٤٩ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١١

٢٥٠ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١١

هؤلاء بل إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما جاء مصر ليصلح الأمر (– – قلبوا عليه خيمته وجرحوه وسبوه فركب من وقته وعاد من حيث جاء – –)٢٥١ ثم حدث أخطر الأمور بعد ذلك حيث أرسل المعارضين لعثمان رسائل لبعضهم البعض في الولايات المختلفة وليحددوا مواعيد الخروج إلي المدينة جميعاً في وقت واحد ليحاسبوا الخليفة علي أفعاله (– – فأخرج محمد بن أبي حذيفة ستمائة مصري٢٥٢ علي كل مائة منهم قائد وعليهم جميعاً عبد الرحمن بن عديس البلوي وخرجت الوفود جميعاً مظهرة أنها تريد الحج وتقابلوا بذي خشب علي ثلاث ليال من المدينة ، وكان هوي أهل البصرة في طلحة وأهل الكوفة في الزبير وأهل مصر في علي – –)٢٥٣ ومن هنا بدأت أحداث حصار الخليفة كما تكلمنا عنها في إيجاز إلي أن مات شهيداً ، ثم تولي علي رضي الله عنه الخلافة وعادت الوفود إلي بلادها ، (– – ولم تهدأ الأحوال بمصر بل انقسمت إلي فئتين فئة علوية آلي إليها الحكم وعلي رأسها محمد بن أبي حذيفة وفئة عثمانية تطالب بالثأر لدم عثمان وعلي رأسها معاوية بن حديج وابتعد أنصار الثأر لعثمان إلي الصعيد ليكونوا بمنأى عن محمد بن أبي حذيفة فأرسل إليهم جيشاً – –)٢٥٤ وظل الصراع في مصر بين أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبين المطالبين بثأر عثمان ووصل الأمر إلي أن أرسل المطالبين بثأر عثمان رسالة إلي معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ليدخل مصر وينتزعها من محمد بن أبي حذيفة وحدثت بالفعل معارك بين معاوية وعمرو بن العاص من جهة وبين محمد بن أبي حذيفة من جهة أخري ولكن مصر ظلت تحت سيطرة الخليفة وهدأت الأحوال لفترة من الزمن في مصر وتولي محمد بن أبي بكر ولاية مصر بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وحاول محمد بن أبي بكر أن يفاوض معاوية بن حديج قائد المعارضة المطالبة بدم عثمان ولكن هذه المفاوضات فشلت فشل ذريع وبدأت المشاكل مرة أخري من جديد ، وكان معاوية بن أبي سفيان يتمني السيطرة علي مصر لأنه يعلم جيداً أنها قوة لمن يسيطر عليها ونعم العون له ، وكان معاوية بن حديج وأتباعه يحرضون معاوية بن أبي سفيان علي ضم مصر إلي الشام تحت قيادته ، وكان وقوف عمرو بن العاص إلي صفه مكسباً كبيراً بلا شك

- فماذا كان موقف عمرو بن العاص ؟

---

٢٥١ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٢

[٢٥٢] أريد التأكيد علي أن المقصود من كلمة مصري هنا ليس الشعب المصري نفسه ولكن العرب الذين استوطنوا مصر بعد الفتح لأن المصريين لم يتدخلوا في أحداث الفتنة لأنها كانت فتنة عربية خالصة ولا شأن بباقي الشعوب بها من قريب أو بعيد بل إن أغلبية الشعب المصري في ذلك الوقت كانت أغلبية مسيحية وليست أغلبية مسلمة

٢٥٣ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٢

٢٥٤ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٣

موقف عمرو بن العاص من الأحداث

- كان عمرو بن العاص كما تحدثنا عنه من قبل شخصية طموحة وغير عادية وكان في بداية هذه الفتنة بعيداً عن الأحداث ولا يريد التدخل لصالح أي طرف منها ، حتي كانت وقعة الجمل التي اشتركت فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ففي هذا الوقت تحديداً قرر التدخل بعد المعركة مباشرةً ، ولكنه فكر قليلاً واستشار ابنيه عبد الله ومحمد وأرسل إليهما وقال لهما (– – إني قد رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني عن رأيي ولكن أشيرا علي ، إني رأيت العرب صاروا عيرين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جداري مكة ولست أرضي بهذه المنزلة ، فإلي أي الفريقين أعمد ؟ قال عبد الله : إن كنت لا بد فاعلاً فإلي علي ، قال : إني إن أتيت علياً قال : إنما أنت رجل من المسلمين وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره ، فأتي معاوية – –)٢٥٥ ، (وعن عروة أو غيره قال : دعا ابنيه (أي عمرو بن العاص) ، فأشار عليه عبد الله أن يلزم بيته لأنه أسلم له ، فقال له محمد : أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أري أن تتخلف ، فقال عمرو لعبد الله : أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي ، وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري – –)٢٥٦ ومن هنا يتضح أن عمرو كان يفضل أن يقف في صف معاوية وأصبح له نعم العون في صراعه مع أمير المؤمنين فأيد الرأي الذي يقول بضرورة الأخذ بثأر عثمان أولاً قبل مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين وقد ذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص عقد صفقة مع معاوية علي أن ينصره بشرط أن يعيده والياً علي مصر مرة أخري والله أعلم
- فهل خاض عمرو بن العاص رضي الله عنه معارك في هذه الفتنة ؟

موقعة المسناة

- أرسل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص إلي مصر في جيش مكون من ستة آلاف رجل ، انضم إليه الساخطون من المصريين٢٥٧ ولكنه لم يقاتل الروم هذه المرة ولكنه قاتل والي مصر محمد بن أبي بكر الذي ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وكانت المعركة في مكان يعرف بالمسناة (– – فجعل عمرو يرسل الكتيبة بعد الكتيبة وجعل كنانة بن بشر (قائد جيش محمد بن أبي بكر) لا تأتيه كتيبة من أهل الشام إلا شد عليها بمن معه فضربها حتي تفر إلي عمرو ، فلما رأي عمرو ذلك رأي أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج رأس عثمانية مصر فأتاه في مثل الظلام فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ولما رأي كنانة ذلك نزل عن فرسه

---

٢٥٥ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٩٧

٢٥٦ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٩٧

٢٥٧ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٥

ونزل أصحابه وضاربهم بسيفه حتي استشهد فتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه ففر ولجأ إلي خربة فأخذوه وقتل -- ، وبلغ عنف القتال يومئذ أن قال عمرو بن العاص : شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوماً كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ ، وكانت تلك الموقعة في صفر ٣٨ هجرياً وكان فيها القضاء المبرم علي العلويين في مصر - -)٢٥٨

- المصريون الذين يتحدث عنهم المؤرخون في هذه الأحداث كانوا عرباً سكنوا مصر مع الفتح عند دخول عمرو بن العاص أليس كذلك ؟
- بالتأكيد وأكبر دليل علي ذلك أن د حسين نصار في روايته يقول ما معناه أن عمرو بن العاص أراد أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج وهذا باعتباره مصرياً ولكنه عربياً اشترك في تأسيس مدينة الفسطاط المكونة من عدة قبائل عربية وكان معاوية بن حديج التجيبي علي رأس أحد هذه القبائل الذين قسموا العاصمة الجديدة فيما بينهم ليفصلوا بين القبائل ومن هنا تم تسميتهم أهل مصر ولكن القبط أنفسهم وهم أهل البلاد الأصليين لم يشتركوا في هذه الأحداث لأن غالبية المصريين في ذلك الوقت كانوا علي الديانة المسيحية ولم تكن اللغة العربية قد انتشرت بينهم ولكن الجدير بالذكر أن المصريين كانوا يشاهدون هذه الأحداث في حزن عميق ويتساءلون علي ما يبدو عن سر كل هذه الصراعات بين العرب المسلمين الذين لم تختلف سياستهم تجاه مصر وغيرها من البلدان برغم كل هذه الصراعات وسبحان الله ، فقد كانت هذه الصراعات فيما بينهم بعيدة كل البعد عن أي ظلم أو جور علي الشعوب التي تحت مظلة حكمهم ، فبرغم كل هذه الأحداث فقد كانت فترة حكم الراشدين لمصر وغيرها من البلاد تتسم بالعدل والرحمة وحرية العقيدة كما ذكرنا من قبل ولم يؤثر هذا الصراع السياسي بين المسلمين علي هذه السياسة الداخلية ،
- فكيف قامت الدولة الأموية بعد كل هذه الأحداث ؟
- قبل الحديث عن قيام الدولة الأموية أرجو أن أكون قد وفقت في توضيح بعض الغامض من الأمور من واقع الكتب والمراجع التاريخية وكل هذا مجرد اجتهاد يتوفر فيه حسن النية إن شاء الله ولك أن تعود إلي ما ذكرت من مراجع وكتب لتفهم ما لم أستطع فهمه وتستوضح ما لم أتمكن من إيضاحه وأسأل المولي عز وجل أن يغفر لي ولك ولأمة محمد صلي الله عليه وسلم وأن يهدينا إلي سواء السبيل وقبل الكلام عن قيام الدولة الأموية في دمشق بالشام بعد دولة الراشدين بالحجاز ، أريد أن أعقد مقارنة سريعة بين عهد الراشدين وعهد الأمويين دون الدخول في تفاصيل ، وأعتقد أن هذه المقارنة ستوضح الكثير من الأمور لأنها ليست فقط مقارنة بين هذين العهدين بل إنها مقارنة بين عهد الراشدين وجميع العصور التي جاءت بعد ذلك تقريباً ، فمثلاً كان في عصر الراشدين يتم اختيار الخليفة بالشوري

---

٢٥٨ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار) صـ ١٥

ويستمد شرعيته بالمبايعة وأصبحت بعد ذلك الخلافة وراثية بولاية العهد مثل الملوك تقريباً مع ضرورة المبايعة أيضاً لتأكيد شرعية الحكم ، كما أن معايير اختيار الخليفة في عهد الراشدين كانت تعتمد علي مكانته في الإسلام وفضله وقدره بين المسلمين ولا تعتمد علي انتمائه العائلي أو قرابته لأحد بطون قريش فمثلاً نجد أن أبا بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان من بني أمية وعلي من بني هاشم وكلهم رضي الله عنهم أجمعين من قريش ، بمعني أن الخلفاء الأربعة كانوا ينتمون إلي أربعة بطون مختلفة من قريش ، فالأساس في الاختيار ليس له علاقة ببطن محددة من قريش بل نري أبا بكر يستخلف من بعده خليفة من بطن أخري ويبايعه الناس ، أما في العصور التي تلت عصر الراشدين بعد ذلك فكان الانتماء العائلي هو الأساس فنجد أن الأمويين من بطن واحدة بالطبع (أمية) وبني العباس بعد ذلك من بطن أخري (هاشم) ولكن ظلت المبايعة هي أساس الشرعية أيضاً كما ذكرنا، ومن نقاط المقارنة الأخري بين عهد الراشدين والعهود التي تلته نجد أن الخلفاء الراشدين كانوا يصرون علي التمسك بالبقاء في المدينة المنورة بالحجاز كمقر لهم كما فعل رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانوا يهتمون بالتعامل معاملة كريمة مع أهلها (الأنصار) عملاً بوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما أوصي بالأنصار خيراً ، علي حين أن باقي الخلفاء بعد ذلك لم يتخذ أحدهم المدينة عاصمة له فنجد أن الأمويين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ثم بعد ذلك أسس العباسيون عاصمة جديدة لخلافتهم وهي بغداد ، كما أن أهل المدينة تعرضوا في بعض الأحيان لمواقف عصيبة لم تكن لتحدث في عهد الراشدين ، ومن وجوه المقارنة أيضاً بين الراشدين ومن بعدهم أنهم كانوا يعيشون حياة الزهد ويرفضون المظاهر الدنيوية في الحكم بل إن عمر رضي الله عنه رفض أن يغادر كبار الصحابة المدينة إلي البلاد التي تم فتحها حتي لا تلوثهم الدنيا بزينتها ولم يخرج بعضهم منها إلا في عهد عثمان رضي الله عنه ، أما باقي الخلفاء بعد ذلك (باستثناء القليل) فكانوا يعيشون حياة عادية وكانت تحيط بهم مظاهر الحكم والحاشية وما إلي ذلك مع تمسكهم بالحكم بما أنزل الله بالطبع ، وللعقاد رأي في هذه النقطة حيث يقول (-- لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً جللاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم ، وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة علي سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين لأن اطراد النسق من ولاة الأمر علي هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوي أمر تنوء به طاقة بني الإنسان ، فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع علي طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلي زمن بعيد ---)[٢٥٩]

- فهل اختلف وضع مصر أيضاً ؟
- أحوال مصر في هذه المقارنة لا تختلف كثيراً عن استمرارها أحد أهم وأغني ولايات الأمة الإسلامية علي مر عصورها المختلفة ولكن حدث بها العديد من التغييرات في نظم الإدارة وتطور دواوين الحكم

---

٢٥٩ معاوية بن أبي سفيان (عباس العقاد) صـ ٩

وانتشار اللغة العربية والديانة الإسلامية مع مرور الزمن ، وظل الخلفاء يتعاملون معها معاملة خاصة ويتولي عليها كما سنري في العصر الأموي وما بعده والياً له مكانته كإبن الخليفة نفسه أو أخوه أو أحد أقاربه أو أحد الموثوق بولاءهم للدولة القائمة ، وظلت مصر تحتل هذه المكانة المرموقة في العصر الأموي والعصر العباسي الأول وهو ما يسمي بعصر الولاة إلي أن جاء أحمد بن طولون وقام بتأسيس الدولة الطولونية بمصر

- فما هي ظروف قيام الدولة الأموية ؟

الفصل الخامس مصر في عصر الدولة الأموية

نشأة الدولة الأموية

- أما عن الظروف والملابسات التي أدت إلي قيام الدولة الأموية في دمشق فيمكن إيجازها في بساطة شديدة وذلك بإجتماع الأمة بالكامل علي معاوية بن أبي سفيان ليكون خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين بعد أن قام الحسن بن علي رضي الله عنه بمبايعة معاوية لحقن دماء المسلمين وجمع شمل الأمة وتوقف الفتنة فقد كان الحسن بن علي رضي الله عنهما قد تولي الخلافة بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه وتم مبايعته بالخلافة بالفعل وقد أورد السيوطي اسمه كخامس الخلفاء في كتابه تاريخ الخلفاء بالرغم أنه تولي الخلافة لشهور قليلة ظلت فيها الأحوال كما هي وظل الخلاف بين الشام والحجاز إلي أن تنازل عن الخلافة لمعاوية في هدوء وحكمة ، واسمح لي أن أتوقف قليلاً عند الحسن بن علي بن أبي طالب حفيد رسول الله صلي الله عليه وسلم لتوضيح بعض النقاط المهمة عنه رضي الله عنه
- رضي الله عنه
- ريحانة النبي صلي الله عليه وسلم وابن ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها وكان يشبه النبي صلي الله عليه وسلم (- - - وكان سيداً حليماً ذا سكينة ووقار وحشمة وكان يكره الفتن والسيف وكان جواداً)٢٦٠ (وقال ابن سيرين : إن الحسن كان يجيز الرجل الواحد بمائة ألف درهم وقال غيره: حج الحسن بن علي خمس عشرة مرة وقال أنه حج أكثرها ماشياً من المدينة إلي مكة وأن نجائبه تقاد معه وقال جرير : بايع أهل الكوفة الحسن وأحبوه أكثر من أبيه)٢٦١ ، (- - - أخرج الحسن من ماله لله مرتين وقاسم الله ماله ثلاث مرات ، حتي أنه كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً ويعطي خفاً ويمسك خفاً - -)٢٦٢ وهناك العديد والعديد من المواقف الرائعة والمناقب التي لا يمكن حصرها في هذا المقام ويكفي أن نقول أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحبه ويدعوا الله له أن يحبه (- - وأخرج الشيخان عن البراء قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم والحسن علي عاتقه وهو يقول : اللهم إني أحبه فأحبه ، وقد تولي الحسن بن علي الخلافة سنة ٤٠ هجرياً فأقام فيها ستة أشهر وأياماً - -)٢٦٣ ثم قرر أن يصلح بين الناس ويجتمعوا علي مبايعة شخص واحد فقط لتنتهي هذه الفتنة بالرغم من وجود حشد ضخم من المقاتلين كانوا رهن يديه وعلي استعداد للقتال ولكنه فضل حقن دماء المسلمين وبايع معاوية علي الخلافة حتي أن هناك من المسلمين من كره هذا التصرف منه ولكنهم أطاعوه لقدره وفضله ، وجدير بالذكر أن الحسن عندما بايع معاوية طلب منه معاوية الصعود إلي المنبر ليتكلم

---

[٢٦٠] تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٧٧

٢٦١ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٧٧

٢٦٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٥٢

٢٦٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٥٣

ويخطب في الناس ، فصعد المنبر وحمد الله وأثني عليه ثم قال (– – أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإني قد أخذت لكم علي معاوية أن يعدل فيكم وأن يوفر لكم غنائمكم وأن يقسم فيكم فيأكم ، ثم أقبل علي معاوية فقال : أكذاك ؟ قال : نعم ، ثم هبط من المنبر وهو يقول ويشير بإصبعه إلي معاوية : {وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (١١١) سورة الأنبياء فاشتد ذلك علي معاوية – – –)٢٦٤ (– – وقال أبو بكرة : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم علي المنبر والحسن بن علي إلي جنبه وهو يقول : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، أخرجه البخاري – –)٢٦٥ ، ومن هنا يتضح أن الحسن جعله الله سبباً في انتهاء المعارك والخلافات في هذه الفترة والله أعلم وفي حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الحسن رضي الله عنه إشارة إلي ذلك ، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٤٩ هجرياً في خلافة معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في دمشق

- أرجو أن تحدثني عن معاوية رضي الله عنه

<u>معاوية بن أبي سفيان :</u>

- كان معاوية بن أبي سفيان يتوقع أن يسود ويتولي الأمر في يوم من الأيام منذ أن قال له رسول الله صلي الله عليه وسلم (– – يا معاوية إذا ملكت فأحسِن)٢٦٦ (وكان معاوية رجلاً طويلاً أبيض جميلاً مهيباً وكان عمر ينظر إليه فيقول : هذا كسري العرب ، وعن علي قال : لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرءوس تندر عن كواهلها)٢٦٧ وكان يُضرب بحلم معاوية المثل وقد كان إسلام معاوية وأبيه أبي سفيان في عام فتح مكة والعام الذي تولي فيه الخلافة أطلق عليه بعض المؤرخون عام الجماعة لاجتماع الأمة علي خليفة واحد ، وظل معاوية في الخلافة عشرين سنة كاملة لا ينازعه فيها أحد وجدير بالذكر أنه قد كان والياً قبل ذلك في الشام عشرين سنة أخري ، وكانت فترة خلافته مستقرة إلي حد كبير وتولي في عهده ولاية مصر عمرو بن العاص وولاية المدينة مروان بن الحكم ، وقام بالسيطرة الكاملة علي الأمور ، وقد أراد معاوية أن يورث الخلافة لابنه يزيد
- يبدو أنه أراد أن يضع نظام مستقر وآمن لتداول وانتقال السلطة في الدولة الأموية وذلك بعد أن رأي الصراعات والخلافات التي مزقت وحدة الأمة فقرر والله أعلم أن يحصل علي المبايعة لابنه يزيد حتي تنتقل السلطة في هدوء بعد موته ، والمبايعة هي نوع من أنواع الشورى قبل اتخاذ القرار

---

٢٦٤ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٧٨

٢٦٥ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٧٦

٢٦٦ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٥٥

٢٦٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٥٥

- (- - خطب معاوية فقال : اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس بأهل فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك)٢٦٨
- سبحان الله ، إنه يدعو علي ابنه بالموت حتي لا يتولي الخلافة إذا كان لا يستحقها
- (- - وعن المنكدر قال : قال ابن عمر حين بويع يزيد ، إن كان خيراً رضينا وإن كان بلاء صبرنا -)٢٦٩ ، وما يهمنا في هذا الحوار أن نعرف أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس هذه الدولة التي نحن بصدد الحديث عنها الآن وغاية ما يقال عنه ما قاله هو عن نفسه في أحد خطبه ، وإليك بعض ما قال (- - أما بعد ، فإني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها - - - - ، ثم تحدث عن الخلفاء الذين قبله وقال : وأين مثل هؤلاء هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم - - - فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم - -)٢٧٠
- إن لم أكن خيركم فأنا خير لكم ، يا له من تعبير
- وهكذا شعر معاوية أنه أفضل من سيقود هذه الأمة إلي الاستقرار والرخاء والأمان بالرغم من علمه التام أنه ليس أفضل من بقي من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، (- - عن ثابت مولي أبي سفيان : أنه سمع معاوية يخطب ويقول : إني لست بخيركم ، وإن فيكم من هو خير مني : عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل ولكني عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم وأنعمكم لكم ولاية - -)٢٧١

ملخص العصر الأموي :

- لقد عودتني علي تلخيص كل عصر فهل يمكن تلخيص العصر الأموي أيضاً ؟
- سيكون ذلك بالطبع كما تعودنا من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري الذي تناول العصر الأموي من صفحة ٦٠ إلي صفحة ٦٥ حيث ذكر أن الدولة الأموية استمرت في دمشق من سنة ٤٠ هجرياً ٦٦١ ميلادياً إلي سنة ١٣٢ هجرياً ٧٥٠ ميلادياً أي حوالي ٨٩ سنة ، تولي فيها الخلافة ١٢ خليفة وتولي خلالها علي مصر ٢٥ والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلي أن توفي بها سنة ٦٦٤ ميلادياً ، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقرة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء

---

٢٦٨ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٣٢٨

٢٦٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٥٧

٢٧٠ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٣٧٩

٢٧١ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٣٧٩

الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بُني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان ولنا هنا وقفة قصيرة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

- **رضي الله عنه**

<u>عمر بن عبد العزيز</u>

- **يعتبر عمر بن عبد العزيز من أفضل خلفاء الدولة الأموية كما رأي المؤرخون فإن هناك العديد من المواقف التي تشهد بفضله وعدله وورعه وتقواه ، فمن الطريف أن الصحابي الشهير أنس بن مالك رضي الله عنه طال به العمر حتي أنه صلي وراء عمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً علي المدينة المنورة فقال عنه (ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتي ، يعني عمر بن عبد العزيز)٢٧٢ وأعتقد أن هذه شهادة من أحد كبار الصحابة تشير إلي الكثير من المعاني عن هذا الخليفة الأموي الذي يحلو للبعض أن يصفه بخامس الخلفاء الراشدين وقد كانت فترة خلافته رخاءاً عم كل أنحاء الأمة حتي أنه لم يعد هناك فقيراً في الأمة الإسلامية كلها في عهده (عن عمر بن أسيد قال : والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتي جعل الرجل يجئ بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتي يرجع بماله كله ، قد أغني عمر الناس)٢٧٣ وجدير بالذكر أنه حفيد عمر بن الخطاب من ناحية الأم كما نعلم جميعاً وكان خلفاء بني أمية بشكل عام يكثرون من الفتوحات الإسلامية ويسعون إلي استقرار الأمة ورخاءها وكان آخرهم مروان بن محمد بن مروان الذي يعتبر آخر خليفة أموي في دمشق كما سنذكر ذلك في حينه**
- **فما هي أهم الأحداث التي وقعت في العصر الأموي ؟**

<u>أهم الأحداث في العصر الأموي</u>

- **في الحقيقة تعتبر الأحداث التي دارت في هذا العصر في الدولة الإسلامية بشكل عام من أخطر الأحداث في تاريخ الإسلام وأهمها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، ثم خلافة عبد الله بن الزبير الذي قاتل بني أمية وسيطر علي الأمة الإسلامية بالكامل تقريباً لفترة من الوقت كأميراً للمؤمنين وأرسل والياً علي مصر هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، وهذين الموضوعين من الموضوعات المهمة جداً في تاريخ هذه الفترة كما أن هناك أموراً وتغيرات قد حدثت في مصر خلال عصر الأمويين ، وأنا متردد في ذكر أحداث مقتل الحسين وخلافة ابن الزبير رضي الله عنهما ، فهل أذكر هذه الأحداث أم استمر في تناول تاريخ مصر فقط خلال العصر الأموي ؟**

---

٢٧٢ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٣ صـ ٢٩٤

٢٧٣ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٣ صـ ٢٩٨

- وما الذي يجعلك متردداً هكذا ؟
- لأنها موضوعات حساسة جداً وقد لا أتمكن من شرحها بطريقة صحيحة فأقع في المحظور
- لا تقلق طالما أنك تتناول الأحداث من المراجع
- وعلي العموم لا مانع من الإشارة باختصار إلي هذه الأحداث نظراً لأهميتها التاريخية وتأثيرها علي جميع الولايات الإسلامية بما فيها مصر ، ولكن اسمح لي أن أوجز بقدر المستطاع فقد لا أشبع رغبتك في معرفة هذه الأمور بدرجة كبيرة ولكن سوف أذكر أهم النقاط التي تهمك وأول ما سوف أتحدث معك فيه في هذا الحوار الآن هو موضوع مقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم موضوع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ثم تطورات الأحداث بعد ذلك والجدير بالذكر أن عصر الأمويين عموماً يتميز بالعديد والعديد من الفتوحات الإسلامية[٢٧٤] التي يصعب حصرها واختصارها في هذا الفصل كما اتسم عصر الدولة الأموية بوحدة الدولة ككل والتمسك بكل ما هو عربي من حيث الهوية والثقافة واللغة وسوف نري بعد ذلك عند قيام الدولة العباسية مدي انفتاحها علي ثقافات أخري خلاف الثقافة العربية
- فلنتحدث عن الحسين رضي الله عنه

مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه

- (- - قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط " قال الترمذي : هذا حديث حسن - -)[٢٧٥] ومن هنا يتضح فضل الحسين ومدي حب رسول الله صلي الله عليه وسلم له ، وهناك العديد من المواقف التي تدل علي فضله وقدره عند المسلمين أظنك تعرفها جيداً وقد وعدتك بالإيجاز الشديد وسأكتفي بذكر أحداث مقتله رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، وتبدأ القصة عندما مات معاوية بن أبي سفيان وتولي الخلافة من بعده ابنه يزيد بن معاوية فلم يدخل في طاعته (الحسين بن علي ولا عبد الله بن الزبير ولا من شايعهما)[٢٧٦] فأما عبد الله بن الزبير فقد عاذ بالبيت الحرام بمكة وأما الحسين بن علي فقد بايعه أهل الكوفة علي الخلافة فتوجه إليهم وقد نصحه الكثيرون بعدم الخروج إلي الكوفة ومن بين الناصحين كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال له (- - يا أبا عبد الله إني لك ناصح ومشفق ، وقد بلغني أن قوماً

---

[٢٧٤] إذا حسبنا عدد من أتيحت له الفرصة للدخول في الدين الإسلامي نتيجة لفتوحات الدولة الأموية لوجدناهم أعداد ضخمة جداً في مناطق متعددة من العالم في ذلك الوقت ونحسب إن شاء الله أن كل صلاة وزكاة وأعمال صالحة والله أعلم قد تكون في ميزان حسنات هؤلاء الفاتحين فالدولة الأموية تذخر بالعديد من الفتوحات الإسلامية الرائعة التي أتاحت الفرصة لنشر الإسلام في ربوع الأرض عن طريق إعطاء الفرصة للدعاة للوصول إلي مناطق لم يكن من الممكن الوصول إليها قبل الدولة الأموية والتي نسأل الله سبحانه وتعالي أن يجعل كل هذا في ميزان حسناتهم وكل فاتح في كل عصر من عصور الإسلام

[٢٧٥] تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٤٤٥

[٢٧٦] تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٣٢٧

من شيعتكم كاتبوك ، فلا تخرج فإني سمعت أباك بالكوفة يقول : والله إني مللتهم وأبغضوني وملوني ، وما بلوت منهم وفاء ، ومن فاز بهم فإنما فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم ثبات ولا عزم ولا صبر علي السيف – –)٢٧٧ وكان من بين الناصحين له أيضاً عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ولكن الحسين رضي الله عنه صمم علي التوجه إلي العراق ليجتمع مع من بايعوه ويقاتل بني أمية وكان بنو أمية في ذلك الوقت قد تمكنوا من السلطة وسيطروا علي كافة ولايات الأمة الإسلامية ولم يكن الموقف السياسي مشابهاً عندما بويع الحسن رضي الله عنه فهناك فارق كبير بين سيطرة الأمويين في عهد مبايعة الحسن بن علي وبين سيطرتهم عند خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقد كان للحسن قوة ضخمة قادرة علي قتال بني أمية عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية ، أما الموقف بالنسبة للحسين فقد كان مختلف تماماً عندما رفض مبايعة يزيد بن معاوية ، وكان يزيد ومروان في قلق شديد عندما عرفوا بخروج الحسين وكان والي الأمويين علي الكوفة في ذلك الوقت اسمه عبيد الله بن زياد ، فأرسل إليه يزيد ومروان رسالة يدعونه فيها لصد الحسين عند وصوله إلي الكوفة وقال في رسالته (– – إن حسيناً صائر إلي الكوفة – – وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان وبلدك من بين البلدان وأنت من بين العمال – –)٢٧٨ ، (وقال الحسين لأصحابه : قد ترون ما يأتينا ، وما أري القوم إلا سيخذلوننا ، فمن أحب أن يرجع فليرجع ، فانصرف عنه جماعة ، وبقي فيمن خرج معه من مكة ، فكانت خيلهم اثنين وثلاثين فرساً وأما ابن زياد " والي الكوفة " فجمع المقاتلة وأمر لهم بالعطاء – –)٢٧٩ ، وبالفعل أيقن الإمام الحسين رضي الله عنه أنه مقتول لا محالة (– – فقام في أصحابه ، فحمد الله وأثني عليه ، ثم قال : قد نزل بنا ما ترون ، إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حتي لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وإلا خسيس عيش كالمرعي الوبيل ، ألا ترون الحق لا يُعمل به ، والباطل لا يتناهي عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله ، وإني لأري الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما – –)٢٨٠ وقاتل الحسين ببسالة وشجاعة حتي أصابه سهم قاتل ثم قطعوا رأسه وأرسلوها إلي يزيد بن معاوية ، ثم ندم يزيد بعد ذلك علي ما حدث للحسين (فكان يقول : وما علي لو احتملت الأذي وأنزلت الحسين معي ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان علي في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله صلي الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته – –)٢٨١ ، وكانت هذه قصة مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه شهيداً في كربلاء بإيجاز شديد وقد هز هذا الحدث الأمة بالكامل وللآن لا يزال الشيعة يبكون ويندمون علي عدم نصر الحسين ويبالغون في ذلك أشد المبالغة

---

٢٧٧ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٣٩٩

٢٧٨ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٤٠٢

٢٧٩ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٤٠٢

٢٨٠ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٤٠٣

٢٨١ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٤٠٧

- **فماذا عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ؟**

عبد الله بن الزبير أميراً للمؤمنين

- **يعتبر عبد الله بن الزبير بن العوام هو أول من وُلِد في المدينة بعد الهجرة للمسلمين وفرح بولادته المسلمون جميعاً لذلك يطلقون عليه أول مولود في الإسلام ، وأبوه هو الزبير بن العوام** رضي الله عنه **حواري رسول الله** صلي الله عليه وسلم **وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمه أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) رضي الله عنها ، وعبد الله بن الزبير من قريش وتحديداً من بني أسد (– – وكان صواماً قواماً طويل الصلاة وصولاً للرحم ، عظيم الشجاعة ، قسم الدهر ثلاث ليال ، ليلة يصلي قائماً حتي الصباح ، وليلة راكعاً وليلة ساجداً حتي الصباح)٢٨٢ ، وظل عبد الله بن الزبير علي موقفه من عدم مبايعة يزيد بن معاوية حتي مات يزيد ، فلما مات يزيد بويع عبد الله بالخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بينما بايع أهل الشام معاوية بن يزيد بن معاوية علي الخلافة ولم تدم خلافته في بني أمية طويلاً ثم بايعوا مروان بن الحكم ، وهنا لنا وقفة فيما ذكره الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء فهو لم يعتبر مروان خليفة بل أقر عبد الله بن الزبير في قائمة الخلفاء واعتبره الخليفة التاسع واعتبر مروان خارجاً عليه ، بل اعتبر عبد الملك بن مروان أيضاً خارجاً عليه إلي أن مات عبد الله بن الزبير ، ثم بعد ذلك اعتبر السيوطي عبد الملك بن مروان الخليفة العاشر في قائمة الخلفاء ، وجدير بالذكر أن عبد الله بن الزبير** رضي الله عنه **أطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان في بداية خلافته ثم أرسل والياً علي مصر أيضاً ، وكان مروان بن الحكم ومن معه علي عداء شديد مع عبد الله بن الزبير واستطاع مروان أن ينتزع مصر من عبد الله بن الزبير وولي عليها ابنه عبد العزيز بن مروان سنة ٦٨٥ م ، وكان لمروان أبناء منهم عبد العزيز ومحمد وعبد الملك ، وكان عبد الملك بن مروان فقيهاً عابداً حتي أن عبد الله بن عمر عندما كبر سنه قال له البعض (إنكم معشر أشياخ قريش يوشك أن تنقرضوا فمن نسأل بعدكم ؟ فقال : إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه –)٢٨٣ وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً ٢٨٤ وهناك قصة طريفة عن عبد الملك بن مروان عندما رأي جيشاً متوجهاً لقتال عبد الله بن الزبير أرسله مروان أبوه ، فاستوقف عبد الملك أحد المقاتلين في هذا الجيش ودار هذا الحوار الذي يرويه المقاتل نفسه (–– – قال عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم ، قال : ثكلتك أمك ، أتدري إلي من تسير ؟ إلي أول مولود ولد في الإسلام ، وإلي ابن حواري رسول الله صلي الله عليه وسلم وإلي ابن ذات النطاقين ، وإلي من حنكه رسول الله صلي الله عليه وسلم أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ولئن جئته ليلاً لتجنده قائماً ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا علي قتله لأكبهم الله**

---

[٢٨٢] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صـ ١٦٨

٢٨٣ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٣ صـ ٥١

٢٨٤ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٣ صـ ٥١

جميعاً في النار - - ، فلما صارت الخلافة إلي عبد الملك ، وجهنا مع الحجاج حتي قتلناه)[٢٨٥] وبالفعل كان مقتل عبد الله بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان عندما أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلي مكة لقتال عبد الله بن الزبير ،

- كلنا يعرف جيداً الحجاج ونسمع عنه ، فهو سيف من سيوف بني أمية ويدين لهم بالولاء الشديد
- كان عبد الملك يعرف إمكانيات الحجاج حق المعرفة وأرسله إلي مكة كما ذكرنا وحاصر ابن الزبير وضرب عليه بالمنجنيق وقاتل عبد الله بن الزبير في شجاعة لا نظير لها حتي قُتِل ، وهكذا انتهت قصة البطل الشجاع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أمير المؤمنين العائذ بمكة بعد أن قاتل بني أمية حتي النهاية ، وجدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان عندما مات ابن الزبير أصبح خليفة لا ينازعه أحد علي الخلافة إلي أن مات وتولي الخلافة أبناءه من بعده ، وأقر أخيه عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر إلي أن مات عبد العزيز وهو والي عليها ،
- ما يلفت النظر في هذه الأحداث هو اختلاف نظرة عبد الملك لعبد الله بن الزبير قبل وبعد وصول الخلافة إليه ، فهو قبل أن يموت مروان والده وقبل أن يصبح خليفة كان يري عبد الله بن الزبير ذو مكانة دينية عالية ورفيعة ويقدر قدره وفضله وتقواه ، أما بعد أن أصبح عبد الملك مسئولاً عن الأسرة الأموية وقائداً لها ، أصبح عبد الله بن الزبير في نظره مجرد خصماً سياسياً عنيداً يجب ردعه ولو بالقوة حتي تجتمع الأمة تحت قيادة أموية وتستمر السيادة للأمويين فأرسل إليه الحجاج وزوده بجيش قوي ليقضي علي سلطته مما أدي إلي مقتله رضي الله عنه
- نعم ونلاحظ أيضاً مدي شدة الأمويين ضد من يقف في طريق سيادتهم السياسية وتوليهم السلطة مما أدي إلي إطاحتهم بكل المعارضين لهم مهما كانت مكانتهم الدينية عند المسلمين بل عند الأمويين أنفسهم
- أي يمكن القول أن بني أمية قد أيقنوا أنهم قادة لا نظير لهم وأن من حقهم تولي أمر هذه الأمة مع علمهم التام أن هناك من هو خير منهم من حيث المكانة الدينية ونذكر معاً ما قاله معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة بعد أن استمد شرعية حكمه من مبايعة الحسن بن علي رضي الله عنه حيث قال معاوية كما ذكرت من قبل (فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم - -) ، فكيف كانت أحوال مصر خلال العصر الأموي ؟

أحوال مصر في العصر الأموي :

- حسناً فلنعود مرة أخري إلي مصر لنتعرف معاً علي أهم وأبرز الأحداث التي تمت فيها خلال العصر الأموي ، وقد ذكرت أن عمرو بن العاص قد تولي للمرة الثانية ولاية مصر عندما سيطر عليها

[٢٨٥] تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٣ صد ٥٢

الأمويون وظل والياً عليها إلي أن مات في عيد الفطر سنة ٤٣ هجرياً علي الأصلح فصلي ابنه عليه ثم رجع فصلي الناس صلاة العيد ، ثم ولي مصر بعده عتبة أخو معاوية فبقي سنة ومات فولي مصر مسلمة بن مخلد[٢٨٦] ،

- عفواً ، قبل أن تسترسل في الحديث عن أحوال مصر في العصر الأموي هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند وفاة عمرو بن العاص رضي الله عنه فلعلك لاحظت أن هذه الشخصية عاشت معنا في هذا الحوار منذ الكلام عن فتح مصر وحتي الآن ، وكان من الممكن أن يموت عمرو قبل إسلامه وهو في موقف العداء من المسلمين ، وكان أيضاً من الممكن أن يموت ورسول الله صلي الله عليه وسلم علي قيد الحياة أو أثناء خلافة الراشدين عندما كان في قمة عطاءه للإسلام واشتراكه في الفتوحات الإسلامية ، ولكن قدّر الله له أن يموت في المرحلة الثالثة من حياته وأقصد بها مرحلة النزاع بين الحجاز والشام والفتن والصراعات السياسية وقد وقف في صف معاوية كما ذكرت ،
- بالفعل إن شخصية عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر شخصية ثرية جداً وحياته حافلة بالأحداث وسوف أتلو عليك ما قاله عمرو بن العاص رضي الله عنه نفسه وهو يتكلم عن مراحل حياته في لحظاته الأخيرة في الحياة وهو علي فراش الموت حيث قال : (– – إني كنت علي ثلاث أطباق ليس منها طبقة إلا عرفت نفسي فيها : كنت أول شئ كافراً وكنت أشد علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فلو مت حينئذ لوجبت لي النار ، فلما بايعت رسول الله صلي الله عليه وسلم كنت أشد الناس منه حياء ، ما ملأت عيني منه ، فلو مت حينئذ لقال الناس هنيئاً لعمرو أسلم علي خير ومات علي خير أحواله ، ثم تلبست بعد ذلك أشياء فلا أدري أعليّ أم لي – – وعن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر : اللهم أمرت بأمور ونهيت عن أمور تركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا إله إلا أنت – –)[٢٨٧] وروي أنه قال : اللهم خذ مني حتي ترضي ،
- إن عمرو بن العاص قد أحبه المصريون كثيراً حتي الآن فهو صاحب أول بيت من بيوت الله في مصر وأفريقيا والمعروف حالياً باسم جامع عمرو (الجامع العتيق) في الفسطاط ، اللهم ارحم عمرو بن العاص واغفر له وارض عنه آمين
- نعود مرة أخري للحديث عن مصر وأحوالها في العصر الأموي ، وقد كانت القبائل اليمنية هي التي تشكل الأغلبية العربية عند فتح مصر في عهد الراشدين وحتي بداية عهد الأمويين ولكن حدث في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان أن زادت هجرة القبائل القيسية إلي مصر (– – ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام في الدولة كلها إذ كان هشام يرمي إلي

---

٢٨٦ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٩٦

٢٨٧ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج٢ صـ ٢٩٩

إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية – –)[٢٨٨] واستمر توافد قيس علي مصر إلي نهاية العهد الأموي ، وهذا الموضوع في الحقيقة يعتبر من أهم الأحداث التي تمت في مصر أثناء العصر الأموي فهي نقطة مهمة في تكوين الشعب المصري بعد فتح مصر ،

- بالتأكيد فهذا الشعب علي مر العصور السابقة قد توافد عليه العديد من الشعوب سواء بالهجرة السلمية مثل الليبيين أو للعمل كجنود مرتزقة وتجار مثل الإغريق ، والإغريق قد اتخذوا الإسكندرية وبعض المدن الأخري موطناً لهم ويدأ هذا الخليط من الشعوب يندمج مع الشعب المصري ولكن مع احتفاظ هذا الشعب بعاداته وتقاليده ولغته أيضاً ،
- بالطبع ولكن الأمر قد اختلف مع الفتح العربي فقد تغيرت مع الوقت لغة المصريين وتحدثوا باللغة العربية ودخل معظمهم الديانة الإسلامية وشعر المصريون بأن المسلمين لا يعرفون العنصرية أو تغلب جنس علي جنس واحتقار جنس لجنس مثلما كان الرومان وغيرهم من الغزاة يحتقرون الشعوب التي تحت قيادتهم ، ويعتبرونهم اقل شأناً (– – فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها علي عكس ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية التي اعتبرت كل من هو غير روماني متبربراً أجنبياً عنها ولا يتمتع بحقوق المواطنة الرومانية التي تتيح لحاملها فقط تولي الوظائف العامة أو الإشتراك في الجيش –)[٢٨٩] ويقول د محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطي (– – ومما يجدر ذكره أن كلمة وطن في الدولة الإسلامية لم تكن معروفة بالمعني الذي نفهمه في الوقت الحاضر ، ونقصد أن الوطن روابط وجدانية بقدر ما هو أرض جغرافية وحدود سياسية ، فقد عبر مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية عن وحدة الشعوب المختلفة داخل الخلافة الإسلامية ، والوطن والخلافة الإسلامية كانا شيئاً واحداً يجتمع الولاء لهما ، وبذلك صار الوطن لا يعني أكثر من مكان يولد فيه المرء فحسب ، بل هو لجميع المسلمين ، ومما يدل علي ذلك أن المصادر الإسلامية عندما كانت تتناول سيرة شخصية ما ، كانت تقول علي سبيل المثال : فلان القاهري المولد ، الدمشقي الإقامة ، البغدادي الوفاة ، ولا يقال فلان المصري أو الشامي أو العراقي – –– – ومن ثم فإن دخول مصر أو غيرها في طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب ، كما كان الحال مع الإمبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وإنما كان معناه أنها جزءاً من هذه الدولة العامة – –)[٢٩٠] ، وقد أبقي العرب علي النظم الإدارية التي وجدوها في مصر وغيرها من البلاد لفترة طويلة بل جعلوا للمصريين الوظائف الرسمية في الدولة واكتفي العرب بالقيادة العسكرية والدينية كإمامة الصلاة بالطبع ، ومن الأمور

---

٢٨٨ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ٥٧

٢٨٩ مصر في العصور الوسطي " الأوضاع السياسية والحضارية " (د محمود الحويري) صـ ٦٩

٢٩٠ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صـ ٦٩

الجديرة بالذكر أن عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر في العصر الأموي بني مدينة حلوان وجعلها مقراً له وبني مقياساً للنيل بها كما تم بناء مقياس كبير في الروضة في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وكان اهتمام الولاة بالنيل وأنظمة الري اهتماماً كبيراً ،

- إن اهتمام أي نظام حاكم بتنظيم الري يؤكد مدي تفهمه لطبيعة مصر علي مر العصور
- وعملوا علي زيادة المحاصيل وتشجيع الزراعة والصناعة ، وكانت الجزية التي فرضها المسلمون علي أهل الذمة جزية عادلة كما ذكرنا وتم إعفاء غير القادرين من سدادها كالأطفال والشيوخ والنساء وهناك موقف غاية في الروعة حدث في خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان عندما كان والي مصر أيوب بن شرحبيل الذي أرسل إلي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يشكو قلة قيمة الخراج (المال الذي يتم جمعه في مصر) وكان النقص ناتج عن زيادة عدد المصريين الذين أسلموا وبالتالي لم يعد بإمكانه فرض الجزية عليهم واستئذن الوالي الخليفة في أن يفرض جزية علي من أسلم حتي يحافظ علي دخل الدولة ، فرد عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز رده المشهور (– – قبح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عمن أسلم ولعمري لعمر أشقي من أن أجل الناس كلهم في الإسلام علي يديه – –)٢٩١ ، ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة القبطية[٢٩٢] وكان عمر بن عبد العزيز أول من أمر بأن يتولي المسلمون الوظائف الرسمية في الدولة[٢٩٣] ،
- بالطبع هناك العديد من الأحداث التي تمت في مصر خلال العصر الأموي ولن يتسع المقام لذكرها ، لذلك فلنكتفي بأهم الأحداث فقط
- عموماً غاية ما يمكن أن يقال عن مصر في العصر الأموي أنها كانت تتمتع بمكانة خاصة عند خلفاء بني أمية حتي أن اختيار الوالي علي مصر كان يتم بعناية فائقة وقد ذكرنا أن الوالي أحياناً يكون ابن الخليفة أو أخوه أو أحد الموثوق بهم واستمر وضع مصر علي هذا المنوال حتي انهيار الدولة الأموية علي يد العباسيين وكان آخر خليفة أموي هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقد هرب إلي مصر من العباسيين بعد هزيمة الجيش الأموي أمام الجيش العباسي ولاحقه العباسيون إلي مصر وقتلوه بها وانتهت بذلك الدولة الأموية في الشام ، حيث قام عبد الرحمن الأموي بعد ذلك بتأسيس دولة لبني أمية في الأندلس واستمرت لفترة طويلة من الزمن وكانت معاصرة للخلافة العباسية في بغداد بل وللخلافة الفاطمية بعد ذلك في القاهرة لفترة طويلة من الزمن ،

---

٢٩١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ٦٥

٢٩٢ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ ٦٢

٢٩٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صـ ٦٤

- إرجو إذا أمكن أن نستعرض إن شاء الله أسباب انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وما واكب ذلك من أحداث وأهم السمات التي تميز كل دولة منهم وعلاقة مصر بكل هذا وكيف أصبحت ولاية عباسية وأحوالها خلال تلك الفترة ، لنتعلم من دروس التاريخ ، ولكن قبل ذلك ، أريد أن أعرف هل كان هناك ولاة علي مصر في العصر الأموي يمكن أن نتحدث عنهم كما تحدثنا عن عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان وعبد الله بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل
- بالطبع هناك ولاة مشهورين في العصر الأموي غير هؤلاء كمسلمة بن مخلد وقرة بن شريك علي سبيل المثال
- حسناً فلتحدثني أولاً عن الوالي مسلمة بن مخلد ثم عن قرة بن شريك

الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري

- تولي مسلمة بن مخلد حكم مصر سنة ٦٦٧م في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وأثناء ولايته خرج الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن قيس سنة ٦٦٨م من ترسانة الإسكندرية لغزو جزيرة صقلية حيث وجد الحامية البيزنطية بصقلية من الضعف بحيث أحرزت أساطيل عبد الله بن قيس عدة انتصارات عليها ، غير أن عبد الله بن قيس قنع بما غنمه ولم يحاول البقاء بصقلية أو استثمار انتصاراته السابقة وعاد بأسطوله المظفر إلي مصر محملاً بالغنائم ، ورداً علي هذه الغزوة البحرية قام الأسطول البيزنطي بغارة علي السواحل المصرية عند البرلس سنة ٦٧٣م ، ونتيجة لهذا النشاط البحري المستمر أنشأ الوالي مسلمة بن مخلد داراً لصناعة السفن جديدة بجانب ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم وهي ترسانة بابليون سنة ٦٧٤م ،
- ثلاثة ترسانات لصناعة السفن في مصر ، يا لها من قوة في عصر الولاة
- ولقد توفي مسلمة بن مخلد والي مصر في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد أن بني في الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة وعامل القبط بالعطف وشملهم بالرعاية فقد سمح لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط وعني ببناء المساجد وإصلاحها ، فقد أمر سنة ٦٧٣م بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنياً باللبن في عهد عمرو وكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، غير أن أعظم أعماله جميعاً هو استقباله لأهل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وعلي رأسهم السيدة زينب بعد معركة كربلاء وقتل معظم أهل البيت ، فأخلي بيته ليقيموا فيه وهو البيت الذي تحول إلي مسجد السيدة زينب بعد موتها ولا يزال[٢٩٤] ، (وتشير معظم المراجع إلي دخول السيدة زينب رضي الله عنها مصر في مستهل شهر شعبان سنة ٦١هـ الموافق ٢٦ إبريل سنة ٦٨١م وما

---

[٢٩٤] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلي مبارك إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية– صفحة ٢١٤–٢١٥

إن وصلت إلي مدينة بلبيس حتي كان في استقبالها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر ورهط من كبار الأمراء والعلماء وجمع من عامة المسلمين وبكي مسلمة وبكت السيدة زينب ويصل الموكب إلي مدينة الفسطاط ويخصص لها الوالي داره الشهيرة معززة مكرمة وكانت فيها موضع إجلال المصريين وتقديرهم ، وكانوا يغدون إلي دارها ملتمسين دعواتها ، مستمعين إلي ما ترويه من أحاديث نبوية شريفة وآداب رفيعة ، كما كان ديوان الحكم يعقد في هذه الدار ، والوالي والأمراء يستفتونها من خلف حجاب في أمور الدين والدنيا ، فاشتهرت عند العامة من أهل مصر حتي يومنا هذا بلقب رئيسة الديوان ، وإلي رحاب الله تنتقل السيدة الطاهرة يوم الأحد لأربع عشرة مضت من رجب سنة ٦٢ هـ الموافق ٢٧مارس سنة ٦٨٢ م فمهدت لها الأرض في خلوتها من دار مسلمة حيث أقامت ، وضريحها كان في الجهة البحرية من دار الوالي مسلمة بن مخلد مشرفاً علي الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج حالياً ، وفي عصر الدولة الطولونية كان المشهد الزينبي أحد مشاهد آل البيت التي أمر أحمد بن طولون بتجديدها وعمارتها ، وفي عصر الدولة الفاطمية كان المعز لدين الله أول من شيد عليه بناءاً أما الحاكم بأمر الله فقد اختص ضريحها بأوفر نصيب من الأوقاف ، وظل هذا الضريح موضع عناية جميع الدول التي تعاقبت الحكم ، وفي القرن السادس الهجري في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب شهد هذا المسجد عمارة وتجديداً برعاية الأمير فخر الدين اسماعيل الجعفري نقيب الأشراف الزينبيين ، ويشير العلامة المؤرخ الجبرتي إلي أن الأمير عبد الرحمن كتخدا أعاد تشييد مسجد السيدة زينب ، وفي عهد الخديوي توفيق شهد المسجد تجديدات وعمارة شاملة واستمرت أعمال التجديدات حتي العصر الحالي)[٢٩٥]

- إذن فهذا سبب تسميته رضي الله عنها رئيسة الديوان ، ويبدو أن الوالي مسلمة بن مخلد كان من أفضل ولاة مصر في العصر الأموي ، فماذا عن الوالي قرة بن شريك ؟

الوالي قرة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلي المدن :

- تولي قرة بن شريك حكم مصر سنة ٧٠٩م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وقام ابن شريك باستصلاح بركة يطلق عليها بركة الحبش بظاهر الفسطاط وغرس بها القصب ، وظلت عامرة بالبساتين وأشجار الفاكهة حتي القرن الرابع الهجري ، ولقد تجلت في ولاية قرة بن شريك علي مصر ظاهرة خطيرة وهي الهجرة من الريف إلي المدن للإفادة من إمكانيات الحياة الواسعة هناك ، والمشاركة في معالمها الحيوية ، ولقد اقترنت تلك الظاهرة الإجتماعية بأزمة اقتصادية ، إذ أدي تطلع الفلاحين إلي الحياة الإجتماعية الجديدة إلي حرمان الريف من السواعد الفتية وإصابة الإنتاج الزراعي بضربة

[٢٩٥] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

قاسية فاتخذ والي مصر قرة بن شريك عدة إجراءات للحد من هذه الظاهرة والقضاء عليها وأنشأ هيئة خاصة لإعادة كل شخص إلي موطنه الأصلي فكان لا يسمح لأي شخص بتغيير محل إقامته إلا بإذن خاص ولمدة محدودة وعلي عهد قرة بن شريك استمر بمصر ثلاث دور كبري لصناعة السفن ، الأولي في الإسكندرية ، والثانية في القلزم والثالثة في بابليون ، وكان ابن شريك شديد الاهتمام بتزويد تلك الدور بما يلزمها ملزما حكام الأقاليم بتحمل تكاليف النقل البري في حالة الإهمال ، وكانت ترسانة الإسكندرية موجهة لحوض البحر المتوسط ، سواء دفاعاً أو هجوماً ،،أما ترسانة القلزم فكانت موجهة لحوض البحر الأحمر سواء لحماية السواحل المصرية أو تقديم المساعدة لسواحل الحجاز أما ترسانة بابليون فكانت لمعاونة كل من ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم

- وهل قامت غزوات بحرية في عهده ؟
- لقد خرج الأسطول المصري في غزوة علي جزيرة سردينيا ، وأثناء ذلك قام الخوارج بمؤامرة لمحاولة اغتيال قرة بن شريك وهو في الإسكندرية ، لكن المؤامرة فشلت وتم القبض علي المتآمرين وكان عددهم حوالي مائة شخص
- أنها معلومات جديدة تماماً بالنسبة لي ، فقد كنت أعرف القليل عن العصر الأموي وما حدث في مصر كولاية أموية ، والآن هل من الممكن أن نتناول الصراع بين الأمويين والعباسيين ، والخلفية التاريخية لهذا الصراع ؟

الفصل السادس مصر في عصر الدولة العباسية

بنو العباس وبنو أمية

- عندما تكلمنا معاً عن بطون قريش واستعرضنا ما ذكره العقاد عنهم في كتابه عبقرية خالد رأينا أن أهم ثلاثة بطون في قريش هم هاشم وأمية ومخزوم ، بل إن هاشم وأمية يجمعهما جد واحد أقرب من الذي يجمعهما ببني مخزوم وهو عبد مناف وبالتالي يمكن إطلاق اسم بني عبد مناف علي هاشم وأمية معاً ، بل إن أكبر دليل علي ذلك ما كان يقوله أبو جهل وهو من بني مخزوم ومن ألد أعداء الإسلام ، عندما كان يأنف من مقارنة مخزوم بهاشم وحدها أو أمية وحدها فكان يتحدث عنهما معاً فيقول ما معناه (– – تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا – – – حتي كنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء – – فمتي ندرك هذه) ومن هنا يتضح أن هاشم وأمية يمكن أن نطلق عليهما بني عبد مناف معاً ، وقد قام الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش بتحليل وتوضيح هذه القبيلة العظيمة وخاصة بني عبد مناف فقال أن الشخصيات البارزة كانت أكثرها من بني عبد مناف (––– ويمكننا أن نرد أكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات إلي بيتين لعبا أكثر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف ، كان بنو هاشم في مكة سدنة الكعبة وأصحاب السلطة الدينية ، أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم – – – وقد كانوا أقدر من بني هاشم علي تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم وقد قوي فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل إلي فاخر العيش – – – والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة – –)٢٩٦
- الحياة في نظر بني أمية مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة ، يا له من تعبير
- ويقول أيضاً عن بني أمية (– – والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء وإحراز الغايات)٢٩٧ ويستمر علي أدهم في وصف بني أمية ومدي حبهم للسيادة وأهليتهم لها وقدراتهم القيادية فيقول (– – وكانوا علي ما بهم من قسوة وصرامة كرماء خبراء باجتذاب القلوب وكأنهم خُلِقوا بطبيعتهم ليحكموا ويسودوا – – – إلي أن عقمت بطون نساءهم عن مثل معاوية ومروان وعبد الملك – –)٢٩٨ وعندما لم يعد هناك رجال من وزن معاوية وأمثاله في بني أمية بدأت سيطرة الأمويين تضعف مع زيادة الدعوة لبني العباس الذي يصفها علي أدهم فيقول (– – وأصابت الدعوة العباسية التي نُظِّمَت بدقة عظيمة وفطنة ممتازة من ضعف أبناء

---

٢٩٦ صقر قريش (علي أدهم) صفحة ٧٥

٢٩٧ صقر قريش (علي أدهم) صفحة ٧٦

٢٩٨ صقر قريش (علي أدهم) صفحة ٧٧

الأمويين مجالاً للانتشار والاشتداد – –) وفي الحقيقة بني العباس هم أبناء وأحفاد العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وبالتالي هم من بني هاشم التي أصبحت تنقسم إلي عباسيين وعلويين نسبة إلي علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وهو كما نعلم ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم ويمكن القول أن بني العباس الهاشميين وبني علي بن أبي طالب الهاشميين أيضاً يطلقون علي أنفسهم آل البيت نسبة للبيت النبوي الهاشمي ، وقد أصبح الصراع بين بني أمية وبين الهاشميين بفرعيهما عباسيين وعلويين واضحاً ، وكان شعار العباسيين اللون الأسود كما هو معروف وكانوا قد عقدوا العزم علي نزع أمر الخلافة من بني أمية وتم بالفعل مبايعة أبو العباس بالخلافة وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ومشهور بلقب (السفاح)

- وأين تمت مبايعته ؟
- تمت مبايعته بالكوفة وقد كان العباسيون في ذلك الوقت كما ورد في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٢٠٥ (– – والله لقد أفضت الخلافة إلي بني العباس وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن ولا أفضل عابداً ولا ناسكاً منهم) ، (– – قال ابن جرير الطبري : كان بدء أمر بني العباس أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أعلم العباس عمه أن الخلافة تئول إلي ولده ، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك)٢٩٩ وكانت دعوة العباسيين شعارها (الرضا من آل محمد " صلي الله عليه وسلم ") وعندما تم مبايعة أبو العباس (السفاح) في الكوفة صعد أبو العباس علي المنبر في الكوفة وقال (– – الحمد لله الذي اصطفي الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابين عنه – – – ثم ذكر قرابتهم من رسول الله " صلي الله عليه وسلم " في آيات القرآن – – إلي أن قال فلما قبض الله نبيه قام بالأمر أصحابه " أي الخلفاء الراشدين أصحاب الأمر والأحق به " إلي أن وثب بنو حرب ومروان فجاروا واستأثروا ، فأملي الله لهم حيناً حتي آسفوه فانتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ليمن بنا علي الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله – –)٣٠٠ وكان بنو أمية قد أصبحوا في حالة ضعف في ذلك الوقت بل إنهم في بداية الصراع لم يقدّروا الموقف تقديراً صحيحاً وإعتقدوا أن هذه الدعوة العباسية لن يُقدّر لها النجاح حتي أن أحد قادتهم الذين حاربوا العباسيين طلب المدد من الأمويين فتأخر عليه كثيراً وتمت هزيمته وانسحابه وقيل أنه أنشد أبياتاً من الشعر تؤكد غفلة بني أمية عما يحدث من بني العباس ووصفهم أنهم نائمون رغم أن كل فعل علي حد قوله يسبقه كلام يدل علي قرب حدوثه وقد تبدو النار من خلال الرماد :

---

٢٩٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٠٥

٣٠٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة ٢٠٦

- فهل هذا الشعر متاح معك الآن ؟
- نعم فقد أنشد :

أري خلل الرماد وميض نار - - - ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النـار بالزندين تـوري - - - وإن الفعل يقدمه الكـلام

وإن لم يطفها عقـلاء قوم - - - يكون وقـودها جثث وهام

أقـول من التعجب ليت شعري - - - أأيقـاظ أميـة أم نيام[٣٠١]

ومن هنا يتضح أن الدعوة العباسية ظلت تنتشر وتتوغل في ربوع الأمة الإسلامية دون أن يشعر بأهميتها وخطورتها بنو أمية حتي أطاحت بهم وبدولتهم وجاءت الرايات السود من خراسان لتقضي علي خلافة بني أمية

- ولكن ما هي أسباب انهيار الدولة الأموية في رأي المؤرخين ؟

أسباب انـهيار الدولة الأمويـة

- عندما نتحدث عن أسباب انهيار الدولة الأموية في دمشق نجد أن هذه الأسباب قد تعود بدون قصد إلي معاوية بن أبي سفيان نفسه فقد كان بالرغم من أنه مؤسس الدولة الأموية إلا أنه قد وضع بذور الاختلاف وروها وهذا ما فهمته من رأي العقاد رحمه الله الذي أكد أن معاوية كان يحب سياسة (فرق تسد) معتمداً علي أنه قادر علي احتواء أي موقف والسيطرة علي الجميع ويبدو أنه اعتقد أن كل من سيأتي بعده من خلفاء بني أمية لهم نفس قدرته علي السيطرة واحتواء الأزمات والحفاظ علي شعرة معاوية كما يُقال ،
- ولكن هذا لم يحدث بالطبع ، أليس كذلك ؟
- بلي ، فقد كان آخر عهد الأمويين يتسم بخلفاء ليسوا من نفس وزن سابقيهم وبالتالي ظهرت بوضوح نتائج التفرقة دون أن يستطيع أحد منهم احتوائها ومن هنا توغل الضعف في الدولة وقد وجدت الدعوة العباسية في هذا الضعف أرضاً خصبة لتنمو ،
- فماذا قال العقاد عن هذا الموضوع ؟
- يقول العقاد عن سياسة معاوية (- - فليس أضل ضلالاً ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدي وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها ، إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة علي فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضي منهم بالحال أو سكنوا عجزاً

---

٣٠١ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج ٤ صفحة ٦

منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون أيام أو كان سكون الأعمار والأعوام – – – ولم يقصر هذه الخطة علي ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والإقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة ، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفيانيين – –)٣٠٢ ،

- يبدو أن هذه السياسة لا يجرؤ علي مثلها سوي نوع خاص جداً من القادة من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان وبعض أولاده ،
- نعم ، أما آخر خلفاء بني أمية فلم يتمكن أحدهم من احتواء الخلافات التي هي ثمرة الأشجار التي رويت بذورها في بداية العصر الأموي
- لقد اشتقت لمعرفة ما دار من صراع

الصراع بين بني أمية وبني هاشم

- وبدأ الصراع بين العباسيين والأمويين وكان صاحب الدعوة العباسية والمسئول عنها رجل اسمه (عبد الرحمن بن مسلم وقيل عبد الرحمن بن عثمان بن يسار)٣٠٣ والمشهور بأبي مسلم الخراساني ودائماً يلعب هذا النوع من الرجال دوراً رئيسياً في المساعدة علي تأسيس الدول وإقامة الحكومات فهو شخصية قاسية وقوية يكاد يصل إلي مستوي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لم يعاصره بالطبع ،
- أي أصبح أبو مسلم سيف بني العباس كما كان الحجاج سيف بني أمية من قبل ،
- هذه الشخصيات بالرغم من أنها شخصيات تتسم بالقسوة والعنف مع خصومهم إلا أنها تأتي في أوقات معينة لتتغير علي يديها الأحوال وكل شئ بأمر الله سبحانه وتعالي ، وما هم إلا أسباب يسببها المولي عز وجل لانهيار دول وقيام دول أخري وسبحان مسبب الأسباب ، وكان أبو العباس أول خلفاء بني العباس يعرف إمكانيات أبو مسلم جيداً ويدرك أن هذا النوع من الرجال لابد منه في هذه المرحلة الحرجة في تأسيس الدولة بالرغم من أنه كان يحذر منه ولا يأمنه ،
- أريد أن نتوقف قليلاً جداً عند شخصية أبي مسلم الخراساني الذي أجمع المؤرخون علي أنه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية وصاحب دعوتها
- ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الرجل ما يؤكد أنه كان شخصية غير عادية فمن ذلك مثلاً كان (– – فصيحاً بالعربي والفارسي حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمور لم ير ضاحكاً ولا مزحاً إلا في وقته ، ولا يكاد يقطب في شئ من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور وتنزل به

---

٣٠٢ معاوية بن أبي سفيان (العقاد) صفحة ١١٧

٣٠٣ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج ٤ صفحة ١٣١

الفادحة فلا يري مكتئباً وإذا غضب لم يستفزه الغضب ولا يأتي النساء إلا مرة في السنة – –)٣٠٤ وحتي لا أطيل عليك سأضرب لك مثلاً واحداً فقط يصف أبا مسلم عندما يعارضه أحد في قوله أو يضعه في موقف محرج أمام الجميع أو يناقشه في كلام لا يعجبه وربما يدل هذا المثل علي الكثير فقد يصل الأمر إلي القتل ، فعندما سأله رجل عن سر اللون الأسود الذي اتخذه شعاراً للدولة العباسية أجابه أبو مسلم بالسبب ثم أمر بقتله وإليك ما ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الموقف (–– – روي مصعب بن بشر عن أبيه قال : قام رجل إلي أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد ؟ قال " أبو مسلم " : حدثني أبو الزبير عن جابر أن النبي "صلي الله عليه وسلم" دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء ، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ، يا غلام اضرب عنقه – –) وكان أبو مسلم يردد هذين البيتين من الشعر :

ذروني ذروني ما قررت فإنني – – – متي ما أهج حرباً تضيق بكم أرضي

وأبعث في سود الحديد إليكم – – – كتائب سوداً طالما انتظرت نهضي٣٠٥

ومن هنا يمكن أن نعرف ملامح شخصية هذا الرجل الذي كان القتل والإطاحة بالمعارضين من أهم صفاته الشخصية كما فهمت مما قرأت عنه وقد حمل هذا الرجل راية العباسيين بكل قوة (– – وسار بجنده إلي الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة ١٣٢ هجرياً)

- فكيف كانت المعركة الفاصلة ؟
- وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية علي ضفاف نهر الزاب الأعلي بالقرب من الموصل ، ودارت المعركة الفاصلة في جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ انتهت بانتصار الجيش العباسي وفرار مروان إلي مصر بعد هزيمته في الزاب ووجد أهل الحوف الشرقي والإسكندرية وأهل الصعيد وأسوان قد صاروا من أنصار العباسيين ، غير أن مروان ما كاد يدخل مصر حتي لحقت به جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي وأبي عون عبد الملك بن يزيد ، فلم يستطع مروان مقاومتهما ، وعبر إلي الجيزة بعد أن أحرق الفسطاط ، ثم فر إلي قرية بوصير بالأشمونين (محافظة بني سويف) فلحق به صالح بن علي وقتله في ذي الحجة سنة ١٣٢ هجرياً (٧٤٩ م) وبعث برأسه إلي العراق
- وبذلك شهدت مصر نهاية آخر خليفة أموي
- وأصبحت ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق٣٠٦ ، وقد كان من أسباب نجاح الدعوة العباسية أيضاً أنها كانت تدعوا إلي الرضا من آل محمد صلي الله عليه وسلم مما جعل المسلمين يقبلون علي

---

٣٠٤ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج ٤ صفحة ١٣٢

٣٠٥ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج ٤ صفحة ١٣٣

٣٠٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٨٤

المبايعة وكذلك ضمنت الدعوة عدم نفور العلويين منها والذين كانوا علي قوة لا يستهان بها وينتمون أيضاً إلي البيت الهاشمي الكبير ولكن بعد استقرار الأمور للعباسيين نشات الخلافات مع العلويين وحدثت بينهم أموراً ليس هذا مقام الحديث عنها

- وماذا حدث بعد ذلك ؟
- كان أبو العباس هو أول خليفة عباسي كما ذكرنا ثم جاء بعده أبو جعفر المنصور وكان أبو جعفر لا يأمن مكر أبي مسلم الخراساني وكان ينصح الخليفة أبو العباس دائماً بأن يتخلص منه بأي أسلوب ولكن لم يوافقه أبو العباس علي ذلك فلما مات أبو العباس استطاع أبو جعفر المنصور بعد توليته الخلافة أن يتخلص من أبي مسلم الخراساني بعد أن وضعه في اختبار للطاعة ففشل فيه وعارض الخليفة في ولايته علي ولاية أخري خلاف خراسان وبذلك أعطي للخليفة العذر والمبرر في التخلص منه لعدم طاعته لأوامره بعد أن قويت شوكته ، وقبل أن أنسي أريد أن أذكر لك موقف يدل علي مدي إحساس المنصور بخطورة أبي مسلم ، فقد أرسل أبو العباس أخيه المنصور إلي أبي مسلم في خراسان لأمر ما ثم عاد المنصور من عند أبي مسلم وتحدث إلي أبي العباس في شأنه (– ولما رأي أبو جعفر عظمة أبي مسلم بخراسان وسفكه للدماء ورجع من عنده قال لأخيه أبي العباس : لست بخليفة إن تركت أبا مسلم حياً ، قال : كيف ؟ قال: والله ما يصنع إلا ما يريد ، قال: فاسكت واكتمها– ٣٠٧) ،
- وبالطبع قام المنصور بعد أن أصبح خليفة بالتخلص من أبي مسلم وأعتقد أن ذلك تم ولكن بصعوبة شديدة فهذا النوع من الرجال ليس من السهل التخلص منه
- نعم فقد وضعه المنصور في اختبار للطاعة وأمره بولاية ولاية لا يرغب فيها وانتظر رد فعله ولكنه تأكد من أن هذا الرجل لا يهتم بأوامر الخليفة إذا كانت لا توافق رغبته والله أعلم ، وإلي هنا ينتهي الحديث عن انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها وتوالي خلفاء بني العباس عليها ،
- وطبعاً بني أمية أسسوا دولتهم في الأندلس بعد ذلك بقليل علي يد صقر قريش (عبد الرحمن الأموي)
- نعم ولكنه لم يُلقب نفسه أميراً للمؤمنين ولكن لقب نفسه أمير الأندلس ونشأت هناك حضارة عظيمة كما نعرف كما نشأت أيضاً حضارة عظيمة في بغداد التي أسسها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة له وللخلفاء العباسيين من بعده ،
- فمن كان أول والي علي مصر في العصر العباسي ؟

---

٣٠٧ تاريخ الإسلام (الذهبي) ج ٤ صفحة ١١

الوالي صالح بن علي أول والي علي مصر في العصر العباسي

- تولي صالح بن علي حكم مصر سنة ٧٥٠م بعد سقوط الدولة الأموية في عهد أبو العباس عبد الله أول خليفة عباسي والمعروف بالسفاح (فعمل علي تثبيت دعائم الحكم الجديد في مصر فأمر بتوزيع العطايا وقسم الصدقات علي الأيتام والمساكين وأبناء السبيل وأسس مدينة العسكر إلي الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط – – وبني دار إمارة ثانية بدلاً من دار الإمارة الأموية التي كانت بالفسطاط ويمرور الأيام اتصلت مدينة العسكر بمدينة الفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة ثم نظر في زيادة مسجد عمرو بن العاص فوسعه من الجهة الشمالية "كانت أول زيادة علي يد مسلمة بن مخلد من جهتي الشرق والشمال ، والزيادة الثانية كانت علي يد عبد العزيز بن مروان من جهة الغرب ، ثم أمر عبد الله بن عبد الملك بتعلية سقف المسجد ، والزيادة الثالثة كانت علي يد قرة بن شريك من جهتي الجنوب والشرق وأنشأ محراباً مجوفاً وطلي الأعمدة بالذهب ، والزيادة الرابعة كانت علي يد صالح بن علي من جهة الشمال " وأدخل فيه دار الزبير بن العوام وبهذا أزال النتوء الذي نتج عن إدخال داري عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو في المسجد ، وأنشأ لذلك باباً خامساً في الجهة الشرقية – – واستمال الكثير من وجوه أهل مصر وحملهم معه صحابة للخليفة أبي العباس – – وفي عهده خرج الجيش العباسي إلي شمال أفريقيا مصطحباً معه أشراف مصر للقيام بدور الدعاة – – – وقد تولي صالح بن علي حكم مصر مرة ثانية في سنة ٧٥٣م قبل وفاة الخليفة أبي العباس السفاح ، وظل والياً عليها حتي سنة ٧٥٥م في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وفي ولايته الثانية علي مصر امتد سلطانه إلي المغرب وإلي فلسطين ، ويُذكر أن صالح بن علي العباسي غزا الدولة البيزنطية في سنة ٧٥٦م تلك الدولة التي دأبت جيوشها علي مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية ، وحدث في تلك السنة فداء بين إمبراطورية الروم وبين الخليفة أبي جعفر المنصور)[٣٠٨] ،
- فهل لديك معلومات عن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ؟
- في عهد هذا الخليفة العباسي تم بناء بغداد ، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المنصور ما يلي (– – وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً –– ، تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس – –)[٣٠٩] وتولي المنصور الخلافة في أول سنة ١٣٧ هجرياً (– وفي سنة ١٤٧ توطدت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيبته في النفوس ودانت له الأمصار ولم يبق خارجاً عنه سوي جزيرة الأندلس فقط فإنها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني لكنه لم يتلقب بأمير المؤمنين بل بالأمير فقط – –)[٣١٠] ويقول السيوطي أيضاً أن في

---

[٣٠٨] مقتطفات مختصرة من صفحة ٢٢٦ ، ٢٢٧ من كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان

٣٠٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٠٨

٣١٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٠٩

عهد المنصور بدأت الدولة الأموية في الأندلس (التي يسميها السيوطي جزيرة الأندلس) ودامت إلي بعد سنة ٤٠٠ هـ ، وكان عبد الرحمن الأموي (من أهل العلم والعدل)[311] ، ويعتبر المنصور من الشخصيات البارزة التي يندر وجودها في التاريخ فهو من مؤسسي الدول بالفعل وفي عهده بدأ اندماج الحضارة العربية مع باقي الحضارات والثقافات علي عكس الدولة الأموية التي كانت من قبل دولة عربية بحته إذا جاز التعبير وتبنت سياسة التعريب في الأمة الإسلامية ، أما العباسيين فقد تعرفوا علي باقي الحضارات المختلفة في ذلك الوقت كالحضارة الفارسية مثلاً ، وفي عهد المنصور تم ترجمة بعض الكتب العالمية من لغاتها الأصلية إلي اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس[312] ونتيجة لاختلاط الثقافات في هذا العصر حدث تطور غير مسبوق في المجالات الثقافية والعلمية في الدولة العربية ، وقد مدح أحد الشعراء المنصور بأبيات من الشعر منها :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم – – – قوم لقيل : اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم – – – إلي السماء فأنتم أكرم الناس

ويمكن أن نتعرف علي شخصية المنصور ومدي قوتها وإيمانها العميق وقدراتها العالية من خلال أقواله هو نفسه لابنه المهدي وهو ينصحه ، فمن كلام الرجل تعرف ملامح شخصيته ، حيث قال لابنه (– – يا أبا عبد الله ، الخليفة لا يصلحه إلا التقوي ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولي الناس بالعفو أقدرهم علي العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه – – –)٣١٣ ، ومن هنا يتضح أن المنصور كان يتحدي من هو في نفس قوته من المعارضين لحكمه حتي سيطر علي كافة أمور الخلافة

– بمناسبة الحديث عن تأسيس مدينة بغداد كعاصمة للخلافة العباسية ، هل يمكن تلخيص العصر العباسي بالكامل كما تعودنا ؟

ملخص العصر العباسي بالكامل

– يمكن تلخيص العصر العباسي من كتاب الدكتور ناصر الأنصاري كالآتي (– – وأسس العباسيون مدينة بغداد الحالية علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدي إلي ضعف شأن الخلافة إلي أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)٣١٤ وحدث

---

٣١١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٠٨

٣١٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢١٦

٣١٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢١١ ، ٢١٢

٣١٤ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٦٦

أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله ، وتولي حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (٩٦) والياً وكانت الفسطاط مقر لولاة مصر من عهد عمرو بن العاص إلي عهد أول والي من العباسيين لمدة ١١٣ سنة وسبعة شهور[٣١٥] وكان عدد الولاة بها من عصر الراشدين والأمويين ٢٩ والياً ومن العصر العباسي والي واحد فقط هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ثم تم بناء عاصمة جديدة لمصر شمال الفسطاط أطلق عليها اسم (العسكر)

- وما الدافع لبناء عاصمة جديدة ؟
- ربما كان اتخاذ الولاة العباسيين عاصمة جديدة لهم سببه يعود إلي الحريق الذي أصاب العديد من المباني في الفسطاط والذي أمر به آخر خليفة أموي مروان بن محمد أثناء هروبه إلي مصر ، وربما يكون السبب يرجع إلي العدد الضخم للجنود في الجيش العباسي الذين ضاقت بهم الفسطاط فاضطروا لبناء مدينة جديدة ، وربما يكون السبب أن ولاة بني العباس رفضوا أن يسكنوا نفس العاصمة القديمة للولاة السابقين لهم فكل دولة جديدة لابد لها في أغلب الأحيان من عاصمة جديدة ، وربما تكون كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلي بناء مدينة العسكر (المعسكر) ، وظلت عاصمة مصر لمدة ١١٨ سنة وسكنها ٦٥ والياً[٣١٦] من ولاة الدولة العباسية حتي جاء أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية وبني عاصمة جديدة وهي القطائع
- حدثتني عن أبو العباس السفاح وأبي جعفر المنصور فمن غيرهما من أشهر خلفاء بني العباس ؟

أشهر خلفاء بني العباس

- تولي الخلافة من بني العباس العديد من الشخصيات البارزة والتي توقف عندها التاريخ ليكتب الأمجاد والانتصارات التي حدثت في عهد كل منهم فقد كانوا سادة العالم كله ، فقد بلغت حدود الدولة الإسلامية ما لم تبلغه من قبل وكان هؤلاء الخلفاء من القادة المحنكين الأقوياء وشعر المسلمون بشكل عام بارتياح شديد عند تولي العباسيون الخلافة واستبشروا بعهد جديد يعمه الرخاء والأمان وكان من أشهر هؤلاء الخلفاء أبو العباس أول خليفة وأبو جعفر المنصور من بعده ثم توالي بعد ذلك خلفاء بني العباس ، ولن أستطيع هنا أن أذكر جميع أسماءهم أو جميع ولاة مصر في ذلك العهد ولكن سأكتفي بالكلام عن أشهر الخلفاء مثل أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهؤلاء سيكونون بالنسبة لك نماذج مختلفة ومشهورة من العصر العباسي وبالتأكيد قد سمعت هذه الأسماء

---

٣١٥ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صفحة ٤٢

٣١٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صفحة ٤٣

من قبل أو علي الأقل بعضها ، ومن خلال الكلام عنهم سيتضح لك الكثير من المعلومات إن شاء الله عن هذا العصر ،

- لقد سمعت أن العصر العباسي منقسم إلي قسمين ، العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني فما الفرق بينهما ؟
- أما العصر الأول فيتميز بأن الخلفاء كانوا يسيطرون سيطرة فعلية علي الأمة بالكامل ولهم القيادة السياسية والدينية والعسكرية وما إلي ذلك ، أما في العصر العباسي الثاني فقد تحولت الأمة إلي مجموعة من الدول التي يتولي أمرها بعض الملوك والأمراء إذا جاز التعبير وكانوا يحترمون الخليفة العباسي بالطبع ويدعون باسمه علي المنابر كل صلاة جمعة وأصبح لهم استقلال سياسي عن الخلافة ولا تربطهم بها إلا التقاليد الشكلية فقط واحترام المكانة الدينية لهذا الخليفة الذي أصبح رمزاً لاتحاد الأمة الإسلامية يستمدون من وجوده شرعيتهم في الحكم
- هل تقصد الاستقلال في المصطلح الاسلامي الذي حدثتني عنه من قبل ؟
- نعم وسوف نذكر أشهر الخلفاء العباسيين وأهم ما دار في مصر من أحداث في العصر العباسي الأول وأحوال المصريين خلاله وقد أشرنا إلي أبي العباس وأبي جعفر المنصور فلنتحدث عن الخليفة المهدي
- لقد مات أبو العباس السفاح ومات المنصور ومات المهدي ومات جميع خلفاء بني العباس ، وماتت الرعية دون أن يعرفوا ما سيحدث للخلافة العباسية من بعدهم فسبحان الحي الذي لا يموت
- وسوف نموت نحن أيضاً دون أن نعرف ما سيحدث ، لذلك يجب أن نستعد دائماً للقاء الله سبحانه وتعالي دون أن نشغل بالنا بما سيحدث لأن الله عز وجل هو مدبر الأمور
- لديك كل الحق ، فكل ما علينا هو أن نقف مع الحق بقدر استطاعتنا ونجتهد في العبادة والعمل ونتوكل علي الله عز وجل ، ولقد كانت معرفة التاريخ بالنسبة لي مفيدة جداً حيث أيقنت أن الجميع قد ماتوا دون أن يعرفوا ما سيحدث ، وأن الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وكم نصر الحق رجال وماتوا دون أن يروا نتائج هذا النصر في الدنيا ، وكم خذل الحق رجال وماتوا علي ذلك أيضاً ، وحتي من رأي بعض النتائج قبل أن يموت لم يعرف أن هناك دورة جديدة من الصراع بين الحق والباطل قد بدأت بعد وفاته ، فما أجمل قراءة التاريخ للعظة والاعتبار
- أراك قد فهمت واقتنعت بما قلته لك في بدء الحوار
- بالتأكيد فقد تخيلت نفسي أعيش في تلك العصور التي ذكرتها لي ووجدت أنه لن يكون ممكناً بالنسبة لي أن أعرف من علي الحق ومن علي الباطل في كثير من الأحيان فقد كانت تلك الفتن شديدة وتليق بقوة إيمان من عاصروها فالحمد لله الذي من علينا بما نطيق وقد قال تعالي : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) سورة البقرة

المهدي والرشيد والمعتصم

- سنستمر إن شاء الله في الحديث عن بعض خلفاء بني العباس كالخليفة المهدي وهارون الرشيد أما الخليفة المهدي فيقول عنه السيوطي (– – وكان جواداً ممدحاً مليح الشكل محبباً إلي الرعية ، حسن الاعتقاد – – – وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد علي الزنادقة والملحدين – –)٣١٧ وسوف أذكر لك عزيزي القارئ موقفين اثنين فقط للمهدي قد يعبران عن الكثير من المعلومات عن شخصيته فقد كان عندما يسمع حديثاً شريفاً لرسول الله صلي الله عليه وسلم لا يسعه إلا الاقتداء به ويظهر تأثير ذلك عليه ويوضح مدي تقواه وورعه (– – وأسند عن ابراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة فقال : إن الأرض لله في إيدينا للمسلمين ، فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه علي كافتهم وفي مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه ، فقال القوم : هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلي الله عليه وسلم لأنه قال : " من أحيا أرضاً ميتة فهي له " وهذه موات ، فوثب المهدي عند ذكر النبي صلي الله عليه وسلم حتى ألصق خده بالتراب وقال : سمعت لما قال وأطعت – –)٣١٨ أما الموقف الثاني الذي اخترته لك عزيزي القارئ من بين مواقف كثيرة فيدل علي مدي سماحته وحلمه (– – أسند عن أبي عبيدة قال : كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة يوماً ، فقال أعرابي : لست علي طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك ، فأمر هؤلاء بانتظاري ، فقال المهدي : انتظروه ، ودخل المحراب فوقف إلي أن قيل : قد جاء الرجل ، فكبر ، فعجب الناس من سماحة أخلاقه)٣١٩
- لم أكن أعرف أي معلومات عن هذا الخليفة رحمه الله ، فماذا عن هارون الرشيد الذي نال شهرة واسعة بين الجميع ؟
- أما الخليفة العباسي هارون الرشيد فيقول عنه السيوطي (– – وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج كما قال عنه أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده – – – فبالحرمين أو أقصي الثغور

وكان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلي أن مات لا يتركها إلا لعلة ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص – – قال عنه أبو

---

٣١٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢١٧ ، ٢١٨

٣١٨ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة ٢٢٢

٣١٩ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة ٢٢٢

معاوية الضرير : ما ذكرت النبي صلي الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال : صلي الله علي سيدي ، وحدثته بحديثه صلي الله عليه وسلم " وودت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيي فأقتل " فبكي (الرشيد) حتي انتحب٣٢٠

- فما حقيقة ما يقال عن تمتعه وسهراته وما إلي ذلك ؟
- كل هذا من الخيال المريض لأعداء الأمة ، فقد كان الرشيد يحكم أكبر دولة في العالم مرهوبة الجانب أي دولة عظمي بالمفاهيم الحالية ، فتخيل العالم كله كيف يعيش أقوي رجل في العالم ولم يفهموا طبيعة الإسلام والمسلمين وكيف كان مجلس الخليفة حافل بالعلماء والأدباء والشعراء وقد كانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حسنها أعراس٣٢١ ،
- لقد نتج عن هذا الخيال المريض قصص خرافية مثل ألف ليلة وليلة وغيرها
- نعم وكانت دول العالم تهاب الدولة العباسية وكانت هذه السيطرة تتمثل في دفع الجزية إلي الخليفة العباسي وتصب في صالح الأمة الإسلامية وهناك موقف واحد اخترته لك لتتعرف علي عزة المسلمين في ذلك العصر المرتبطة دائماً بمدي تمسك المسلمين بدينهم ، فالإسلام وحده هو الذي أعز الله عز وجل به هذه الأمة ولكن ليس الإسلام الذي يقتصر علي العبادات فقط وإنما الإسلام بمفهومه الشامل الذي يشمل العقيدة والعبادات والمعاملات ، فالمجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان يطبق الإسلام في المعاملات كما كان يطبقه في العبادات ، فنجد ازدهار التجارة والصناعة وإتقان العمل والتقدم العلمي في جميع المجالات التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وقد نقل الغرب بعد ذلك أصول العلوم الدنيوية إليهم وقاموا بالاستفادة منها في بلادهم بعد ذلك ، وقد كان علماء الدولة العباسية وعلماء الدولة الأموية في الأندلس علي أعلي مستوي من الثقافة والحضارة والرقي في ظل تعاليم الإسلام الشاملة ، أما الموقف الذي أريد أن أذكره لك فعباره عن وصول ملك جديد للروم رفض أن يدفع المال المفروض عليهم كل سنة وأرسل إلي الرشيد رسالة تحتوي علي هذا المعني وكانت قبله ملكة تقوم بدفع هذه المبالغ المالية التي تعد رمزاً ومثلاً يؤكد قوة الدولة الإسلامية والتي كان يحتاجها العالم كله في ذلك الوقت ويعتمد علي علمها وبضائعها ،
- يبدو أن مسألة دفع جزية من الدول الضعيفة للدولة الأقوي في العالم كان مألوفاً منذ القدم حتي أنك قد حدثتني عن الملك تحتمس الثالث وما كان يأتيه من هدايا وأموال ، فالدول القوية لا تحتاج بالطبع كل هذه الأموال ولكنه مجرد رمز للعزة وفرض الهيمنة والسيطرة والمصالح ، والله أعلم
- الذي حدث أن ملك الروم أرسل هذه الرسالة (– – " من نقفور ملك الروم إلي هارون ملك العرب أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت إليك من

---

٣٢٠ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة ٢٢٧

٣٢١ تاريخ الخلفاء (السيوطي)صفحة ٢٢٩

أموالها أحمالاً وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك " – – فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً حتي لم يتمكن أحد أن ينظر إلي وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساءه من الخوف واستعجم الرأي علي الوزير ، فدعا الرشيد بدواة وكتب علي ظهر كتابه " بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلي نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه " ثم سار ليومه فلم يزل حتي نازل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحاً مبيناً فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة فأجيب)٣٢٢

- إن هذا الموقف يؤكد ما قلته عن خيال الغرب الذي رسم صور حياة هذا الخليفة ، فماذا عن المعتصم الذي نال شهرة كبيرة بسبب نداء وا معتصماه ؟
- الخليفة المعتصم ، هذا الخليفة الذي يقال عنه أنه نصر امرأة مسلمة عندما قالت (وامعتصماه) عندما تعرضت لظلم في أحد الدول الأجنبية ، فقد كانت الجيوش تتحرك لتنصر من يقع عليه الظلم من المسلمين في أي مكان ،
- كما يحدث حالياً عندما يتعرض شخص ما لظلم وهو يحمل جنسية دولة كبيرة مهابة ، والويل كل الويل لمن يؤذي مواطن يحمل جنسية دولة عظمي ،
- وفي عهد هذا الخليفة تم بناء مدينة جديدة في العراق وهي مدينة (سر من رأي) (سامراء الحالية) وهذه المدينة كانت رائعة الجمال أنفق عليها العباسيون أموالاً كثيرة وأبدع كل من شارك في بناءها ، وأصبحت فخراً للدولة من حيث النظام والجمال والنظافة ، وانبهر بها كل من زارها وأشاد بها وبالحضارة العربية الإسلامية في ذلك الوقت ، وكان المعتصم من أشد الخلفاء علي أعداء الدولة ، كما يبدو من هذا الموقف الذي يرويه السيوطي (– – غزا المعتصم الروم فأنكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها لخليفة ، وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف – –)٣٢٣ وكان بعض المنجمين قد توقعوا هزيمة المعتصم في هذه المعركة فحدث خلاف ما توقعوا ، حتي أن الشاعر الشهير أبو تمام قال في ذلك قصيدة مشهورة يؤكد أن السيف أصدق من كلام المنجمين وكان مطلع القصيدة : السيف أصدق أنباءاً من الكتب – – – في حده الحد بين الجد واللعب

وقفة تأمل للحروب في العصر العباسي

- فهل كانت هذه الحروب نوع من أنواع فرض السيطرة والمصالح وملء الفراغ حتي لا يشغله الظالمون والجبابرة والطغاة في العالم فيحكمون بقوانينهم البشرية وأهواءهم وعنصريتهم بعيداً عن منهج الله فتشقي بهم الشعوب أم أن هذه الحروب عدوان غير مبرر ؟

---

٣٢٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٣٠

٣٢٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٦٦

- لم يكن قتال الروم ومن شاكلهم عملاً من أعمال العدوان الغير مبرر أو لمجرد القتال للقتال أو لأن هؤلاء القوم يخالفون الأمة في الدين ولكن غاية ما يمكن أن يقال في هذا المقام عن حروب المسلمين مع غيرهم من الدول في هذه العصور الإسلامية الأولي ما قاله الدكتور محمد عمارة في كتابه الرائع الإسلام والحرب الدينية فقد توقف الدكتور عمارة عند بعض آيات الجهاد ليوضح أسباب كل موقف علي حدة وأسباب النزول الخاصة بهذه الآيات كالآتي ("وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) "٣٢٤ يقول د عمارة (- - فالمطلوب هنا ليس قتال " المخالفين " لنا في الدين وإنما قتال " الذين يقاتلون " بين هؤلاء " المخالفين " فحكمة القتال وسببه هو " قتال " هؤلاء المخالفين لنا " وعدوانهم " علينا وليس مجرد " الخلاف لنا في الدين " ذلك أن الإسلام لا ينهي فقط عن مقاتلة المخالفين لمجرد الاختلاف الديني معهم بل إنه يدعوا إلي مودتهم والقسط إليهم طالما هم لم يقاتلونا في الدين فإن هم قاتلونا واعتدوا علينا وانتهكوا الحرمات وجب علينا قتالهم - -)٣٢٥ ثم إن هذه الآيات قد نزلت في السنة السابعة من الهجرة ، عندما هم المسلمون أن يدخلوا مكة معتمرين " عمرة القضاء " تلك التي اتفقوا عليها في العام الماضي – عام الحديبية – مع مشركي مكة (- - ويومها خشي المسلمون غدر المشركين وتوجسوا خيفة من أن يأخذهم المشركون علي غرة - - وأمام تحرج المسلمين من أن يضطروا إلي مقارفة المحظور " القتال في الشهر الحرام بالمسجد الحرام " نزلت الآيات الكريمة تأمرهم بالقتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام إذا بدأهم المشركون بالقتال وحدث منهم العدوان ، ذلك أن مراد المشركين هو " فتنة المؤمنين عن دينهم وهي أشد من القتل وأعظم - -)٣٢٦ ، أما عن حروب الفتوحات فيقول عنها د عمارة (- - فهي فتوحات لم تفرض عقيدة الإسلام وإنما امتدت بحدود الدولة السياسية إلي ما وراء شبه الجزيرة العربية وهي قد تركت لأهالي البلاد المفتوحة حريتهم في الاعتقاد ، مسيحيين كانوا أم يهوداً أم مجوساً بل لقد أتاحت لهم من الحريات الاعتقادية والدينية فوق ما كانوا يتمتعون به قبل هذه الفتوحات فقد فرضت علي بعضهم ضريبة زهيدة مقابل إعفائهم من ضريبة الجندية والقتال لأمر اقتضاه أمن الدولة الناشئة - -)٣٢٧ ويعود د عمارة إلي تاريخ الصراع السياسي في الشرق والغرب إلي عهد الإسكندر فيقول (- - وكانت فتوحات الإسكندر قد حسمت إحدي جولات هذا الصراع لحساب الغرب

---

٣٢٤ البقرة ١٩٠ – ١٩٣

٣٢٥ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة ٧٤

٣٢٦ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة ٧٥

٣٢٧ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة ٥٦

والبيزنطيين وأصبح الفرس عاجزين عن قيادة الشرق في هذا الصراع وعن النهوض بعبء تحرير الشام ومصر والمغرب من سيطرة الروم فكان ظهور الإسلام بما أحدث من آثار سياسية وبما أقام من دولة فتية ، وبما أنجز من وحدة قومية حولت القبائل العربية إلي جيش باسل في القتال – – كان ذلك الظهور للإسلام إيذاناً بتولي الجماعة العربية زمام القيادة للشرق في هذا الصراع القديم المتجدد ومن ثم كانت تلك الفتوحات العربية حركة تحرير هذه البلاد المفتوحة من حاميات الروم البيزنطيين ، أعان العرب المسلمين فيها وساعدهم عليها أهل البلاد الأصليون ، مع احتفاظهم بدياناتهم القديمة – – وعلي الجانب الشرقي كان فتح العراق العربي تحريراً له من سيطرة فارسية ظالمة وكان فتح فارس ذاتها إنهاء لنظام اجتماعي فاسد غدا فساده ثغرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة وغدت مظالمه الاجتماعية والعرقية قيداً يحول دون أهل فارس ودون الإبداع الحضاري الذي أهلهم له التاريخ والتراث الذي يملكون – –)٣٢٨

- إنه تحليل أكثر من رائع كتبه الدكتور محمد عمارة ، والسؤال الذي يدور في ذهني حالياً كيف انفتحت الدولة العباسية علي باقي الثقافات والحضارات في العالم ؟ وكيف كانت أحوال مصر آنذاك ؟

نظرة عامة علي الخلافة العباسية وأحوال مصر كولاية عباسية

- اهتم خلفاء بني العباس بالعلم والثقافة الغير عربية ومما يؤكد ذلك انتشار أعمال الترجمة بشكل ملحوظ للعديد من المؤلفات الفارسية واليونانية إلي اللغة العربية ، كما كانوا يهتمون أيضاً ويحرصون علي أسباب القوة لإحكام السيطرة والدفاع عن الأمة وحفظ هيبتها ، وكانوا يتمسكون بالحكم بما أنزل الله واتباع سنة نبيه صلي الله عليه وسلم والالتزام بتعاليم الإسلام فقد كانوا يدركون أن الإسلام هو سبب عزة المسلمين ومن يبتعد عن هذه الحقيقة ينحدر إلي مستوي الذل لباقي الدول والأمم الأخري في العالم ، وقد تناولنا في هذا الحوار بعض نماذج من شخصيات خلفاء بني العباس وتعرفنا علي مدي تأثير الدين في سلوكياتهم ، بالرغم من أنهم كانوا يستمتعون بحياتهم الدنيا ويعيشون في رفاهية الحكم ويشاركهم العلماء والندماء والشعراء مجالسهم وينعمون بما وهبه الله لهم من خير ، وهذا للأسف كل ما يذكره عنهم الحاقدون في هذه الأيام حتي أن البعض لا يعرف من أيام هؤلاء الخلفاء العظماء إلا مجالس الدنيا ونعيمها والتي كانت داخل الحدود التي أحلها الله ، وعلي العموم سنعود مرة أخري إن شاء الله لنتكلم معاً عن أحوال مصر في العصر العباسي
- فما أهم ما تحقق في مصر في ذلك العصر ؟
- زاد نشاط الحركة العلمية في مصر بشكل ملحوظ في العصر العباسي في مجالات عديدة علي رأسها بالطبع علوم الدين ، حتي أن مصر أصبح بها علماء علي أعلي مستوي مثل الإمام الليث بن سعد (–

---

٣٢٨ الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة) صفحة ٥٧

– وقد كانت تربط بين الإمام الليث والإمام مالك صلات من الود وثيقة وقد تبودلت الرسائل بين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية ، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الليث " ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث – – ما أصح حديثه –)٣٢٩ وكان الإمام الليث علي قدر كبير من الثراء ، وكان ينفق الأموال في أوجه الخير وكان كريماً جداً (– – وكان الليث بعلمه وكرمه ذا شخصية فذة في المجتمع المصري فكان الأمراء يجلونه ويرجعون إلي رأيه دائماً وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فاعتذر – –)٣٣٠ ومن أقوي الأدلة علي نفوذ وشهرة الإمام الليث واجتماع الناس حوله في مصر ، أن أرسل أحد الحاقدين عليه إلي الخليفة المنصور يحذره من زيادة نفوذ الإمام الليث في مصر حتي أنه أصبح كما لو كان أميراً لها ووالياً عليها

أمير المؤمنين تلاف مصراً – – – فإن أميرها ليث بن سعد

- فماذا عن انتشار اللغة العربية في مصر ؟
- يعتبر انتشار اللغة العربية في مصر ظاهرة ملفتة للنظر كما يقول د محمود الحويري (– – فإن الشعوب التي توالت علي مصر قبل العرب مثل الفرس والآشوريين والإغريق والرومان لم تستطع – كما ذكرنا من قبل – القضاء علي لغة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ، فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية فيما بعد في العصر العثماني لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصري – –)٣٣١ ومن هنا يتضح أن أي لغة يتم فرضها كلغة رسمية للبلاد لا يتقبلها الشعب المصري لمجرد أنها لغة رسمية وإنما تقبّل اللغة العربية لأسباب أخري ، فقد كان اليونانيون مثلاً يعيشون في مدنهم بمصر (– – كأنها جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع وكذلك عاش العثمانيون في بيئات خاصة في مصر وعجزوا عن جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية علي الرغم من أنهم كانوا مسلمين ودام ملكهم عدة قرون – –)٣٣٢
- أعتقد أن الإسلام هو أحد الأسباب الرئيسية لتعلم اللغة العربية حتي يستطيع الناس قراءة القرآن ومعرفة أحكام الدين ، فكيف كانت علاقة العرب بالمصريين ؟
- استمر العرب في مصر يعملون كجنود في الجيش الإسلامي يقومون بالفتوح الإسلامية حتي كثر عددهم وتوالت هجرتهم فاشتغلوا في الرعي ثم بالزراعة واختلطوا بالأهالي (– – حتي كان عهد الخليفة العباسي المعتصم وكانت أمه تركية فاستكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة ثم لم يلبث أن أرسل كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر – – وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب

---

٣٢٩ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الأول صفحة ٨٣

٣٣٠ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الأول صفحة ٨٣

٣٣١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٧٠

٣٣٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٧٠

وقطع أعطياتهم ففعل ذلك – – ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي – –)٣٣٣ ومن هنا تم الاختلاط الفعلي بين العرب والمصريين في جميع المجالات تقريباً (– – ولم يكد يبدأ القرن الرابع الهجري حتي كان في مصر شعب جديد – هو خليط من الشعبين العربي والقبطي يدين معظمه بالدين الإسلامي ويتكلم السواد الأعظم منه مسلمين وأقباط باللغة العربية –)٣٣٤ ، (– وبعد أن تم الاندماج بين العرب والمصريين أصبح الكل مصرياً عربياً إذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا وفي خلال ذلك برزت كلمة قبط أو أقباط بمعني المصريين الذين ظلوا علي دينهم المسيحي أو المصريين المسيحيين ، وعلي أية حال وجدت مصر في الإسلام شخصيتها فانسابت في مجراه في هدوء ومارست شئون حياتها سواء من أسلم من أهلها ومن لم يسلم تحت جناح الحضارة العربية الإسلامية ولم يترك بها الرومان والبيزنطيون إلا صفحات من تاريخ انطوي واندثر – –)٣٣٥

- لاحظ معي أن ابتعاد العرب عن الجيش وكذلك المصريين سيؤدي إلي ظهور قادة في الجيش من العجم والموالي وبالتالي سيصبحون بعد ذلك أولي الأمر في العالم الإسلامي كله
- إنها ملاحظة غاية في الأهمية تؤكد قوة تركيزك معي منذ بدء الحوار فبالفعل سيصبحون ملوكاً وسلاطين أيضاً لقد تخلي العرب عن صدارتهم للعالم الإسلامي في مجالات عديدة ومنها المجال العسكري
- هذا عن العباسيين فماذا كان موقف العلويين من كل هذا ؟
- (– – من المعروف أن العلويين ناصبوا الأمويين العداء ، وأشعلوا ضدهم عدة ثورات ولم يكفوا عن المطالبة بحقهم في الخلافة ولما آلت الخلافة إلي العباسيين عارضهم العلويون واعتبروهم مغتصبين للخلافة شأنهم شأن الأمويين علي الرغم أن البيت العلوي والبيت العباسي ينتميان لبيت واحد وهو البيت الهاشمي –)٣٣٦ ، (– ومما يستلفت النظر أن كثيراً من العلويين قد لجأوا إلي مصر فراراً من اضطهادات ومضايقات الخلفاء العباسيين ، ومن أتي إلي مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أتت مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق)٣٣٧ وتوفت سنة ٢٠٨ هجرياً (٨٢٣ م) ، (– – وما زال العلويون بمصر ينعمون بالأمن بعيداً عن الخلافة العباسية في بغداد إلي أن جاءت خلافة المتوكل علي الله العباسي – – فأرسل كتاباً إلي والي

٣٣٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الأول صفحة ٥٨

٣٣٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الأول صفحة ٦٣

٣٣٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٧٢ ، ٧٣

٣٣٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٨٤

٣٣٧ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٨٦

مصر اسحق بن يحيي الختلي يأمره بإخراج آل أبي طالب من مصر إلي العراق – – أما من بقي في مصر من العلويين فقد اضطروا إلي الاختفاء بعيداً عن أنظار العباسيين – –)٣٣٨

- لقد كان المصريون وما زالوا من أكثر الشعوب الإسلامية حباً لآل البيت
- نعم فحب آل البيت في مصر ليس له علاقة بالتشيع
- فهل حدثت ثورات في مصر خلال العصر الأموي أو العصر العباسي ؟
- نعم ، وأول ثورة قامت في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي كانت سنة ١٠٧ هجرياً في العصر الأموي (– – كان الوالي علي مصر من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب فكتب إلي هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد علي كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر – –)٣٣٩ وتوجه الوالي إلي أماكن الثورة وقضي عليها أما الثورة الثانية فكانت في الصعيد فقط وكانت سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية علي مصر من قبل هشام بن عبد الملك وتم القضاء عليها أيضاً٣٤٠ وآخر ثورة في العصر الأموي كانت سنة ١٣٢ هـ وقامت عند حضور آخر خليفة أموي إلي مصر (مروان بن محمد) وكان مقر الثورة في رشيد وأرسل مروان من قضي عليها ، كما حدثت بعض الثورات في العصر العباسي وكان أكبرها وأقواها الثورة التي كانت في عهد الخليفة المأمون
- وما قصة تلك الثورة ؟
- أولاً كتب الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المأمون (صفحة ٢٤٥) ما يلي (– – كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن ، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان فصيحاً مفوهاً – –)٣٤١ وكان المأمون أماراً بالعدل فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء٣٤٢ وقد حضر المأمون إلي مصر للقضاء علي ثورة شعبية عارمة ضد الوالي عيسي بن منصور طبقا لما كتبه الدكتور جمال الدين الشيال بكتاب تاريخ مصر الإسلامية (ج ١ صفحة ٦١) : (– وفي سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسي بن منصور علي مصر من قبل الخليفة المأمون ، ثار سكان أسفل الأرض " الوجه البحري " عرباً وقبطاً – وكان سبب الثورة – كما يذكر الكندي " سوء سيرة العمال فيهم " وبذل الوالي عيسي بن منصور والقائد العباسي الأفشين جهدهما لإخضاع الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور – من جمادي الأولي إلي ذي الحجة من سنة

---

٣٣٨ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٨٦

٣٣٩ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ صفحة ٥٩

٣٤٠ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ صفحة ٦٠

٣٤١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٤٥

٣٤٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٤٥

٢١٦ هـ – حتي اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلي مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة ، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما الوالي عيسي بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد – –)٣٤٣ وقد حدث موقف له معني رائع عند حضور المأمون إلي مصر وقد ورد في كتاب الحسن ابن زولاق أن مصر لم تعجب المأمون كثيراً عندما قارنها ببغداد وكانت بغداد في ذلك الوقت في قمة مجد وازدهار الدولة العباسية فقال لمن معه ما معناه (لعن الله فرعون حيث قال : { يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}٣٤٤ (فلو رأي فرعون بغداد وجمالها ما كان ليقول ذلك عن مصر) فقال له صاحبه يا أمير المؤمنين ألم تقرأ قول الله تعالي {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}٣٤٥ (فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته)٣٤٦

- وما أكثر شئ أعجبك في هذه القصة ؟
- هذه القصة أو الحدث التاريخي عندما نتأمله نجد أن مصر أثناء زيارة المأمون كانت قمة في الروعة والجمال وإن لم تصل إلي مستوي بغداد في عصر العباسيين ، وكذلك يمكن تخيل كيف كانت مصر في عهد الفراعنة عندما شعر فرعون بالفخر لأنه يملكها ، كما أننا يمكن أن نجتهد فنعتبر أن هذا التدمير الذي لحق بكل ما صنعه فرعون كان يشمل تدمير علومهم أيضاً فلم تصل إلينا رغم أنهم قد وصلوا في مجال العلم إلي مستويات لا نستطيع أن ندركها حالياً وهو شئ معجز بالنسبة لنا ، وقد ترك المولي عز وجل لنا من آثار الفراعنة ما نعتبر به ونري ما تركه قوم كانوا أشد منا قوة وآثاراً في الأرض ، كما أن المولي عز وجل قد نجي بدن فرعون ليكون آية لنا ، وأنت تري الآن العديد من جثث ملوك الفراعنة المحنطة لتتذكر فرعون وأمثاله من الطغاة الذين لا يملكون لأنفسهم شيئاً
- ويمكنك أيضاً أن تتخيل مصر ومدي روعتها عندما ذكرها المولي عز وجل في كتابه الكريم ووصفها بالمقام الكريم عند خروج بني اسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده {فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }٣٤٧ فهل حدثت مواقف أخري أثناء وجود الخليفة المأمون في مصر ؟
- نعم لقد ورد موقف كتبه الدكتور شوقي ضيف عن المقريزي كالآتي : (ومما يدل بوضوح علي رخاء مصر في عصر الولاة ومدي ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزي وقع في أثناء زيارة – الخليفة – المأمون لمصر سنة ٢١٧ هـ إذ مر بقرية يقال لها وطاء النمل وكانت

---

٣٤٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صفحة ٦١

٣٤٤ (٥١) سورة الزخرف

٣٤٥ (١٣٧) سورة الأعراف

٣٤٦ فضائل مصر وأخبارها وخواصها (ابن زولاق) صفحة ٥٤

٣٤٧ الشعراء ٥٧ ، ٥٨

إقطاعية لقبطية عجوز تسمي مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديداً ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل علي ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب ، – – وقال لها ردي مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا الذهب شئ كثير ، فأخذه المأمون لبيت المال)[٣٤٨]

- بمناسبة ذكر هذا الموقف أود أن نلقي نظرة عامة علي عصر الولاة

نهاية عصر الولاة (نظرة عامة)

- أطلق المؤرخون علي الفترة بين ولاية عمرو بن العاص لمصر وحتي تأسيس الدولة الطولونية فترة " عصر الولاة " سواء كان هؤلاء الولاة تم تعيينهم من الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة أو من الخلفاء الأمويين بدمشق أو من الخلفاء العباسيين ببغداد ، فبعد ذلك تم قيام دول مستقلة في مصر ولا يربطها بالخلافة سوي الانتماء الديني فقط تقريباً ، حيث كان حاكم مصر سواء كان أميراً أو ملكاً أو سلطاناً لا يتم عزله أو تعيينه بواسطة الخليفة وبالتالي فهو ليس والياً قابل للعزل بل أصبح في مصر دولاً مثل الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم جاء الفاطميون بعد ذلك واتخذوها مقراً لخلافتهم الشيعية ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ثم المماليك وهكذا ، وبالتالي كانت تسمية عصر ما قبل الدولة الطولونية بعصر الولاة تسمية حقيقية ، وقد ذكرنا بشكل عام وموجز أهم الأحداث التي دارت في مصر خلال عصر الولاة والتغيرات الجوهرية التي أثرت في الشعب المصري ديناً ولغة وثقافة ويمكن أن ننهي الكلام والدردشة عن هذا العصر المسمي بعصر الولاة ببعض مقتطفات من كتاب الدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج (جامعة جنوب الوادي) حيث ذكر في كتابه مصر في العصور الوسطي الذي تناول فيه دراسة الأوضاع السياسية والحضارية ما يلي : (– – وقد لقيت التجارة في مصر بعد الفتح العربي لها العناية اللازمة نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة علي وجه الخصوص –)[٣٤٩] (– وقد ظهر في القرن الثاني الهجري مذهبا أبي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ "٧٦٧م" ومالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ "٧٩٥م" فانحاز إلي كل مذهب فريق من المسلمين وكذلك كان الحال في مصر – – – حتي وفد علي مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعي وقد ولد الشافعي بغزه

---

[٣٤٨] نقلاً عن كتاب (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د شوقي ضيف – دار المعارف صفحة ٤٥

[٣٤٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩١

سنة ١٥٠ هـ "٧٦٧م" ونشأ بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع والموطأ وهو ابن عشر ثم أتي إلي مصر وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ "٨١٩م" –)٣٥٠ (– وكانت مصر رائدة التصوف في العالم الإسلامي فقد ظهر في عصر الولاة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري المعروف بذي النون ، وقد ولد ذو النون بأخميم " بمحافظة سوهاج " ويجعله كثيرون نوبي الأصل وروي عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم وكان أوحد وقته علماً وورعاً وحلماً وأدباً وهو أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها في مصر – – – وقد أنكر عليه بعض أهل مصر ما جاء به من التعاليم الصوفية وقالوا : أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة " وسعوا به لدي الخليفة العباسي المتوكل ورموه بالزندقة عنده ، فأحضره من مصر ، فلما دخل عليه في سامراء وعظه ، فبكي المتوكل ورده مكرماً ، وتوفي بالجيزة في سنة ٢٤٥هـ "٨٦٠م" –)٣٥١ ، (– والواقع أن مصر في عصر الولاة قد شهدت نشاطاً علمياً بارزاً نهض به علماء مصريون وغير مصريين ، وصارت مصر مركزاً اجتذب إليه العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة من بلاد المغرب والأندلس –)٣٥٢ ،

- وهكذا انتهي عصر الولاة الذين ماتوا جميعاً دون أن يعرفوا أن مصر ستتحول إلي دولة طولونية ، بعد ضعف العباسيين فما ظروف قيام الدولة الطولونية في مصر ؟

---

٣٥٠ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩٥

٣٥١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩٦

٣٥٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩٧

الفصل السابع الدولة الطولونية في مصر

الدولة الطولونية

- بدأ ضعف العباسيين تدريجياً بعد خروج العرب من الجيش وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكماً لها ،
- لعل من أخطر الأحداث تأثيراً هو استبدال الجنود العرب بجنود أتراك وقد لاحظنا من قبل أن أي دولة تعتمد في حروبها علي عناصر أجنبية يصل بها الحال إلي سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم وطبعاً مع فارق التشبيه يمكن أن نتذكر معاً ما حدث عندما استعان الفراعنة بالمرتزقة الليبيين والإغريق ، فبالرغم من دخول الليبيون والإغريق الديانة الفرعونية في ذلك الوقت إلا أنهم سيطروا علي مقاليد السلطة بالبلاد وصار مصيرها بين أيديهم
- هناك فرق كبير بين هذا المثال وبين ما نحن فيه ، لأن الجنود في الجيش الإسلامي كانوا مسلمين والإسلام دين شامل وللعالم أجمع ويستوعب جميع الجنسيات ،
- ولكن كان يُفضل الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيس في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس ، وقد اصطفي المولي عز وجل العرب من دون الناس ليبعث منهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع ، وقد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة كما ذكرت (-- ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر"٢١٧هـ-٢١٩هـ " " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي
- علي أي حال نعلم جميعاً أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية علي يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمي بالعصر العباسي الأول ثم بدأ الضعف تدريجياً إلي أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون علي الدولة بل وصل الأمر إلي أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون علي كافة الأمور ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم ، فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتي ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جداً لأي حاكم في العالم الإسلامي ، بعد أن تنازل الخليفة العباسي عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتي بقاع العالم الإسلامي ،
- فهل لديك أمثلة علي مظاهر هذا الضعف ؟

- نعم لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلي أن أنشد شعراً يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي :

أليس من العجائب أن مثلي - - - يري ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا - - - وما من ذاك شئ في يديه

إليه تحمل الأموال طراً - - - ويمنع بعض ما يجبي إليه

- فكيف وصل ابن طولون لحكم مصر ؟
- في أحد المراحل التاريخية للدولة العباسية (- - كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك في صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة ، لكن هؤلاء المُقطَعين كانوا لا يفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة ، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم في حكم مصر ، ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلي مصر سنة ٢٥٤ هـ "٨٦٨م" أحمد بن طولون وهو من المماليك الأتراك الذين نشأوا في البلاط العباسي - -)٣٥٣ ، ولما ولي أحمد بن طولون علي مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة علي أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق)٣٥٤
- أرجو أن تحدثني عن نشأة أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة

أحمد بن طولون

- يُعد أحمد بن طولون من أبرز وأشهر الشخصيات في تاريخ مصر فهو من مؤسسي الدول ، (- - وقال عنه المقريزي : وكان قد نشأ نشوءاً جميلاً وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلي طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم ، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة ، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله ، حتى تمكن له في قلوب الأولياء ، ما ارتفع به علي طبقته وبان فضله علي وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به -)٣٥٥ واستطاع أحمد بن طولون التخلص من منافسيه وأصبح له السلطة المطلقة في مصر بلا منازع
- قد يكون القاسم المشترك بين كبار القادة الذين حكموا مصر هو الانفراد بالسلطة ، فهل هذا هو الأسلوب الأفضل لحكم مصر وتحقيق الإنجازات بها ؟
- رغم أن الانفراد بالسلطة هو ما كان يحدث في مصر دائماً ولكن لا يمكن القطع بأن هذا هو الأسلوب الوحيد لتحقيق الإنجازات بها فهي لم تجرب أسلوباً آخر في الحكم حتي نقرر ما هو الأنسب لحكمها
- لم تجرّب أم لم يُراد لها أن تجرّب ؟

---

[٣٥٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠١

[٣٥٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج١ صفحة ٥٨

[٣٥٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٢

- علي أي حال لم يحدث ، ونعود لابن طولون الذي كان وصوله للسلطة في مصر نهاية لما يسمي بعصر الولاة الذي تكلمنا عنه من قبل ، فقد قام ابن طولون بتوريث حكم مصر لأولاده من بعده وقام بإنهاء حالة الفوضى والاضطراب التي كانت موجودة في مصر (– – والوقع أن نظام الولاية في مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن كله قائماً علي الفوضى والاضطراب ، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربي لها إلي قيام الدولة الطولونية ولاة معظمهم من الأكفاء ، عملوا علي إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقاً لمبادئ الإسلام ، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة علي نحو ما ساد في العصرين الروماني والبيزنطي ، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية ، لا يشكون في غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أجنبي بغيض – –)[٣٥٦]
- وابن طولون قام بتأسيس عاصمة جديدة لمصر وهي مدينة القطائع ، أليس كذلك ؟
- بالتأكيد ، ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع (– – لما ولي أحمد بن طولون علي مصر ، اتخذ لنفسه جيشاً كبيراً كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاقت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبناها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم – – وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه – وجعل بين القصر والمسجد ميداناً كبيراً لسباق الخيل وعرض الجند –)[٣٥٧] وقد تم بناء القطائع وما بها من منشآت علي طراز مدينة سامراء التي بناها العباسيون في العراق ، حتي أن مئذنة الجامع الشهير الموجود إلي الآن تشبه مئذنة جامع مدينة سامراء ، وكان بالقطائع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (– – وتزايدت العمارة حتي اتصلت بالفسطاط وصار كل بلداً واحداً –)[٣٥٨] ، وفي عهده استقلت مصر
- أما الاستقلال الذي قام به ابن طولون بمصر فهو ليس استقلالاً بالمعني الشائع لهذه الكلمة في هذه الأيام ، بل إنه استقلال من نوع خاص أليس كذلك ؟

الاستقلال في المصطلح الإسلامي

- هذا ما كتب عنه د محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطي حيث قال : الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس

[٣٥٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٣

[٣٥٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ٤٤

[٣٥٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ٤٤

لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكماً شرعياً علي البلاد التي يحوزها ، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية – – – وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها – ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيراً عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخري

- معني كل هذا مما فهمته أن الشعب المصري لم يكن يعنيه من الذي يحكم مصر منذ أن تم فتحها طالما أنه مسلم ومعين من خليفة المسلمين أو علي الأقل أقره علي ذلك
- في الحقيقة ليس الشعب المصري فقط بل الأمة كلها ، وكان أي شخص يمكنه أن يتحرك من بلد إلي بلد آخر في بلاد الإسلام دون أن يشعر بأي حرج أو حاجة إلي إذن خاص من أي جهة
- كما يحدث حالياً في الاتحاد الأوروبي ؟
- بكل تأكيد ومع ذلك فقد كان يتفوق علي الاتحاد الأوربي بأمور كثيرة فليس فقط عملة واحدة وسياسة خارجية واحدة وعدم وجود تأشيرات بين الدول بل إن الأمة الإسلامية كانت لغة واحدة وشريعة وقوانين واحدة وتتميز بوجود حق لابن السبيل وهو المسلم الغريب عن وطنه كما أكد هذا المعني الدكتور حسين مؤنس في معرض حديثه عن رحلات ابن بطوطة حيث قال : وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشتري ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟ – الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا – – فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا – – دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة – – وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل

وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه – – وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس – – لهذا حرصت الأمة وهي القيمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك

القطائع

- فهل أسس عاصمة جديدة لدولته ؟
- نعم ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع ، ولما كانت القطائع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج ، وقد ازدهرت الحالة الاقتصادية في مصر في عهد الدولة الطولونية ، وأجمعت المصادر علي اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل علي ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل ،
- شئ جميل أن يتمتع المصريون بخيرات وطنهم
- كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفي كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان ، ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاءه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفي وكان ابن طولون يتفقد المستشفي ويتابع علاج الأطباء ويشرف علي المرضي ،
- إنه نظام تأمين صحي كامل ورائع بلا شك
- كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول قوي وأنشأ مراكب حربية متقنة الصنع ، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة ، حيث سكت الدنانير ذات المستوي الرفيع في النقاء ، وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة ، فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر إلي مصر ومنها إلي مواني إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ،
- هذا ما يسمي حالياً بتجارة الترانزيت ، حيث تتواجد البضائع فترة قصيرة مؤقتة في مكان مؤقت ليتم إعادة بيعها

- كما كان في مصر في هذا العهد أيضاً العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية ، التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري ،
- فكيف كانت علاقة ابن طولون بالشعب المصري ؟
- اكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ،كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين "[٣٥٩] وعندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (– – خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له – –)[٣٦٠] مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أفضل الأيام التي مر بها المصريون في ذلك الوقت ،
- رائع أنه كان كثير المعروف والصدقة
- نعم ولقد كانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ... سوي ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم ، وسوي مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، علي كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران علي القدر ، وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلي المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله علي نعمته ، ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته : أيد الله الأمير ، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة ، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم ، فقال : يا هذا ، كل من مد إليك يده فأعطه ، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالي في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)(٢٧٣–سورة البقرة) ، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

ملخص عصر الدولة الطولونية

- وكم من الوقت استمر حكم الدولة الطولونية ؟

---

[٣٥٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩

[٣٦٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩ ، ١١٠

- لقد حكم أحمد ابن طولون وأولاده مصر لمدة ٣٨ سنة تقريباً[٣٦١] فكانت فترة حكم أحمد ابن طولون من سنة ٨٦٨ م إلي سنة ٨٨٤ م ثم جاء ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وحكم مصر من سنة ٨٨٤ م إلي سنة ٨٩٦ م ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون لمدة أيام قليلة ثم هارون بن خمارويه من سنة ٨٩٦ م إلي سنة ٩٠٤ م ثم شيبان بن أحمد بن طولون في ديسمبر ٩٠٤ م ولم يحكم إلا أياماً[٣٦٢] ، وستلاحظ معي أن فترة أحمد بن طولون وابنه خمارويه تقريباً هي الفترة المستقرة نسبياً في عصر الدولة الطولونية أما بعد ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات في الدولة الطولونية ويؤكد هذه الاضطرابات قصر فترة حكم باقي الطولونيين بل إن أحدهم تم خلعه من الحكم بواسطة الجيش ، كما انتهت حياة هارون بن خمارويه بالقتل ولم تدم فترة حكم شيبان بن أحمد بن طولون إلا أياماً معدودة وكل هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الملوك والقادة الأقوياء يؤسسون المُلك وأولادهم وأحفادهم الضعفاء يضيعونه
- حسناً فلنكمل الحديث ونتناول فترة حكم خماراويه بن أحمد بن طولون

خمارويه بن أحمد بن طولون

- أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تأثراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما (- - ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف - -)[٣٦٣] ، وكان الخليفة العباسي المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق ، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (- - زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندي من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهزها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس - -)[٣٦٤]
- قطر الندي التي يتردد ذكر اسمها في أغنية شعبية شهيرة حتي الآن ؟
- نعم ، ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة (- - مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها

---

[٣٦١] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٧٨

[٣٦٢] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٧٩

[٣٦٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

[٣٦٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٢ هـ (مايو ٨٩٥ م)[٣٦٥] وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتي انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (- - فلما مات ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد -)[٣٦٦] ،

- يا لها من فترة قصيرة في تاريخ مصر ، ويبدو أن أبناء أحمد بن طولون يصلحون كأمثلة للأبناء الذين لا يحسنون المحافظة علي ملك الآباء
- نعم وقد كتب الشعراء قصائد من الشعر حزناً علي سقوط الدولة الطولونية وإليك بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان والقصر ذي الشرفات والأيوان

والجوسق العالي المنيف بناؤه ما باله قفر من السكان

فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم هل فيه غير البوم والغربان

أين الألي حفروا العيون بأرضه وتأنقوا فيه وفي البنيان

غرسوا صنوف النخل في ساحاته وغرائب الأعناب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه والورد بين الآس والريحان

كانوا ملوك الأرض في أيامهم كبراء كل مدينة ومكان

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم تحت الثري يبلون في الأكفان

والله وارث كل حي بعدهم وله البقاء وكل شئ فان

- فماذا حدث بعد ذلك ؟

نهاية الدولة الطولونية

- مات خماروية ، وسادت الفوضي بعد موته وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها ، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدي إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر عندما وصل بها الحال إلي ما ذكرناه من ضعف وفوضي واضطرابات[٣٦٧] ، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو

[٣٦٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

[٣٦٦] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٢٥

[٣٦٧] لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدي تأثر البلاد بالحاكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها

المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلي مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء علي الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحراً وبراً وقام القائد العباسي محمد بن سليمان بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلي الآن والذي يُعتبر الشاهد الوحيد علي مدينة القطائع وحضارتها وجمالها

- مات ابن طولون إذن دون أن يعرف أن مدينته الرائعة ستحترق ، سبحان الله ، فماذا حدث بعد سقوط الدولة الطولونية وعود السيطرة الكاملة للعباسيين علي مصر ؟
- تولي حكم مصر (١١) والياً خلال ثلاثين سنة[٣٦٨] وهي الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية (- - وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون علي ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبري - لذلك حرص الأذكياء من الولاة أن يثبتوا أقدامهم فيها ولكن لم يتمكنوا من ذلك لحرص الخلفاء العباسيين ووزراءهم علي تغيير الولاة بكثرة في مصر في ذلك الوقت حتي لا يتمكن أحد الولاة من الاستقلال بها لذلك نجد عدد الولاة في مدة ٣٠ سنة ١١ والي وهو عدد كبير بالنسبة لهذه المدة القصيرة نسبياً إلي أن جاء الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها وأورثها لأربعة من ذريته -)[٣٦٩] ، وكانت الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية قد شهدت صراع مرير وعنيف بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية التي أسسها الفاطميون في المغرب ، ولم تسلم مصر من هذا الصراع بل إنها كانت مسرحاً للمعارك بين الجانبين (- - ولا شك أن وقوع الصدام أكثر من مرة علي أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية قد أنزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال - -)[٣٧٠] إلي أن قامت الدولة الإخشيدية ليعود الاستقرار إلي مصر مرة أخري ،
- وكيف قامت الدولة الإخشيدية في مصر ومن هو الإخشيد ؟

---

[٣٦٨] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٢

[٣٦٩] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٢

[٣٧٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٥

الفصل الثامن الدولة الإخشيدية في مصر

قيام الدولة الإخشيدية في مصر

- الإخشيد مؤسس هذه الدولة كان من المخلصين للخلافة العباسية وكلمة الإخشيد ليست اسمه ، ولكنها لقبه أما اسمه فهو أبو بكر محمد ابن طغج ، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتسمي فرغانة ، وكان محمد بن طغج من أصل فرغاني ولأنه أصبح أميراً كبيراً فكان من الطبيعي أن يلقب بلقب الأمراء والملوك في بلاده الأصلية ، وكان من أشجع القادة المقاتلين في الجيش العباسي وقد شارك والي مصر في قتال الفاطميين مما جعله ينال ثقة الخليفة العباسي " الراضي بالله " حتي أنه قام بتعيينه والياً علي مصر وأعطاه حق توريث حكم مصر لأولاده من بعده وهذا يؤكد قدرة الإخشيد علي السيطرة علي حدود الدولة العباسية المضطربة بفعل الفاطميين القادمين من الغرب وبالفعل لم يتمكن أحد منهم من دخول مصر بالقوة إلا بعد انهيار الدولة الإخشيدية بوفاة كافور الإخشيدي كما سنري ، أما الراضي بالله فهو الخليفة رقم ٣٩ في قائمة الخلفاء[٣٧١] وفي عهد هذا الخليفة بلغت الدولة العباسية قمة الضعف بحيث أن الخليفة لم يعد يسيطر إلا علي بغداد فقط تقريباً ، وهذا ما فهمته من كلام الإمام السيوطي حيث ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء ما يلي (– – وفي سنة خمس وعشرين "٣٢٥هـ " اختل الأمر جداً وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها ، أو عامل لا يحمل مالاً ، وصاروا مثل ملوك الطوائف ، ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد ، – – – ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباسية ، وتغلبت القرامطة والمبتدعة علي الأقاليم ، قويت همة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني ، وقال : أنا أولي الناس بالخلافة وتسمي بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولي علي أكثر الأندلس وكانت له الهيبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة – –)[٣٧٢] ،
- هل أصبح هناك أكثر من خليفة ؟
- نعم فقد أكد الإمام السيوطي أن ثلاثة في العالم كله في ذلك الوقت كانوا يلقبون بلقب أمير المؤمنين منهم طبعاً الراضي بالله وصاحب الأندلس والخليفة الشيعي الفاطمي بالقيروان ، وكما طلب ابن طولون من الخليفة العباسي الحضور إلي مصر واتخاذها مقراً له خوفاً عليه من مؤامرات الأتراك ، فعل الإخشيد نفس الشئ وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلي مصر (– – فالتقي به الإخشيد في الشام ، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلي ترك بغداد والمجئ إلي مصر والإقامه فيها ، وقال للخليفة : " يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله في نفسك

---

[٣٧١] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٠٨

[٣٧٢] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٠٩

، سر معي إلي الشام ومصر فهي لك وتأمن علي نفسك " ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد ، ولا شك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلي مصر لتغير – إلي حد ما – مستقبل الخلافة ومستقبل مصر ،

- ولكن الخلافة العباسية انتقلت إلي مصر فيما بعد في العصر المملوكي علي حد علمي
- نعم ، فإذا كان الإخشيد قد أخفق في جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم بالفعل فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ " ١٢٦١م ")[٣٧٣] ، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصاً علي الخليفة العباسي ومخلصاً له أشد الإخلاص
- فما الملخص العام للعصر الإخشيدي ؟
- تولي حكم مصر من الإخشيديين بما فيهم الإخشيد وكافور خمسة أمراء وهم علي الترتيب أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وأبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وأبو الحسن علي ابن الإخشيد وأبو المسك كافور خادم الإخشيد وأبو الفوارس أحمد ابن علي ابن الإخشيد حتي دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان ٣٥٨ هـ / يونيو ٩٦٩ م[٣٧٤] وخطب للمعز الفاطمي علي المنابر بمصر وكانت فترة حكم الإخشيديين حولي ٣٤ سنة من أغسطس ٩٣٥ م إلي يونيو ٩٦٩م
- ومن هو كافور هذا ؟
- كان للإخشيد عبد أسود خصي اسمه كافور وكان كافور هذا مربي أولاد الإخشيد ومعلمهم وأستاذهم وكان شديد الإخلاص للإخشيد ولدولته ، كما كان قائداً لبعض المعارك التي خاضها جيش الدولة الإخشيدية وغاية القول عن هذا الرجل أنه كان رجل دولة وكان عبداً ولكنه كان فلتة من فلتات الزمن ونادرة من النوادر ، فبالرغم من أنه عبد إلا أنه كان يتميز بصفات تؤهله للقيادة والإمارة بلا مبالغة ، ويكفي أن أقول لك أن كافور هذا قد أصبح وصياً علي أولاد الإخشيد بعد موته وكان محافظاً علي الدولة بعد موت مؤسسها وبوفاة كافور انتهت الدولة الإخشيدية واقتحم الجيش الفاطمي مصر أي أن الدولة الإخشيدية كانت عبارة عن شخصين فقط هما الإخشيد نفسه ثم كافور وبوفاة آخرهما انتهت الدولة
- فلتحدثني عن الإخشيد نفسه فمن الواضح أنه كان أحد الشخصيات البارزة في تاريخ مصر ؟

أبو بكر الإخشيد

- قال المقريزي عن أبو بكر محمد ابن طغج الملقب بالإخشيد ما يلي (– – وكان حازماً شديد التيقظ في حروبه ، حسن التدين ، مكرماً للأجناد ، شديد – لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية

---

[٣٧٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٠ ، ١٣١

[٣٧٤] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٥

، نجيباً شهماً – –)٣٧٥ (– – وشهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً في ميادين الفنون والآداب والعلوم ، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتي ميادين الفن الإسلامي – –)٣٧٦ ، (– – وتميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطاً مرموقاً –)٣٧٧ ، (– – واهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الإقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان ، وتمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة ، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً في العصر الإخشيدي ، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان في السنة حسب جودة الأرض – وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة ، حتي زاد خراج مصر علي أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة ٣٥٦هـ "٩٧٦م" في عهد كافور أكثر من ٦٢٠ ألف دينار)٣٧٨ ، ، أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (– – وإلي جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً في العصر الإخشيدي ، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلي العراق ، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة – – وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي

- إنها معلومة مهمة جداً فمتي كان أول مرة يتم استخدام الورق العادي بدلاً عن ورق البردي ؟
- ترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلي عام ٩١٢م ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلي عام ٩٣٥م ، يضاف إلي هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة – – واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي –)٣٧٩
- هل كانت الدولة الإخشيدية فقط هي التي قامت في ظل الخلافة العباسية في بغداد ؟
- لا بل كانت الدولة الحمدانية في حلب معاصرة للدولة الإخشيدية في مصر ، وتتبع أيضاً الخلافة العباسية في بغداد وكان حاكمها يُدعي سيف الدولة الحمداني وكان من أمراء هذه الدولة أيضاً أبو فراس الحمداني الشاعر والفارس الشهير وكان هناك صراعات للاسف بين الدولتين علي الحدود ومن هذا ما ذكره د الحويري (– – ومن المصاعب الخارجية التي واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين

---

[٣٧٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٧ (نقلاً عن المقريزي)

[٣٧٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٣

[٣٧٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٤

[٣٧٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٥

[٣٧٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٦

أصحاب الموصل وحلب علي ممتلكات الإخشيديين في الشام ، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام ، وهزم جيشاً بقيادة كافور علي نهر العاصي ، فاضطر الإخشيد إلي أن يخرج بنفسه علي رأس جيش كثيف في نفس العام واستطاع ان يسترد دمشق ، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة في حمص وقنسرين – –)٣٨٠ ومع ذلك فقد فضل الإخشيد عقد معاهدة صلح بينه وبين سيف الدولة رغم هذا الإنتصار الساحق وذلك يعود لسبب مهم جداً هو أن الإخشيد كان حريصاً علي بقاء قوة الدولة الحمدانية لتظل أحد العناصر التي تواجه الروم وتصد غاراتهم ، وكان الروم يخشون بطش الحمدانيين والإخشيديين ولذلك قرر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أن يقيم علاقة طيبة مع الخليفة العباسي والإخشيد أيضاً ، وكان يتبادل الرسائل الودية معهم (– – وقد أورد القلقشندي نص الرسالة المطولة التي وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس رداً علي رسالته ، ومن مضمونها يتبين لنا حرص رومانوس علي إقامة علاقات ودية وتبادل الأسري وتعزيز التبادل التجاري ، وفي ذلك يقول (– وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وما اختاروه ، لأنا وجدنا جميعه لا يخطره علينا دين ولا سياسة –)٣٨١ ،

- أعتقد أن المتنبي الشاعر الشهير كان يعيش في ذلك الوقت في عصر سيف الدولة
- نعم فقد عاش المتنبي أفضل ايام حياته واكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية.
- المتنبي يوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعرحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي .وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك.
- بالتأكيد فقد مدح سيف الدولة كما عاتبه أيضاً في قصيدة شهيرة فيما يلي بعض مقتطفات منها :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي " فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا " "بانني خير من تسعى به قدم

انا الذي نظر الأعمى إلى أدبي " وأسمعت كلماتي من به صمم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة " " فلا تظنن أن الليث يبتسم

الخيل والليل والبيداء تعرفني " " والسيف والرمح والقرطاس والقلم

يا من يعز علينا أن نفارقهم " " وجداننا كل شيء بعدكم عدم

إن كان سركم ما قال حاسدنا " " فما لجرح إذا أرضاكم ألم

- فهل كانت هناك علاقة بين المتنبي والدولة الإخشيدية في مصر ؟

---

[٣٨٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٩

[٣٨١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٠

- بالطبع ، فعندما مات أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد تأثر الناس بموته ورثاه المتنبي فقال :

هُوَ الزَّمَانُ مَنَنْتَ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا

لَوْ كَانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مَنْعَتُهُ لَمْ يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا

ذَاقَ الحِمَامَ فَلَمْ تَدْفَعْ عَسَاكِرُهُ عَنْهُ القَضَاءَ وَلاَ أَغْنَاهُ مَا جَمَعَا

لَوْ يَعْلَمُ اللَّحْدُ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ وَمِنْ فَخَارٍ وَمِنْ نَعْمَاءَ لاَتَّسَعَا

يَا لَحْدُ طُلْ إِنَّ فِيكَ البَحْرَ مُحْتَبَسًا وَاللَّيْثَ مُهْتَصِرًا وَالْجُودَ مُجْتَمِعَا

يَا يَوْمَهُ لَمْ تَخُصَّ الفَجْعَ أُسْرَتَهُ كُلُّ الوَرَى بِرَدَى الإِخْشِيدِ قَدْ فُجِعَا

- فماذا تعرف عن كافور الإخشيدي ؟

أبو المسك كافور الإخشيدي

- في أواخر عصر الدولة الإخشيدية وعندما تولي أبو المسك كافور الأخشيدي حكم مصر ، وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة خافوا الناس من ذلك وهربوا إلي الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتي أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه وألقي قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوفٍ يرادُ بها

لكنها رقصت من عدلهِ طربا

- رقصت من عدله طربا ؟؟
- قصيدة دفع فيها أبو المسك كافور ألف دينار ذهباً ، وهذه الجائزة هي السبب الحقيقي الذي جعل المتنبي يشد رحاله إلي كافور ،
- بالطبع فإذا كان يدفع ألف دينار إلي شاعر مثل محمد بن عاصم فكم يدفع لشاعر في وزن المتنبي ؟
- وبالفعل حضر أبو الطيب المتنبي إلي مصر ومدح كافور في قصيدة شهيرة هذه مقتطفات منها

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى صَديقاً فأعْيَا أوْ عَدُواً مُداجِيَا

إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ فَلا تَستَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا

حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبلَ حُبّكَ من نأى وَقد كانَ غَدّاراً فكُنْ أنتَ وَافِيَا

خُلِقْتُ ألُوفاً لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

وَلَكِنّ بالفُسْطاطِ بَحْراً أزَرْتُهُ حَيَاتي وَنُصْحي وَالهَوَى وَالقَوَافِيَا

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيرِهِ وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلّ السّوَاقِيَا

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بلُطْفِهِ فإنْ لم تَبِدْ منهُمْ أبَادَ الأعَادِيَا

أبا المِسكِ ذا الوَجْهُ الذي كنتُ تائِقاً　　إلَيْهِ وَذا اليَوْمُ الذي كنتُ رَاجِيَا
أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه　　وَكلَّ سَحابٍ لا أخُصّ الغَوَادِيَا
إذا كَسَبَ النّاسُ المَعَاليَ بالنّدَى　　فإنّكَ تُعطي في نَداكَ المَعَالِيَا
وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ　　فَيَرْجِعَ مَلْكاً للعِرَاقَينِ وَالِيَا

- أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه
- ولكن لم يتحقق ما كان يتمناه المتنبي من كافور ، فهجاه بعد ذلك
- فهل كان كافور من الشخصيات البارزة في تاريخ مصر ؟
- سأتلو عليك ما كتبه الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن كافور في كتابه الممتع مصر من تاني حيث كتب ما يلي : (لقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة ، وكانت موائده العامرة مبذولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملاً رضع ، وثلاثمائة صحن حلوي ، وألف قفص من تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وكان يحضر علي سماطه الخاص والعام)[٣٨٢]
- يبدو أنه كان شخص غير عادي
- وقد اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور وأصبحت جاهزة تماماً للزحف الفاطمي من الغرب وقد كان المعز لدين الله الفاطمي ينتظر هذه اللحظة لينتزع مصر من الخلافة العباسية السنية ويضمها للمد الشيعي فكان يعد العدة لذلك ويقول عن ذلك د محمود الحويري (– بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر ، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلي برقة ، وأنشأ النزل علي رأس كل مرحلة من هذا الطريق ، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدي جهز جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلي قائده جوهر الصقلي ، وقد تجمع هذا الجيش في مدينة القيروان ، وهناك التفت المعز إلي المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر وليدخلنها بالأرديه من غير حرب ----- ويبني مدينة تسمي القاهرة تقهر الدنيا – –)[٣٨٣]
- ألم يجرؤ المعز علي دفع هذا الجيش إلي مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور ؟
- ذكرنا أنه عند ظهور شخصية بارزة علي مسرح الأحداث تتغير الأحداث ، ولكن يبدو أن اختفاءه أيضاً يغير الأحداث ، فلم يقرر أو كما قلت لم يجرؤ المعز لدين الله أن يرسل جيشه بقيادة جوهر الصقلي

---

[٣٨٢] من كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ٢٧

[٣٨٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٤٥

إلي مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور وهكذا نري أن وفاة شخص واحد قد تغير مجري الأحداث تماماً ، فكل ما حدث أن كافور مات فقط ، ولم يحدث أي شئ آخر في مصر وكانت وفاته سبباً في سقوط مصر في أيدي الفاطميين ، إنه أمر يقودنا بالتأكيد لتذكر طبيعة الشخصيات البارزة في التاريخ

- **ليس فقط يذكرنا بطبيعة الشخصيات البارزة ولكن أيضاً يذكرنا بطبيعة مصر كدولة يمثلها شخص واحد فتقوي بقوته وتضعف بضعفه وسبحان الله**
- **وهكذا وصلنا في حديثنا إلي الدولة الفاطمية**
- **لقد سمعت أن هناك عدة أنواع من الشيعة فهل تسمح لي أن أسأل عن هذه الأنواع ومن أي نوع كانت الدولة الفاطمية ؟**

الفصل التاسع الدولة الفاطمية في مصر

الشيعة الجعفرية والشيعة الإسماعيلية

- كلمة شيعة ببساطة تُطلق علي كل من تشيَّع لآل البيت النبوي الشريف رضي الله عنهم أجمعين ، والتشيع هنا ببساطة شديدة مقصود به أن الخلافة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم يجب أن تكون مقصورة في الإمام علي كرم الله وجهه ونسله فقط ،
- فهل يعتقدون أن جميع الخلفاء من خارج نسل الإمام علي لا تصح خلافتهم علي الإطلاق بما فيهم سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان والأمويين والعباسيين ، ؟
- نعم ويجب أن تكون الخلافة بالوراثة داخل البيت العلوي فقط ويطلقون علي الخليفة لقب الإمام ، وهناك عدة فرق من الشيعة منها من هو قريب من السنة ومنها من هو بعيد عنها ومنها من هو متطرف جداً ، أما أكثر عدد من الشيعة حالياً فهم الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم أكثر أهل إيران وثلث سكان العراق وتوجد جماعات منهم في سوريا ولبنان واليمن وغيرهم من البلاد ،
- علي هذا تعتبر الشيعة الجعفرية الإثني عشرية أشهر أنواع الشيعة حالياً
- بالتأكيد ، وإليك بعض ما جاء في كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي عن الشيعة الجعفرية في كتابه " بين الشيعة وأهل السنة " ، وبالمناسبة الدكتور علي عبد الواحد هو عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع وعميد كلية الآداب بجامعة أم درمان وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً ، وسوف يكون كلامي عن الشيعة بالكامل من كتاب الدكتور علي عبد الواحد عنهم ، فمثلاً يقول عن الشيعة الجعفرية (بأنها تقصر الخلافة علي الإمام علي بن أبي طالب وأحد عشر إماماً متتابعين من نسله ، وهم : الحسن فالحسين فعلي زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسي الكاظم فعلي الرضا فمحمد الجواد فعلي الهادي فمحمد الحسن العسكري فمحمد المهدي ، والنص علي الإمام الأول وهو الإمام علي قد جاء في اعتقادهم بوصية من الرسول عليه السلام ، وأما الأحد عشر إماماً من بعده فقد استحق كل منهم الخلافة بوصية من الإمام السابق له ، وكان كل منهم الإبن الأكبر للإمام السابق ، ما عدا الحسين فإنه كان أخاً للإمام السابق له ، وهو الحسن ، وما عدا موسي الكاظم فإنه كان الإبن الثاني للإمام السابق له وهو جعفر الصادق ، واستحق الخلافة لموت أخيه الأكبر اسماعيل قبل وفاة أبيه – وقد بلغ كل إمام من هؤلاء سن الرشد وكانت له رسالة في قومه وإنتقل إلي الرفيق الأعلي ، ما عدا الإمام الثاني عشر ، وهو الإمام محمد المهدي فإنهم يعتقدون أنه قد اختفي في مغارة في بلدة " سر من رأي " " سامراء من بلاد العراق " ولم

يكن قد بلغ حينئذ سن الرشد " كان ابن سنتين أو أربع سنين " وأنه حي في مغارته وسيظهر آخر الزمان باسم المهدي المنتظر فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً – –)٣٨٤

- ما فهمته من كلامك أن الشيعة الجعفرية يعتبرون أن هناك اثني عشر إماماً فقط أولهم هو سيدنا علي وآخرهم هو المهدي المنتظر الذي يعتقدون أنه حي في أحد المغارات وسيظهر آخر الزمان ،
- وبمناسبة الكلام عن أبناء الإمام جعفر الصادق " اسماعيل وموسي الكاظم " فإن طائفة الإسماعيلية تختلف عن طائفة الجعفرية الإثني عشرية في أنها تعتقد أن أولاد اسماعيل هم الأئمة الحقيقيين رغم موت اسماعيل في حياة أبيه حيث يقول د علي عبد الواحد عن هذا الموضوع (– – ولكن الفرقة الاسماعيلية تذهب إلي أن الخلافة قد انتقلت بعد جعفر الصادق إلي نسل ابنه الأكبر " اسماعيل " قياساً علي انتقال وظائف هارون إلي نسله بعد وفاته فقد مات هارون قبل أخيه موسي ولكن وظائفه الدينية لم تنتقل إلي أخيه بل انتقلت إلي نسل هارون – بينما تقف فرقة الجعفرية بالخلافة عند عدد معين من الإئمة " اثني عشر إماماً " ، تري الفرقة الإسماعيلية أن الإمامة لا تقف عند حد بل تتسلسل في نسل اسماعيل " ابن جعفر الصادق " إلي ما لا نهاية ، وكان الفاطميون أول من تولوا شئون الحكم وأول من دعوا لأنفسهم بالخلافة من هذه الفرقة ويطلق عليهم كذلك اسم " العبيديين " نسبة إلي جدهم الأول عبيد الله أول خلفائهم – –)٣٨٥
- حسناً ، لقد عرفت الآن أن الفاطميين من الشيعة الاسماعيلية وبالتالي فإن المعز لدين الله من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق كما يقولون ، ولكن ماذا عن باقي فرق الشيعة الأخري ؟
- من فرق الشيعة أيضاً فرقة " الزيدية " (وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين وقد وافق زيد أخاه الباقر في أن الخلافة مقصورة علي الإمام علي كرم الله وجهه ونسله من فاطمة ، ولكنه خالفه في الشروط التي يجب توافرها في الخليفة)٣٨٦ ومن هذه الشروط التي أقرها زيد بن علي أن يتم مبايعة الخليفة بالخلافة من عامة المسلمين وهذا المذهب هو أقرب ما يكون لمذهب أهل السنة٣٨٧ ، ومن مذاهب الشيعة أيضاً الدروز (– ويظهر أنها فرقة من الإسماعيلية ذهبت في عقائدها إلي تأليه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر – –)٣٨٨ ومن مذاهب الشيعة أيضاً " الكيسانية " نسبة إلي كيسان مولي محمد بن الحنفية وهي فرقة منقرضة تقريباً من الشيعة وفرقة " السبئية " وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يذهب إلي ألوهية علي وأنه حي لم يمت٣٨٩ ، وطبعاً هذه الفرق متطرفة جداً

---

[٣٨٤] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٦ ، ٧
[٣٨٥] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٤
[٣٨٦] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٢
[٣٨٧] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٣
[٣٨٨] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٦
[٣٨٩] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٩

ومعظمها قد انقرض ولم يتبقي بشكل عام غير الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم الأغلبية حالياً كما تتواجد فرقة من الإسماعيلية وبعض الدروز والزيدية والله أعلم

- فما هي أهم الاختلافات بين السنة والشيعة ؟

أهم الاختلافات بين أهل السنة والشيعة

- سأكتفي هنا بذكر أهم نقاط الخلاف دون الخوض في تفاصيل نقاط الخلاف الأخري ، فمثلاً أهل السنة يبايعون الخليفة الذي تنطبق عليه شروط الخلافة وقد يكون من البيت العلوي أو من غيره المهم أن يكون أهلاً للخلافة وهناك من يفضل أن يكون الخليفة من قريش عموماً أما الشيعة الجعفرية مثلاً فيعتقدون أنه لا تصح الخلافة لأي شخص من خارج نسل الإمام علي كرم الله وجهه ، ومن أبرز الاختلافات أيضاً أن أهل السنة يعتقدون أن الخليفة غير معصوم من الخطأ أما الشيعة فيعتبرون أن الخليفة "الإمام" معصوم من الخطأ ويتميز بصفات خاصة ، ويقول عن ذلك الدكتور علي عبد الواحد (– – أنهم ينزلون الأقوال والآراء الثابتة عن أئمتهم منزلة السنة المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويحكمون بالفسق علي المكذبين لهذه الآراء والأقوال ، بل يري البعض أن التكذيب بها يفقد الشخص الإيمان ولا يفقده الإسلام فيعامل معاملة المسلمين ولكن لا يكون كامل الإيمان ، وهذا مبني علي أنهم يعتقدون العصمة والإلهام في أئمتهم ، أما اعتقادهم العصمة في هؤلاء الأئمة فاعتقاد غير سليم ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام – –)[٣٩٠]
- إن الشيعة الذين يعتقدون أن الإمام يعرف الغيب وأن منزلته تفوق منزلة البشر العاديين وبالإضافة إلي ذلك يسبون كبار الصحابة مثل أبو بكر وعمر ويتهمون السيدة أم المؤمنين عائشة التي برأها المولي عز وجل من فوق سبع سماوات ، لا يعتبرهم بعض العلماء قد جاؤوا بمذهب مختلف في إطار دين الإسلام كالمذاهب الأربعة مثلاً ولكن يعتبرونهم قد جاؤوا بدين مختلف والله أعلم
- ، وهناك اختلافات أخري أيضاً بين السنة والشيعة الجعفرية (فمن ذلك مثلاً أنهم يجعلون سورتي الأنفال وبراءة سورة واحدة وكذلك سورتي الضحي وألم نشرح وسورتي الفيل وقريش ، فتكون سور القرآن عندهم مائة وإحدي عشرة سورة علي حين أنها مائة وأربع عشرة سورة عند أهل السنة وهذا مجرد خلاف في عدد السور لا في النص القرآني ، ومن ذلك أيضاً أنهم يذهبون إلي أن المتشابه من القرآن إنما يعد متشابهاً لغير أئمتهم ، أما بالنسبة لأئمتهم فإن الله قد أطلعهم علي تأويل المتشابه ، حتي الحروف المقطعة في أوائل السور فإنهم يعلمون تأويلها ، وأن للقرآن ظاهراً وباطناً ولا يعلم باطنه إلا أئمتهم وهم الأوصياء علي دين الله)[٣٩١] ، ومن معتقدات الشيعة الجعفرية أيضاً الرجعة وهي

---

[٣٩٠] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٤٨، ٤٩

[٣٩١] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٣٦

عبارة عن رجوع الإمام الثاني عشر الذي لم يمت من وجهة نظرهم حتي الآن ، ومن معتقداتهم أيضاً ما يسمي بالتقية وهي (أن يخفي الشخص ما يعتقده أو يصرح بغيره اتقاء للأذي أو للتمكين من الوصول إلي ما يريد من نصرة لدين الله أو للحق في ذاته)٣٩٢ ، وطبعاً هناك اختلافات أخري لا أريد أن أثقل عليك بها ، وغاية ما يمكن أن يقال عن الشيعة في هذا الحوار هو ما يعنينا من الشيعة الإسماعيلية وهي الفرقة التي دخلت مصر وسيطرت عليها وكانت تسمي بالدولة الفاطمية وقد عرفنا ببساطة واختصار أهم ملامح هذه الفرقة واختلافها عن الشيعة المنتشرين بكثرة في هذه الأيام ويكفي أن تعرف أن الخليفة الفاطمي الذي يحكم مصر كان يعتقد هو وأعوانه أنه معصوم وملهم وإمام وصي علي الدين وأقواله وأفعاله لابد من التعامل معها كشخص غير عادي

- إن هذا أخطر ما في الموضوع أن يتواجد شخص ما يدعي أنه ملهم ومعصوم ولا يخطئ أبداً ويفرض علي الجميع طاعته وتقديسه ، فهذا يخالف ما أجمع عليه كافة أهل السنة من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، مهما كان منصب أو وضع هذا المخلوق ، كما أن المولي عز وجل قد أتم دينه وأكمل نعمته سبحانه وتعالي فلا يحق لأحد أن يضيف أي شئ بحجة أنه معصوم أو ملهم السماء
- أنت محق بالطبع فكل المسموح به حالياً هو الاجتهاد فقط من علماء الأمة والبحث عن أدلة شرعية من الكتاب والسنة وليس من اختراعهم كما أنه ليس إصدار الأوامر التي تصبح مقدسة لمجرد أنهم قالوها
- ولكن بعد انتهاء عصر الأئمة الاثني عشر لمن يسمع الشيعة حالياً ويطيعون ؟
- لقد أصبح لديهم ما يسمونه المرجع الشيعي الأعلي وهو البديل الحالي للإمام ، الذي يجب عليهم طاعته حتي أنهم يعتقدون أن أحدهم بين يديه يعتبر نفسه كالميت بين يدي مُغسله ، أي في حالة استسلام تام ، أما أهل السنة فيعتقدون أن كل شخص يؤخذ من كلامه ويُرد عليه إلا رسول الله فقط صلي الله عليه وسلم ولا لأحد عصمة غيره صلي الله عليه وسلم
- لقد كان أبو بكر الخليفة الأول رضي الله عنه يقول أطيعوني ما أطعت الله ورسوله وكل خليفة من بعده كان لابد أن يلتزم بما التزم به أبو بكر رضي الله عنه
- بالتأكيد فإنه من الثابت في العديد من الكتب والمراجع أنه لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال" :أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم."

---

[٣٩٢] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٦١

- هل من الممكن تلخيص العصر الفاطمي قبل أن نسترسل في الحديث عنه ؟ فالملخص العام في حد ذاته يعبر عن الكثير من المعاني ويكون مدخلاً للخوض في التفاصيل فيجعل من السهل استيعابها

ملخص العصر الفاطمي بالكامل

- تولي الفاطميون حكم مصر من سنة ٩٦٩ م إلي سنة ١١٧١ م[٣٩٣] أي حوالي ٢٠٢ سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة وسيطروا لفترة كبيرة علي معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن ، وتولي القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدها لاستقبال المعز لدين الله ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتي حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م وتوفي المعز سنة ٩٧٥ م وخلفه ابنه العزيز لدين الله " نزار " أبو منصور إلي أن توفي سنة ٩٩٦ م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلي أن قُتِل سنة ١٠٢٠ م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلي بالله ثم الآمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيراً العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلي المذهب السني وإلي ظل الخلافة العباسية مرة أخري ، ويمكن تلخيص العصر الفاطمي إلي عصرين أساسيين ، العصر الفاطمي الأول الذي سيطر فيه خلفاء أقوياء علي الحكم ثم العصر الفاطمي الثاني " عصر الاضمحلال " الذي زاد فيه نفوذ الوزراء وسيطروا علي مقاليد السلطة وكان خلفاء هذا العصر خلفاء ضعفاء ومعظمهم من الأطفال صغيري السن وقد حدث هذا التحول من العصر الأول إلي العصر الثاني في عهد الخليفة المستنصر بالله والوزير بدر الجمالي[٣٩٤]
- فماذا عن القاهرة عاصمة الفاطميين ، فقد سمعت أنها كانت في قمة الروعة في عهدها الأول ؟
- بالفعل ، فقد لبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر عاصمة المُلك والخلافة ، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغاً عظيماً بل إنه لم يمض نصف قرن فقط علي قيام القاهرة المعزية حتي كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام وكانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت منذ أوائل القرن الخامس الهجري منتهي الضخامة والبذخ وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي يقع في وسط المدينة في منطقة خالية وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله وخصص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك ، وبين الصرحين ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير وهو الذي

---

[٣٩٣] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٦ ، ٨٧

[٣٩٤] ينسب إلي هذا الوزير اسم حي الجمالية حالياً بالقاهرة الفاطمية

كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة أو الحرس الخليفي أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمي ، يحتل مكانه الخالد ، الذي يقوم فيه حتي اليوم ، وسط المدينة فيما بين الشرق والغرب ، وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار القاهرة سنة ٤٣٨هـ -١٠٤٦م- القصر الفاطمي الكبير بقوله : إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظراً لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثني عشر ألف نفس ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات ، وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة وله عشرة أبواب تفضي إلي الحرم ثم يقول ناصري خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب وهي ليست محصورة في رقعة محصنة ولكن المباني والمنازل مرتفعة جداً حتي أنها تبدو أعلي من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات ، وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهي العناية والترف حتي ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر أو الأحجار العادية والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلي المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد ، وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مُعِزّية في الشهر والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة وهذه أيضاً كلها من أملاك الخليفة إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلاً أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه

- فماذا عن سيف المعز وذهبه وما أصل هذه المقولة ؟

سيف المعز وذهبه

- أثار موضوع نسب بني عبيد إلي البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتي أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (- - وضع المعز يده علي مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلي النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخري بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي "[٣٩٥] فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة - - - ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فراراً من الجواب لأنه مدخول في نسبه - -)[٣٩٦] والطريف أيضاً في هذا الموضوع أن الخليفة الفاطمي أرسل كتاباً إلي صاحب الأندلس الأموي يسبه فيه ويهجوه فرد عليه يقول (- أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك - -)[٣٩٧]

---

[٣٩٥] المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

[٣٩٦] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١

[٣٩٧] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١

- أعتقد أن هذا الرد بالتأكيد أسوأ من السب والهجاء لأنه يعني أن الخليفة الفاطمي لا يعرف أصله أحد حتي يرد عليه وطبعاً صاحب الأندلس أموي قريشي ويعرف أصول قبيلة قريش جيداً بجميع فروعها العباسية والعلوية والأموية وغيرها من البطون ،
- وكذلك أكد العباسيون في بغداد أن بني عبيد لا ينتمون بأي صلة من الصلات إلي آل البيت وأن لقب الفاطميون لا يصح إطلاقه عليهم بل إن هناك وثيقة تم كتابتها في بغداد أثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وتؤكد هذه الوثيقة عدم انتماء الحاكم وأجداده إلي البيت العلوي والطريف أن من بين الذين وقعوا علي هذه الوثيقة أشخاص علويون بالفعل ، ولكن دعنا من أصل المعز ونسبه وحسبه ولنتحدث عن سيفه المعز وذهبه كما يقال ، لأنه علي أي حال أحد الشخصيات البارزة التي ظهرت في تاريخ مصر وفرضت نفسها علي كتب التاريخ ليس المصري فقط ولكن تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام فعندما أكد المعز علي أن القوة والمال هما السبيل إلي السلطة وهما الحسب والنسب " سيف المعز وذهبه " تعامل المصريون مع حكامهم الجدد علي أساس السخرية مع عدم المواجهة وخصوصاً أن الأئمة الفاطميين ادعوا أن نسبهم يعود إلي السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وبالطبع لم يصدق المصريون ذلك
- وهل صدّق المصريون أن هؤلاء الأئمة معصومون بالفعل ؟
- لم يصدقوا بالطبع أن هؤلاء الأئمة معصومين ولديهم إمكانيات خاصة ويعلمون الغيب وسأذكر هنا موقفين يوضحان أسلوب تعامل المصريون مع الخلفاء الشيعة فمثلاً صعد أحد خلفاء الشيعة مرة علي المنبر فوجد بطاقة " ورقة " مكتوب فيها أبيات من الشعر :

إنا سمعنا نسباً منكراً – – – يُتلي علي المنبر في الجامعِ

إن كنت فيما تدعي صادقاً – – فاذكر أباً بعد الأب الرابعِ

أو فدع الأنساب مستورةً – – وادخل بنا في النسب الواسعِ

- هذا يدل علي أن المصريين لم يتمكنوا من مواجهة الفاطميين ولكنهم كانوا يسخرون منهم ومن عقيدتهم ويتركون هذه الأوراق التي تحمل آراء ساخرة ،
- وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يتسمون بالتسامح الديني مع باقي المذاهب بل وباقي الأديان إلا أن المصريين (– – لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضفي نوعاً من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد ، وكان المصريون يسخرون كثيراً من هذا الجانب في المذهب الشيعي فعلي سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات جمعة فوجد ورقة–بطاقة– كُتِب فيها[٣٩٨]

بالظلم والجور قد رضينا – – – وليس بالكفر والحماقة

[٣٩٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧٣ ، ١٧٤

إن كنت أُعطيت علم غيب – – فقل لنا من كاتب البطاقة

- فهل أمر المعز ببناء مدينة القاهرة ليستقر فيها في مأمن عن الشعب المصري لحين استقرار أمور دولته في مصر ؟
- لقد تم بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة الفاطميين ونقل المعز كل كنوزه وكنوز أجداده إليها بل واتخذها عاصمة لمُلكه (– وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكناً للخليفة وأتباعه ومقراً لدواوين الحكم وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ وفي يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة ٣٥٩ هـ " ٥ مايو سنة ٩٧٠ م" اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات ومنها حارة زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة وهكذا)[٣٩٩] وقد تم بناء قصراً آخر في القاهرة وسميت المنطقة المحصورة بين القصر الأول والثاني " بين القصرين "
- نعم فهو الإسم الشائع إلي الآن رغم عدم وجود القصرين حالياً ،
- وكان للقاهرة سور عظيم له أبواب موجود بعضها إلي الآن مثل باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر كما يوجد جزء من سور القاهرة بجوار مسجد الحاكم بأمر الله
- فما هي مظاهر الحياة العامة في العصر الفاطمي ؟
- لم يترك الفاطميون عيداً إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به ، وكانوا يبالغون كثيراً في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (– برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي الكريم وليلة أول رجب وليلة المعراج فيه وليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحي ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد – عدا يوم عاشوراء – في فيض من البهاء والبذخ – – أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق – – واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد – – كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة –)[٤٠٠]
- يبدو أنه كان عصراً مختلفاً تماماً بين العصور الإسلامية الأخري

---

[٣٩٩] تاريخ مصر الإسلامية ج ١ (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٤

[٤٠٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧١

- وصف الكاتب الساخر محمود السعدني العصر الفاطمي بصفات كثيرة سأتلو عليك بعض المقتطفات منها : (– – ولكن وأياً كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئاً والعصر الفاطمي شيئاً آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية الإسلامية إلي عصر فرعون الذي ولي ، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شئ وشعب لا يملك إلا صلاة النبي – – وسيصبح لمصر من الآن ولمدة أقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان دولة بكل ما في كلمة دولة من معني ، جيش مقاتل كل أفراده أجانب ومرتزقة ، وزارة يتولي أمرها القائد جوهر الصقلي وجهاز إعلام هو أخطر جهاز إعلامي أنشأه العرب في العصر الوسيط – – – وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ علي أمن الدولة والعمل علي استمرارها وجمع المعلومات أيضاً وشراء ذمم الناس – –)[٤٠١]
- فهل لديك المزيد من الوصف لمظاهر الترف والبذخ في العصر الفاطمي ؟
- (– أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور ، ويتجلي بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله – – ومما يدل علي مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس – – في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة ، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة ، وأخذا يسيران من قاعة إلي أخري حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي ، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلئ ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع ، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالساً علي مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها –)[٤٠٢] ، وكان الصليبيون قد سيطروا علي بيت المقدس وأصبحت لهم مملكة صليبية فيه خلال العصر الفاطمي حيث كان بيت المقدس تحت سيطرة الفاطميين في ذلك الوقت
- أرجو أن تحدثني أيضاً عن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المثير للجدل

---

[٤٠١] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٣٢

[٤٠٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧٠

الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :

- يعتبر المعز لدين لله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله هم أشهر ثلاثة خلفاء في الدولة الفاطمية بالكامل علي الأقل بالنسبة لأي شخص عادي حالياً فالمعز مثلاً هو أول من ضم مصر لحكم الفاطميين وتم تأسيس مدينة القاهرة في عهده بل إن البعض يحلو له أن يقول (قاهرة المعز) ، أما الحاكم بأمر الله فقد كان من الشخصيات التي أثير حولها الكثير من الجدل والشائعات حتي أن البعض يقول أنه منع الناس من أكل الملوخية وبالرغم من أن هذه الأقاويل قد تكون مبالغ فيها جداً إلا أنها تدل علي أن شخصية الحاكم بأمر الله بلا شك كانت غريبة الأطوار ونهايته أيضاً كانت غامضة ، ومما كتبه السعدني عن الحاكم بأمر الله ما يلي (– – وهو واحد من أغرب شخصيات مصر علي الإطلاق ، فهذا الصبي الذي تولي السلطة وهو في الحادية عشرة والذي كان والده شيخ المذهب الفاطمي وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر ، جن جنونه فجأه وهو يقبع وحيداً في مغارة علي قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتاً يناديه ويدعوه إلي التوفيق بين دين النصاري ودين المسلمين واستخراج دين جديد – –)[٤٠٣] وقد حدث قلق شديد في الأسرة الفاطمية بسبب أفعال وأقوال الحاكم بأمر الله فقرروا التخلص منه (– – وكان أكثر أفراد الأسرة قلقاً " ست الملك " عمته وقال بعض المؤرخين أنها ليست ست الملك ولكنها ست النصر أخته وأن ست الملك ماتت في عهد ولاية المعز وأياً كانت السيدة التي تآمرت ضد الحاكم بأمر الله وهل هي ست الملك أو ست النصر فهي علي كل حال ست والسلام –)[٤٠٤] (وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ويضع بردته علي كتفيه وبينما كان صاعداً إلي جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه ولم يعرف بقتله حتي عاد حماره الأشهب ذات صباح إلي القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم)[٤٠٥]
- القصة تذكرنا إلي حد ما بالمؤامرة التي تمت ضد اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية عندما حاول عمل انقلاب ديني مع الفارق في التفاصيل
- نعم فقد ذكرنا أن النظام الحاكم هو أول من يتخلص من الحاكم الذي يشكل خطر علي استقرار النظام
- فهل لديك معلومات عن ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي ؟

الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية

- في عهد هذا الخليفة حدث ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي (– – وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه

[٤٠٣] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٣٤

[٤٠٤] مصر من تاني (محمود السعدني)

[٤٠٥] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٣٤

الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر – –)٤٠٦ ، وقال المقريزي (– – ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل٤٠٧ – – وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة –هجرية – ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السُبُل براً وبحراً – – وأُكِلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس – – ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعاً – – واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه – –)٤٠٨

- فهل حدثت شدة أخري في العصر الفاطمي ؟
- يذكر المقريزي أيضاً غلاء وقع في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك٤٠٩ (– – وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء الوزير بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها– فلما ولي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ " ١٠٧٣ م " قضي علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً ––)٤١٠ (– وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر –الجمالي – إلي آخر الدولة – الفاطمية – هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، –)٤١١ ، ويقول ابن الأثير (– كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك –)٤١٢ ، (– وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولي آسيا الصغري ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالاً ونساءاً ورجالاً وشيوخاً مما ترك أثراً سيئاً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم

---

[٤٠٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

[٤٠٧] قصور النيل معناه قلة الماء فيه

[٤٠٨] إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقريزي) صفحة ٥٢ ، ٥٣

[٤٠٩] صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

[٤١٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

[٤١١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلاً عن المقريزي)

[٤١٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلاً عن ابن الأثير)

تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبري في الرها وانطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخري ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية –)٤١٣ ،

- ولكن كيف تفوق الصليبيون بهذا الشكل ؟
- سأوضح لك سبب نجاح الحملات الصليبية من وجهة نظر الدكتور محمود الحويري حيث قال : يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام (– – لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية ، وإنما يرجع أساساً إلي انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعثر قواهم وافتقارهم إلي الوحدة والتماسك ، فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة ٤٨٥ هـ " ١٠٩٢ م" من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين ، في الوقت الذي انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين – – وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام ، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين ، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس –)١ ، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد من الوزن الثقيل حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي (– الذي وضع نصب عينيه أن التغلب علي الصليبيين وطردهم من بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي –)
- وماذا حدث بعد ذلك ؟
- استمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار٤١٤ من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي
- فكيف انتهي حكم الفاطميين في مصر ؟

العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر

- في عهد الخليفة العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي فقد حدث في عهده أكبر النزاعات علي منصب الوزراة في مصر ودار الصراع بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " وقد لجأ كل منهما إلي قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع ، أما شاور فقد لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشاً إلي مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل (ثلث إيرادات

---

[٤١٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٠

[٤١٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٨٥

مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة –)٤١٥ ، وكان نور الدين محمود علي المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطميين جميعاً علي المذهب الشيعي فقد كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب ،

- **هذا عن شاور فإلي من لجأ ضرغام ؟**
- **أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي اسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلاً إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضاً الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها**
- **وطبعاً هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ،**
- **وبالمناسبة كان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وقرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ، (– وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر –)٤١٦ وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيراً في مصر في الدولة الفاطمية ، ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطاءه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو وجيشه، فرفض أسد الدين شيركوه وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر**
- **فماذا فعل شاور ؟**
- **ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة ، أرسل شاور إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر**
- **ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصراً من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية**
- **وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي ، وكان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم**

---

[٤١٥] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٤

[٤١٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة ، وحاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس ،

- وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد علي مستوي عالي من الحنكة ، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخري للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة ،
- نعم ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن (– – ينسحبا معاً وفي وقت واحد من مصر –)٤١٧ وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضاً عموري وجيشه مصر وكان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعاً تماماً أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشاً صغيراً قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما ، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوي من الجيش السابق خوفاً من عودة الصليبيين إلي مصر ، وللمرة الثانية أيضاً أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ،
- كما حدث في المرة السابقة
- ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية علي أسوار القاهرة لللدفاع عن مركزه ، وحضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلي مصر بجيشه للمرة الثالثة
- ومن دعاه للحضور هذه المرة ؟
- لقد حضر هذه المرة بدون دعوة من شاور ، ولكن لاحتلال مصر ، مما أدي إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر ، (– وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يوماً وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف –)٤١٨ وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس

---

[٤١٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

[٤١٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء علي مقاليد الحكم ، ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام (– بعد أن يئس من الاستيلاء علي مصر يأساً تاماً –)[٤١٩]

- وماذا فعل شاور ؟
- حاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريباً ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءاً علي طلب الخليفة الفاطمي ، فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيانته ، وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالي للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري ، وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد لدين الله) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات
- وكان هذا تمهيداً لقيام الدولة الأيوبية في مصر؟
- نعم والتي واجهت الصليبيين بعد ذلك وحررت بيت المقدس ، ولكن قبل أن نترك الفاطميين ونتحدث عن الإيوبيين ، دعنا نلقي نظرة أخيرة علي العصر الفاطمي
- كم أود أن أعرف انطباعاتك عن ذلك العصر

الدولة الفاطمية لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية

- عندما يتحدث أي شخص عن الخلافة الإسلامية فلا شك أن الخلافة الفاطمية لا تصلح كنموذج لذلك حيث أنهم خارجين علي الخليفة العباسي السني في بغداد كما أنهم شيعة اسماعيلية وأيضاً مشكوك في نسبهم إلي آل البيت وبالتالي فإن أي مسلم سُنّي عندما يتكلم عن الخلفاء في الإسلام يجب أن لا يقع في هذا الخطأ ويتكلم عن الفاطميين علي أساس أنهم من الخلفاء السنة بل يجب أن يوضح للجميع أنهم بعاداتهم وأفعالهم قد أساءوا للإسلام وللمسلمين ولم يتركوا في مصر سوي العادات التي

---

[٤١٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

نعاني منها حتي الآن ولا أجد لهم شيئاً جيداً تركوه لنا سوي المباني الأثرية الإسلامية العديدة والرائعة ، وأسوأ ما في العصر الفاطمي هو أنهم لم يستطيعوا المحافظة علي المقدسات الإسلامية وضاعت القدس من المسلمين لأول مرة منذ دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اقتحم الصليبيون المدينة بحملة شرسة لم تتمكن الدولة الفاطمية من صدها نتيجة لحالة الضعف والتفكك التي وصلت إليها الأمة في ذلك الوقت وليس نتيجة لتفوق الصليبيين علي المسلمين ، (- - فعلي امتداد ستة عقود " ٢٩٨-٣٦١ هـ " حكموها في المغرب ولأكثر من قرنين حكموها في مصر - فقد نشروا من الخرافات والبدع ما لا أصل له لا في كتاب ولا في سنة ولجئوا - هم وعاداتهم - إلي ضروب من الحيل والدجل لإقناع الناس بهم وبدعواهم وهي ضروب لا يمكن أن تصدر عن ناس ينتسبون إلي أهل البيت - -)٤٢٠ ، (- - وقد كانت لهم جرأة كبيرة علي التنكيل بمخالفيهم بأفظع الوسائل كما أنهم كانوا من أجرأ الناس - وبأقبح الأساليب - علي سب صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم - -)٤٢١ ، (- - وكيف يطمئن المسلمون إلي حكام يزعمون أنهم خلفاء مسلمون وأنهم من نسل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومع ذلك يحتضنون كما فعل المعز لدين الله - شاعراً زنديقاً هو " محمد بن هانئ الأندلسي " الذي يقول لخليفتهم متحدياً مشاعر المسلمين وضارباً بها عرض الحائط٤٢٢ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار - - - فاحكم فأنت الواحد القهار

(- - ومن الغريب في أمر الفاطميين : إيثارهم لليهود والنصاري في أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة بحيث ارتبط هذا المنصب الخطير بهم -)٤٢٣

- ولكن كيف كانت أحوال العباسيين في بغداد أثناء حكم الفاطميين في القاهرة

العباسيون أثناء الحكم الفاطمي لمصر

- كانت الدولة الفاطمية تسيطر علي معظم أنحاء العالم الإسلامي أو قل أهم بقاع العالم الإسلامي مثل شمال أفريقيا بالكامل والشام والحجاز واليمن وكان في هذه الفترة الفاطمية يوجد خلفاء لبني العباس في بغداد ، وكما ذكرنا من قبل فإن الأئمة الفاطميين يعتبرهم أهل السنة خارجين علي الخلافة العباسية في بغداد ، وكان عدد خلفاء بني العباس في بغداد خلال فترة الدولة الفاطمية (١١) خليفة عاصروا (١١) خليفة فاطمي شيعي في مصر فمثلاً نجد أن المعز لدين الله الفاطمي ضم مصر لحكمه في عهد الخليفة العباسي المطيع لله حيث ذكر الإمام السيوطي في الصفحات التي تتناول فترة خلافة أمير

---

[٤٢٠] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ١١
[٤٢١] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٥
[٤٢٢] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٦
[٤٢٣] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٧

المؤمنين المطيع لله العباسي ما يلي (– – فجاء العبيديون[٤٢٤] فأخذوها[٤٢٥] وقامت دولة الرفض في الأقاليم : المغرب ومصر والعراق وذلك أن كافوراً الإخشيدي صاحب مصر لما مات اختل النظام وقلت الأموال علي الجند فكتب جماعة إلي المعز يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه مصر فأرسل مولاه جوهراً في مائة ألف فارس فملكها – –)[٤٢٦] ثم جاء بعد الخليفة المطيع لله ابنه الخليفة الطائع لله وفي عهده مات المعز لدين الله الفاطمي وتولي الخلافة الفاطمية في مصر العزيز بالله ، ثم بويع الخليفة العباسي القادر بالله بعد الطائع لله ويقول عنه السيوطي ما يلي : (– – وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات وحسن الطريقة علي صفة اشتهرت عنه وعرف بها كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد – – وقد صنف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة – –)[٤٢٧] وفي عهده مات العزيز بالله الفاطمي وقام بالأمر بعده الحاكم بأمر الله وكان الحاكم بأمر الله الشيعي في القاهرة علي عكس القادر بالله السني في بغداد فيما يتعلق بموقف كل منهما من الصحابة فنجد القادر بالله يؤلف كتاباً في فضائل الصحابة كما ذكرنا بينما (– قتل الحاكم جماعة من الأعيان صبراً وأمر بكتب سب الصحابة علي أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب – –)[٤٢٨] ، وتولي الخلافة العباسية بعد القادر بالله ابنه القائم بأمر الله ويقول عنه السيوطي أنه كان (– – ورعاً ديناً زاهداً عالماً قوي اليقين بالله تعالي كثير الصدقة والصبر ، له عناية بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج ، لا يري المنع من شئ طلب منه – –)[٤٢٩]

- **ولكن للأسف كان خلفاء بني العباس في ذلك الوقت علي الرغم من صفاتهم الحميدة كانوا مغلوبين علي أمرهم وكانت السلطة الفعلية في يد الأمراء والقادة**
- **وفي عهد الخليفة العباسي القائم كان المستنصر بالله الفاطمي هو الذي يحكم الدولة الفاطمية وظل فترة طويلة جداً في الحكم[٤٣٠] وحدث أن ضعف حال الخلافة العباسية في بغداد نفسها ووصل الأمر إلي قتال الخليفة العباسي لمدة حوالي شهر (– – ودعي لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان "حي علي خير العمل" ثم خطب له في كل الجوامع إلا جامع الخليفة ودام القتال شهراً – –)[٤٣١]**

---

[٤٢٤] العبيديون مقصود بهم الفاطميون

[٤٢٥] الضمير عائد علي مصر أي أخذوا مصر

[٤٢٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣١٧

[٤٢٧] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٤

[٤٢٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٥

[٤٢٩] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٨

[٤٣٠] أقام المستنصر في الخلافة الفاطمية لمدة ستين سنة وأربعة أشهر كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء صفحة ٣٢٩

[٤٣١] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٨

- بغداد نفسها سيطر عليها الشيعة وتم تحويل الأذان فيها في الجوامع من الأذان السني إلي الأذان الشيعي ؟
- نعم ، وشعر الخليفة العباسي أمير المؤمنين القائم بأمر الله بالهوان الشديد ولجأ إلي المولي عز وجل حتي أنه كتب كتاباً وأرسله ليعلق في الكعبة ومما جاء فيه (– إلي الله العظيم من المسكين عبده ، اللهم إنك العالم بالسرائر ، المطلع علي الضمائر ، اللهم إنك غني بعلمك ، وإطلاعك علي خلقك ، عن إعلامي ، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها ، وألغي العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك حتي تعدي علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواً ، اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، المنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتز بك وقد حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلي حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين – –)[٤٣٢]
- ومن قام بفعل كل هذا في بغداد ؟
- كان المقصود في دعاء الخليفة هو أحد القادة الشيعة الموالين للمستنصر بالله الفاطمي في مصر وكان اسمه " البساسيري " وكان البساسيري قد هزم الخليفة العباسي وقبض عليه وسجنه ، ثم حدث أن جاء أحد القادة السلاجقة السنة واسمه (طغرلبك) وهزم البساسيري وأفرج عن الخليفة (– ولما رجع الخليفة إلي داره لم ينم بعدها إلا علي فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام وعفا عن كل من آذاه – –)[٤٣٣]
- فمن جاء بعده في الخلافة العباسية ؟
- ثم جاء الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الذي في عهده عادت الأمور شيئاً فشيئاً إلي طبيعتها وأصبحت الخلافة العباسية وافرة الحرمة علي حد تعبير الإمام السيوطي ففي عهده (– – خطب للمقتدي بدمشق وأبطل الأذان "بحي علي خير العمل" وفرح الناس بذلك –)[٤٣٤] ويقول عنه السيوطي أنه كان قوي النفس عالي الهمة من نجباء بني العباس وقد عاصر أيضاً المستنصر بالله في مصر ، ثم جاء بعد المقتدي بالله في الخلافة ابنه المستظهر بالله وكان لين الجانب كريم الأخلاق ومحباً للعلماء والصلحاء (– ولم تصف له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب – –)[٤٣٥] وفي عهده مات المستنصر بالله وقام بعده المستعلي بالله وفي عهده حدثت أولي الحملات الصليبية واستطاع الصليبيون الاستيلاء علي بيت المقدس ويقول السيوطي عن ذلك (– فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام ، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية وعظم الخطب –

---

[٤٣٢] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٩

[٤٣٣] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٩

[٤٣٤] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٢

[٤٣٥] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٤

– وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً منهم جماعة من العلماء والعباد والذهاد وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم)[٤٣٦]

- كان من الطبيعي أن ينهش الصليبيون جسد الأمة الممزقة التي انقسمت إلي عدة فرق متحاربة وفقدت روح القتال والجهاد وسيطر فيها الشيعة علي معظم البقاع بما فيها الشام وبيت المقدس فلم يتمكنوا من الدفاع عنها وفقدت الأمة الإسلامية لأول مرة بيت المقدس منذ أن دخلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يسبه ويشتمه الشيعة علي المنابر في القاهرة الفاطمية ، ولكن كيف بدأت فكرة الحملات الصليبية ؟

كيف بدأت الحملات الصليبية ؟

- أصل الغزو الصليبي للأمة الإسلامية يعود إلي شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني[٤٣٧] وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (– وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)[٤٣٨] ، وهكذا أصبح هناك عدو آخر للأمة بالإضافة إلي الروم أعداءها التقليديين
- وكيف انتهت الدولة الفاطمية تماماً وقامت الأيوبية ؟

[٤٣٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٥

[٤٣٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

[٤٣٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

الفصل العاشر الدولة الأيوبية في مصر

صلاح الدين يسيطر علي مصر

- لقد ظهر علي مسرح الأحداث قائد من أبرز الشخصيات في تاريخ مصر والعالم الإسلامي وهو صلاح الدين الأيوبي فهنا يتوقف التاريخ ليكتب ويسجل ويشير بجميع أصابعه إذا كانت له أصابع إلي شخصية بارزة طال انتظار ظهورها لتصل إلي قمة الأحداث ، إنه صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني الذي يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، والذي الوقت نفسه أصبح وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) ، ولقد واجه صلاح الدين العديد من التحديات والمشاكل في الداخل والخارج قبل أن يستطيع تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والعالم الإسلامي ، ولا أريد أن أطيل عليك بذكر تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وبين أعداءه في الداخل والخارج ولكن يمكن تلخيص الموضوع ببساطة شديدة في عدة نقاط محددة ، ولكي نعرف الأعداء لابد أن نعرف هدف صلاح الدين أولاً لأن الأعداء بطبيعة الحال هم كل من يريد فشل صلاح الدين في تحقيق هذا الهدف ،
- فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود ؟
- كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين[٤٣٩] كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية والله أعلم لأنه نظر إليها النظرة التي نتحدث عنها من بداية الحوار والتي هي جديرة بها ، وقدر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها والله أعلم ، ، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنباً إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل اسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله
- فماذا كان موقف نور الدين محمود رحمه الله ؟
- أصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور

---

[٤٣٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٣

الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولاً في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهراً ،

- إذن فقد قام صلاح الدين بتنفيذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله علي المنابر
- نعم ، ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي[٤٤٠] وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساساً علي ما يبدو ، وكان الخليفة العاضد مريضاً مرضاً شديداً حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ، ويموت أيضاً نور الدين محمود[٤٤١] ويخلفه ابنه الذي لا يتعدي عمره (١١) سنة[٤٤٢] وأصبح هذا الطفل مطمعاً للقادة والأمراء الذين حوله (– ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين –)[٤٤٣] وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين
- لقد كثر إذن أعداء صلاح الدين

أعداء صلاح الدين

- من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدراً في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (– فظهر في ذي الحجة ٥٦٩هـ " يوليو ١١٧٤م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام –

---

[٤٤٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٢

[٤٤١] وسبحان الحي الذي لا يموت

[٤٤٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٥

[٤٤٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٥

)٤٤٤ ، كما حاول أيضاً الفاطميون بالاتحاد مع السودانيين إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخري

- فمن كان الخليفة العباسي أثناء ذلك ؟
- كان الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستضئ بأمر الله الذي في عهده تم عودة مصر إلي الخلافة العباسية فعندما تولي الخلافة (– قال ابن الجوزي : فنادي برفع المكوس ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا وفرق مالاً عظيماً علي الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط ، وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، ذا حلم وأناة ورأفة –)٤٤٥ ، (– وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد ، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فعلقت الأسواق ببغداد وعملت القباب – – وقال الذهبي : في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهي وأمن الناس ورزق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلي أسوان ودانت الملوك بطاعته – – وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر كل طاعة وسمع وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولي منها بمصر لبني العباس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء –)٤٤٦
- وبهذا عادت مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية رسمياً ؟
- نعم ، وقرر صلاح الدين بناء سور حول القاهرة وباقي العواصم الإسلامية الأخري السابقة لها كالفسطاط والقطائع وقد أصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبري لها سور كبير ليس مقتصر علي القاهرة الفاطمية كما شرع في بناء قلعته الشهيرة الموجودة إلي الآن ومعروفة باسمه ولكنه مات قبل أن يتم بناءها بالكامل
- وكيف قام صلاح الدين بتوحيد الأمة تحت قيادته ؟
- استطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذاً بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدراً[٤٤٧] وبعد أن استقرت له مصر تماماً قرر أن يخوض حرباً ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحياناً ولا يجد مقاومة تذكر أحياناً أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين

---

[٤٤٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٦

[٤٤٥] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٤٨

[٤٤٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٤٩

[٤٤٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٦

وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفي بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولاً ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وطبعاً كان قراقوش رجلاً مهاباً يضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم فالدين الإسلامي هو الدين الذي لا ينكر الأديان السماوية الأخري والذي في ظله يمكن أن تنعم باقي الأديان بمقدساتها وخصوصيتها

- **حسناً ، قبل أن نسترسل في الحديث عن الدولة الأيوبية هل يمكن تلخيص العصر الأيوبي كما تعودنا ؟**

ملخص العصر الأيوبي

- **أول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة ١١٩٢ م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة ١١٩٨ م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدي إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تماماً وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة ١٢٠٠ م إلي سنة ١٢١٨ م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة ١٩ سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة ١٢٣٨ م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين[٤٤٨] وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة ١٢٤٠ م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة ١٢٤٩ م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يوماً وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد المماليك[٤٤٩] وأشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح ، وكان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري**

---

[٤٤٨] جدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذه مقراً له

[٤٤٩] تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة ٨٩ ، صفحة ٩٠

- كأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصاً لهذا الغرض
- نعم وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء علي الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول -)٤٥٠ ، وكان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلي الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (- ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلي مسالمة الصليبيين وإلي اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك - - ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهي بها إلي تحول الاتجاه عن الشام إلي مصر -)٤٥١
- هل يمكن تلخيص جميع الحملات الصليبية من البداية ؟
- من الممكن بالطبع وقد ذكرنا أنه قد بدأت فكرة الغزو الصليبي للأمة الإسلامية في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني٤٥٢ وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (- وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)٤٥٣ ، وهذه كانت الحملة الصليبية الأولي
- فمتي جاءت الحملة التالية ؟
- جاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين ، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس علي يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلي بلاده ، وبعد هذه

---

[٤٥٠] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٧٨

[٤٥١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٧٨

[٤٥٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

[٤٥٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلي القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخري اسمها حملة الأطفال قام بها (– صبي من الرعاة وادعي أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس – – – وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلي الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق –)[٤٥٤]

- سبحان الله وقد أسلموا بالطبع
- وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيراً الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعاً وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وبالتالي فإن كل هذه الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولي والثانية فقط بالإضافة إلي حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرها ،
- وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة علي الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريباً بانتهاء الدولة الأيوبية ، سبحان الله
- والجدير بالذكر أنه لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية[٤٥٥] مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري[٤٥٦] علي الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال فترة قيام دولتهم ، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وهناك العديد من الأمثلة التي تدل علي مدي التقدم العلمي في مصر أيام الأيوبيين فمثلاً (– في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلي أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها علي من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلي سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلي الملك الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيصر الأصفونى فإنه كان المشار إليه في ذلك –)[٤٥٧]
- هذا يدل عن اهتمام الأيوبيين بالتعليم والمدارس

---

[٤٥٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٨٠

[٤٥٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢١٩

[٤٥٦] حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

[٤٥٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٢٥

- عن مكانة المدرس في العصر الأيوبي وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر – فرع البنات ، كتبت ما ملخصه : (احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم ، حتي أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخري ، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية ، ولا أدل علي ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألقت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة – – – وبلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين ، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة ، وكثيراً ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معاً ، – – –وكانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقداً وإما عيناً كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف علي المدرسة ومكانة المدرس وسمعته ، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد ، هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني عندما عينه علي التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي "أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معاملة ، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم عن التدريس" ، وقد بني صلاح الدين مدرسة أخري سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً وباقي ريع الوقف يصرفه علي ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده علي قدر طبقاتهم[٤٥٨]
- مما سبق يتضح أن ملوك الدولة الأيوبية لم تشغلهم الحروب عن أحوال الشعب ورفاهيته وتعليمه ، فهل يمكن أن تحدثني عن حروب السلطان الناصر صلاح الدين ؟

معارك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

- (– توالت انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته –)[٤٥٩] (– ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو ١١٨٠م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين –)[٤٦٠] ولكن كان هناك شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (– ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز

---

[٤٥٨] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

[٤٥٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩

[٤٦٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩

يوضح لنا مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه –)٤٦١ وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (– انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري ، وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد –)٤٦٢ (– وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " (– وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة ١١٨٧ م –)٤٦٣ ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (– فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ علي الأنبياء –)٤٦٤ واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (– في ٢٧ رجب سنة٥٨٣ هـ "٢أكتوبر ١١٨٧م" – – ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة ٤٩١ هـ "١٠٩٧م" قتلوا به أكثر من سبعين ألفاً)٤٦٥ وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي ٩٠ سنة

- **وبالطبع غضب ملوك أوروبا غضباً شديداً بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس ؟**
- **نعم ، فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم٤٦٦ ثم أوقع المولي عز وجل الخلاف بين**

---

[٤٦١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٠
[٤٦٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١
[٤٦٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١
[٤٦٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٢
[٤٦٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٣
[٤٦٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٤

قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصاً علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئناً في ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢م[٤٦٧]

- **ومتي مات صلاح الدين ؟**
- **مات صلاح الدين الأيوبي (في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ " أوائل مارس سنة ١١٩٣م" – – مخلفاً وراءه دولة متحدة الأركان – – وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده –)[٤٦٨] ، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين[٤٦٩]**

ملك يمن علي أساري سبيه – – – فيعيدهم في الأسر بالإحسان

ملأ القلوب محبة ومهابة – – – فخلت من البغضـاء والشنآن

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت – – – عنه الملوك ومظهر الإيمان

بك قد أعز الله حزب جنوده – – – وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم – – – الشيطان بالإلحاد والعصيان

جردت سيفك في العدا لا رغبة – – – في الملك بل في طاعة الرحمن

وغضبت لله الذي أعطاك فضل – – – الحكم غضبة ثائر حـران

- **كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها[٤٧٠] :**

بالله أين النـاصر الملك الذي – – – لله خالصـة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا – – – يُرجي نداه وتُتقي سطـواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد – – – فممات كل العالمين ممـاته

دفن السماح فليس ينبش بعدما – – – أودي إلي يوم النشور رفاته

من لليتـامي والأرامل راحم – – – متعطف مفضوضـة صدفاته

- **فمن أيضاً من ملوك الدولة الأيوبية يمكننا الحديث عنه ؟**

---

[٤٦٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٥

[٤٦٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٦ (نقلاً عن السيوطي)

[٤٦٩] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صحفة ٨٠ ، ٨١

[٤٧٠] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صفحة ١٠٥

الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :

- عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محباً للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام (– – وكان كلاً منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل – –)[٤٧١]
- فماذا حدث في عهده ؟
- حدثت الحملة الغريبة والطريفة جداً والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديداً في صفحة (٩٠)

(١) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً

(٢) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل

(٣) أن يبقي في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً

(٤) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري

(٥) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين

(٦) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس

(٧) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وبالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضاً المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة

---

[٤٧١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٨٩

السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة[٤٧٢]

- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- عندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخري في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة (– ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فأرسل فردريك في السر رسولاً يحمل إلي الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر –)[٤٧٣] وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولاً فيصبح بذلك الطريق سهلاً إلي تحقيق الهدف الرئيس من الحملة
- وصلنا للحديث عن الملك الصالح والملك لويس التاسع ، فماذا حدث بينهما ؟

الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة

- جاءت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط ، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها ، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً مرضاً شديداً وعندما وصلت السفن الفرنسية (– أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوباً – – – ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتي لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم – –)[٤٧٤] ، أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل
- يا له من سعيد الحظ ، ولكن كيف يتم ترك المدينة والانسحاب بالجيش لمجرد الاعتقاد بوفاة الملك
- لقد كان مخطئاً بلا شك ، ولكن بشكل عام هذا مثال علي أهمية الحاكم في مصر ،

---

[٤٧٢] نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

[٤٧٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٤

[٤٧٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٧

- كما سقطت مصر من قبل في أيدي الفاطميين لمجرد وفاة كافور ، سبحان الله
- ودخل الجيش الفرنسي دمياط بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر
- بالتأكيد فالمدينة بالطبع كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به ،
- ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح ، ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري[٤٧٥] ، وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ " ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين ، وكانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته ، (– وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح –)[٤٧٦]
- يا لها من إمرأة تتسم بالحكمة وحسن التصرف
- واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ، ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع ، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر[٤٧٧] فرفض تورانشاه ، واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح ، وكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالي ، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام ، والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك

---

[٤٧٥] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

[٤٧٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

[٤٧٧] كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عُرف قديم ومعروف

الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح[٤٧٨] ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلي أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخري فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته – – – مقال نصح عن قؤول فصيح

أتيت مصر تبتغي ملكها – – – تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلي أدهم – – – ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم – – – بحسن تدبيرك بطن الضريح

سبعون ألفاً لا يري منـهم – – – إلا قتيل أو أسير جـريح

وقل لـهم إن أضمروا عودة – – – لأخذ ثأر أو لفعل قبيـح

دار ابن لقمان علي حالها – – – والقيد باق والطواشي صبيح

والجدير بالذكر أن الملك الصالح كان يعتمد علي المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائـهم ليستعين بهم علي حروبه

- أي أن المعركة كانت بين المماليك والجيش الفرنسي
- نعم ولكن المماليك بقيادة أيوبية وكان الملك الصالح يعامل المماليك معاملة خاصة لاسيما الأمراء منـهم والقادة ولكن ابنـه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع مماليك أبيـه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منـهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منـهم والله أعلم (– ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة بل كان شاباً أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجرة الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم –)[٤٧٩] وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجرة الدر بإدارة شئون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك في مصر

---

[٤٧٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني ١٠٢

[٤٧٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٠١

الفصل رقم (١١) دولة المماليك البحرية في مصر

كيف قامت دولة المماليك البحرية في مصر ؟

- بالنسبة لموقف تكليف المماليك لشجرة الدر زوجة الملك الصالح بتولي عرش مصر ، لماذا لم يتولي أحدهم الحكم بعد مقتل الملك توران شاة ابن الملك الصالح ؟
- بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه ابن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطاناً نظراً لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، فلا يمكن آنذاك أن يتولي أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصياً وحتي وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية ، وحاجة المماليك تحديداً إلي هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيداً أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية ، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقي السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتاً لحين حل هذه المعضلة[٤٨٠] ، فاتفقوا علي أن تتولي شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلي أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطاباً ينكر عليهم تولية إمرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (– وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً)[٤٨١]
- وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدي أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتي يجري دماء الفراعنة في نسله ، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية ، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية فالجميع متساوون في النشأة والبيئة
- وهكذا أصبح الملك المعز عز الدين أيبك هو أول ملك في دولة المماليك البحرية
- ولكن ألم يكن للأسرة الأيوبية بقايا في الشام ؟
- نعم ، وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، ولكن

---

[٤٨٠] أحوال المماليك في مصر – محمد عرموش

[٤٨١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٥

الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك[٤٨٢] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة

- **وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ؟**
- **نعم ولكن شعر الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام (– ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره –)٤٨٣**
- **وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً**
- **بالتأكيد**
- **هل من الممكن كما تعودنا تلخيص العصور وقبل الاسترسال في الحديث عن المماليك أن نلخص العصر المملوكي بالكامل ؟**

ملخص العصر المملوكي بالكامل

- **تولي سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي ٢٦٧ سنة (– وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي مماليك بحرية استمرت من ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م إلي ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م – – – ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في ٩٣٢ هـ / ١٥١٧ م)[٤٨٤] ، (وتولي سلطنة مصر ٢٧ ممن المماليك البحرية و ٢٨ من المماليك البرجية)[٤٨٥] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك ٥٥ سلطاناً مملوكياً ، وفي عهد الظاهر بيبرس تم انتقال الخلافة العباسية إلي مصر لتصبح مصر دار خلافة عباسية وسلطنة مملوكية**
- **وهذا بالطبع أضفي شرعية قوية لسلاطين المماليك الذين توسعوا في ملكهم ليشمل معظم أنحاء العالم الإسلامي كالحجاز والشام ومصر وغيرها**
- **هذا صحيح ولكن الشرعية الحقيقية لهؤلاء السلاطين كانت في تعاطف الأمة كلها معهم وحبهم لهم وتقديرهم الكبير لدورهم الرائع في القضاء علي المغول (التتار) وتطهير الأمة الإسلامية منهم ومن بقايا**

---

[٤٨٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

[٤٨٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

[٤٨٤] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٣

[٤٨٥] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٤

الصليبيين المعتدين وكانت هذه المرحلة في تاريخ المماليك هي التي بالفعل أضفت الشرعية علي حكمهم وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى بعدم شرعية حكمهم لكونهم عبيد تم شرائهم

- أليس من الممكن أن يشتروا أنفسهم بما يملكون من أموال ؟
- لقد أكدت الفتوي أيضاً أنه لا جدوى من شراء أنفسهم بأموالهم لأنهم هم وما يملكون ملكاً للدولة ، ولكن بعد تصديهم للتتار وقهرهم للأعداء نالوا إعجاب الجميع ومبايعتهم لأنهم حافظوا علي الدولة الإسلامية من خطر التتار وكل هذا بفضل الله سبحانه وتعالي ورحمته ،
- لقد كان المماليك في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها علي مستوي العالم في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لقوة تدرأ عنها الأخطار المحدقة بها من كل جانب ، فكيف كان أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي وهم تقريباً بالكامل متساوون في النشأة وأسلوب الإعداد ؟

عندما يتساوي الجميع فمن يكون له الحق في العرش ؟[٤٨٦]

- في الحقيقة إن هذا السؤال هو أساس جميع الصراعات بين أمراء المماليك وهو سر التنافس علي السلطة فإذا كان أحد الأمراء يجلس علي عرش مصر ويري أمير آخر أنه الأحق بذلك يبدأ الصراع بينهما علي السلطة ولكنه صراع مرير ومغامرة كبري ولا يتدخل فيها الخليفة العباسي ، فمصر منذ عهد أحمد ابن طولون ثم الإخشيد ثم الفاطميين ثم الأيوبيين مستقلة بطريقة أو أخري عن الخلافة العباسية وارتباطها بالخلافة ارتباط رمزي لا يعني التبعية المطلقة كما كانت قبل عصر الدولة الطولونية ، أما فترة الحكم الفاطمي لمصر فقد كانت مستقلة عن العباسيين تماماً لاختلاف المذهب بل كانوا في حالة عداء دائم وحروب مستمرة ، فإذا استثنينا الفاطميين فإن باقي الدول التي تأسست في مصر سواء طولونية أو إخشيدية أو أيوبية ثم مملوكية بعد ذلك كلها كانت مستقلة
- ولكنها تتبع المذهب السني الذي كان يمثله الخليفة العباسي ،
- هذا صحيح ولكن الخليفة رغم وجوده في القاهرة فإنه لا يتدخل في الصراع علي السلطة
- فما أهم ما يميز الصراع بين أمراء المماليك علي السلطة ؟
- علي الرغم من أن الصراع علي السلطة في حد ذاته شئ بشع ومكلف للأموال والأرواح ويؤثر علي حالة البلاد والعباد إلا أن الصراع بين المماليك كانت له سمات خاصة وعجيبة ، منها أنه كان داخل مصر أو داخل الدولة المملوكية عموماً ولا يتم تدويله بإدخال عناصر من خارج الدولة لمساعدة أحد الأمراء للوصول إلي السلطة اللهم إلا إذا استعان بعض الأمراء ببعض شيوخ العرب والبدو أحياناً في بعض المعارك ولكنهم في النهاية مقاتلين لا يخضعون لسلطان دولة من الدول ، وبالتالي لم يتم التدخل في شئون مصر الداخلية من دول أخري نتيجة لهذا الصراع ، أما السمة الثانية فإن الصراع

---

[٤٨٦] نقلاً عن كتاب أحوال المماليك في مصر – محمد عرموش

ينتهي بمجرد اختفاء أحد الأمراء المتنافسين علي السلطة سواء بالقتل أو السجن أو النفي أو التنازل ، وبالتالي لا يستمر الصراع بواسطة أنصاره بعد اختفاءه وهذا يحقن الدماء ويهدئ الأمور ، حتي أنك إذا قرأت عن أحد هذه الصراعات في بعض الكتب وتابعت باهتمام أعمال القتل والنهب والسلب والجرائم التي ترتكب خلال هذا الصراع قد تتمني أن يتم التخلص بسرعة من أحد الأميرين المتنافسين حتي تهدأ الأمور ، فكل أمير منهم يلتف حوله أعداد ضخمة من المماليك ويقاتلون بشراسة وبمجرد موته ينتهي كل شئ بشكل يدعو للدهشة ، كما يصفح الأمير المنتصر عنهم وتنتهي الفتنة ، أما السمة الثالثة من سمات هذا الصراع ابتعاد عامة الشعب عنه وعدم إقحامهم فيه إلا في حالات نادرة وكان كل أمير حريص علي رضا العامة عنه ليدعموه بالدعاء له بالنصر

- فكيف كانت تنتقل السلطة في الأحوال العادية أم أن الصراع هو الأساس في انتقال السلطة دائماً ؟

كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلي آخر في الأحوال العادية ؟

- كل ما سبق لا يعني أن السلطة كانت تنتقل دائماً بعد صراعات وإراقة للدماء خلال العصر المملوكي فهذا هو الاستثناء حتي لو حدث كثيراً ولكن كانت بالتأكيد هناك قاعدة سلمية لتداول السلطة في العصر المملوكي وكلما اختلت يحدث الصراع ، وهذه القاعدة كانت تعتمد بشكل عام علي نظام الأقدمية فقد كان المماليك يحترمون الأقدمية جداً فهناك أمير كبير وهناك أمير صغير وهناك من تولي وظائف عديدة وخاض معارك طاحنة وهناك من لم يمر بعد بكل هذه الأمور وبالتالي كانت القاعدة العامة هي احترام مكانة وأقدمية كبار الأمراء ،
- فماذا عن نظام توريث الحكم للأبناء ؟
- لم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (– ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم – – – فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك –)[٤٨٧]

---

[٤٨٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٩

- فماذا كان يحدث لابن الملك السابق ؟
- لم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، وعلي الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون
- فكيف كان يتم تحقيق الإنجازات مع وجود صراعات علي السلطة ؟

علاقة الإنجازات بالأفضلية أثناء الصراع

- عندما يعتبر أحد الأمراء أنه أفضل من غيره وأحق بالعرش من الجميع فلابد أن يثبت ذلك بتحقيق العديد من الإنجازات والانتصارات ، فإذا كان سلطاناً بالفعل وقامت عليه حركة عصيان ونافسه أحد الأمراء ليجلس مكانه ، أو شعر بمجرد وجود آراء حول حكمه للبلاد قد تثير الفتن والاضطرابات وتشجع من له طموح في منافسته ، عندئذ يحاول أن يثبت للجميع أنه الأفضل فيكثر من تحقيق الإنجازات في جميع المجالات سواء إقتصادية أو معمارية كما يشن الحروب علي أعداء الأمة ويحاول تحقيق النصر والمجد وكلما زادت حدة الصراعات تزيد الإنجازات علي ما يبدو ، فهذه الإنجازات لها العديد من الفوائد بالنسبة له ، فهي أولاً تجعل عامة الشعب في حالة انتعاش اقتصادي وتتوفر السلع بأسعار زهيدة مما يجعل الناس تتمسك به وتدعو له بالنصر ، أما ثاني هذه الفوائد أن أنصاره من المماليك والجنود الذين حوله ترتفع روحهم المعنوية بشكل كبير وتزداد شراستهم في القتال للزود عنه واستقرار عرشه ، كما أن كل ما يحققه من انتصارات وأمجاد ومكاسب تخفض الروح المعنوية لأنصار خصمه ولا يجد من يسانده إلا لمصالح شخصية
- فالإنجازات إذن قد تجعل طبيعة الصراع للمصلحة العامة وليس للمصلحة الشخصية
- نعم ومن هنا قد يكون هذا هو السبب في تزامن حدوث إنجازات مع وجود صراعات ، بل إن الصراعات التي لم تنتهي طوال عصر المماليك جعلت معها إنجازات لم تنتهي أيضاً إلا بانتهاء هذا العصر وكان الأمير الذي يريد أن يجلس علي العرش يتخلص من خصومه ويعتبر نفسه الأقوى والأصلح للقيادة وأن القضاء علي الخصوم بالقتل أو النفي كان يعتبره من متطلبات الأمن القومي والاستقرار السياسي فقد يتحول بسهولة جداً اختلاف الآراء بين الأمراء إلي قتال شرس وعنيف وما يشبه الحروب الأهلية التي تدمر كل شئ لأن كل أمير توجد تحت سيطرته قوة لا يستهان بها طوع أمره وبالتالي لابد من أمير قوي يسيطر علي الجميع ويضمن ولاءهم ولو بالقوة والعنف في البداية وبمجرد أن يجلس علي العرش يبدأ في تحقيق العديد من الإصلاحات والانتصارات والأمجاد ليؤكد لنفسه وللأمة كلها أنه كان علي حق عندما أصر علي تولي السلطة والتخلص من الخصوم

- ما فهمته من كلامك أنه كانت غالباً تحدث الصراعات علي الحكم عندما يفشل كبار الأمراء في الاتفاق علي سلطان محدد منهم ليحكم ولم يكن مقبولاً لديهم أن يحكم ابن السلطان الراحل لأنه لم ينشأ النشأة التي تعودوا عليها فهو ليس واحد منهم كما ذكرنا فكان يتولي الحكم لحين الاتفاق علي الملك الجديد وإذا لم يحدث هذا الاتفاق يبدأ الصراع علي الحكم بأشكاله المتعددة ودائماً وفي نهاية الأمر يصل إلي الحكم من أراد المولي عز وجل له الحكم فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولكن أليس الصراع علي الحكم مغامرة قد تؤدي للموت ؟
- يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشهيرة :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا، لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا، و منْ خطبَ الحسناءَ لمْ يغلها المهرُ

- العرش أو القبر ، يا لها من مغامرة كبري غير مأمونة العواقب ، فهل تستحق ؟
- نعم فمن يتأمل هذا المعني لابد أن يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار المنافسة علي العرش ، ومن المؤكد أنه قرار صعب يحتاج إلي جرأة وقوة عزيمة وإرادة صلبة فالبقاء للأقوي دائماً فهي ليست نزهة خلوية أو مسابقة رياضية فالخسارة فيها تعني الموت
- وقد يسبق هذا الموت ألوان من العذاب فالحبس وحده في انتظار القتل يقتل المحبوس كل لحظة أثناء حبسه ، وبالتالي فالقرار صعب ومصيري ، فما الذي يستحق كل هذا العناء ؟
- الخطير أيضاً في هذا الصراع أن جميع الأساليب مشروعة فالمسألة حياة أو موت فمن الممكن استخدام الخداع والمكر وبالتالي تنعدم الثقة بالآخرين ويرتاب الجميع في سلوك الجميع فقد تأتي الطعنة من الخلف ومن أقرب الناس إليك ،
- معني هذا أنه قد يتم القتل لمجرد استشعار نية القتل من الطرف الآخر ؟
- نعم فلا يوجد وقت للتحقق من ذلك أو التفكير في وسائل أخري ،
- إن كل هذا يجعلك تشعر بالإشفاق علي هؤلاء المساكين الذين يدخلون في هذا الصراع ،
- بالتأكيد ، فالمماليك حياتهم عبارة عن سلسلة من المعارك ومنازلهم هي صهوات جيادهم وصوت ضرب السيوف هو الصوت الذي يطربهم ولمعانها يثيرهم كما أنشد عنترة بن شداد من قبل :

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ – مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها – لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

- أعتقد أنني إذا كنت أعيش في تلك الفترة من تاريخ مصر فلن أعرف أبداً نتيجة أي صراع ، بل إذا انتهي صراع وعرفت نتيجته فسيبدأ بالتأكيد صراع جديد قبل موتي ولن أعرف نتيجته
- هذا ليس في عصر المماليك فقط ، بل في جميع العصور ، فالصراعات لا تنتهي والأحداث تتجدد بصفة مستمرة فلا تشغل بالك بنتيجة أي صراع ، ولكن احرص علي أن تلقي الله وأنت تسير علي

طريق الحق ، فليس مطلوب منك أن تصل لنهاية الطريق بل يكفي أن تموت وأنت تحاول أن تنصر الحق دون انتظار نتائج

- **حدثتني عن أن المماليك في بداية نشأتهم كانوا يتلقون دروساً دينية وهم صغار فما انعكاس ذلك أو نتيجته في سلوكياتهم ؟**

النزعة الدينية لدي المماليك

- **في الحقيقة كان القاسم المشترك الأعظم لجميع المماليك علي اختلاف أنواعهم وظروف نشأتهم هو التدريب علي القتال والولاء للأستاذ ، أما باقي المعارف الأخري أو المشارب أو البيئات الحاضنة فتختلف من نوع إلي آخر وإن كانت العقيدة الدينية من الثوابت الراسخة لديهم جميعاً تقريباً فنكاد نلمحها في تصرفاتهم وفي عمائرهم وحتي في صراعاتهم علي السلطة**
- **كيف ذلك ؟**
- **كل منهم كان حريص علي أن يستمد شرعيته في الحكم من منظور ديني كما سنري ، فنجد مثلاً أن المماليك عندما تولوا الحكم كملوك وسلاطين لا يطمئن أحدهم إلا إذا تم تقليده السلطنة في حضور الخليفة والقضاة الأربعة ٤٨٨ ومباركتهم ، كما نلاحظ أيضاً هذه النزعة الدينية عندما نقرأ في كتب التاريخ أن كثيراً منهم بعد أن يتولي الحكم ويصبح سلطاناً يقوم باستدعاء كبار رجال دولته والأمراء ليحلفون له بالأيمانات المؤكدة علي عدم الغدر به أو التآمر علي خلعه من السلطنة ، وبغض النظر عن مدي صدق هذه الأيمانات إلا أنها مؤشر يوضح تأثير الدين في سلوكياتهم ،**
- **وهل توجد أمثلة أخري علي هذه النزعة الدينية ؟**
- **بالتأكيد فمن أوضح الأمثلة علي توغل هذه المشاعر والعقائد في نفوسهم النذور التي كانوا ينذرونها إذا كانوا في ضيق أثناء صراعاتهم وقد سجل المؤرخون أمثلة علي بعض هذه النذور ومن أشهرها نذر الملك المؤيد شيخ المحمودي الذي كان مسجوناً في سجن من أبشع السجون في ذلك الوقت والذي كان يسمي خزانة شمايل بجوار باب زويلة حيث نذر نذراً وقام بالوفاء به بالفعل بعد أن تولي السلطنة حيث قام ببناء مسجده الشهير الموجود إلي الآن في نفس موضع السجن الذي كان مسجوناً فيه ، أما الصراع علي السلطة نفسه فكانوا يطلقون عليه كلمة (فتنة) وأثناء حدوث إحدي هذه الفتن اختفي الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابن طولون لفترة حتي٤٨٩ انتهاء هذه الفتنة ، وكان هذا**

---

[٤٨٨] تم استضافة الخليفة العباسي في مصر في عهد الظاهر بيبرس ولم يحدث ذلك أثناء حكم الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية رغم محاولة أحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد إقناع الخليفة باتخاذ مصر مقر للخلافة العباسية ، بينما نجح المماليك في ذلك ، أما القضاة الأربعة فمقصود بهم قضاة المذاهب الأربعة للسنة فقد كان هناك قاضي لكل مذهب (الشافعي ومالك وابن حنبل وابو حنيفة)

[٤٨٩] كانت هذه الفتن تنتهي بصاحبها إلي القبر أو العرش أو الهروب أو النفي أو السجن ، فليس من السهل أن يقرر أحد الأمراء أن يدخل في صراع للوصول إلي العرش فهي مغامرة كبري غير مأمونة

الجامع الضخم خرباً ومهجوراً في ذلك الوقت ولا تقام فيه الشعائر فأخذ الأمير لاجين علي نفسه عهداً ونذر نذراً أن يعمر هذا الجامع ويرممه إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ووصل للسلطة وقد كان ، فعندما صار ملكاً علي مصر قام بالوفاء بهذا النذر وليس أدل علي تمكن الدين من المماليك كدليل العمائر الإسلامية ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم علي بناء الأسبلة والتكيات والمدارس والمساجد والخوانق والكتاتيب ويوقفون عليها الأوقاف لتستمر بعد وفاتهم ، بل إن من الأمثلة الطريفة التي تؤكد لجوءهم وتضرعهم إلي الله سبحانه وتعالي وهم في قمة الضعف الإنساني عندما يمرض أحدهم مرضاً شديداً يقوم باختيار أفضل فرس لديه من خيوله – وما أدراك ما الخيول بالنسبة لهم – ويرسله ليعرض للبيع ويتصدق بثمنه كاملاً من منطلق ما ورد في الأثر الشريف (داووا مرضاكم بالصدقة)

- **إلي هذا الحد كان اعتقادهم ويقينهم وتوكلهم ؟ ولكن بمناسبة الكلام عن الخيول ، أعتقد أنها كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة للمماليك ، فهل لديك معلومات عن علاقة المماليك بالخيول ؟**

<u>الخيول المملوكية</u>

- **بالفعل لابد لنا أن نلقي الضوء علي أهميتها عند المماليك فعن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه : (نتجه إلي ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعياً إلي عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطي ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، وأنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ، والنوع الثاني تركي أو أعجمي ، وكانت تسمي الهماليج أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي ، النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا ، ولا يقبل عليها أحد ، الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب ، الحجازية أشرفها ، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها ، والغربي أنسلها ، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان ، وكان السلاطين مهتمين جداً باقتناء أنفس الأنواع وأنقي الأنساب – – – – – ، كان الناصر بن قلاوون شغوفاً بجلب الخيول العربية ، – – وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته ، أما السلطان برقوق – – فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس ، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهراً من مظاهر القوة والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين ، الفارس والفرس ، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ ،**

- وماذا عن ألوان الخيول ؟ وهل كان السلاطين يفضلون ألوان بعينها ؟
- في السوق نري ألواناً عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها : الأول : اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض ، الثاني : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم ، والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمي الكميت ، واللون الرابع هو الأصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان – – – وأحياناً كان بعض الفرسان يحرصون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم – – – ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم علي اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده ، فالغرة ، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خداً دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهاً ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عيناً دون الأخري ، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ، وإن مالت إلي اليمين تدل علي الشؤم ، وإلي اليسار فإنها تدل علي المكاسب ، وإن وصلت إلي الأنف فإنها تدل علي البركة والخير ،
- وهل كانوا يأخذون هذه الأمور بجدية ؟
- في سنة ٨٠٢هـ ١٣٩٩م ، كُسِر الأمير تنم وسقط أسيراً ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره ، فقالوا كان في فرسه شؤم ، وأشاروا إلي هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبي ، وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفرس له قواعد ، فلابد أن ينظر إلي الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما ، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرساً سباقاً – – كما يجب أن يكون صافياً عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين ، وعلامات أخري عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية ، – – –)[٤٩٠] ، ولعلك أدركت بعد هذا العرض ماذا تعني الخيول بالنسبة للمماليك حتي يتم بيع أفضلها والتصدق بثمنه
- لقد عرض الأستاذ جمال الغيطاني أهمية الخيول المملوكية بأسلوب رائع وممتع للغاية ، وبالفعل لقد أدركت معني أن يتصدق السلطان بأفضل ما لديه من خيول ، مما يؤكد مكانة الدين عندهم

---

[٤٩٠] نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة سبتمبر٢٠٠٧، مقتطفات من صفحة ٥٤ إلي صفحة ٥٦

- فإذا كانت سلوكيات المماليك وقراراتهم وصراعاتهم ومنشآتهم لها صبغة دينية أو هكذا تبدو علي الأقل فيمكننا أن نؤكد أن الدين كان من الثوابت الراسخة في نفوسهم ، أما القتال فهو حرفتهم الوحيدة التي تعلموها
- بناءاً علي هذا فلابد أن تكون هناك مكانة خاصة لعلماء الدين في ذلك العصر

مكانة العلم والعلماء لدي المماليك

- هذا صحيح ، فلقد كان للعلماء المسلمين مكانة خاصة جداً لدي المماليك ، وعن هذا الموضوع كتب د محمود الحويري ما ملخصه : (– إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس – – فقد أدي ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها – –)[٤٩١] كما أن (– قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يُقرِّبون علماء الدين والقضاة المصريين ، حرصاً منهم علي تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني –)[٤٩٢] ، (– وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام –)[٤٩٣]
- إذن فقد كان الاحترام متبادل ، ويبدو من كلامك أن المماليك كانوا يهتمون بالعلم والعلماء ، فهل هذا هو سبب ما حققته هذه الدولة من تقدم في كافة المجالات ؟

العلم هو سبب الازدهار والحضارة

- في الحقيقة إن العلم يبني الإنسان والإنسان يصنع الحضارة ، وهذا باختصار شديد ما حدث في عصر المماليك البحرية ، فاهتمامهم بالعلم ورعايتهم للعلماء وكثرة المدارس في عهدهم كل هذا قد ساهم في بناء الإنسان وبالتالي ازدهر كل شئ علي يد الإنسان في جميع المجالات (صناعة ، تجارة ، زراعة ،

---

[٤٩١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

[٤٩٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

[٤٩٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٢

بناء) ، وأياً ما كان أسباب ودوافع المماليك للاهتمام بالعلم والعلماء فإن هذا ما حدث بل هو ثابت في العديد من كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر ،

- فماذا قرأت عن هذا الموضوع ؟
- فيما كتبه د محمود الحويري ما قد يفسر كلام ابن بطوطة عن كثرة المدارس في مصر حيث كتب في كتابه الممتع "مصر في العصور الوسطي" ما يلي :(كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة)[٤٩٤]
- يتضح من هذا الكلام أن العلم والعلماء يحتاجون إلي قوة راعية لنشاطهم العلمي ولا يمكن أن تقوم حضارة بدون علم ولا يمكن أن يتحقق العلم إلا في وجود قوة ترعاه وأموال تنفق عليه
- من المؤكد أن المماليك كانوا في فترة من فترات التاريخ هم القوة الوحيدة في العالم الإسلامي وكانوا يحترمون العلم والعلماء وبالتالي هرول إليهم أهل العلم بعد ضعف العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ،
- هذا عن رعايتهم للعلم والعلماء فهل هذا ينطبق علي الفنون أيضاً ؟
- بالتأكيد (فعلي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد)[٤٩٥] ، أما عن الحياة الفكرية والأدبية فقد (بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير، حامي الآداب والعلوم ،
- ربما يعبر هذا عن معاني كثيرة مما أود توضيحه (بلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم)

---

[٤٩٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

[٤٩٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٦

- ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة ، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)[٤٩٦] وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة ١٣٣٢ م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة ١٣٤٨ م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندى المتوفي سنة ١٤١٨ م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها)[٤٩٧]
- ولكن ألا يحتاج كل هذا إلي اقتصاد قوي ؟
- مما لا شك فيه أن كل هذا النشاط العلمي كما يحتاج إلي قوة ترعاه ، فلابد له من أموال تنفق بسخاء علي البحث العلمي وترعاه ولذلك اهتم المماليك بالحياة الاقتصادية ومما ذكره د محمود الحويري في هذا المعني ما يلي : (اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات)[٤٩٨] ،
- لنا هنا وقفة عند الزراعة لما لها من وضع خاص في تاريخ مصر فمن الواضح أن المماليك كان لهم نفس اهتمام حكام مصر بالزراعة والري علي مر التاريخ ولكن ماذا عن اهتماماتهم بالصناعة والتجارة والبناء ؟

فكرة عامة عن التجارة والصناعة والبناء في العصر المملوكي

- نعود مرة أخري للدكتور محمود الحويري وكتابه الممتع مصر في العصور الوسطي حيث كتب ما يلي : (وإلي جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات – – ويرع المصريون في الصناعات الجلدية – – والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ

---

[٤٩٦] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

[٤٩٧] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

[٤٩٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٨

يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم)[٤٩٩] ، (أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها)[٥٠٠] وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، – – – وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم)[٥٠١]

- فماذا عن مكونات المنازل ومحتوياتها لأنا مؤشر للصناعة والتجارة في ذلك الوقت ؟
- ولنوضح روعة المنتجات التي كان يتم تصنيعها ومدي التقدم في هذا المجال سنورد هنا وصف مؤرخ بريطاني لأحد المنازل كنموذج للمنازل التي كان يدل علي فكر عالي وهندسة معمارية راقية ، فيقول ستانلي لين بول[٥٠٢] واصفاً تلك المنازل التي صممها المهندسون المصريون لتوفر الراحة والهدوء والخصوصية : (---- وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أي شئ في الداخل وأنت بالباب الخارجي ، وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر المياه – في أحد الأركان الظليلة ، وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز ، وفي هذا المكان لا تتلمس دليلاً علي أن ثمة حياة ، فالأبواب مغلقة في إحكام إمعاناً في الغيرة والحذر ، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان ، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها ، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل علي الشارع نفسه ، وهنا لا نري أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلي ذلك والواقع أن هذا المكان الهادئ منعش جداً حينما يأوي إليه المرء بعد أن قاسي الكثير من الجلبة والصخب في الشارع ، حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق ، فهم

---

[٤٩٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

[٥٠٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

[٥٠١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩١ ، ٢٩٢

[٥٠٢] ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن ود إدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية

يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظلونها بالمشربيات البارزة حتي لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال في شوارع المدن الأوروبية الواسعة ، حيث تستطيع الشمس أن تنفذ إلي هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق في الغرف في أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء ، إن فن المهندس الشرقي يتلخص في أنه يبني لك منزلك بحيث لا تستطيع أن تري شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يري شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك والطريق الواضح للوصول إلي هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزاءها كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يري الغرباء من المارة ما بداخلها ، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا علي تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض ، والحجرات السفلي التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمناً ولا يخشي أن يري وجها لأية إمرأة في البيت ،وإلي إحدي تلك الحجرات السفلي يتقدمنا مضيفنا ، طالباً إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة ، إنها حجرة الاستقبال ، أو المنظرة ، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة ، والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء ، وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطي بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفي وسطه نافورة تعمل علي تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة علي أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها علي الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطي بالبسط ، وهنالك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ، كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديواناً منخفضاً وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ، فتكون بذلك علي شكل زهرة ، وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الهواء فقط بأن يمر من خلالها ، أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة ، وعلي جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة ، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة ، ولونه في العادة أحمر قاتم ، غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أي شئ من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي ، وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً

قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب ، وبدلاً من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته علي الديوان ويجلس القرفصاء ، تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب)٥٠٣، ومما سبق يتضح مدي إعجاب المؤرخ البريطاني بالتصميم الهندسي المميز لهذه المنازل وتجدر الإشارة إلي أن محتويات هذه المنازل من مفروشات ومصنوعات خشبية وزجاج وأواني وأوعية وخزف مصنوعة في مصر أو ناتجة عن ازدهار حركة التجارة وكذلك فإن هذه المنازل ليست فقط تحف فنية وهندسية مدهشة ولكنها مكيفة الهواء أيضاً بأسلوب ذلك العصر حيث تتكون من جدران سميكة تعزل الحرارة وبها وسائل لتوزيع الهواء بأسلوب معين وفسقيات فوقها شخشيخة وحولها ملاقف فيرتفع الهواء الساخن لأعلي ويهبط الهواء البارد لأسفل فيجعلك تشعر بوجود تكييف للهواء

- من الواضح أن هذا المؤرخ البريطاني كان منبهراً بما شاهده في مصر ، فما أهم الأحداث في العصر المملوكي بشكل عام

المماليك والتتار ومعركة عين جالوت

- في بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديداً في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار (– كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة – – ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي٥٠٤ فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار٥٠٥ وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد – – – وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل –)٥٠٦ ، ووصل التتار إلي بغداد (–وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ––––، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دُفِن ، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأُسِر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها –)٥٠٧

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم – – – ببقاء مولانا الوزير خراب

---

[٥٠٣] نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لين بول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، و د إداور حليم –مكتبة الأسرة ١٩٩٧– الهيئة المصرية العامة للكتاب

[٥٠٤] كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

[٥٠٥] باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

[٥٠٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٣

[٥٠٧] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٨

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي – – – حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة[٥٠٨] كان قبل زمانه – – – لابن الفرات فصار لابن العلقمي

- إنها كارثة بكل المقاييس ، فماذا كان وقع ذلك علي مصر ؟
- عندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة سنة ١٢٥٩م ، وقال (– إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم –)[٥٠٩] ويقول السيوطي (––– وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقي في بيت المال شئ وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا –)[٥١٠]
- لا يتبقي مع كل مملوك إلا فرسه وسلاحه فقط يا لها من فتوي
- وتم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو ، وأرسل هولاكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (– فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر – – دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرا وأميرهم أسيرا ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون –)[٥١١]
- بالتأكيد كان قطز علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام
- نعم ولذلك كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول –)[٥١٢] (– وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي –––– وقد تأرجح النصر

---

[٥٠٨] دست الوزارة = منصب الوزارة

[٥٠٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

[٥١٠] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

[٥١١] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

[٥١٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

مرات بين الفريقين أثناء المعركة –)٥١٣ (– وفي أول المعركة هُزِم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم – – – غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولي ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله –)٥١٤ ،

قطز وبيبرس وضعفاء النفوس

- فكيف وقع الخلاف بين قطز وبيبرس بعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين علي التتار ، أم أنه الأسلوب المملوكي الذي تحدثنا عنه والذي لا يرحم ؟
- لقد حاول ضعاف النفوس أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً
- ضعاف النفوس موجودون في كل مكان وكل زمان تقريباً ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويفسدون كل نصر أو تقدم ،
- ويروي الإمام السيوطي رحمه الله عن معركة عين جالوت ما يلي (– فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار – – وجاء كتاب المظفر إلي دمشق بالنصر فطار الناس فرحاً – – وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلي بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر عزم علي التوجه إلي حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه
- من الذي أبلغه ؟
- لا أعرف ولكن من المؤكد شخص يريد أن تقع الوحشة بينهما والله أعلم ، فلما وصله هذا البلاغ ، فصرف وجهه عن ذلك –عن التوجه إلي حلب– ورجع إلي مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلي بعض خواصه ، فاطلع علي ذلك بيبرس

[٥١٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢ ، ١٢٣

[٥١٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٣

- ومن خواصه هؤلاء وما هي علاقتهم ببيبرس ، وإذا كانوا خواصه فعلاً فكيف يفشون سره إذا كان قال هذا الكلام فعلاً ؟
- لم أقرأ للسيوطي ما يجيب علي أسئلتك ، أما ما قاله السيوطي بعد وقوع هذه الوقيعة بينهما : (فساروا إلي مصر وكل منهم محترس من صاحبه –)٥١٥
- وهنا أصبح اثنان من الأسود في قفص واحد ولابد من مقتل أحدهما
- وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس والياً علي حلب فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهم أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة " دفاع مشروع عن النفس "

السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي

- وصلنا للظاهر بيبرس والذي أصبح يتغني الناس بانتصاراته المعروفة بسيرة الظاهر بيبرس فماذا قرأت عنه ؟
- تولي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر سنة ١٢٦٠م وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيد حيث قام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد (– حقيقة كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها – – – هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوي خلافة واحدة هي خلافة القاهرة –)٥١٦
- والقاهرة كانت المحطة الأخيرة للخلافة العباسية ، ولكن ماذا فعل التتار بعد هزيمتهم في عين جالوت؟
- كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم في عين جالوت فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهما بكافة الوسائل (– وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى –)٥١٧ ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة ١٢٧٧ م (– وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً

---

[٥١٥] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧١

[٥١٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٤

[٥١٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨

وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخري فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخري في أنحاء آسيا الصغري سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان –)[٥١٨] وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (– ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين –)[٥١٩] واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة[٥٢٠] وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخري ضد المغول وغيرهم (وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم –)[٥٢١] وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبري وهي إمارة إنطاكية

- هذه الإمارة الصليبية أحد الإمارات الأربعة اللاتي أسسها الصليبيون في الشام (الرها وانطاكية وبيت المقدس وطرابلس) إذن فقد انضم بيبرس لأبطال التحرير الأربعة الذين حرروا تلك الإمارات ،
- نعم (– وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب –)[٥٢٢]

السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام

- وكيف تم طرد الصليبيين من الشام بالكامل ؟
- لقد استطاع الصليبيون كما هو معروف تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال : (– تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت

---

[٥١٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨ ، ١٣٩

[٥١٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٩

[٥٢٠] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٥

[٥٢١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٦

[٥٢٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٨

إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية –)[٥٢٣] ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (– وخرج علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة ١٢٨٩م –)[٥٢٤]، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية

- إذن لم يكن جيشاً مملوكياً خالصاً بل شارك فيه المجاهدون المسلمون أيضاً ، هذا رائع جداً
- نعم فقد كتب د جمال الدين الشيال عن هذا الموضوع ما يلي : (– وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل[٥٢٥] من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة ١٢٩١ م – واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً – وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر – وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون –)[٥٢٦]

---

[٥٢٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٧

[٥٢٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٨

[٥٢٥] خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

[٥٢٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٩

عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أفضل عصور المماليك

- سمعت أن عصر الملك الناصر محمد من أفضل عصور المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق فما حقيقة ذلك ؟
- تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولي سنة ١٢٩٣ م ، والثانية سنة ١٢٩٨م ، والثالثة سنة ١٣٠٩م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتي الآن بالقلعة ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ،
- تعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطي ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ،
- كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل ،
- لاحظت أثناء الحوار معك عن تاريخ مصر أن أفضل العصور التي تشهدها مصر طوال تاريخها هي العصور التي يهتم فيه الحكام بالعلم والصحة (المكتبة والمارستان)
- هذا صحيح ، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهي عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار ،
- فكم بلغ اتساع دولته ؟
- كانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ،
- إنها تعد إمبراطورية شاسعة فهل خاض هذا الملك حروب ناجحة ؟
- بالتأكيد فهو يعد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة ١٣٠٣ تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهُزِموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمداً وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول

- **فماذا عن موقفه من السياسات الاقتصادية ؟**
- **لقد عني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب ، كل ذلك أدي إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها[٥٢٧]**
- **هل هذا السلطان هو والد السلطان حسن صاحب الجامع الشهير وهل تم بناءه ليكون جامع أم مدرسة؟**

جامع السلطان حسن أم مدرسة السلطان حسن ؟

- **بالفعل إن السلطان حسن هو الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وقد أمر بإنشاء جامعه أو مدرسته الموجودة حتي الآن في القاهرة تشهد بعظمة ورقي فن العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ويعد معجزة العمارة الإسلامية في القاهرة[٥٢٨]**
- **فهل هو جامع أم مدرسة ؟**
- **عن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة القاهرة ما ملخصه : يقول المقريزي ما نصه : (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذاً فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة ، ومعني هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع ، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه ، علي أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة ، ونص العبارة : (وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل) ، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به ، ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق علي مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن**

---

[٥٢٧] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

[٥٢٨] هذه المدرسة تعد بحق من روائع العمارة الإسلامية فقد جمعت بين فخامة البناء وجمال الهندسة الدقيقة المتناسقة وروعة الزخرفة سواء المنقوشة منها علي الحجر أو الرخام أو الخشب ، أو تلك المحفورة علي النحاس المطعم بالذهب والفضة أو المرسومة علي الزجاج المموه بالمينا ، جاءت آية فنية في جمالها وجلالها لا مثيل لها في العمائر الإسلامية بالشرق وقد شُيدت هذه المدرسة سنة ١٣٥٨م بعد أن استغرق العمل فيها حوالي عشر سنوات تكلف خلالها أموالاً طائلة ، وتبلغ مساحة المدرسة (المسجد) حوالي فدانين

قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة ٧٧٩هـ – ١٣٧٧م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصاً إياه للتأريخ لأسرة قلاوون ، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتي أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للوقوف علي أخبار تلك الحقبة ،

- فماذا قال ابن حبيب عن هذا الموضوع ؟
- يقول ابن حبيب ما نصه : وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة ، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد ، عالي الأركان ، متسع الفناء يشتمل علي جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة ، وفيه المنبر ، وبه تقام الجمعة ، وعلي كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلي مدرستين وعلي كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك ، وعلي كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن ، الأيمن منهما مجاز إلي الجامع المذكور ، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة ، وعلي بابه سبيل

في جامع السلطان قم يا من أتي مصرا وطف سعياً بذياك الحرم

وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[٥٢٩]

- فهل توجد معلومات أخري عن السلطان حسن ؟
- تولي السلطان حسن حكم مصر سنة ١٣٤٧م ومرة ثانية سنة ١٣٥٤م (وأثناء فترة حكم السلطان حسن نُكِبت مصر بالطاعون الذي أزهق الأرواح حتي بلغ عدد الموتي في شهرين حوالي تسعمائة ألف ، وقلت المزروعات لموت الفلاحين فانتشر القحط والجوع في البلاد من جديد ، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضاً فكثيراً ما شوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهي ملقاة في البراري والطرقات وساد الحزن جميع أرجاء البلاد – – – – وخلت كثير من الديار)٥٣٠
- يا لها من مأساة مؤلمة ، فهل هناك أحداث أخري مهمة تمت في عصر المماليك البحرية ؟

آخر أيام المماليك البحرية

- في الحقيقة لازال هناك أحداث مهمة لابد أن أذكرها قبل أن أختم كلامي عن أهم الأحداث في مصر في عهد المماليك البحرية وسوف أحاول جاهداً أن أذكرها بإيجاز شديد " إن شاء الله " ، لنتحدث معاً عن

---

[٥٢٩] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

[٥٣٠] نقلاً عن كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان صفحة ٣١٨

أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية وكيف نشأت دولتهم وماذا حدث خلالها من أحداث مهمة ثم نتكلم بعد ذلك عن انهيار دولة المماليك البرجية وانتهاء عهد سلاطين المماليك عموماً ، أما ما حدث في أخر أيام المماليك البحرية فقد وقع ما يسمي بسنة الفناء أو الوباء الأسود وهذا الوباء هو نوع من المرض الخطير يصيب الإنسان ويؤدي إلي موته بعد قليل جداً من إصابته به ، وكان هذا الوباء سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٤٩ م في عهد السلطان الناصر حسن ولم يكن في مصر وحدها بل شمل جميع بلاد العالم ، حتي أن المقريزي ذكر أن الأسماك أيضاً قد أصيبت في البحر بهذا الوباء وبالرغم من أن هذا الكلام قد يكون مبالغ فيه إلا أنه يدل علي أن هذا الوباء قد قتل الكثير جداً من الناس والحيوانات والطيور (– ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتي حيتان البحر وطير السماء ووحش البر –)[٥٣١]

- وبالتأكيد قد أصيب الاقتصاد المصري في مقتل
- نعم ، وحدث نقص وعجز شديد في القوي البشرية وضعفت دولة المماليك البحرية

حملة صليبية جديدة في عهد الأشرف شعبان

- فماذا حدث أيضاً ؟
- أما الحدث الثاني الذي أود أن أذكره بعد ذكر الوباء الأسود فقد تعرضت مصر في عهد أحد أحفاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو الملك الأشرف شعبان لحملة صليبية وكانت الإسكندرية هذه المرة هي هدف الحملة (– ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريباً كاملاً وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين –)[٥٣٢]
- وإضعاف مصر لابد أن يبدأ بإضعاف اقتصادها وضربه في مقتل
- بكل تأكيد ، (– وإذا كانت موارد دولة المماليك في مصر تعتمد في معظمها علي ما تجبيه من مكوس وضرائب علي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر فقد أصدر الباباوات عدة قوانين تحرم علي التجار الأوروبيين التعامل مع المسلمين أو الاتجاه بسفنهم إلي مواني مصر والشام ولكن تجار الجمهوريات الإيطالية لم يطيعوا هذه الأوامر حفاظاً علي مصالحهم الاقتصادية المتبادلة مع مصر فاضطرت البابوية إلي إنشاء قوة بوليسية حربية تعمل علي اختطاف أولئك التجار الأوروبيين الذين يقدمون علي التعامل مع دولة المماليك كانت جزيرة قبرص خير مكان في شرق البحر المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها –)[٥٣٣] وحضر ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان إلي الإسكندرية بأسطول ضخم في ٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي

---

[٥٣١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٤ (نقلاً عن المقريزي)

[٥٣٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٦

[٥٣٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٧

فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس علي نفس الوزن من الخبرة والدراية فلم يحسن الدفاع عن المدينة واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل وعندما شعر بطلائع جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية ")٥٣٤ وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعاً مرعوباً حتي أنه ألقي بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفاً عليها من الغرق (– وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه " جاء المدينة لصاً وخرج منها لصاً –)٥٣٥ ، وهكذا وصلنا إلي آخر حدث مهم كنت أود أن أذكره من عصر المماليك البحرية

- وبالطبع مات كل سلاطين المماليك البحرية بما فيهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون دون أن يعرفوا أن دولتهم ستنتهي ، ولكن هل لديك فكرة عن أسباب نجاح أسرة قلاوون فقط في توريث الحكم في العصر المملوكي علي خلاف روح ذلك العصر ؟
- هناك عدة أسباب منها طبيعة أبناء وأحفاد قلاوون وما اتسم به بعضهم من قوة شخصية وقدرة علي القيادة كالأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون وقد يكون السبب هو الحل الوسط الذي كان يرضي به كبار الأمراء عندما يفشلون في الوصول إلي نتيجة مرضية ليصل أحدهم للحكم فيصبح تولي ذرية قلاوون حلاً مناسباً علي أن تكون إدارة شئون البلاد الفعلية في أيدي كبار الأمراء ،
- فهل تعرف أحد من كبار الأمراء الذين سيطروا علي مصر مع وجود ملك من أسرة قلاوون
- أعتقد أن أشهرهم حالياً الأمير طاز لوجود قصر فخم باسمه حتي الآن
- نعم إنه القصر التي تقام فيه أنشطة ثقافية وفنية حالياً فهل لديك معلومات عن هذا الأمير ؟
- سأذكر لك ما كُتِب عنه في كتاب الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك حيث أكد أنه أحد القصور التاريخية التي أنشئت خلال عصر المماليك في مصر والذي تحول في أيام علي باشا مبارك إلي مدرسة للبنات وقد كتب عنها بكتابه الممتع الخطط التوفيقية بالجزء الثاني صفحة ٤٦ ما يلي : (– – – ثم بعدها مدرسة البنات التي هي دار الأمير طاز ذكرها المقريزي فقال هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقاني علي يمنة من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر وباب زويلة أنشأها الأمير سيف الدين طاز في سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضا أربابها وبغير رضاهم وتولي الأمير منجك عمارتها وصار يقف عليها بنفسه حتي كملت فجاءت قصراً مشيدا واصطبلاً كبيراً وهي باقية إلي يومنا هذا يسكنها الأمراء انتهي ملخصاً (قلت) وهذه الدار اليوم هي المدرسة المعروفة بمدرسة البنات التي تجاه بيت الأمير عبد الله باشا فكري وحمام الفارقاني

[٥٣٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

[٥٣٥] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

المذكورة هي الآن حمام الألفي الواقعة خلف بيت الأمير المذكور وكانت هذه الدار قبل جعلها مدرسة جارية في وقف علي أغا أغاة دار السعادة وكانت الناظرة عليها امرأة تدعي نفوسة وفي زمن العزيز محمد علي باشا أخذت هذه الدار وجعلت مخزناً للمهمات الحربية وترتب للناظرة عليها مائة وخمسة وعشرون قرشاً ديوانياً في كل شهر واستمرت كذلك إلي زمن الخديوي اسماعيل أعني سنة إحدي وتسعين ومائتين وألف ثم رغب في إنشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن وكنت إذ ذاك[٥٣٦] ناظراً علي ديوان الأوقاف والمدارس فصرت أبحث عن محل يليق لهذا الغرض فلم أجد أليق من هذه الدار وكانت قد خليت من المهمات وانقطع راتب الناظرة عنها فجعلتها مسكناً للفقراء ومربطاً للدواب وكانت وقتئذ متشعثة ومتخربا أغلبها ولم يتحصل منها إلا ريع قليل فتكلمت مع الناظرة وجعلت لها خمسمائة قرش في كل شهر من جهة المدارس إن تنازلت عن نظارتها لديوان الأوقاف فعندما سمعت بذلك رضيت في الحال فشرعنا في عمارتها مدرسة من ذاك الوقت وتمت علي الصورة التي هي عليها الآن ولم نغير بابها بل بقي علي صورته الأصلية وأصلحنا خلل القاعة والمقعد وبعض الجهات القابلة للإصلاح وأنشأنا بها البناء القاسم للحوش وفتحنا الدكاكين القديمة التي كانت بواجهتها فجاءت بحمد الله مدرسة حافلة ومساكن فاخرة ودخلها نحو مائتي بنت يتعلمن فيها الكتابة وغيرها من الأشغال الدقيقة مثل الخياطة والتطريز ونحو ذلك وترتب بها الخوجات والمعلمات وهي عامرة إلي وقتنا هذا ويعمل بها امتحان في كل سنة

- **واضح أن علي باشا مبارك كان فخوراً بما صنعه بهذا القصر**
- **بالتأكيد وهو محق في ذلك بلا شك وإليك بعض ما ورد عن قصر الأمير طاز بموسوعة ويكيبيديا والذي يعتبر حالياً من أهم مراكز الإبداع الفني في القاهرة : يقع القصر بالقاهرة القديمة بمنطقة الخليفة بالقلعة بشارع السيوفية المتفرع من شارع الصليبة .أنشأه صاحبه الأمير سيف الدين طاز بن قطغاج، أحد الأمراء البارزين في عصر دولة المماليك البحرية، والذي بدأ يظهر اسمه خلال حكم عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون1345 – 1343) م (إلى أن أصبح في عهد أخيه الصالح زين الدين حاجى أحد الأمراء ممن بيدهم الحل والعقد في الدولة في ذلك الوقت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وعندما بلغ قصر الأمير طاز من العمر خمسمائة عام رأت الحكومة الخديوية أن تحيل القصر إلي الاستيداع وقررت تحويله إلي مدرسة للبنات بإيعاز من علي باشا مبارك أحد رواد التنوير حينذاك ولكن لم تمض سوي عشرات قليلة من السنين إلا وأخلت وزارة التربية والتعليم القصر ليس من أجل ترميمه والحفاظ عليه بعد أن ظهرت عليه آثار الشيخوخة بشكل واضح ولكنها أخلته لتحويله إلي.. مخزن! ولأن القصر كبير ومتسع ويقع في قلب القاهرة فقد كان مؤهلا من وجهة نظر الوزارة أن يكون المخزن الرئيسي لمئات الألوف من الكتب الدراسية وعشرات العربات التي**

---

[٥٣٦] أي علي باشا مبارك

تم تكهينها ومئات الأطنان من الخردة بمختلف أنواعها.. ولأن الناس علي دين ملوكهم فلم يستشعر سكان المنطقة حرجا في استعمال القصر كمقبرة للحيوانات النافقة!.. لم يحتمل القصر كل هذا الهوان وهو الذي شهد وشاهد مئات السنين من العز والنعيم فانطوي علي نفسه بعد أن داهمته الامراض والعلل وتمايلت الكثير من جدرانه وانهارت العديد من غرفه. ، وفي أكتوبر ١٩٩٢ تم إدخال القصر الي غرفة العناية المركزة بعد أن عصفت رياح الزلزال الشهير بالكثير من أركانه وأعمدته وعلي مدي عشر سنوات ظل الحال كما هو عليه إلي أن تم إعلان الوفاة إكلينيكيا في ١٠ مارس ٢٠٠٢ عندما انهار جانب كبير من الجدار الخلفي للقصر والمطل علي حارة ضيقة بها عشرات البيوت المتهالكة يسكنها مئات آلاف المواطنين أصبحت حياتهم جميعا مهددة بالخطر المنتظر بين لحظة وأخرى بعد أن أصبح الانهيار الكامل للقصر مسألة ساعات لا أكثر.. قامت وزارة الثقافة ببدء مشروع ترميم القصر بعد اهماله لفترات طويلة و لكن المهمة كانت صعبة للغاية بسبب تلف اجزاء كثيرة.. بيوت الخبرة العالمية والخبراء الاجانب اعتبروا أن الموضوع قد انتهي بالفعل وأن أي محاولات للإنقاذ مضيعة للوقت.. ولأن أبرز هوايات المصري في وقت الشدة هي تحدي المستحيل.. أو ما يبدو لغيرنا مستحيلا.. فقد هرول الجميع الي موقع القصر المنهار وفي لحظات بدأت أجهزة التنفس الصناعي وتدليك القلب في العمل بسرعة خارقة وتمت عملية الإنقاذ ووقف العالم مبهورا وهو يري الحياة تعود إلي القصر الذي تم ترميمه بكفاءة لا يمكن وصفها.. ولم يكتف المصريون بالانقاذ والترميم ولكن المفاجأة الأكبر كانت في الاكتشافات الأثرية المهمة التي واكبت ذلك وأدت إلي إزاحة الستار عن المزيد من خبايا القصر.. والعمل الذي تم إنجازه رائع بكل المقاييس ، تبلغ مساحة القصر الاجمالية أكثر من ثمانية آلاف متر مربع وهو عبارة عن فناء كبير في الوسط خصص كحديقة تتوزع حولها من الجهات الأربع مباني القصر الرئيسية والفرعية وأهمها جناح الحرملك والمقعد أو المبني الرئيسي المخصص للاستقبال واللواحق والتوابع والاسطبل. أما الآن فلم يتبق من هذه المباني سوي الواجهتين الرئيسية المطلة علي شارع السيوفية والخلفية المطلة علي حارة الشيخ خليل وهي التي بدأ منها الانهيار والمقعد الذي تم تجديده في عهد "علي أغا دار السعادة" صاحب السبيل والكتاب الملحقين بالقصر وجزء صغير من قاعات الحرملك فضلا عن القاعات المستحدثة التي استخدمت كمخازن أو قاعات دراسية في عصور لاحقة.

- إن الحديث عن هذا يعد تاريخ في حد ذاته يعبر عن الكثير من العبر والعظات أما الحديث عن صاحبه الأمير طاز فيعتبر نموذج علي بعض صراعات العصر المملوكي الذي تحدثنا عنها ، فيا له من قصر ويا له من عصر ، ولقد مات الأمير طاز ومات علي باشا مبارك ومات كل من كان يعيش في جميع المراحل التي مر بها هذا القصر ولم يعرفوا ما سيحدث له

- ونحن أيضاً سنموت دون أن نعرف ما سيحدث حتي لو أدركنا أي تغيير في الأحداث الحالية فسوف يتبعه تغييرات كثيرة لن نعرفها وكما قلت لك من قبل وأرددها دائماً ، لن تعرف ، لن تعرف
- إن حديثنا عن العصر المملوكي يؤكد بالفعل أن الأحداث فيه كانت تتلاحق بشكل سريع ومرعب ومثير رغم كل ما فيه من إنجازات وحضارة وانتصارات ، وهو من أوضح الأمثلة علي ما تقول من عدم إمكانية معرفة ما سيحدث ، ولكن هل كانت المعادلة صفرية في كل صراع كما فهمت أي لابد من القضاء التام علي الطرف الآخر في الصراع ؟
- الصراعات علي السلطة في العصر المملوكي كما ذكرنا يؤدي إلي انقسام بين المماليك ينتهي باختفاء أحد المتنافسين علي العرش سواء بالقتل أو السجن أو التنازل أو الهروب كما قلنا ولا يستمر القتال بعد ذلك ، ولا يحدث هذا الانقسام بين عامة الشعب المصري بشكل عام
- ولكن هل قد حدث انقسام بين عامة الشعب نفسه في مرحلة من مراحل التاريخ المصري ؟
- بالتأكيد هناك عدة انقسامات شهيرة قد حدثت بين صفوف الشعب المصري مثل الانقسام الذي حدث خلال أحداث الثورة العرابية وقد ذكره الرافعي وسوف نتناوله إن شاء الله ، وكذلك الانقسام الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ومؤيدي كل منهما وسوف نتناوله أيضاً إن شاء الله وغير ذلك من الاختلافات في الرأي والتوجهات السياسية وربما استمرت هذه الانقسامات حتي الآن
- وهل الانقسامات بين صفوف الشعب المصري تكون فيها المعادلة صفرية أيضاً ؟
- هذا يتوقف علي زعماء هذه الانقسامات والشحن الإعلامي وإثارة المتطرفين من الجانبين ، ولكن الشعب المصري بشكل عام شعب غير دموي كما قال الدكتور جمال حمدان أن مصر جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد
- إن هذا كلام مطمئن جداً ، والآن فلنعود لموضوعنا فكيف بدأت فكرة المماليك البرجية ؟

الفصل رقم (١٢) دولة المماليك البرجية في مصر

أصل المماليك البرجية

- لنتحدث عن أصل المماليك البرجية علينا أن نعود إلي عصر قلاوون الكبير عميد العائلة القلاوونية ونصعد إلي القلعة ونجلس معه وهو يفكر في موضوع خطير ومهم بالنسبة له ، فقد قرر الاعتماد علي قوات جديدة من نوع خاص وتتلخص الفكرة في شراء نوع جديد من المماليك بعيداً عن جزيرة الروضة وما تحتويه من مماليك بحرية ، وقام بالفعل بشراء مماليك جدد وجعل إقامتهم في أبراج القلعة وعزلهم عن الناس
- ولذلك تم تسميتهم بالمماليك البرجية
- نعم وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع (عزم السلطان المنصور قلاوون "٦٧٩-٦٨٩ هـ / ١٢٧٩—١٢٨٩ م " علي تكوين فرقة جديدة من المماليك تدين له بالولاء والطاعة ويعتمد عليها وتختلف في أصولها عن فرقة المماليك الأخرى التي غلب عليها عنصر الأتراك ولذلك أقبل علي شراء المماليك الجراكسة من المنطقة الواقعة بين بحر قزوين وبين البحر الأسود ، وأسكنهم في أبراج القلعة - - - فسموا البرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة ، وساعد قلاوون علي تحقيق رغبته كثرة الجركس في أسواق الرقيق - - - فضلاً عن رخص سعرهم آنذاك بالنسبة للعناصر التركية)[٥٣٧] ولقد كان السلطان يهتم بهم وبأحوالهم كما قال المقريزي
- وماذا قال المقريزي عن هذا الموضوع ؟
- لقد كتب المقريزي عن اهتمام أسرة قلاوون عموماً بالمماليك البرجية ثم شرح كيف انخفض مستواهم بعد أن انخفض مستوي الاهتمام بهم ، وإليك ما كتبه عن المكان المخصص لإقامتهم بالقلعة : (الطباق بساحة الإيوان) : عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتي رأي فيه عيباً اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه ، وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها ، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يوماً في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون ، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره

---

[٥٣٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤

عرضه علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار

- أي أن المنصور قلاوون أراد أن يكون برنامج إعداد المملوك كما كان علي عهد الملك الصالح كما تم إعداده هو شخصياً وأن يأتي المملوك صغيرا في السن
- نعم - - وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم
- هذا كلام جميل جداً فماذا حدث بعد ذلك ؟
- ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعي الحال في ذلك بعض الشئ إلي أن زالت دولته في سنة أحدي وتسعين وسبعمائة ، فلما عاد إلي المملكة رخص للمماليك في سكني القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلي البطالة ونسوا تلك العوايد ، ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم غيرها حتي عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لكل واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره هذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر علي أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم

- يا له من قرار له عواقب وخيمة
- فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أر ذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين ما فيهم إلا من هو أزني من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلي مجري الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتي أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه ، وبلغت عدة المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم افاض علي من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتي يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلي عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلي وظيفة من وظائف الخدمة ، بل اقتضي رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة ، فأتاه من المماليك شئ كثير رغبة فيما لديه حتي كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلي مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلي مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلي سبعين ألف ثم تزايدت حتي صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، مائتين وعشرين ألف درهم[٥٣٨]
- هذا يعني أن المنصور قلاوون الذي هو من المماليك البحرية اهتم بإعداد المماليك البرجية ولم تستمر هذه الرعاية بعد وفاته ، ولكن موضوع السماح لهم بمغادرة القلعة يعتبر تطور خطير في رأيي
- يغادرون القلعة (بشرط ألا يبيتوا خارجها مما أدي إلي وقوفهم علي الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس)[٥٣٩] وزاد نفوذ المماليك البرجية تدريجياً إلي أن قويت شوكتهم في عهد سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون
- إنها خطوات لا تستطيع أن توقفها أو تتحكم فيها طالما بدأت الخطوة فلن تعرف ما الذي سيحدث بعد وفاتك وإلي أين ستتجه خطوات من سيأتي بعدك

---

٥٣٨ نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي

[٥٣٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤

- بالفعل لقد كانت الخطوة الكبري في تأسيس دولة المماليك البرجية والإطاحة بدولة المماليك البحرية عندما ظهر علي مسرح الأحداث الأمير برقوق
- ومتي كان ذلك ؟

الظاهر برقوق يؤسس دولة الجراكسة

- في عهد أحد أحفاد الناصر محمد استطاع أحد المماليك البرجية التدرج في المناصب والوصول إلي منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠ هـ " ١٣٧٨ م "[٥٤٠] وهذا المملوك هو الأمير برقوق الذي انتهز اضطراب الأحوال في البلاد وضعف دولة المماليك البحرية ووجود سلطان صغير السن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ووسط كل هذا تمكن برقوق من الوصول للسلطة حيث عقد اجتماعاً مهماً وكبيراً بالقلعة حضره الخليفة العباسي والقضاة (قرروا فيه : " إن أحوال المملكة قد فسدت وتزايد فساد العربان في البلاد من الشرقية والغربية والصعيد ، وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير صالحة وإن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير – – – يردع العربان ويمهد البلاد ويسكن الاضطراب ويقمع أهل الفساد – –)[٥٤١]
- دائماً تكون الحاجة في مصر إلي حاكم قوي ، ولا أدري هل مصر هي التي في حاجة إليه أم أنه في حاجة إليها ، وسبحان الله ما أكثر ما يتكرر هذا المشهد في تاريخ مصر منذ الفراعنة
- وهكذا تم إعلان الأمير برقوق سلطاناً علي البلاد وأصبح لقبه السلطان الملك الظاهر برقوق وبذلك قامت دولة المماليك الجراكسة بكل بساطة
- وبالتأكيد قام الجراكسة بشراء المزيد من الجراكسة
- ويبدو أن سلاطين المماليك البرجية لم يكتفوا فقط بشراء مماليك سعرهم منخفض بل إنهم قرروا شراء مماليك كبار في السن فكان المملوك يصل مصر شاباً كبيراً وليس طفلاً صغيراً وتم تسميتهم بالمماليك الجلبان أو الأجلاب الذين جلبوا إلي البلاد كباراً
- وقد أدي هذا بالطبع إلي اختفاء عملية إعداد المملوك التي كانت تحدث أيام المماليك البحرية مما أثر علي سلوكيات المماليك بشكل واضح أليس كذلك ؟
- لا شك (وصار تجار الرقيق يجلبون إلي مصر المماليك الكبار ، في الوقت الذي بخل عليهم السلاطين بالمال والتربية الصالحة ، ولم يدفعوا بهم إلي فقيه أو مؤدب ، وتهاونوا في تربيتهم ، فضعفت روحهم العسكرية وكثرت ثوراتهم وصاروا مصدر قلق واضطراب وفوضي – – وخير تعبير عن حالة المماليك الجراكسة وما طرأ عليهم من فساد وتدهور ما وصفهم به المقريزي فقد قال في نقد لاذع " وصارت

---

[٥٤٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥

[٥٤١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥

المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين – –)[٥٤٢]

- وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت – – – فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- وهكذا كان بدء هبوط منحني دولة المماليك التي بدأت برجال أقوياء وسلاطين عظماء جاهدوا تحت راية الإسلام وكانت لهم صولات وجولات في ميادين القتال وقهروا الصليبيين والتتار وكان تقديرهم للدين الإسلامي واعتزازهم به واعتمادهم عليه واحترامهم لعلماءه سبباً رئيسياً لانتصاراتهم ومجدهم وهذا الاهتمام بالدين كان ناتجاً عن نشأتهم نشأة صالحة دينية منذ نعومة أظافرهم أما ما وصل إليه الحال في نهاية عهد المماليك الجراكسة فسوف نعرفه أثناء الحوار عن الخيانة والفساد وانتشار الفوضى واللامبالاة التي أدت إلي انهيار دولتهم
- قبل أن نسترسل في الحديث عن دولة المماليك البرجية أرجو أن تحدثني علي الملك الظاهر برقوق
- تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة ١٣٨٢م ، وكان محباً للفروسية ميالاً للعب بالرمح ، ولقد ألغي السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر ، وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن،
- كل هذه البلاد كانت تحت سيطرته ، وبالطبع لم تكن هناك حدود بينها
- بالتأكيد لقد كانت دولة واحدة كبيرة لفترة كبيرة من الزمن وليس في عصر المماليك فقط بل تم السيطرة علي ما يسمي حالياً بالشرق الأوسط من معظم حكام مصر البارزين منذ تحتمس الثالث أيام الفراعنة مروراً بكبار القادة من أمثال ملوك الفرس والاسكندر وبطليموس الأول والرومان وبعد ذلك الدول الإسلامية المتعاقبة كالأموية والعباسية ثم الطولونية والإخشيدية والأيوبية ثم المملوكية كل هذه الدول لم تعرف الحدود المعروفة حالياً بينها
- فمتي كانت المرة الأولي في التاريخ التي يتم رسم حدود بين هذه الدول ؟
- بعد الاحتلال البريطاني والفرنسي وتوقيع اتفاقية سايكس بيكو بينهما كما سنري لتقسيم مناطق نفوذ كل دولة منهما بعد سقوط آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب في المنطقة
- هذا يعني أنه عند حدوث أي خلاف علي الحدود بين هذه الدول حالياً يجب أن نعود إلي اتفاقية سايكس بيكو لحسم الأمر

---

[٥٤٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٦

- بالتأكيد فقد ترك المحتلون المنطقة العربية والأفريقية مع وضع بذور الاختلاف بين هذه الدول علي الحدود لأنها لم تكن حدود طبيعية كما في أوروبا ولكنها خطوط مستقيمة مرسومة علي الخريطة باليد
- وماذا تقصد بالحدود الطبيعية ؟
- أقصد أن يفصل بين الدول سلسلة جبال مثلاً أو بحر أو نهر أو أي تضاريس طبيعية توضح حدود الدولة منذ أن سكنها القدماء وليس خط مستقيم تم تحديده علي الخريطة في اتفاقية
- نعم فهمت ، نعود إلي الظاهر برقوق الذي مات دون أن يعرف أن دولته ستتمزق وتتحول إلي أشلاء
- نعود لما كنا نتحدث عنه ، فعندما توفي الظاهر برقوق دُفِن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ، وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في (بين القصرين)
- فهل لديك معلومات عن هذه المدرسة ؟
- أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخراً أن صورته استعملت رمزاً لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجداً جامعاً
- وهل هناك أحداث شهيرة غير ذلك في عهده ؟
- نعم فعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضاً جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، – – ونحن لهذا العهد

نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت)[٥٤٣]

- فماذا حدث بعد ذلك في عصر المماليك البرجية ؟

فتح قبرص ومحاولات فتح رودس وأحداث أخري في عصر المماليك البرجية

- لم ينس المماليك ما فعله ملك قبرص عندما نهب مدينة الإسكندرية وهرب بأسطوله كاللصوص وظل دافع الانتقام موجود ولكن لم تكن هناك فرصة مناسبة علي ما يبدو للرد علي هذه الحملة ، ولكن تم الرد بعد ستين سنة من حدوثها وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص (الأولي سنة ٨٢٧ هـ "١٤٢٤ م " والثانية سنة ٨٢٨ هـ " ١٤٢٥ م " والثالثة سنة ٨٢٩ هـ "١٤٢٦ م ")[٥٤٤] وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م)[٥٤٥]
- وهل كانت هناك محاولات أخري للسيطرة علي جزيرة رودس ؟
- بعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلي جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم علي بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية (ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق " ٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م " دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م أربع سفن للصليبيين حتي قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقاراً وغيرها ثم عادت أدراجها - - - وكان من المستحيل علي دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكاراً يخرجون منها للإغارة علي شواطئ مصر - - - ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته علي مياه شرق البحر المتوسط -)[٥٤٦] وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة وهذا باختصار شديد جداً ما حدث
- سمعت أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان تقريبا في العصر المملوكي فهل هذا صحيح ؟

---

[٥٤٣] نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان ، وكتاب (مصر في العصور الوسطي – الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

[٥٤٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٧

[٥٤٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٩

[٥٤٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٠

- (كانت النزعة الاستعمارية هي القاعدة العريضة التي قامت عليها الكشوف الجغرافية في أواخر العصور الوسطي وفي هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي وشجعها البابوات ، علي أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف وتحطيم سيطرتهم علي تجارة الهند التي تمثل المنبع الرئيسي لثروتهم ورخائهم ، وفي ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ م " ٩٠٤ هـ " بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور تمكن فاسكو دي جاما من الطواف حول أفريقيا من طريق رأس الرجاء الصالح)[٥٤٧] وبوصول البرتغاليون إلي الهند تم ضرب اقتصاد الدولة المملوكية في مقتل ،
- إنها ضربة قاسية للاقتصاد المملوكي الذي يعتمد علي تجارة الترانزيت
- بكل تأكيد (وعبثاً حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية ، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتحطيم أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م "٩١٥هـ" فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة وتدهور مركزها الاقتصادي)[٥٤٨] ولأول مرة تقريباً يذوق المماليك طعم الهزيمة الساحقة التي لم تحدث لهم منذ نشأة دولتهم وحتي هذه المعركة
- ومن من السلاطين الجراكسة يمكن أن نتحدث عنه بعد برقوق وبرسباي وجقمق ؟
- يمكننا ان نتحدث عن الأشرف إينال والأشرف قايتباي والغوري وطومان باي
- إنها أسماء معروفة بالفعل ولنبدأ بالسلطان الأشرف إينال

السلطان الأشرف إينال

- هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين ٨ ربيع أول عام ٨٥٧ هـ. الموافق ١٩ مارس ١٤٥٣م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات
- وماذا تعني كلمة إينال ؟
- يقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر« وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام ٨٣٦ هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام ٨٤٩ هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من

---

[٥٤٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧١

[٥٤٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٢

خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني

- الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح ؟
- نعم وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال : (- - إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (٢٩) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ } (١٢٣) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً - - فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولي هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } (٤٥)، (٤٦) سورة القمر)[٥٤٩]
- وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح
- نعم كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها
- فماذا كان رد السلطان إينال علي رسالة السلطان محمد الفاتح ؟
- قام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزايم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها - - - إذا ما تهدت موجه المتـلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم[٥٥٠]

- ومتي كان تحديداً تاريخ فتح القسطنطينية ؟

---

[٥٤٩] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩ ، ١٥٠

[٥٥٠] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)صفحة ١٥١

- كان فتح القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هجرياً (٢٩ مايو ١٤٥٣ ميلادياً) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية[551]
- سبحان الله إنها القسطنطينية عاصمة أباطرة الروم الشهيرة والتي كانت معقل من معاقل أعداء الإسلام منذ الإمبراطور هرقل الشهير حيث كانت الدولة البيزنطية الكبرى المسيطرة علي بقعة ضخمة من العالم ولا تنافسها إلا دولة الفرس ، بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتحها القسطنطينية وقد انتظر المسلمون هذا الحدث ومر عليهم خلفاء كبار وسلاطين أقوياء دون أن يتم فتح القسطنطينية ولكنهم كانوا علي ثقة كاملة من أن بشارة رسول الله صلي الله عليه وسلم سوف تتحقق في يوم من الأيام
- وقد تحققت بالفعل بفضل الله تعالي علي يد الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت ترفع راية الجهاد في سبيل الله ، وكنت قد أشرت إشارة سريعة وعابرة عن نشأة هذه الدولة بعد معركة بيبرس الشهيرة ضد المغول وأخذت هذه الدولة تنمو وتزدهر وتتوسع وكانت تربطها علاقات طيبة وحسنة مع دولة المماليك والخليفة العباسي في مصر وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك
- كانت هذه أهم الأحداث في عصر الأشرف إينال فماذا عن قايتباي ؟

السلطان الأشرف قايتباي

- تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ١٤٦٨ م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وفي عهده وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة
- فهل كان هذا الموقف سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ؟
- بالتأكيد فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ١٤٨٤ م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك ، وقد وقعت معركة أخري سنة ١٤٨٦ م حيث التقي جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتي قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفاً وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات

---

[551] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

- يبدو أن الجيش المملوكي في عصر قايتباي كان من أقوي الجيوش في المنطقة إن لم يكن أقواها علي الإطلاق
- نعم فقد كان المماليك لا يزالون محتفظون بقوتهم وكفائتهم القتالية العالية، واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة ١٤٩٢م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول
- نعم بكل تأكيد
- وتعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي ، وتم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ،
- أي أن مكان هذه القلعة كانت منارة الاسكندرية المشهورة تاريخياً؟
- بالتأكيد وقد أنشأ قايتباي القلعة المعروفة باسمه سنة ١٤٧٩ م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أسوأ الأثر ، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي ، وولد في سنة ١٤٢٣ م ، وبويع بالسلطنة سنة ١٤٦٨ م ، وقد ظل ملكاً لمصر نحو ٢٩ سنة ،
- وهل أمر بتشييد منشآت أخري ؟
- نعم فقد أقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم
- من الواضح أن قايتباي كان من السلاطين البارزين في دولة المماليك البرجية

- نعم وقد قام المؤرخ ابن اياس الحنفي بوصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج[٥٥٢] كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فكتب ما يلي : وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خِلَع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً ، ويستمر وصف ابن إياس فيقول : سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م) : فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاة السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه ، فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة

---

[٥٥٢] تم إدراج هذا الوصف لعودة السلطان من الحج لما يحتويه من تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر

وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك ، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجه المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان

لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان

والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران

ثم الصلاة علي النبي المصطفي ،،، عدد الرمال بجملة الكثبان

- **بالفعل هذا الوصف لعودة السلطان من الحج يحتوي علي تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر**
- **فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك**
- **إنه وصف رائع بالفعل ، فهل كانت هناك مواقف تاريخية تستحق الذكر ؟**
- **هناك موقف تاريخي في غاية الأهمية وهو محاولة إنقاذ الأندلس قبل سقوطها**
- **إنه موضوع أهم فماذا حدث ؟**

محاولة إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

- **في الحقيقة إنه من المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر وهو محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية وقد وردت هذه المحاولة في كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان حيث كتب ما يلي : قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية ، – – – في سنة ١٤٨٩ كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري**

تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء - - - - ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلي شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، - - - وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلي دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تترى منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية

- هذه الرسائل كانت تطلب من أقوي الدول الإسلامية في العالم في ذلك الوقت التدخل لإنقاذ الأندلس ؟
- نعم وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلي أدائها - - - ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة١٤٨٧م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي : وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم
- وكيف كانت الاستجابة لهذه الرسائل ؟
- مهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، - - ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ،
- أي أنه استعان بالدبلوماسية بدلاً من القتال واختار لأداء المهمة رعاياه من النصاري ، يا لها من حكمة فماذا كتب في رسالته ؟
- وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن

رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ،

- **فماذا في يده ليفعله إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه ، وإلا فقد تكون رسائل لا قيمة لها ؟**
- **نعم فقد أضاف أيضاً هذا التهديد : هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة[٥٥٣] ،**
- **أي ما يسمي حاليا المعاملة بالمثل ، فماذا حدث بعد ذلك**
- **لقد تم الرد علي قايتباي بأن هذه المعارك والصراعات ليس لها علاقة بالاضطهاد الديني ولكن لاستعادة الأرض فقط ، وهو ما ظهر عكسه تماماً بعد سقوط الأندلس والتنكيل بالمسلمين**
- **فهل نفذ المماليك تهديداتهم بعد سقوط الأندلس بشأن معاملة رعاياهم من النصاري ؟**
- **بالطبع لا ، فهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحة مع أهل الذمة**
- **إن سقوط الأندلس بالتأكيد كان له أثره المحزن علي جميع المسلمين بلا شك ولكنهم كانوا في حالة من الصراعات فيما بينهم شغلتهم عن القيام بواجبهم لإنقاذ الأندلس ، وقد بدأت المعارك بالفعل بين أقوي دولتين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت العثمانية والمملوكية وكانت النهاية في عصر الغوري فيما أعتقد**
- **نعم ودعنا نتحدث قليلا عن الغوري**
- **أتمني ذلك**

السلطان الأشرف قنصوة الغوري

- **تولي السلطان الأشرف قنصوة الغوري حكم مصر سنة ١٥٠١م وكان يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكانت القاهرة من أرقي عواصم العالم فنا وحضارة وعلماً وعمارة ، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :وأما ما أنشأ من العمائر التي**

---

[٥٥٣] كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢٠٢ وما بعدها

بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنياً بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة ، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج ، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك ، وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين ،

- يبدو أنه كان يعشق البناء
- نعم ويستمر ابن اياس في وصفه فيقول : وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون[٥٥٤]
- فما أهم الأحداث التي وقعت في عهده ؟
- لقد حدث صراع مرير بين الدولة المملوكية والبرتغاليين لتأمين التجارة في البحر الأحمر وقد (بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلي البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن

---

[٥٥٤] نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦ صفحة ٥٦، ٥٧

ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في –البحار– الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

- **أي أنه لم يكتف باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بل قام بنشر الرعب بين التجار في البحر الأحمر**
- **نعم وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعي جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك ، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادي الآخرة سنة ٩١١هـ – ٤نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر)٥٥٥ ،**
- **وكيف تطور هذا الصراع ؟**

---

[٥٥٥] من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠ صفحة ١٢١ وما بعدها

- لم تستمر الدولة المملوكية لاستكمال هذا الصراع ولكن حلت محلها الدولة العثمانية وتولت مسئولية العالم الإسلامي وانتهت فترة حكم السلطان الغوري بل انتهت حياته كلها في معركة مرج دابق وقد وردت كل هذه الأحداث في كتاب ممتع للمؤرخ ابن اياس الحنفي أسمه بدائع الزهور في وقائع الدهور
- أرجو أن تقرأ لي بعض سطور من هذا الكتاب
- لا مانع ، بل وستكون فرصة لتتعرف علي بعض تفاصيل ذلك العصر ، يقول ابن إياس : - - - - وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان – الأشرف قنصوة الغوري – وليمة حافلة بالمقياس ، واجتمع بها القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة ، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل ، وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالي في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعاً دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر ، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلي الأبواب الشريفة الأمير طومان الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل ، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلي الجيزة فنزل إلي المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان ، فلما طلع إلي القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر علي ذلك حتي دخل إلي داره ، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة ، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيساً حشماً جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلي عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالي عليه ، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفي بعد الظهر ، وعلق الستر علي شباك القصر الذي أنشأه السلطان علي بسطة المقياس ، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعاً وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب ، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق الثالث عشرين مسري ، فتح السد وكان يوماً مشهوداً قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد علي العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم ، وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة   سرت قلوب العالمين لبشره

ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين لكسره

- يبدو أن هذا الاحتفال كان من أهم الأيام في مصر في تلك الأيام وعدد الأصابع التي تزيد وتنقص كانت أهم ما يشغل الناس ، وسبحان مغير الأحوال
- ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك احدي عشرة أصبعاً في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعاً من ثماني عشرة ذراعاً وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر ، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر ،
- إنها تفاصيل تعبر عن الكثير عند تأملها ولكن بالطبع لم تستمر هذه الأوضاع
- بالتأكيد فعصر المماليك البرجية كان قد وصل إلي فترة اضمحلال وضعف وأصبحوا غير قادرين علي مواجهة أعداء الأمة وخاصة ما يصنعه البرتغاليون في البحر الأحمر بالقرب من المقدسات الإسلامية
- إذن فقد حان الوقت لقيام دولة اسلامية أخري قادرة علي صد الأعداء بعد أن فشلت الدولة المملوكية ، فقامت الدولة العثمانية بالقضاء علي الدولة المملوكية وتحملت مسئولة العالم الإسلامي ولكن كيف حدث ذلك ؟
- إليك وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي لمعركة مرج دابق التي وقعت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول : (في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة[٥٥٦] من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية – – فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب)[٥٥٧] ، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة – – وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان)[٥٥٨] ، (وفي يوم السبت سادس عشر شعبان ٩٢٢

---

[٥٥٦] مطالعة = رسالة مكتوبة

[٥٥٧] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١٩

[٥٥٨] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ٢٠

هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان – – فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق – – فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً وياليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي[٥٥٩] بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة – – ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر – – وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال)[٥٦٠] (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصي عدده)[٥٦١] ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل)[٥٦٢] والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد ، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة

- إنه وصف بليغ لما حدث ، حتي أنني لم أرغب في مقاطعتك حتي تنتهي تماماً من القراءة ، ومن الواضح أن ابن إياس الحنفي كان يتميز بأسلوب رائع

---

[٥٥٩] كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[٥٦٠] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٥ ، ٣٦

[٥٦١] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٨

[٥٦٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٠

وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي

- بالتأكيد وإليك وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي كما ورد بكتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢١٩ وما بعدها : ، ، ، وفي هذا القسم من روايته ، أعني تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلي سنة ٩٢٨هـ ، يبدي ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلي سير الحوادث نفسها وإلي المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق ، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف علي صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية ، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها ، ولكن لابن اياس فضلاً في ذلك ، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ، فنري في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام ، ونري الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث ، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة ، ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام ، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو علي يد خاصته وأمرائه ، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد ، – – – –ونري مما يذكر إلي أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات – – – كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء تصويراً قوياً شائقاً
- من حسن الحظ أنه عاصر نهاية المماليك وبداية العصر العثماني

- كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم ابن اياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة ٩٢٨هـ – ١٥٢٢م – ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ – – فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميا مسهباً يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة ، وهو لا يمهد فيه إلي الحوادث ، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع ، وكل ما هنالك ان ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة ، – –ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة ١٥١٦م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدي النكبة في القاهرة وكيف قام (نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال) ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أري   فيما سمعت حوادثاً مما جري
لا زالت الأيام يبدو فعلها   بعجائب وغرائب بين الوري
لكن هذه وقعة ما مثلها   سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغوري كان مليكنا   لكنه قد جار فينا وافتري
أعماله ردت عليه بما جني   والدهر جازاه بأمر قدرا

- وصلنا إذن في حديثنا إلي طومان باي

السلطان الأشرف طومان باي ونهاية دولة المماليك البرجية في مصر

- تولي السلطان الأشرف طومان باي حكم مصر سنة ١٥١٦م بعد مقتل السلطان الغوري وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلي لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ،(ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)[٥٦٣] ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصي درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية – – وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)[٥٦٤] ، وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد

---

[٥٦٣] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٤١

[٥٦٤] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٣

الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً)٥٦٥ ، وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)٥٦٦ ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان - - فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق - - حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي - - وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)٥٦٧ ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً

- وهل فر طومان باي ؟
- كتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي - يقع - مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم - - فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل - - وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال :)٥٦٨

قليل الحظ ليس له دواء - - - ولو كان المسيح له طبيب

- يبدو أن الجميع قد تخلي عنه والتفوا حول السلطان سليم الأول المنتصر
- (- وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)٥٦٩

إذا لم يكن عون من الله للفتي - - - فأول ما يجني عليه اجتهاده

- فكيف تم شنقه علي باب زويلة كما هو معروف ؟
- كان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن

---

[٥٦٥] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٩

[٥٦٦] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٠ ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن ابن اياس الحنفي كان شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

[٥٦٧] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٢

[٥٦٨] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٩٢

[٥٦٩] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٠٦

للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق

- يا لها من نهاية مؤلمة لبطل شجاع وسلطان محبوب
- (- فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته - - وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)[٥٧٠]
- فماذا كتب المؤرخون عن هذا الموقف ؟
- يري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)[٥٧١]
- جثة مصر وليست جثة طومان باي
- نعم هكذا وصفها الأستاذ محمود السعدني
- وصلنا إذن في الحديث إلي العصر العثماني

---

[٥٧٠] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١١١

[٥٧١] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٦٧

الفصل رقم (١٣) الحكم العثماني لمصر

ملخص العصر العثماني

- يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلي عصرين رئيسيين ، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف ، وقد بدأ هذا التحول تقريباً بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني[٥٧٢] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية ، وقد (اتفق المؤرخون علي أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام ٩٧٩ هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط ، وإذا تأملنا معاً العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلي حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريباً
- بعبارة أخري لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم
- نعم ، وهذا يفسر سر كراهية العديد من المصريين حالياً لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم علي الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الثاني فقط ، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال عثمان الأول مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعني أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات حميمة وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة
- بالفعل قد تكلمنا من قبل عن الرسالة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح إلي الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وأهل مصر بشكل عام والتي أخبرهم فيها بفتح القسطنطينية
- بل إن قبل ذلك بفترة وتحديداً في عصر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول رسالة إلي الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظراً لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها
- يريد شرعية الحكم من الخليفة العباسي ؟
- نعم ، وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع ، (واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل علي وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته علي كل شبه جزيرة الأناضول ، كما أرسل إلي الخليفة العباسي المقيم

---

[٥٧٢] (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة ٦٣٥

بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتي يتسنى له بذلك أن يسبغ علي السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي)٥٧٣ وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخياً أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي (وأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا)٥٧٤

- وكما قلنا من قبل أنه عندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية
- وهنا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتاً طويلاً بعد ضم مصر حتي بدأت الدولة العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشاهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شئونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخري كما سنري ، وعندما تولي السلطان سليم الأول العرش العثماني سنة ٩١٨ هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ (فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقياً نحو المشرق الإسلامي)٥٧٥ ويؤكد الدكتور علي الصلابي أن تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق كان (من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتي يسهل عليهم ابتلاعه)٥٧٦
- بالطبع قد لاحظنا فعلاً مما سبق أن الدولة المملوكية أصبحت تعاني في آخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلاً عن تفشي الفساد بها ،
- ومن أسباب توجه العثمانيون أيضاً نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أنذر ببسط النفوذ الشيعي علي العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون (إلي الخروج إلي المشرق العربي لحماية آسيا الصغري بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة)٥٧٧ وقد وجد سليم

---

[٥٧٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٨٩

[٥٧٤] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٣٩

[٥٧٥] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٧

[٥٧٦] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨

[٥٧٧] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨

الأول تهاوناً كبيراً من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران[٥٧٨]

- **في آخر أيام المماليك بالطبع**
- **نعم ، ومن هنا قرر سليم الأول ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداء ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تماماً لقتال الدولة الصفوية**
- **فكم كان يبلغ عدد الولاة علي مصر خلال العصر العثماني ؟**
- **خلال فترة الحكم العثماني لمصر (تتابع علي مصر في هذه الفترة "١٣٦" من الولاة عاصروا "٢١" من السلاطين العثمانيين)[٥٧٩] وأول هؤلاء الولاة المذكورين في موسوعة حكام مصر هو خاير بك**
- **الذي كان نائباً للسلطان الغوري في حلب وكان قائد ميسرة جيشه في معركة مرج دابق الشهيرة**
- **نعم وأصبح يلقب بلقب خاير[٥٨٠] باشا بدلاً من خاير بك لأن والي مصر كان يلقب بالباشا تمييزاً له عن باقي البكوات من المماليك وكانت مدة ولاية خاير باشا خمس سنوات وثلاثة شهور (وخلال فترة ولايته علي مصر توفي السلطان سليم في ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وتولي السلطنة من بعده السلطان سليمان القانوني الذي أبقي علي خاير باشا والياً علي مصر)[٥٨١] ،**
- **هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند خاير بك ؟**

ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك

- **كان كما قلنا الأمير خاير بك نائب حلب للسلطان الأشرف قنصوة الغوري ، وعندما وقعت معركة مرج دابق في شمال سوريا بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول ، تولي خاير بك قيادة الميسرة في جيش الغوري كما هو معروف ولكنه كان علي اتفاق مع السلطان العثماني ضد السلطان الغوري ، فانسحب بميسرة الجيش أثناء المعركة بدون مبرر وكان ذلك من أهم عوامل هزيمة جيش مصر في معركة مرج دابق أمام الجيش العثماني ، والذي ترتب عليها بعد ذلك ضم مصر للحكم العثماني ، وعن خيانة الأمير خاير بك يقول المؤرخ ابن إياس الحنفي : (وممن كان موالساً علي السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه إلي حماه ، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة ، وقص ذقنه ، وسماه السلطان العثماني (خاين بك) لكونه خان**

---

[٥٧٨] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٢٥

[٥٧٩] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٤

[٥٨٠] قام سليم الأول في ذلك الوقت بإطلاق لقب خاين بك علي خاير بك لأنه خان السلطان الغوري

[٥٨١] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٥

سلطانه وطاع ابن عثمان ، فلما جري ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا إلي مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان)[٥٨٢]

- يبدو أن ابن إياس لم يترك هذا الموقف يمر هكذا دون أن يشير إليه
- إنها أمانة المؤرخ
- فما هي أهم القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول بعد سيطرته علي مصر ؟

إجراءات سليم الأول في مصر

- أقام سليم الأول في مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل٥٨٣ ومن المؤكد أنه لاحظ مدي ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلي أن تصبح قوة عظمي لولا الفساد الذي انتشر بين حكامها ،
- يبدو أن سليم الأول نظر إلي مصر النظرة التي تكلمنا عنها من قبل حيث عرف قدراتها وعرف ما الذي يمكن أن تقدمه لمن يحكمها من إمكانيات جبارة
- بالتأكيد ولذلك قرر بعض الإجراءات تجاهها وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد علي السلطة كلها في يده
- طبعاً مع فارق التشبيه تذكرنا هذه الإجراءات إلي حد كبير مع إجراءات الإسكندر المقدوني عندما قام بتوزيع السلطات في مصر كما تذكرنا أيضاً بموقف الإمبراطور أغسطس من مصر وخوفه الشديد من تحقيق الاستقلال إذا استقر بها حاكم قوي طموح
- وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى ، الأولي سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)٥٨٤

نفوذ المماليك من سلاطين إلي بكوات

- فماذا حدث للمماليك ؟
- يؤكد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي أن هذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثماني (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين

---

٥٨٢ نقلاً عن كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

[٥٨٣] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٨

[٥٨٤] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٩

فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهي التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ،

- ومتي حدث ذلك ؟
- حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم)٥٨٥
- ومن هنا عاد نفوذ المماليك مرة أخري في مصر ولكن ليست في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات
- نعم وجدير بالذكر أن من أشهر هؤلاء البكوات المماليك علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب وإبراهيم ومراد بك ومحمد بك الألفي ، حيث وصل نفوذ المماليك إلي درجة من القوة لم تكن موجودة مع بداية ضم مصر للدولة العثمانية (قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ م من استئثار المماليك بالحكم : " إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا " الوالي العثماني " يخالف لهم أمراً وكانوا يملكون عزله)٥٨٦
- وكيف استفاد السلطان العثماني من ثروات مصر ؟
- نقل سليم الأول كل ما له قيمة في مصر من أموال وكنوز وأسلحة وخاصة ما كان بالقلعة من خزائن المال والكتب إلي اسطنبول٥٨٧ (وحمله إلي اسطنبول بالطريق البري علي آلاف الجمال وفي أعداد لا تحصي من المراكب)٥٨٨ ويقول د عبد المنعم ماجد عن سليم الأول (وفي سبيل القضاء علي مقومات مصر الحضارية سعي سليم إلي أن يفرغها من كل نابه فيها ، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلي اسطنبول ، فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء الذي تقرر سفرهم من مصر إلي اسطنبول حيث خصص فصلاً في كتابه لمن توجه منهم إلي القسطنطينية علي حد قوله وهم من جميع نواحي مصر من المسلمين والقبط واليهود علي السواء منهم أصحاب الحرف والصناعات كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانة أي السلاح والذين يشتغلون بصناعة النسيج - - كما أخذ جماعة من التجار)٥٨٩ ومن هنا يتضح أن إجراءات

---

[٥٨٥] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥

[٥٨٦] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥ ، ٣٦

[٥٨٧] طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩

[٥٨٨] طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩

[٥٨٩] طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٩٢

سليم الأول التي اتخذها نحو مصر كان الغرض منها إفقادها أسباب القوة والحضارة حتي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك قد تشكل خطراً علي دولته

- أو قد يكون السبب هو محاولة نقل الحضارة المصرية إلي اسطنبول والله أعلم
- المؤكد تاريخياً أن عدد المدارس والاهتمام بالعلم والتعليم في مصر قد انخفض بشدة خلال العصر العثماني بعد أن كان مزدهراً في العصر المملوكي ، وأصبح الجامع الأزهر هو المصد الوحيد للعلم في مصر تقريباً والله أعلم ، وكانت اللغة التركية في العصر العثماني هي السائدة وانتشرت المصطلحات التركية في مصر والأمة الإسلامية بشكل كبير مما أدي إلي تهديد اللغة العربية في الصميم ولكن وبحمد الله وفضله سبحانه وتعالي كان هناك من جعلهم الله أسباباً لحفظ اللغة العربية اللغة التي نزل بها القرآن الكريم والذي تعهد سبحانه وتعالي بحفظه ، وكان من بين الأسباب التي جعلها الله لحفظ هذه اللغة في ذلك الوقت والله أعلم الجامع الأزهر الشريف وإليك بعض ما قرأت لك عن هذا الجامع العريق : (لكن الأزهر استطاع في العصر العثماني أن يحتفظ بمكانته العلمية السامية وأن يقوم بأعظم دور في نشر الثقافة العربية الإسلامية وغدا الأزهر أيام العثمانيين ملاذاً لعلوم الدين واللغة ومعقلاً حصيناً للغة العربية في وسط المحيط التركي بل إنه مكن أبناء العروبة من مغالبة لغة الأتراك ومقاومتها وردها عن التغلغل في المجتمعات العربية – – وتمتع الأزهر في العصر العثماني بمركز انفرادي أكد قيادته وزعامته للحياة العقلية في مصر وفي العالم الإسلامي)٥٩٠ وهكذا أصبح يقال منذ ذلك الوقت (ويتردد علي الألسنة أن للمسلمين قبلتين قبلة دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبلة علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة)٥٩١
- إذا تأملنا ما يحدث اليوم في العالم في مجال الإعلام المسموع والمرئي سنجد العديد من القنوات التليفزيونية الناطقة باللغة العربية الفصحى والتي تبثها دول ذات وزن كبير في العالم فكلهم حريصون علي مخاطبة العرب ربما لأن العرب أهم مما يظنون بأنفسهم والطريف أن الطريقة الوحيدة كي يفهمك العرب جميعاً بمختلف لهجاتهم أن تخاطبهم جميعاً باللغة العربية الفصحى التي أهمل في حقها العرب أنفسهم ولكن تم حفظها علي يد غير العرب والله أعلم ، بل المدهش أن هؤلاء يخاطبون أطفال العرب أيضاً بقنوات أطفال ناطقة باللغة العربية الفصحى مما يقوي هذه اللغة عند الأطفال
- سبحان الله

[٥٩٠] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

[٥٩١] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف] صفحة ٦٦

انتقال الخلافة

- وماذا حدث للخليفة العباسي ؟
- انتقلت الخلافة من العباسيين إلي العثمانيين ليتم الجمع بين السلطنة والخلافة
- بالرغم من أن الخلافة كانت في هذه الفترة مجرد رمز لتوحيد الأمة ولم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر علي السلطنة ؟
- بالتأكيد ، بل إن تحول الخلافة إلي مجرد رمز قد حماها من الإلغاء لفترة طويلة فقد تعاقبت الدول التي سيطرت علي الأمة الإسلامية دون أن تتأثر الخلافة العباسية بها فسيطرت علي الأمة لحين من الدهر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك بل قامت أيضاً الدولة العثمانية وازدهرت في عصر الخلافة العباسية ولم تتأثر الخلافة العربية القريشية بكل هذا التقلب بين الدول إلي أن تم ضم مصر إلي الدولة العثمانية فتحولت الخلافة إليها ومن يدري فربما كانت الخلافة العباسية موجودة إلي الآن مستضافة في إحدي الدول الإسلامية في حالة ما إذا اكتفي العثمانيون بالسلطنة فقط دون الخلافة كما فعل من قبلهم من سلاطين غير عرب ،
- ولكننا فقدنا مجرد هذا الرمز بعد إلغاء الخلافة تماماً عند قيام الدولة العلمانية في تركيا
- نعم فلم يتم انتقال الخلافة إلي مكان آخر كما كان متبعاً مع الخلافة العباسية التي لم تكن تتأثر بتحول مقاليد السلطة من دولة إلي أخري والله أعلم ، وإذا تذكرنا معاً أحداث سقيفة بني ساعدة والتي أقر فيها الأنصار أن الخلافة لابد أن تكون في قريش التي اصطفاها المولي عز وجل ليبعث منها خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم وأصبح بعد ذلك خليفة رسول الله من قريش علي مر العصور المختلفة حتي انتقلت لأول مرة إلي عنصر غير عربي قريشي مع ضم مصر إلي الدولة العثمانية وسبحان الذي أحاط بكل شئ علماً (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)
- إذن لقد فقد العرب آخر ما تبقي لهم من دولتهم التي أسسوها لتكون دولة إسلامية وليست دولة عربية حسنا فمن هم أهم الولاة خلال العصر العثماني ؟

الوالي العثماني سنان باشا

- وردت معلومات عن سنان باشا كأحد أهم ولاة مصر في العصر العثماني في موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين بالجزء الثالث ، حيث تولي هذا الوالي العثماني حكم مصر في سنة ١٥٦٨م – ٩٧٥هـ في عهد السلطان العثماني سليم خان الثاني ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة الصدر الأعظم
- الصدر الأعظم هو الرجل الثاني بالدولة العثمانية أليس كذلك ؟
- بالطبع ، وأثناء تولي سنان باشا حكم مصر قامت الدولة العثمانية بتكليفه بقيادة حملة لليمن واستخلف علي مصر اسكندر الشركسي ، وقد نجح سنان باشا في مهمته في اليمن واستطاع أن يدخل

صنعاء لأول مرة ، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية ، وقد ظل في اليمن ينظم شئونه ويقر الأمن في نصابه لمدة عامين وبضعة شهور ، وأعيد سنان باشا إلي ولاية مصر بعد نجاحه في اليمن في أول صفر من سنة ٩٧٩هـ فخط في تاريخ الولاة العثمانيين في مصر أزهر صفحة إذ أعاد ترعة الإسكندرية التي كانت قد ردمت فحرمت الإسكندرية معين الحياة ، وبني وعمر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات ، واختص بولاق باهتمامه فشق فيها شارعاً وأنشأ وكالات للتجار ، وشيد جامعه الشهير الذي لا يزال قائماً ومعروفاً باسمه ، وهو من خير ما أنتج العهد العثماني ويعتبر هذا المسجد من التحف المعمارية القليلة من العصر العثماني

- **فهل لديك معلومات عن هذا الجامع ؟**
- **قد وردت أبعاد هذا الجامع بموسوعة ويكيبديا كالآتي : يبلغ طول الجامع ٣٥ متر وعرضه ٢٧متر وقوام المسجد قبة مركزية كبيرة محاطة بثلاث أيوانات من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية والجامع ليس له حرم بمعنى أنه لا يتقدمه أي فناء مكشوف والسبب في ذلك صغر المساحة حيث كان الجامع يطل مباشرة على ثغر النيل وقد أستعاض مهندس الأثر عن الفناء بالأروقة وقد كان الجامع محاط من خارجه بأسوار كانت تحوي أبواب ، ويصف أمين باشا سامي عهد سنان باشا بقوله إن الرخاء شمل مصر في أيامه حتي وصل سعر الإردب القمح عشرة أنصاف ، وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضي**
- **وماذا عن أبرز أمراء المماليك في العصر العثماني ؟**

<u>المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني</u>

- **ذكرنا أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حتي خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة ، وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقيهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي : (– – والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك ، حقيقةً أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقووا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغري لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيوش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناساً ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد ، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة**

القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار – علي سبيل المثال – في النصف الأول من القرن الثامن عشر – – – في عام ١٧٣٩م أصبح أميراً للحج وهو من أشهر المناصب في مصر ، – – وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر "العثماني" لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً ، كما أنه كان يعقد مجلساً في قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان سامياً في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، أبياً كريماً ، بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك ، ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكاً في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيراً ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك)[٥٩٢]

- فما تفاصيل قصة علي بك الكبير الشهيرة ؟

<u>علي بك الكبير</u>

- من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر

---

[٥٩٢] نقلاً باختصار عن كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول صفحة ٢٣٧ ، ٢٣٨

علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعى عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث)[٥٩٣] ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخاً للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً غير أن الوالي كان محجوراً عليه مسلوياً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلي أن مات سنة ١٧٧٥ م "١١٨٩هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك)[٥٩٤] ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حالياً مسجد بجوار الجامع الأزهر وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ "١٧٧٤م" فقال : (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن – – – ولكنه مستجمع لوثوب)[٥٩٥]

- فماذا عن أحوال المصريين في ذلك العصر ؟
- كتب الرافعى يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك

---

[٥٩٣] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١ صفحة ٣٧

[٥٩٤] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١

[٥٩٥] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٢ صفحة ٦٠٤

والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها)٥٩٦ كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلي باب الحديد وجنوباً من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضاً وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفي بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)٥٩٧

- فهل ضاع سحر القاهرة القديم ؟
- يضيف الرافعى (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ")٥٩٨ وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)٥٩٩ وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة٦٠٠ وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة وكانت الإسكندرية ولازالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة

---

[٥٩٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٥

[٥٩٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٧ ، ٦٨

[٥٩٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[٥٩٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[٦٠٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٠

- عفواً أريد المزيد من المعلومات عن بركة الأزبكية

بركة الأزبكية

- لقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء في وصف بركة الأزبكية ، فقال عنها الأديب والرحالة الفرنسي سافاري C.E.Savary وقد شهد بها احتفالات كسر الخليج إبان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات ، : (كان أكثر الازدحام بطبيعة الحال عند الأزبكية وهي أوسع مناطق المدينة ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات وهي أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات سوار تتدلي منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من أضواء متحركة تتغير مشاهدها كل لحظة ، وتنسب الأزبكية إلي الأمير سيف الدين أزبك بن ططغ الأشرفي الظاهري الذي كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فأراد أن ينشئ مناخاً لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيمان ، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجري إليها الماء من الخليج الناصري ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر وبلغ ما أنفقه مائتي ألف دينار وشيد بها جامعاً (بالقرب من مدخل شارع الأزهر حالياً) بالإضافة إلي عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت حتي صارت مدينة علي انفرادها كما قال المؤرخ العلامة ابن اياس ، وذكر علي باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فداناً ، كما أشار الكاتب والرحالة دي تيفينو الذي زار القاهرة عام ١٦٥٦ وتحدث عن مشاهداته القاهرية في كتابه (رحلات في أوروبا وآسيا وأفريقيا) فبالقرب من الطريق المؤدية إلي بولاق استرعي انتباهه حي أسماه لزبيكة يقصد الأزبكية وقال إن الماء يبقي فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة قصور رائعة الجمال للبكوات وأمراء البلاد ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلي آخر ، طلباً للراحة والاستجمام وقد أشار المؤرخ العظيم الجبرتي إلي شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في وقت الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البرجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التي كانت تشرف علي بركة الأزبكية دار السيد إبراهيم بن سعودي وكانت دار عظيمة عني بتشييدها ثم آلت إلي الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦ فهدمها وتغالي في إعادة بنائها ولم يسكن بها سوي أيام حتي اغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابليون واتخذها مقراً لقيادة الحملة ، أيضاً من الدور الشهيرة التي أوردها الجبرتي دار الشيخ عبد الله الشبراوي والسيد الدمرداش – – – كذلك شيد علي بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصراً لزوجه الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون زوجة مراد بك وكانت ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وعلي الحافة كانت دور الشربيني قال عنها الجبرتي : إحدي دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حافلة وكان مسموحاً فيها بالإطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها للأمير رضوان كتخدا الجلفي فأدخل عليها كثيراً من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، – – – وعند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع أزبك

وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت وردمت البركة عام ١٨٦٤ بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية وأقيمت بها الجبلاية الصناعية وزرعت بها الأشجار النادرة ، أشرف علي تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس باريل بك وهو الذي نظم حدائق الأورمان ، وصمم سراي الجيزة ، وأنشئ بالحديقة مسرح كوميدي في سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا الخديوية وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدان ، وفي ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ امتد شارع ٢٦يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلي شطرين وفتحت أبوابها لجماهير الشعب ، وأقيم بها مسرح للعرائس ومسرح ٢٦ يوليو ، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومي) فقد كان موجوداً من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما إحدي شركات بنك مصر ، وكان بجوار المسرح داخل الحديقة مكان يستخدم سينما في الهواء الطلق صيفاً وللباتيناج شتاءاً[٦٠١]

- إنها معلومات طريفة بالفعل ، فماذا يمكن أن يقال أيضاً عن العصر العثماني ؟
- أعتقد أن هناك الكثير الذي يمكن قوله عن العصر العثماني قبل أن نتركه ونتحدث عن الحملة الفرنسية ، فإذا ذكرنا العصر العثماني لابد أن نذكر أمير البنائين في ذلك العصر
- ومن يكون هذا الأمير ؟

الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني

- (عبد الرحمن كتخدا –من مماليك العصر العثماني– بنَّاء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة – مدرسة ومسجداً وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي. وبنى منشئات خيرية أخرى.كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظاً لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشيد مئذنتين وبابي الشوربة والصعايدة وجمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم.
- نعم إنه من أروع المباني الأثرية في شارع المعز ، فهل لديك معلومات عنه ؟

---

٦٠١ نقلاً باختصار عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

- لهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و "تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كُتَّاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجداً وصهريجاً وكتاباً، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجداً وصهريجاً وحوضاً وسقايةً ومكتباً، وشيد مسجداً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة.ومن أجمل عمائره– دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجداً، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر ..الخ.
- فماذا حدث لهذا الأمير ؟
- عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر)٦٠٢.
- رحمه الله ورحم جميع موتي المسلمين ، فهل هناك شخصيات أخري شهيرة في العصر العثماني
- هناك شخص ليس من الأمراء ولكن كانت له مكانة خاصة ، واسمه اسماعيل أبو طاقية شهبندر التجار
- لكم كنت أتمني أن أسمع أي معلومات عن شهبندر التجار وهو اللقب الذي له سحر خاص

اسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار في العصر العثماني

- اتخذت الحياة العملية لإسماعيل أبو طاقية في مجال التجارة الدولية أبعاداً كثيرة منذ مطلع التسعينيات من القرن السادس عشر ، فعلي الصعيد الجغرافي ظل البحر الأحمر يمثل القطاع الأكبر لنشاطه

[٦٠٢] نقلاً عن كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٨– ٨٠

التجاري ، ولكنه ما لبث أن امتد شرقاً إلي مخا باليمن ، ثم إلي الهند ، وكانت الشبكة التجارية التي أقامها تضم شركاء ووكلاء يسافرون بين القاهرة والهند ، أو إلي مكة وجدة ، حيث ينتدبون شريكاً من الشركاء هناك للسفر إلي الهند نيابة عنهم ، وهو ما كان يفعله غيره من تجار ذلك الزمان ، وكانت الهند عندئذ أقصي مركز تجاري في الشرق يتعامل معه تجار القاهرة ، وإضافة إلي ذلك ، أقام إسماعيل أبو طاقية شبكة تجارية أخري ضمت بعض مدن البحر المتوسط وامتدت إلي استانبول وسالونيك والبندقية ، فكان يصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلي بعض موانئ الدولة العثمانية وأوروبا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان له وكيل تجاري في أفريقيا ، مصدر تجارة الذهب وريش النعام والعاج ، وبلغ نشاطه مدينة كانو في نيجيريا

- **سبحان الله ، كل هذه البلاد يتعامل معها هذا الرجل بدون انترنت أو تليفونات او اتصالات من اي نوع؟**
- **وفوق كل ذلك ، اهتم اسماعيل أبو طاقية بالتجارة المحلية ، وخاصة تجارة منطقة الدلتا ، وتنوعت البضائع التي أتجر بها تنوعاً كبيراً كالأحجار الكريمة وخاصة ياقوت سرنديب والذهب الذي جلبه من كانو ، وعند نهاية القرن السادس عشر كانت التوابل السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة واحتل البن منزلة تقع بين النوعين وينسحب نفس الشئ علي السكر الذي كان اسماعيل أبو طاقية يصدره بكميات متزايدة في مطلع القرن السابع عشر ، كما أتجر بالمنسوجات علي نطاق واسع**
- **ومتي أصبح شهبندر التجار ؟**
- **توجت حياة إسماعيل أبو طاقية العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٠٢٢هـ /١٦١٣م واحتفظ اسماعيل بالمنصب حتي وفاته عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م ، وقد مارس اسماعيل أبو طاقية مهام الشاهبندر باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشب بينهم ويشهد علي معاملاتهم ، فكان حاضراً دائماً عند الحاجة إليه وكانوا يتوقعون مساعدته دائماً عند الأزمات**
- **فكيف كانت مظاهر سلوكه كشهبندر التجار ؟**
- **من الطريف أن نري كيف كان الشاهبندر يُستقبل عند قدومه إلي السوق كل صباح لممارسة عمله ، فقد جرت العادة أن يصحبه التجار إلي مقر الشاهبندر ويقرأون الفاتحة أمامه ويتمنون عليه يوماً طيباً ثم ينصرف كل منهم إلي متجره ، وتدل الحكاية علي أن الشاهبندر كان يتمتع بقدر كبير من التبجيل**
- **وهل كان كثير السفر والتنقلات خارج مصر ؟**
- **لا فقد أدار أبو طاقية تلك الشبكة التجارية من مقره بالقاهرة دون أن يضطر إلي مغادرتها ، سواء للسفر خارج البلاد أو إلي الأقاليم الداخلية التي تعامل معها**
- **إن ذلك والله عجيب**

- بل الأعجب من ذلك أنه لم يزد المجال المكاني الذي تحرك فيه إسماعيل أبو طاقية خلال ممارسته العمل الروتيني اليومي عن مسافة بلغت حوالي كيلومتر واحد
- كيلومتر واحد ؟؟
- فكان يخرج من بيته الكائن بالقرب من سوق أمير الجيوش ، شمالي المدينة ، متخذا طريقه فيما وراء جامع الأقمر الفاطمي ، والمجموعة المعمارية للسلطان قلاوون في قلب المدينة ، حتي يصل إلي أحد حوانيته بسوق الوراقين ، أو بعض حواصله بوكالة الحمزاوي ، وقد يذهب من حين لآخر إلي الوكالة الكبري والوكالة الصغري وراء مجموعة قلاوون المعمارية ، ومن تلك المواقع زاول إسماعيل أبو طاقية نشاطه ، وارتبط بهذا الروتين اليومي ارتباطاً وثيقاً زياراته المتفرقة للمحاكم ، حيث كان يسجل الصفقات التي أبرمها في السوق أو الوكالة علي أوراق رسمية في سجلات المحكمة ، وهكذا كان أبو طاقية يدير شبكة تجارية امتدت عبر ثلاث قارات ، لقد حدثت تطورات عمرانية ملحوظة في زمن أبو طاقية ، ونظراً لأن معظم تلك التطورات حدثت علي يد التجار ، وتؤكد الانطباعات التي نخرج بها من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر ، ويذكر مايكل هيببرر فون بريتن في ١٥٨٥م أن المدينة كانت كبيرة ومزدحمة بالناس ، ولا شك أن انطباعاته جاءت علي وسط المدينة الذي كان أكثر أنحاء القاهرة ازدحاماً ، وبعد ذلك ببضع سنوات ، يذكر الرحالة الألماني يوهان فيلد الذي اقام بالمدينة فيما بين ١٦٠٦-١٦١٠م أن التجارة كانت بالغة الازدهار ، وأنه انبهر بالحوانيت المليئة بالتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة ذات الروائح الذكية والقلانس الجميلة والمنسوجات القطنية الرفيعة التي جاءت من الشرق كما شاهد المرجان والمنسوجات الصوفية التي جلبها البنادقة[٦٠٣]
- إذن لم يكن العصر العثماني بكل هذا السوء الذي نسمعه عنه ؟
- بالتأكيد كل عصر له إيجابياته وسلبياته
- ولكن علي أي حال كان المماليك في موقف أقوي من الوالي العثماني أليس كذلك ؟
- هذا صحيح فمع الوقت ازداد نفوذ المماليك حتي أصبحوا قادرين علي عزل الوالي العثماني والإرسال للسلطان بطلب تغييره حيث يقوم شخص يطلقون عليه الأودة باشا بالذهاب إلي الوالي في القلعة مقر الحكم ويقول له الكلمة الشهيرة (انزل يا باشا) ويتم تعيين قائمقام لحين حضور والي جديد ، وأصبح منصب شيخ البلد هو أهم منصب في مصر والذي يشغله أحد أمراء المماليك (البكوات) ، وأصبحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول لهذا المنصب
- ومن كان شيخ البلد قبل وصول نابليون بونابرت ومعه الحملة الفرنسية علي مصر ؟
- لقد كان هذا المنصب يشترك فيه اثنان من الأمراء وهما إبراهيم بك ومراد بك

- [٦٠٣] مقتطفات مختصرة نقلاً كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م

- فمن المؤرخ الذي أرخ لتلك الفترة من تاريخ مصر ؟
- إنه عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله ، وقد وصف الأسعار والأحوال في العام الذي وُلِد فيه كما سمعها من مشايخه في ذلك الوقت
- فماذا قال ؟

الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤م وهو العام الذي ولد فيه

- كتب الجبرتي في كتابه الشهير عجائب الآثار في التراجم والأخبار عن هذا الموضوع ما يلي : ،– – – ، ومصر في تلك المدة هادية من الفتن والشرور والإقليم القبلي والبحري أمن وأمان والأسعار رخية والأحوال مرضية ، واللحم الضاني المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموسي بنصف والسمن البقري عشرته بأربعين نصف فضة ، اللبن المنعاد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بمائة وعشرين نصفاً وأقل ، والرطل البن القهوة بأثني عشر نصفاً والتمر يجلب من الصعيد في المراكب الكبار ويصب علي ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويباع بالكيل والأردب ، والأرز أردبه بأربعمائة نصف ، والعسل النحل قنطاره بخمسمائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصفاً وشمع الدهن بأربعة أنصاف والفحم قنطاره بأربعين نصفاً والبصل قنطاره بسبعة أنصاف وفسر علي ذلك ، يقول جامعه : أني أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدي كان في سنة ١١٦٧هـ ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء علي ما ذُكِر إلا قليلا وكنت أسمع الناس يقولون الشئ الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا ، وذلك في مبادئ دولة إبراهيم كتخدا وحدوث الاختلال في الأمور ، وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة ، ويعيش رغداً بها الفقير وتتسع للجليل والحقير ، وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرهم ، أن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالي ، والثاني في الحريم ، فيوضع في بيوت الأعيان السماط في وقتي العشاء والغداء مستطيلاً في المكان الخارج مبذولاً للناس ، ويجلس بصدره أمير المجلس وحوله الضيفان ، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون في وسطه يفرقون علي الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات ، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ويرون أن ذلك من المعايب ، حتي أن بعضي ذوي الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدام أنتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت ، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير ، لأنه إذا نظر علي سماطه شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك ولم يذهب بعد الطعام عرف أن له حاجة ، فيطلبه ويسأله عن حاجته فيقضيها له ، وإن كان محتاجاً واساه بشئ ، ولهم عادات وصدقات في أيام المواسم ، مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف ، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعاً كثيرة ويفرقون منها علي من يعرفونه من المحتاجين ، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز

ويأكلون حتي يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ، ويعرفون منه الإحتياج ، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك علي المدافن والترب في الجمع والمواسم ، كذلك أهل القري والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم – – – ، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه أجتهد وبادر بقراه في الحال وبذل وسعه في إكرامه وذبح له ذبيحة في العشاء ، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقادم ، فإن لهم مضايف واستعدادات للضيوف ، ومن ينزل عليهم من السفر والأجناد ، ولهم مساميح وأطيان في نظير ذلك خلفاً عن سلف إلي غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه

- **كل هذا رائع ولكن هل كان المماليك في حالة تسمح لهم بالدفاع عن مصر عند حضور الحملة الفرنسية ؟**

الفصل رقم (١٤) الحملة الفرنسية علي مصر

المواجهة بين المماليك والجيش الفرنسي

- كان المماليك كمن توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار والصليبيين وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت ، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر ، ولكي نحكم علي مدي التطور الذي حدث للجيش الفرنسي سنذكر آخر مواجهة تمت بين الجيشين المملوكي والفرنسي في معركة المنصورة وكان ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م) حوالي ٥٤٨ سنة
- الذي أعرفه أن المعركتين كلاهما دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية ، وانتصر المماليك في معركة المنصورة علي الجيش الفرنسي وتم أسر الملك لويس التاسع واحتجازه بدار ابن لقمان بالمنصورة ،
- بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة علي المماليك ، والفرق هائل بين المعركتين ، إنه فرق يوضح مستوي التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم ، ولقد ذكرنا العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية ، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات ، وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة ، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف[٦٠٤]
- قبل أن نستمر في الحديث عن المعارك التي نشبت بين الحملة الفرنسية والمماليك أريد أن أعرف خلفيات هذه الحملة إن أمكن
- أعتقد أن هذه الحملة في الأساس كانت أحد مراحل الصراع بين بريطانيا وفرنسا فعندما نتأمل الصراع المسلح الذي كان دائراً بين بريطانيا وفرنسا لتحقيق المصالح الخاصة لكل منهما في الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية علي مصر سنجد أن كلا من الدولتين الكبيرتين كانت حريصة علي أن تقع المعركة في المكان المفضل بالنسبة لها ، فكانت فرنسا هي الأقوي في البر وبريطانيا هي الأقوي في البحر ، بحكم موقعها كجزيرة فهي أمة بحرية في الأساس تهتم بالسفن والملاحة البحرية ، وكان لديها أسطول قوي يسيطر تماماً علي معظم بحار العالم ، أما فرنسا في ذلك الوقت فقد كان بها جنرالات علي أعلي مستوي من الكفاءة كالجنرال نابليون بونابرت الذي كان بارعا في قيادة الجيوش البرية وتحقيق

---

[٦٠٤] تأملات عصرية في الحملة الفرنسية – محمد عرموش

الانتصارات تلو الانتصارات والذي تم اختياره لقيادة الحملة الفرنسية علي مصر والتي كان لها العديد من الأهداف التي وردت في كتب التاريخ وسوف نذكرها ونتأملها أيضاً في هذا الحوار إن شاء الله ،

- إذن فالمطلوب بالنسبة لفرنسا أن يصل جيش نابليون إلي مصر وبمجرد تواجده علي أرضها فلن يملك الإنجليز القدرة علي مواجهته براً
- ولكن كانت المشكلة الكبري هي كيف يصل إلي مصر بحراً ويتعرض في الطريق إلي أسطول بريطانيا الرهيب ، فيضيع وتضيع معه أحلام فرنسا بل وأحلام نابليون نفسه ، وبالتالي كان التخطيط للحملة يتسم بسرية غير مسبوقة حتي أن جنود الحملة أنفسهم لم يعرفوا وجهة الحملة ، ولتوضيح ذلك سأتلو عليك بعض ما كتبه أحد ضباط الحملة في مذكراته لندرك مدي السرية التي اتسمت بها هذه الحملة أثناء توجهها من ميناء طولون إلي مصر
- وهل كتب هذا الضابط مذكراته حتي نهاية الحملة ؟
- نعم لحسن الحظ فقد استمر علي قيد الحياة حتي عاد إلي فرنسا وقد تم نشر مذكراته بعد ذلك
- فماذا كتب وهو في طريقه إلي مصر ؟

علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه

- في مذكرات هذا الضابط ورد ما يلي : (– – وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيبت عنهم الغاية التي نستهدفها ، فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة ، وإذا نأينا عنه فالذهاب إلي سردينيا ، هكذا راحت المزاعم تختلف في كل لحظة بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : (إذاً ستتم عملية الإنزال هذا المساء ومع صباح الغد سنكون أسياد هذه الجزيرة)
- أسياد هذه الجزيرة ، يا له من غرور ، عفواً استمر ولا تلقي بالاً لما أردده من كلمات
- وكم كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضي صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيناها في تلك المحطة وما لبثت اليابسة أن غابت من جديد عن ناظرينا وعاد ضباط البحرية يصيحون :(الآن لم يعد ثمة شك نحن نتجه إلي صقلية) ، ما لبثت أن سرت أنباء تفيد رؤية قلوع إنجليزية في الأفق وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفواه همساً حتي خشينا أن تكون قافلة (سيفيتا فيشيا) التي كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينا قد سقطت في أيدي العدو وقد أدي ظهور تلك الأشرعة في الأفق إلي تدعيم مخاوفنا وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف ، بعد حين بلغنا مشارف صقلية وقد ظنها البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التي كنا نسير بها وراحوا يقولون : (الآن تأكد الأمر لابد أننا ذاهبون إلي مالطا) ، ربما تصدق تكهناتهم هذه المرة سوف نري ، وبينما نحن نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار لمحنا مرة أخري في الأفق سفناً

لم تبد لنا فرنسية لابد أنها المفرزة الإنجليزية المتقدمة ، أصدر الأميرالاي أمراً بالاستكشاف فاطلقت سفينتنا من جديد ولمحت أربع سفن دنمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا فاعترضنا مسيرتها مما جعلنا نعتقد أن تلك الجزيرة هي غايتنا بل أصبحنا شبه متأكدين من هذا ، هيأت لنا الرياح الاقتراب من هذه الجزيرة الشهيرة التي رحنا ننظر إليها وكأنها الأرض الموعودة وخاتمة مشوارنا ، في هذه الأثناء لمحنا مراكب شراعية كثيرة ، قال أحدهم : (إنه الأسطول الإنجليزي) بينما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا علي السفينة لاكوراجوز المكلفة بحراسة قافلة سيفيتا فيشيا التي ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا ، أخيراً لحقت بنا وهي في خير حال دون التعرض لأي هجوم أو تكبد أي خسائر فكانت سعادتنا غامرة وعلي الرغم من الوجود القوي للإنجليز في البحر الأبيض إلا أن الحظ حالفنا ولم نلقهم)[٦٠٥]

- وهل كان الأسطول الإنجليزي بالفعل يبحث عن هذه الحملة ؟

نلسون يبحث عن الفرنسيين في البحر

- بالتأكيد كان الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون يبحث عن العمارة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط ولم يتمكن من العثور عليها لمحافظة نابليون علي أسرار الحملة وقد وصل نلسون بالفعل إلي الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية ولم يمكّنه المصريون من الانتظار بها ثم غادرها وعاد بعد أن تمكنت الحملة الفرنسية من احتلال مصر
- فقام الأسطول الإنجليزي بتدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية الشهيرة كما نعرف جميعاً ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الأحداث دعنا نتأمل أولاً ما ورد في هذه المذكرات فهي تتضمن العديد من المعاني
- بالطبع كالثقة الغير عادية في القائد ، وهي الثقة التي تتأكد عندما يتواجد الجنود في عرض البحر معرضين لهجوم من أقوي أساطيل العالم في ذلك الوقت ، ولكنهم يعرفون أن لهم قائد علي أعلي مستوي
- كما يتضح من هذه المذكرات أن البحارة أنفسهم لم تكن لديهم أدني فكرة عن اتجاه الرحلة البحرية ، يا لها من سرية ، نابليون فقط هو الذي يعرف
- وقائد الأسطول بالطبع ، كما يتضح أيضاً بقليل من التأمل أن العمارة البحرية الفرنسية لم تكن تبحر في خط مستقيم إلي وجهتها بل كانت متعددة المناورات إلي الشمال أحيانا ثم إلي الجنوب أحياناً أخري حتي أن الأسطول البريطاني الذي كان يبحث عنها وصل إلي الإسكندرية قبل وصولها كما سنري ،

---

[٦٠٥] مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر – ترجمة وتقديم كاميليا صبحي

وهذا يدل علي تسرب خبر إبحار السفن الفرنسية إلي الإنجليز ، وهو أمر طبيعي نظراً لضخامة العمارة البحرية الفرنسية وكثرة السفن التجارية وغيرها في البحر وتداول الأخبار وحركة السفر ،

- **فكم بلغ عدد سفن هذه الحملة ؟**
- **كان جيش نابليون البري بالكامل بكل معداته وأسلحته محمول علي هذه السفن وكان جيش نابليون مكون من ٣٦ ألف مقاتل[٦٠٦] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من ٥٥ سفينة حربية)[٦٠٧] فتأمل معي عزيزي القارئ كل هذا العدد من السفن يصل سالماً وفي سرية تامة إلي مصر ،**
- **يالها من عبقرية من قائد عسكري محنك يصطحب معه قائد اسطول خبير ، فماذا حدث عند وصول الأسطول الإنجليزي إلي الاسكندرية قبل وصول حملة نابليون ؟**

وصف الجبرتي لوصول الإنجليز إلي الإسكندرية

- **سجل المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي أحداث الحملة الفرنسية علي مصر بأسلوب ممتع للغاية وقد وصف لحظة وصول الأسطول الإنجليزي إلي الإسكندرية قبل وصول نابليون وكيف استقبله أهل الإسكندرية ودعنا نستمتع معاً بما كتبه الجبرتي ثم نتأمله ، وقد تضمن هذا الوصف أيضاً استياء الجبرتي من سنوات الحملة بشكل عام لأن هذا الوصف ورد مع بداية سرده لأحداث أول سنة من سنوات الحملة الثلاث حيث كتب الجبرتي يصف[٦٠٨] سنة ١٢١٣ هـ (- - وهي أولي سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (١١٧) سورة هود ، وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة "٢٤ يونيو ١٧٨٩م" وردت مكاتبات علي يد السعاة من ثغر الإسكندرية ومضمونها: أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلي الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت علي البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علي الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون علي دفعهم ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول**

---

[٦٠٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٢

[٦٠٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٤

[٦٠٨] قد يكون بعض كلام الجبرتي غير مفهوم للبعض حالياً ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه ستشعر بمعناه وبمعني كل حرف فيه

وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علي الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضي الله أمراً كان مفعولا)٦٠٩

- إذا تأملنا كلام الجبرتي سنجده يحمل العديد من المعاني ، منها جهل المصريين التام بالموقف الدولي وطبيعة الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، ومنها أيضاً مدي اعتزاز المصريين في ذلك الوقت بانتمائهم للدولة العثمانية والسلطان العثماني ، وكذلك عدم إدراكهم بمقدار تطور الجيوش العالمية في ذلك الوقت والانخفاض الكبير في مستوي جيوش المماليك والدولة العثمانية مقارنة بجيوش بريطانيا وفرنسا ، كما يتضح من كلام الجبرتي مدي إيمانه بقضاء الله وقدره والصبغة الدينية في سرده للأحداث واستشهاده بآيات من القرآن الكريم
- أما هذه الأخبار فعندما وصلت إلي القاهرة انتشر القيل والقال بين الناس أما المماليك فلم يهتموا بشئ من ذلك علي حد تعبير الجبرتي (ولم يكترثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)٦١٠
- وطبعاً هذا الكلام كله غرور وليس له أساس من الصحة لأن المماليك كانوا أضعف من أن يواجهوا جيشاً حضارياً قوياً مؤسس علي أسس علمية وأسلحة حديثة متطورة
- فضلاً عن أن المماليك لم يكونوا في حالة من قوة الإيمان علي ما يبدو لتجعلهم يثقون بالنصر فلم يكن لهم الحق في النصر سواء بأسباب الدنيا أو أسباب السماء والله أعلم
- فماذا كان سيحدث لو سمح محمد كريم رحمه الله للأسطول البريطاني بأن يبقي في الإسكندرية ليدافع عنها ؟

وجهة نظر قابلة للتصحيح

- هذا السؤال له عدة إجابات كتبها بعض المؤرخين بل ذكرها الأديب يحيي حقي وهو يكتب عن جهل المصريين بالموقف الدولي حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه [٦١١] :

السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا ، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول

---

[٦٠٩] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١

[٦١٠] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

[٦١١] من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟ ، قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه

- فهل فهم المصريون بعد ذلك هذا الصراع ؟
- يضيف يحيي حقي : – ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم ، هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن ......) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة
- إنه نفس السؤال الذي يحيرني
- ويضيف أيضاً فيقول : من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه
- فما الإجابات الأخري التي ذكرت أنها ترد علي هذا السؤال ؟
- توجد إجابة أخري في كتاب آخر اسمه (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢) يؤكد فيه الكاتب علي أن رفض محمد كريم السماح للإنجليز بالبقاء في الإسكندرية للدفاع عن مصر قد تسبب في جلاء الحملة عن مصر بعد ثلاث سنوات فقط
- وكيف ذلك ؟ وماذا كتب ؟
- لقد كتب ما ملخصه[٦١٢] : الملاحظة الأولي التي تفرض نفسها علي أي قارئ لجهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية هو أن جهاد الشعب المسلم كان من القوة والاستمرار والدأب والشمول بطريقة فذة ومذهلة ، وإذا قلنا إن جهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية كان فريداً – – لما كان ذلك افتناناً وإعجاباً زاد علي الحدود التي تقتضيها دواعي البحث العلمي ، فصحيح أن حيوية الشعب المسلم في مصر كانت دائماً متقدة للكفاح ضد كل تدخل أجنبي قبل الحملة الفرنسية وبعد

[٦١٢] نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢)– د محمد مورو

الحملة الفرنسية ، وذلك بحكم توقد روح الجهاد الإسلامي داخل النفوس وبحكم العقلية الإسلامية التي كانت لا تزال سائدة ، وبرغم فترات الحكم الفاسد الطويلة ، إن الكفاح الشعبي في مصر ضد الحملة الفرنسية كان رائعاً ، بل إنه نجح في طرد تلك الحملة نهائياً في غضون ثلاث سنوات لم ينقطع فيها الكفاح يوماً ، ذلك الكفاح الذي شارك فيه الفلاحون واتجار وعلماء الأزهر والحرفيون وأولاد البلد والمجاذيب ، بل والمسلمون من غير المصريين الذين وجدوا في مصر وقتها ، أو وفدوا إليها خصيصاً لممارسة الجهاد في سبيل الله

- أنا لا أريد أن أقطع الحديث ولكن لم أجد حتي الآن الإجابة الشافية علي سؤالي ، استمر في القراءة علي أي حال فهي وجهة نظر تستحق التأمل

أسباب اندحار الحملة في ثلاث سنوات بينما استمر الإنجليز سبعين سنة

- اندحرت الحملة الفرنسية عن مصر في ثلاث سنوات واستمر الاحتلال الإنجليزي لمصر سبعين عاماً وتزيد ، – – إن القراءة العلمية والموضوعية لأوراق الكفاح الشعبي المصري ضد الحملة الفرنسية تعطينا الأسباب لذلك النجاح والتنوع والإبداع في عملية الكفاح الشعبي ، فمن ناحية ، وهذا أول الأسباب كان العلماء وعموم الأمة في حالة من التوحد مذهلة وخطيرة كانت عموم الأمة تعرف قيادتها الشرعية وهي العلماء ، فكان الأزهر رمزاً لقيادة الأمة ، وكانت تركيبة السلطة في مصر والتوازنات وقتها تجعل العلماء والعامة في خندق واحد بالتوازي أو في مواجهة الحكومة (الوالي –المماليك–حسب الأحوال) ، ولقد حاول المستعمر دائماً ، عن طريق مباشر ، أو عن طريق حكام محليين مغفلين أو عملاء أن يقصم هذه الرابطة بين العلماء والأمة لأنه أدرك أنه بدون فصم هذه العلاقة لا أمل له في احتلال البلاد ، ومن ناحية ثانية ، وهو سبب أيضاً هام جداً ، كانت الصيغة المصرية للحكم تجعل من الوالي والمماليك طبقة منفصلة تماماً ومنعزلة عن الجماهير ، ولا يمكن لها بحكم تراثها ونواميسها أن تتدخل في حياة العامة ، وأن عموم الأمة والعلماء كانوا في حالة شبه مستقلة فيما عدا ما يؤدي من ضرائب ، بمعني أن السلطة الحاكمة لم يكن لها برنامج ثقافي تقدمه أو قدرة علي فذلكة برامج سياسية
- بالفعل أعتقد أن أمراء المماليك في ذلك الوقت لم يكونوا علماء أو فلاسفة أو مفكرين أو دعاة لأي فكرة ، بل يحكمون ويجمعون الضرائب فقط والله أعلم ، إنها رؤية جديدة تماماً لذلك العصر أهم من الإجابة علي سؤالي ، استمر في القراءة جزاك الله خيراً
- بل العكس كانت تخضع للتوجيه الثقافي للعلماء وبالتالي فقد كان العقد الشعبي سليماً لم يعان من القمع الثقافي السلطوي
- لم تكن هناك قنوات إذاعية أو تليفزيونية أو إعلام موجه من أي نوع
- وهو ما جعل استجابة –الشعب– سريعة ضد الغزو الأجنبي ، أضف إلي ذلك أن تركيب السلطة جعلها غير قادرة علي منع الناس من المقاومة لأنها لم تكن سلطة تتدخل في الصغيرة والكبيرة أو تحاول كما

فعلت الحكومات العلمانية بعدها أن تصوغ عقل الأمة وحركتها ، وهناك العامل الأهم وهو أن تلك الفترة كانت المماليك فيها في حالة ضعف ، لأن قيادتهم تمثلت في مملوكين شقيين متفككين هما مراد بك وإبراهيم بك ، وضعف السلطة المركزية هنا جاء لصالح حركات المقاومة ، لأنه دائماً كانت السلطة القوية تمنع الناس من المقاومة بدعوي أنها ستقوم بها ، ومن ناحية ثالثة فإن العقلية الإسلامية التي كانت تحكم الأمة ، برغم فساد السلطة ، لم تكن قد تعرضت لتلك الحملة البشعة التي قام بها الاستعمار ومدارس التغريب العميلة التي تم زرعها فينا لتؤدي مهمتها في تغريب الأمة وإفقادها هويتها ، كانت الأمة ما زالت تملك هويتها وكان علماؤها ومثقفوها لم يتم تغريبهم بعد

- **لذلك استمر الإنجليز في مصر أكثر من سبعين عاماً بعد أن عبثوا بعقول المصريين وأنشأوا نخبة مثقفة طبقاً لأغراضهم وأفقدوا الناس هويتهم ، فسبحان الله ، كان المصريون أثناء الحملة الفرنسية علي فطرتهم السوية رغم تخلفهم ومحتفظون بهويتهم رغم ضعفهم فتعاملوا مع الفرنسيين كما ينبغي ، يا له من تحليل ، ونحن نحاول ربما إلي الآن البحث عن هويتنا ، عفواً استمر**
- **كانت روح الجهاد ما زالت متقدة ، وروح الإسلام البسيطة تعمل ، كان الفلاح البسيط يعرف أن هذا الفرنسي كافر –معتدي– إذن لابد من قتاله ، وكانت كلمات الفرنسيين الكفرة ، الفرنجة الأجانب ، كلمات ذات مضامين ومدلولات ولعل هذا يوضح الفرق بين حركة الكفاح اليومي إبان الحملة الفرنسية وحركة السكون المؤقتة التي شهدتها فترات أخري في تاريخنا المعاصر – – – قبيل وصول الحملة الفرنسية إلي الإسكندرية جاء نلسون قائد الأسطول الإنجليزي إلي المدينة وحذر حاكمها السيد محمد كريم من أن هناك حملة فرنسية كبيرة في الطريق وعرض حمايته علي المدينة ولكن السيد محمد كريم ، أحد نماذج أمتنا الأفذاذ ، رفض العرض الإنجليزي ، وبديهي أن هذا الموقف للسيد محمد كريم كان موقفاً صحيحاً ، وكان موقفاً يعبر عن الوعي والوطنية ، لقد فهم السيد محمد كريم قبل افتتاح جامعات تدريس الاستراتيجيات والتكتيك ، أن الصراع بين مستعمرين لن يكون أبداً لصالحه ، وأنه لو سمح للإنجليز بدخول الإسكندرية لما خرجوا منها ، ووفر السيد محمد كريم بوعي فذ استعماراً مبكراً ، لقد وعي السيد محمد كريم أن الإنجليز والفرنسيين ما هم إلا شكلان من أشكال السيطرة الاستعمارية وأن التناقض بينهما لن يكون لصالحنا يوماٍ ، وأن وعود أمثال هؤلاء لا يمكن الاعتماد عليها وهو درس لم يستوعبه معظم حكامنا حتي الآن**
- **نحن لا نستوعب أي دروس من أي نوع علي أي حال إلا من رحم ربي**
- **وقد يقول قائل : وهل أفاد هذا الموقف في منع الإسكندرية من السقوط في يد الفرنسيين ؟ وهل كان محمد كريم أصلاً يملك القوة ما يسمح له بالاعتماد علي قواه الذاتية في صد الفرنسيين ؟ ، ولكن العقلية الإسلامية وروح الشرف والمبادئ والنظرة الاستراتيجية ، لا تتعجب ، فهي كذلك بالفعل ، جعلت السيد محمد كريم يدرك أن روح المقاومة هي الأهم وأن المحافظة علي روح المقاومة هي الكفيلة**

بإخراج الفرنسيين في النهاية حتي ولو احتلوا في البداية مدينة الاسكندرية ، ولكن الاعتماد علي قوة خارجية سيضعف كثيراً من روح المقاومة التي هي الأهم ، وسيجعلنا نكسب مكسباً سريعاً ثم نقع أسري احتلال انجليزي في النهاية ، ولعل هذا يكون درساً للذين يراهنون علي أمريكا وروسيا في أيامنا هذه لإخراج إسرائيل من فلسطين المحتلة ، وصل الفرنسيون إلي الإسكندرية وكان هناك عدم تكافؤ واضح في القوي بين الطرفين ، فعدد المقاتلين الفرنسيين كان ٥٠ ألفاً ، وعدد المدينة كلها لم يتعد ١٠ آلاف نسمة ، أما الإمكانات العسكرية علي مستوي التسليح فقد كانت الهوة شاسعة – – ومع هذا قرر محمد كريم أن يقاوم وقررت جماهير الإسكندرية أن تقاوم ، ويمكننا أن نفهم مدي عمق المقاومة إذا ما قرأنا هيرولد : (أنه من النادر أن يصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمس الأولي لأية حملة حربية ، المقصود كليبر ومينو وهما من كبار قواد الحملة وقد قادا الحملة فيما بعد عقب رحيل نابليون) وقد تعرض نابليون ذاته للقتل كما أن نابليون نفسه يصف المقاومة بقوله : (إن كل بيت كان قلعة) ، كتب الجنرال مينو : (إن الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم) – – وخرج الرصاص من المساجد خرج الرصاص وخرجت الأحجار وخرجت روح المقاومة من كل شبر في المدينة ، ومع هذا سقطت المدينة ولكن روح المقاومة لم تسقط

- إن كل من مات شهيداً في الإسكندرية لم يعرف ماذا حدث بعد ذلك ولكنه قد سجل موقفه قبل أن يموت دون أن يهتم بأن يعرف نتيجة القتال
- قام الفرنسيون عقب سقوط المدينة بعمليات الذبح والقتل كعادة الحضارة الغربية ، يقول أدجوتاتن جنرال بوابية أحد هيئة أركان الحرب العامة – – – ذبحنا الرجال والنساء والكبار والصغار وحتي الأطفال عن بكرة أبيهم وبعد نحو أربع ساعات هدأت ثورة جنودنا في النهاية ، – – قاومت المدينة وانهزمت فاستمرت مصر تقاوم إلي أن انتصرت ، ولو لم تقاوم المدينة لسقطت إرادة القتال ، واستمرت بعد ذلك المقاومة السرية ، – – – وتم اتهام محمد كريم بقيادة هذه المقاومة وتم إرساله إلي نابليون لمحاكمته ، وأصدر نابليون أمراً بإعدامه وسمح له بأن يفتدي نفسه بدفع غرامة مالية فلم يقبل السيد محمد كريم وقد نصحه المستشرق فانتور كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : (إنك رجل غني فماذا يضيرك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ ؟) ، فأجابه السيد محمد كريم : (إذا كان مقدرا علي أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ وإذا كان مقدرا لي الحياة فعلام أدفعه) ، وظل علي إصراره إلي أن نُفِّذ فيه الحكم رمياً بالرصاص وهكذا يكون الشموخ وهكذا تكون صلابة المجاهدين ، الموت مرفوع الرأس والتسليم بقضاء الله تعالي – – ولم يقتصر بالطبع جهاد الشعب المسلم ضد الحملة الفرنسية علي الإسكندرية ولكن أينما صارت الحملة ظهرت المقاومة
- هذا عن الشعب فماذا عن إبراهيم بك ومراد بك وسط كل هذا ؟

إبراهيم بك ومراد بك من وجهة نظر الأستاذ جمال بدوي

- ننتقل إلي ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عنهما ، فقد كتب تحت عنوان كذاب الزفة يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني ما ملخصه : (كان هذان المملوكان الغاصبان – إبراهيم بك ومراد بك – يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة ريالات ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيقانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللئام ، فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولي والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخري ، كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكراً ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة ، أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور " ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " جعجاعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه – – – ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة
- وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)[٦١٣]
- هل يمكن قبل أن نستمر في سرد أحداث الحملة المثيرة ونترك مراد بك ليستمتع بأكل الفستق أن نتوقف قليلاً لنستعرض ما كتبه المؤرخون عن الأسباب الحقيقية للحملة الفرنسية علي مصر ؟

ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟

- لا مانع علي الإطلاق ، لنقرأ كتب التاريخ ونتأمل معاً أهم الأسباب التي أدت إلي شن هذه الحملة علي مصر وهذه الأسباب قد تبدو مختلفة وكثيرة ومن وجهات نظر عديدة
- أعشق تعدد وجهات النظر حول موضوع واحد
- عموماً سوف أذكر لك وجهات النظر وأنا أقف علي الحياد تماماً وأترك لك تأملها بنفسك فمثلاً ذكر الرافعى عن هذه الأسباب ما يلي (الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا

---

[٦١٣] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣ ، ٢٤

وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢ م)٦١٤ وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية

- تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول إن هذا المعني يذكرني بالكثير
- ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوي الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان – – – فخُيِّل إليه أن يُشّيد علي ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)٦١٥
- إنه رأي منطقي فماذا عن الآراء الأخري ؟
- أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً)٦١٦
- يبدو أن الدولة العثمانية قد تركت فراغاً وسيسعي الأقوياء إليه
- بالتأكيد إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه
- حتي إذا كان هذا الفراغ هو مكان انتظار سيارتك أمام منزلك ، أعتذر عما قلت ، استمر
- ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن

---

[٦١٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧١

[٦١٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٣

[٦١٦] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)٦١٧ ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخري فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء)

- **فهل هناك آراء أخري ؟**
- **أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع : (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع – – لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)٦١٨**
- **ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ؟**
- **، وهكذا وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة التي أرجو أن نتأملها معاً برؤية عصرية لنتابع الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي ونذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي**
- **بمناسبة الحديث عن الملك لويس التاسع وحملته ، تذكرت ما قاله الشاعر الذي هدد الفرنسيين بعد فشلهم وعودتهم لبلادهم مهزومين وحذرهم من وجود دار بن لقمان علي حالها والقيد باق والطواشي صبيح ، فهل تذكر هذه الأبيات**
- **بالتأكيد ولكن يبدو أن الذي بقي علي حاله هو جيش المماليك نفسه فهو لم يتطور وظل منتظر عودة الفرنسيين ومعهم أرقي ما وصل إلي العلم من سلاح وعتاد في ذلك الوقت**
- **نعود لما توقفنا عنده ، وهو سقوط الإسكندرية**

التعليق علي سقوط الاسكندرية في يد نابليون

- **نعم تم احتلالها ولكنها لم تسقط بسهولة كما ذكرنا فقد كانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتي أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريراً عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه (إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر – – أما قلعة المنارة " قلعة قايتباي " في ظاهرها**

---

[٦١٧] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

[٦١٨] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٧

فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد)٦١٩ ومن هذا التقرير يتضح مدي ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون ، (وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة " البحرية " من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيو ١٧٩٨)٦٢٠

- وبالطبع علم نابليون بأن الإنجليز كانوا في الإسكندرية قبل وصوله
- نعم ، (فخشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر فأمر بالمبادرة إلي إنزال الجنود للبر واختار لمرسي عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً)٦٢١ واستمر إنزال القوات طول الليل ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة ولم تستسلم المدينة بسهولة بل كان القتال شرس وعنيف والمقاومة علي أشدها حتي أن نابليون نفسه كاد أن يلقي مصرعه كما ذكرنا ، وقد (كتب الجنرال برتييه في رسالته إلي وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلي السور فنالته رضوض شديدة – – وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلي حكومة الديركتوار " الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت " بثلاثين إلي أربعين قتيلاً وثمانين إلي مائة جريح وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح)٦٢٢
- أتعجب من كثرة المعلومات التي وردت عن الحملة علي لسان الفرنسيين أنفسهم
- هذا صحيح فقد كان الكثير منهم يكتب مذكرات ويوميات لكل ما يحدث كما لم تنقطع الرسائل بينهم وبين فرنسا كلما أتيحت الفرصة لذلك ، والأعجب أن كليبر نفسه قبل مقتله كان يكتب يومياته وقد تم استخدامها أيضاً في التأريخ للحملة
- ولكن لماذا كانوا يحرصون علي عملية التدوين ؟
- لا أعرف ولكني أعتقد أن حملة كهذه إلي بلاد الشرق الساحر الذي طالما قرأوا عنه الأساطير كانت تمثل لهم مغامرة كبري مثيرة تستحق التسجيل والتدوين والله أعلم
- أتخيل لو كان في تلك الايام أجهزة تليفون محمول مزودة بكاميرات تصوير لكانوا قد عادوا بالعديد من الصور ومقاطع الفيديو ولأمتلا الانترنت بجميع تفاصيل الحملة

---

[٦١٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٢

[٦٢٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٧

[٦٢١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٩

[٦٢٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٧١

- لا أعتقد أنهم كانوا سيصورون ما يرتكبونه من فظائع وجرائم بشعة توضح مدي همجيتهم ووحشيتهم وحضارتهم المادية الزائفة التي تخلو من القيم والمبادئ وتاريخهم الدموي معروف في الجزائر المعروف ببلاد المليون شهيد
- فماذا كتب الجبرتي عن احتلال الإسكندرية فمن المؤكد أن أسلوبه كان ممتعاً في الوصف ؟

رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية

- وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال (فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي وطلعوا إلي البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر – – فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم – – ورجع أهل الثغر إلي التترس في البيوت والحيطان ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان)[٦٢٣]
- يا له من وصف يدعو إلي التأمل
- وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر الجريح ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان ، وزحف نابليون بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لقد نشر نابليون أول منشور إلي الشعب المصري
- فماذا كتب فيه ؟

المنشور الفرنسي للشعب المصري

- درس نابليون مصر وأحوالها جيداً قبل حضوره وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين علي أعلي مستوي واستخدم المطبعة وهو لازال في البحر في طريقه إلي مصر وطبع نسخ عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلي مصر حتي لا يضيع الوقت في الطباعة وحتي لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتي إلي مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين وأعلن أنه لم يأتي لقتال الشعب المصري نفسه وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية كما أثار فيهم الحقد علي

---

[٦٢٣] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها وشمل المنشور أيضاً تهديد واضح بحرق أي قرية تقف في طريقه كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل علي أن نابليون كان معتقد بل متأكد من مدي سذاجة وتخلف الشعب المصري

- لقد اشتقت لأعرف ما جاء في هذا المنشور العجيب
- إليك مقتطفات من هذا المنشور لتتأمل ما جاء فيه ولكن أرجو عدم المقاطعة حتي نناقشه معاً:(بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم - - هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام - - ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه - - طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر – المادة الأولي : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف

المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)٦٢٤ هذا المنشور به مواد أخري وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك

- لقد لعب نابليون علي الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور ولكنها كلمة حق يراد بها باطل ، ولاحظ أيضاً أن الدولة العثمانية رغم كل شئ كانت لازالت مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضاً
- وقد علق الأستاذ جمال بدوي علي هذا المنشور فقال : (– – ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا)٦٢٥
- إذا تأملنا هذا المنشور مرة أخري سندرك حقيقة ذكرها نابليون ربما بقصد أو بدون قصد عندما قال عن مصر أنها الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله كما أشار أيضاً في منشوره إلي عظمة التاريخ المصري عندما قال : وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع
- أعتقد أنه محق تماماً في هذا ولكن النوايا تختلف بالطبع
- فماذا حدث عندما واجه نابليون المماليك ؟

معركة إمبابة

- قد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر– وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم

---

٦٢٤ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٤ ، ٥ ، ٦

٦٢٥ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٠

اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية ١٩٩٦ – مكتبة مدبولي – ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول : وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون ، وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة –علماء الحملة– المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء ،

- حتي هذه اللحظة لم يكتشف المماليك مدي تفوق جيش نابليون ؟
- الأعجب من ذلك أنهم كانوا يعيشون في الماضي قلباً وقالباً حتي أن أحدهم تقدم للمبارزة بالسيف (هل من مبارز ؟)
- وهل يُعقل هذا ؟
- نعم ، فقد كتب المستر جورج يانج في كتابه : – – وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل ، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء ، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر ، فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد ،
- الفناء الأكيد سبحان الله ، فقد كانوا يقولون قديماُ الكثرة تغلب الشجاعة ، أما الآن فالتكنولوجيا تغلب الشجاعة ، اللهم إلا إذا نصرت الله وأخذت بالأسباب فهو سبحانه سينصر من ينصره
- بالتأكيد فقد قال أحد العلماء أن المولي عز وجل قد أعطي أسباب الدنيا للجميع ، فمن يأخذ بها سيحقق نتائج سواء كان مؤمن أو كافر ، أما أسباب السماء فلا يعطيها سبحانه إلا للمؤمنين فقط بعد أن يعدوا كل ما يستطيعونه من أسباب الدنيا
- هل كانت هذه المعركة هي أول مواجهة بين الجيشين ؟
- لا بل التقوا في شبراخيت قبل ذلك وانهزم مراد بك ومن معه وحترقت مراكبه في النيل
- لقد قرأت أن هذه المعركة تسمي معركة الأهرام وليس معركة إمبابة فما حقيقة ذلك ومتي تمت ؟

- جدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون علي بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة : اعلموا أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك – –
- يبدو أن ملابس المماليك قد جعل نابليون يتذكر كتب التاريخ
- ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخري نحو اليسار – – لكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهجم أيوب بك وهو يصيح : ويل لكم أيها الملاعين ، قد ساقكم كبرياؤكم إلي أرضنا – – إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم – – – – ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابة
- وسقطت إمبابة كما سقطت الإسكندرية
- لا فهناك فرق كبير فالإسكندرية كان يدافع عنها الشعب المصري بقيادة مصرية خالصة وكانت روح الجهاد والمقاومة في أوجها ولم تسقط هذه الروح بسقوط المدينة وتكبد الفرنسيون معاناة ومشقة حتي سقطت الإسكندرية ، أما معركة الأهرام وإمبابة فقد كانت بين الحملة وبين المماليك بقيادة مراد بك وليس محمد كريم وأترك لك التأمل عندما تعلم بعد ذلك أن مراد بك قد وقع اتفاقية دفاع مشترك مع الجنرال كليبر بعد رحيل نابليون
- فماذا كتب الجبرتي عن المواجهة التي تمت بين المماليك والحملة الفرنسية ؟

<u>وصف الجبرتي لاحتلال العاصمة :</u>

- وصف الجبرتي القتال بين الفرنسيين والمماليك فقال (وفي يوم الأحد غرة شهر صفر "١صفر ١٢١٣هـ /١٥يوليو ١٧٩٨م" وردت الأخبار بأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقي العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بيك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية – – فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولي منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ورجعوا طالبين مصر ووصلت الأخبار بذلك إلي مصر فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك إلي ساحل بولاق)[٦٢٦]
- الجبرتي رحمه الله يقصد بكلمة مصر العاصمة ؟

---

[٦٢٦] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٧

- نعم فقد كان يتحدث عن أول مواجهة بين مراد بك والجيش الفرنسي في النيل بالقرب من شبراخيت وكانت عبارة عن تبادل لإطلاق القنابل بين المراكب وكاد أن ينهزم الأسطول الفرنسي " النهري" لشدة المقاومة من الأهالي المسلحين علي شاطئ النيل من الجانبين
- إذن فقد اشترك الشعب في هذه المعركة ؟
- نعم فقد كانوا أكثر خطورة علي الفرنسيين من المماليك ، لولا دقة الإصابة للمدافع الفرنسية التي أصابت السفينة التي تحمل مستودع البارود فتم نسفها بشكل بشع أثار رعب المماليك وأدي إلي انسحابهم،
- ثم وقعت المعركة الثانية وهي التي تسمي معركة إمبابة أو الأهرام بعد ذلك ؟
- نعم وقد سميت كذلك كما ذكرنا لأن جيش مراد بك كان ممتد من إمبابة إلي الأهرام غرب النيل أما ابراهيم بك فكان مع جيشه وباقي أهل العاصمة في ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل يراقبون ما يحدث في الغرب وتمت هزيمة المماليك وانسحابهم بعد أن أحرقوا مراكبهم الممتلئة بالذخائر كي لا تقع في يد الفرنسيين وشعر من في شرق النيل بالرعب لسببين أولاً لهزيمة المماليك وثانياً لظنهم أن حريق المراكب عبارة عن حريق أشعله الفرنسيون في المساكن الموجودة غرب النيل
- فماذا كتب الجبرتي عن ذلك ؟
- إليك بعض ما وصفه الجبرتي عن هذا الحدث (ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم علي كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت)[٦٢٧]
- وفر الناس وفر المماليك
- والمشكلة الكبري أن كل من خرج من القاهرة وقع في مصيبة كبري وتم نهبه وسرقة كل ما يملك حتي ملابسه بواسطة العربان ، يضيف الجبرتي : (وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جري فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين – – ولما أصبح يوم الأحد المذكور "٢٢يوليو١٧٩٨م" والمقيمون لا يدرون ما يُفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفزع فتبين أن الإفرنج لم يعدو إلي البر الشرقي وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ)[٦٢٨]
- فماذا كان قرار المشايخ وهم زعماء الشعب بعد توليهم المسئولية عقب انسحاب المماليك من المشهد؟

---

[٦٢٧] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١١

[٦٢٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٤

رسالة مشايخ الأزهر لنابليون

- اجتمع علماء الأزهر وأرسلوا رسالة إلي الجيش الفرنسي فرحب بها نابليون وأرسل إليهم يطمئنهم ويتودد إليهم وبهذا تم عبور الجيش الفرنسي نهر النيل واستلم العاصمة وسكن نابليون في بيت محمد بك الألفي بالأزبكية وقد كان خالياً بالطبع وهرب مراد بك إلي الصعيد وأصبح بعد ذلك يسبب متاعب كثيرة للجيش الفرنسي في الجنوب ،
- فماذا فعل نابليون في القاهرة بعد احتلالها ؟
- أسس نابليون ديوان من المشايخ والأعيان في مصر كحكومة وطنية ولكن لم يكن لها سوي الرأي الاستشاري الذي لا يؤخذ به علي أي حال وكان الغرض الحقيقي منها أن تكون حلقة الاتصال مع الشعب المصري ، كما أسس نابليون المجمع العلمي الذي ضم علماء الحملة وكانت مهمته الأساسية هي الرد علي أسئلة نابليون وحل مشاكل الحملة بأساليب علمية ودراسة المواقف المختلفة بأسلوب دقيق مبني علي حقائق ومعلومات دقيقة وبدأ يجمع معلومات عن كل شئ في مصر وكان الجيش الفرنسي أثناء تقدمه في اتجاه العاصمة يواجه من الأهالي أنفسهم مقاومة أشرس من مقاومة المماليك ، ووصف الجبرتي كفاح الشعب المصري وبذله الأموال لتمويل الحرب ضد الفرنسيين فقال : (بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت أنفسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشئ يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر)[٦٢٩]
- إذن فقد استقرت الأمور لنابليون فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لقد حدثت كارثة للحملة الفرنسية في أبي قير
- تقصد تدمير الأسطول الفرنسي ؟

معركة أبو قير البحرية

- نعم ، قال الرافعي : (علي مقربة من الإسكندرية وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد في خليج أبو قير وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨م الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة أبو قير بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأمير نلسن والأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال برويس وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته فكانت هذه الواقعة كارثة عظمي أصابت البحرية الفرنسية وقضت علي آمال فرنسا في بسط سيادتها علي البحر المتوسط وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر)[٦٣٠]

---

[٦٢٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٨

[٦٣٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢١٥

- وأخيراً استطاع نلسن أن يلتقي بأسطول فرنسا وتدميره
- بل والقيام بحصار بحري لمصر بحيث يقطع صلة الحملة الفرنسية عن وطنها في فرنسا وقد أضعف ذلك بالطبع من الروح المعنوية للجنود لولا أن معهم قائد من نوع خاص يمكنه التغلب علي الصعوبات والمحن ولديه مواهب خاصة لا تتوفر في الكثير من القادة
- فماذا فعل نابليون بعد هذه الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي ؟
- لقد حاول التودد والتقرب من الشعب المصري وشغله عما حدث
- فماذا فعل ؟

نابليون والاحتفالات الدينية في مصر

- من الثابت تاريخياً أن نابليون اهتم بإحياء الموالد والاحتفالات الدينية ولكن السبب في ذلك يختلف من وجهة نظر كل مؤرخ وطبقاً لرؤيته فمثلاً يقول الرافعي : (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلي كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلي قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلي الابتهاج والانشراح -- – فأراد أن يصل إلي قلوبهم عن طريق التفريج وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث لها ويتودد إلي زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية)[٦٣١]
- كان هذا رأي الرافعي فماذا كان رأي الجبرتي شاهد العيان ؟
- لقد كان له رأي آخر فعندما تكلم عن أحد الموالد قال : (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)[٦٣٢]
- فقد عادت إذن هذه الموالد بقرار فرنسي
- نعم وكان هناك إصرار عجيب من نابليون علي إحياء هذه الموالد ويدعمها بالمال
- كيف ؟
- فمثلاً يقول الجبرتي : (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطي له ثلثمائة ريال

---

[٦٣١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٥٣

[٦٣٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٣٨

فرانسة معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم - - وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط وسواريخ تصعد في الهواء)٦٣٣ كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه فقال : (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني علي أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)٦٣٤ ويضيف الجبرتي متأسفا (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض - - ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة - - فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد - - فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)٦٣٥

- وهل نجح نابليون في استمالة المصريين بعد كل هذا ؟
- قال الرافعي : (أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تُخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب - - ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان - - وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير

[٦٣٣] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢٤، ٢٥

[٦٣٤] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

[٦٣٥] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)٦٣٦ ويمكن القول أن المصري آنذاك كان لا يمكنه الثقة بأي شخص لا يؤمن بالله مهما كانت القوانين البشرية التي يخضع لها ويعمل لها ألف حساب ومهما كانت المبادئ التي يؤمن بها فهو عندما يطبق القانون يطبقه علي بني جنسه فقط في أغلب الأحيان ولن يتورع عن فعل الأفعال القبيحة والبشعة بضحاياه أما الذي يخاف الله فإنه يتقي الله في جميع الظروف ومع جميع البشر ويطبق منهج الله وأوامره حتي علي ألد أعداءه لأن مراقبة المولي عز وجل للعبد دائمة ومؤكدة {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (١٩) سورة غافر فلا يستطيع الهرب من رقابته عز وجل كما يتهرب غير المؤمن من رقابة البشر وقوانينهم كلما أتيحت له الفرصة

- هل يمكن أن تعطيني مثلاً علي مقاومة المصريين للحملة بعيداً عن الإسكندرية والقاهرة حتي ولو كان في تاريخ خارج سياق تسلسل الأحداث ؟
- بالتأكيد يمكن أن أقرأ لك موقف عجيب من مواقف المقاومة كمجرد نموذج بعيداً عن العاصمة
- ومن أي الكتب اخترت هذا النموذج ؟

نموذج من نماذج المقاومة بعيداً عن العاصمة

- من كتاب (ودخلت الخيل الأزهر) وهو من أروع الكتب التي أرخت للحملة الفرنسية حيث ورد به ما يلي : (– – والذي حدث أنه لما سقط المماليك وأفاقت الجماهير علي انهيارهم حملت هي مسئولية الدفاع عن وطنها ووجودها ، وفي بني عدي وصل (داف) إليها في ١٨ أبريل ١٧٩٩ ألفي أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحضرون للوثبة والقتال ، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بني عدي وبيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها علي الجنود فلقي الجيش الفرنسي ببني عدي من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد ، واستمر القتال إلي الليل ، وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية علي مقاومة الأهالي ، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء علي بني عدي لجأوا إلي وسيلة الحريق التي اتبعوها في ابنود وغيرها فأضرموا النار فيها ، فامتدت إلي بيوتها كافة وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة تغلب الجيش الفرنسي علي مقاومة بني عدي واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً
- يبدو أن أسلوب الحملة لم يتغير في قمع أي قرية أو مدينة
- قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته (أصبحت بني عدي أكواماً من الخرائب وتكدست جثث القتلي في شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببني عدي وقدر الجنرال دافو عدد القتلي من الأهالي بألفي قتيل ويقدرهم ديزيه في تقريره إلي نابليون بنحو ثلاثة آلاف) ، وهناك واقعة شهيرة ينتبه لها دائماً المؤرخون الغربيون وبعض المصريين ، ولو أن الاهتمام بها وقف

[٦٣٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٥٢ ، ١٥٣

عند حد الإعجاب بغلام فلاح مصري يسرق بنادق الجيش الفرنسي ويرفض الاعتراف علي محرضيه ويتحمل الضرب بصبر عجيب ففي (الفقاعي) –قرية تابعة لمركز ببا في مديرية بني سويف علي الضفة الغربية للنيل بالصعيد– تقدم أحد غلمان القرية وتغفل جنود الجنرال ديزيه كما تغفل جواسيسه بقيادة يعقوب واستولي علي بنادقهم ، فرآه جندي آخر وتعقبه وهو يحمل بندقية إلي أن أدركه وضربه بالسيف علي ذراعه ، وساقه جريحاً إلي الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، وهنا تسجل المصادر الفرنسية (وهي وحدها التي سجلت الواقعة) حواراً يبدو أنه أذهل قادة جيش الاحتلال من غلام لم تتجاوز سنه الثانية عشرة ، عاري الجسد تقريباً ، حافي القدمين علي بعد مئات الأميال من الشاطئ الأوروبي جريحاً مضروباً بالسيف في ذراعه وساقه ، يمسك به جندي فرنسي ووسط معسكر كامل من المقاتلين المسلحين بأسلحة أوروبا الحديثة ، فعندما سأله الجنرال عما دعاه إلي إرتكاب هذا العمل ، أجاب الغلام رابط الجأش ناظراً إلي السماء : إن الله القادر علي كل شئ قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عمن حرضه علي فعلته ؟ فقال لم يحرضني أحد وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته ، واكتفي بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة – – فجُلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلاً : إن هذا الغلام إذا عُني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروي المسيو فيفان دينون حكاية هذا الغلام في رحلته ، – –ونرجح أن الغلام كان يتبع تنظيماً ما إذ لا يُعقل أنه كان يسرق البنادق لحسابه الخاص ولا شك أن أهم ما كان يعنيه ونجح فيه هو عدم إفشاء سر هذا التنظيم[٦٣٧]

- إن ما ذكرته يغني بالفعل عن الكثير من الأمثلة الخاصة بالمقاومة ، فكيف قامت ثورة القاهرة ضد الحملة الفرنسية والمعروفة تاريخياً بثورة القاهرة الأولي ؟

ثورة القاهرة الأولي ضد الحملة الفرنسية

- يقول الرافعي : (إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاق الأهالي بالضرائب والمغارم)٦٣٨ لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)٦٣٩ كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من

---

[٦٣٧] نقلاً باختصار عن كتاب ودخلت الخيل الأزهر – محمد جلال كشك

[٦٣٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٠

[٦٣٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦١

أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)٦٤٠

- فماذا كان دور الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ والعلماء ؟
- حاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكنه فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)٦٤١ ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيس لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ويقول الرافعي (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعوا إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان – – علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)٦٤٢
- فماذا كتب الجبرتي عن هذا ؟
- إليك بعض ما كتبه الجبرتي عن هذه الأحداث : (وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ويكفهم كما تكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير وأتهمهم بالتقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالامان في المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب ، :وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع الى ان مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا

[٦٤٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٥

[٦٤١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٧

[٦٤٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٨١

- فماذا فعلوا مع الجامع الأزهر مركز المقاومة الأول ؟
- يقول الجبرتي : وبعد هجعة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا في الازقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين ان لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي افواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجا وأحاطوا بها احاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقاع وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله
- إنا لله وإنا إليه راجعون فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يقول الجبرتي : فركب المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في اثارة العوام وحرضهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال
- واضح أن نابليون كان يعرف أن هناك من يقود المقاومة من المشايخ
- بالطبع فقد كان هناك مشايخ يتحدثون معه وهناك من يقاومه في السر ، لذلك قال نحن نعرفهم بالواحد ثم أن نابليون قام بتوزيع منشور علي لسان المشايخ إلي الشعب المصري
- ماذا تقصد بكلمة علي لسان المشايخ ، ألم يكتبوه بالفعل أم أنه قد كتبه ونسبه إليهم
- أعتقد أن هناك من كان يتعاون معه في صياغته ولكن لا أعتقد أن جميع المشايخ وافقوا أو حتي علموا بكتابة هذا المنشور
- علي أي حال ماذا جاء في هذا المنشور ؟

رسالة إلي الشعب علي لسان المشايخ

- قال الجبرتي : واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت سنة ١٢١٣ فيه كتبوا عدة اوراق على لسان المشايخ[٦٤٣] وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع وصورتها : نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ إلي الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب علي ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر – الفرنساوية – أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا علي عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالي يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قُتِلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة واشتغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام
- هل من الممكن أن أراجع معك بعض ما يلفت النظر في هذا المنشور الذي جاء علي لسان المشايخ ؟
- الله وحده يعلم إذا كانوا قد كتبوه فعلاً أم كتبه أحد علماء الحملة المستشرقين أم صاغه أحد المشايخ الموالين للحملة
- علي أي حال أريد أن أسأل عن بعض الموضوعات التي جاءت في هذا المنشور أياً كان من كتبه ،
- لا مانع علي الإطلاق
- قد ورد بالمنشور الاستعاذة بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، فهل هذه كانت فتنة ؟ أو بعبارة أخري هل مقاومة الحملة الفرنسية محل اجتهاد وبحث والذين ماتوا فيها ماتوا علي طريق الحق دون ان يشاهدوا أي نتائج لما فعلوه ؟
- إن مقاومة المحتل مشروعة بالفعل وليس في الإسلام فقط بل أعتقد أنها مشروعه دولياً وإنسانياً ، وفي العالم كله ، فلا يلوم أحد شعب يقاوم المحتلين والمغتصبين لبلاده ، ولقد فعلها الفرنسيون أنفسهم خلال احتلال ألمانيا لبلادهم في الحرب العالمية الثانية
- فعلي من تجب المقاومة وكيف تتم ؟

---

[٦٤٣] قد يقصد الجبرتي بتعبير علي لسان المشايخ أنها في الأساس من قيادة الحملة الفرنسية وزعموا أنها من علماء المسلمين

- هذا هو محل الاجتهاد والله أعلم وليس مبدأ المقاومة في حد ذاته ، فكل شخص يقاوم بما يستطيع دون أن يعرض نفسه لما هو فوق طاقته وطبقاً لمدي ضعف أو قوة إيمانه ، فتبدأ من الإنكار بالقلب وعدم التهليل للباطل ونصره ثم الدعاء علي المحتلين في السر ثم في العلن ثم الكلمة ونشر الوعي وتتدرج حتي تصل للقتال
- ومن الذي يحدد مدي استطاعة كل فرد في المقاومة ؟
- إن الله وحده هو الذي يعلم مدي استطاعة كل إنسان في فعل أو عدم فعل أي شئ في الحياة ، فأنا مثلاً قد أقول لك أنني لا أستطيع أن أفعل شئ معين وقد أكون أستطيع فلا يعلم سرائر الأنفس وإمكانياتها إلا الله ، أما أنت فعليك أن تصدق ما أقوله لك وتأخذ بظاهر أقوالي وتترك سريرتي إلي الله سبحانه وتعالي والله أعلم
- إذن إنها لم تكن فتنة علي الإطلاق ولم يلتبس فيها الحق بالباطل فكان الحق واضحاً وضوح الشمس ، ولكن ردود الأفعال قد اختلفت طبقاً لاجتهاد كل فرد علي حدة ، ولكن ما رأيك في وصف نابليون في هذا المنشور بأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر – الفرنساوية – أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ؟
- إنه كلام مبالغ فيه جداً وإن كان من كتبه أحد علماء المسلمين فقد يكون قد تعرض لما لا يمكن أن يطيقه من تهديدات له ولعائلته أو تهديدات عامة تمس الشعب ، وإما أن يكون منافقاً خالصاً يريد أن يحصل علي منافع دنيوية والله أعلم
- لماذا تفترض حسن النية أولاً قبل سوء النية
- يجب أن يحسن المسلم الظن بالمسلمين ويفترض حسن النية دائماً ويلتمس الأعذار لهم فالله وحده يعلم ما هم فيه من ابتلاء فمن اجتهد منهم وأخطأ أو أصاب فأجره علي الله
- فهل تعرف نماذج لمقاومة الفرنسيين للألمان أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا ؟ رغم أن هذا خارج موضوعنا وسياق الأحداث التي تسردها
- لقد شاهدت العديد من الأفلام الوثائقية عن هذا الموضوع فضلاً عن الأفلام العادية التي توثق أحداث الحرب العالمية الثانية ولكنني للأسف لم أقرأ سوي موقف واحد فقط صادفني أثناء مطالعتي لكتاب بعيد تماماً عن هذا الموضوع ، وهو موقف من خيال الكاتب ولكنه يدل علي الكثير من المعاني وهو كتاب للأستاذ العقاد رحمه الله وكتب هذا الموقف في سياق سرده لبعض المواقف الطريفة فقد كان الكتاب يتحدث عن النوادر والطرائف في الأساس
- فماذا كان اسم هذا الكتاب وما الموقف الذي ورد فيه ؟

- الكتاب اسمه جحا الضاحك المضحك وعنوان القصة أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي وضابط ألماني ، أثناء احتلال الألمان باريس ، ودخل القطار نفقاً فسُمِع في المقصورة صوت قبلة وصفعة ، فقالت المرأة العجوز لنفسها : ما أطهرها من فتاة ، وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : عجباً له يُقبّل العجوز ولا يقبّلني ؟ ، وقال الضابط الألماني : يا له من فرنسي خبيث ، غنم القبلة وغنمت أنا الصفعة ، وقال الفرنسي : لقد نجوت بها ، قبّلت ظاهر كفي ، وصفعت الألماني ، ولم يتهمني أحد
- إنها قصة طريفة بالفعل وإن كان صفع الألماني علي وجهه هو غاية ما يتمناه الفرنسي في ذلك الوقت حتي في قصة خيالية ، وعلي أي حال فهي قصة جعلتنا نسترخي قليلاً
- المقصود هنا أن جميع القصص والروايات والأفلام التي وثقت للاحتلال الألماني لفرنسا كانت تؤكد أن الشعب الفرنسي لم يكف عن المقاومة ولم يتهمه أحد أن المقاومة عمل غير مشروع

محاولة إثارة أول فتنة طائفية في مصر

- فماذا كان موقف المسيحيين في مصر من كل هذه الأحداث ؟
- استطاع الفرنسيون أن يخلقوا العداوة بين المسلمين والمسيحيين بالرغم من أن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون في أمان مع المسلمين في مصر منذ قرون طويلة وإليك بعض مقتطفات مما قرأت عن هذا الموضوع (نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية علي معاونة الحملة بمختلف الوسائل)[٦٤٤] ، (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلي حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم علي النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده – – وقد نظر الشعب المصري إلي هذه الفرق علي أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر وتزعم هذه الفرق المعلم يعقوب حنا إذ كون فرقاً عسكرية من الأقباط وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزى الجنود الفرنسيين)[٦٤٥]
- المعلم يعقوب ، أعتقد أنه أشهر خائن في تاريخ مصر ، ولكن بالطبع لا يعبر موقفه وموقف فرقته عن موقف باقي المسيحيين في ذلك الوقت
- وكان سبب لجوء الفرنسيون لهذا الأسلوب هو محاولة تمزيق النسيج المصري المترابط
- فماذا فعلوا أيضاً ؟

---

[٦٤٤] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٠

[٦٤٥] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩١

- كما سعي رجال الحملة إلي زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم ،
- وهل قاموا بإلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر ؟
- لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية يتم حكم المصريين بقانون وضعي من صنع البشر (فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وكانت تلك هي المرة الأولي في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله يضعه وينفذه قوم غير المسلمين – – وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية ، هزيمة العقيدة وبدء انحسارها في عالم الواقع الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين ، انبهاراً بقوة السلاح أولاً ، وانبهاراً بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلي مصر وانبهاراً بالتنظيمات التي أحدثها وفي كلمة واحدة انبهاراً بكل ما جاء من الغرب وكل ما ليس بإسلام وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار – – بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة الفرنسية في نفوس المسلمين)[٦٤٦]
- أعتقد أن هذا هو الذي يمثل الفتنة الحقيقية ، فماذا كان موقف الخليفة العثماني ؟

الخليفة العثماني يدعو للجهاد

- (كان الهجوم الفرنسي علي مصر يعتبر أول هجوم صليبي علي ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلي الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد علي الفرنسيين الصليبيين " ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م" واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام وشمال أفريقيا)[٦٤٧] ولم يكن موقف الأمة الإسلامية علي ما يبدو في ذلك الوقت مثل ما كان من قبل فدعوة الجهاد كان يقابلها استجابة واسعة النطاق كثيرة العدد والعدة كأيام المسلمين الأوائل فقد كانت الاستجابة تكفي لتكوين جيوش جرارة من المجاهدين كما كان يحدث وأقرب مثال علي ذلك عندما اجتمع المجاهدين مثلاً حول صلاح الدين أو حول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم من السلاطين أما عندما وجه الدعوة للجهاد الخليفة العثماني السلطان سليم الثالث فلم تكن الاستجابة برغم حدوثها ترقي لنفس مستوي الاستجابة التي كانت تحدث من قبل ، بل وفقدت التنسيق فيما بينها عند احتدام القتال والأغرب من ذلك أن الجيوش العثمانية نفسها كانت تفقد القيادة العسكرية الناجحة فنري الجيوش التي

---

[٦٤٦] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠١

[٦٤٧] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٢

تنقل براً تأتي في توقيت مختلف عن الجيوش التي تنقل بحراً وكل قوة منهم تواجه الفرنسيين وحدها دون حشد لجميع القوي ،

- فكيف حدثت حركة الجهاد ضد الحملة الفرنسية ؟
- خرج من الحجاز حوالي ستمائة مجاهد بقيادة شخص يُدعي محمد الكيلاني وركبوا البحر إلي القصير وانضموا إلي جيش مراد بك وتسببوا في خسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر كما خرج من ليبيا مجموعة من المجاهدين بقيادة المهدي الدرناوي (وضم إليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وانحاز إليه سكان القرى التي مر بها فسار بهذه الجموع المسلحة حتي وصل إلي دمنهور)[٦٤٨] وقد انتصر انتصار كبير علي الحامية الفرنسية بدمنهور ثم وصلت إمدادات من الجيش الفرنسي للدفاع عن دمنهور ومواجهة المجاهدين ووقعت معركة شرسة وعنيفة وصفها أحد مؤرخي الحملة الفرنسية نفسها فكتب (إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ،أظهر فيها أتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له)[٦٤٩]
- فماذا كان رد فعل الحملة الفرنسية ؟
- واجه الفرنسيون هذه الأزمة باهتمام بالغ وحشد غير عادي للقوات والإمدادات حتي استطاعوا اجتيازها بصعوبة شديدة ، ومن هنا يتضح أن الجيوش العثمانية والمجاهدين لم تكن تجمعهم قيادة واحدة أو حتي تنسيق أو تزامن في القتال
- ومتي قرر نابليون الزحف بالجيش في اتجاه فلسطين ؟
- (كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)[٦٥٠] ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالغرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر براً وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة وحدثت مذبحة يافا ثم الفشل في اقتحام عكا
- وما تفاصيل ما حدث في يافا ؟

---

[٦٤٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٢

[٦٤٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٣ ، ٥٤

[٦٥٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٠

نابليون ومذبحة يافا ١٧٩٩م

- ورد عن هذا الموضوع في كتاب ودخلت الخيل الأزهر – للأستاذ محمد جلال كشك ما ملخصه : وحالما استولي هؤلاء الجنود (البواسل) علي المدينة ودخلوها ، أعملوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم ، وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله والليل كله وفي صباح الغد ، فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون ، وكل من له وجه انسان سقط صريع جنونهم ، كما قال (مالو) ، الذي ما زالت الصفحات التي كتبها في وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والخزي : – – وفي يافا كان النهب والسلب شق البطون وهتك أعراض البنات وهن مازلن في أحضان أمهاتهن المائتات – – كل هذا وشر من هذا وقع في يافا في ٧ ، ٨ مارس ١٧٩٩م أما نابليون فكان تعليقه الهادئ (بلغت سورة الجند قمتها فأعملوا السيف في كل إنسان وقاست المدينة بعد نهبها جميع الأهوال التي تقاسيها مدينة مقتحمة)
- وهل هذا طبيعي أن يحدث عند اقتحام أي مدينة من وجهة نظر نابليون ؟
- يقول الكاتب : – – ونابليون لم يخطئ في اعتبار ما جري في يافا قانوناً عاماً بالنسبة لسلوك الحضارة الغربية ، ولكننا –وبكل تواضع– نرفض اعتبار ذلك السلوك البربري قانوناً عاماً للسلوك البشري ، وبالذات ، فإن حضارتنا أثبتت العكس – – حضارتنا عندما دخلت ذات المدن لم ترتكب هذه الأعمال ، وكان الفارق مجرد ١٢ قرناً إلي الوراء ، وإذا كان ذبح أهل يافا بالسيف لا يستوقف المؤرخين الغربيين كثيراً ، لانشغالهم بما يسمونه (مذبحة يافا) فإن هذه المذبحة بدأت باثنين من ياوران بونابرت هما (بوهارنييه) و (كروازييه) أرسلهما نابليون إلي المدينة ليريا ما الذي يمكن عمله لإعادة النظام إلي ربوعها ، وناداهما الجنود والترك من نوافذ القلعة بعد أن تبينوهما من حزاميهما العسكريين ، وصاح الترك بأنهما علي استعداد للتسليم إذا وُعدوا بألا يُعاملوا كما عومل بقية أهل يافا ، وأعطي الشابان علي مسئوليتهما تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يُقتلوا ، وعلي هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم ، فلما رأي بونابرته ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الأسري اصفر وجهه وقال ساخطاً : (ماذا يريدانني أن أفعل بهم ؟ ما هذا الذي صنعاه) ، وبقية القصة معروفة وشائعة إذ أمر أمر نابليون بذبح الثلاثة آلاف – – الأسري العزّل الذين مُنحوا أماناً باسم الشرف الفرنسي ، ولكن في حضارة لا تؤمن بأن أفرادها سواسية كأسنان المشط يسعي بذمتهم أدناهم ، نُفِذ الإعدام بدقة تامة ، ومن المسلم به أن ٢٥٠٠ شخص قُتلوا لا لضرورة قاهرة بل تحقيقاً لراحة وإحداثاً لتأثير متعمد ، ويترك لنا الميجور (ديترون) كشف حساب كذلك الذي نجده في أوراق ربة بيت مدبرة ، أو في دفتر توفير طالب نجيب ، ففي حساب الميجور الفرنسي نجد هذه الأرقام : في ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من ٢٠٠٠ تركي ، في ٨ مارس رمي بالرصاص ٨٠٠ تركي ، وفي ٩ مارس رمي بالرصاص ٦٠٠ تركي ، وفي ١٠ مارس رمي بالرصاص ١٠٤١ تركياً ، الجملة ٤٤٤١ تركياً

- إنها مجرد أرقام بالنسبة له
- وكتب المواطن (بيروس) إلي أمه : (إن قيام الجنود الحانقين بعد اقتحام مدينة والاستيلاء عليها عنوة بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق أمر تقتضيه قوانين الحرب ، والإنسانية تسدل قناعاً علي هذه الفظائع ، ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة علي الهجوم وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، في وحشية هادئة بقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما في ذلك ريب – – أن نحو ٣٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم فسيقوا علي الفور إلي معسكرنا – – – وصدرت التعليمات المشددة للجنود بألا يسرفوا في الذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسنكي وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا –وهم يموتون– بآبائهم وسيُعلّم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلي صدق نية الفرنسيين) ، وفي يوم ٨ مارس وهو اليوم الثاني من أيام المذبحة أرسل الله الطاعون علي الجيش الفرنسي وصبه علي رءوسهم ، ويتساءل مؤرخ سيرة نابليون عن نوعية هذا الرجل الذي أمر بالقتل في هدوء بالسناكي وقام في اليوم التالي بنفس الهدوء بزيارة مستشفي الجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون ، أما نحن فلا نجد أي حيرة – – إن ممثلي الحضارة الغربية لم يحسوا أبداً بأن الكائن الملون مكتمل الإنسانية ، ومن ثم فذبحه لم يشكل أبداً جريمة إنسانية ، ولا نفي عن الذابحين رقة مشاعرهم ولا شكك في حسن سلوكهم البشري ، بل إننا نجد صورة مثالية لهذا التفكير الذي يدين قتل الهمج للبشر ويفخر بإبادة المتمدينين للهمج الذين هم نحن ، أبو عبيدة قائد الجيش العربي في الشام لم يقتل أسيراً واحداً ولا أعمل السيف في المدنيين
- ربما يفسر ذلك صمود حامية عكا وأهلها بعد ذلك أمام الجيش الفرنسي وفشله في اقتحامها رغم وعوده لهم بالأمان ، ولكن أكثر ما لفت نظري فيما سبق عندما قال : (الكائن الملون مكتمل الإنسانية) ، فكما لو كان يقول : لا تنخدع في مظهره فهو كائن يشبه الإنسان ولكنه ليس كذلك علي الإطلاق ومن ثم قتله ليس جريمة إنسانية
- هذا صحيح ، وقد استمر نابليون في تقدمه إلي أن توقف أمام عكا وواليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار ، حيث قام نابليون بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعاً وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلي مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا
- فماذا كانت خسائر الحملة ؟
- (بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٢٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قُتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض)[٦٥١] وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون لهذه الكارثة علي الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب

---

[٦٥١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٣٣

المصري يوضح فيها أسباب عودته إلي مصر ، وقد قام نابليون بتسميم عدد من جنوده المرضي حتي لا يشكلون عبئاً علي الحملة وحتي لا يقعوا في الأسر

- وبالطبع أثار ذلك الكثير من الجدل بين الفرنسيين
- بالتأكيد وإليك بعض ما جاء عن هذا الموضوع بنفس الكتاب حيث كتب المؤلف ما يلي : بل لعل هذه التفرقة بين مشاعر الإنسان شمال البحر الأبيض ، وآلام الإنسان جنوبه ، هذه التفرقة التي تميز الحضارة الغربية ، تحمل الجواب علي سؤال هيرولد ، الذي يبدو في تساؤله أكثر سذاجة من سذاجة شيوخ الأزهر المزعومة ، ، فهو عندما يناقش واقعة أمر نابليون بتسميم حوالي خمسين جندياً فرنسياً كانوا مصابين بالطاعون وميئوساً من شفائهم وذلك قبيل إخلاء يافا ، ولعجز الجيش المنسحب أو عدم استعداده لحملهم وهم يحملون هذا المرض المرعب وتجنباً لوقوعهم في يد ((الهمج)) ، ، يتساءل هيرولد دهشاً عن أسباب اختلاف المؤرخين حول قرار الإعدام هذا ، واستنكار أنصار نابليون إقدام البطل علي اتخاذ مثل هذا القرار ، ، يقول هيرولد : (من الصعب أن نفهم لماذا أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشبوب ، فحتي لو كان بونابرت قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضي الطاعون الميئوس من شفائهم رحمة بهم ، فلا ريب في أن عملاً كهذا يمكن تبريره أكثر من ذبح آلاف من أسري الحرب وهو ما أمر به في يافا قبل ذلك بعشرة أسابيع)، ، ، ولا مجال للدهشة فالجدل مفهوم جداً والاستنكار طبيعي من جانب المعلقين الغربيين ، فقرار نابليون المستنكر موجه ضد ((الإنسان)) الغربي ، ولذلك يتعرض لنقد شديد لتحديد مدي انطباقه علي المفاهيم الإنسانية ، أما القرار الآخر الصادر بذبح ٣٠٠٠ مسلم فهو يتناول ((الهمج)) ، ((الكائنات التي خُلِقت علي هيئة إنسان لتسهيل مهمة الإنسان الغربي)) ، الإنسان الحقيقي المكلف باستغلال هذه الكائنات وحسن الانتفاع بها
- في الحقيقة لا أجد بالفعل تعبير أفضل مما قاله هذا المؤلف عن الحضارة الغربية ، ولكن لماذا تم استخدام السناكي والسيوف في قتل معظم الأسري ؟
- لتوفير الذخيرة
- نعم فسوف يحتاجونها بالطبع عند عودتهم إلي مصر لقتل المزيد من الشعب المصري فهل لديك نص الرسالة التي أرسلها نابليون إلي مصر من أمام عكا ؟

رسالة نابليون من أمام عكا

- لقد وردت رسالة نابليون إلي الشعب المصري بعد فشله في اقتحام عكا سنة ١٢١٤ هجرياً يعلمهم فيها بقرار عودته من أمام عكا إلي مصر في كتاب عجائب الآثار للجبرتي حيث كتب ما يلي : ثم دخلت سنة أربع عشر ومائتين وألف ، استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء فيه حضر جماعة من الفرنسيس إلي العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم ، فلما كان في ثاني يوم عملوا الديوان وأبرزوا

مكتوباً مترجماً ونسخته : صورة جواب من العرضي٦٥٢ قدام عكا ، وفي سابع عشرين فريبال الموافق لحادي عشر شهر الحجة ١٢١٣ (١٥مايو١٧٩٩) من بونابرته ساري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلي محفل ديوان مصر ، نخبركم عن سفره من بر الشام إلي مصر ، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضي من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجائب معي جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزار (أحمد باشا الجزار والي عكا في ذلك الوقت) وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً علي حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد إلي طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت ، ومن جملة ثلاثين مركباً موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع والذي أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقي تلف وتبهدل والغالب منهم عدم وإني بغاية الشوق إلي مشاهدتكم ، لأني بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر في وقت دخولي ، كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس ، ومنتوره مات من تشويش هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام ، منتوره هذا ترجمان ساري عسكر وكان لبيباً متبحراً ويعرف باللغة التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوي ، ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا علي الرجوع إلي مصر أرسل بونابرته مكاتبة إلي الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً :

الأول الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلي أن جاءت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج

الثاني السنة مراكب التي توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الانكليز قدام يافا

الثالث الطاعون الذي وقع في العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكرياً

الرابع عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا

الخامس وقعة مراد بك مع الفرنساوية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثمائة فرنساوي

السادس بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد

السابع المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعي أنه من سلاطين المغرب

الثامن ورود الانكليز تجاه الاسكندرية ودمياط

التاسع ورود عمارة الموسقو قدام رودس

العاشر ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنيمساء

الحادي عشر ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا

---

[٦٥٢] المعسكر

الثاني عشر موت كفرللي الذي عملت المتاريس بمقتضي رأيه وإذا تولي أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر وكفرللي هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس

الثالث عشر سماع أن رجلاً يقال له مصطفي باشا أخذه الانكليز من اسلامبول ومرادهم أن يرموه علي بر مصر

الرابع عشر أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الانكليز وعزم علي أنه عندما تملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم

الخامس عشر لزوم ومحاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب انتهي وفي يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة أيضاً من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلي الصالحية وأرسل دوجا الوكيل ونبه علي الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقه حضرت من عنده يأمر بذلك

- واضح أن الجبرتي قد نقل بأمانة كل ما استطاع أن يصل إليه من محتويات الرسالة ، ولكن يبدو أن نابليون كان متأثراً بما حدث أمام عكا ، فماذا حدث بعد ذلك ؟

معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون

- وصل جيش عثماني بحراً إلي أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم ١٧ يوليو سنة ١٧٩٩ م مما اضطر نابليون إلي التوجه إلي الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة و (كانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسري نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلاً وجرح منهم سبعمائة وخمسون)[٦٥٣] وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلي فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلي الجنرال كليبر كما أعطاه الإذن للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخري لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ
- وكل رسالة بالطبع لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ،
- أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي – – وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث

[٦٥٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٦٨

المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجئني إلي أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)[٦٥٤]

- من الواضح جداً أن الدولة العثمانية قد فشلت فشل ذريع في طرد الحملة الفرنسية من مصر
- بالتأكيد وقد أدركت أن ذلك لابد أن يتم بمساعدة بريطانيا وهذا ما حدث بالفعل كما سنري
- لقد أشار نابليون بالفعل إلي تحصين عكا باصطلاح الإنجليز وهو ما يؤكد وجود دعم بريطاني لعكا من اتجاه البحر وبالتالي كان الحصار من البر فقط
- نعم وواضح في رسالته من أمام عكا أيضاً ركاكة أسلوب الرسالة وسوء مستوي الترجمة نظراً لمقتل المترجم الخاص بنابليون والذي أشار إلي مقتله في أسف (منتورة مات) ، كما أن هزيمة الجيش العثماني في معركة أبي قير البرية وأسر قائده ومقابلته لنابليون أتاح للأخير معرفة الموقف الدولي الذي هو معزول عنه تماماً والأحوال في أوروبا بشكل عام وشعر بأهمية سفره لإنقاذ الموقف هناك
- إذن فقد كان لقاء نابليون بالقائد العثماني المهزوم في أبي قير هو الوسيلة الوحيدة التي عرف من خلالها الموقف الدولي في أوروبا ووضع فرنسا بالنسبة له وأدرك أهمية سفره لإنقاذ الموقف من وجهة نظره ، فماذا كتب الجبرتي عن سفر نابليون ؟
- لقد تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول الإنجليزي فقد ذكرنا أن الأسطول البريطاني قام بتدمير أسطول وسفن الحملة الفرنسية في معركة أبي قير البحرية الشهيرة وبالتالي تم عزل الحملة تماماً عن الوطن الأم في فرنسا ، وبالرغم من ذلك سافر نابليون عندما شعر بضرورة توجهه إلي فرنسا في ذلك الوقت فقام بترك عدة رسائل أهمها بالطبع للجنرال كليبر الذي قرر أن يخلفه في قيادة الحملة ، وسافر في سرية تامة إلي فرنسا ، وقد حاول الجبرتي الوقوف علي ملابسات هذا الموضوع كمؤرخ ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وفيما يلي رواية الجبرتي وهو يكتب عن أحداث هذا اليوم فيقول : وفيه ورد من بونابارته ساري عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها ، فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ، مضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلي بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفوا له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولي علي أهل مصر وعلي رياسة الفرنساوية جميعاً كليبر ساري عسكر دمياط ، فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الانكليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ، ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف علي حقيقتها
- يا له من مؤرخ أمين لا يريد أن يكتب إلا ما هو متأكد من صحته ، فماذا كتب عن كليبر ؟

---

[٦٥٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٨٧

- كتب ما يلي : – – وفي يوم السبت تاسع عشرينه قدم ساري عسكر كليبر صبيحة ذلك اليوم فضربوا لقدومه المدافع من جميع القلاع وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم وذهب إلي بيت بونابرته الذي كان ساكناً به وهو بيت الألفي بالأزبكية وسكن مكانه ، وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلي الغد ، فانصرفوا وحضروا في ثاني يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فإنه كان بشوشاً ويباسط الجلساء ويضحك معهم [٦٥٥]
- فهل لديك معلومات عن الجنرال كليبر ؟

الحملة تحت قيادة الجنرال كليبر

- هوالجنرال جان باتيست كليبر – Jean-Baptiste Kléber ، ولد في 9 مارس 1753 وقتل في 14 يونيو 1800 ، وقد أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداء شديد بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية
- بالتأكيد فلم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأقنعة الزائفة ،
- وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ،
- فماذا فعل كليبر ؟
- أرسل كليبر رسالة إلي الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمي بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري
- يا له من شعب مسكين
- لقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدي إلي حدوث معركة بين الجيش العثماني

---

[٦٥٥] نقلاً عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار – عبد الرحمن الجبرتي – صفحة ٥٢٣

والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين

- تسليم أنفسهم كأسري حرب ، يا له من شرط مهين ينم عن مدي العداء الشديد بين الدولتين ، فماذا حدث في عين شمس ؟

معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية

- انتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلي القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلي القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة
- هل هي المعروفة بثورة القاهرة الثانية ؟
- نعم ، والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولي ، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلي عدة مدن وقري بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهي الخطورة مما أدي إلي رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ،
- وتم قمع الثورة بالطبع والمبالغة في القتل أليس كذلك ؟
- استطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما
- الدفاع المشترك يا للمهزلة
- وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ،
- وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تماماً فماذا حدث خلال هذه الثورة ؟

الفظائع الفرنسية في قمع ثورة القاهرة الثانية

- لا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ،
- لقد قلنا أن ما يفعله الفرنسيون ليس له علاقة بالإنسانية ، فماذا كتب المؤرخون عن قمع هذه الثورة؟
- لقد وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي : (وجري علي الناس مالا يُسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب)

- يا له من وصف معبر
- وكتب الرافعي : (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيعاً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)٦٥٦ وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)٦٥٧
- واضح أن الإنجليز حتي الآن لم يشتركوا في قتال حقيقي مع العثمانيين ضد الفرنسيين علي أرض مصر ولكنهم كانوا يكتفون بتحريك الأحداث والمراقبة ،
- نعم ، وسوف تلاحظ بعد ذلك أن هناك فرق كبير بين قتال العثمانيين وحدهم ضد الفرنسيين وبين القتال المشترك مع الإنجليز ضد الفرنسيين حيث كانت المعارك تدور بقيادة إنجليزية تساعد الدولة العثمانية التي أصبح يطلق عليها الرجل المريض
- إذن فقد وافقت في النهاية الدولة العثمانية علي ما لم يوافق عليه السيد محمد كريم رحمه الله
- نعم فقد أدركت أن الإستعانة بالإنجليز ضرورية لطرد الحملة الفرنسية من مصر
- فماذا حدث بعد ذلك ؟

مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة

- كان لابد من الإطاحة بالطاغية الذي لا يهتم بإراقة دماء الآلاف من الآمنين في بيوتهم والذين حتي لم يشتركوا في أي ثورة من أي نوع وتم قتلهم بدم بارد ، وقد استطاع أحد طلبة الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل رأس "الأفعى الفرنسية" الجنرال كليبر
- وبالطبع كان هذا العمل البطولي الرائع من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر
- بالتأكيد ، بل وكان ذلك تمهيداً لنهايتهم في مصر
- كيف ؟
- لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدي إلي فشل الحملة في مصر ، لأن نابليون قد اختار كليبر لقيادة الحملة ولكن لم يتمكن كليبر من اختيار من يصلح لخلافته

---

[٦٥٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٠

[٦٥٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٢

فقام الجنرالات باختيار أقدمهم ، بينما قيادة حملة كهذه يجب أن لا تخضع للأقدمية ولكن للكفاءة وقد فشلت الحملة بالفعل كما سنري

- وكيف وقع هذا الحدث ؟
- وقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ،
- وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر
- نعم ، ولكن ليس بسبب كفاءته ولكن لمجرد أنه أقدم الجنرالات المتبقين في مصر ، وقبل أن نترك مسألة مقتل كليبر وإعدام سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر ،أريد أن أذكر لك نص الحكم الذي أصدرته المحكمة فقد (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")[٦٥٨] واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف
- ليس الفرنسيون فقط الذين يعتبرون الجامع الأزهر مصدر للعنف ، فكل من احتل مصر رأي ذلك ، ولكن ألا يستحق التأمل في أن قاتل كليبر طالب أزهري ولكنه ليس مصرياً ؟
- لقد كانت أمة واحدة في ذلك الوقت وأوجاعها واحدة وكانت كالجسد الواحد الذي ورد في الحديث الشريف لنبي هذه الأمة صلي الله عليه وسلم
- فماذا حدث للأزهر الشريف ؟
- كان الفرنسيون كل فترة يفتشون الأزهر وينتهكون حرمته ويضيقون الخناق علي من فيه بحجة التفتيش علي الأسلحة ، مما أدي إلي اتخاذ المشايخ قرار بإغلاق الجامع الأزهر ورأوا أن هذا القرار سيحمي الأزهر من هذه الانتهاكات التي لا تليق به ويمنع الريبة التي كانت في نفوس الفرنسيين في كل ما هو أزهري ، وقدم العلماء هذا الاقتراح للفرنسيين وبالطبع وافق الفرنسيون علي طلبهم وتم إغلاق الأزهر من ٢١ يونيو ١٨٠٠ م إلي أن صدر قرار بفتحه في يونيو سنة ١٨٠١ في نهاية الحملة الفرنسية
- وكما يقال بيدي لا بيد عمرو ، حسناً ، فقد وصلنا إلي الجنرال مينو آخر قادة الحملة

الجنرال مينو ونهاية الحملة الفرنسية علي مصر

- تولي الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menou وكان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو "

---

[٦٥٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٠

- الجنرال عبد الله جاك مينو يا لها من سخرية من الشعب
- وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)٦٥٩ ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكَثُرَت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد فاشل بالرغم من أنه حاول القيام بعدة مشروعات في مصر
- هل لديك أمثلة علي هذه المشروعات ؟
- سوف أذكر لك مثال واحد فقط قد يكون فيه الكفاية فقد (فكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلي الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصار البحري لكن أعضاء اللجنة الإدارية عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية)٦٦٠
- مصلحة فرنسا بالنسبة لهم مقدمة علي مصلحة الحملة نفسها ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- تم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبى قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز
- أخيراً تمت المواجهة براً الإنجليز والحملة الفرنسية
- نعم ولكن بمساعدة العثمانيين وكذلك لم يلتقوا بقائد فرنسي من وزن نابليون وكليبر
- فماذا كان رد فعل مينو؟
- ظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدي إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو كما ذكرنا أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحيه والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلي البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم)٦٦١ ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلي الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر

[٦٥٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٩

[٦٦٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٨٩ ، ١٩٠

[٦٦١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٩٧

- فمن تولي قيادة الحملة في القاهرة ؟
- انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبيس فعاد منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ،
- وهل قام مراد بك بمساعدته ؟
- كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمدهم بالقوة اللازمة
- فلماذا لم يتحالفوا مع من جاء بعد مراد بك من أمراء المماليك
- لم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأي أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح
- إنها نهاية الحملة بالفعل
- نعم فقد اجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في ٢٧ يونيو ١٨٠١ بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)[٦٦٢] وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، علي أن يسري هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ،
- وهل وافق مينو علي هذا الاتفاق ؟
- لا بل رفضه تماماً واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)[٦٦٣] وهكذا غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمي لموقع مصر الذي أصبح حلماً لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة ١٨٨٢ م
- بل ولفتت نظرها أيضاً إلي مدي ضعف الدولة العثمانية فيما أعتقد
- بالتأكيد ، ولكن هل تسمح لي أن أسألك أنا عن الحملة الفرنسية ؟

---

[٦٦٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢١٧ ، ٢١٨

[٦٦٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٣

- لا مانع ، فهل هو امتحان لتطمئن علي مجهودك في الحوار ؟
- ليس امتحان بل أود أن تحدثني عن ملخص عام للحملة الفرنسية حتي استمر في الحوار وأنا مطمئن

ملخص عام للحملة الفرنسية

- تلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلي الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلي مصر ثم وقعت معركة أبي قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسري حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولي التي كانت في عهد نابليون ، ووقّع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحييده أثناء قتال العثمانيين ، ثم تم قتل كليبر علي يد سليمان الحلبي أحد طلبة الأزهر وتم تولي الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر واستمر الصراع إلي أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركاً مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا
- إنه تلخيص رائع بالفعل ، وإذا استكملنا هذا العرض الملخص سنقول أن الحملة قد غادرت مصر تاركة عدة قوي تتصارع علي السلطة ، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية علي مصر
- لا شك أن الحملة الفرنسية كان لها دور كبير في إيقاظ قوة الشعب ، فما هي القوي الأخري التي تصارعت علي السلطة ؟
- (جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما علي محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل علي تحقيق أطماعها في وادي النيل هذه القوات الثلاث هي الأتراك والإنجليز والمماليك)[٦٦٤]
- الأتراك والإنجليز والمماليك ، من صنفهم هذا التصنيف ؟

---

[٦٦٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٩

- هذا ما ذكره الرافعي في كتابه كما ذكر أيضاً ما يلي : (تلك القوات التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر وهناك قوة رابعة ظهرت علي مسرح النضال السياسي وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها حساب علي أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعي في تقرير مصير البلاد وتلك هي قوة الشعب المصري)٦٦٥
- الرافعي هنا يؤكد علي القومية المصرية بالتحديد وهذا مفهوم طبقاً لتوجهاته القومية
- علي أي حال كان بالطبع علي رأس هذا الشعب مجموعة من الزعماء البارزين مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومي والشيخ مصطفي الصاوي والشيخ محمد المهدي والسيد أحمد المحروقى ، أما الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكسب ثقة الشعب المصري متمثلاً في زعماءه واستطاع بهذه القوة الرابعة التي راهن عليها أن يواجه باقي القوي الأخري ويفوز بحكم مصر هذا الشخص هو محمد علي باشا
- محمد علي باشا ، هكذا وصل الحوار إلي عصر أسرة محمد علي ، فكيف حضر إلي مصر ؟
- حضر محمد علي إلي مصر عندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر وطلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)٦٦٦ ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية وقد عاصر محمد علي عندما حضر إلي مصر كل الأحداث التي تكلمنا عنها وحتي جلاء الحملة الفرنسية والفترة التي تلت رحيل الحملة الفرنسية مباشرة وحتي وصوله للحكم لتبدأ مصر فترة جديدة من تاريخها
- دعنا قبل أن نتحدث عن محمد علي وكيف وصل للحكم نلقي نظرة علي تأثير الحملة الفرنسية علي الشعب المصري من حيث انبهاره بما شاهده من حضارة مادية قد تكون عرضته لفتنة من نوع خاص
- أنا أفهم تماماً ما تعنيه ، وسوف أحاول أن أوضح لك ما أعرفه عن هذا الموضوع ، والذي أُطلِق عليه (لطمة حضارية علي وجه الشعب المصري)

لطمة حضارية علي وجه مصر

- بالتأكيد إن الانبهار بالحضارة الغربية قد يزعزع الثقة في النفس لدي البعض ، خاصة إذا كانت الفجوة الحضارية هائلة

---

[٦٦٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٣٢

[٦٦٦] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

- سنستعرض معاً ونتأمل حجم الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت وكيف أن مصر كشعب لم يكن له أي ذنب في ذلك ، وسوف أوضح مدي انبهار المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بما شاهده من أمور جعلته يعترف ويقول عن بعض ما شاهده أنها أمور لا تسعها عقول أمثالنا ،
- لاحظ أن الجبرتي لم يكن من طبقة العامة والغوغاء ولكنه يعتبر محسوب علي النخبة المثقفة في مصر فإذا حدث له هذا الانبهار وتلك الدهشة فما الذي حدث لباقي البسطاء من الشعب المصري ؟
- سأتلو عليك ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي [٦٦٧] عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر فتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م ، كتب ما ملخصه : ، – – من حسن الحظ أن كان يعيش في مصر حينئذ رجل ، لا أعرف من أجدادنا أحداً يفوقه في قدرته علي تملك حبي وإعجابي وعلي تثبيت الإعتزاز ببلدي في قلبي ، هذا هو الجبرتي مؤرخ مصر العظيم ، ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان يمثل أرقي ما وصلت إليه الحضارة الشرقية – – – – – بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحاً لا يشله الغرور أو التعصب ، فنحن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ في بيت من أرقي بيوت القاهرة في ذلك العهد ، إنني اعتبر يوم ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م من أهم أيام مصر الحديثة ولهذا اتخذته عنواناً لهذه الكلمة ، ففي ذلك اليوم خرج الجبرتي من داره ليتفرج علي ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب العاصمة ، – – – – فلما رجع لداره كتب لنا ما يلي :– – فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول ، المساعدة في العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من الخلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض علي خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري علي عجلتها بأدني مساعدة إلي محل العمل فيميلها بإحدي يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فئوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، غالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية علي الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة
- عربة يد ذات عجلة أمامية واحدة تبهر الجبرتي
- نعم بالفعل فقد علق الكاتب الكبير يحيي حقي علي ما كتبه الجبرتي فقال : هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقفل إلي حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتي كأنها معجزة شيطانية ، ينبغي ألا نقتصر علي الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتي ، بل نتأمل قوله بإمعان ، ففي وصفه دلالة بينة علي الفروق العميقة بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي ، فلو كان محله رجل أوروبي وشاهد مثلاً

---

[٦٦٧] نقلا عن كتاب صفحات من تاريخ مصر –طبعة يناير ٢٠٠٨ – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– من صفحة ٣٥ وما بعدها وتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م

علي تفوق الإنتاج لما انشغل حتي ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوي والعمل الآلي ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه لشراء الآلة الحديثة ولا يعكر مزاجه في التفكير في مصير العامل الذي ستوفره الآلة ، هذه هي العقلية التي قامت عليها عظمة النظام الرأسمالي ، وأما الجبرتي فإن أورد لفظ الكلفة في كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنياً إلا بأثر الآلة في التخفيف من سخرة الإنسان في العمل الجسماني

- إنها الرحمة التي تعتبر الفرق بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية في العديد من الأمور
- يضيف الكاتب فيقول : - - لم يكتف الجبرتي بالفرجة علي شق الطرق يوم ٥ديسمبرسنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب أيضاً في اليوم ذاته –ياله من يوم عظيم– إلي المجمع العلمي الفرنسي - - - ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة طفل ساذج كما سنري ، فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ديسمبر١٧٩٨ ، استيقظت مصر وأدركت أن هناك علماً حديثاً غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - - هو سر غلبة الغرب علي الشرق ، مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي
- مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي ، يا له من تعبير رائع من أديب مبدع ، فهل لديك ما حدث للجبرتي في المجمع العلمي ؟ لأنني أعتقد أن زيارة الجبرتي لهذا المجمع جاءت إطار حرصه علي كتابة تاريخ مصر كشاهد عيان فرأي أن هذا يتطلب زيارته لكل الأماكن المسموح له بزيارتها حتى يسجل كل ما يراه ويسمعه من باب الأمانة العلمية والله أعلم
- بالفعل قام الجبرتي بزيارة المجمع العلمي الفرنسي وتم استقباله بحفاوة بالغة وترحاب لأن علماء فرنسا كانوا يرحبون بزيارة أي مصري يريد أن يتعرف علي المجمع العلمي
- حتي يصاب بذُل الجهل وخضوع التخلف للتقدم علي ما يبدو فالإبهار العلمي من أقوي وسائل إخضاع الشعوب وتحطيم أي أمل لهم في المقاومة فعندما تشاهد بعينيك أموراً علمية تفوق إمكانياتك العقلية بكثير فبالتأكيد سوف ترهب فاعليها،
- أو قد يكون السبب في الترحيب مختلف لأن العلماء يهتمون بالعلم أكثر من أي شئ آخر ولا يوظفونه سياسياً أو عسكرياً ، أما الجبرتي فعندما وصف ما رآه في هذا المجمع وكتبه في كتابه الشهير كان في حالة من التعجب لا مثيل لها وسوف أتلو عليك مقتطفات قصيرة مما كتبه الجبرتي عن هذا المجمع لتحكم بنفسك علي قوة اللطمة الحضارية التي تعرضت لها مصر علي وجهها المتخلف في ذلك الوقت ، يقول الجبرتي : (وإذا حضر إليهم بعض "المسلمين" ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم

وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)٦٦٨ ، (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخري فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخري فجمد حجر أزرق وبأخري فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ، وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع

- (براهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع) ، يا له من تحليل ينم عن وعي ورقي في الفكر
- يضيف الجبرتي : – – – ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدني شئ كثيف ويظهر له صوت وطقطقة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخري ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)٦٦٩
- لا أجد ما أقول بعد كلام الجبرتي إلا رحم الله علماء الإسلام في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية رحم الله جابر بن حيان أستاذ الكيمياء الأول في الوقت الذي لم يعرف فيه العالم شيئاً عن الكيمياء ، ورحم الله ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع ورحم الله الخوارزمي أبو علم الجبر وغيرهم من علماء بغداد والقاهرة في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ولا حول ولا قوة إلا بالله
- هذا صحيح فمبادئ وأسس معظم العلوم الحديثة قد وضعها علماء مسلمون
- هل قام علماء الحملة بحصر تعداد سكان مصر في تلك الفترة ؟

تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية ٦٧٠

- يقول العالم الفرنسي ج دي شابرول : (كان تقدير عدد سكان مصر علي الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامي في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن

---

[٦٦٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٥٧

[٦٦٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٠

[٦٧٠] من كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الكتاب الأول – دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون – تأليف ج دي شابرول الفصل الأول – لمحة عامة عن الطقس والسكان وعن تقاليد وعادات المصريين – 2عن السكان وطبقاتهم المختلفة ، باختصار من صفحة ٢٢ إلي صفحة ٢٤ ------:

يدحضها وإلي جانب الخدمات التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك علي استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلي تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلي الموضوعية ، بل وكذلك عدد القري والكفور التي تغطي وادي النيل كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر ، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة ، وبخلاف ما جمعته أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارناً بتعداد السكان في مصر القديمة ، وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتي وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلي أمور أخري هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي فإنه قد توصل بذلك إلي نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة ، - - -وسوف أكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي ، بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلي عدد سكان القاهرة ، إلي نتيجة شبه مؤكدة وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٢٠٠ نسمة ، أما الطريقة الثانية فقد بنيت أن عدد قري مصر يبلغ ٣٦٠٠ قرية وأن متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخصا لكل قرية ، أي أن تعداد سكان القري يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة ، وبإضافة سكان المدن إلي ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧١٠٠وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٢.٥ مليون من السكان ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن إخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخري يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذي قام به بـ ٢٧٠٠٠ فارس ، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلي ١٣٠٠٠٠ نفس، - -كانت القاهرة في عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠-٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما في ذلكالمماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجئ الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠ نسمة)

- إن أكثر ما لفت نظري في ما قلت ليس الأعداد والأرقام ولكن قول هذا العالم : ،(وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن) ، مما يدل علي اعترافه بوجود حسابات أكثر دقة من حساباته ، ففضل كتابة نتائج تختلف عن حساباته ، وهي تعتبر أمانة علمية
- بلا شك أن هناك من العلماء من ينسب لنفسه حسابات ودراسات وأبحاث لم يقم بها ، بل قام بنقلها بالكامل بنتائجها دون الإشارة إلي صاحب الفضل الحقيقي فيها ، وأخشي أن يتحول البحث العلمي في مصر حالياً لمجرد نقل أبحاث علماء الخارج بنتائجها للحصول علي درجات علمية غير مستحقة

- هل تخشي أم أن ذلك قد حدث بالفعل ؟
- الله أعلم ، إذا كان هذا قد أصبح ظاهرة عامة أم لا ، ولكنني سمعت عن حدوث بعضه أحياناً وليست لدي مصادر موثوقة بحدوثه فلا أستطيع الجزم بحدوث ذلك
- بمناسبة الدراسات والأبحاث العلمية ، هل أطمع في الإلمام ببعض ما كتبه علماء الحملة عن مصر وشعبها وآثارها وما إلي ذلك مما درسوه في مصر ؟
- بالتأكيد يمكن أن سنستعرض ونتأمل معاً بعض ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في كتابهم الموسوعي الضخم (وصف مصر) لنعرف حجم المجهود في هذا الكتاب ومدي تعمق هؤلاء العلماء في تفاصيل الشئون المصرية في كافة المجالات ، فبالرغم من أن نابليون قد أحضرهم في الأساس لحل مشاكل الحملة ، ولكنهم كتبوه بدافع حب العلم لدراسة كل شئ في مصر وتسجيله ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلي اللغة العربية بواسطة الأستاذ زهير الشايب ثم استكملت العمل فيه ابنته مني زهير الشايب
- سأكون سعيد جداً إن قرأت لي بعض ما ورد في هذا الكتاب الشهير

مقتطفات من كتاب وصف مصر

- إليك أولاً بعض ما ورد في مقدمة هذا الكتاب ثم بعد ذلك سنقرأ بعض فقرات قليلة من الكتاب دون ترتيب معين لنتأملها معاً
- كلي آذان صاغية ، ولكن اسمح لي أثناء القراءة بترديد أي عبارة تعجبني فهو أمر لا إرادي ، كما يمكنني التعليق أو الاستفسار ، ومن المؤكد أنك ستفهم الفرق بين الترديد والتعليق والاستفسار
- علي أي حال ، كتبت الاستاذة مني زهير الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب وصف مصر في أكتوبر ١٩٩٢ ما ملخصه : لقد مضي علي صدور هذا الكتاب في طبعته الأولي من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقي خلالها –ولا يزال– الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين ، ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول : (لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة) ، وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين –لا سيما المصريين– كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ علي مر العصور ، انتهي كلام أو بعض كلام الأستاذة مني زهير الشايب
- أكثر ما لفت نظري في كلامه عبارة (فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه)
- أما ما كتبه الأستاذ زهير الشايب نفسه في مقدمة كتابه في فبراير ١٩٧٦ فقد اخترت لك منه ما يتعلق بما ذكره علماء الحملة عن الدين الإسلامي من وجهة نظرهم وكيف عالج المترجم هذا الأمر حيث كتب ما يلي : ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا

ويمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ أنني قد آثرت عدم التدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات لا بأس من طرح بعضها : ١ – أننا هنا بصدد أثر علمي هام ينبغي أن يحظي بالاحترام ، ٢ – أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً علي إطلاقه ، وإن كان ينبغي علينا في كل الأحوال ألا نخشي أية فكرة صحيحة ، ٣ – أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلي ، فذلك الموقف لن يعني إلا تسليمنا ولو بشكل سلبي بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هي أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه ، ٤ – أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا أظن أحدا يجادل في قوة عقيدتنا ، وأنني فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم صلي الله عليه وسلم ، كما أنني واثق أنني فيما التزمت به من أمانة في النقل كنت أقرب ما يكون إلي روح الإسلام ، الذي ينهض أول ما ينهض علي الإقناع العقلي ، والذي كانت أول آية في كتابه الكريم تدعو إلي القراءة والفهم والذي لا يستوي –بنص آياته– الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

- من كلام الأستاذ زهير الشايب يتضح مدي هجوم علماء الحملة علي الإسلام وإلا لما كتب كل هذه التبريرات في مقدمة كتابه
- وأضاف الأستاذ زهير الشايب في نهاية مقدمته ما يلي : وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضي بأن أعترف بما يأتي : ١ – أنني قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضي حذفها ، ٢ – أنني حذفت هامشاً كاملاً أثار –عند نشره بمجلة الثقافة– ردود فعل لم أكن أتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور ، ٣ – أنني حذفت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعماً مريراً في حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه
- تعتقد ما هي العبارة الأخيرة في الكتاب الذي قام بحذفها ؟
- من المؤكد أنها تسئ بشكل عام للشعب المصري ، ولا سبيل لمعرفة هذه العبارة إلا إذا عدنا للنسخة الأصلية من الكتاب باللغة الفرنسية
- علي أي حال لقد عرفنا من خلال أحداث الحملة وما فعلوه بمصر والمصريين وجهة نظرهم الحقيقية عن الشعب المصري أو دعنا نقول الشعوب المسلمة بشكل عام ، وما كتبوه عن مذبحة يافا فيه الكفاية ، فما هي أول فقرة ستختارها لنستعرضها معاً
- ورد في كتاب وصف مصر وصف للصناعة المصرية كالآتي : (وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنوه بالمقدرة المتميزة للغاية لدي الصناع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدي الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخري

فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة)٦٧١

- **هذه شهادة من علماء الحملة الفرنسية تؤكد أن المصريين كانوا علي أتم الاستعداد للتقدم في مجال الصناعة إذا اتيحت لهم الفرصة لذلك ولكن لم تكن هناك قيادة واعية توجههم ، أو قل لا توجد إرادة سياسية لتحقيق ذلك ، فماذا ورد أيضاً بكتاب وصف مصر بدون ترتيب ؟**
- **لقد وردت فقرة عن اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر علي عكس ما كانوا يعتقدون – كما ما يلي : (----- وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألفت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع – – وتقع حارة النصارى – أحد أحياء الأقباط – جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه – – وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمي حارة الروم إلي الشرق من السكرية – – والحي اليهودي – حارة اليهود – شديد الاتساع والازدحام – ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد –)٦٧٢**
- **وهل كانوا يعتقدون أن كل أهل دين من الأديان يتحميهم أسوار خاصة ؟ ، ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام وعلاقته بباقي الأديان السماوية ، ولكن هل هناك وصف للتجارة في ذلك الوقت ؟**
- **بالطبع فقد ورد بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر – صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧ ما ملخصه كالآتي : (– – – وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً علي : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة ، وكانت الحنة مرغوبة بكثرة في كل البلاد ، وكان جزء من مالية مصر يذهب إلي تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتي يثبت في مكانه ، – – – وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير**

---

[٦٧١] صفحة ٢٤٩ موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

[٦٧٢] موسوعة وصف مصر – مقتطفات مختارة من الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

- أرجو أن تتأمل معي هذه الجملة (وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر) سبحان مغير الأحوال
- إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً علي الإطلاق ، وكان المقابل دائماً يتم في صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلي دفع الأموال ، وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، – – أما تجارة الهند ومكة – علي العكس من ذلك – مكلفة لمصر – – ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلي عام ١٧٧٥م ، – – – – وقد أورد علماء الحملة الفرنسية هذه الجداول من صفحة ٢٥٨ إلي صفحة ٢٦٣ بالجزء الأول من الموسوعة –)٦٧٣
- لا داعي لقراءة كل هذه الجداول ولكن يكفي أهم ما جاء فيها
- أهم ما جاء في هذه الجداول هو أن فرنسا كانت تستورد القمح المصري ، فقد ورد في الجزء الرابع الذي يصف الزراعة والصناعات والحرف والتجارة في مصر ، بيان ما تقوم مصر بتصديره واستيراده من أصناف وأنواع التجارة المختلفة ، ومما يلفت النظر ما جاء تحت عنوان (تجارة مصر مع فرنسا) فقد كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : الواردات : كان يصدر من فرنسا إلي القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية بالإضافة إلي بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت في مرسيليا ، وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل علي أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولي وثانية ، وكذلك علي أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، – – – – ثم يستمر المؤلف الفرنسي في وصف المنتجات التي تقوم مصر باستيرادها من فرنسا إلي أن يصل إلي بند الصادرات المصرية إلي فرنسا فيقول : الصادرات : تصدر مصر إلي فرنسا : الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والنطرون والصودا والقطن المغزول والأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف والسنامكي وجلود الجاموس والأبقار والجمال ، وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة في مصر كانت الأخيرة تصدر إلي فرنسا أيضاً السلع الآتية والتي كانت تعد مستودعاً لها ، وهي تشتمل علي السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندي ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) – – وكان الأرز يصدر في العادة عن طريق دمياط – – –أما القمح الذي يصدر إلي فرنسا فكان يخزن أولاً في رشيد ، ومن هناك يرسل في

---

[٦٧٣] نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب

مراكب إلي أبي قير والإسكندرية ، ومنها يبحر القمح في السفن التي تشكل قافلة المشرق – – – وكانت السفن اليونانية علي وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هي التي تستخدم في نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال – – في منتصف القرن الماضي ، وتقدر الكمية التي صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتي أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذي كان يحصل علي عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مديني عن كل أردب من القمح[٦٧٤]

- **أعتقد أن مصر لم تعاني طوال تاريخها من الحاجة للقمح إلا في العصر الحديث ، وسبحان الله**
- **ومن أهم ما ورد من فقرات في هذا الكتاب الضخم وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت وقد ذكرته لك في بداية حوارنا**
- **فماذا عن وصفهم للمماليك ، أم أن كل كلامهم كان عن الشعب المصري فقط ؟**
- **لقد قام علماء الحملة الفرنسية بتوضيح أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر وإليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع : – – – – يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أماً فيي سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة . وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة علي خصوبتها المذهلة – – ولكننا نستطيع القول – لكي نقدم نسبة دقيقة – بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، – – – –وتتم الولادة عن طريق القابلات وهي علي الدوام حوادث سعيدة ، وعندما لا تستطيع امرأة – بعد أن تكون استنفذت كل الوسائل – أن تتمتع بسعادتها في أن تكون أماً ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلي هذا العالم ، فإن التبني يعوضها عن ذلك الحرمان – – – ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية علي وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم ، أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلي أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد ، ، – – – وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب علي الأجناس الأخري أن تستمر علي قيد الحياة في هذه البلاد ، ، وسوف نقدم الدليل علي ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهم الأسر المملوكية : اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة ، إبراهيم بك : له طفلان علي قيد الحياة ، قاضي أغا : أنجب أحد عشر طفلاً ، بقي منهم أربعة علي قيد الحياة ، مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد**

---

[٦٧٤] نقلاً عن كتاب (موسوعة وصف مصر – جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ – مقتطفات من صفحة ٣٠٤ إلي صفحة ٣١٠

بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ، كل هؤلاء بلا أطفال ، ، محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة علي قيد الحياة ، علي بك الكخيا : له طفلة واحدة علي قيد الحياة وكذلك سليمان بك ، أحمد بك الكرارجي : لم ينجب أطفال علي الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك ، حسن كاشف الشركسي لم يخلف سوي طفل أعمي ، محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلاً لم يبق منهم علي قيد الحياة سوي طفل واحد ضعيف البنية

- يا لها من إحصائية عجيبة بالفعل
- ومن هذه الإحصائية نري كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون علي قيد الحياة ضئيلاً ، ويمكننا من جهة أخري أن نعد أسراً أجنبية أخري كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ، وهذا دليل علي أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة
- ربما يفسر ذلك قيام المماليك بشراء المزيد من المماليك بصفة مستمرة من أسواق الرقيق في ذلك الوقت ، وماذا ورد أيضاً في هذا الكتاب من موضوعات ؟
- لقد وردت فقرة عن إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر ، فقد ورد في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع ما ملخصه : قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح – وهما أبناء الحضارة الشرعيين –مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول ، ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضي بهذه الفكرة بحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننتوي هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا علي الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية ، وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكنونه نحو الشيخوخة ؟ ، ويتميز المصري علي وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، – – –– – – وفي مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعي علي الشعوب الأوروبية – التي تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل – هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة – – – ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التي وردت علي لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر Lettres sur L'Egypte الذي انتقدنا بمرارة وأحياناً تحامل صارم ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة : إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقي من الاحترام نفس ما تلقاه

في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي علي ذي الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتي يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، حتي يري نفسه وقد أصبح عبئاً ثقيلاً علي أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، يري نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، أما المشاهد التي كنت أراها هنا في مصر قد اضطرتني أن أقدم لكم النقيض المقابل ، فهنا في مصر ، يبتسم العجوز وهو يلقي الاحترام ، يبتسم برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يري أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتي آخر لحظة من لحظات عمره ، وفي واقع الأمر فإن الأوروبيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس ، – – –فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون البرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالاً يجدر بالاحتزاء ، علي أجمل الفضائل ، فكل شئ في كبار السن يفصح عن المهابة والأهمية ، فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن–عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحي بمعني التشريف والسيادة ، والكلمة الأولي في كل العائلات المصرية للأكبر سناً ، – – – وفضلاً عن ذلك فإن الشرق – الذي نتفق علي أنه مهد الحضارات – كان مسرحاً للتقاليد الأبوية القديمة ، – – وإذا كانت أوروبا هي وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق ، – ومصر بوجه خاص – هو علي نحو ما ، جنة الشيوخ

- ألم يعلم هؤلاء معني بر الوالدين في الإسلام والعطف علي الصغير وتوقير الكبير ، لماذا لم يفسر علماء الحملة كل هذه السلوكيات تفسيراً دينياً ، ألم تقل أنهم قد درسوا ديننا وتعاليمه ،
- ربما كان يمنعهم من ذلك المكابرة وإنكار الأديان بشكل عام
- علي أي حال تكفي هذه الفقرات من كتاب وصف ولنبدأ الحديث عن محمد علي باشا
- ولكن هناك موضوعات أخري طريفة يمكن أن تنال إعجابك عن أحوال مصر والمصريين في ذلك الوقت
- مثل ماذا؟
- مثل وصف علماء الحملة لحمامات الساونا علي الطريقة المصرية فتحت عنوان الحمامات العامة كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : يمكن أن نحصي أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان علي الذهاب إليها ، وبخاصة في الشتاء ، – – إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال في النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه إلي الحمامات ، حوالي مرة كل أسبوع ، أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة علي متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معاً ، أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحري أولئك الذين يحوزون

ثروة كبيرة . فإنهم يمتلكون في بيوتهم حمامات خاصة ، وبرغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين في الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم ، – – – – ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهي المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم في الحجرة الأولي حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلي ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد علي قطعة من قماش صوفي فيقترب منه علي الفور خادم يلبس في يده قفاز ، أو يمسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد وتكاد هذه العملية لا تسبب سوي ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم ، وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده ، ويكون التدليك قوياً لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالي سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها ، وفي أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلي حجرة مجاورة ليبقي وحده ، ويغتسل بمياه تأتي من عيني مياه إحداهما ساخنة ومياه الأخري باردة ، ثم يرتدي قميصاً ليعود في النهاية إلي الحجرة الأولي ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس علي أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوي صابون معطر ، – – – –ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادةً مقابل كل هذه الخدمات علي ما يكفيه ، إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادراً ما يكون مكان الاستحمام واحداً بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبني إلي قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي الحالة الأولي يخصص لكل من الجنسين موعد خاص ، وتذهب النساء عادةً إلي الحمام في وقت متأخر ، وما إن يدخلن حتي تعلق قطعة من قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلي حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور علي الفور وبدون استثناء خادمات – – ٦٧٥

- إنها معلومات طريفة بالفعل لم أكن أعرف عنها شيئاً ، فماذا كتبوا أيضاً
- لقد قام علماء الحملة الفرنسية بوصف الأسبلة في القاهرة : بالجزء العاشر من موسوعة وصف مصر وفي صفحة ٢١٢ وما بعدها وتحت عنوان الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة ورد ما ملخصه : –

[٦٧٥] نقلاً باختصار عن كتاب موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الأول من صفحة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

– – – ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ، قد نتجت معظمها عن منشآت –– لأمراء وأثرياء كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم ، وقد لا تكون هناك مدينة في أوروبا تضم هذا العدد من الأسبلة ، ونلاحظ في هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز ، ومنها يحصل الناس في جميع الفصول ومجاناً علي احتياجاتهم من الماء الذي يحمل إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا في الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع ، وفضلاً عن الأحواض التي يغترف منها الماء بوفرة يوجد في خارج هذه الأبنية سبيل مصاصة يرتشف المارة منه الماء لتخفيف ظمئهم ، أما الأعمدة التي تزدان بها واجهات هذه الأسبلة فمن المألوف أن تكون قطعاً من الرخام الأبيض نفذت في أيطاليا ، وهي ملساء أحياناً ، وقد تكون حلزونية الشكل أحياناً ، أو ذات شكل مضلع أحياناً أخري ، وكثيراً ما يجمع بين هذه الأشكال ، مع حليات من البرونز الذهبي اللون ، كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلي الجدران نقوش محفورة تخلد اسم صاحب السبيل ، والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ، أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه التي تحملها الجمال ، أما الطابق العلوي فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأقبية عدداً ضخماً من الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المباني القديمة ، ولست أشك في أننا لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعاً قديمة بالغة الأهمية ، وعدد هذه المنشآت النافعة كبير وهو يبرهن علي أن روح الإحسان في الشرق أكثر انتشاراً من تصورنا المعتاد ، وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ، وسأقتصر علي ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، – – –– – ويبلغ العدد الإجمالي للأسبلة ، أو تلك التي قمت بزيارتها علي الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلاً ، تتميز ببنائها الرائع ، وغالباً ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذي أنشأ السبيل ، وتحمل اسمه أيضاً ،

- من حسن الحظ أن هناك العديد من الأسبلة موجودة حتي الآن وتشهد بعظمة ورقي فن البناء في تلك العصور ، فهل هناك موضوعات أخري تريدني أن أعرفها من كتاب أو موسوعة وصف مصر ؟
- يمكن أن نكتفي بهذا القدر ونبدأ في الحديث عن أحداث ما بعد رحيل الحملة الفرنسية
- لا مانع علي الإطلاق ، فماذا حدث بعد رحيل الحملة ؟

الفصل رقم (١٥) عصر أسرة محمد علي

عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر

- خمس سنوات تقريباً (١٨٠١-١٨٠٥م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد
- ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟
- ولد محمد علي سنة ١٧٦٩ م[٦٧٦] ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخري ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة ، ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخري إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)[٦٧٧] ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتي جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)[٦٧٨] ، وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة

---

[٦٧٦] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٦ [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

[٦٧٧] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

[٦٧٨] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

وشجاعة يحسد عليها ، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ،

- فهل قام السلطان العثماني بتعيين والي علي مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية ؟
- نعم لقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائرلي أما آخر والي فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه
- فماذا كتب المؤرخون عن هذا الموضوع ؟
- يقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي علي باشا الجزائرلي ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدي القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب)[٦٧٩]
- يا له من داهية

كيف تلاعب محمد علي باشا بعثمان بك البرديسي ؟

- يوجد كتاب اسمه (الفرعون الأخير محمد علي) لكاتب يُدعي جيلبرت سينويه وترجمة عبد السلام المودني وقد تناول الكاتب في كتابه العديد من الأمثلة علي مكر ودهاء محمد علي فيقول مثلاً عما فعله محمد علي بعثمان بك البرديسي أحد أمراء المماليك عندما طالبه الجند برواتبهم وحدثت اضطرابات عديدة بسبب ذلك : (– – وفي ظل هذا الجو المأساوي ، يدفع محمد علي بالبرديسي التعيس إلي الواجهة ، ويكاد يصير حاكماً للبلاد ، ففي السابع من شهر ربيع الأول أي الثاني والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٠٤ يدخل الشريكان إلي العاصمة ، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز ، وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه ، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه وتوزيع الحبوب المخزونة فيها ، مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار ؟ البرديسي بحسب جبارتي ، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظي بحصة هامة من رضي الشعب ، ألم يكن هو

[٦٧٩] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج٢ صفحة ٢٨٥

من يوزع القمح في النهاية ؟ لكن ومهما يكن الأمر ، فلحد الساعة لم تحل المشاكل بعد ، فعلي البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة ، وهكذا يجتمع مجلس لدي إبراهيم باي ، ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم ، ولكن هذا لم يكن كافياً أيضاً ، فيرغم البرديسي علي الرفع من ضريبة علي تجار القاهرة ، وأيضاً علي تجار العاصمة من الأجانب وبالتالي ستسبب الإذاية للقناصلة – – – وهكذا فقد كان يتم الاستيلاء علي بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة وتباع بأبخس الأثمان ، – – – – ولاستدرار دعم الجيش يعمد البرديسي إلي إضافة ضريبة جديدة علي المواطنين ، وهي النقطة التي أفاضت الكأس ، وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك ، إلي بركان يغلي فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريباً وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن "ما الذي تريد إضافته إلي شقائنا يا برديسي" (إيش تاخد من تفليسي يا برديسي) وقام الرجال والنساء علي السواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة علي الحداد ، وأغلقت الدكاكين ، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضي ، والاستيلاء علي البراجي القادمة من مصر العليا أو السفلي ، وتوجهت الجموع إلي الأزهر ، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمي ، وتأهبت الأيادي للانقضاض لكن لم يحدث أبداً ، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي ، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة ، أن توجه أحد باللوم إلي الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس ، فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم ، وهكذا قام بتوزيع الألبان التابعين له في العاصمة وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير ، وبدأ الشعب الصغير يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية ، ويستدعي البرديسي المستشيط غضباً العلماء ووجهاء العاصمة ويحملهم شاتماً مسئولية ما يقع من أحداث ، فيدافع محمد علي عن العلماء ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري وبهذا الموقف يبرهن للوجهاء أنه لا يخشي أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب ، وبطريقة غير محسوسة لا يمنح للشعب صورة المنقذ فقط بل والمنقذ بلا طموح)[٦٨٠]

- أعتقد إنه ليس من المروءة أن تكون لديك رؤية لحل مشاكل وأزمات شعب مطحون ولا تقدم الحلول أو حتي مقترحات للحلول بل وتفتعل أزمات غير موجودة، لمجرد أن تثبت فشل من في السلطة ، كي تتولي أنت السلطة بدلاً منه ، فمصالحك الشخصية أهم من الصالح العام الذي يمكن أن ترعاه وأنت خارج السلطة أيضاً ، وعلي أي حال لقد قمت باختيار فقرة من كتاب يوضح تماماً ما كنت استفسر عنه ، فماذا حدث للتعيس البرديس بعد ذلك وإبراهيم بك ؟

---

[٦٨٠] (الفرعون الأخير محمد علي) تأليف جيلبرت سينويه –تقديم ديروش نويلكور–ترجمة عبد السلام المودني

- لقد لاذوا بالفرار بعد أن أرسل إليهم محمد علي جنوده الألبان للضغط عليهم والمطالبة برواتبهم المتأخرة هم أيضاً (وأُسقِط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخري فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة)٦٨١
- إذن فقد خلا الجو تماماً لمحمد علي
- بالتأكيد ، (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأي ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به)٦٨٢
- ومن أصبح والياً رسمياً علي مصر وسط كل هذا ؟
- (وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر - - فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)٦٨٣ ، (وكان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم - - تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصي مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)٦٨٤ وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ،
- فماذا كان رد فعل السلطان العثماني
- لقد أرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ،
- ونزل خورشيد باشا أخيراً من القلعة ؟
- لم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ م٦٨٥ ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني

---

[٦٨١] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٦٨٢] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٦٨٣] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

[٦٨٤] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٦

[٦٨٥] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٣١٤

قبل تولي محمد علي ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل

- إذن فقد وصل محمد علي باشا للحكم في مصر والتقت مصر بشخصية بارزة غير عادية
- هذا صحيح فقد تكلمنا من قبل عن كبار القادة عندما يحضرون إلي مصر علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وكيف ينظرون إلي مصر نظرة خاصة ويرون بها ما لا يراه الآخرون إنها الشخصيات البارزة التي تكلمنا عنها من قبل مثل مينا ومنتوحتب الثاني وأحمس الأول والإسكندر المقدوني وبطليموس الأول والإمبراطور أغسطس الروماني وسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وأحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد والمعز لدين الله الفاطمي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون والسلطان سليم الأول العثماني ونابليون بونابرت وغيرهم من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً
- كل قائد من هؤلاء القادة نظر إلي مصر نظرة مختلفة مع اختلاف نية كل منهم تجاهها فمنهم من اتخذها عاصمة لملكه واستغل إمكانياتها ومنهم من قام بتقليم أظافرها وتجريدها من مقوماتها قبل أن يعود إلي عاصمة ملكه لتصبح ولاية تابعة له ، ومنهم من سخرها لخدمة الإسلام والمسلمين لتصبح عضواً قوياً في جسد الأمة الإسلامية المترابطة ومنهم من حقق بها مجد شخصي وجعلها عزبة خاصة له ولأولاده من بعده ،
- بالطبع وكل واحد منهم أحبها وقدّر لها قدرها ولكن هناك فرق بين من يحب حب صاحب العزبة لعزبته ومن يحبها لوجه الله وابتغاء مرضاته ،
- والسؤال هو أين محمد علي من كل هؤلاء وما هي الغاية التي كان يحلم بتحقيقها وإذا كان محمد علي قد نفذ مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فماذا كانت غايته وما هي الوسائل التي استخدمها لتحقيق غايته ؟
- عندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تجد أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان قد تم جلاء الإنجليز عن مصر ولكن ليس بسبب ما يحدث بها ولكن بسبب ما يحدث في أوروبا فقد أجبرتهم الظروف الدولية في أوروبا وفعاليات الاتفاق مع فرنسا علي مغادرة مصر ولكن بعد أن عرفت قيمة موقعها جيداً ، وكان الإنجليز يرغبون في تولي محمد بك الألفي حكم مصر وكان الألفي العدو اللدود لمحمد علي وكان يعمل له ألف حساب
- لماذا الألفي تحديداً ؟

محمد علي باشا ومحمد بك الألفي

- كان محمد علي يكره المماليك بشدة ويعمل علي سحقهم تارة ومهادنتهم تارة أخري وكان أخطرهم بالنسبة له محمد بك الألفي الذي كان قد غادر مصر مع الإنجليز وعاش فترة في لندن واتفق معهم

علي حكم البلاد بدعم منهم وعاد إلي مصر ليواجه محمد علي وكان محمد علي يعتبره أصعب عقبة في طريقه للحكم بل كان يتفادى الصدام به في أي مواجهه عسكرية بقدر الإمكان ، وكان الألفي يمتاز بالذكاء الحاد والشجاعة وحسن القيادة وربما كان سينهض بمصر علي الطريقة الإنجليزية في حالة ما كان قد وصل إليه الحكم كما نهض بها محمد علي ولكن علي الطريقة الفرنسية كما سنري ،

- أي أن محمد علي رجل فرنسا والألفي رجل بريطانيا في مصر فهل دعمت فرنسا محمد علي ليصل للحكم ؟
- (وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد علي وتقلده ولاية مصر فيقولون أن المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلا لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعده علي تقلده حكم مصر وإنه لم يكن يعرف أحدا في مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود فدله علي محمد علي لأنه يعرفه من قبل فكتب دلسبس إلي حكومته يوصيها بشد أزر محمد علي ومساعدته علي تقلده ولاية مصر –)٦٨٦ وينفي المؤرخ الرافعي هذه القصة تماماً ويقول أنها غير صحيحة بالرغم من أنه لا ينفي أن فرنسا كانت تقف مع محمد علي بعد توليه الحكم ، فيقول (أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد علي بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخري لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا)٦٨٧ ،
- فما المشاكل التي واجهت محمد علي ؟
- كان المماليك يسيطرون علي صعيد مصر وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي ومن ناحية أخري حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلي مصر وسيطر علي الفيوم وبالفعل وصل أسطول عثماني إلي الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٨٠٦ ومعه والي جديد علي مصر اسمه موسي باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد ،
- فماذا فعل محمد علي ليحل هذه المشكلة ؟
- لجأ محمد علي إلي زعماء الشعب مرة أخري ، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر ، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلي أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل علي فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعماءهم)٦٨٨ واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك وكان أخطرهم

---

[٦٨٦] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٦٨٧] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

[٦٨٨] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣

عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي ، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة ١٨٠٧م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد مات وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين ،

- فماذا كان رد فعل محمد علي عندما علم بوفاة الألفي ؟
- إليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتي أنه قال في مجلس خاصته " الآن ملكت مصر " ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا ناحية قبلي فسبحان الحي الذي لا يموت)٦٨٩
- عجيب أمر هؤلاء المماليك إنهم يلتفون حول شخص وليس دعماً لفكرة أو سياسة محددة فإذا اختفي هذا الشخص أو مات تفرقوا في الحال
- كان محمد الألفي هو الوحيد تقريباً الذي لم يجرؤ محمد علي على مواجهته عسكرياً في ميادين القتال وسبب سعادة محمد علي بموته أن من تبقي من أمراء وزعماء المماليك لم يكن علي نفس مستوي الألفي وكان من السهل علي محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان علي نفسه وعلي ممتلكاته وأن يسكن معزز مكرم في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعي للوصول للحكم ولا يبغي سوي الحياة الكريمة الآمنة ،
- ولكنه تخلص من هؤلاء أيضاً بعد ذلك في مذبحة القلعة الشهيرة كما هو معروف
- لم يبق أمام محمد علي سوي التخلص من الجنود الأرناءوط الذين زاد تمردهم وكادوا أن يقتلوه عندما ثاروا عليه لتأخر رواتبهم حتي أن محمد علي انتقل من سراي الأزبكية سراً إلي القلعة بحيث لم يشعر به الجنود المتمردين ولجأ محمد علي لزعماء الشعب كي يحلون له مشكلة تأخر رواتب الجنود
- سبحان الله ، إن محمد علي يلجأ إلي الشعب كلما واجهته مشكلة غير قادر علي حلها ، فليته التزم بما وعدهم به بعد ذلك
- (ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا " أي زعماء الشعب " أن يتحمل الأهالي هذه الإتاوة الجديدة – – فجبيت الإتاوة ودفعت للجنود واستتبت السكينة مؤقتاً علي حساب الأهالي)٦٩٠
- ما أنكر فعله أمام زعماء الشعب أيام البرديسي قام به وبواسطة نفس الزعامة الشعبية
- كانت هذه المشكلة التي أثارها الجند من الأسباب الرئيسية التي جعلت محمد علي يفكر جدياً في تأسيس جيش نظامي والتخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين في المعارك التي سنذكرها إن شاء الله في الحجاز والسودان كما يقول الرافعي (وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته فكان من وسائل تحقيقها

---

[٦٨٩] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ٣٨

[٦٩٠] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

إرسال أخلاط الجيش غير النظامي إلي الحملات البعيدة في الحجاز والسودان وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجياً تمهيداً لتأسيس الجيش المصري)[٦٩١]

- إذن فقد كان الشعب المصري وزعماءه يقفون مع محمد علي في كل مشكلة بداية من توليته حكم مصر رسمياً بعد عزل خورشيد باشا بالقوة ، مروراً بمقاومة فرمان تعيين موسي باشا ثم قتال حملة الإنجليز في رشيد والحماد ثم حل مشكلة ثورة الجند
- كل هذا قام به الشعب من أجل محمد علي وكان زعماء الشعب يقفون مع محمد علي باشا في كل شئ عدا ظلم الشعب مما كان يسبب له الإزعاج أحياناً

محمد علي يتخلص من الزعامة الشعبية والمماليك الموالين له

- إذن فقد كانت الزعامة الشعبية صداع في رأس الباشا فكيف تخلص منها ؟
- يقول عبد الرحمن الرافعي : (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلي التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته علي قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولي من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم – – ولئن كان محمد علي مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلي الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلي الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس)[٦٩٢] ،
- هذا ما كتبه الرافعي فماذا كتب الجبرتي عن هذا الموضوع ؟
- يقول الجبرتي : (ولما انقضي هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري – – فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها – – واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء – – واتخذوا الخدم والأعوان – – وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام – – وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة)[٦٩٣] ،
- إذن فقد شغلهم بالدنيا

---

[٦٩١] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

[٦٩٢] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨١

[٦٩٣] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٧ صفحة ١١٣ ، ١١٤

- ليس كلهم بالطبع فيؤكد الرافعي أن السيد عمر مكرم لم يخضع لمغريات محمد علي باشا (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور)٦٩٤ ،
- يا له من أسلوب خبيث بالفعل
- أما المؤرخ جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلي دمياط وطنطا تنفيذاً لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه علي الوصول إلي الحكم ووجد محمد علي تشجيعاً وتأييداً – بل تحريضاً – من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر علي زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين علي إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوي أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخري بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت)٦٩٥
- لقد عبر الأستاذ جمال بدوي عن كل ما كنت أريد قوله بأسلوبه الرائع ، فهل هناك آراء أخري ؟
- هناك تعليق علي هذا الموضوع كالآتي : (– – هناك عدداً من العبر والدروس التاريخية التي يجب أن يعيها كل مسلم في تلك الحادثة ، أولها أنه كان من الطبيعي أن يتجه محمد علي إلي محاولة التخلص من زعماء الأمة الذين جاءوا به كي يسهل عليه أن يجمع من الضرائب ما شاء وأن ينفذ سياساته بدون حساب لمعارضة للجماهير ، وأن ينفرد بالسلطة ، وبديهي أن زعماء الأمة الشرفاء وعلي رأسهم السيد عمر مكرم لم يحسبوا حسابات لذلك اليوم اعتماداً علي الجماهير أو استناداً إلي ثقتهم في حسن نية محمد علي ، ونحن هنا لابد أن نقرر حقيقتين ، أولهما : أنه لا يمكن في الحياة السياسية الاعتماد علي حسن نية الحكام ، فالسلطة في حد ذاتها مفسدة ومهما كان ورع الشخص فإن السلطة ربما تفسده ، وكان من الضروري تطوير النظام السياسي بشكل يحمي الأمة من تقلبات النفوس أمام خمر السلطة ، وإغراء القوة ، وكان الزعماء في ذلك الوقت بالذات يمتلكون حركة جماهيرية حققت من القوة والاتساع ما يكفل لها ذلك لو أرادت ، والحقيقة الثانية : أنه كان لابد من تحويل الحركة الجماهيرية إلي مؤسسة ذات تنظيم يكفل لها الاستمرار ولا يجعلها عرضة للمؤامرات وتقلبات بعض المشايخ تحت إغراء المال أو الحسد ، – – – وبتلك المؤامرات الدنيئة استطاع محمد علي أن يتخلص من السيد عمر مكرم ، ليس هذا فحسب ، بل إنه باستخدام بعض المشايخ في الإيقاع بالسيد عمر مكرم كان قد أجهز علي المؤسسة الأزهرية بكاملها ، فالجمهور رأي في عملهم معني الخيانة والغدر ،

---

[٦٩٤] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨٣

[٦٩٥] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٣ ، ١٤

محمد علي نفسه احتقرهم بعد ما قبضوا المال لقاء عملهم هذا ، وهكذا استطاع محمد علي الداهية أن يتخلص من الزعيم وأن يسقط هيبة العلماء أمام الجماهير ، - - - وربما يكون هذا العمل قد أفاد محمد علي علي المستوي الشخصي ، ولكن هذا العمل كان التوطئة الأولي للقابلية للاستعمار ، ففصم العلاقة بين العلماء وبين الجماهير قد أفقد الطرفين إيجابيتهما ، وباتت الجماهير بلا قيادة شرعية تعمل من خلالها في التصدي للاستعمار أو الاستبداد ، وبهذا العمل حقق محمد علي للاستعمار هدفاً كان من الصعب تحقيقه ووضع اللبنة الأولي في القابلية للاستعمار ، فلو كان محمد علي قد اغتال عمر مكرم أو اعتقله أو قتل العلماء أو سجنهم لكان تخلص من العلماء ، ولكنه لم يكن قد قضي علي كيان هام كان ضرورياً للصمود في ذلك الوقت العصيب أمام العدو التاريخي المتربص بنا ، وسواء قصد محمد علي ذلك أم لم يقصد فإن النتيجة كانت مروعة علي أمتنا وعلي استقلالنا)٦٩٦

- **إنها كارثة بالفعل أن يفقد الناس الثقة بالمشايخ والعلماء ، فسوف يتركون فراغاً في حياة الناس وسيشغله غيرهم وما أدراك من هم غيرهم ، فبالفعل لو كان قتلهم كان سيتخلص منهم دون أن تهتز الثقة في الأزهر ، ولكنه قام بتشويه صورتهم أمام الناس وأخرج أسوأ ما فيهم فتخلص منهم ومن مؤسسة الأزهر ككل ، إنه تعليق مهم ومؤثر أيضاً ، وبالطبع لم يحدث هذا مع المماليك فقد قتلهم دون الحاجة لتشويه سمعتهم فهو ليس في حاجة لذلك فقد فعل ذلك أيام عثمان بك البرديسي**

مذبحة القلعة

- **بالفعل فبعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيداً عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً علي رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م٦٩٧ (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبري فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر - -- وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)٦٩٨ وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق**

[٦٩٦٦٩٦] نقلاً عن كتاب تاريخ مصر الحديث – ١٧٩٨–١٩٥٢– صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو

[٦٩٧] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٨

[٦٩٨] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٩

- فماذا فعل المماليك عندما وقعوا في هذا الكمين ؟
- (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان)[٦٩٩] ،
- فكم كان عددهم تقريباً ؟
- (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف)[٧٠٠] وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ،
- أن ما فعله الباشا هو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني
- بالتأكيد ، وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي علي هذه المذبحة فكتب الآتي : (تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك – – ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولسمعته)[٧٠١] ، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية – –
- فماذا كان تأثير هذه المذبحة علي الشعب المصري ؟
- يقول الرافعي: ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس)[٧٠٢]
- وكيف استطاع الجبرتي رحمه الله أن يؤرخ لهذه الأحداث في ظل سيطرة الباشا؟

---

[٦٩٩] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٠

[٧٠٠] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١١

[٧٠١] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤

[٧٠٢] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤صفحة ١١٥

محمد علي والجبرتي

- يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي : (لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخاً حكومياً يكتب ما يرضي الحاكم ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجداً ومن سوءاته عزاً فإن لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نمي إلي علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته وأوعز إلي أعوانه فاغتالوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا وارتاع الرجل وهو يتلقي جثمان ابنه الصريع وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلأت نفسه هماً وكمداً وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتي أبيضت عيناه من الحزن فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة إلي أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزيناً مكلوماً عام ١٨٢٥م)[٧٠٣] ،
- لقد كنت أتوقع بالفعل أن الجبرتي رحمه الله ليس لن يكون له مكان في دولة محمد علي
- (لقد ساء الجبرتي أن يري محمد علي وقد تملكته نزعة الشره إلي الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتي لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة وفرضها علي الناس بأسعار باهظة)[٧٠٤] ،
- فهل كان الجبرتي ضد محمد علي دائماً ؟
- الطريف أن الجبرتي لم يكن ضد محمد علي باستمرار بل إنه كان يذكر أعماله النشيطة ويصفه بالهمة العالية في المشاريع الكبري التي كان يقوم بتأسيسها فمثلاً ذكر الآتي عن أحد مشاريع محمد علي : (وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة علي ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه)[٧٠٥]
- أعجوبة زمانه وفريد أوانه ، يا له من تعبير ، علي أي حال لقد حان الوقت لنتحدث عن عصر محمد علي باشا وكيف قام بتأسيس مصر الحديثة كما يقولون ، فأي الكتب ستختارها لنقرأ منها عن هذا العصر المثير ؟
- في الواقع أن في حيرة شديدة لكثرة الكتب التي تؤرخ لعصر محمد علي ، فكيف أختار منها ما يناسبك
- لا داعي للحيرة فنحن علي أي حال لن نتمكن من قراءة كل ما كُتِب عن محمد علي في هذا الحوار وبالتالي يكفي أن نقرأ فقرة واحدة من كل كتاب متوفر معك حالياً

---

[٧٠٣] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٩

[٧٠٤] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٤٠

[٧٠٥] عجائب الآثار (الجبرتي) صفحة ٤١٠

- لا مانع وإذا تذكرنا أي نقطة مهمة أخري خلال الحوار فسوف نبحث عنها ، أما أهم ما يجب أن تعرفه عن تأسيس مصر الحديثة في عصر محمد علي فهو السبب الرئيس الذي كان وراء كل هذه النهضة في كافة المجالات ونال عناية فائقة من محمد علي
- وما هو ؟

محمد علي وتأسيس مصر الحديثة

- إنه الجيش ولا شك فعن هذا الموضوع يقول الرافعي : (- - - ليس في منشآت محمد علي باشا ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفيك دليلاً علي مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخري متفرعة عنه والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش فهو الأصل وهي التبع فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلاً يرجع في الأصل إلي تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة)[٧٠٦] ، ومن هنا يتضح أن المدارس والبعثات العلمية إلي الخارج وبناء المصانع والاهتمام بالنواحي الاقتصادية بشكل عام كان بسبب الجيش فهو الدافع وراء معظم هذه الإنجازات إن لم يكن كلها ، (وقد ساعد تكوين طبقة تعلمت تعلماً عالياً قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوروبا فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي)[٧٠٧]
- إذن فقد كان الأزهر الأساس في نهضة مصر في عهد محمد علي
- بالتأكيد ، لأن محمد علي لم يجد غير الأزهر كنواة لتنفيذ مشروعه الكبير وأساس متين يبني عليه ، وكانت أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد علي هي مدرسة الهندسة بالقلعة سنة ١٨١٦م ثم توالت بعد ذلك المدارس علي كافة مستوياتها وانتشرت في أنحاء البلاد (والظاهر أن مدرسة القلعة لم تف علي مر السنين بحاجات البلاد إلي المهندسين أو أن برنامجها لم يكن وافياً بالمرام ، فأنشأ محمد علي في سنة ١٨٣٤م مدرسة أخري للمهندسخانة في بولاق وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلاً لها - - وفي سنة ١٨٣٨م أسندت نظارتها إلي المسيو لامبير بك " الفرنسي " لغاية سنة ١٨٤٩م - ، - وأسس محمد علي مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ إجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك " الفرنسي " وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعبل لوجود المستشفي العسكري بها من قبل)[٧٠٨] كما تم إنشاء مدرسة للصيدلة والولادة ومدرسة الألسن هذا بالإضافة إلي المدارس الحربية والبحرية (لما

[٧٠٦] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٢١

[٧٠٧] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٩٧

[٧٠٨] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٠

تقدمت المدارس العالية والخصوصية التي أنشأها محمد علي واتسع نطاقها رأي أن ينشئ لها إدارة خاصة سميت " ديوان المدارس " سنة ١٨٣٧م وكان موجوداً من قبل باسم مجلس شوري المدارس وقد ساعد علي تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلي مصر)[٧٠٩]

- هذا عن التعليم فماذا عن الصناعة ؟
- اهتم محمد علي باشا بالصناعة الحربية فأسس مصانع للأسلحة والمدافع بالقلعة ومخازن بارود وقنابل ومصنع بنادق بالحوض المرصود وأقام معمل للبارود في المقياس بطرق جزيرة الروضة وكذلك في أماكن أخري عديدة ، كما اهتم محمد علي بملابس الجند وتصنيعها ومهمات الجيش بشكل عام ، وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ الأسطول المصري واهتم بصناعة السفن الحربية في ترسانة بولاق ودار الصناعة الكبري بالإسكندرية كما اهتم اهتماماً بالغاً بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن مصر (فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة وشحنها بالمدافع وبني علي مقربة منها قلعة أخري علي ذروة جبل المقطم تعرف بقلعة محمد علي وتشرف علي الأولي وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها واستدعي من فرنسا لهذا الغرض مهندساً حربياً في فن الاستحكامات يسمي المسيو " جليس " وأنعم عليه برتبة البكوية ، وجعله باشمهندس الاستحكامات)[٧١٠]
- لقد كان اعتماده علي الخبراء الفرنسيين واضحاً جداً ، فماذا عن الإنجازات في مجال الري والزراعة ؟
- من إنجازات محمد علي أيضاً ترعة المحمودية " نسبة للسلطان محمود " وغيرها من الترع في شمال وجنوب مصر كما أنشأ الجسور العديدة والقناطر كما أنه قام بتحويل نظام الري من ري بالأحواض إلي ري دائم بعد أن أنشأ القناطر الخيرية (كانت أراضي الوجه البحري – – تروي بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يزرع فيها إلا الشتوي ولا يزرع الصيفي إلا علي شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه وقد أخذ محمد علي في تغيير هذا النظام تدريجياً إذ أخذ في شق الترع وتطهيرها وإقامة الجسور علي شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري في معظم السنة وصارت الترع تروي الأراضي في غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ولاسيما بعد إقامة القناطر عليها – – وقد توج محمد علي أعمال الري التي أقامها بإنشاء القناطر الخيرية واسمها يغني عن التعريف فإنها قوام الري الصيفي في الوجه البحري وهي وإن كانت آخر أعماله في الري إلا أنها أعظمها نفعاً وأجلها شأناً وأبقاها علي الدهر أثراً)[٧١١] ، كما قام محمد علي بتوسيع نطاق الزراعة وغرس الأشجار واهتم بتحسين زراعة القطن وأدخل أنواعاً جديدة تصلح للنسيج واستقدم خبير فرنسي لتنظيم مصانع النسيج وكان اسمه المسيو " جومل "

---

[٧٠٩] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٤

[٧١٠] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٥٠

[٧١١] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٩٤

- أما عن صناعة النسيج فحدث ولا حرج فقد أنشأ العديد من المصانع مثل مصنع الخرنفش ومصنع أمشاط الغزل بحي السيدة زينب ومصنع الجوخ ببولاق ومصنع الحرير ومصنع الحبال ونسيج الصوف والعديد والعديد من المصانع في عدة مدن وقري مصرية ، وبالإضافة إلي مصانع النسيج أنشأ محمد علي مصانع أخري مثل معمل سبك الحديد في بولاق ومصانع ألواح النحاس ومعامل السكر في الوجه القبلي ومصانع النيلة وغيرها ، وكان يشرف علي معظم هذه المصانع خبراء أجانب ،
- إنها إنجازات ضخمة بلا شك فماذا عن المنشآت المعمارية ؟
- اهتم محمد علي بتشييد المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما إليها (فمن ذلك أنشأ بالقلعة قصره الشهير " قصر الجوهرة " الذي كان مقر الحكم في عهده وقصر شبرا وسراي رأس التين بالإسكندرية)[٧١٢] ، وبني جامع كبير بالقلعة الذي تم دفنه فيه بعد ذلك ، (وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس وعني بشئون البلاد الصحية – – وأنشأ المستشفيات والمحاجر الصحية علي النظام الأوروبي)[٧١٣] ، وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ مطبعة كبيرة في بولاق وكانت تطبع بها الجريدة الرسمية " الوقائع المصرية " وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم بالعربية فقط كما كانت هناك مطابع أخري صغيرة في أماكن متفرقة
- يتضح من كل هذا أن محمد علي قد قام بإنشاء العديد والعديد من المشاريع الضخمة والتي تنم عن مدي مثابرته واجتهاده وهمته العالية كما كان يعتمد علي الخبراء الأجانب وخاصة الفرنسيين في معظم هذه المشاريع كما ساعده في ذلك خريجي البعثات من المصريين بلا شك ، فماذا كتبوا أيضاً عن محمد علي وإنجازاته ؟
- في الحقيقة هناك كتاب عن محمد علي كتبه الأديب والمؤرخ إلياس الايوبي (١٨٧٤-١٩٢٧) يصف بإيجاز بليغ أهم إنجازات محمد علي حيث كتب ما ملخصه : أما ما كان من نقله مصر إلي بيئة غير البيئة التي وجدها فيها فقد عمل ذلك :أولاً بأن أقلع عن طريقة الحكم التي سبقت عهده فاحتاط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين دعاه الديوان الخديوي ، ثانياً أنشأ من أبناء البلد جيشاً زاهراً مدرباً علي الطريقة الغربية ، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتدك الجبال – – وأنشأ بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر وأنشأها من العدم وبالرغم من من عدم وجود مادة واحدة لديه من المواد اللازمة لبنائها ، ثالثاً بأن جدد بجدة المعارف بتغييره برامج التعليم وطرقه ، ففتح محمد علي المدارس تتري ، ابتدائية وثانوية وعالية ، فالمدارس الابتدائية كانت سبعاً وأربعون ، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعاً وعشرين ، منها مدرسة القصر العيني ومدرسة اللغات ومدرسة المعادن

---

[٧١٢] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٥١٠ ، ٥١١

[٧١٣] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٥١١

ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الطب والتوليد ومدرسة الموسيقي إلخ ، ولم يكتف بذلك بل أرسل البعثات تلو البعثات إلي المعاهد الأوروبية ، وإضافة إلي المدارس إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية ، رابعاً بأن غطي وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة فمن سد أبي قير إلي سد الترعة الفرعونية إلي سد فتحة بحيرة المنزلة إلي تقوية جسر قشيش وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق إلي بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي ، إلي تعزيز قنطرة اللاهون ، إلي حفر الترع العديدة وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية إلي إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري ، إلي بناء الترسانة وحوض تصليح السفن ، وتشييد قناطر بحر شبين ، والقناطر الخيرية الكبري وهي معجزة أعماله ، إلي ابتناء الحصون والقلاع علي السواحل المصرية وابتناء السرايات العديدة ، وأهمها سراي رأس التين ، وسراي شبرا ، وسراي قصر النيل ، إلي الشروع في تحويل الأزبكية إلي منتزه عمومي إلي غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييراً محسوساً ، خامساً بأن هدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل الغرب والشرق ومكن العالمين من الاختلاط معاً لا بالإتجار الواسع فحسب بل بالاحتكاك اليومي ، فحبب إلي الغربيين المجئ إلي القطر واستغلال رؤوس أموالهم في أرضه ، وإنشاء مدارس لأولاهم علي سطحه ، وفتح أمام قومه أبواب السفر إلي الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه ، سادساً بأن سن قانوناً للبلد كل مواده متشربه بالرغبة في فتح عصر جديد للأمه[٧١٤]

- أكثر ما لفت نظري في كل هذه البنود أنه قال أن محمد علي فتح أمام قومه أبواب السفر إلي الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه ، فكيف سمح له الغرب بكل هذا ؟
- لقد اتضح بعد ذلك نواياهم كما سنري
- حسناً فلنتحدث عن البعثات في عصر محمد علي وكيف تابعها وكيف تأثر المصريون بالغرب

البعثات العلمية في عهد محمد علي

- قام محمد علي بإرسال العديد من البعثات العلمية إلي أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص وكانت هذه البعثات تنقل العلوم الحديثة والأفكار الجديدة من أوروبا إلي مصر (وقد بلغ عدد الطلبة جميعاً الذين أوفدهم محمد علي إلي أوروبا من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٤٧م ٣١٩ تلميذاً منهم ٢٨ في الرسالات الثلاث الأولي ابتداء من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٢٥م و ٢٩١ في البعثات الكبري ابتداء من سنة ١٨٢٦ فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذاً وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك العصر وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر

[٧١٤] مقتطفات مختصرة جداً نقلاً عن كتاب محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي

الإجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية)٧١٥ وكان محمد علي يتابع بنفسه أخبار المبعوثين في الخارج بل ويرسل إليهم الرسائل التي تحفزهم علي اكتساب العلوم ،

- وهل لديك نص أحد هذه الرسائل ؟
- إليك مقدمة أحد هذه الرسائل : (قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة علي شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة – –)٧١٦ ومن البعثات التي أرسلها محمد علي إلي فرنسا بعثة مشهورة باسم بعثة الأنجال لأنها كانت تضم عدداً من أبناء وأحفاد محمد علي منهم الأمير اسماعيل ابن ابراهيم باشا والذي أصبح بعد ذلك خديوي مصر الشهير الذي كان متأثراً بكل ما هو فرنسي خلال فترة حكمه كما سنري إن شاء الله
- فماذا عن الشيخ رفاعة الطهطاوي ؟
- (يقول علي باشا مبارك " إن محمد علي باشا طلب إلي الشيخ العطار – شيخ الجامع الأزهر – أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولي يري فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة)٧١٧
- أي أن الشيخ رفاعة لم يذهب ليتلقى العلوم ولكنه ذهب في وظيفة محددة ؟
- هذا صحيح ولكنه استطاع أن يغترف من مناهل العلم في فرنسا علي حد تعبير الرافعي وتعلم اللغة الفرنسية ودرس التاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب الفرنسية
- لاحظ معي أن الذي درسه الشيخ رفاعة يتعلق بتكوين الأفكار أكثر منه تعلقاً بالعلوم الحديثة
- نعم وقد تأثر بمفكري فرنسا وانبهر انبهاراً شديداً بالحضارة الغربية وتعجب كيف وصل هؤلاء إلي هذه المستويات العلمية الراقية وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين
- أعتقد أنه قد تعرض لفتنة من نوع خاص جداً
- نعم فقد ، كان مفكرو أوروبا متحررين من تعاليم الأديان السماوية واعتمدوا علي العقل فقط في صياغة منهج الحياة في أوروبا وكان ذلك رد فعل عنيف علي سيطرة الكنيسة في العصور الوسطي والتي كانت تحرم العلم والبحث العلمي والتفكير عموماً وكانت لفترة كبيرة سبباً في تخلف أوروبا عن العالم كله في الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية علي أعلي مستوي من التقدم العلمي في جميع المجالات لأن الدين الإسلامي لا يعوق العلم والبحث العلمي أو كما يقول الدكتور محمد عمارة : (ذلك أن الإسلام قد تميز عن غيره بأنه " دين " لا يقوم بغير " دنيا " وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن

---

[٧١٥] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٩

[٧١٦] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤١٠

[٧١٧] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣١

ونظام وعمران ، فالكثير من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب ، فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل العلم المدني الشرعي ، وفريضة علي الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات العلم ، التي بدونها لا تكتمل إقامة الدين ، - - - وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتي إلا في مجتمع مستكمل لشرائط العمران ، المادية منها والروحية والأدبية ، بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات علي النحو الأمثل ، وفي حضور قلبي يجعلها خالصة لله ، لا يتأتي إلا إذا انتظمت شئون الدنيا ، وتحققت شروط الأمن المادي والمعنوي للعابدين العاكفين الراكعين الساجدين ، وذلك حتي يتمكنوا من إفراد المعبود بالعبادة ، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدنيوية التي تحول دون الحضور في العبادات) ٧١٨

- **فهل تأثر الطهطاوي بالأفكار الأوروبية ؟**
- **من أفضل ما قرأت لتوضيح مدي تأثر الشيخ رفاعة بالأفكار الأوروبية ما ورد في كتاب " محمد علي وأولاده " للأستاذ جمال بدوي عندما تكلم عن فشل الحملة الفرنسية في نقل الأفكار الأوروبية إلي الشعب المصري بينما نجح في ذلك رفاعة بك فيقول جمال بدوي (ولو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية لن نجد أثراً واحداً يدل علي تغلغل الأفكار الأوروبية بين المصريين ولن نسمع عن فولتير أو روسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوي من رحلته الميمونة إلي باريس في عام ١٨٣١م أي بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة)٧١٩**
- **إذن فقد كان عصر محمد علي –علي نحو ما– امتداد ثقافي لعصر الحملة الفرنسية ، حيث قبل المسلمون من حاكم مسلم ما لم يقبلوه من بونابرت**
- **بالفعل يمكن اعتبار أن عصر محمد علي كان بمثابة بداية لحملة فرنسية جديدة علي مصر ولكنها حملة ثقافية فهي استكمال للحملة العسكرية التي شنها نابليون علي مصر فقد كان هناك خبراء في عدة مجالات من فرنسا في مصر كما كان هناك مبعوثين من مصر إلي فرنسا ولم تكن العلوم الطبيعية فقط هي التي يتم نقلها ولكن كانت عملية تغيير الأفكار بشكل واضح مما يؤثر علي بعض الثوابت الإسلامية الراسخة ، فقد كان كل ما تحتاجه مصر هو العلم الطبيعي فقط مثل الهندسة والطب - - إلخ أما الهوية والتاريخ والمعتقدات فلم نكن في حاجة لأن نتعلمها من أحد**
- **جدير بالذكر أن أوروبا عندما نقلت العلوم الطبيعية عن العلماء المسلمين قبل ذلك لم تنقل معها الأفكار الإسلامية ولكنها اكتفت بالعلوم الطبيعية فقط**

---

[٧١٨] من كتاب العطاء الحضاري للإسلام للدكتور محمد عمارة صفحة ٩٧ ، ٩٨ (سلسلة اقرأ – دار المعارف – العدد ٦٢٦– سنة ١٩٩٧)

[٧١٩] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٩

- علي أي حال فإن الشيخ رفاعة قد عاد من فرنسا وقام بحركة ترجمة واسعة ومؤلفات كثيرة ، وبالمناسبة كان له كتاب شهير يصف فيه عاصمة فرنسا " تخليص الإبريز في وصف باريس " (والذي ميز فيه بين "الوضعية الغربية " اللادينية ، وبين " علوم التمدن المدني " الموضوعية والمحايدة ، فقال عن باريس وبلاد الفرنجة :

أيوجد مثل باريس ديار   شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح   أما هذا وحقكم عجيب

-
- إنه يتعجب من وجود شموس العلم مع ليل الكفر ، فيا لها من صدمة مربكة بالفعل
- ويستكمل الشيخ رفاعة الطهطاوي وصفه فيقول : (– – فهذه المدينة ، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون ، إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهو لا يصدق شئ مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية)[٧٢٠]
- ويستنكر الشيخ رفاعة بالطبع هذه الأفكار
- نعم ، ويؤكد أن (الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحاً ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود ، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة ، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافي في المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالي العقل وألهمهم الصناعة – –)
- أعتقد أنه يري أنه لا يصح الاعتماد فقط علي العقل لوضع منهج حياة للإنسان علي الأرض دون الرجوع إلي تعاليم ومنهج المولي عز وجل الخالق الحكيم فهو سبحانه سيد هذا الكون وليس البشر فليس من حق البشر أن يفعلوا ما يعتقدون أنه صواب إذا تعارض مع أوامر المولي عز وجل لأن العقل البشري له حدود يجب أن يقف عندها ،
- بالتأكيد ويثق ثقة مطلقة في أوامر المولي عز وجل وينفذها بلا تردد حتى إذا لم يعرف الحكمة من وراءها ، {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ} (٧١) سورة المؤمنون

---

[٧٢٠] الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة – للدكتور محمد عمارة – صفحة ٢٨ ، ٢٩ – دار نهضة مصر – سلسلة التنوير العدد ١٨ (نقلاً عن الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة الطهطاوي – ج٢ – صفحة ١٥٩ وما بعدها – طبعة بيروت سنة ١٩٧٣)

- وهكذا قامت النهضة الأوربية علي مجموعة من أفكار المفكرين الذين وضعوا منهج بشري للحياة علي الأرض وتحرروا من تعاليم الأديان السماوية ، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (٩) سورة محمد
- الطريف أنه وسط كل هذا حضر إلي مصر في عهد محمد علي أتباع سان سيمون
- ومن هو سان سيمون ؟

السان سيمونية في مصر

- (نشأ سان سيمون منذ طفولته متمرداً علي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائراً علي الظلم الاجتماعي الذي تفشي بعد سقوط الثورة " الفرنسية " في أحابيل الدكتاتورية فعكف علي دراسة العلوم البحتة – – وتوقف مبهوراً أمام إنجازات العلامة الإنجليزي نيوتن فاتخذ منه نبياً لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلي نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلي قيام مجتمع تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة ، والصناعة عنده لا تعني الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعني العمل المنتج في كافة صوره – – ودعا إلي استخدام الموسيقي كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقي والصناعي)[٧٢١] وقد حاول الانتحار مرة وفشل (وفي زعمه أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة شئون البرية واستغرق في تأملاته وشطحاته حتي خيل إليه أن الله يحدثه ويوحي إليه بفكرة الديانة الجديدة)[٧٢٢]
- يبدو أن الأمور ستزداد سوءاً ، فإلي ماذا يدعو أيضاً ؟
- كان سان سيمون يدعوا إلي حكومة واحدة للعالم كله ويريد توصيل العالم كله وربطه بقنوات مائية منها قناة السويس بمعني أن سان سيمون وأتباعه كانوا يحلمون بقناة السويس قبل أن يتم حفرها بفترة كبيرة ، وقد مات سان سيمون مات سنة ١٨٢٥م وحاول أتباعه نشر أفكاره وكانوا يحلمون بالسفر إلي الشرق والشرق بالنسبة لهم هو مصر وكان محمد علي علي ما يبدو قد فتح أبوابها أمام الغرب وبالتالي كان هذا تشجيعاً لأتباع سان سيمون علي السفر إلي مصر
- فمتي حضروا إلي مصر ؟
- (وصلت الدفعة الأولي من أتباع سان سيمون إلي الإسكندرية في شهر سبتمبر ١٨٣٣م وعلي رأسها الأب انفانتان علي ظهر سفينة ترفع علي ساريتها علم مدرسة سان سيمون وتضم عدداً من الخبراء والمتخصصين في كافة العلوم ولدي وصول السفينة إلي ميناء الإسكندرية أعلن انفانتان : نعم إنني جئت إلي مصر لأقوم بتوصيل البحرين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر " محمد علي "

---

[٧٢١] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٤

[٧٢٢] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٥

الدكتاتوري في إلغاء الملكية الوراثية في الأرض الزراعية)٧٢٣ وعندما تم عرض فكرة مشروع قناة السويس علي محمد علي رفضه تماماً لأن المشروع يتطلب الحصول علي قروض من البنوك الأجنبية وهو يخشي أن تخضع مصر لضغوط الديون الخارجية لأن محمد علي كان يريد تأسيس دولة مستقلة قوية علي أسس علمية لا تخضع لأي جهة خارجية وليس معني أنه أراد أن يؤسس دولته علي الطريقة الأوربية وعلي المنهج والفكر الأوروبي ليس معناه الخضوع لأوروبا مالياً أو عسكرياً كما فعل أحفاده فيما بعد كما سنري ، وعلي أي حال كان محمد علي في ذلك الوقت يفكر في إقامة القناطر الخيرية ، ولكن لم ييأس أتباع سان سيمون وقرروا تنفيذ مشاريع أخري في المجال الزراعي والصناعي " والاجتماعي " والجدير بالذكر أن دليسبس الكبير " والد فرديناد دليسبس " قد تقدم بمشروع قناة السويس لمحمد علي ورفضه أيضاً ، ثم تم عرض المشروع بعد ذلك علي سعيد باشا عندما تولي حكم مصر ووافق عليه وتم افتتاح قناة السويس في عهد الخديوي اسماعيل كما نعرف ،

- ولكن دليسبس نسب هذا المشروع لنفسه
- نعم نسبه لنفسه وتنكر لدور أتباع سان سيمون كما ورد في كتاب الأستاذ جمال بدوي " محمد علي وأولاده " نقلاً عن كتاب آخر اسمه " أتباع سان سيمون وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر " الذي ألفه عالم الاجتماع المصري الدكتور محمد طلعت عيسي
- ولكن كيف أسس محمد علي الجيش المصري ؟

تأسيس الجيش المصري

- ذكرنا أن الجيش المصري كان السبب والدافع الرئيس وراء كل هذه الإنجازات والبعثات والمدارس ، فكيف تم تجنيد الفلاحين المصريين في جيش محمد علي عفواً أقصد في جيش مصر ، حيث اضطر محمد علي لتجنيد الفلاحين المصريين
- اضطر ؟
- نعم وأكرر مرة أخري " اضطر " محمد علي لتجنيد المصريين في الجيش النظامي الذي قرر تأسيسه والذي يؤكد هذا الاضطرار ما ورد في كتاب الرافعي عن عصر محمد علي فقد ذكر محاولات محمد علي لتأسيس جيش نظامي من غير المصريين ففي سنة ١٨١٥م حاول محمد علي تحويل الجنود الغير نظاميين " الباشبوزق " إلي جنود نظاميين ولكنه فشل بسبب تمردهم وعصيانهم للأوامر وعدم تعودهم علي النظام والطاعة وكادوا ان يطيحوا به ، ثم أجّل محمد علي مشروعه لتأسيس الجيش النظامي لوقت آخر ، ثم حاول تجنيد عدداً كبيراً من السودانيين ولكن لم تنجح المحاولة مرة أخري بسبب وفاة معظمهم بسبب الأمراض ربما لتغيير الجو الذي اعتادوا عليه واختلاف أحوال المعيشة وأخيراً قرر محمد

[٧٢٣] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٧

علي تجنيد الفلاحين المصريين ولكن لم يبدأ التجنيد إلا بعد أن قام بإعداد النواة الأولي من الضباط بمساعدة سليمان باشا الفرنساوي (ويدأ في العمل بأن قدم إليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدربهم علي أن يكونوا ضباطاً في النظام الحديث وطلب إلي بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك ، فاجتمع لدي الكولونيل " سيف " – سليمان باشا الفرنساوي – ألف من هؤلاء وأولئك أخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات علي فنون الحرب وأساليبها الحديثة فصاروا نواة الجيش النظامي إذ تكونت منهم الطائفة الأولي من الضباط)٧٢٤

- فأين تمت هذه التدريبات ؟
- اختار محمد علي مدينة أسوان لتكون مكان التدريب بعيداً عن الأنظار والدسائس وحتي إذا فشلت التجربة لا يشمت فيه أحد والله أعلم (وقد عني محمد علي بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والأسباب فهي أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصري النظامي)٧٢٥ وقد واجه بالطبع سليمان باشا الفرنساوي صعوبات كثيرة حتي استطاع أن يحقق الهدف المرجو من هؤلاء الضباط ، وبعد أن تكونت طبقة الضباط بدأ في تجنيد السودانيين في ثكنات في بني عدي بالقرب من منفلوط وقد تكلم علي باشا مبارك عن أحد هذه الثكنات في كتابه الشهير " الخطط التوفيقية " التي يوضح تاريخ جميع المنشآت والمباني والآثار الهامة في مصر ومما ذكره عن بني عدي ما أورده الرافعي (وقد أشار علي باشا مبارك إلي هذه الثكنات في كلامه عن بني عدي بقوله : " وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ أوغلي مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان " فلابد أن يكون هذا القصر الذي بقي أثره إلي حين تأليف الخطط التوفيقية أحد المباني التي أقيمت في بني عدي حينما شرع محمد علي في اتخاذها مكاناً لتدريب الجنود علي النظام الحديث)٧٢٦ وبعد أن مات معظم المجندين السودانيين كما سبق القول شرع محمد علي في تجنيد المصريين
- فمن يكون محمد لاظ أوغلي ؟
- كان محمد لاظ أوغلي الشهير باسم لاظوغلي وله تمثال في أحد ميادين القاهرة حالياً كان يشغل منصب نائب محمد علي ووكيله وهذا المنصب كان يسمي الكتخدا ولذلك كان الجبرتي عندما يتكلم عن لاظوغلي يقول كتخدا بك وهناك لقب آخر مرادف لكلمة كتخدا وهو لقب الكخيا فهو يعني أيضاً النائب أو الوكيل وكان لاظوغلي من أشد الرجال إخلاصاً ومعاونة لمحمد علي وخاصة في بداية حكمه لمصر
- هل كان محمد علي يحتقر المصريين ؟

---

[٧٢٤] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٧

[٧٢٥] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٧

[٧٢٦] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٩ ، ٣٣٠

- يقول الأستاذ جمال بدوي : (وإذا كنا – نحن المصريين – نحمد لمحمد علي هذه الخطوة " تجنيد المصريين " التي كان لها ما لها في ترسيخ الحس القومي إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد علي قسوته في تجنيد الفلاحين المصريين وانتهاجه طرقاً غير إنسانية في جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم في الحبال وسوقهم كالدواب إلي معسكرات التجنيد ، يقول المؤرخ العسكري محمد فيصل عبد المنعم في كتابه " مصر تحت السلاح " إن المتتبع للطريقة التي اتبعها محمد علي لتجنيد المصريين يلاحظ بجلاء مدي احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين وامتهانه لآدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذي اختاره وانتخبه لحكمه)[٧٢٧]
- فماذا كان تأثير قرار تجنيد المصريين علي من حول محمد علي من أتراك ؟
- أثار قرار تجنيد المصريين قلق القادة الأتراك وتحدثوا مع محمد علي في ذلك (وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام علي هذه الخطوة التي لا تحمد عقباها ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين يقتصر علي مستوي " الأنفار " أي الجنود فقط أما رتب الضباط والقادة فستبقي حكراً علي الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك)[٧٢٨]
- فهل نجح المصريون كجنود في الجيش المصري ؟
- لقد أثبت الجنود المصريين كفاءة لا نظير لها في حروب حقيقية تحت قيادة ابراهيم باشا خارج القطر المصري (وقال كلوت بك في كتابه : ربما يُعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم علي الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة علي العمل واحتمال المشاق ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند الخطر والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن والإقدام علي المخاطر والاتجاه إلي خط النار)[٧٢٩] وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييداً لهذا الوصف ، ولكن كلوت بك لم يعتبر المصريين أهلاً للقيادة واعتبر كونهم جنود فقط هو الأفضل وبرر عمل محمد علي في إقصائهم عن المراتب السامية في الجندية وإسنادها إلي الأتراك والمماليك بينما رأي المارشال مارمون الذي زار مصر في رحلته أن المصريين يصلحون للقيادة ولكن خوف محمد علي في البداية من زيادة نفوذهم هو الذي جعله لم يبدأ بهم كضباط في الجيش ولكنه اكتفي بكونهم جنود فقط
- فمتي كانت أول مرة يصبح فيها المصريون ضباط بالجيش المصري ؟
- في عهد سعيد باشا ابن محمد علي
- ولكنه لم يصل للحكم بعد إبراهيم باشا أليس كذلك ؟

---

[٧٢٧] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٩٣ ، ٩٤

[٧٢٨] المرجع السابق صفحة ١٣١

[٧٢٩] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٤٦

- نعم فقد تولي عباس الأول الحكم قبل عمه سعيد لفرق السن بينهما فقد كانت الولاية لأكبر أبناء الأسرة العلوية سناً وليس أكبر أبناء محمد علي
- فهل تسمح بأن تلخص بيان حكام مصر من أسرة محمد علي طبقاً لترتيب وصولهم للحكم قبل أن نخوض في سرد الأحداث التي تمت في عصر هذه الأسرة ؟

بيان أسماء حكام مصر من أسرة محمد علي باشا

- لا مانع علي الإطلاق ، وفيما يلي الأسماء بالترتيب : ١ – والي مصر (محمد علي) باشا فترة الحكم حوالي ٤٣ سنة من١٨٠٥/٥/١٧ إلي١٨٤٨/٩/١ توفي في ١٨٤٩/٨/٢، ٢ – والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي شهرين من ١٨٤٨/٩/٢إلي١٨٤٨/١١/١٠توفي في ١٨٤٨/١١/١٠ ، ٣ – والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي ٦ سنوات من ١٨٤٨/١١/١٠ إلي ١٨٥٤/٧/١٣ اغتيل في يوليو ١٨٥٤ توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي ، ٤ – والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) كان أصغر من عباس الأول ابن اخيه وحكم مصر حوالي ٨.٥ سنة من ١٨٥٤/٧/١٤إلي ١٨٦٣/١/١٨ توفي في يناير ١٨٦٣ ، ٥ – والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٥.٦ سنة من ١٨٦٣/١/١٩ إلي أن تم عزله سنة ١٨٧٩/٦/٢٦ توفي سنة ١٨٩٥ بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس
- ٦ – خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٠.٥ سنة من ١٨٧٩/٦/٢٦ إلي ١٨٩٢/١/٧ توفي سنة ١٨٩٢ وفي عهده قامت الثورة العرابية واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، ٧ – خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٢٢ سنة من ١٨٩٢/١/٨ إلي ١٩١٤/٩/١٩ توفي سنة ١٩٤٤ عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولي ، ٨ – سلطان مصر السلطان (حسين كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٣ سنوات من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ أعلنه الإنجليز سلطاناً لتستقل مصر رسمياً عن الدولة العثمانية تماماً وفرضوا الحماية علي مصر وتوفي سنة ١٩١٧ ، ٩ – سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٩ سنة من ١٩١٧/١٠/٩ إلي ١٩٣٦/٤/٢٨ قامت في عهده ثورة ١٩١٩ وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي سنة ١٩٣٦ ، ١٠ – ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٦ سنة من ١٩٣٦/٤/٢٨ إلي ١٩٥٢/٧/٢٦ تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتوفي في إيطاليا سنة

١٩٦٥ ودفن في مصر بمسجد الرفاعي ١٩٣٦، ١١ – ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر تحت والوصاية سنة واحدة تقريباً من ١٩٥٢/٧/٢٦ إلي ١٩٥٣/٦/١٨ تم إعلان الجمهورية يوم ١٩٥٣/٦/١٨ وكان الملك طفلاً صغيراً تحت الوصاية

- بالتأكيد هذا البيان من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري
- هذا صحيح
- من الواضح وجود العديد من الأسماء المركبة في هذه الأسرة مثل محمد توفيق أو أحمد فؤاد
- نعم فقد كان ذلك معروف عن أسرة محمد علي ، والآن حان الوقت كي نتحدث عن حروب محمد علي في المنطقة فما هي أول حرب سنتحدث عنها من حروب محمد علي باشا ؟
- فلنتحدث عن الحرب الوهابية
- فما سببها وكيف بدأت وكيف انتهت ؟

الدولة السعودية الأولي والدعوة الوهابية

- فشلت الدولة العثمانية في السيطرة علي الحجاز بعد أن قويت شوكة الدولة السعودية الأولي التي تبنت الدعوة الوهابية مما جعل الدولة العثمانية تطلب من محمد علي إرسال جيش للسيطرة علي مكة والمدينة وإخضاع الوهابيين وكان محمد علي مشغول بمشاكله الداخلية في مصر لفترة ليست بالقصيرة فكان يعتذر للسلطان العثماني عن عدم إمكانية دفع حملة إلي الأراضي الحجازية إلي أن أتيحت له الفرصة لإرسال حملته الشهيرة بقيادة ابنه طوسون باشا ،
- ولكن ما هو موضوع الدعوة الوهابية وما هو أصل الحكاية ؟
- هذا ما سأحاول أن أقصه عليك باختصار شديد من المراجع التي تتناوله ، فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي : (ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥هـ / ١٧٠٣م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض – – ونشأ علي حب العلم فطلبه منذ صغره وأظهر نبوغاً وتميزاً فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث – – ورحل في طلب العلم – وعندما رجع إلي حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم والدعوة إلي عقيدة التوحيد الصافية وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله)[٧٣٠] ، (استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف علي أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ ، يدعو إلي إزالة المنكر وهدم قباب القبور وسد ذرائع الشرك

[٧٣٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٦

وتحقيق العبودية لله وحده وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناة وتدعو إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة – – ولكنه رأي أن اللين يقابل بالشدة وأن الصدق يقابل بالكذب والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات)٧٣١ وهكذا قرر الشيخ بمعاونة الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية أن يدافع عن دعوته بالقوة ، وحققت الدعوة نجاحاً كبيراً (وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلي الحجاز)٧٣٢ وفي عام ١٨٠٣ م دخل السعوديون مكة وبعدها بعامين ضم السعوديون المدينة المنورة وقامت بالفعل الدولة السعودية الأولي التي تأسست علي أسس سلفية وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز منتهي القوة وخضع لها معظم شبه الجزيرة العربية ، ويقول الدكتور علي الصلابي عن أعداء الدعوة الوهابية :(فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات علي أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف ، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة ، ويبغون المحافظة علي ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين ، أتت من سدنة القبور ، أتت من المستفيدين من صناديق النذور ، أتت من الذين يعيشون علي الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتي بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها وفي العالم الإسلامي أجمع)٧٣٣

- فهل منع الوهابيون الناس من الحج كما يقال ؟
- كان الوهابيون يمنعون أي وفد من وفود الحجيج يأتي بالطبل والزمر والموسيقي فقد كانت هذه السلوكيات منتشرة في ذلك الوقت ، أما من يأتي للحج بأسلوب عادي وطبيعي فلا يمنعونه من الحج وأشيع في ذلك الوقت أن الوهابيين قد منعوا الناس من الحج
- وبالطبع عندما فشلت الدولة العثمانية في القضاء علي هذه الدعوة بالقوة أمرت محمد علي بقتالهم

محمد علي يقضي علي الدولة السعودية الأولي

- وهكذا قامت الحرب بين محمد علي والوهابيين ودارت معارك عديدة تخلص فيها محمد علي من معظم الجنود الغير نظاميين وسافر بنفسه في أحد مراحل الحرب إلي الحجاز وبالمناسبة لقد بدأ هذه الحرب طوسون باشا واستكملها بعد ذلك ابراهيم باشا وكلاهما من أبناء محمد علي
- طوسون باشا هو الذي كان سفره ذريعة لدعوة المماليك بمذبحة القلعة ؟

---

[٧٣١] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٧

[٧٣٢] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٨

[٧٣٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٩

- نعم ولكنه لم يسافر في ذلك الوقت الذي حدثت فيه المذبحة وسافر بعد ذلك بفترة ثم عاد ومات في حياة أبيه
- من المؤكد أن موته كان صدمة كبيرة للباشا أليس كذلك ؟
- هذا صحيح حتي أن أحداً لم يجرؤ أن يبلغه الخبر عندما حدث كما يقول علي باشا مبارك في كتابه الممتع الخطط التوفيقية في سياق حديثه عن السبيل الذي أقامه محمد علي كصدقة جارية علي روح ابنه طوسون وهذا السبيل موجود حتي الآن بشارع المعز ويقع عند ناصية حارة الروم
- لقد شاهدته بالفعل من قبل وأعجبني جداً فهو تحفة معمارية بحق ولم أكن أعرف ملابسات بناءه ، فهل يمكن أن تقرأ لي ما كتبه علي باشا مبارك عن هذا الحدث ؟
- ولكننا نتحدث عن الحرب الوهابية
- لا توجد مشكلة سوف نستكمل الحديث عنها بعد ذلك ، كما أن طوسون باشا كان قائد هذه الحرب

علي مبارك يوضح سبب بناء سبيل محمد علي الموجود بالغورية [٧٣٤]

- يقول علي مبارك في خططه التوفيقية وهو يصف منطقة الغورية : - - - ثم بعد مسافة صغيرة يجد باب حارة الروم بجوار سبيل الباشا المعروف بسبيل العقادين أنشأه العزيز محمد علي باشا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف علي روح ابنه طوسون باشا وهو سبيل كبير مبني بالرخام وفوقه مكتب جُعِل مدرسة لتعليم الأطفال القرآن والخط والنحو والرياضة والألسن ولهم خدمة وخوجات وامتحان سنوي مثل المدارس الملكية والصرف عليه من جهة ديوان الأوقاف العمومية كغيره من باقي المكاتب الأهلية ، وطوسون باشا المذكور هو كما في الجبرتي المقر الكريم المخدوم أحمد باشا الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا مالك الأقاليم المصرية والأقطار الحجازية والثغور وما أضيف إليها
- يبدو أنني سأستمتع بأسلوب علي باشا مبارك وسأطلب منك قراءة المزيد من كتابه ، عفواً للمقاطعة استمر في القراءة من فضلك
- سافر المترجم إلي البلاد الحجازية وحارب الوهابية فكانت النصرة له ولما عاد إلي مصر أراد أن يسافر إلي جهة رشيد فأخذ العساكر وسافر إلي جهة الحماد وجعل عرضي خيامه هناك ، وصار يتنقل من العرضي إلي رشيد ثم إلي برنبال وأبي منضور والعزب وكان صحبته من مصر أرباب الآلات المطربة المغنين وهم إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقائهم ثم ذهب ببعض خواصه إلي رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أياماً وحضر إليه من جهة الروم جوار وغلمان قاصون فانتقل بهم إلي قصر برنبال ، ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور فتمرض بالطاعون وتململ به نحو العشر ساعات وانقضي نحبه وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة سنة احدي وثلاثين

[٧٣٤] من كتاب الخطط التوفيقية –علي باشا مبارك – الجزء الثاني – صفحة ٢٨ ، ٢٩

ومائتين وألف وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا علي إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره في ذلك الوقت فأخبره عنه أنه ورد إلي شبرا متوعكاً فركب في الحين القنجة وانحدر إلي شبرا وطلع إلي القصر وصار يمر بالمخادع ويقول أين هو فلم يتجاسر أحد أن يخبره بموته

- إنه موقف صعب بالفعل أن تواجه الباشا بخبر موت ابنه بالطاعون ، ولكن أعتقد أنه من السهل أن تخبره بموت العديد من أبناء الشعب المصري بالطاعون دون أن تخاف من رد فعله والله أعلم وعلي أي حال رحم الله الباشا وابنه وجميع موتي المسلمين
- وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلي بولاق ورسوا به عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك علي الباشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجاً شديداً ونزل السفينة فأتي بولاق آخر الليل وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان فركبوا بأجمعهم إلي بولاق وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي ثم نصبوا تظلكاً ساتراً علي السفينة وأخرجوا الناروس ونصبوا عوداً عند رأسه وضعوا عليه تاج الوزراة المسمي بالطلخان وانجروا بالجنازة من غير ترتيب والجميع مشاه أمامه وخلفه وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد المكاتب والأحزاب شئ ، من ساحل بولاق علي طريق المدابغ وباب الخرق علي الدرب الأحمر علي التبانة إلي الرميلة فصلوا عليه بمصلي المؤمنين وذهبوا به إلي المدفن الذي أعده الباشا لنفسه[٧٣٥] ولموتاه كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي
- سبحان الحي الذي لا يموت ، محمد علي باشا يبكي
- ومع الجنازة أربعة حمير تحمل القروش وربعيات الذهب ودراهم أنصاف عددية ينثرون منها علي الأرض وساقوا أمام الجنازة ستة رؤوس من الجواميس الكبار وأخرجوا لاسقاط صلاته خمسة وأربعين كيساً تناولها فقراء الأزهر ، ولما وصلوا إلي المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجه منه بسبب انتفاخه وتهرّيه حتي أنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخور والرائحة غالبة علي ذلك ، وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل الأفراح ودق الطبول ونوبة الباشا واسماعيل باشا وطاهر باشا ، وأقاموا عليه العزاء عند القبر مدة أربعين يوماً ومات وهو مقبل الشبيبة لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواد له ميل لأولاد العرب منقاداً لملة الإسلام وكان يعترض علي أبيه في أفعاله تخافه العسكر وتهابه رحمه الله تعالي
- رحم الله جميع موتي المسلمين ، إذن فقد استكمل إبراهيم باشا الحرب الوهابية بعد عودة طوسون ثم وفاته

[٧٣٥] من المعروف أن محمد علي باشا عندما مات تم دفنه في الجامع الذي أقامه في قلعة صلاح الدين بالقاهرة

كيف وصف الجبرتي والرافعي الحرب الوهابية بقيادة إبراهيم باشا

- قد وصف الرافعي هذه الحرب بالتفصيل وذكر في نهاية وصفه لهذه الحرب ما يلي (انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات وقد تخللها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي علي الحملة المصرية فإن الجيوش التي جردها محمد علي استهدفت للخطر في مواطن عدة وخاصة في هزيمة " الصفراء " الأولي وحصار "الرس" عندما استعصت علي ابراهيم باشا وفي حصار الدرعية وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها ففي تلك المرات الأربع كادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام ومن الأسباب التي أدت إلي اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود " الذي تولي القيادة بعد والده أثناء الحرب " والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو فإن القبائل التي انحازت إلي جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة)[٧٣٦]
- لم يختلف أسلوب إبراهيم باشا وطوسون باشا عن أسلوب والدهما فهو يعتمد عادةً علي الأموال والتفرقة بين الصفوف
- وهكذا باختصار شديد تم توضيح ملخص ما حدث وبالمناسبة كان من شروط استسلام الدرعية عاصمة السعوديين في ذلك الوقت أن يتم المحافظة عليها وتأمينها
- وهل تم ذلك بعد استسلامها ؟ عفواً لقد سألت هذا السؤال وأنا أتوقع إجابته بالطبع
- يقول الرافعي : (لم يف محمد علي بعهود ابنه ابراهيم في شروط الصلح فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل إلي القاهرة أخوة عبد الله بن سعود " الذي تم قتله بالأستانة " فنزل ابراهيم علي أمر أبيه وأرسل أخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها)[٧٣٧] وقد استمرت الحرب الوهابية من سنة ١٨١١م إلي سنة ١٨١٩م
- وهل هناك آراء أخري عن هذه الحرب تود أن تقرأها قبل أن ننتقل لموضوع آخر؟
- هناك رأي يقول : (– – ماذا كان يمكن أن يحدث لو اقتصرت الحركة الوهابية علي الدعوة السلمية دون شق عصا الطاعة والخروج علي الخلافة ، ألم يكن ذلك يدعم موقف الخلافة في مواجهة الأخطار المحيطة بها من أوروبا ، وخاصة الروس ، وماذا لو وفر المسلمون "الخلافة–محمد علي–الوهابيون" علي حد سواء الأموال والدماء والسنوات التي أهدرت في تلك الحرب ووجهت تلك المجهودات إلي توسيع رقعة الإسلام جنوباً ، أو لحمايته شمالاً ، تخيل لو كانت الجيوش التي جردها محمد علي في تلك الحملة قد توجهت جنوباً إلي أفريقيا – – – وكان علي الخلافة العثمانية أن تدرك أن الدعوات لا

---

[٧٣٦] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٤٩

[٧٣٧] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ١٥١

تُقمع بالسلاح ، فصحيح أن محمد علي قد استطاع أن يُخمِد الحركة الوهابية بعد ثمان سنوات من القتال إلا أن الحركة ظلت كامنة إلي أن ظهرت من جديد فيما بعد – – – ماذا كان يحدث لو أن محمد بن عبد الوهاب اقتصر علي الدعوة السلمية ووفر علي المسلمين كل هذه الدماء والأموال ، وإذا افترضنا صحة اجتهاداته فيما يخص البدع ، أليس دعم وحدة المسلمين أهم ، أليس دعم دولة الخلافة في مواجهة الأخطار الخارجية أكثر شرعية وإسلامية في هذا الصدد ، ماذا لو أنه استخدم إمكانياته في الدعوة والحث علي القتال وتحفيز الرجال في استنفار قوي المسلمين وتجنيدهم لمواجهة الأخطار المحيطة بالخلافة أو صد الغزوات التي كان المسلمون يواجهونها في أكثر من مكان أو حتي توسيع رقعة دار الإسلام ، وإذا كانت إقامة المزارات وزيارة القبور وشرب الدخان ولبس الحرير بدعاً ، أليس تهديد وحدة المسلمين واستنفاذ طاقة الخلافة الإسلامية وإضعافها في مواجهة الدول الصليبية المتربصة ، وإراقة دماء المسلمين فيما بينهم بدعاً أشد ، بل جرائم لأنها لا تهدد صحة أو عدم صحة ممارسة تعبدية أو عقائدية معينة ، بل تهدد مستقبل الأمة الإسلامية ووحدتها ووجودها ذاته ، وهكذا فإن الحملة علي الجزيرة العربية كان لها بعض الإيجابيات ، ولكن كان من الممكن علاج تلك الحركة بالحوار أو حتي بالإهمال وتوجيه طاقة الجيش المصري إلي الجنوب – – ماذا لو ، ماذا لو ، ولو تفتح عمل الشيطان)[٧٣٨]

- يا لها من حرب ، استفاد منها محمد علي علي جميع الأصعدة بما في ذلك تخلصه من عدد لا بأس به من الجنود الغير نظاميين فماذا عن باقي حروب محمد علي باشا ؟

حروب محمد علي الأخري بعد الحرب في الحجاز

- في الحقيقة حدثت حروب أخري في عهد محمد علي منها حرب السودان التي استمرت من سنة ١٨٢٠ م إلي سنة ١٨٢٢م[٧٣٩] وكانت بقيادة اسماعيل باشا وإبراهيم باشا أبناء محمد علي لأن ابنه طوسون باشا كان قد مات كما سافر محمد علي أيضاً إلي السودان في أحد مراحل الحرب وقد قُتِل اسماعيل باشا أثناء هذه الحرب
- وهل أقام محمد علي سبيل آخر صدقة لابنه اسماعيل كما فعل مع طوسون ؟
- بالتأكيد ويمكنك مشاهدته أيضاً في شارع المعز أمام مجموعة قلاوون ومجموعة برقوق
- وخضعت السودان لمحمد علي

---

[٧٣٨] تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨-١٩٥٢ صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو – ص ١٦٥

[٧٣٩] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ١٥٥

- **نعم وبدون الخوض في تفاصيل تم خضوع السودان لسيطرة محمد علي باشا ، لأن أساليبه قد تكررت في معظم حروبه ، كما أن إبراهيم باشا قد أثبت كفاءة عالية في هذه الحروب ، فضلاً عن تفوق الجنود المصريون في القتال فإنهم يتميزون بمزايا عديدة**
- **كيف ؟**
- **إن أكثر ما يميز الجندي المصري طاعته للأوامر وصبره وجلده وتحمله للمشاق ، وفوق كل هذا لا يكلفك كثيراً فهو يأكل المتوفر من الطعام دون تبرم وينام في أي مكان متاح ويتكيف مع الظروف والبيئة المحيطة به كما أن من السهل جداً رفع روحه المعنوية**
- **فماذا حدث بعد ذلك ؟**
- **بعد ذلك أمر السلطان العثماني محمد علي بإخماد ثورة أهلية كبيرة في اليونان فقام محمد علي بإرسال قوات برية وبحرية وكادت أن تحقق نجاحاً كبيراً لولا تدخل الدول الغربية لإنقاذ ثورة اليونانيين ضد الدولة العثمانية مما تسبب في غرق الأسطول المصري في موقعة تسمي واقعة نافارين**
- **أوروبا تنقذ اليونان دائماً عندما تقع في أي ورطة**
- **بالتأكيد فهم يعتبرونهم من البشر وليسوا كائنات علي هيئة بشر ، فلليونانيين كافة حقوق الإنسان علي عكس من يسمونهم الهمج**
- **إن غرق الأسطول المصري كان رسالة قوية لمحمد علي من الغرب أليس كذلك ؟**
- **هذا صحيح ومع ذلك فقد تسببت هذه الحرب في رفع شأن وسمعة الجيش المصري عالمياً وأصبح يقاتل قتال علي أعلي مستوي ليس في الحجاز والسودان فقط ولكن في أوروبا نفسها ويعلق علي ذلك الرافعي بقوله (ولا يخفي من جهة أخري أن الحرب اليونانية كانت خير إعلان عن قوة الجيش المصري وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده ولقد ظهر في تلك الحرب أرفع شأناً وأشد بأساً من الجيش التركي فكان لهذه الميزة أثرها في توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا بحيث لم يعد يسهل علي السلطان أن ينظر إلي محمد علي كوالي من ولاة السلطنة العثمانية بل جعلته الحرب نداً له وملكاً مهيب الجانب قوي البأس والسلطان فلا غرو أن قويت في نفس محمد علي بعد ذلك فكرة إعلان الاستقلال)٧٤٠**
- **واضح من كلام الرافعي أنه يفضل القومية المصرية ويتمني استقلال مصر بالمفهوم الحالي للاستقلال**

محمد علي يتحدي الدولة العثمانية

- **كان محمد علي قد أنفق أموالاً طائلة وبذل مجهود جبار من أجل تأسيس جيش قوي بل تكاد تكون النهضة التي أحدثها في مصر بسبب النهوض بالجيش المصري وحده لتحقيق طموحاته فكان ينفذ**

---

[٧٤٠] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ٢١٥

أوامر السلطان العثماني ويرسل الجيوش حيث يريد السلطان ، حتي شعر بمدي ضعف الدولة العثمانية ومدي قوة الجيش المصري الذي كان يقاتل بالنيابة عن الدولة العثمانية وينجح في ما يفشل فيه الجيش العثماني ،

- وبالتالي قرر أن يقاتل الدولة العثمانية ويعلن استقلال مصر
- بالفعل استطاع الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا التقدم نحو سوريا وفلسطين ولبنان وسيطر علي مساحات شاسعة من الأراضي حيث كاد يزحف نحو الأناضول في اتجاه عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، وطبعاً كان ابراهيم باشا عبقري من عباقرة القيادة العسكرية والخطط الحربية حتي أنه استطاع أن يفتح عكا التي لم يتمكن نابليون من فتحها منذ سنوات قليلة
- بمناسبة نابليون ، هل لاحظت معي أن محمد علي استطاع أن يحقق حلم نابليون في تكوين إمبراطورية في الشرق تكون قاعدتها مصر ،
- بالتأكيد وقد فرح الرافعي جداً بانتصارات إبراهيم باشا وكتب عن فتحه لعكا وعن ونجاحه فيما فشل فيه نابليون بونابرت
- فماذا كتب ؟

<u>أمام أسوار عكا فشل الجيش الفرنسي بقيادة نابليون وإنتصر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا</u>

- يقول الرافعي عن حصار إبراهيم باشا لعكا الذي بدأ في نوفمبر سنة ١٨٣١ : (كانت عكا علي جانب عظيم من المنعة ، ولا غرو فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها ،) وحدث أن وصل جيش عثماني لإنقاذ عكا فترك إبراهيم باشا قوة لاستمرار حصارها وقام إبراهيم باشا بملاقاة الجيش العثماني قبل أن يصل إلي عكا وبعد أن تأكد إبراهيم باشا من تمام هزيمة الجيش العثماني عاد بقواته إلي عكا وفتحها في ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، ويضيف الرافعي : (فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين ، فإن عكا هي التي امتنعت علي نابليون وعجز عن فتحها وارتد عنها خائباً ، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري – –- وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات)[٧٤١]
- كل هذه الانتصارات تتابعها بريطانيا وفرنسا بالطبع

---

[٧٤١] من كتاب (تاريخ الحركة القومية) الجزء الثاني – عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٣٣ وكتاب عصر (محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف – الطبعة الخامسة ١٩٨٩ ، بتصرف من صفحة ٢٢٤ ، ٢٢٨

- بالتأكيد ، فبعد انتصارات جيشه المتلاحقة علي الجيش العثماني حيث تعتبر معركة نصيبين هي المعركة الكبري التي انتصر فيها الجيش المصري علي الجيش العثماني وكانت في ٢٤ يوليو ١٨٣٩ وبعد كل هذا النجاح واتساع رقعة ملكه واجه خطراً كبيراً لم يتمكن من مواجهته
- أعتقد أنه قد تعدي المسموح به ، ولكن كيف سمحت أقوي دولتين في العالم في ذلك الوقت بنجاحات محمد علي إلي هذا الحد وتكوين هذه الدولة المصرية القوية الناهضة وهل كان صعود دولة محمد علي تحت مراقبة الدول الكبري وبحساب بحيث يتم إيقافه في أي وقت ؟ وهل كان يجهل الموقف الدولي ؟
- والإجابة علي هذا السؤال محيرة بالطبع وقد حاول الأستاذ يحيي حقي الإجابة في معرض حديثه عن الجهل بالموقف الدولي
- فماذا قال ؟

هل كان محمد علي يجهل الموقف الدولي ؟

- يقول الأديب الكبير يحيي حقي بعد أن تحدث عن جهل إبراهيم بك ومراد بك بالموقف الدولي[٧٤٢] : - - - ننتقل الآن إلي محمد علي ، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون –رغم أميته– (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير ، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطني أكلة شهية ، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمي علمك ، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا ، من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي حق الفهم وأنه ظل حبيس أفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين–خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوي من ذكائه ، والطمع يعمي ويصم ، فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ أمبراطورية عربية تغير علي الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها علي الأقل وتنتزع منها الخلافة - - - - وأخطأ في تقدير مدي مساعدة فرنسا له حسبها أنها –وهي مرضعته– ستقف إلي جانبه علي طول الخط ، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع علي دول أوروبا لا علي بلاد أسيا وأفريقيا ، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر

[٧٤٢] نقلاً عن كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

- اتفقوا علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع ، هذا كلام يدعو للتأمل بالفعل ، فقد كانت هناك دائماً دولة إسلامية كبري في هذه المنطقة من العالم ، ويتغير اسمها فقط من دولة الراشدين إلي الدولة الأموية إلي العباسية ثم تأسست دول كبري في ظل الخلافة العباسية مثل الطولونية والإخشيدية ثم سيطر الفاطميون لفترة ثم جاءت الأيوبية فالمملوكية فالعثمانية ، وكانت كل دولة تلتهم سابقتها عندما تضعف وتفسد ، وكان قد جاء الدور علي محمد علي ليؤسس دولته وتدور عجلة التاريخ مرة أخري ويلتهم الدولة العثمانية الضعيفة ويؤسس دولة مرهوبة الجانب علي أنقاضها كما فعل سابقيه ، ولكن يبدو أن هذه المرة قد فهم الأوروبيون التاريخ جيداً ووقفوا إلي جانب محمد علي بحساب وحذر وتحت السيطرة ليقضي علي العثمانيين ثم يلتهموه لمنع وجود مارد جديد في المنطقة
- يبدو أن حواري معك قد أثمر بالفعل ، فقد قمت بتحليل للموقف بإيجاز رائع ومركز
- أشكرك ، فهذا بعض ما عندكم ، فماذا أضاف أيضاً الأستاذ يحيي حقي ؟
- يضيف فيقول : – – – فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدني من استانبول اشتركت أوروبا –في مقدمتها فرنسا– في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر ، من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافيه عليه
- هذا الرأي الأول الذي يفترض أن محمد علي كان لا يفهم الموقف الدولي ، فماذا قال يحيي حقي عن الرأي الآخر ؟
- يقول : – – ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد – – من أوروبا التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، – – إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته ،
- إذن فقد انسحب محمد علي من كل هذه البلاد التي انتصرت فيها جيوشه

- ليس هذا فحسب بل إن الدول الكبرى بعد أن أجبرت محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي دخلها الجيش المصري عدا السودان قامت بإجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره علي عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعني أصح تم تقليم أظافره
- في الحقيقة أنا مع الرأي الذي يقول أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيق المطلوب منه قاموا بتقليم أظافره
- وهناك رأي آخر يقول أن الدول الكبري ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة علي يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبري متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي (لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب علي مصراعيه لدخول مصر والهيمنة علي اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر علي الأسواق الأوربية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلي جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة علي الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله " كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلي حقائق فعالة في مصر)[٧٤٣] وقد ورد أيضاً عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم علي مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري - - لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)[٧٤٤]
- فما رأيك أنت في كل ما فعله محمد علي ؟
- لا أُخفي عليك ، لقد كنت أتمني أن ينجح محمد علي في تكوين دولة إسلامية كبري مرهوبة الجانب علي أنقاض الدولة العثمانية ، فمهما يكن من أمر كانت المنطقة ستظل في مأمن من الاستعمار الأوروبي الذي أنهكها فكرياً وأفقدها هويتها وزرع داخلها الكيان الصهيوني إلي الآن وقام برسم حدودها بالمسطرة وفتتها إلي عدة قوميات تكره كل منها الأخري وأمدهم بالسلاح ليتقاتلوا وقام بنهب ثرواتهم ونشر عملاءه بينهم ولكن أمنيتي هذه بالطبع تنتج عن تفكير بشري محدود ويتسم بقصور شديد فكلها أمور وأسباب يسببها المولي عز وجل ، بحكمته التي لان ندركها فقد تكون فتن تخوضها الأمة وابتلاء يميز به المولي عز وجل الخبيث من الطيب والله أعلم ، ومهما كان تفكيرنا فلن نصل أبداً

---

[٧٤٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٤

[٧٤٤] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠٩

إلي الحكمة من كل هذا ولكننا نثق في الله ونتبرأ من حولنا وقوتنا إلي حوله وقوته وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ٤٤ سورة يونس

- سبحانه وتعال (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ سورة الأنبياء
- إن كل هذا يؤكد ما سبق أن قلته لك ، أنك لن تعرف ما سيحدث ، فافعل ما يجب عليك فعله وسر علي طريق الحق دون أن تشغل نفسك بمعرفة نتائج ما تفعله ، أما دراستنا للتاريخ فتأتي في إطار معرفة كيف تطور الصراع بين الحق والباطل لنتسعد لمواجهة أعداء الأمة كلما قاموا بتغيير أساليبهم القذرة في محاربة الإسلام
- بالتأكيد إن مرحلة محمد علي وما تلاها كانت مرحلة جديدة في الصراع لم تكن القوة وحدها المستخدمة فيه ، فقد أصبحت هناك وسائل أخري لتدمير عقول المسلمين أو تغييبها والسيطرة عليها حتي شعروا بما يسمي بالهزيمة النفسية التي هي أشد تأثيراً من الهزائم العسكرية ، فماذا بعد محمد علي ؟
- تولي إبراهيم باشا حكم مصر في حياة أبيه محمد علي الذي لم يكن يعي ما يدور حوله حتي مات إبراهيم نفسه قبل أن يموت محمد علي
- وهل وافق السلطان العثماني علي تولي إبراهيم باشا حكم مصر
- بالتأكيد فقد كان كل ما كسبه محمد علي من كل إنجازاته ومعاركه أن يظل حكم مصر في الأسرة العلوية كما نصت علي ذلك معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، فلما مرض محمد علي (– – عقد ابراهيم باشا مجلساً خاصاً برئاسته واستقر رأي المجلس علي أن يتولي إدارة شئون الحكومة بدل أبيه فتولي الحكم في إبريل سنة ١٨٤٧م وأبلغ الأمر إلي الباب العالي[٧٤٥] فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد ، وقد عني ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية ولكن عاجلته المنية في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م ، توفي وله من العمر ستون سنة هلالية – – وبعد وفاة إبراهيم ولي الحكم عباس باشا الأول ، ومازال محمد علي مصاباً بمرضه العضال إلي أن توفي يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ " ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ " بسراي رأس التين بالإسكندرية ونقلت جثته إلي القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية – –)[٧٤٦] وهكذا مات الرجل الذي صنع من مصر دولة مستقلة ذات سيادة وبعد أن أسس بها مشاريع عملاقة وهو بلا شك شخصية فذة يندر أن تتكرر في التاريخ (علي أن من الواجب أن نقرر إثباتاً للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي ، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها

---

[٧٤٥] الباب العالي مقصود به السلطان العثماني وحكومته وهو مجرد إجراء شكلي لا يؤثر في تولية ابراهيم باشا حكم البلاد والله أعلم

[٧٤٦] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٥٧٣ ، ٥٧٤

الجيل الذي عاش في ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التي توالت من بعده ، أما جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام إلي الشعب إساءة كبري لأنه ضرب عليه حجاباً من الفقر والجمود - - وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك)[٧٤٧] كان هذا جزء من رأي المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في محمد علي وأضاف أيضاً (فإذا نحن نظرنا إلي تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وباعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر وأنه من هذه الناحية أكبر بنَّاء في صرح القومية المصرية - - فلو لم يتولي محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضي كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م)

- علي العموم الاحتلال تم علي أي حال في عهد أحد أحفاد محمد علي
- ويمكن الآن أن نتوقف عن الحديث عن محمد علي باشا وإبراهيم باشا ونبدأ الحديث عن عباس الأول
- هذا الذي يُسمي حي العباسية نسبة لاسمه ؟
- نعم ، وهذا الوالي لا تتوفر لدي الكثيرين معلومات عنه ،
- فكيف حكم مصر بعد إبراهيم باشا ، وما أهم ما ميز عصره ؟
- سوف تندهش إذا قلت لك أن عصر عباس الأول كان عصر رفاهية للفلاح المصري
- وكيف ذلك ؟
- لأن أكثر ما يُرهق الفلاح وينغص عليه حياته هو أعمال السخرة والتجنيد والاستدانة من دول أخري والتدخل الأجنبي في البلاد والضرائب وجمع الأموال وهجمات البدو وأعمال النهب والسلب ، وكل ما سبق لم يحدث في عهد عباس الأول
- لا ضرائب ولا سخرة ؟
- إن الضرائب وأعمال السخرة والاستدانة والتدخل الأجنبي وكل ما ذكرته لك من إجراءات يلجأ إليها الحاكم عندما تكون لديه مشروعات كبري وطموحات وحروب كثيرة وأعمال بناء كبري وأهداف يريد تحقيقها وكل هذا لم يكن يحتاجه عباس الأول وبالتالي لم يلجأ إلي هذه الأساليب ، وإليك بعض المعلومات عن عباس الأول وماتم في عصره
- لقد اشتقت لأعرف ذلك بالفعل

---

[٧٤٧] عصر محمد علي (الرافعي)- صفحة ٥٦٢ ، ٥٦٣

عباس الأول ١٨٤٨-١٨٥٤ ورفاهية الفلاح المصري[٧٤٨]

- ولي عباس الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم وفي حياة جده محمد علي إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم ، وهو ابن طوسون ابن محمد علي ، ولم يرث عباس عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته - - - وكان محمد علي قد توفي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ بسراي رأس التين ونقل جثمانه إلي القاهرة ودفن بمسجده في القلعة ، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقين علي قيد الحياة ولم يتخلف سوي عباس ، وخلال الفترة التي حكم فيها عباس والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار - - - سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلي العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران ، من هذه القصور البعيدة عن العمران القصر الضخم الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إليه - - - - وفي عهد عباس أصبح الفلاح آمناً في حقله من اللصوص ، ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب علي أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم ، كما أصبح الفلاح آمناً من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال عامة كحفر القناطر ، وترتب علي قلة المصروفات بسبب هذه الخطة التي اتبعها عباس أن خفت الضرائب ، - - ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة علي الفلاحين ، وفي ذلك يذكر نوبار في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله عباس : هل ميزانيتنا متوازنة ؟ وجاء الرد أن الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد وعندئذ قال له عباس : إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة ،حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات ، وفي عهد عباس ألغي نظام الاحتكار ، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله ، ففي سنة ١٨٤٩ أصدر عباس قراراً بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلباً لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولي لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ١٢٦٤هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك) ، وأعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلي أنحاء الريف المصري سعياً وراء شراء المحاصيل من الفلاحين ، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعاً لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقداً

---

[٧٤٨] نقلاً باختصار عن كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)- د يونان لبيب رزق- المجلس الأعلي للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)- عبد الله محمد عزباوي

- التجار الشوام واليونانيون شغلوا الفراغ الذي تركته الحكومة ، علي أي حال لقد كان ذلك في صالح الفلاح المصري ، فأنا أعتقد أنه لم يكن يعرف كيف يتصرف في إنتاجه ولمن يمكن بيعه والله أعلم
- وشهد عهد عباس تقدماً من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي ، فقد انتظمت مرتبات الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي ينتظرون ١٥ أو ٢٠ شهراً لتسلم هذه المرتبات ، وفي عام ١٨٥٢ شرع عباس في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ،
- كنت أعتقد أن أول من شرع في مد خط سكة حديد في مصر هو سعيد باشا والخديو اسماعيل فقط
- اعتقد عباس أن جده محمد علي قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضي في سياسة الحذر من الغرب ، فعمل علي هدم النفوذ الأوربي في مصر ، إذ كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوي الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلي الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر ، وقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣ فطلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمده بالجيش والأسطول فلبي عباس طلبه ، وقد أبلي المصريون بلاء حسنا في هذه الحرب التي استمرت إلي عهد سعيد فقد استطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس في سنة ١٨٥٤
- ولكن الجميع تقريباً يتهم عباس الأول وعصره بالعديد من السلبيات
- علي الرغم من السلبيات التي شهدها عصر عباس الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد ، وعدم اللجوء إلي الاستدانة ، ولم يترك أي دين علي حكومة البلاد ، ولم يثقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض
- ومات عباس دون أن يعرف أن مصر ستكبلها الديون ويرتع فيها حثالة أوروبا بعد ذلك
- في الحقيقة إن عباس الأول قد مات مقتولاً
- إن هذا ليس بمستغرب بالنسبة لي
- وقد وصل للحكم بعده عمه سعيد الذي كان أصغر منه سناً ، ولقد تميز عصره بأن أصبح المصريون ضباطاً في الجيش المصري وليس جنوداً فقط كما قام بفتح المجال أمام الغرب وخاصة فرنسا لتطوير البلاد ، وقام بالطبع بمنح فرديناند دليسبس امتياز حفر قناة السويس حيث قام بتوقيع عقد شركة قناة السويس والذي كان يحتوي علي شروط مجحفة تجبر الجانب المصري علي توفير عمال بالسخرة بدون أجر
- فما أبرز الأحداث التي وقعت في عهده غير عقد شركة قناة السويس ؟

الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك

- تحت عنوان (من أجل عيون فرنسا) ، كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي ما يلي[٧٤٩] ؛ من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة ، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية ، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة ، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث ، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما
- وما أسباب هذه الحرب ؟
- كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد ، فانتهز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل علي إذكاء نارها ، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين ، فلم تأبه الدولتان لتحريضه ، فتحمل وحده مسئولية التدخل ، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية ، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا ، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداء من بعيد أو من قريب ، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد ، وأبحرت الكتيبة إلي المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتي أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنوداً وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها ، ولم يبق منهم سوي ٣٠٠ جندي عادوا إلي باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم ، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة ، وبعد وصولهم إلي الإسكندرية استعرضهم الخديوي اسماعيل – بعد وفاة سعيد – في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافاً بشجاعتهم
- هل كان هناك شبه بين سعيد باشا والخديو اسماعيل في أسلوب الحكم ؟

عقد شركة قناة السويس وعندما يكون الخصم هو الحكم

- في الحقيقة أن كلاهما كان يثق في فرنسا إلي درجة غير طبيعية ، فعن هذا الموضوع يقول الأستاذ جمال بدوي[٧٥٠] : كان سعيد ومن بعده اسماعيل يثقان ثقة عمياء في نزاهة ملوك أوروبا وفرنسا بالذات ، علي عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد علي باشا الذي كان شديد الحذر من ناحية الأطماع

---

[٧٤٩] نقلاً عن كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي

[٧٥٠] نقلا عن كتاب – محمد علي وأولاده – للمؤرخ الكبير جمال بدوي

الأوروبية ، ولم يكن يحسن الظن بهم ، ولا يسمح لهم بالتغلغل في شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة ، وعمل علي حماية الاستقلال الوطني من الوقوع في براثن النفوذ الأوروبي ، وإن كان الموقف الرافض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد علي من اقتباس أساليب النهضة الأوروبية في تأسيس مشروعه الكبير ، فبعث البعثات إلي هناك ، واستقدم العلماء والخبراء إلي مصر ليعملوا تحت عينه الثاقبة ، ومضي وريثه عباس الأول علي هديه في مقاومة النفوذ الأوروبي ، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطني هو الحسنة الوحيدة التي تذكر له ، فسلم البلاد بعد أربع سنوات شداد إلي من جاء بعده وهي خالية من النفوذ الأجنبي ، فلما كان عصر سعيد نجح دليسبس فيما فشل فيه أيام أبيه ، واستغل ضعف شخصية الوالي الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية وصداقته الحميمة مع الإمبراطور نابليون الثالث ، في الحصول علي امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة ، ولم يتريث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم ، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية

- سلامة النوايا الفرنسية ، كم فقدنا من أنفس وأموال بسبب تلك النوايا
- وكان اسماعيل أوروبي النزعة ، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها ، ويعتقد فيهم حسن النية ، ولم يفطن إلي مطامعهم الاستعمارية ، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلي صديقه الإمبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا
- فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
- وقد شعر اسماعيل في بداية حكمه بفظاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة فأزمع إلغاءها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، فاعترض علي البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرون ألف عامل لحفر القناة بالسخرة وتفرض علي مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد ، واعترض علي إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة علي ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب ، ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات ، وحرضت الصحف الفرنسية علي شن حملة ضد حكومة مصر ، وتعضيد حق الشركة في هذه المكتسبات ، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأي العام الفرنسي إلي جانب مصالحه الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري ؟ ، لجأ إلي صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكماً في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده ، وتجاهل اسماعيل الحقيقة البديهية بأن الخصم لا يمكن أن يكون حكما عادلا ، وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف

الصداقة الشخصية ، وفي عام ١٨٦٤ أصدر الإمبراطور حكمه ويقضي بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلي الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد ، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك أي ما يعادل ثلاثة ملايين و ٣٦٠ ألف جنيه مصر في ذلك الوقت ، وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الإمبراطور وأنها تقارب نصف رأس مال الشركة

- أن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، ليت الخديو اسماعيل قد التزم بهذا الشعار الذي أعلنه ، علي أي حال دعنا نتحدث عن الخديو اسماعيل ، هذه الشخصية الثرية التي اختلفت حولها الآراء
- لا مانع ولكن الموضوعات المتوفرة عنه كثيرة إلي حد ما ولا أدري من أين أبدأ
- يمكنك أن تبدأ بأي موضوع وسوف يسلمنا إلي موضوع آخر التأكيد
- علي أي حال يمكن أن نبدأ بما ورد عنه في كتاب هؤلاء حكموا مصر للأستاذ حمدي عثمان

عندما جلس الخديو اسماعيل علي عرش مصر

- فماذا ورد عنه في ذلك الكتاب ؟
- ورد ما يلي : تولي اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حكم مصر سنة ١٨٦٣م بتقليد من السلطان العثماني عبد العزيز ، ولقد وجه اسماعيل باشا (الخديو اسماعيل) عنايته الفائقة إلي جيش مصر ، فعمل علي رفع مستواه العلمي وأنشأ له المدارس الكبيرة واستقدم بعض الخبراء العسكريين ، كذلك نالت البحرية قسطاً كبيراً من اهتمام الخديو اسماعيل فأخذ في أوائل حكمه يعتني بتجديد الأسطول فبعث النشاط في ترسانة الإسكندرية ، وكان اسماعيل باشا يعمل علي تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة بالتوسع جهة الجنوب في أفريقيا بعيداً عن حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية ، حتي لا تعارضه الدول الأوروبية كما عارضت جده محمد علي باشا من قبل ، وفي طليعة حملات الجيش المصري فتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي ، كما أتم توسيع أملاكه السودانية من الجنوب ، وعين الكولونيل شارلز جوردون حاكماً لمديرية خط الأستواء سنة ١٨٧٤م ومن قبله صمويل بيكر الذي مد نفوذ مصر حتي بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧١م ، وفي عهد الخديو اسماعيل استقرت السيادة المصرية علي جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلي بربرة في الصومال ،
- كل هذا رائع وبداية قوية ولكن المدهش هو تعيين أجانب في مناصب حساسة ، فماذا فعل داخل مصر؟
- أما علي النطاق الداخلي في مصر فقد نهض الخديو اسماعيل بالتعليم من أجل التعليم ، فأنشئت مدارس الحقوق ودار العلوم بجانب مدرسة المهندسخانة والطب البيطري والفنون والصنائع والألسن والآثار ، وأنشئت الجمعية الجغرافية وظهرت العديد من الصحف العلمية والأدبية ، وفي أيامه أنشئت مئات من منشآت الري أهمها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية و ٢٠٠ ترعة أخري تقريباً ، أما في مجال

الزراعة فاهتم الخديو اسماعيل بزراعة القطن وقصب السكر لسد حاجة أوروبا منهما ، وزادت الأراضي الزراعية في عهده مع إصلاح القناطر الخيرية ، ومدت خطوط السكك الحديدية في الوجهين القبلي والبحري وأنشأ ما يزيد علي ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك التلغرافية ، وفي عهده استخدمت الطوابع لتوضع علي خطابات البريد بل أنشأ هيئة البريد رسمياً ، أما في مجال العمران فقد أنشئ كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء ودار الأوبرا ودار الآثار المصرية ودار الكتب المصرية ، وتم تمهيد شارع الهرم وشارع محمد علي وبناء جامع الرفاعي وافتتحت الملاحة في قناة السويس رسمياً في حفل بهيج سنة ١٨٦٩م ، وازدهرت المدن بالمباني الحديثة وازدانت بالقصور ، مثل سراي عابدين ، وسراي الإسماعيلية ، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة والقصر العالي وسراي الزعفران وسراي رأس التين وسرايات أخري ، مع حبه الشديد لبناء الحدائق والبساتين مثل بستان الجيزة وبستان الجزيرة وبستان الأورمان وبستان الأزبكية ، كما دعا اسماعيل باشا السلطان عبد العزيز لزيارة مصر وهو أول سلطان عثماني يأتي لمصر منذ فتح السلطان سليم الأول لها سنة ١٥١٧م ، واستغل اسماعيل باشا وجود السلطان وأغدق عليه العديد من الهدايا حتي حصل منه علي فرمان سنة ١٨٦٦م بتعديل نظام الوراثة في حكم مصر ليكون في أكبر أبناء اسماعيل – وكان من قبل في أكبر أبناء أسرة محمد علي بشكل عام – كما منح اسماعيل لقب خديو سنة ١٨٦٧م

- وبالطبع قام بإطلاق اسم عبد العزيز علي الشارع الشهير إلي الآن في القاهرة
- ويعتبر اسماعيل هو أول من وضع تماثيل العظماء في الشوارع مثل تمثال والده إبراهيم باشا ، وأنشأ المحاكم المختلطة يشترك في الجلوس علي منصاتها مع المصريين رجال القانون الأجانب ، وقد أصدر الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٤م قراراً بتكوين مجلس شوري النواب وقد افتتحه سنة ١٨٦٦م وكان عدد أعضائه ٧٥ عضواً ويعد هذا المجلس أول خطوة في سبيل إشراك المصريين في شئون البلاد ،
- وكيف قام بكل هذه الأعمال الضخمة ومن أي مصدر صرف عليها ؟
- لتحقيق كل ما سبق كان لابد من توفير الأموال اللازمة فأقدم علي اقتراض المال بدون حساب ، وكان الخديو يعقد القروض بفوائد باهظة ويدفع عمولة للوسطاء ، وفي سنة ١٨٧٥م بيعت أسهم مصر في قناة السويس (وكانت حصتها ٤٤%من الأسهم) بثمن بخس وهو ٤ ملايين جنيه في وقت كانت تساوي فيه أكثر من ٤٠ مليون جنيه ولجأ إلي بيع بعض المصالح الحكومية ورهن البعض الآخر ، ومن هنا بدأ القلق يساور حملة سندات الديون المصرية وراجت حقيقة سوء أحوال مصر المالية الأمر الذي أدي إلي وثوب الأجانب ، فاضطر اسماعيل لتهدئة خواطر دائنيه وتأمينهم علي أموالهم إلي أن يحني رأسه للعاصفة ويتنازل عن كثير من سلطاته ونفوذه ويستدعي الخبراء والبعثات الأجنبية لفحص الحالة المالية في البلاد وطرق إصلاحها ، مثل بعثة كييف وبعثة جوشن وجوبير وصندوق الدين ولجنة التحقيق حتي فرض الأجانب علي الخديو التنازل عن أملاكه وتخصيص مرتب سنوي له وتعيين

وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا نوبريان الأرمني وعضوية السير رفرز ولسن للمالية ومسيو دي بلنيير للأشغال ، ورأي الأجانب –اقتصاداً في المصروفات– توقف المشروعات والإصلاحات لسداد الديون وأرباحها مع زيادة الضرائب علي الأهالي ،

- وكان هذا بالطبع أول تحول سلبي في مسار الخديوي
- تقدم الأعيان وأعضاء مجلس شوري النواب إلي الخديو اسماعيل يطلبون وضع حد للتدخل الأجنبي مطالبين بتعيين حكومة وطنية وكانت استجابة الخديو اسماعيل لذلك الطلب حجر الزاوية في ضغط الدول الأوروبية علي السلطان لعزله ، خاصة أن ألمانيا علي غير انتظار تدخلت ، متهمة الخديو اسماعيل بخرق الاتفاقات الدولية ، وخوفاً من إعطاء بسمارك مستشار ألمانيا ذريعة للتدخل في مصر بجانب اشتداد التيار الوطني حملت إنجلترا وفرنسا السلطان العثماني علي عزل الخديو سنة ١٨٧٩م[٧٥١] ، وما سبق كان ملخص عام لعصر اسماعيل ، ولكن يمكن أن نتناول بعض الموضوعات التي تخصه وتوضح بعض تفاصيل عن عصره ، ولنبدأ مثلاً بشغفه ببناء القصور
- فماذا ورد عن هذا الموضوع في الكتب ؟

الخديوي اسماعيل وشغفه بتشييد القصور

- ورد بكتاب (القاهرة رحلة في المكان والزمان) – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب جمال الغيطاني ما ملخصه : كانت عناية الخديو إسماعيل بتشييد القصور تفوق ما شيده أسلافه من الولاه والسلاطين وأعظمها روعة وجلالاً سراي عابدين وسراي الجزيرة وسراي الجيزة وفي عام ١٨٩٠ أقيمت حديقة الحيوان علي جزء من حدائق سراي الجيزة وهدمت سراي الجيزة عام ١٩٠٣ وتجدر الإشارة إلي أن الملك فؤاد الأول قد ولد بهذه السراي في ٢٦مارس عام ١٨٦٨م ، ويقول محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسي بن هشام عن هذه السراي : ووصلنا إلي قصر الجيزة ومتحف الآثار وملتقي السيارة من سائر الأقطار فدخلنا روضة تجري من بينها الأنهار كأنها الجنة بعينها تحسب أرضها مفروشة ببسط منقوشة ، ثم شاهدنا قصراً يكل عنه الطرف ويقصر دونه الوصف فسرنا نرتاد خلاله ونتفيأ ظلاله فإذا الأسود مقصورات في المقاصير ، فقلت سبحان الله القادر العظيم ، هذا بيت اسماعيل بن إبراهيم ، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ودرجاته منازل للأقدار ، كان إذا نادي صاحبه : يا غلام – شقيت أقوام وسعدت أقوام
- كان إذا نادي صاحبه : يا غلام – شقيت أقوام وسعدت أقوام

---

[٧٥١] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢

- ومن طريف ما يروي أن ولي عهد بروسيا أحد ضيوف إسماعيل باشا في الاحتفالات الأسطورية عام ١٨٦٩ قد أبدي رغبته في مشاهدة قصور الخديوي ، فسأل الخديوي أحد ندمائه الشيخ علي الليثي قائلاً : يا شيخ علي ، إذا أمرتك بمصاحبة ولي عهد مملكة بروسيا فعلي أي القصور تفرجه ؟ فرد الشيخ علي قائلاً : علي قصر الجيزة ، فسأله الخديو : وبعدين تفرجه علي أي قصر ؟ ، فأجاب : علي قصر الجزيرة ، فقال الخديو : وبعدين ؟ ، فأجاب : وبعدين أوديه علي السرايا الصفرا مباشرةً ، فاندهش الخديو من الإجابة وقال : أنت اتجننت يا شيخ علي ؟ فقال الشيخ علي : هو فيه حد يتفرج علي السرايتين دول ولا يتجننش يا أفندينا ، فلم يتمالك إسماعيل باشا نفسه من الضحك وأمر له بجائزة[٧٥٢]
- إنها قصة طريفة بالفعل وتؤكد العديد من المعاني منها فن مسامرة الملوك وأساليب الندماء ، ولكن هل لديك وصفاً لشخص الخديو نفسه ؟
- إن من أفضل الأوصاف لشخص الخديو ما كتبه قنصل أمريكا في مصر في كتابه عن مصر
- فمن يكون هذا القنصل وماذا كتب عن الخديو اسماعيل ؟

الخديوي اسماعيل وتعامله مع الأجانب

- قنصل أمريكا في مصر في الفترة الواقعة بين ١٨٧٦ حتى ١٨٨١ هو "ألبرت لي فارمان"، المعاصر للسنوات الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل؛ الذي إستمر من ١٨ يناير ١٨٦٣ حتى عزله ونفيه خارج البلاد ٢٦ يونيو ١٨٧٩، ومن الآثار المفيدة لهذا القنصل كتابه بعنوان : Egypt and its betrayal، ترجمه الأستاذ عبد الفتاح عنايت بعنوان "مصر وكيف غُدر بها"؛ ويقع الكتاب في ٣٧٧ صفحة و ٢٤ فصلا يصف القنصل الأمريكي "فارمان" بالتفصيل أول واجب قام به في القاهرة، عند وصوله إليها ١٨٧٩، وهو زيارة الخديو إسماعيل، في "قصر الجزيرة" الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة ، بالقرب من حديقة الحيوانات وحدائق النباتات، ويسهب في وصف الخديو إسماعيل: "... رحب بي الخديو في بلاده ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة. لم يكن إسماعيل باشا جذابا من الناحية الجسمانية، كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من بشرة الأوروبيين، أما جفونه فكانت مرتخية، وكانت اليسرى أكثر إرتخاء من اليمنى،وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة، وكانت حواجبه فاحمة اللون، خشنة، كثة الشعر وبارزة إلى الأمام، أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة، وأذناه كبيرتان وليست من الحسن بمكان" .

---

[٧٥٢] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

- لم يكن وسيماً إذن
- لكنه في محاولة لإنصاف إسماعيل يشهد بأنه: "... رغم كل نقائصه و مساوئه الجسمانية كان محدّثا ممتعا، يبتسم في كثير من الأحيان، بشوشا دائما ومُثيرا للإهتمام. كان صوته هادئا يبعث على السرور وألفاظه مُنتقاه ومُعبّرة، فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة، حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق، وإجابته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلا أن يكون ملما بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .... ، أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماما
- كان هذا سلوكه مع الأجانب والله أعلم بسلوكه مع المصريين
- في نهاية هذا الفصل يقول فارمان: "... قبل حفل الإستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرا ماقمت بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموّه .... وكان ينبغي علىّ أكثر من مرّة أن أقوم بواجب غير سار وهو المطالبة غير الرسمية، وإن كانت بطريقة مُلحّة، بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وكانت الحكومة المصرية في ضائقة مالية شديدة ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لابد وأن يسبب بعض الضيق
- هذا عندما كان يأتي الأجانب لزيارته في مصر ، فماذا كان يفعل عندما يسافر خارج البلاد ؟
- (ذهب الخديو –اسماعيل– لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلي عاصمة الإمبراطورية الفرنساوية ولما كان هذا اللقب جديداً علي المسامع ، أقبل الناس يتساءلون : خديو ؟ ما هو الخديو ؟ – – وكان اسماعيل قد ذهب إلي باريس وجيوبه ملأي بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أحدوثة إعجاب الجميع – – ووقع في خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بعث إلي الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين علي عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا)[٧٥٣]
- وما أهم ما يلفت النظر من أحداث تمت في هذه الزيارة ؟
- تحت عنوان فتاة القصر كتب الأستاذ جمال بدوي : (ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس ، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون في مذكراته وهي أن أحد كبار النبلاء دعا الخديو اسماعيل إلي وليمه في قصره بضواحي باريس فأجاب الخديو دعوته وإذا به يري قصراً بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبداً في حوزة غير الملوك فأعجب اسماعيل به

---

[٧٥٣] المرجع السابق صفحة ٢٣٠

أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدي لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل علي تلطفه وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه[٧٥٤] فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل علي شدة احتياجه إلي النقود لا يري في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم ، وتحرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري ، فأجاب : إني قد أبيعه يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات – ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك ، ولكن اسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائرة وقال : إني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه علي أحد البنوك بباريس ولم يجد الرجل مفراً من قبول البيع غير أن اسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل فقال بابتسام جميل مخاطباً والدها : " علي أني لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليداً لذكري استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجردك من قصرك ")[٧٥٥]

- يا لها من مشاعر رقيقة كان المصريون أولي الناس بها ، علي أي حال كم كنت أتمني معرفة بعض المعلومات عن حفل افتتاح قناة السويس بمناسبة الحديث عن الخديو اسماعيل

<u>افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد الخديوي اسماعيل</u>

- هذه هي البيانات الرسمية المصرية عن سير العمل في قناة السويس إلي يوم افتتاحها كما جاءت في تقويم النيل لصاحبه أمين سامي باشا المؤرخ المشهور وقد أوردها الأستاذ العقاد في كتابه ضرب الإسكندرية الذي نشرته دار المعارف : ١ – كان مبدأ العمل في حفر قنال السويس حصل في بورسعيد يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ الموافق ٢١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ ، ٢ – صرفت شركة مساهمة القنال في برزخ السويس ٤٨٠ مليوناً من الفرنكات بما في ذلك أماكن العمال وبناء مدينتي بورسعيد والإسماعيلية والمحاط والمكافآت التي كانت تعطي زيادة علي المرتبات ، ٣ – بلغ عدد العمال الوطنيين الذين أعدتهم الحكومة لهذا العمل بدون أجرة (سخرة) ٢٧٠٠٠ نفس ، وأما عدد المستأجرين والمستخدمين فبلغ خمسة آلاف نفس تقريباً ، ٤ – بلغ طول القنال من بورسعيد إلي السويس (محطة توفيق) ٨٧ ميلاً ، ٥ – حصل الاحتفال بالسفر فيه يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد حضر هذا الاحتفال كل من جلالة إمبراطورة فرنسا ، وجلالة إمبراطور النمسا والمجر ، الأمراء أولياء عهد الروسيا وبروسيا وهولندة ، وحضر أيضاً بالنيابة عن دولة إنجلترا رئيس عمارة حربية ،

---

[٧٥٤] لاحظ مراعاة إحساس واحد فرنسي نبيل وعدم مراعاة الحياة الكريمة للفلاحين المصريين علي كثرتهم

[٧٥٥] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٣١

٦- وأول سفينة تجارية مرت بالقنال بعد الاحتفال بافتتاحه دافعة عوائد المرور باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونولاته هي السفينة المسماة " أمبيراتريس " [٧٥٦]

- إنها معلومات طريفة وجديدة بالنسبة لي كما أنها تتسم بدقة الأرقام والتفاصيل ، ولكن لم تكن هذه المرة الأولي التي تقرأ لي من هذا الكتاب الممتع للعقاد
- نعم إنه كتاب ممتع جداً والطريف أنه يتناول قناة السويس وأسرة محمد علي والاحتلال البريطاني لمصر وما إلي ذلك من موضوعات شيقة ،
- فماذا عن الاحتفالات الأخري التي اشتهر الخديو اسماعيل بإقامتها
- هناك بالطبع الاحتفالات الشهيرة التي أقامها بمناسبة زواج أنجاله
- من المؤكد أنها كانت رائعة ، فهل لديك وصف لها ؟

أفراح الأنجال

- عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله في كتابه الممتع أنا المصري ما ملخصه : من الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق في وصف أبيه إسماعيل : لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفخته السنية - وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل ، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلي جانب ليالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية ،
- ليالي اسماعيل تشبه ليالي ألف ليلة وليلة ، سبحان الله
- كان إسماعيل يلتمس - بل يفتعل - المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات ، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفراح الأنجال فاقت الأولي في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوماً بلياليها ، ولا ننسي أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة ،
- كم كان عددهم ؟
- الأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة ، أولهم ولي العهد توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعد قطعه لها ، ولهذا الوعد قصة طريفة ،
- وما هي قصة هذا الوعد ؟
- بدأت القصة عندما كان الخديو يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات ، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها علي الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب الخديو

---

[٧٥٦] نقلاً عن كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد - صفحة ٨٢ ، ٨٣ - طبعة الثانية ١٩٨٣ - دار المعارف

لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور : واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وانبسطت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها ، وضحك قائلاً : أجل أجل لن أنسي وعدي واختارها زوجة لابنه حسن ،

- واضح أنها كانت فتاة ذكية
- أما الابنة الوحيدة التي احتفل الخديو بزواجها فهي الأميرة فاطمة وهي التي سجلت اسمها في التاريخ بسبب التبرعات القيمة التي قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية ، ووقائع أفراح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل إلياس الأيوبي نقلاً عن الكتاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفراح ،
- الكتاب الأوروبيون هم من كتبوا عن هذه الإحتفالات شئ عجيب جداً
- بدأت الاحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوماً بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال ، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلي قصر الجزيرة ، إلي سراي القبة ، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان ، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع ، فسطعت الأضواء حتي جعلت القاهرة شعلة من النور ، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة عبده الحامولي ، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلي العرائس من القصر العالي وبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة ، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلائد من الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولي عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة[٧٥٧]
- لا أستطيع التعليق علي كل هذا البذخ ، ولكن لماذا يتم استعراض الهدايا في موكب أمام عامة الشعب ، ألا يكفيه أن يري الزينة والأنوار ؟
- لديك كل الحق فلم يكن هناك داعي لأن يري الناس كل هذه الهدايا الثمينة
- ألم يكن هناك شخص واحد في مصر قادر علي أن يقول رأيه بصراحة للخديو اسماعيل ؟
- أعتقد أن الخديو اسماعيل كان آخر من حكم مصر حكم مطلق دون مراعاة لأي ضغوط داخلية أو خارجية ، وذلك علي الأقل إلي أن تم التدخل الأجنبي في مصر بسبب استفحال الديون ، وحتي السيادة العثمانية كانت شكلية إلي حد كبير ، فكان يفعل ما يشاء في مصر دون أن يحاسبه أحد في الداخل

---

[٧٥٧] نقلاً باختصار عن كتاب –أنا المصري– للمؤرخ الكبير جمال بدوي – هيئة الكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ – مقتطفات مختصرة من صفحة ١٠١ وما بعدها

والخارج ، أما بعد انتهاء عصر اسماعيل والاحتلال البريطاني فقد أصبحت مصر مقيدة بقوي خارجية تعمل لها مصر ألف حساب ربما إلي الآن

- إذن فقد كان اسماعيل هو من يصح أن نطلق عليه الفرعون الأخير بالفعل
- ومع ذلك فقد أحرجه أحد شيوخ الأزهر أمام الجميع ، وهي قصة طريفة وردت في أكثر من مرجع
- وكيف حدث ذلك ومن هو هذا الشيخ ؟

البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل

- إنه الشيخ توفيق محمد خليفة، الذي عُرف بـ''توفيق البتشتي''، وينسب إسمه إلى مسقط رأسه مركز أبو تشت، أول مراكز محافظه قنا ١٨٧٧، وقد كان الشيخ توفيق البتشتي، من الطراز المتميز في تفكيره وطريقة تعبيره وأسلوبه في عرض المسائل العلمية، مما حبب الطلاب فيه، فاتسعت حلقات دروسه، وضاق المكان بالراغبين في علمه، وانفرد برقعة شاسعة من الأزهر، ساعده فيها صوته الجهوري وحنجرته القوية ، وعُرف عنه أنه يرفع راية الحق لا يخشى حاكمًا، ولا يتملق سلطانًا، فحين وقعت الحرب بين مصر والحبشة، في عهد الخديوي إسماعيل، وتوالت الهزائم، وضاق صدر الخديوي، فقال له شريف باشا رئيس النظار: إذا لجأت إلي علماء الأزهر الأطهار وقرأوا البخاري يفرج الله الكرب وينتصر الجيش، فكلم الخديوي الشيخ العروسي، شيخ الأزهر، فجمع له من العلماء الصالحين، وأخذوا يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ولكن أخبار الهزائم ظلت تتوالى وانتصارات العدو تتعاظم، فرجع الخديوي إلي العلماء واتهمهم بأن ما قرأوه إما ليس صحيح البخاري، أو إنهم ليسوا علي مستوى سلفهم الصالح، فسكت العلماء وصرخ البتشتي من آخر الصف ''هُزمنا منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي (ص) إنه قال: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.''
- يا له من شيخ جرئ حقاً ، فماذا كان رد فعل الخديوي ؟
- أطرق الخديوي، وانصرف ومعه شريف باشا، ثم رجع أحد مماليكه يطلب الشيخ المتحدث واصطحبه معه إلي القصر، وطلب منه الخديوي أن يعيد ما قاله، فأعاد الشيخ حديثه وشرحه، فتساءل الخديوي: ماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء؟ فأجابه الشيخ بأن قوانينه تبيح الزنا وترخّصه وكذلك الخمر، فبرر الخديوي بأن تلك العادات نُقلت لهم من –أوروبا–، فرد الشيخ ''إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء''، فصمت الخديوي وصدّق على كلامه وكافأه على جرأته[٧٥٨].

---

[٧٥٨] نقلاً باختصار عن موقع حكاية الجنوب – تحت عنوان البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل– بقلم سعيد عطية

- إن هناك فرق كبير بين أحوال مصر قبل عصر اسماعيل وأحواله بعد عصره ، ولقد اعترف بنفسه أنه قام بنقل عادات أوروبا إلي مصر بحلوها ومرها حتي وصل الحال لما وصفه الشيخ بقوله أن القوانين تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر وهو لم يكن مقنناً أبداً في مصر قبل ذلك
- لقد كان هناك فرق كبير جداً بين من أحضرهم محمد علي باشا من أوروبا إلي مصر وبين من حضروا في عصر اسماعيل ، فقد كان محمد علي ينقل الخبرات والحضارة والعلم وكل ما ينفع مصر أياً كانت نواياه وأهدافه ، أما اسماعيل فقد حضر في عهده المرابين وتجار الأعراض وحثالة أوروبا ، وشتان بينهم وبين سليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك وغيرهم ممن أفاد مصر في عصر محمد علي
- إنه شئ محزن بالفعل لأن عصر اسماعيل أثر علي مصر وشعبها وترك عادات نعاني منها حتي الآن

الخديوي اسماعيل يقلد أوروبا

- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا المعني فقال ما ملخصه : (كان أقصي ما يريده اسماعيل أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجري القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً)[٧٥٩] ، (ومضي اسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايخ الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر ولم تكن هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين)[٧٦٠]
- سبحان الله ، منذ ذلك العصر كانت هناك مقالات مدفوعة الأجر ، فما قصة مجلس النواب الذي تم تأسيسه في عصر اسماعيل ؟
- لقد كان يريد اسماعيل أن يتباهي أمام ملوك أوروبا بأن لديه برلمان مثلهم ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه من هذا البرلمان ، فكأنما قام بتحضير عفريت ولم يتمكن من صرفه كما يقولون
- فماذا حدث ؟

---

[٧٥٩] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

[٧٦٠] محمد علي وأولاده(جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا الموضوع ما ملخصه : (هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية : أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين – الإنجليزي والفرنسي – لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية وإصلاح مفاسد الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجنبيين)[٧٦١] وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة
- لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الاعتصام الذي قام به النواب في عصر اسماعيل
- لقد كان هذا درساً للحكام بعد ذلك كما سنري في عهد الملك فؤاد ، فقد كان عندما يحل المجلس يقوم بإرسال قوات تحاصره حتي يمنع الأعضاء من الاجتماع والاعتصام به ، ومع ذلك كانوا يجتمعون في أماكن أخري ، والآن لقد حان الوقت لنترك الحديث عن الخديوي اسماعيل ونتحدث عن عصر ابنه توفيق
- لا مانع ولكن أريد أن نتوقف قليلاً عند التوغل الأجنبي في مصر في عصر أبناء محمد علي ، لأنه موضوع خطير أدي إلي وجود محاكم خاصة بهم وامتيازات خاصة بهم في مصر
- إن ما حدث يسمي الاستعمار الإستيطاني وقد كتب عنه الدكتور جمال حمدان
- فماذا كتب عنه ؟
- ورد عن هذا الموضوع في كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان ما ملخصه : كانت خطوط الملاحة ، وكل أنواع السفن تنقل حمولاته البشرية النهمة ، لتلقي بها علي أرصفة الإسكندرية ، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه ، – كذلك فلعل منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي ، لكن تلك هي الأقلية النادرة ، الاستثناء الشاذ ، فالمسلم به حتي بإجماع المؤرخين الأوروبيين أنفسهم ، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط ، فتقريباً معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأفاقين ، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو

[٧٦١] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٥٠

حرفة أو مهنة غالباً وبلا أخلاق علي الأغلب وعلي الأفضل من المرابين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريباً لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام ، والحرام بالدرجة الأولي ، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل

- يا لها من كارثة حلت بمصر
- ومما له دلالته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتي أكثرهم احتراماً بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه - - - ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلي أننا إلي حد بعيد إزاء مافيا عظمي ، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية ، علي قمة المجتمع الضحية ، لا في قاعه كما ينبغي علي الأقل ، وهذا بدوره ما يضع أيدينا علي خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر ، - - ، وعلي الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر كانت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عموماً هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة ، وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالاً أفضل منهم ، فالصحيح أيضاً أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل ، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتحضير والاحتكاك الحضاري والأورية فإنه حقاً لثمن باهظ جداً بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر مادياً ومعنوياً ، إنسانياً وبشرياً في سبيل الحصول علي الحضارة الحديثة ، فعلي المستوي المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلي جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة علي قمة الهرم الاجتماعي الوطني ، كمجتمع فوق المجتمع ، بل ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلي دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها الجديدة نوعاً من الامتيازات الإقليمية التي عرفتها مواني الشرق الأقصي في وقت معاصر - - من ناحية أخري ، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضاً مجتمعاً معزولاً مغلقاً علي نفسه ، أشبه بالمعسكرات ، غير قابلة للاختلاط -التزاوج- أو الذوبان في المجتمع الوطني حتي مع الأقباط ، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار جزر أوروبية فرضت علي الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا في مصر ، التي لم تصبح بهم علي أية حال قطعة من أوروبا
- إن ما كتبه د جمال حمدان يعبر عن مأساة كبري عاشتها مصر بعد انتهاء عصر محمد علي وإبراهيم وعباس الأول بلا شك وتزايدت وتعاظمت في عهد اسماعيل ،
- بالفعل لقد أصبحت هذه الأمور في نهاية عصر أسرة محمد علي من المسلمات وخاصة في عصر فؤاد وفاروق بعد ذلك كما سنري إن شاء الله
- حسناً يمكننا الآن أن نبدأ الحديث عن الخديوي توفيق الذي قام السلطان العثماني بتعيينه بعد أن عزل اباه ، والذي في عهده تم الاحتلال البريطاني لمصر إثر قيام الثورة العرابية كما هو معروف

عندما تولي الخديوي توفيق حكم مصر

- هو محمد توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ، ولد يوم الخميس ١٠ رجب سنة ١٢٦٨ هـ الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٥٢ م ، ولما شب وترعرع ألحقه والده بمدرسة المنيل فتلقي فيها العلوم الأولية ، ثم انتقل إلي المدرسة التجهيزية فتلقي فيها علومها ، ودرس اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية وتزوج سنة ١٨٧٣ بالأميرة أمينة إلهامي كريمة الأمير إبراهيم إلهامي نجل عباس باشا الأول ، ولم يتزوج من غيرها ، ورزق منها سنة ١٨٧٤ بالأمير عباس حلمي – الخديو عباس حلمي الثاني – وفي سنة ١٨٧٦ بالأمير محمد علي
- الأمير محمد علي صاحب القصر الشهير في المنيل بجزيرة الروضة ؟
- نعم ، ثم رزق منها بالأميرتين خديجة ونعمت ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قلده أبوه رياسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء ، ثم ولي وزارتي الداخلية والأشغال ومرن قليلاً علي أحكام الإدارات والدواوين ، ثم قلد رئاسة الوزراء في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ عقب سقوط وزارة نوبار باشا حين اشتد النزاع بين اسماعيل والدول الأوروبية ، وكانت هذه الوزارة تضم وزيرين أوروبيين ، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي ، ولم تدم طويلا إذ قام الخلاف بينها وبين مجلس شوري النواب ، واستهدفت لحركة معارضة قوية انتهت بسقوطها وتأليف وزارة محمد شريف باشا الأولي في سنة ١٨٧٩ ، وهي الوزارة التي بقيت تتولي الحكم إلي أن خلع اسماعيل ، فلما ورد النبأ البرقي بخلعه يوم الخميس ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ تلقي توفيق باشا في اليوم ذاته نبأ إسناد منصب الخديوية إليه ، وكانت سنه إذ ذاك ثماني وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام ، فأقيمت حفلة تنصيب في مساء ذلك اليوم بالقلعة ، وكان يوماً مشهوداً ، فتوجه من سراي الإسماعيلية إلي القلعة يصحبه في عربته أخواه الأمير حسين كامل باشا – السلطان فيما بعد – والأمير حسن باشا ، وشريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، تتبعه عربات الأعيان والكبراء وقناصل الدول ، وابتدأ إطلاق المدافع إيذاناً بتحرك الموكب من سراي الإسماعيلية ، وأطلقت مائة مرة ومرة ، اتباعاً للرسوم المعتادة ولما بلغ سراي القلعة جلس في قاعة التشريفات وكان بها كبار العلماء والموظفين والقناصل والأعيان ، وتلقي تهاني المهنئين بجلوسه علي العرش ، وبعد الفراغ من الحفلة أطلقت المدافع ثانية مائة مرة ومرة ، وعاد الخديو إلي سراي الإسماعيلية ، ولم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل علي اتجاه معين في سياسته ، علي أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهده خيرا من عهد اسماعيل ، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب إسراف أبيه وتورطه في القروض ، وتولي الوزارة في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسبب هذا الإسراف ، ورأي بعينه ما فرضته إنجلترا وفرنسا علي أبيه من أن يكون لهما وزيران يمثلانهما ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين ، وكان له في استقامته الشخصية وميله إلي الاقتصاد ما يجعله بمنأي عن أخطاء أبيه

- فما هي مشكلته إذن ؟
- علي أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته ، وهي أنه كان ضعيف الرأي مترددا ، قليل الشجاعة والحزم ، فاستشعر الخوف من النفوذ الأوروبي من يوم توليته الحكم ، وكان همه الأول طوال عهده النزول علي إرادة الدول الأوروبية ، ولم يكن مؤمناً بالنظام الدستوري ، بل كان في خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق ، ومن ذلك كله تولدت في عهده الأزمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعواقبها ما حدث في عهد أبيه ، وفي الحق أن اسماعيل كان أكثر شجاعة واقداما من توفيق ، ولو كان توفيق يجمع إلي خصاله الطيبة شجاعة أبيه ، وجرأته وعلو همته لنجت البلاد من الكوارث التي وقعت في عهده ، ولتغير مجري التاريخ القومي إلي خير مما كان وأقوم ،
- كان اسماعيل حاكم قوي ولكن له تجاوزات خطيرة ، أما توفيق فقد له خصال طيبة لكنه كان حاكم ضعيف ،، سبحان الله
- كان محمد شريف باشا ، الوزير المشهور رئيسا للوزارة حين ولي توفيق باشا الحكم ، فقدم استقالته جريا علي العادة المتبعة عند تغيير ولي الأمر ، ولكن توفيق باشا رغب إليه في البقاء وتأليف الوزارة مرة أخري ، وكتب إليه في هذا الصدد بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٧٩ كتابا رقيقا يؤكد فيه ثقته ويعرب عن آماله في الإصلاح ، قال فيه : يا وزيري العزيز ،،،،، لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة ، ولا أزيدك بحقيقة الحال علماً ، ولما قضت العناية الأزلية بتوليتي أمر بلادي جعلت علي واجبات ليس من همي إلا النهوض بها بأمانة وشهامة علي علمي بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب المتراكمة علي مع الارتباك والفترة المالية التي انزعجت منها الخواطر إذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة في البلاد لم تقع في مصر من قبل ، علي أني عظيم الميل إلي بلادي شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بولايتي وفي إخراجها من هذه الحال السيئة ، ومع هذه العواطف فإني عازم عزما أكيدا علي بذل الجهد وصرف الهمة إلي التماس أحسن الوسائل لإزالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانوني في نفقات الحكومة ورعاية الأمانة والاستقامة في الخدمة العمومية وإصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الإدارية ، تلك هي الوسائل الأولي التي يهمني اتخاذها لتقوي بها المملكة علي استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وإنجاز وعودها ووفاء عهودها ، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف علي مساعدة الأمة بجملتها ووجود الغيرة الوطنية في قلوب مأموري الحكومة وصدق العزيمة في الذين يساعدونني علي إدارة الأعمال مسئولين عما يفعلون ، ويقيني أن لا أفقد هاته المساعدات ولا أعدم من الله الكريم مدداً وأنك ستنهض بما كلفتك به علي الوجه الموافق لنيتي وللغاية التي أسعي إليها ، فاقبل يا وزيري العزيز تأييد مودتي الصادقة ،،،،،،،،، محمد توفيق[٧٦٢]

---

[٧٦٢] نقلا عن كتاب – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي – تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

- إنها رسالة رقيقة بالفعل ولكن لا أدري لماذا أشعر من كلامه بمدي قلقه مما هو قادم عليه ، ولكن قبل أن نستكمل الحديث عن أهم الأحداث في عهده ، هل توجد أي مواقف طريفة حدثت في عهده تشبه ما كان يحدث في عهد أبيه
- يحضرني موقف طريف كتبه الأستاذ يحيي حقي كالآتي : - - مر الخديو توفيق بالقطار الملكي علي منفلوط ذات يوم وخرج الأعيان لاستقباله بالمحطة وتقدم إليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقي بين يديه قصيدة للترحيب ، فتنازل الخديو وأذن له ، وربما فعل لعلمه بأن القطار لن يقف بالمحطة إلا دقائق معدودة ، ولعله كان يعرف الشاعر إذ كانت له شهرة مستفيضة في خفة الدم والظرف والفكاهة ، وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتاً بعد بيت ، والخديوي يهز رأسه بالرضي والإعجاب ، ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل في قرب الختام ، فتململ الخديوي وانتقل غليان القاطرة وضجرها إليه بالعدوي ، فقاطع الشاعر قائلاً بضيق يقنعه بابتسام : - هي القصيدة كام بيت يا شيخ أبو النصر ؟ ، فأجابه كلمح البرق : - ٩٩ يا أفندينا ، هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالاً لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان ، فارتفع حاجب الخديوي واختلجت عينه وقال بعجب : - طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ ، فكان الرد أسرع من سابقه : - أصلي ناقصني بيت يا أفندينا ، ففهم الخديوي - - هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتاً في منفلوط ، مكافأة للشاعر علي لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه -علي الأقل- من قصيدة لا تنتهي[٧٦٣]
- أقطعه بيت في منفلوط ، إن هذا الموقف يجعلك تشعر بأنه قد ورث مصر عن أبيه وأجداده ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يقول الأستاذ محمود السعدني في كتابه الرائع (مصر من تاني) : (وفي هذه الأثناء مر علي مصر رجل كالأنبياء ، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسالم وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت الثورة حرفته علي مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه في تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبي علي هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتهم كل شئ ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة ، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتي ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطاً من أنواع شتي ، طالب الدين محمد عبده ، - - والشاعر محمود سامي البارودي ، والفلاح محمد عبد العال

---

[٧٦٣] نقلاً عن كتاب خليها علي الله للكاتب الكبير يحيي حقي - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - صفحة ٢٣١-٢٣٣

الصعيدي ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولفتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة)[٧٦٤] وتم القبض علي الأفغاني وإبعاده عن مصر

- إن كلمات الأفغاني فيما أعتقد كانت تعبر أبلغ تعبير عن ما يحدث في مصر ، وطالما وصلنا للحديث عن عرابي ، فقد حان الوقت للحديث عن الثورة العرابية ، فماذا لديك عنها ؟

[٧٦٤] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ١١١

الفصل رقم (١٦) الاحتلال البريطاني لمصر

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي

- أعتقد أن هناك تلخيص بليغ لأحداث الثورة العرابية ورد في مقدمة كتاب عبد الرحمن الرافعي ، وهذا التلخيص قد يغنينا عن الكثير من الكلام عن هذه الثورة ، حيث كتب ما يلي : - - - للثورة العرابية كما لكل ثورة أنصار وخصوم ، فلها أنصار يتحيزون إليها ويسوغون مواقفها كلها علي السواء ، ويدافعون عن رجالها في كل ما عملوا ، كأنهم علي حق في الخطأ والصواب جميعاً ، ولها خصوم يتحاملون عليها فينكرون حسناتها ويعدون عليها السيئات ، وإنك لتلمح هذا التحامل أو ذلك التحيز فيما تطالع من مختلف المؤلفات والمذكرات عن الثورة العرابية ، ولقد بدا لي إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لأنتهي إلي رأي يهدي إليه البحث والتمحيص ، وهذا ما أدعو إليه كل محب للحقيقة ، وبذلك نجلي الغموض الذي يلابس كثيراً من حوادث الثورة ، ونجعل منها صفحة واضحة من عبر الماضي ، فإن التجارب خير هاد إلي ما ينفع الأمم في حياتها القومية ، وهي العلم الذي لا يعلمه إلا الزمن ، علي أني حين أخذت في دراسة الثورة قد اختلج في نفسي شعور ملازم من العطف عليها ، لأنها علي ما كان من نهايتها فإنما قامت في الأصل لغرض نبيل هو إنقاذ الأمة من مظالم الاستبداد ، وإقامة قواعد الحكم الدستوري ، وتحرير البلاد من التدخل الأجنبي ، لكن هذا الشعور لم يصرفني عن تعرف أخطائها وزلاتها ، وبخاصة أخطاء زعمائها وأقطابها ، لأن هذه الأخطاء كان لها دخل أيما دخل فيما صارت إليه من الحبوط والإخفاق ، وخلاصة ما انتهيت إليه في هذه الناحية أن للثورة مرحلتين مختلفتين ، فالمرحلة الأولي تبدأ بظهورها علي عهد وزارة رياض باشا في فبراير ١٨٨١ ذلك حين اعتقلت الحكومة أحمد عرابي وصاحبيه علي فهمي وعبد العال حلمي -- فثار زملاؤهم -- وأطلقوا سراحهم ، فاضطربت الوزارة لهذا الحادث الجلل ، واضطر الخديو توفيق باشا إلي الإذعان لمطالب الثوار ، فاستقال عثمان رفقي باشا وزير الحربية ، وعين بدله محمود باشا سامي البارودي الذي كان موضع ثقة العرابيين ، فكان ذلك أول انتصار للثورة ، وبعد فترة من الهدوء الظاهري عادت الحرب سجالاً بين الخديو - - والعرابيين فكانت الوقفة الشهيرة للثورة العرابية - - في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقدموا للخديو مطالبهم - - ، وأهم هذه المطالب سقوط وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس النواب ، فاضطر الخديو إلي النزول علي حكمهم ، واستقالت وزارة رياض ، ثم عهد الخديو إلي شريف باشا تأليف الوزارة تحقيقاً لإرادة العرابيين ، فألف شريف وزارته الدستورية ، ودعا إلي إنشاء مجلس نيابي كامل السلطة ، فاستجاب له الخديو وأمر بإجراء الانتخابات العامة ، وانتخب مجلس النواب
- تم انتخاب مجلس نواب ؟

- نعم ، وافتتحه الخديو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ فكان افتتاحه يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة القومية ، وأخذ يضطلع بمهمته ، تتعلق به الآمال وترنو إليه الأبصار ، وعرض عليه شريف باشا الدستور الذي وضعه سنة ١٨٧٩ ليقر ما رآه في شأنه ، أي أنه جعل من المجلس جمعية تأسيسية تضع الدستور وتقره ، وبذلك نالت البلاد مجلساً نيابياً تتمثل فيه سلطتها الدستورية والتشريعية
- رائع
- إلي هنا سارت الأمور سيراً حسناً ، فكانت علي صراطها المستقيم ، وانتصرت الثورة علي طول الخط ، وحققت أمال البلاد ، ولكنها استهدفت لدسائس السياسة الاستعمارية التي لم تكن تنظر بعين الرضا إلي قيام النظام الدستوري في مصر ،
- بالتأكيد فالنظام الدستوري في مصر لن يكون في صالح إنجلترا وفرنسا
- فأخذت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلقيان العقبات والعراقيل في سبيل استقرار هذا النظام ، وتنتحلان لأنفسها التدخل في شئون البلاد ، وكان أول مظهر لهذا التدخل مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التي قدمتها الدولتان وقوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا علي تأييد سلطة الخديو ، ثم عارضتا في تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، بحجة أن تقريرها يمس حقوق الدائنين أو ينال منها ، وهي حجة واهية ظاهرة البطلان ، لما تضمنه الدستور من أن المجلس يراعي في تقرير الميزانية العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة إزاء الدول ،
- بالتأكيد كان بقاء الميزانية في يد الخديوي من مطالب انجلترا وفرنسا ، فمن السهل السيطرة عليه ولكن من المستحيل السيطرة علي مجلس نواب منتخب يعمل لصالح البلاد
- واجهت البلاد أزمة سياسية خطيرة نشأت عن تقديم مطالب الدولتين ، وكان مجلس النواب ينظر وقتئذ في الدستور الذي عرضه عليه شريف باشا تمهيدا لإقراره ، فرأي شريف باشا ، درءاً للأزمة أن يؤجل مجلس النواب قراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية ، ويرجئها إلي حين ، حتي تنجلي الغمة ويفاوض الدولتين في مطالبهما ، والتأجيل في ذاته لم يكن مضيعاً لحقوق الأمة في الدستور ولا مخلاً به ، لأن وضع الدستور في صيغته النهائية قد يستغرق وقتا يطول أو يقصر علي حسب الأحوال والملابسات ، فكان من المستطاع اتقاء الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة ، ولكن ظهر في الميدان عامل جديد كان له أثره في تطور الأحداث ،
- وما هو هذا العامل من وجهة نظر الرافعي ؟
- هو طموح محمود باشا سامي البارودي في رئاسة الوزراء ، ورغبة العرابيين في التخلص من شريف باشا ليجعلوا الوزارة مؤلفة من خاصة رجالهم ، فاتخذوا من طلبه تأجيل البت في مادة الميزانية وسيلة لتوهين مركزه ، وبدت منهم الرغبة في إقصائه عن الحكم ، – – ، مما دعاه إلي تقديم استقالته ، فقبلها الخديو وتألفت وزارة البارودي ، ومن ثم ابتدأت المرحلة الثانية للثورة

- فترة اضمحلال الثورة
- ومن رأيي أن الثورة أخذت تتعثر في سيرها منذ بدء هذه المرحلة ، وأن زعماءها أخطأوا في تنحية شريف باشا عن الحكم لأنه كان أقدر من سواه علي معالجة الأزمات وإحباط الدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، كانت هذه الدسائس والمؤامرات أهم العوامل في إخفاق الثورة العرابية ، إذ لا نزاع في أن الحكومة الإنجليزية قد انطوت علي نية نمت عليها الحوادث التي تعاقبت في ذلك العهد وهي خلق الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد ، علي أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من أشراكها أو علي الأقل تخفف من عواقبها ، ولو أنها عرفت كيف تواجهها ، فإنه ما من أمة إلا وهي عرضة لمؤامرات خصومها المتربصين بها ، وليست تخلو أمة من أحداث تستهدف لها في حياتها السياسية والقومية ، وأنما يختلف مصير الأمم تبعاً لمقدرة كل منها علي مواجهة الأزمات والتغلب عليها ، وعندي أن أول ما استعانت به السياسة الإنجليزية في تدابيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعرابيين ،
- الانقسام ، هذه الكلمة من أكثر الكلمات وروداً في تاريخ مصر
- إن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الإنجليز ، كما أنه أضعف قوة المقاومة في البلاد ، إذ انقسمت إلي معسكرين كلاهما يبغي الكيد للآخر ويضمر له ، في وقت كان الإنجليز يعدون فيه العدة للقضاء علي المعسكرين معاً
- القضاء علي المعسكرين معاً
- يضيف الرافعي : - - ولا تتسع مقدمة الكتاب للإسهاب في تفاصيل هذا الانقسام ن ولكني أذكر هنا خلاصة رأيي في هذا الصدد ، وهو أن العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه ، وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته ، ففي الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول أن الموقف قد تغير منذ ضرب الإسكندرية
- يقصد بداية الاحتلال البريطاني لمصر ؟
- نعم - - إذ انحاز الخديو إلي الجيش الإنجليزي وساعده علي التغلغل في البلاد ، فهو المسئول عن هذا الموقف ، علي أن الذي يؤخذ علي العرابيين في مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير في الأمة روح الإقدام والتضحية مما هو أخص واجبات زعماء الثورة في ساعة الخطر
- وما الأسباب التي جعلت العربيين لا يوافقون علي شريف باشا ، هل كانوا بالفعل يطمعون في السلطة؟
- طموح العرابيون إلي السلطة كان رأي الرافعي ولكن هناك رأي آخر يقول : (أدركت القوي الاستعمارية مدي اتساع وعمق وقوة الثورة وكان عليها أن تناور الثورة لتطويقها وهي خطة استعمارية تقليدية ، أي أن تقبل تلك القوي المطالب الشكلية للثورة في سبيل ضرب الثورة وإلهائها عن مطالبها الجوهرية ، والمطلوب الجوهري للثورة كان تصفية النفوذ الأجنبي ، - - وما دام مد الثورة قد أصبح عالياً جداً

فلابد من تقديم حكومة وطنية ولكن غير ثورية ، أي تقديم حكومة لا يرفضها الثوار ولكنها حكومة عاجزة عن إدارة الصراع مع النفوذ الأجنبي بالأسلوب الثوري أي بالأسلوب القادر علي إنهاء هذا النفوذ وهكذا جاءت وزارة شريف باشا ، شريف باشا يمثل قطاع من الوجهاء يؤمن بالحياة النيابية ويؤمن بالدستور ويحاول أن يحقق نوعاً من الاستقلال ولكن عن طريق المناورات السياسية والنضال القانوني واللعب علي التناقضات الدولية

- وأعتقد أن هذا أسلوب الرافعي نفسه كسياسي لذلك كان مع استمرار شريف باشا في الوزارة
- وإذا كانت القوي الاستعمارية بداهة لم ترد ولن تريد للشعوب المسلمة أو المستضعفة شيئاً من الحرية ولا الحياة النيابية فإنها في ظروف المد الثوري يمكن أن تقبل بهذه الأشياء بهدف كسب الوقت وتهدئة الثوار تمهيداً لتصفيتها فيما بعد ، وكانت وزارة شريف هي النموذج الأمثل لهذا الأمر في ذلك الوقت ، وهذا الأسلوب كان هو الشئ الوحيد المتاح لإيقاف عجلة الثورة - - - كان شريف باشا هنا هو نقطة التوازن بين جميع القوي فهو أولاً يمثل طائفة من الوجهاء والمثقفين لا ترتبط بمصالح مع الشعب الثائر وهي أيضاً أوروبية الثقافة والأساليب ، وهي ثالثاً لا تملك ولا ترغب في إثارة الجماهير ودفعها للثورة أو حتي المشاركة في الحياة السياسية وهي رابعاً بحكم ما لها من رصيد وطني أقدر علي تطويق الثورة ، ثم هي خامساً يسهل فيما بعد تصفيتها أو رشوتها بحكم ما لها من مصالح ، وهكذا نجد مثلاً أن جميع القوي رحبت بها - - والخديوي رحب بها علي أساس أنها الأقدر علي تخليصه من عرابي وقوي الثورة ، والجاليات الأجنبية وقناصل الدول رحبت بها لأنها تعرف أنها لا خطر منها)[٧٦٥]
- وقد وافق بالطبع الثوار علي شريف باشا حتي بدأ أولي مناوراته السياسية بشأن الدستور وقرروا أن يكون الحل ثوري وليس سياسي فضغطوا عليه حتي استقال
- نعم وباستقالته تأكد للإنجليز أنه لا بديل عن الحل العسكري في مواجهة الثورة
- فكيف تم ضرب الإسكندرية ؟

كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢

- يقول الأستاذ جمال بدوي : (---- في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف

[٧٦٥] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

بحثاً عن مأوي بقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلاها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة - -)٧٦٦ ، - - - وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء)٧٦٧

- دائماً يقتلون أكثر مما تستدعي الحاجة للقتل
- كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنئة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ")٧٦٨
- التعصب الإسلامي ، سبحان الله
- يضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يتملكك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر)٧٦٩
- وتم احتلال مصر برعاية أحد أحفاد محمد علي باشا
- (لم تكن مهمة جيش الاحتلال الإنجليزي مهمة سهلة ولم يكن احتلاله لمصر نزهة عسكرية ، كانت هناك معارك حقيقية وكبيرة وكانت هناك بطولات وكان هناك جنود وضباط شجعان فعلوا كل ما في

---

٧٦٦ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

[٧٦٧] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٩

[٧٦٨] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

طاقتهم وكان هناك شعب عظيم قدم كل ما يمكنه من الدعم ،، كان الجيش الإنجليزي يتكون من ٥٠٦٠٠جندي مسلحين بأحدث الأسلحة وأسطول ضخم في مواجهة جيش مكون من ١٣ ألف جندي وعدد من الاستحكامات والطوابي متخلفة عن العصر في تسليحها وعدد من الخونة يعملون داخل صفوف الجيش لحساب الخديوي والإنجليز ، ومع ذلك أو قل ورغم ذلك ، صمد الجيش في حدود المستطاع ، – – – ويقول وكيل القنصل اليوناني بالإسكندرية : أنني لا أملك سوي الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات في مواقعهم ، كانوا شجعان يصمدون لغارات جبارة ، وبالقرب من الإسكندرية كانت معارك صمد فيها الجيش المصري صموداً مذهلاً ، ففي واقعة الرمل بالقرب من كفر الدوار صد المصريون ثلاثة هجمات إنجليزية يصفها الرافعي بقوله : وهجم المصريون علي الإنجليز هجوماً شديداً واضطروهم إلي التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف ، وفي واقعة عزبة خورشيد ٧ أغسطس ١٨٨٢ صمد المصريون صموداً باسلاً ودافعوا دفاعا مجيدا ، وكانت خسائر الإنجليز أكثر عدداً من خسائر المصريين واضطر الإنجليز في النهاية إلي التقهقر بعد قتال استمر أربع ساعات ، ، وفي أيام ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ نجح المصريون في صد الهجمات الإنجليزية المتكررة وتكبيدهم أفدح الخسائر ويقول الرافعي معلقاً علي ذلك ، : وتعتبر معارك الميدان الغربي في جملتها فوزاً للعرابيين لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع المصرية في كفر الدوار ، ، وهكذا صمد الجيش المصري أمام الغزو الإنجليزي ، بل وأنزل بقوات الغزو أفدح الخسائر مما جعل الإنجليز يفكرون في تغيير مسار الغزو ، فقرروا نقل المعارك إلي منطقة قناة السويس ، أي غزو مصر من الشرق ، وهو الأمر الذي لم يكن أحد يفكر فيه بفضل وجود قناة السويس ، لأن معني الغزو عن طريق القناة أن تحدث تعقيدات دولية شديدة ولكن متي كانت المعاهدات والتعهدات حائلاً أمام المستعمر فهذا المستعمر لا يرعي حرمة ولا يحترم عهوداً أو معاهدات علي أن المسألة كانت أيضاً أكبر من مجرد معاهدات دولية كانت المسألة أن الغرب كل الغرب يدعم الإحتلال الإنجليزي لمصر ، – – وهكذا لم يكن غريباً علي دليسبس الفرنسي أن يخدع عرابي ولكن الغريب أن عرابي انخدع ، كان المجلس العسكري بقيادة عرابي قد انعقد في شهر يوليو للنظر في أمر القناة واجتمع رأي المجلس علي وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليزي اجتيازها والوصول إلي الشاطئ الغربي منها ولكن دليسبس أرسل إلي عرابي في أن يمتنع عن قطع القناة وأكد لها أن الإنجليز يستحيل أن يدخلوا القناة وحتي بعد أن وصلت البوارج الإنجليزية إلي بورسعيد استمر دليسبس في خداعه مؤكداً استحالة دخول الإنجليز للقناة وأنه مسئول عن ذلك شخصياً ، وإذا كان من الطبيعي أن يدعم الغرب والفرنسيين بالذات الاحتلال الإنجليزي لمصر لذبح

الثورة ، وإذا كان من الطبيعي أن يساهم دليسبس الفرنسي في تحقيق ذلك عن طريق الخداع ولو علي حساب شرفه الشخصي ففي مواجهة الإسلام فالجميع مستعد لعمل أي شئ)[٧٧٠]

- الغريب فعلاً أن يتحد أعداء الأمس بريطانيا وفرنسا علي مصالح مشتركة
- بالفعل لقد كان هناك عداء شديد بين الدولتين ، ولكن ما حدث في الحملة الفرنسية علي مصر وما بعدها من أحداث في عهد محمد علي جعل الدولتين يتأكدان من مدي ضعف الدولة العثمانية فقررا التحالف معاً ضدها مع إفشال مشروع محمد علي حتي لا يكون بديلاً لها في المنطقة ، علي أن يقوموا بتقسيمها فيما بينهم كما سنري في اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة
- نجح الإنجليز إذن بعد هزيمتهم في كفر الدوار في نقل المعارك إلي الشرق وهزموا الجيش المصري في التل الكبير كما هو معروف نتيجة لتعرض عرابي للخيانة
- نعم لقد كانت خطة العرابيين تعتمد علي حشد القوات في الإسكندرية وكفر الدوار ورشيد علي اعتبار أن بريطانيا ستحترم حياد القناة ، وعندما انتقل القتال إلي الشرق وقام الإنجليز باحتلال بورسعيد ثم الإسماعيلية وقعت معارك طاحنة في القصاصين والتل الكبير وقام عرابي بوضع خطة جديدة للتغلب علي الإنجليز طبقاً للأوضاع الجديدة للقوات ولكن أحد الخونة قام بتسريب الخطة للإنجليز مما كان سبباً رئيسياً في هزيمة عرابي بالإضافة للأسباب الأخري كخداع دليسبس وعدم التزام الإنجليز بحياد القناة ولا يسعنا إلا أن نذكر ما قاله الأستاذ يحيي حقي عندما تحدث عن الجهل بالموقف الدول فقال عن عرابي : وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له – ––كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر – – ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات
- إذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات ، حقاً كم من المخلصين في التاريخ كانت تنقصهم الحكمة واعتقدوا أن كلمة الشرف لا يمكن أن تهتز وسمحوا للخبثاء بخداعهم ، وبعد كل هذا أصبحت مصر مستعمرة بريطانية برعاية حاكمها

---

[٧٧٠] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

مصر تحت الاحتلال البريطاني

- نعم وهكذا (سمح الخديوي توفيق للجيش البريطاني باحتلال مصر والقضاء علي الثورة العرابية ولم يكن يعرف أن دوره سينتهي بدخول الإنجليز وستصدر جميع القرارات بواسطة الاحتلال فلم يتحمل القهر ومات وعمره أربعين عاماً فقط وعن هذا الموضوع يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله وهو يصف عودة الخديوي توفيق من الإسكندرية عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق إلي القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلي القاهرة ومهدوا له طريق العودة وانطلق موكب الخديو إلي قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحي الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دماً من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء علي مصر المحروسة وكان علي المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام علي مأدبة اللئام لقد مضي ذلك العصر الذي جلجلت فيه صيحات النديم والأفغاني ومحمد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلي أسفل السافلين ،بات قصر الدوبارة – مقر المعتمد البريطاني – قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهباً لكل خوان أثيم ، وبمرور الوقت تعاظم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاءلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تتويج اللورد كرومر – – فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التي أفزعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً ووافته المنية عام ١٨٩٢م عن عمر يناهز أربعين عاماً)[٧٧١]
- يا لها من نهاية حزينة بالفعل لكفاح شعب حاول أن ينال حريته وكرامته فضاعت حريته وأُهينت كرامته
- في الحقيقة لقد كان عرابي آخر زعيم مصري قاتل الاحتلال في معارك حربية حقيقية (كفر الدوار ثم التل الكبير)، أما بعد ذلك فكانت مقاومة شعبية وليست حروب حقيقية ، وتفرغ زعماء الشعب للمفاوضات فقط مع الاحتلال
- المشكلة ليست فقط في هزيمة عرابي واحتلال مصر بل في تشويه تاريخه وتاريخ ثورته حتي أنه كان يقال عنها هوجة عرابي علي ما أعرف
- لقد كان عرابي بالفعل زعيم مظلوم تاريخياً لفترة كبيرة ولعل أكبر طعنة واجهته صدور تصريح من السلطان العثماني بخروج عرابي عن الطاعة ، مما كان له أثر سئ جداً في سير الأحداث ،وقد كان هذا خطأ سياسي فادح من السلطان وقد اتخذه بعد موائمات سياسية أعتقد صحتها لتفويت الفرصة علي تدخل الغرب، وهكذا وجد عرابي نفسه بين ضغط السلطان ومؤامرات الخديوي والقوات البريطانية

[٧٧١] نقلاً عن كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة ١١٢ ، وكتاب (أسرة محمد علي) تأليف (سهير حلمي) صفحة ٢٤٦

وخداع دليسبس وسأتلو عليك بعض ما جاء في مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف فوزي جرجس تقديم جلال السيد حيث ورد ما يلي : (رأيت أن أكتب للناس كتاباً يهتدون به إلي تلك الحقيقة المرموقة ، تمحيصاً للتاريخ من دون الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة وسميته : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية – قياماً بالواجب علي لأبناء وطني الأعزاء وتصحيحاً للتاريخ) بهذه الكلمات صدر الزعيم أحمد عرابي مذكراته التي انتهي من كتابتها عام ١٩١٠ أي قبل وفاته بعام ، وكان قد أدرك منذ عودته من المنفي إلي أرض الوطن استمرار المؤامرة علي الثورة العرابية ، فلم يكن كافياً للاحتلال البريطاني والعائلة الخديوية ما حدث من دمار وخراب لمصر ولم يأبهوا بآلاف الشهداء والضحايا ولا بآلاف المواطنين الذين قدموا للمحاكمة في أعقاب الاحتلال البريطاني ، بل كانوا يبحثون عن المسببات التي تحول بين المصريين وتطلعهم نحو الثورة ، كما حدث في الثورة العرابية ، والتي كان من بينها (التاريخ) فعملوا علي تشويه التاريخ المصري خاصة الثورة العرابية وقادتها ، وحاولوا أن يوهموا المصريين أن الفتنة والتمرد والعصيان وما قام به عرابي ورفاقه هم سبب البلاء بل بلغ الأمر بأحد كتابهم بأن حمل الزعيم أحمد عرابي جريمة الاحتلال وبلغت الدعاية مداها من كتاب الاحتلال وشعراء القصر حتي أثرت في أحد الشبان المصريين المضللين الذي ما رأي عرابي حتي بصق في وجهه

- بالتأكيد إن تشويه الأحداث التاريخية يؤدي إلي نتائج كارثية
- وقد أدرك المستعمرون – منذ فترة طويلة – خطورة (التاريخ) وأهميته بالنسبة للشعوب وحركتها الجماهيرية ، فنجد أن مع جماعات الاستطلاع لغزو المنطقة العربية بدأت عمليات النهب والسرقة للآثار القديمة والمخطوطات العربية والتي مازالت في العواصم الأوروبية شاهدة علي جرائمهم وكانت تنفذ هذه العمليات طبقاً لتقارير الرحالة والمستشرقين الذين هجموا علي المنطقة منذ القرن السابع عشر ، وأصبح في جامعتي أكسفورد وكمبردج أقساماً لدراسة اللغة العربية وآدابها – منذ القرن الثامن عشر – هذا إلي جانب حركة الاستشراق في هولندا وألمانيا وغيرهما ، ونحن نعرف أن الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ لم تقتصر علي الجنود والمدافع والذخيرة ، بل كان ضمن أفرادها العلماء والمستشرقين والمهتمين بالتاريخ وهم الذين أعدوا المنشورات لنابليون ، وأنتجت هذه البعثة العلمية التي كانت ضمن الحملة الكتاب الشهير والمهم (وصف مصر) ، وفي ظل الاحتلال البريطاني دأب رجال الاحتلال علي تشويه تاريخنا من خلال ما كتبه المبشرون والتجار وعملاء المخابرات البريطانية والمعتمدين البريطانيين وكانت الثورة في رأيهم تمرد وعصيان وفتنة والجماهير تعني الغوغاء أما أبناء الشعب فهم الرعاع ولم تكن هذه النظرة قاصرة علي الاحتلال وموظفيهم بل شاركهم فيها السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلكهم ، وأصبح من بينهم من يدافع عن الاحتلال – صراحة – وعن أعماله (العظيمة)

- السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلك الاحتلال ، يكون تأثيرهم أسوأ من الاحتلال ، فهم بني جلدتنا ومحل ثقة الكثيرين منا ، فقد نقبل منهم ما نتحرج أن نقبله من الأعداء
- للأسف لقد أصبح هناك أجيال كاملة من هؤلاء المهزومين نفسياً أمام الغرب وأصبح يتوفر لهم منابر إعلامية وأدبية وفكرية وسياسية يبثون من خلالها سمومهم التي تدعو إلي الثقة في كل ما هو غربي واحتقار كل ما هو إسلامي وأصبحت كتبهم تنتشر في ربوع مصر تحت رعاية الاحتلال البريطاني
- لقد قرر الإنجليز طمس هويتنا وتاريخنا وزعزعة الثقة في ثوابتنا الراسخة ، وساعدهم علي ذلك بالطبع ما حدث في عهد سعيد واسماعيل وتوفيق بالتأكيد وما حدث بعد ذلك كان أسوأ بالطبع
- بالتأكيد كان أسوأ لأنهم شجعوا انتشار الرزيلة في المجتمع أما الأسوأ من الرزيلة فالأفكار المسمومة
- إن ما ذكرته لي عن معارك عرابي وأحداث الثورة العرابية والاحتلال البريطاني وما تبعه من مواقف تاريخية كل هذا تنقصه الكثير جداً من التفاصيل علي ما أعتقد علي أي حال دعك من التفاصيل ولتذكر لي ماذا حدث بعد أن تم احتلال مصر
- مات الخديوي توفيق ولم ينعم بحكم مصر في ظل الاحتلال البريطاني الذي تسبب في حدوثه وباركه فسلب منه السلطة وقام بإهماله ، وكان موته سنة ١٨٩٢م وتولي الحكم بعده في ظل الاحتلال البريطاني الخديوي عباس حلمي الثاني ابنه

الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير

- عباس حلمي الثاني الوالي السابع في أسرة محمد علي
- نعم ، وهو ابن الخديوي توفيق وتولي الحكم من بعده ولكن في وجود الإنجليز وكان عباس علي علاقة بمصطفي كامل الذي أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء وقام بتعبئة الرأي االلعام ضد الاحتلال وكانت حادثة دنشواي الشهيرة من الأعمال التي فضحها وأشعل الحماس (بين الطلاب والموظفون والتجار والأفندية ذوي الياقات البيضاء أما الفلاحون والمشايخ والأعيان فكانوا علي موعد مع حزب الأمة الذي تأسس عام ١٩٠٧م وتزعمه سعد باشا زغلول وأصدر جريدة "الجريدة " التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيد وكانت مصرية مستقلة تماماً عن الخديوي والإنجليز والباب العالي الذي كان الحزب الوطني ينظر إليه نظرة ولاء وتبعية)[٧٧٢] ، وبدخول الإنجليز مصر ظل ظلم الشعب مستمر ولكن بصور أخري أو علي رأي شاعر النيل حافظ ابراهيم :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت   حواشيه حتي بات ظلماً منظما

وقال الشاعر عن الإنجليز :

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم   فلا تك مصريا ولا تك مسلما

---

[٧٧٢] أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة ٢٥٤

- فما أهم الأحداث التي وقعت في عهد عباس حلمي الثاني ؟
- خلال فترة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني بدأت أحداث الحرب العالمية الأولي وأعلن الجنرال ماكسويل قائد جيوش الاحتلال في مصر الأحكام العرفية وتم وضع الرقابة علي الصحف (وأصدر الجنرال ماكسويل إعلاناً آخر ، حذر فيه الآهلين من تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلترا وحلفائها ، ودعاهم إلي اتباع الأوامر التي تصدرها السلطة العسكرية --)٧٧٣ وبدأت انجلترا تستعد للحرب وتحاول أن تضمن حياد الشعب المصري خلال هذه الحرب ، كما يعتبر ظهور الزعيم الوطني مصطفي كامل علي مسرح الأحداث وتأسيسه للحزب الوطني من أهم أحداث تلك الفترة فقد سبب هذا الحزب العديد من المتاعب للاحتلال البريطاني وانبثقت منه جمعيات سرية قاومت الاحتلال بالقوة وكان الحزب الوطني لا يعترف بأي مفاوضات مع الاحتلال ويسعي للاستقلال أولاً وجلاء القوات البريطانية عن مصر قبل أي حوار من أي نوع مع سلطات الاحتلال واستمر هذا الكفاح حتي بعد وفاة مصطفي كامل وتولي محمد فريد رئاسة الحزب
- من المعروف بالطبع دور مصطفي كامل في فضح الإنجليز عالمياً بعد حادثة دنشواي الشهيرة ، ولنستكمل الحديث عن الحرب ونتأمل تأثيرها علي مصر والمصريين
- ولكن قبل أن نخوض في موضوع الحرب العالمية الأولي وماذا دار في مصر من أحداث بعد ذلك في إيجاز اسمح لي أن نترك مصر قليلاً لنتحدث عن الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية والذي ساعد علي انهيارها واختفاءها بعد ذلك من مسرح الأحداث كآخر دولة إسلامية كبري ، ويعتبر عباس حلمي الثاني هو الوالي الآخير علي مصر
- ولماذا أطلقت عليه الوالي الأخير ؟
- ذكرنا أن مصر كجزء من الدولة العثمانية قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ في عهد الخديوي توفيق ، وظل هذا الاحتلال مستمر بهذا الشكل حتي قررت بريطانيا تغيير المسميات بشكل يجعل من مصر كيان مستقل وليس جزء من دولة كبري ، وبالرغم من أن الاحتلال لم يتغير إلا أن المسمي تغير وكأنها خطوة في طريق تفتيت الدولة الكبري إلي عدة دول تحت الحماية البريطانية ،وقد يكون السبب في ذلك هو ترك هذه الدول والكيانات المستقلة عند انتهاء الاحتلال بحيث لا يتم جمعها بأي رابطة من أي نوع تحت أي مسمي بعد ذلك ، ويعتبر الخديوي عباس حلمي الثاني هو آخر والي في تاريخ مصر يتبع الخلافة الإسلامية (العثمانية آنذاك) حيث تم عزله ثم أصبح السلطان حسين كامل هو أول حاكم لمصر لا يتبع الخلافة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وكانت بريطانيا قد أعلنت الحماية علي مصر في اليوم السابق لعزل الخديوي بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٤ قبل الحرب العالمية الأولي ، وكان الخديوي عباس حلمي في ذلك الوقت في الآستانة عاصمة الدولة العثمانية التي

[٧٧٣] من كتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي صفحة ٢٧

أصبحت في حالة حرب مع بريطانيا ، ، وفيما يلي نص قرار عزل الخديوي عباس كما ورد في كتاب (ثورة ١٩١٩) للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي صفحة ٣٢ : (يعلن ناظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمي أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق علي الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية ، وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر علي سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله) القاهرة في ١٩ديسمبر ١٩١٤

- هكذا ببساطة لم تعد مصر ولاية تابعة للخلافة وأصبح حاكمها سلطاناً
- نعم وجدير بالذكر أن أول والي تابع للخلافة الإسلامية كان عمرو بن العاص وآخر والي تابع للخلافة الإسلامية هو عباس حلمي الثاني حيث توالت الخلافة علي مصر مع اختلاف المسميات من عصر الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين إلي أن انتهت بالعثمانيين وهي آخر خلافة كانت مصر ولاية تابعة لها وكان عباس حلمي آخر والي في هذه الخلافة
- إن ما فعله الإنجليز بمصر والمصريين يفوق بمراحل ما فعلته الحملة الفرنسية ، فقد هزت كل ما له علاقة بالخلافة والأمة الإسلامية في مصر
- لقد قامت بتشجيع الزعماء الوطنيين القوميين في مصر وجعلت منهم أبطال بخبث شديد حتي أصبحوا رموزاً جديدة لقومية جديدة هي القومية المصرية كبديل للقومية الإسلامية ، كما اتبع الاحتلال البريطاني سياسة الاحتواء وذلك بإنشاء شبكة سكك حديد وكباري ومحالج ومطاحن ومشروعات بنية تحتية كبري ليشعر الشعب بفوائد الاحتلال كما حاربت الأزهر بأسلوب ماكر جداً حيث لم تهاجمه كما فعل الاحتلال الفرنسي من قبل بل تركته وشأنه وقامت بتأسيس مدارس أخري وأصبح من يتخرج منها له أفضلية التعيين في المصالح الحكومية وضمان مستقبله الوظيفي مع إهمال خريجي الأزهر مما أدي إلي إقبال الطلبة علي الدراسة بعيداً عن الأزهر ، فكانت سياسة الإنجليز تعتمد دائماً علي العمل لتحقيق أي هدف ببطء ولكن بشكل مؤكد حدوثه علي المدي الطويل وكما يقال : بطئ لكن مؤكد (Slow but sure) ولم تكن القومية المصرية فقط هي التي قامت برعايتها وتشجيعها بل شجعت أيضاً القومية العربية ضد الدولة العثمانية حتي قام العرب بثورة كبري ضد الخلافة ، ثم بعد هزيمة الدولة العثمانية قامت بتشجيع القومية التركية نفسها لتتفتت القومية الإسلامية إلي العديد من القوميات والدول بحيث يصعب تجميعهم مرة أخري والأسوأ من التيار القومي ما صاحبه من تيار علماني يكره الدين وخاصة مع وبعد نشوب الحرب العالمية الأولي
- وما مظاهر صعود التيار العلماني في مصر ومن أهم رموزه في ظل رعاية الاحتلال ؟
- يقول د يونان لبيب رزق : (أولاً بالنسبة للفكر العلماني فقد بدأ حتي قبل الحرب من الناحية السياسية بدعوة أحمد لطفي السيد برفض فكرة الجامعة الإسلامية كأساس من أسس الحركة الوطنية المصرية ،

وأدان هذه الفكرة واعتبرها نوع من التخلف ،، يزداد هذا الاتجاه وضوحاً خلال الحرب بانتشار أفكار النشوء والارتقاء والنظرية الداورينية التي لعبت مجلة المتقطف كما لعب شبلي شميل دورا كبيرا في نشرها ، وعندما توفي هذا الكاتب عام ١٩١٧ أقام له المعجبون حفل تأبين كبير دل علي مدي انتشار دعوته ، وفي نفس الوقت ظهرت جرائد غير المقتطف تغلب عليها الصبغة العلمانية وتناقش الأمور بفكر متجرد من التأثيرات الغيبية بقيودها وأشهر هذه الجرائد كانت صحيفة السفور التي كتب فيها منصور فهمي عدة مقالات عن الاتجاه الجديد قال في أحدها : "إنه لا يطمئن إلا لكل عقيدة يتم الإقناع بها بواسطة المنطق " – – – كما شن الدكتور محمد حسين هيكل حملة شعواء اتهم فيها أصحاب الاتجاه الديني بالنفاق والكذب والاتجار بالدين – – – ثانياً بالنسبة للفكر الاشتراكي فقد أخذ يكتسب الأصالة كأحد تيارات الفكر المصري فقد ألف حسين المنصوري كتاباً عن الاشتراكية نشره أوائل عام ١٩١٥ تحت عنوان تاريخ المذاهب الاشتراكية)[٧٧٤]

- فماذا عن السلطان حسين وظروف توليه الحكم في مصر ؟

السلطان حسين كامل

- قد يردد البعض اسم السلطان حسين دون أن يعرف من هو ، واسمه بالكامل هو السلطان حسين كامل ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) باشا وقد حكم مصر كسلطان تحت الحماية البريطانية من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ حوالي ثلاث سنوات ، وبدأت القصة قبل بدء الحرب العالمية الأولي عندما أعلنت بريطانيا الحرب علي الدولة العثمانية ، فأعلن السلطان العثماني الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم ضد بريطانيا ، فشعرت بريطانيا بخطورة شديدة حيث ستكون حربها مع كل مسلمي العالم في وقت واحد ، فقررت فصل القوميات المختلفة داخل الدولة العثمانية وكانت أهم القوميات داخلها هي القومية التركية والقومية العربية والقومية المصرية ، فوعدت العرب بدولة عربية كبري في حالة وقوفهم في الحرب ضد الدولة العثمانية (تركيا) ، كما نجح الإنجليز في تنمية القومية المصرية لتفصلها عن القومية الإسلامية والقومية العربية ، فقررت عزل الخديو عباس حلمي الثاني الوالي الأخير المنتمي للدولة العثمانية ، وأعلنت الحماية البريطانية علي مصر كدولة مستقلة ، وعرضت منصب سلطان مصر علي أكبر أبناء أسرة محمد علي في ذلك الوقت الأمير حسين كامل فوافق علي ذلك ، والجدير بالذكر أن السلطان حسين قد توفي في أكتوبر ١٩١٧ ، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولي السلطنة فحكم مصر الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين من ٩ أكتوبر ١٩١٧ إلي أن توفي في ٢٨ إبريل ١٩٣٦ (سلطان ثم ملك)

---

[٧٧٤] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٤١٤

- قد يكون الأمير كمال الدين حسين شعر بمدي خطورة الدور الذي سيلعبه إذا وافق الإنجليز علي تحدي الخلافة وتفتيت الأمة فاعتذر عن قبول المنصب رغم وجاهته والله أعلم
- علي أي حال لقد سجل موقفه من الأحداث قبل أن يموت ولم يتورط في ما تورط فيه والده فالجميع قد ماتوا ولم يعرفوا ما حدث ولم يبق إلا موقف كل منهم مما حدث
- ولكن ماذا كان رد فعل الشارع المصري مما فعله السلطان حسين ؟
- بالطبع لم يمر حدث كهذا مرور الكرام فقد قوبل بالسخط والرفض من كل مسلم غيور علي وحدة الأمة وعلي الخلافة ومما أثار المصريين عموماً أن عزل الخديوي عباس حلمي الثاني وتعيين حسين كامل سلطاناً علي مصر صاحبه إعلان الحماية البريطانية علي مصر بعد زوال السيادة العثمانية ، كما تم فرض الأحكام العرفية في البلاد والرقابة علي الصحف بحجة نشوب الحرب العالمية الأولي ، وأدي انتشار القوات في أنحاء البلاد للحد من الاحتجاجات وعدم التجمهر وقد أطلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعي علي ما حدث كلمة انقلاب لمعارضته الشديدة علي الحماية البريطانية
- يبدو أن رفض البعض جاء بدافع إسلامي والبعض الآخر جاء بدافع قومي ، لنجاح الأفكار الأوروبية في تنمية القومية المصرية وفصلها عن القومية الإسلامية
- للأسف لقد حقق الغرب نجاحاً كبيراً في ذلك الاتجاه مع الطبقة ((المثقفة)) من الشعب المصري حتي يمكنك أن تلاحظ ذلك في مقولة مصطفي كامل الشهيرة لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً والشعارات التي تم رفعها في إطار بعيد عن إطار الأمة الإسلامية كشعار مصر للمصريين
- وهل ذكر الرافعي شيئاً عن أي مظهر من مظاهر الاحتجاج والرفض أياً كان دافعه ؟
- يمكن أن أقرأ لك بعض الأمثلة مما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع فمثلاً كتب الرافعي تحت عنوان مظاهرة طلبة الحقوق يوم زيارة السلطان حسين ما ملخصه : (– – – اعتزم السلطان حسين كامل زيارة معاهد العلم ، وزار بعضها ، وكان من مظاهر سخط الشباب علي الحماية والانقلاب الذي استتبعه أنه لما جاء دور زيارته لمدرسة الحقوق اتفق معظم طلبتها علي الامتناع عن الحضور في اليوم المحدد لهذه الزيارة السلطانية ١٨فبراير سنة ١٩١٥ وأنفذوا عزمهم وتغيبوا عن الحضور في ذلك اليوم ، فلما جاء السلطان لوحظ فراغ كبير في صفوف الطلبة ، فكان هذا الإضراب شبه مظاهرة صامتة ضد الحماية والانقلاب وقد اهتمت الوزارة للأمر)[٧٧٥] وأجرت تحقيقا ووقعت عقوبات علي الطلبة المسئولين عن ما حدث وقد ذكر الرافعي أسمائهم لأنها أصبحت أسماء لامعة فيما بعد
- وستعتبر أنت أنها تفاصيل بالطبع
- إنها بالطبع تفاصيل ولكنها مهمة ، ولكنني أريد أن استكمل معك بعض ما كتبه الرافعي عن رفض الشعب لما حدث وهو يعتبر ذلك بالطبع كمؤرخ قومي أن ذلك الرفض بسبب إعلان الحماية وليس

---

[٧٧٥] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩–عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٥

بسبب تحدي الخلافة وتمزيق الأمة ، فيقول في موضع آخر تحت عنوان الاعتداء علي السلطان حسين كامل : (تجاوز سخط الشعب علي الحماية إلي السخط علي المغفور له السلطان حسين الذي ارتضي هذا النظام ، – – ولقد كان من مظاهر هذا السخط أن أُعتدي عليه مرتين ، الأولي بالقاهرة يوم الخميس ٨أبريل سنة ١٨١٥ ، إذ أطلق عليه شاب يدعي محمد خليل تاجر خردوات من المنصورة عياراً نارياً حين مرور موكبه بشارع عابدين فأخطأه وأصاب العربة التي كانت تقله ولم يحدث بها سوي ثقوب في جلدها ، وقُبض علي الجاني وحوكم أمام مجلس عسكري بريطاني وحُكِم عليه بالإعدام شنقاً ونُفِّذ فيه الحكم يوم ٢٤أبريل سنة ١٩١٥ ، وبعد مرور شهرين علي هذا الحادث وقع اعتداء آخر لا يقل شططاً ونكراً عن الاعتداء الأول ، ففي يوم الجمعة ٩يوليو سنة ١٩١٥ بينما كان السلطان سائراً بموكبه بالإسكندرية قبيل ظهر ذلك اليوم من قصر رأس التين إلي مسجد سيدي عبد الرحمن بن هرمز لأداء فريضة الجمعة ، أُلقيت عليه قنبلة من نافذة أحد المنازل المطلة علي شارع رأس التين فسقطت القنبلة علي ظهر جواد من جوادي المركبة السلطانية ثم تدحرجت علي الأرض ولم تنفجر وقد استغرق التحقيق في هذه الحادثة زمناً طويلاً لغموضها وصعوبة الكشف عن المتآمرين فيها وأسفر عن اتهام تسعة من الشبان بتدبير الحادث ، ثم استقر رأي النيابة علي إدانة اثنين منهم وحوكما أمام مجلس عسكري بريطاني فحكم عليهما بالإعدام شنقاً وصدق القائد العام للقوات البريطانية علي الحكم ، ولكن السلطان حسين طلب تخفيفه فأبدله القائد العام بالأشغال الشاقة المؤبدة)[٧٧٦]

- أليس من العجيب أن يستغرق التحقيق وقتاً طويلاً في مثل هذه القضايا ؟
- ليس بعجيب إذا كنت تريد أن تصل للفاعل الحقيقي أما إذا كنت أن تنهي القضية علي أي حال فمن السهل القبض علي بعض الأشخاص والضغط عليهم إلي أن يعترفوا بجرائم لم يرتكبوها وتنتهي القضية
- فلماذا لم يفعلوا ذلك فكل المصريين بالنسبة لهم عبيد وهمج وقتلهم لا يعني شئ ؟
- لأنهم لو فعلوا ذلك سيظل الفاعل الحقيق طليقاً وقد يعيد جريمته مرة أخري ولذلك كانوا حريصين في كل مرة علي الوصول للفاعل الحقيقي ، ويضيف الرافعي في موضع آخر من كتابه ما يلي (ويدخل في هذا السياق حادث الاعتداء علي إبراهيم فتحي باشا وزير الأوقاف ففي مساء ٤سبتمبر سنة ١٩١٥ بينما كان واقفاً علي رصيف محطة القاهرة مزمعاً السفر بقطار الوجه القبلي اعتدي علي شاب يدعي صالح عبد اللطيف وهو موظف بوزارة المالية بأن طعنه بخنجر ثلاث طعنات جرحه جروحاً بليغة في كتفه ولكنه شفي منها بعد حين وحوكم الجاني أمام مجلس عسكري بريطاني وحكم عليه بالإعدام شنقاً ونفذ فيه الحكم يوم ٣أكتوبر)
- فهل كان هناك أي تمثيل من أي نوع لنواب الشعب مثلاً أو ديوان أو خلافه ؟

[٧٧٦] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩–عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٨

- نعم كانت هناك جمعية منتخبة تسمي الجميعة التشريعية وقال الرافعي أن السياسة البريطانية رأت تعطيلها بمجرد نشوب الحرب حتي لا تتخذ قرارات قد يكون فيها معني الاحتجاج علي الانقلاب كما أسماه
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يؤكد الرافعي أن بريطانيا قد جعلت من مصر قاعدة حربية عامة للحلفاء في الشرق الأوسط ولذلك كثر تدفق الجيوش من مختلف أنحاء الإمبراطورية علي مصر ويؤكد الرافعي أن هذا الإجراء قد أفاد الحلفاء في القتال نظراً لموقع مصر الفريد الذي يتيح التدخل في عدة جبهات قريبة كالشام وغيرها ، وقد استنكر الرافعي تصرفات الجنود الذين وفدوا علي مصر لكثرة الاعتداءات التي وقعت منهم علي الناس في أموالهم وأرزاقهم التي وصلت أحياناً للضرب والقتل ، فكره الناس الاحتلال والحماية البريطانية بشدة ،، ومما زاد الطين بله قيام الإنجليز بتشكيل ما سموه بفيالق العمال المصرية أثناء الحرب والتي تم استغلالها أسوأ استغلال وكانت تتعرض للأخطار بنفس الدرجة التي يتعرض لها المقاتلون
- وما المواجهات الحربية التي تمت علي أرض مصر ؟
- لقد حاولت بالطبع الدولة العثمانية الهجوم علي القوات البريطانية كما أكد الرافعي ولكن تصدي لها الجيش البريطاني بمعاونة كتيبة من الجيش المصري بقيادة الملازم أول أحمد أفندي حلمي علي حد تعبير الرافعي وقد ذكر الرافعي مواقع أخري حدثت بها اشتباكات بل إن المسلمين في ليبيا والسودان استجابوا لدعوة الجهاد من السلطان العثماني وجاءت حملة السنوسي من ليبيا لقتال الإنجليز وحدث أيضاً قتال في دارفور ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل أمام القوات البريطانية والجيش المصري والأعجب من كل هذا أن الملك جورج الخامس ملك بريطانيا في ذلك الوقت أرسل رسالة تهنئة جاء فيها (– – تناولت بمزيد الارتياح الأنباء السارة عن احتلال جنود الجيش المصري الفاشر عاصمة دارفور بقيادة اللفتننت كولونيل كلي فأهنئ جميع صفوف الجيش علي نجاح حركاتهم رغم المصاعب والمشقات التي حالت في سبيلهم)[٧٧٧]
- يا للعار إنها لمأساة أن يساعد الجيش المصري الجيش البريطاني في مواجهة الجيش العثماني
- الأسوأ من ذلك هو هجوم القوات العربية علي الجيش العثماني بعد تحالفهم مع الإنجليز
- فكيف تواصل الغرب مع العرب ؟ وكيف قاموا بتنمية القومية العربية ودعمها ؟
- في الحقيقة موضوع القومية العربية موضوع كبيروقد يستغرق وقتاً طويلاً نسبياً في هذا الحوار ، لأن القومية العربية الحديثة كانت صناعة غربية بامتياز
- وكيف حدث ذلك ؟

---

[٧٧٧] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي صفحة ٥٣

القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟

- تحدثنا معاً في هذا الحوار عن العرب وكيف تراجع دورهم في إطار الدولة الإسلامية الكبري إلي أن ضاعت منهم الخلافة نفسها ، وأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة المسئولة عن العالم الإسلامي كله بما فيه من جنسيات مختلفة ومنهم بالطبع العرب وكانت الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية ذات سيادة علي المستوي العالمي وكانت آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب ويعمل لها العالم ألف حساب إلي أن قرر الغرب القضاء عليها باستخدام العرب أنفسهم كأحد وسائل الضغط عليها وبالتالي قام الغرب بتنمية القومية العربية لتواجه الدولة العثمانية وتكون طعنة في ظهرها أثناء الحرب
- مستغلة بالطبع أن حكم الأتراك في ذلك الوقت كان قاسياً ولا يُرضي الشعوب العربية
- بالتأكيد وكانت الشعوب العربية لا تدرك طبيعة المخطط لها
- وهو ببساطة شديدة استبدال حكم الدولة العثمانية باحتلال إنجليزي وفرنسي للدول العربية التابعة لها ،
- بالطبع ، وقد أدركت الدولة العثمانية هذا المخطط وعملت علي إجهاضه وتعاملت بكل حسم مع جميع الأنشطة التي تدعو للقومية العربية والتي ستؤدي إلي انقسام الأمة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية علي دراية تامة بأنها في حالة التنازل عن الأراضي العربية فإن العرب لن يتمكنوا من إيقاف الزحف الاستعماري الذي يستهدف بلادهم وبالتالي عملت الدولة العثمانية علي وقف هذه المحاولات بكل قوة ولكن للأسف كان العرب قد تأثروا بالفعل بهذه المحاولات حتي قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية
- ثم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الاحتلال الغربي
- بالفعل وقد قام هذا الاستعمار بالتعامل معهم بشكل مختلف تماماً عن الدولة العثمانية ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (---- ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شئ قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة ، حتي إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كانوا عبيد أو كالعبيد لقوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيد أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)[٧٧٨] ،
- ربما كان يقصد الدكتور طه حسين هنا الرابطة الإسلامية التي كانت تربط العثمانيين بالعرب ، ثم لم تعد هناك أي رابطة من أي نوع بين الاحتلال الغربي والعرب .فما الذي حدث في تلك الفترة ، وكيف قامت فكرة إحياء القومية العربية وكيف تم تغيير كلمة "الدولة العثمانية" (آخر دولة إسلامية ذات وزن في العالم) واستبدالها بكلمة "الاحتلال التركي" ؟

---

[٧٧٨] " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة ٣٠٤ – دار المعارف – طبعة ١٩٥٩

بداية فكرة القومية العربية

- قامت الإرساليات التبشيرية المسيحية بالإضافة إلي عملها في نشر الديانة المسيحية في القرن التاسع عشر في الشام بعمل آخر يهدف إلي الوقيعة بين العرب والدولة العثمانية (وقد بدأت الإرسالية الأمريكية عملها في الشام قبيل فتح محمد علي له ، ثم استكملت عملها أثناء الحكم المصري للشام (١٨٣٢-١٨٤٠) --- وقد وضعت نصب عينيها – إلي جانب نشر البروتستانتية – هدفاً كان له مغزى عميق ، وهو إحياء اللغة العربية ،

إحياء اللغة العربية ؟

- نعم – – – وتنمية الشعور القومي لدي العرب ، بهدف إضعاف الرابطة العربية التركية ، وقد أنشأت الإرسالية الأمريكية العديد من المدارس في الشام كانت اللغة العربية هي لغة التدريس فيها ، وكان من أهمها علي الإطلاق "الكلية الإنجيلية السورية" التي عرفت فيما بعد باسم "الجامعة الأمريكية ببيروت" والتي ساهمت في تخريج جيل من رواد القومية العربية كان لهم أثر لا يُنكر في خلق فكرة القومية العربية بمفهومها السياسي الحديث . وقد أدي النشاط الكبير للإرسالية الأمريكية البروتستانتية إلي غيرة شديدة في الإرساليات الكاثوليكية وبصفة خاصة الجزويت فبدأ التنافس بين الفريقين علي إنشاء المدارس – – فأنشأ الجزويت مدارس في بيروت ودمشق وحلب وزحلة ، ثم أنشأوا لمنافسة الكلية السورية البروتستانتية " جامعة سان جوزيف" وبذلك أتيح للمسيحيين فرصة الإطلاع والتنقيب في تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم)[٧٧٩] ،
- يبدو أن الموضوع أكبر وأخطر مما كنت أتخيل ، فهل وقف السلطان العثماني مكتوف الأيدي ؟ وبالمناسبة هل يمكن إلقاء الضوء علي شخصية الخليفة العثماني الأخير ؟

السلطان عبد الحميد الثاني[٧٨٠] (الخليفة الأخير)[٧٨١]

- يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني (مجازاً) هو آخر الخلفاء الحقيقيين في الدولة العثمانية وقد بذل جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ علي تماسك الأمة الإسلامية وقد واجه العديد من المشاكل داخل وخارج الدولة ، ففي داخل الدولة كان هناك من يرمي نفسه في أحضان الغرب ويعمل علي نشر كل ما هو غربي في الدولة العثمانية وتحويلها إلي دولة علمانية ذات قوانين وضعية غربية ونشر الثقافة

---

[٧٧٩] "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ" – د عماد أحمد هلال – صفحة ٥٨ – الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٨٠] (هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية وهو من مواليد ١٨٤٢) الدولة العثمانية –د علي الصلابي صفحة٤٦٩

[٧٨١] لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني آخر خليفة في الدولة العثمانية ولكن بعد أن تعرض لمؤامرات أدت إلي خلعه من السلطنة والخلافة (تولي السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد ، إلا أنه في الحقيقة لم يملك أي سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي ، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها) الدولة العثمانية– د علي الصلابي صفحة ٥٤٣

الغربية وكذلك جعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة ومحو اللغة العربية التي هي لغة القرآن والعالم الإسلامي ،بينما كان السلطان عبد الحميد يسعي إلي التعريب لوعيه بأهمية اللغة في الحفاظ علي تراث وكيان الأمة كما كان حريص علي تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية

- فما نوعية المشاكل التي كانت تواجهه ؟
- يقول الكاتب التركي الأستاذ نجيب فضل : (----" ولخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له ، وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل وذبول الإرادة وعموم الشلل" ---- ، وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين)٧٨٢ ، وهكذا نجد أن السلطان عبد الحميد قد واجه مشاكل بالجملة من الداخل وكذلك محاولات فصل القوميات المختلفة الموجودة داخل الدولة العثمانية ومن بينها القومية المصرية والقومية العربية ، وكان الأتراك الذين يريدون تقليد الغرب في كل شئ يسمون أنفسهم بالإصلاحيين
- الإصلاح ، كم من الجرائم ترتكب باسمك
- ويقول عن ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبب في اضمحلالنا ، تُري لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات ، لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء علي هذه الإمبراطورية ، إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات ، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد ، وألا نقيس الأوضاع علي أساس المستوي الفكري لحفنة قليلة من الموظفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي ، الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً ، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين ، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة٧٨٣ ، ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شئ يأتي من الغرب)٧٨٤
- إنه يقصد علي ما أعتقد أن الحل في التحديث لا التغريب
- ومن المواقف التي حدثت أيضاً أن زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل كان يحاول الحصول من السلطان عبد الحميد علي فلسطين لليهود وبذل عدة محاولات لإغراء السلطان بالمال

[٧٨٢] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٤٨

[٧٨٣] الحالات الخاصة قد يكون مقصود بها التقدم العلمي في مجال الكيمياء والفيزياء والهندسة وما إلي ذلك وليس فلسفة ومنهج الحياة نفسها

[٧٨٤] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٥١

الوفير والمساعدات الدبلوماسية المختلفة التي يمكن لليهود أن يقدموها للدولة العثمانية ولكن كان إصرار السلطان علي عدم الموافقة (وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلي هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها :" انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي ، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، ورووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول علي فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً بجثتنا ، ولكن لا أوافق علي تشريح جثتي وأنا علي قيد الحياة ")٧٨٥ ،

- نتيجة لهذا الموقف من السلطان كان من الطبيعي أن يعمل اليهود علي الإطاحة بالسلطان أولاً كخطوة مهمة في تحقيق هدفهم وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك
- (ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال:" إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمراً فيه")٧٨٦
- فما الذي قام به السلطان من إجراءات ؟
- كانت الدعوة للجامعة الإسلامية من الأهداف التي يتمني السلطان عبد الحميد الثاني تحقيقها لدعم ترابط العالم الإسلامي قبل أن تذهب به القوميات المختلفة المنتشرة في الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية إلي تفكك يؤدي إلي الضعف والاضمحلال وبالتالي التعرض لهجمة استعمارية شرسة ، و(بالرغم من أن حركة الجامعة الإسلامية كانت تهدف – ضمن ما تهدف – إلي إضعاف فكرة القومية العربية ، إلا أن فشل المشروع الإسلامي كان من عوامل قوة الفكرة العربية واستمرارها ، بل وتحولها إلي حركة سياسية لها برامج وأحزاب وجمعيات)٧٨٧ ، (--- وبالرغم من أن الأفغاني ومحمد عبده كانا يعلمان أن الدولة العثمانية٧٨٨ في حالة من الضعف تجعلها غير مؤهلة لقيادة الجامعة الإسلامية إلا أنهما وجدا فيها أفضل ما هو موجود علي الساحة الإسلامية ، يظهر ذلك من قول محمد عبده :" إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتي إذا وهنت قوة الفريقين

---

[٧٨٥] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢١

[٧٨٦] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢٦

[٧٨٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٥٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٨٨] (بالمناسبة عندما سألوا فؤاد باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أثناء زيارته لأحد الدول الأوروبية قبل أن يتمكنوا من هزيمة الدولة العثمانية بعد وقالوا له : ما هي أقوي دولة في العالم الآن ، فرد قائلاً : أقوي دولة الآن هي الدولة العثمانية ، ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الداخل ، ولم يستطع كلانا هدمها) الدولة العثمانية د علي الصلابي صفحة ٤٧١

وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته)[٧٨٩]

- حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، ألا تذكرك هذه المقولة بمواقف تاريخية أخري ، فماذا كان موقف الغرب من الجامعة الإسلامية ؟
- (إن الاستعمار قد عمل بكل قوة لمنع هذه الحركة الإسلامية من الظهور والنجاح ، حيث وجد فيها الإنجليز خطراً شديداً علي إمبراطوريتهم التي تمتد إلي الهند وتسيطر علي ما يقرب من خمسين مليون مسلم لو اتحدوا لأطاحوا بالجيوش البريطانية إلي المحيط الهندي ، وقد وجد الإنجليز والفرنسيون أيضاً في فكرة القومية العربية قطباً مضاداً لحركة الجامعة الإسلامية[٧٩٠] ، فتبنوها وشجعوها وغذوها بالمال والأفكار والتأييد ، مما جعلها تقوي وتنشط بعد أن كادت أن تختفي في مواجهة التيار الإسلامي الجارف)[٧٩١]
- {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (٤٢) سورة إبراهيم
- وحدث أن (تم إنشاء جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ ، علي يد خمسة شبان من خريجي الكلية السورية البروتستانتية هم : فارس نمر ، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وكان بينهم وليم فاندايك ، مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من دور الإرساليات التبشيرية في هذه المرحلة ، وقد تبنت جمعية بيروت السرية حركة قومية عربية في نطاق ضيق هو سوريا ولبنان فقط ، متأثرة في ذلك بكتابات بطرس البستاني التي كانت تسعي إلي إيجاد صيغة من التعايش بين مسلمي ومسيحي الشام في إطار دولة عربية مستقلة عن حكم الترك ولها طابع علماني)[٧٩٢] ، وهكذا توالت الجمعيات وإليك بعد الأمثلة علي هذه الجمعيات ليس علي سبيل الحصر (تشكلت في باريس جامعة الوطن العربي ١٩٠٤ من خلال تجمع المنفيين العرب تحت زعامة نجيب عازوري)[٧٩٣] ، (الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩) ، (جمعية العربية الفتاة سنة ١٩١١) ، (جمعية اللامركزية سنة ١٩١٢) (جمعية العهد سنة ١٩١٤) وكان لكل جمعية منهم أهدافها فمنها ما

---

[٧٨٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٢-٦٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٠] (يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي " إن السلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلامية ، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة ، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة ، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين) الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٩١

[٧٩١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٧٨– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٩١– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

كان يطالب بالحكم الذاتي للعرب في ظل الدولة العثمانية ومنها من كان يطالب باستقلال العرب في إطار ضوابط محددة ولكنها جميعاً كانت تنادي بالقومية العربية .

بريطانيا تبحث عن رمز إسلامي بديل للخليفة لتحقيق أهدافها

- فماذا كان موقف بريطانيا من الدعوة للجهاد التي أطلقها الخليفة العثماني ؟
- عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولي وأعلنت الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم (وجدت إنجلترا أن في الأمر خطورة قد تهددها بدخول حرب واسعة ضد المسلمين في جميع أرجاء المعمورة ، خاصة وأن هناك نحو خمسين مليون مسلم تحت حكم إنجلترا في الهند فقط ، أضف إلي ذلك مسلمي مصر والسودان والخليج العربي وغيرها من البلدان التي تحت سيطرتها ، ولذلك أخذ الإنجليز الأمر علي محمل الجد ، وبعد بحث وتدقيق وجد الإنجليز أنه من الممكن إبطال مفعول تلك الفتوى المتضمنة إعلان الجهاد من سلطان ومفتي تركيا عن طريق الحصول علي فتوى معارضة من شخصية إسلامية يكن لها العالم الإسلامي كل الاحترام والتقدير ، وقد وجد الإنجليز ضالتهم في شريف مكة الحسين بن علي ، كما وجدوا أن تشجيع العرب علي الثورة ضد الأتراك سوف يؤدي إلي نفس النتائج)٧٩٤
- وأين كان الشريف حسين من قبل ؟
- كانت هناك شخصيات معينة في الدولة العثمانية تقلق الخليفة ويشعر بأنهم لا يدينون للدولة العثمانية بأي ولاء ولذلك كان يجعلهم يقيمون بجواره في عاصمة الدولة ولا يسمح لهم بمغادرتها حتي يأمنهم ومن هؤلاء شريف مكة الحسين بن علي (وقد عبر السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا ، قال السلطان :" إن الشريف حسين لا يحبنا ، إنه الآن هادئ وساكن ، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً " – – لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلي ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد ، فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني ، أعاد الشريف حسين إلي مكة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنجليز) ٧٩٥

الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين

- وكيف تواصل الإنجليز مع الشريف حسين ؟
- قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية (--- وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي

---

[٧٩٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٥] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٠٩

البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك ، وعلي الإبقاء علي سلامة الحج للرعايا المسلمين التابعين للحلفاء وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل)٧٩٦ وعندما طلبت منه الدولة العثمانية تحديد موقفه من إعلان الجهاد استطاع الشريف حسين المماطلة حتي يعيد ترتيب أوضاعه ويستعد للثورة (ولما أحس القوميون العرب بمماطلة الحسين للأتراك وتيقنوا عدم نيته دخول الحرب إلي جانبهم ، سارعت جمعية العربية الفتاة بدعوته للتنسيق معها من أجل القيام بثورة عربية مستغلين انشغال تركيا في الحرب ، وقد وصلته الرسالة بالفعل في الأسبوع الأخير من يناير ١٩١٥ ---- والحقيقة أن الرسالة قد لفتت نظر الحسين إلي محور مهم يعطي موقفه ثقلاً كبيراً عند التفاوض مع مكماهون ولذلك قرر الاتصال بالقوميين العرب في الشام والعراق قبل أن يرد علي رسالة مكماهون)٧٩٧

- فكيف تواصل الشريف حسين مع القوميين العرب ؟
- قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون - - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة انجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين انجلترا وفرنسا)٧٩٨ وبالتالي قام مكماهون برد غير حاسم وبوعود تشجيعية ولكنها غير محددة ، وقد أصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يكذب عليه ويعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقا للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة وبعض قليل من المفاوضات بخصوص حدود الدولة العربية التي كان يحلم بها الحسين تمت الموافقة بين الطرفين (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولي ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦)٧٩٩
- إذن فقد نجحت بريطانيا في الإيقاع بين العرب والدولة العثمانية

---

[٧٩٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٧٩٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٦– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

- وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية سايكس–بيكو [٨٠٠] التي قسمت فيها الدولة العثمانية فيما بينها
- بدون علم الشريف حسين
- وهكذا أوقع الإنجليز بين العرب والترك الذين كانا يمثلان معاً الدولة الإسلامية الكبري في ذلك الوقت ، ويمكننا الآن إعادة تأمل ما قاله الشيخ محمد عبده : (حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما)

الثورة العربية ضد الدولة العثمانية

- وما الذي قام به العرب بعد ذلك ؟
- (هاجمت القوات العربية ثكنات الجيش التركي في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، ما عدا المدينة المنورة التي استماتت الحامية التركية في الدفاع عنها ---- وبعد أن تمت السيطرة علي معظم المدن الرئيسية في الحجاز تدعم الجيش العربي نتيجة لفرار كثير من الضباط العرب من الجيش العثماني وانضمامهم إلي الجيش العربي ، ونجحوا في إعادة تنظيمه علي أسس الجيوش النظامية ، كما أمدتهم إنجلترا بالأسلحة والمعدات ، وفي يناير ١٩١٧ بدأت القوات العربية تتقدم شمالاً نحو الشام ---- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية – بعد سايكس بيكو – إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين)[٨٠١] والجدير بالذكر أن بريطانيا قامت بإرسال ضابط مخابرات لتنسيق تحركات العرب الحربية لتخدم معارك الجيش الإنجليزي وكان يرتدي زي العرب وأطلقوا عليه لورانس العرب
- يا لها من أحداث مؤثرة بالفعل
- واستمرت الحرب وكان القائد العثماني في الشام يُدعي جمال باشا وقد حاول جمال باشا أن يوضح للعرب الخدعة التي قام بها الإنجليز ضدهم ولكن دون جدوى (حيث وجد نفسه معرضاً لخطر مواجهة جيشين في وقت واحد : الجيش العربي يقوده فيصل بن الحسين ويتقدم من شرق الأردن نحو دمشق ، والجيش البريطاني يقوده الجنرال اللنبي ويتقدم من القدس –بعد أن نجح في احتلالها – فأرسل جمال باشا إلي فيصل برسالة في ١٢ ديسمبر ١٩١٧ تحتوي علي نص اتفاقية سايكس بيكو التي نشرت في الصحف الروسية ، ويوضح له أن التعاون مع الحلفاء لن يؤدي إلي استقلال العرب كما يعرض عليه عقد الصلح بين العرب والأتراك ، لمواجهة أطماع الحلفاء التي أصبحت مكشوفة للعيان ويطلب من

---

[٨٠٠] نسبة إلي أسماء المفاوضين : الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو

[٨٠١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٣

فيصل الحضور إلي دمشق للتفاوض علي أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع أمانيهم القومية)٨٠٢

- وبالتأكيد كانت هذه الرسالة صدمة لفيصل
- بالطبع ، فقام بإرسالها إلي والده الحسين فقام الحسين بإرسال هذه الرسائل إلي المندوب السامي البريطاني في مصر في ذلك الوقت ريجنالد وينجت يطلب منه تفسير لها ،
- يطلب تفسير من الإنجليز ، ما هذا التصرف العجيب ؟
- وقد شكره وينجت علي أنه أطلعه علي هذه الرسائل وأكد له أنها كانت مجرد محادثات مؤقتة لم تتم وأن جمال باشا قام بتعديلها فلا تجعله يخدعك
- لا تجعله يخدعك فهذه مهمتنا نحن فقط
- (وتقبل الملك حسين الرسالة والمذكرة علي ظاهرهما وقعد مستريح البال لأن إيمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد)٨٠٣ وكما حدث مع سايكس بيكو حدث بعد ذلك عندما علم الحسين بوعد بالفور لليهود وقام أيضاً بالاستعلام عن حقيقة الأمر من الحكومة البريطانية (وقد أرسلت الحكومة البريطانية القائد هوجارث ليقابل الملك حسين في جدة ويشرح له الهدف من التصريح ، وقابله بالفعل مرتين في يناير ١٩١٨ ، وأكد له باسم الحكومة البريطانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، وعلي هذا الأساس وافق الحسين علي أن يهيئ لليهود في فلسطين ملجأ آمناً من الاضطهاد ، ولكنه أكد علي أن مسألة التنازل عن مطالب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً)٨٠٤
- إلي هذا الحد تلاعب الإنجليز بالعرب ؟
- وبالمصريين أيضاً فقد تم احتلال القدس بواسطة ما يسمي بالتجريدة المصرية بقيادة اللورد اللنبي
- لابد أن نعود إن شاء الله لهذا الموضوع وما حدث في مصر أثناء ذلك ولكن بعد أن ننتهي من الحديث عن المواجهات التي حدثت بين العرب والدولة العثمانية
- علي أي حال (لم تشهد البلدان العربية الأفريقية تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل الحرب ، فقد احتفظت فرنسا بتونس والجزائر ومراكش واحتفظت أسبانيا بالريف ، أما إيطاليا فاحتفظت بالساحل الليبي ، في حين ظلت داخلية ليبيا تحت حكم السنوسيين ، ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، ولم يكن للحركة العربية صدي كبير في تلك البلدان ، فقد كانت ميول معظم العرب الأفارقة

---

[٨٠٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٤

[٨٠٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٦

[٨٠٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٧

مع الدولة العثمانية ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار الأوروبي عن طريق التمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ، كما سعي السنوسيون إلي التحالف مع الأتراك وهاجموا مصر من ناحية الغرب وشغلوا جزءاً كبيراً من جهد وتركيز القوات البريطانية في مصر حينما كان الأتراك يهاجمون قناة السويس ، وفي مصر نفسها ، كانت قلوب المصريين مع الأتراك ، بينما كانت أجسادهم مع الإنجليز ، فقد نجح الإنجليز في حشد فيالق العمال والجنود المصريين للمشاركة بجهودهم في ميادين القتال المختلفة خاصة في حملة الدردنيل ، وحملة اللنبي علي الشام ، وفي بداية الحرب نجح الإنجليز في تنمية العامل الوطني المصري ، ليلعب دوراً مضاداً للحركتين الإسلامية والعربية ، فأزاحوا الخديو عباس حلمي عن أريكة الخديوية لميوله العثمانية وأعلنوا مصر محمية بريطانية ، ونصبوا عليها حسين كامل سلطاناً ، وتتالت وعودهم للمصريين – كما كان الحال للعرب – بحصولهم علي حق تقرير المصير بعد الحرب – وبعد الحرب ونتيجة لهزيمة الدولة العثمانية ، ثم اختفائها من الوجود بعد قليل ، توارت فكرة التحالف مع الدولة العثمانية ، وظهر التيار الوطني يطالب باستقلال مصر ، لا عودتها إلي تركيا ، ولا اندماجها في وحدة مع البلاد العربية الأسيوية التي كانت الحركة العربية فيها في ذروة نشاطها ، –ولكن تيار الوطنية المصرية كان هو الآخر في ذروة نشاطه متمثلاً في ثورة ١٩١٩)٨٠٥

- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لن أشغل بالك بتفاصيل ما تم لوعود الإنجليز للعرب بعد انتهاء الحرب فقد حصلوا علي لا شئ باختصار شديد وحتي لا أجرح مشاعرك بأحداث مثيرة للأعصاب وخصوصا تفاصيل طرد فيصل بن الحسين من دمشق بشكل مهين بواسطة القوات الفرنسية ، وبشكل عام أصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين والعراق من نصيب إنجلترا (وفي فبراير ١٩٢١ ظهر في شرق الأردن فجأة الأمير عبد الله بن الحسين الذي أخذ يحشد قواته في عمان ويجمع القبائل التي حولها لمهاجمة دمشق والانتقام لطرد أخيه فيصل ، وقد اتصلت به الحكومة البريطانية وشجعته علي البقاء في عمان والاعتراف به حاكماً علي شرق الأردن علي أن تقدم له مساعدات مادية ويخضع للرقابة والمشورة البريطانية من خلال مندوب بريطاني يقيم في عمان وتم الاتفاق علي ذلك فعلاً في لقاء عقد في القدس بين الأمير عبد الله ووزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت ونستون تشرشل)٨٠٦
- لقد استطاع الأمير عبد الله الحصول علي عرش الأردن عندما أظهر لهم بعض القوة ، وقد أصبح ملكاً تحت رقابة بريطانيا ولكن أفضل من لاشئ

---

[٨٠٥] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٥٢

[٨٠٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٢

تقسيم الدولة العثمانية[٨٠٧]

- الدولة الإسلامية أصبحت مستعمرات أوروبية وأصبح بينها لأول مرة حدود مرسومة بالمسطرة علي خرائط سايكس بيكو للأسف إلي الآن
- الأسوأ من ذلك هو أن الغرب قد عمل علي ما يضمن عدم توحيدها مرة أخري تحت أي مسمي فقد (فرض الاستعمار علي العالم العربي نوعا من التجزئة الأرضية لا تقبل الوحدة ، وعمل علي إقامة الحواجز بين العرب ومنع الاتصال وتبادل الأفكار ، فقامت فرنسا بفصل لبنان عن سوريا وضم جبل لبنان إليه ليصبح لبنان الكبير بحدوده الحالية ، ثم عمدت إلي سوريا فقسمتها إلي أربعة دويلات : دمشق وحلب والدروز والعلويين وقامت بريطانيا بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، وسعت لخلق دولة صهيونية في فلسطين ، وكان من أهم أهداف التجزئة فصل المناطق الداخلية من العالم العربي عن سواحلها ، ثم الاستيلاء علي النقاط الإستراتيجية المهمة في تلك السواحل ، فقامت إنجلترا بفصل عدن وحضرموت والمحميات عن قلب الجزيرة العربية ، كما حرمت الجزيرة من ساحلها الشرقي بتمسكهم بحماية إمارات الخليج مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وكذلك حرموا شرق الأردن من ساحلها علي البحر المتوسط بفصلها عن فلسطين ، كما حرمت سوريا من جزء كبير من ساحلها بفصل لبنان ، كما تم فصل إقليم الريف ومنحه لأسبانيا ليصبح معزولاً عن بقية المغرب وحتي ساحل الصومال كانت تتقاسمه ثلاث دول أوروبية هي : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعندما عجز الاستعمار عن إيجاد حدود طبيعية لتمزيق أوصال الوطن العربي لجأ إلي الحدود المصطنعة أو الفلكية التي لا وجود لها علي الطبيعة ، فالحد الفاصل بين مصر وليبيا هو مجرد خط مرسوم علي الخريطة يتماشي مع خط طول ٢٥ شرقاً وكذلك خط الحدود بين مصر والسودان يتماشي مع دائرة عرض ٢٢ شمالاً)٨٠٨
- الأرض المجزئة يمكن أن تعود مرة أخري بطريقة أو بأخرى ولذلك لجأ الاستعمار إلي طريقة أكثر خبثاً ومكراً لتمزيق الدولة الإسلامية العربية وذلك بإدخال العامل البشري في الموضوع بحيث يجعل علي كل منطقة منهم ملك له عرش وبالتالي عندما يقترح أي شخص أن تتم الوحدة فسيتساءل الجميع من من الملوك سوف يكون ملكا علي الجميع ؟
- بالفعل إنها خطة خبيثة ومحكمة وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية جامعة قناة السويس في كتابه الممتع "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ " والذي قام بفضح جميع المخططات الاستعمارية ضد العرب : (لم يكتف الاستعمار بتجزئة العالم العربي إلي دويلات منفصلة ، وإنما عمل علي خلق أسر حاكمة لتلك الدويلات ، وإلهائها بعروش وهمية ، وتشجيع روح التنافس والعداء بين تلك الأسر ، فمن ذلك أن إنجلترا – – – عملت

---

[٨٠٧] الدولة الإسلامية كانت قبل الاستعمار رقعة واحدة بلا حدود علي الإطلاق ولا قوميات ولا جنسيات

[٨٠٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٣– ١٧٤

علي خداع الشعب العراقي باستدعاء فيصل بن الحسين الذي كان قد طرد من سوريا وجعلته ملكا علي العراق تحت وصايتها ، فكان مجرد ألعوبة في أيدي البريطانيين ، كما جعلت من أخيه عبد الله ملكا علي شرق الأردن ، وعملت علي استحكام العداء بين الهاشميين " أبناء الشريف حسين" وبين السعوديين ، وشجعت عبد العزيز بن سعود علي الهجوم علي الحجاز وطرد الملك حسين منها – – – وفي هذا الإطار اشتعلت روح التنافس بين الأسرة السعودية والأسرة العلوية في مصر ، وهي منافسات قديمة ترجع إلي عصر محمد علي الذي قضي علي الدولة السعودية الأولي ، ولكنها تجددت بفعل رفض السعوديين العادات المصرية في الحج والتي كانت تتمثل في المحمل والصرة وما كان يأتي معهما من موسيقي واحتفالات ، وقد أدي ذلك إلي قطع العلاقات السياسية بين مصر والسعودية)[٨٠٩]

- وهكذا استطاع الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه الاستخراب تقطيع أوصال الأمة بعد أن كانت قطعة واحدة بحاكم واحد فأصبحت قطع كثيرة بحكام متنافرين
- ومما فعله الغرب أيضاً إثارة النعرات الطائفية :(لم يترك الاستعمار تلك الوحدات المجزأة لتعيش في سلام ، بل عمل علي خلق المشكلات لها ، من خلال إثارة النعرات الطائفية واستثارة الأقليات الموجودة في داخل الوطن العربي ، ففي العراق لعب البريطانيون دوراً كبيراً في إثارة المشكلة الكردية وتجسيدها لتظل شوكة في جانب الوحدة القومية لسكان العراق ، والأكراد – – – ولقد ظل سلاح الأقليات من أقوي الأسلحة التي كانت بريطانيا تشهرها في وجه الوطنية العراقية ، فهناك إلي جانب الأكراد أقليات أخري كثيرة كانت بريطانيا تدعمها مثل الإيرانيين والأتراك والأشوريين والتركمان واليهود وغيرهم – – – وإذا كان الإنجليز قد نجحوا في إعاقة الحركة الوطنية العراقية – – بورقة الأقليات ، فإنهم قد فشلوا في اللعب بتلك الورقة في مصر ، حيث باءت محاولتهم الإيقاع بين المسلمين والمسيحيين بالفشل الذريع – – وقد اتخذ المصريون من الهلال والصليب شعاراً لثورتهم في عام ١٩١٩ – – وفي السودان سعي الإنجليز إلي عزل الجنوب ، وأغلقوا حدوده ومنعوا التجار الشماليين من السفر إلي الجنوب أو تجار الجنوب من السفر إلي الشمال إلا بتصريح خاص ، وأحاطوا المنطقة بسياج من العزلة لمنع توغل التأثيرات الإسلامية والعربية إلي الجنوب ، ثم تركوها مجالاً مفتوحاً للإرساليات التبشيرية الأوروبية ، فكانت النتيجة أن خلقت بريطانيا للسودان مشكلة عاني منها كثيراً ولا يزال يعاني وتحولت السودان إلي دولتين حالياً منفصلتين تماماً ، وأصبح الجنوب دولة مسيحية خالصة)[٨١٠]
- وماذا حدث للقومية العربية بعد ذلك ؟
- قام الغرب بتنمية الروح القومية عند العرب وأثاروا النعرة العربية والقومية العربية إلي أن قامت بتحقيق أهدافها والمساعدة الضخمة في القضاء علي آخر دولة إسلامية في تاريخ الإسلام وهي الدولة

---

[٨٠٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٤-١٧٥

[٨١٠] مقتطفات من صفحتي ١٧٦ ، ١٧٧ من كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال

العثمانية ، وبهذا انتهي دور القومية العربية وحان الوقت للقضاء علي الهوية الثقافية العربية (عملت القوي الاستعمارية المختلفة علي القضاء علي الهوية الثقافية العربية وطمسها ، لمحو واحد من أهم أسس القومية العربية عن طريق التهجم علي التراث الثقافي العربي ، وقطع الصلة بين العرب وماضيهم والتقليل من إضافات العرب إلي التراث الإنساني ، فحاولوا رد الحضارة العربية " الإسلامية" إلي أصول يونانية وفارسية وهندية ، وأخذت الدوائر التعليمية المتأثرة بالاستعمار تروج لهذه الفكرة ، وتابع الاستعمار هجومه علي الأدب العربي – – وانقض المستعمرون علي اللغة العربية كأداة اتصال وتفاهم بين العرب ووعاء لفظ تراثهم الثقافي ، فنادي دعاة الاستعمار باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية مثلما حدث في تركيا ، كما ارتفعت أصوات تطالب بنبذ العربية الفصحى وجعل اللهجة العامية لغة التعليم والصحافة ، محاولين بذلك قطع الصلة بين العرب وتراثهم ، وفي نفس الوقت حاربوا التعليم وحددوا مناهجه ، وقصروه علي فئة قليلة ، كما سيطروا علي وسائل الثقافة العامة كالصحافة والطباعة والإذاعة ، وظهرت دعوات لإحياء ثقافات ماتت وانقرضت ، فبث المستعمر الدعوة إلي الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق)٨١١

- وبعد كل هذا يزعم البعض أنه لا وجود لنظرية المؤامرة علي العالم الإسلامي ،
- أما بالنسبة للغة وأهميتها في توحيد أي أمة فيقول الدكتور عماد هلال (اللغة هي الروح بالنسبة للأمة ، فهي وسيلتها للحفاظ علي تراثها ، وأداة التواصل بين الأجيال ، كما تدعم الديمقراطية في المجتمع بفضل وحدة أداة التعبير ولذلك كان المستعمر يسعي دائماً لمحاربة اللغة وفرض لغته علي الأمم التي يفرض سيطرته عليها ، فقد عمل الإنجليز ذلك في الهند ، والهولنديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا ، وهكذا كل دولة استعمارية كان أول همها الهجوم علي القلعة الأولي في كيان أي قومية من القوميات الخاضعة لنفوذها ، وهي اللغة ، بهدف إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء القومية الواحدة وربطهم فكريا وثقافيا بالمستعمر)٨١٢
- فماذا كانت علاقة مصر بالقومية العربية في ذلك الوقت؟
- يقول الدكتور عماد هلال : (لا توجد أية شواهد تؤكد أن مصر كان لها دور إيجابي ملموس في الحركة القومية العربية في مراحلها الأولي ، فلم تظهر جمعيات مصرية سرية أو علنية ذات طابع قومي عربي – – واقتصر دور مصر علي استضافة الزعماء العرب المنفيين والهاربين من بطش الأتراك ، ولم تكن مصر تفعل ذلك بدافع من العروبة أو القومية العربية ، وإنما كانت تفعل ذلك بتوجيه من سلطات الاحتلال البريطاني الذي كان يحتضن الجمعيات العربية بهدف ضرب تركيا ، وقد أدي ذلك إلي معارضة كثير من المصريين للحركة القومية العربية التي كانت تنادي بالانفصال عن تركيا ،

---

[٨١١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٨–١٧٩

[٨١٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٢٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

خاصة وأن مصر كانت تعقد حبال الأمل علي الدولة العثمانية لتخلصها من نير الاحتلال البريطاني ، وفي هذا الطريق سار مصطفي كامل ومن بعده محمد فريد ، وبالتالي كان صدي نداء الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني أكثر تأثيراً في المصريين من نداء الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين ، كما نظر المصريون إلي الزعماء العرب اللاجئين إلي مصر نظرة ريب وتشكيك ، باعتبارهم متمردين علي دولة الخلافة وعملاء للاستعمار ، ويعيشون في حمايته ، خاصة وأن بعض هؤلاء الزعماء اضطروا إلي منافقة سلطات الاحتلال البريطاني التي تأويهم وتوفر لهم مجال العمل بحرية ضد الأتراك ، وخير مثال علي ذلك جمعية بيروت السرية الذين هربوا إلي مصر وأسسوا فيها جريدة المقطم التي كانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر لسنوات عديدة ، ولكن هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولي ، ومن ثم انتهت نظرة المصريين لها كمخلص من الاحتلال البريطاني ، ثم نجاح الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ في تحقيق ذلك الهدف بجهود أبناء مصر ، عندما اضطرت إنجلترا إلي إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذي منحت مصر بمقتضاه استقلالاً مشروطاً ، ومن ثم تولي دفة الحكم وزارات مصرية منتخبة ، ثم تدعيم ذلك الاستقلال باعتراف انجلترا باستقلال مصر وتوقيع معاهدة صداقة وتحالف معها في عام ١٩٣٦)[٨١٣]

كيف قام الإنجليز بالسيطرة علي الجيش المصري واستخدامه في الحرب العالمية الأولي لصالحهم؟

- أعتذر للمقاطعة ولكن هناك سؤال يحيرني ولا أستطيع أن أتفهمه وأرجو أن تحاول الإجابة عليه ، مما لديك من كتب ومراجع ، وهو كيف سيطر الإنجليز بعد احتلال مصر علي الجيش المصري لهذا الحد الذي لاحظته خلال حديثك عن الحرب العالمية الأولي لدرجة قيامه بأعمال قتالية ناجحة ضد الدولة العثمانية ؟ ألم يكن يقاتلهم مع عرابي ؟
- أنا أفهم سر حيرتك تماماً ، فلقد عرفنا كيف تشكلت الطبقة المثقفة في مصر علي الطريقة الأوروبية وطبقاً لأفكارها حتي أنها فقدت هويتها الإسلامية واهتزت ثوابتها ، أما الجيش نفسه فلم يكن معرضاً لما تعرضت له هذه النخبة المثقفة فكيف تم استخدام هذا الجيش ضد دولة الخلافة ؟ أليس هذا تحديداً ما تقصده من سؤالك ؟
- بالضبط ، لقد قمت بإعادة السؤال بشكل دقيق وواضح
- حسناً ، سوف أتلو عليك بعض ما جاء عن هذا الموضوع بالمرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥ حيث ورد تحت عنوان سياسة الاحتلال الداخلية ما يلي : (في أعقاب سيطرة القوات البريطانية علي البلاد أرسلت حكومة لندن اللورد دفرن

---

[٨١٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٨٦–١٨٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

DUFFRIN السفير البريطاني في استانبول إلي مصر في نوفمبر من نفس السنة لدراسة أحوالها وتقديم الاقتراحات اللازمة لإدارة الشئون المصرية في المستقبل ،

- الدراسة قبل اتخاذ القرار
- وأغلب ما تقدم به اللورد دفرن من مقترحات هو الذي تحول بعد ذلك إلي ما عُرِف بالقانون الأساسي الصادر في أول مايو عام ١٨٨٣ والذي نظم الإدارة المصرية خلال سنوات طويلة في أعقاب الاحتلال ، ، ولا شك أن أول مهمة رأي دفرن وجوب علاجها هي مهمة إعادة الاستقرار والأمن إلي البلاد وهي المهمة الأساسية التي تواجه أية سلطة تتولي شئون بلد خرج مؤخراً من أحداث ثورة عارمة ومن هذا الفهم جاءت أولي توصيات اللورد بإعادة تكوين الجيش المصري بعد أن تم تسريح الجيش القديم الذي قام بالدور الأساسي في الثورة العرابية وذلك بمقتضي مرسوم خديوي
- تم تسريح جيش عرابي ، لقد فهمت الآن ، فما حاجتهم لجيش مصري جديد ؟
- وبالطبع روعي في تكوين الجيش الجديد توافر مقتضيات الأمن بالنسبة لمنشئيه ومن ثم اتخذ أكثر من قرار في هذا الشأن ، أول هذه القرارت وأهمها أن تتركز قيادة هذا الجيش في أيدي ضباط من البريطانيين ، وقد عني بذلك أن هذه القيادات إنما تكون في النهاية حاجزاً يمنع الرابطة العضوية التي يجب أن تتوفر في العلاقة بين أي شعب وجيشه ، كما أنها في نفس الوقت تمنع تنفيذ أي قرارات قد تصدر من السلطة المصرية العليا –وإن كان هذا الاحتمال يكاد يكون معدوماً في ظل الوجود الاحتلالي في البلاد– إنما من الوجهة النظرية علي الأقل فإن وجود هذه القيادات يمنع تنفيذ أي قرارات قد تتنافي مع سياسة الاحتلال العامة ، ، ملاحظة أخري تتعلق بتركيب الجيش المصري الجديد ، فالوظائف الصغيرة التي يشغلها ضباط جيش مصريون اشترط لشغلهم إياها أن يكونوا متخرجين في مدرسة الدولة ، وإذا قارنا هذا أيضاً بما كان قائماً بالفعل قبل الاحتلال من ترقية الجنود إلي رتب الضباط ، فيما كان معروفاً بالترقية من تحت السلاح ، لخرجنا بنتيجة مهمة وهي أن الضباط المصريين في جيش ما قبل الاحتلال قد أتوا من الطبقات الفقيرة وفي كثير من الأحوال من أبناء الفلاحين الذين دخلوا سلك الجندية أما الضباط المصريون في الجيش الجديد فقد كانت لهم من البداية انتماءات طبقية واضحة وخصوصاً وأنه قد فرضت مصروفات عالية علي طلبة المدرسة الحربية التي لم يكن الالتحاق بها إلا لمن يقدرون علي أداء مثل هذه المصروفات ، ، ترتب علي ذلك أن نبعت القيادات المصرية في هذا الجيش أساساً من أبناء الأعيان المصريين ويتضح ذلك من أنه حتي قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تتم تحريات واسعة عن كل من يرغب في الالتحاق بالكليات العسكرية وكان الهدف من وراء ذلك التثبت من المكانة الطبقية لكل من هؤلاء المتقدمين والتي كان يقبل الطالب أو لا يقبل بناء علي نتائج هذه التحريات ،، فضلا عما سعت إليه سلطات الاحتلال من تناقض التركيب الطبقي داخل الجيش المصري الجديد وما

يترتب علي ذلك من استحالة التحام الضباط بجنودهم فقد راعت هذه السلطات أيضاً – – ذلك أنه في الوقت الذي تشكلت فيه فرق بأكملها من المصريين تشكلت فرق بأكملها من السودانيين)[٨١٤]

- كل هذا واضح ومفهوم ولكن ما لا أستطيع استيعابه هو أن يخرج جيش من مصر لاحتلال القدس التي كانت مصر علي مر التاريخ المدافع الأول عنها ضد الصليبيين وخاصة أيام الأيوبيين والمماليك
- بالفعل إنها مأساة بالفعل أن يشترك المصريون في حملة مع الإنجليز لاحتلال فلسطين وقد سميت هذه الحملة التجريدة المصرية وكانت بقيادة اللورد اللنبي

التجريدة المصرية في فلسطين

- فما معلوماتك عن اللورد اللنبي وعن هذه التجريدة ؟
- أعتقد أن أفضل ما يمكن أن أقوله لك عن هذا الموضوع هو ما قاله الفلسطينون أنفسهم عنه فقد ورد في أحد المواقع الالكترونية الفلسطينية ما يلي : – – – اللنبي هو ذلك الجنرال الانجليزى الذى قاد قوات الجيش المصري لحرب العثمانيين فى فلسطين وقام بهزيمتهم فى الحرب العالمية الاولى وقام باحتلال فلسطين.في معركة غزة واسمه بالكامل هو ادموند هنري هاينمان إلنبي (٢٣ ابريل ١٨٦١ – ١٤ مايو ١٩٣٦) وقد أرسلته بريطانيا ليكون القائد الأعلى لقوة التجريدة المصرية في ٢٧ يونيو ١٩١٧، ليحل محل السير أرشيبولد ماري. و بعد اعادة هيكلة قواته النظامية استطاع اللنبي أن يهزم القوات التركية في معركة غزة الثالثة (٣١ أكتوبر – ٧ نوفمبر ١٩١٧) و ذلك بمفاجأة المدافعين عنها بهجمة على بير سبع ، و حالت إرادة الله ثم شجاعة الخطوط الخلفية للجيش العثماني دون تدمير كامل الجيش المدافع .في التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ دخلت الجيوش الإنجليزية مدينة بيت المقدس بعد انسحاب العثمانيون منها .. و لم يستطع الجنرال اللنبي الذي كان على رأس الجيش الإنجليزي أن يخفي مشاعره فقال قولته الشهيرة التي تنم عن التعصب و الغرور و الجهل: اليوم انتهت الحروب الصليبية .
- الجملة واضحة جداً ولا تحتاج إلي شرح أو تعليق
- وهكذا انتصرت التجريدة ((التي للأسف تسمي مصرية)) بقيادة اللنبي على العثمانيين في معركة مجدو[٨١٥] في سبتمبر ١٩١٨. و كان الانتصار قاصماً للعثمانيين وحاسماً للجبهة الجنوبية في الحرب العالمية الأولى. وكان هذا الإنتصار هو القوة العسكرية التي مكنت إنجلترا من إهداء الأراضي الفلسطينية لليهود بما يسمى "وعد بلفور" عقب هزيمة العثمانيين بشهر واحد وايام قلائل .وكان الشعب المصري وظل رافضا لخوض بلاده هذه الحرب، بل لا يختلف المؤرخون في أن السخط الذي عمّ مصر

---

[٨١٤] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥

[٨١٥] هو نفس الموقع الذي شهد الانتصار الساحق للملك تحتمس الثالث في العصر الفرعوني

بعد هذه الحرب كان من أسباب ثورة ١٩١٩، وأنه لم يكن أحد ليجادل وقتها في هذا الرفض حتى أن بريطانيا –دولة الاحتلال– لم تكن تطمع في أكثر من بقاء هذا الاعتراض "سلميا" بل إن القائد العام الإنجليزي وقتها، الجنرال ماكسويل، ختم إعلانه الرسمي للحرب مع العثمانيين بهذه الفقرة" :ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثماني) بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمي القطر المصري فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالي وتطلب إليهم الامتناع عن أي عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو أداء أي مساعدة لأعدائها."وجاء في بيان إعلان الحماية (الاحتلال) الإنجليزية على مصر "تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على إن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة لا علاقة له البتة بالروابط السياسية التي بين مصر والآستانة" ولذلك كان أمل الاحتلال من المصريين "منع كل عون للعدو"وقد جرت محاولتي اغتيال للسلطان حسين كامل الذي جاء به الإنجليز ليحكم مصر بعدما خلعوا الخديو عباس حلمي، ولبعض الوزراء وحُكِم على مرتكبيها بالإعدام رحمهم الله وقد عطل الإنجليز انعقاد الجمعية التشريعية (البرلمان) خشية من أي مقاومة سياسية للاحتلال، برغم أن برلمان ذلك الزمان كان مقصوص الجناحين، (فالمحتلون وعملاؤهم لا يحبون الهيئات المنتخبة!!) وظل معطلا لعشر سنوات فيما بعد .أن المصريين كانوا يُجْمَعون بالإكراه للمشاركة في هذا المجهود الحربي، ولم يكن هذا برضاهم، بل إن العُمَد ومشايخ القرى والمحافظين كانوا ينتهزونها وسيلة للدفع بأعدائهم عبر التجنيد في هذه الحرب، وكان المصريون يدفعون الرشاوى للخلاص من هذا التجنيد لهؤلاء العمد والمشايخ وحكام الإدارات أن المصريين لم ينظروا إلى اشتراك الجيش المصري في ذلك الوقت إلا على أنه خيانة بريطانية لتعهدها السابق بأنها ستحمل العبء كاملا، ولا يرى أحد من المؤرخين –فيما أعلم– أن الهجوم العثماني كان على مصر، بل حتى أرباب المدرسة الوطنية كالرافعي، يُحمِّلون الإنجليز مسؤولية تقدم القوات التركية نحو مصر، وأنها لم تكن موجهة إلى مصر أو المصريين بل كانت ضد القوات الإنجليزية .ومثل هذا كان تقدم الشريف أحمد السنوسي الكبير من الغرب.وأما "النصر" الذي حققه الجيش المصري في دارفور، فكان ذلك ضد ثورة من سلطان دارفور ضد حكومة السودان (والسودان تحت الاحتلال الإنجليزي) فاستُعْمِل الجيش المصري للقضاء على هذه الثورة، وفعلها بأسلوب قذر، وهو السيطرة على آبار المياه، وتلقى السلطان حسين كامل تهنئة من الملك جورج الخامس وأن هذه الحرب لم تكلف مصر رجالا فقط (نحو مليون ونصف مصري أجبروا على العمل في المجهود الحربي) بل وثروات، فقد استولى الإنجليز على ما شاءوا من الجمال والبغال والخيول والحمير بأبخس الأثمان وبالمصادرات حتى لم يبق للمصريين إلا ما لا يصلح لقتال لمرض أو ضعف أو عيب، وأنقصوا المساحات المزروعة من القطن (الذهب المصري الذي كان

يساوي أهمية النيل بالنسبة للزراعة) لزراعة الحبوب لتغطية أغذية الجنود، بل وقطعت ما لا يحصى من الأشجار لاستعمال الخشب.. حتى بلغ الشعب درجة منهكة من الفقر والعوز والحاجة[٨١٦]

- من الواضح أن الذي كتب ما سبق يحترم تماماً الشعب المصري وينفي عنه ما حدث في هذه التجريدة ، وينسب كل ذلك للورد اللنبي ، ولكن هل من الممكن أن نترك الحديث عن كل هذا ونبدأ الحوار عن ثورة سنة ١٩١٩ وكيف بدأت أحداثها ومقدماتها ؟
- لا مانع بالطبع فثورة ١٩١٩ من أهم الأحداث التي وقعت في مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي حيث قرر المنتصرون في هذه الحرب عقد مؤتمر دولي لتقنين وترتيب الأوضاع العالمية بعد انتهاء الحرب والاتفاق علي توزيع المكاسب طبقاً لما حققه كل منهم من انتصارات وقد ذكرنا ما حدث للعرب من بريطانيا وفرنسا وتداعيات تطبيق اتفاقية سايكس بيكو ، وقد حاول المصريون أن يكون لهم دور أو حتي وجود في هذا المؤتمر لعرض قضيتهم والحصول علي الاستقلال

مقدمات ثورة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي

- وكيف تمت هذه المحاولة بعد انتهاء الحرب ومن الذي قام بها من المصريين ؟
- يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن ثورة ١٩١٩ ما يلي : لا شك في أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها ، قبل ١٩١٩ كان الاستعمار والذل والاستسلام ، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر ، وبعد ١٩١٩ يبدأ السير الحثيث الواعي في طريق النهوض والأمل – – – ويجرؤ الناس علي الاحتلال الإنجليزي بعد أن تحدوه في قوة – – – –والذي حدث أن ثلاثة من أهل مصر – سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي – توجهوا إلي دار المعتمد البريطاني السير ريجينالد وينجت في صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث في مصير مصر – – – وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم وأنهم يريدون أن يسافروا إلي أوروبا لعرض قضية بلادهم علي مؤتمرات الصلح التي كان الاستعداد لها يجري علي قدم وساق – بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي – وكان يري ان مصير مصر مسألة تخص الإمبراطورية البريطانية وحدها فهي بلد تحت الحماية الإنجليزية أي جزء من أملاكها وأراضيها
- ولهذا رفض السماح لهم بالسفر وقال إنه ليس لهم الحق في الكلام باسم مصر – – – فسارع الثلاثة إلي أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع واعتبرهم – وفداً – موكلاً منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته – – – وفي ٦ مارس ١٩١٩ تلقي الوفد إنذاراً من المعتمد البريطاني يطلب إلي رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال – – وفي ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه – – – وفي اليوم التالي أرسلوهم منفيين إلي مالطة ، وما إن علم الشعب باعتقال

[٨١٦] نقلاً عن صفحة التراث الفلسطين بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك

رجاله حتي انفجر بركان الثورة في ٩ مارس ١٩١٩م ، وبدأ الإنجليز في التراجع فأفرجوا عن سعد وأصحابه يوم ٧ ابريل ١٩١٩ ، وبدأ الكفاح المرير في سبيل الحرية ، كفاح شاق حافل بالتضحيات ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوي النفوس ويزيد العيون بصراً والقلوب وعياً . وهذه أهمية ثورة ١٩١٩ وذلك هو دورها في تاريخنا ، فقبل ثورة ١٩١٩ كانت مصر وأمة العرب تسيران سيراً بطيئاً هادئاً نحو الموت ، وبعد ثورة ١٩١٩ انفتح أمام مصر ثم أمة العرب طريق الحياة وهو طريق طويل عسير حافل بالنكبات والمآسي ، ، مآسي تنفع وتعلم وإن كانت تؤلم وتعطل المسير ،، قبل ١٩١٩ كنا نجاهد لكي نوجد ، كانت إنجلترا صاحبة السيادة علي بلادنا ، تقول أننا غير موجودين منذ الاحتلال البريطاني في سبتمبر ١٨٨٢ ، وكانت مشكلة المعتمدين البريطانيين هي : كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين ؟ ، بعد موت مصطفي كامل سنة ١٩٠٨ وخروج محمد فريد من مصر واضطراره إلي حياة النفي في أوروبا بعيداً عن وطنه وعقاباً له علي حبه إياه ، خيل إلي الإنجليز أنهم نجحوا أخيراً في إخراج المصريين من الميدان حتي كان يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ والحديث التاريخي الذي دار بين ممثلي مصر وممثل الاحتلال البريطاني في البلاد ، لقد كانت دهشة السير وينجت كبيرة وهو يصغي إلي سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها ، وتستوقف النظر في ذلك الحديث السطور التالية : علي شعراوي : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر ، ----وينجت :إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ ----سعد :ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال مثل باقي الأمم المستقلة ؟ ---- وينجت : ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة ، ،،،، هنا – في هذه السطور القليلة من الحوار ، نري الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ومصر كما أرادها أهلها ، هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم[٨١٧] ،

- إن هذا الكلام إذا تأملناه سنشعر بمدي تأثر جيل سعد زغلول ورفاقه بالأفكار الأوروبية وانبهارهم بها حتي يمكنك أن تلاحظ شعورهم بالدونية أمام من يتحدثون معه ونسوا أنهم ينتمون إلي الأمة الإسلامية التي هي أفضل الأمم علي الأرض

كتب التاريخ بعد ثورة ١٩١٩ تتناول تاريخ مصر أم تاريخ الأمة الإسلامية ؟

- بالفعل يؤسفني أن أقول لك أن تاريخ مصر سينحصر بعد ذلك في ما يخص مصر فقط في معظم المراجع وستصبح القضية الوطنية هي كيف تستقل مصر وتتخلص من الاحتلال البريطاني ، وستصبح ثورة ١٩١٩ هي مفترق الطرق بين تاريخ مصر كجزء من الأمة الإسلامية وتاريخ مصر كدولة لها هويتها الخاصة وكيانها المستقل وتيارها القومي الذي لا يعبأ بأخبار أي مسلم طالما أنه ليس مصرياً

---

[٨١٧] نقلاً باختصار عن كتاب – دراسات في ثورة ١٩١٩– للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد– الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥

- إن ما تقول للأسف مستمر حتي الآن فالأمة الإسلامية التي كانت تتسم بالسيولة السياسية كما تحدث عنها د جمال حمدان ومفهوم الاستقلال في المصطلح الإسلامي الذي تحدث عنه د محمود الحويري أصبحت مقسمة إلي قوميات مختلفة فأنا مصري وهذا ليبي وهذا مغربي وهذا سوري وهذا يمني إلخ فلا يهتم أحد بما يحدث للآخرين
- هذا صحيح بل إن الرابطة العربية التي حاول البعض أن يجمع بها العرب تحت مظلة واحدة قد فشلت فشل ذريع ولم تنجح في توحيد أهدافهم
- لا توجد مثل الرابطة الإسلامية مهما حاولوا أن يستبدلوها برابطة أخري
- لقد استبدلوها بالفعل ولقد ذكرت لك هذه النقطة كي تعذرني عندما أتلو عليك تاريخ مصر من الكتب والمراجع من بعد هذه الثورة فلن تجدني أشير من قريب أو بعيد لما يحدث في العالم الإسلامي كما كنا نفعل قبل هذه الثورة فليس هناك دولة عثمانية أو مملوكية أو أيوبية ولا حتي دولة محمد علي كي تجمع المسلمين تحت قيادة واحدة ، وكل ما هنالك مصر فقط منفصلة معزولة عن العالم الإسلامي ألم يقولوا مصر للمصريين
- المدهش فيما تقول أنهم نجحوا في تفتيت العالم الإسلامي ووضعوا فيما بينه الحدود وأصبح لكل دولة إسلامية وزارة خارجية وعملة خاصة وتأشيرات دخول فيما بينها ورحم الله الرحالة ابن بطوطة الذي تجول في العالم الإسلامي كله بلا حرج ، وبعد أن نجحوا في تفتيتنا أقاموا لديهم الاتحاد الأوروبي حيث عملة واحدة وسياسة خارجية واحدة وحرية حركة بلا تأشيرات فيما بينهم كما لو كانوا أمة كالأمة الإسلامية التي دمروها
- الغريب حقاً أنهم نجحوا في ذلك رغم تعدد اللغات التي يتحدثون بها وتعدد عاداتهم وتقاليدهم وتواريخهم ، أما نحن فأولي بكل هذا منهم فنحن لغة واحدة وتاريخ واحد ودين واحد ولا حول ولا قوة إلا بالله
- علي أي حال لقد وصلت رسالتك وأنا متفهم تماماً لما ستقوله عن تاريخ مصر القومي الذي كتبه مؤرخون قوميون ، ومع ذلك لن يخلو الأمر من الحديث عن أي حدث علي مستوي المسلمين بشكل عام إذا توفر لديك
- بالتأكيد ، ولنستكمل الحديث عن ثورة سنة ١٩١٩ إذا لم يكن لديك مانع
- كلي آذان صاغية

الإنجليز يفضلون التعامل مع زعماء للشعب أكثر مرونة من مصطفي كامل ومحمد فريد

- (كانت سلطات الاحتلال تدرك تماماً أن الثورة الشاملة ستنفجر حتماً وخاصة بعد انتهاء الحرب وإعادة ترتيب مناطق النفوذ في العالم وتطلع الشعوب المختلفة إلي انتزاع استقلالها وكانت تدرك أنها طالما أصرت علي استمرارها في احتلال مصر وفرض الحماية عليها وإلغاء حق السيادة الشكلية التركية عليها ، فإن ذلك كله سيجعل الشعب المصري يلجأ إلي الطريق الوحيد المتاح أمامه لانتزاع استقلاله وهو طريق الثورة بعد نفاذ صبره وضياع أمله في أن يمنحه مؤتمر الصلح هذا الاستقلال ، كانت سلطات الاحتلال تدرك أن التراكمات الثورية الطويلة التي زرعها مصطفي كامل ومحمد فريد وغيرهما لابد ستنفجر يوماً وحان هذا اليوم بعد الحرب العالمية الأولي ، وتجاهل مطالب مصر في مؤتمر الصلح وكان لابد من تطويق هذا الأمر ومحاولة احتواء الثورة المرتقبة أو استنفاذها في متاهات وروافد جانبية وهكذا كان لابد من قوة جديدة تكون بديلة للحزب الوطني الذي هو القيادة الطبيعية والصلبة للجماهير والتي لم تعرف التنازل عن مطالبها يوماً وكانت تلك القوة الجديدة هو ظهور حزب الوفد بحيث تكون قيادته من المعروفين بموالاة الاحتلال أو مداهنته أو عدم الصبر الطويل علي النضال الجماهيري ضد الاحتلال وعلي أساس أن يرفع هذا الحزب مطلب الجلاء بشرط استبعاد الحزب الوطني من المسألة ثم الوصول مع حزب الوفد إلي حلول جزئية وجانبية ،، إذا كانت الثورة كانت مسألة حتمية بفعل الجهاد الطويل والتراكم الثوري الذي تركه الحزب الوطني في الواقع المصري وبفعل وصول الشعب المصري إلي قناعة أنه لا أمل في الاستقلال عن طريق مؤتمر الصلح فإن ذلك كله كان ومع نهاية الحرب العالمية الأولي قد وجد أسباباً أخري ، كان هناك إعلان الحماية البريطانية علي مصر وإلغاء السيادة التركية الاسمية عليها وكان هناك خلع الخديوي عباس وتعيين السلطان حسين ، وأياً كان الرأي في هذا الخديوي أو ذاك السلطان ، فإن مجرد التلاعب بالعرش وجعل أمره في يد الإنجليز يعني إهدار كامل لقيمة الشعب وهيئاته التشريعية مهما كانت ضعيفة أو شكلية ،، وكان هناك توريط مصر في الحرب علي الرغم من قناعتها الدينية والمصلحية التي تحتم وقوفها مع تركيا أو علي الأقل عدم الوقوف ضدها ، ولكن الإنجليز زجوا بمصر ومرافقها وشعبها لدعم المجهود الحربي للحلفاء وساعدهم علي ذلك سلطان ضعيف وحكومة خائنة "حكومة حسين رشدي" حيث تركت للإنجليز إجبار المصريين علي العمل في بلاد الحلفاء أو في معسكراتهم ، بل وساهمت في الحرب بثلاثة ملايين جنيه تبرعت بها لصالح إنجلترا بدعوي أن إنجلترا تحمي مصر ، بل وصل الأمر إلي حد جمع الدواب وبيعها بثمن بخس للإنجليز لدعم المجهود الحربي للحلفاء ، ووصل الأمر أيضاً إلي حد الزج بالجيش المصري لقتال الأتراك في سيناء والقناة والسنوسيين علي حدود مصر الغربية ، مساعدة الإنجليز علي السيطرة علي السودان ، وكانت هناك المظالم الإدارية التي مارستها السلطات لحساب الإنجليز والتي تعسفت

في قهر الشعب سواء بالأحكام العرفية ، أو تعطيل الجمعية التشريعية أو إلغاء وزارة الخارجية أو وضع الرقابة علي الصحف أو باعتقال الأهالي بسبب أو بدون سبب أو ممارسة أقسي أنواع الظلم في جمع الرديف أو العمال المطلوبين لخدمة المجهود الحربي للحلفاء ،، وكانت هناك عمليات مصادرة الأرزاق والحاصلات الزراعية والمواشي والدواب مما جعل حياة الأهالي عسيرة جدا وأصيبوا بالفقر والجوع وعانوا من الغلاء ،، – – وكان المخطط الاستعماري الإنجليزي الخبيث يدرك أنه لن يستطيع منع انفجار الثورة وبالتالي عمل علي تطويقها قبل أن تبدأ ، ووضع علي رأسها بالخداع والقسر والإجراءات زعامات يمكن لها أن تتفاهم مع الإنجليز ، وأن تلتف حول الجماهير وتلهيها بمكاسب جزئية مؤقتة

- وهذا ما لن يقبل به الحزب الوطني بالطبع
- وكانت سلطات الاحتلال تعمل منذ وقت مبكر وكانت تدرك أن التراث السياسي والمبدئي للحزب الوطني والخبرة التاريخية التي امتلكها ستجعله متمسك بالمبادئ الجوهرية للشعب في الجلاء العاجل والدستور وبالتالي فلابد من إزاحة هذا الحزب جانباً والتخلص من قيادات الحركة الوطنية التي ترفض الحلول الوسط والمفاوضات والمناورات وهكذا وجدنا سلطات الاحتلال تحرص علي ضرب الحزب الوطني ضربات متلاحقة وعنيفة وصلت إلي حد القضاء علي صحافته تماماً والتخلص من شخصيات الحزب المخلصة والثورية فتم اعتقال البعض وتم نفي البعض الآخر ، كما مارست سلطات الاحتلال أقصي قدر من القمع والاعتقال والمطاردة والتفتيش لكوادر الحزب ومنظماته العلنية والسرية ،، وفي نفس الوقت عملت سلطات الاحتلال علي التفاهم والمناقشة مع قطاع من الأعيان المصريين وخاصة الوزراء الحاليين والسابقين حول ما يسمي بالمسألة المصرية ومن الطبيعي أن هذا القطاع من الأعيان والوجهاء كان يسعي لانتزاع استقلال مصر ولكن في إطار السيطرة الإنجليزية علي الأماكن الحيوية في مصر مثل قناة السويس ، وفي إطار السعي لدي مؤتمر الصلح أو مناشدة الضمير الإنجليزي أو غيرها من الوسائل التي لم ولن تجدي نفعاً
- بالتأكيد لن تجدي نفعاً طالما أنها ليست في إطار ثوري ، فهل معني هذا أن سعد زغلول ورفاقه أقروا في لقاء ١٣نوفمبر ١٩١٨ مع السير ونجت أحقية بريطانيا في السيطرة علي القناة ؟
- لقد طلب هؤلاء الثلاثة استقلال مصر في مقابل ضمانات لإنجلترا بأن تكون صاحبة وضع خاص في مصر وأن يكون من حقها احتلال قناة السويس عند الإقتضاء ، وقارن بين هذا وبين المطلب التقليدي والدائم للحزب الوطني في الجلاء التام دون قيد أو شرط ،، اعترف الثلاثة أن للإنجليز فضل كبير علي مصر وأن المطالبة المصرية يجب أن تكون محل مداولة بين مصر وأنجلترا مباشرة دون إشراك غيرها في هذا الأمر وفي هذا اعتراف ضمني بشرعية الاحتلال ، هاجم المستر ونجت الحزب الوطني ومحمد فريد واصفاً إياه بالتطرف ، وقد نفي الثلاثة صلتهم بالحزب الوطني وأعلنوا عدم تطرفهم واستعدادهم حتي للقبول بمستشار انجليزي دائم للمالية لتطمئن أصحاب الديون ،، أصر المستر ونجت علي أن

تلك المحادثات ودية وليست ذات صفة رسمية كما ألمح للثلاثة عن عدم حقهم بالحديث باسم مصر وبالطبع لم يكن المستر ونجت يلهو أو يلعب وهو الخبير بالشئون المصرية ، وقد قبل الحديث مع هؤلاء الثلاثة ليحقق أكثر من هدف ، وهو الذي يعرف جيداً أن جميع الأحوال في مصر تبشر بانفجار الثورة ، وكان ونجت يستهدف تخدير الجماهير بمثل تلك المحادثات ويهدف أيضاً إلي إظهار زعامة أخري للجماهير غير زعامة الحزب الوطني المتشددة والمتطرفة من وجهة نظره طبعاً ، أي أن الهدف هو منع انفجار الثورة أو وضع زعامة فوق رأسها تكون أكثر استعدادا للتفاهم ،، علي كل حال ابتلع الثلاثة الطعم إلي آخره ، أو قل حاولوا تبليعه للشعب المصري

- لذلك لم تكن الثورة دموية عنيفة وكانت سلمية وتحت السيطرة ويمكن تهدئتها أو إشعالها طبقاً للمخطط
- فاتفق سعد زغلول مع حسين رشدي باشا علي تأليف هيئة تسمي الوفد المصري وأن تحصل هذه الهيئة علي توكيلات من الأمة تخولها هذه الصفة أي ظهور قوة شعبية أخري كبديل عن الحزب الوطني)[٨١٨]
- معني هذا أن نواة حزب الوفد كانت من رحم هذا الاتفاق الذي يقبل بالحلول الوسط وبالمسارات التفاوضية والقانونية ويعتمد علي الخلق الإنجليزي الرفيع من وجهة نظرهم
- بالتأكيد لأن حسين رشدي باشا عمل في الوزارة مدة طويلة في ظل الاحتلال البريطاني كوزير وكرئيس وزراء وكانت سياساته كلها تخدم مصالح بريطانيا والحلفاء وهو محل ثقة الإنجليز (– – أما سعد زغلول فهو وزير المعارف في حكومة مصطفي فهمي منذ ١٩٠٦ وقد وقف من خلال ذلك المنصب موقفاً مريباً وقمعياً من الحركة الطلابية وشهد الطلبة علي يديه كثير من الاضطهاد والعنت ، ووقف سعد زغلول ضد اقتراح الجمعية العمومية بجعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية "مارس١٩٠٧" وقد كتب مصطفي كامل تعليقاً علي هذا الأمر :"إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزراء مصطفي فهمي باشا الأمين علي وحيه الخادم لسياسته وفهمت الناس الآن أن سعد زغلول شديد الميل إلي السلطة " – – – ووقف سعد زغلول مع وزارة بطرس غالي ضد الأمة المطالبة للدستور بدعوي أن الأمة لم تنضج بعد لهذا الأمر ، كما دافع عن مشروع مد امتياز القناة – – وكان سعد زغلول لا ينكر علاقته الودية باللورد كرومر)[٨١٩]
- إن ما ذكرته عن سعد باشا زغلول يعتبر سباحة ضد التيار لذلك يذكرني بما ورد في مقدمة كتاب كنت محتفظ به كتبته الكاتبة سهير حلمي واسمه أسرة محمد علي حيث كتبت ما يلي (– – – فالمعضلة التي تواجه أي كاتب يتطرق للكتابة عن الشخصيات التاريخية ، أن شبح الكتابة الأولي يظل يطارده

---

[٨١٨] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

[٨١٩] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

بعد أن تكون الشخصية قد وصمت بوشم يدخلها بحيرة التاريخ الراكدة ، وتكون الكتابة عنها بعد ذلك من وجهة نظر مخالفة ، نوعاً من السباحة ضد التيار ، والسباحة ضد التيار ترسو بصاحبها إلي بر الأمان في تعب وإعياء لكنها لا تغير اتجاه التيار ، إلا لمن أراد أن يبذل مجهوداً خاصاً لكي يصل إلي قناعة ذاتية ترضيه ، من هذا المنطلق طالت إقامتي بين الموسوعات والوثائق والدراسات التاريخية لكبار مؤرخينا ، حتي كدت أصاب بداء التاريخ الذي تحدث عنه نيتشه)[٨٢٠] ، ولنعود للحديث عن أحداث الثورة التي من الواضح أنها كانت سلمية أو هكذا بدأت علي الأقل ثم تطورت فيما بعد

- هذا صحيح فأهم ما يلفت النظر في أحداث هذه الثورة أنها بدأت كمظاهرات سلمية وحاول المتظاهرون أن تظل الثورة محتفظة بسلميتها ولذلك قاموا بتشكيل ما نسميه اليوم لجان شعبية للمحافظة علي النظام
- بالطبع سنتكلم عن أهم أحداث الثورة ولكنني أحتاج أن أعرف ما حدث يوم ١٣ نوفمبر وما دار من حديث بين السير ونجت وسعد زغلول ورفاقه من كتاب الرافعي عن الثورة لأنني مع الاعتذار الشديد لا يطمئن قلبي لما ذكره الكتاب الآخر عن موافقة سعد زغلول علي احتلال بريطانيا لمصر عند الحاجة ، فإذا قرأت هذا الكلام من كتاب الرافعي سيكون أكثر إقناعا بأنه حدث
- ولكنني قد ذكرت لك أهم ما دار في ذلك اللقاء وإذا ذكرته مرة أخري سيكون تكرار ممل
- لا بل سيكون تكرار محمود كما يقال وخاصة أن النقطة التي أريد معرفتها لم تذكرها فيما ذكرت عند حديثك عن هذا اللقاء
- لا مانع علي الإطلاق وسأتلو عليك إن شاء الله ما ورد عن هذا اللقاء في كتاب الرافعي وسنتوقف عندما تأتي النقطة التي تنتظرها الخاصة بموافقة سعد ورفاقه علي إعادة احتلال بريطانيا لمصر ثم بعد ذلك سوف نستعرض فقرات أخري من كتاب الرافعي
- كلي آذان صاغية

جانب من حوار ١٣ نوفمبر من كتاب ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي

- يقول الرافعي في كتابه٨٢١ : بدأ السير ونجت الحديث بقوله : إن الصلح اقترب موعده ، وإن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التي شغلته زمناً طويلاً ، وإن مصر سينالها خير كثير ، وإن الله مع الصابرين ، وإن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب ، وإنهم مع ذلك استفادوا منها أموالاً طائلة ، وإن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمي التي كانت سبباً في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم ،، فأجابه سعد باشا : ما تكون إنجلترا فعلته خيراً لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر ، وخرج من

---

[٨٢٠] من مقدمة كتاب أسرة محمد علي – تأليف سهير حلمي – باختصار

[٨٢١] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي = دار المعارف=الطبعة الرابعة–من صفحة ١١١ وما بعدها

ذلك إلي القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره وأنه يظن أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، وأن الناس ينتظرون بفروغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين ،، فقال السير ونجت : حقاً أنه ميال لإزالة المراقبة المذكورة ، وأنه تخابر فعلاً مع القائد العام للجيوش البريطانية في هذا الصدد ، ولما كانت هذه المسألة عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية ، ويأمل الوصول إلي ما يرضي ، ثم استمر قائلاً : يجب علي المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه منذ فرغت إنجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً ،، فقال سعد باشا : إن الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين علي مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذي تريده إنجلترا لهم ،، فقال : يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في سلوككم ، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة ،، فقال سعد باشا : إن هذه العبارة مبهمة المعني ، ولا أفهم المراد منها ،، فقال : أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد النظر ،، فقال سعد باشا :لا أستطيع الموافقة علي ذلك فإني إن وافقت أنكرت صفتي ، فإنني منتخب في الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر في انتخابي ، وكذلك كان الأمر مع زميلي علي شعراوي باشا وعبد العزيز بك فهمي ،، فقال السير ونجت :إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطني ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها فما هي أغراض المصريين ؟ ،، فقال علي شعراوي باشا :إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر ،، فقال السير ونجت : إذاً أنتم تطلبون الاستقلال ؟ ،، فقال سعد باشا :ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة ؟ ،، فقال السير ونجت :ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزم تخم ،، فقال عبد العزيز بك فهمي :نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم إن الحزب الوطني أتي من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد ، فأقول لجنابكم إن الحزب الوطني كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال ، وغاية الأمر إن طريقة الطلب التي سار عليها الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الأساسي الذي هو مبدأ كل الأمم ، وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الإجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة "الجريدة" وكان مقصدهم هم أيضاً الاستقلال التام ، وطريقتهم أخف في الحدة من طريقة الحزب الوطني ، وذلك معروف عند الجميع ، والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض ، ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه فإن أمتنا أرقي من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً ،، فقال السير ونجت : ولكن نسبة الأميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها إلا الجبل الأسود والألبان علي ما أظن

،، فقال عبد العزيز بك فهمي :إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم ، فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوفرة في مصر ، ومن جهة نسبة الأميين للمتعلمين ، فهذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت ، لأن الذين يقودون البلاد في كل الأمم أفراد قلائل ، فإني أعرف أن لإنجلترا وهي بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبري بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الأحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم ، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل أفرادهم العاملين ، وإنما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها كما ينبغي ، وهي مستقلة استقلالاً تاماً – ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل أن أولي الحل والعقد نسمع منهم في كثير من الأحيان أن التعليم زاد في البلد حتي صار طائفة من المتعلمين العاطلين ، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذي بأزيد من اللازم فاسمحوا لي أن أقول إن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه ، بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه ، بل هو نفسه الذي يحس بألم الداء ويرشد إليه ، فالمصري وحده هو الذي يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده في الأشغال العمومية وفي القضاء وغير ذلك ، فالاستقلال التام ضروري لرقينا ،، فقال السير ونجت :أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟ ،، فقال عبد العزيز بك :إن معرفة ذلك راجع إلي المستقبل ، ومع ذلك فإذا كانت بلاد العرب وهي دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك ،، فقال السير ونجت :قد كانت مصر عبداً لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لإنجلترا ؟فقال شعراوي باشا :قد أكون عبداً لرجل من الجعليين وقد أكون عبداً للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلي ، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين ، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسي أن تبقي تحت ذلها ، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد ،،فقال السير ونجت :ولكن مركز مصر حربياً وجغرافياً يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير إنجلترا ،، فقال سعد باشا :متي ساعدتنا إنجلترا علي استقلالنا التام ، فإننا نعطيها ضمانة معقولة علي عدم تمكين أي دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة إنجلترا فنعطيها ضمانة في طريقها للهند وهي قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء ، بل نحالفها علي غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من جنود – – -- – -- -- وبقية الحديث بكتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

- لم أكن أتخيل أن هذا الحديث قد دار علي هذا النحو ، وأعتقد أن التعليق الوحيد الذي يناسبه هو أن الإنجليز قد نجحوا في تكوين عقليات مصرية قد فقدت اعتزازها بقوميتها الإسلامية وتستجدي حقوقها

من دولة تعتقد أنها عظمي وقد فقدوا شعورهم بأنهم كانوا جزء من كيان إسلامي ضخم ساد العالم لفترة طويلة ، إنه حقاً حوار يحمل من المهانة والذل ما يحمل

- الأهم من كل هذا أن الإنجليز نجحوا في تكوين زعامة شعبية غير ثورية وتشعر بالدونية تجاههم وتتمسك بالقانون البريطاني والمناورات السياسية التي لا تجدي مع أمثال هؤلاء لتحصل علي حقوق الشعب المصري وسوف يكتشف سعد زغلول فيما بعد كما سنري أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية التي تدعي بريطانيا أنها ترفع رايتها في العالم
- إن بريطانيا بالفعل ترفع راية الديموقراطية ولكن ليس في عالمنا نحن فنحن بالنسبة لهم كائنات علي هيئة بشر وليس لنا أي حقوق من حقوق الإنسان ، علي أي حال دعنا نعود لما قد ذكرته عن ما يسمي لجان شعبية خلال هذه الثورة للمحافظة علي سلميتها طبقا لما يريده قادة الثورة ، السلميون السياسيون الذين يرفضون استخدام العنف

لجان شعبية أثناء ثورة ١٩١٩ للمحافظة علي سلميتها

- يقول الرافعي عن هذا الموضوع : ألف المتظاهرون جماعة منهم يتولون حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب أو لتنظيم المظاهرات ، سميت (الشرطة الوطنية) جعل لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم ، وهي شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر ، وقد كتب عليه بالقماش الأبيض (بوليس وطني) وكانوا يحملون العصي ليقصوا عن المتظاهرين من يندس فيهم من الغوغاء ، ومنهم من كان يحمل القرب وقلل الماء لسقيا من يظمأ من المتظاهرين ، وكان الجمهور يستجيب لنداء الشرطة الوطنية ، ويعمل بإرشاداتهم عن طواعية واختيار ، فكان لهذه الجماعة فضل كبير في تنظيم المظاهرات والبعد بها عن الاعتداء علي الممتلكات والأنفس ، وقد أسندت رئاستها إلي الشيخ مصطفي القاياتي ، وكان يصدر تعليماته إلي أفرادها من منزله بالسكرية ، وبالرغم من أن هذه الجماعة قد أفادت في حفظ النظام ومنع اندساس الغوغاء في المظاهرات فإن السلطة العسكرية البريطانية أصدرت أمراً في ١٨ إبريل سنة ١٩١٩ بمنعها ، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة[٨٢٢] وهو ما ورد في كتاب ثورة ١٩١٩ للرافعي
- وماذا ورد أيضاً في هذا الكتاب عن هذه الثورة ؟

شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف مظاهرات النساء خلال ثورة ١٩١٩

- بالطبع لن نستطيع في هذا الحوار أن نقرأ كل ما جاء في هذا الكتاب ولكن يمكننا أن نختار بعض الفقرات التي تساعدنا بشكل عام علي فهم أحداث الثورة دون الخوض في التفاصيل ، فمما ورد أيضاً

[٨٢٢] نقلاً عن كتاب (ثورة ١٩١٩) لعبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٣٥

في هذا الكتاب قصيدة طريفة لشاعر النيل حافظ إبراهيم يصف فيها مظاهرات النساء خلال الثورة فأنشد يقول :

خرج الغواني يحتججن ... ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تَخذن من ... سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن في وسط الدجنه
وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنادق ... والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ... ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان في ... ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان ... ساعات تشيب لها الأجنة
ثم انهزمن مشتتات ... الشمل نحو قصورهنه[٨٢٣]

- إنها قصيدة طريفة بالفعل فهل ورد في هذا الكتاب شئ عن ما يسمي بجمهورية زفتي في ذلك الوقت عندما رفض أهل زفتي الخضوع للحكم البريطاني ؟

جمهورية زفتي

- نعم لقد ورد هذا الموضوع في كتاب الرافعي كالآتي : ألف طلبة المدرسة الثانوية (مدرسة السيد بك كشك) بزفتي مظاهرة طافت في المدينة وانضم إليها الأهلون ، فبعثت في المدينة وما حولها روح الثورة ، وتألفت لجنة للثورة برئاسة المرحوم الأستاذ يوسف أحمد الجندي ، أعلنت الاستقلال عن – الحكم البريطاني – وأنزلت العلم الذي كان يرفع علي المركز ، ورفعت بدله علماً آخر وطنياً ، إيذاناً بإعلان الاستقلال ، وأذاعت في منشور طبعته ووزعته في المدينة أن إليها يرجع الأمر والنهي ، وكان مأمور المركز من خيار الرجال ، وهو المرحوم اسماعيل بك حمد ، فتعاون مع اللجنة بصفة غير رسمية ، وشاركها شعورها وميولها ، إذ كانت ميوله وطنية ، وتركها تباشر سلطة الإدارة ، فألفت لجاناً فرعية ، إحداها للمحافظة علي الأمن وأخري لتحصيل عوائد البلدية ورسوم شركة الأسواق ، وأخذت تنفق ما حصلته في مرافق المدينة ، وردمت بعض المستنقعات وأصلحت الشوارع ، وشغلت في ذلك العمال العاطلين ، وكان اسماعيل بك حمد يجتمع وأعضاء اللجنة في مقرها بأعلي قهوة (مستوكلي) وأصدرت جريدة اسمتها (الجمهور) كانت تطبع بمطبعة محمد أفندي عجينة ، ولما ترامي نبأ هذه

٨٢٣ من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢١٤ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

اللجنة وبخاصة إعلانها الاستقلال إلي السلطة العسكرية البريطانية ، أنفذت إليها قوة من الاستراليين لقمع الثورة ، وحين اقتربت القوة من المدينة أخذ الأهالي يحفرون الخنادق العميقة في الطرق الزراعية الموصلة إليها ، فاستعدت القوة لمهاجمة المدينة ، وصوبت إليها المدافع ، فتدخل اسماعيل بك حمد في الأمر وتوسط بين القوة ولجنة الثورة ونصح هذه بالكف عن المقاومة إبقاء علي المدينة ، وأذن للقوة بدخولها علي أن لا تتدخل في شئون الإدارة ، إذ احتمل هو مسئوليتها ، فدخل الجند المدينة ، وعسكروا في بحريها وقبليها ، وأخذوا يبحثون عن أعضاء لجنة الثورة ، فلم يرشد إليهم أحد ، وحظرت القوة علي الآهلين التجول في المدينة من غروب الشمس إلي مطلع الفجر[٨٢٤]

- **فهل استمرت الثورة سلمية بالفعل إلي النهاية أم حدثت تجاوزات ؟**
- **بالتأكيد قد حدثت تجاوزات ، فلا يمكنك السيطرة علي حراك شعبي ضخم قد تجاوز حدود العاصمة إلي سائر مدن مصر فكان من الطبيعي أن يقوم المتحمسون من الشباب بأعمال عنف وقطع للسكة الحديد والأعتداء علي بعض الممتلكات العامة وخاصة بعد أن استخدم الإنجليز القوة المفرطة في فض المظاهرات وسقوط شهداء وجرحي فهو رد فعل طبيعي**
- **أي أن الثورة قد تطورت رغما عن الجميع وحدثت أعمال عنف ، وسقط شهداء وجرحي ، ولن أسألك عن رد فعل قوات الاحتلال البريطاني لأنه سيكون سؤال ساذج ومعروف إجابته مسبقاً ، ولكن ماذا كان رد فعل قادة الثورة وزعماء الشعب لإحتواء هذه الأحداث والذين كانوا يفضلون السلمية بالطبع ؟**

نداء إلي الشعب خلال ثورة ١٩١٩ للالتزام بالسلمية

- **كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : اجتمع أعضاء الوفد وكبار العلماء وبعض الوزراء السابقين والأعيان واتفقوا علي إصدار نداء إلي الأمة يدعونها فيه إلي الإخلاد للهدوء والسكينة ، قالوا : أصدرت السلطة العسكرية – البريطانية – إنذاراً بأنها ستتخذ أقسي ما يكون من الوسائل الحربية عقاباً علي ما يقع من الاعتداء علي طرق المواصلات والأملاك العمومية ، ولا يخفي علي أحد أن الاعتداء سواء كان علي الأنفس أو علي الأملاك محرم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية ، وإن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً إذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق ، ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء ، ويسبب العسر وسوء الحال ، علي أن العقاب عليه يعرض بعض القري للتخريب ويعرض الأنفس البريئة إلي أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب ، وينبغي أن يلاحظ أن مثل هذا الاعتداء يضيع علي المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم بما يسبب من رواج إشاعات السوء عنهم ، من أجل ذلك رأي الموقعون علي هذا**

---

[٨٢٤] من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٤٥ ، ٢٤٦ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصري باسم مصلحة الوطن أن يتجنب كل اعتداء وأن لا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين حتي لا يسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة ، كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيسارعوا إلي اتخاذ جميع ما لديهم من من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد وإنا شديدو الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت به من التعقل والروية تصغي إلي هذا النداء ، وتلزم طريق الحكمة في سلوكها ، والله الهادي إلي سواء السبيل ، ٢٤ من مارس سنة ١٩١٩ [٨٢٥]

- لا أدري لماذا يذكرني هذا النداء بالمنشور الذي وزعته الحملة الفرنسية علي الشعب المصري أثناء الثورة آنذاك وأدعت أنه علي لسان المشايخ وكانوا يستعيذون فيه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ويطلبون من الناس أن يهتموا بأسباب معيشتهم ويكفوا عن مقاومة الحملة الفرنسية
- بالفعل هناك شبه بين النداء والمنشور الذي تذكرته والفرق هو أن المنشور جاء علي لسان المشايخ الذين هم كانوا بطبيعة الحال زعماء الشعب ، أما النداء الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد جاء علي لسان زعماء الأمة علي أختلاف توجهاتهم ودياناتهم فمنهم رجل الدين المسلم ومنهم أيضاً رجل الدين المسيحي وكذلك منهم سياسيين مسلمين ومسيحيين
- فهل ذكر الرافعي أسماء من قام بالتوقيع علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد فهو كمؤرخ أمين يذكر أي حدث بجميع التفاصيل المتيسرة لديه
- فهل ممكن أن تقرأ بعض الأسماء الموقعة علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد ولكن أريد قبل ذلك أن أوضح نقطة مهمة ذكرها الرافعي عن استبدال السير ونجت بشخص آخر رأت بريطانيا أنه أكثر شكيمة منه لقمع هذه الثورة وهو اللورد اللنبي
- هذا الجنرال الذي قاد التجريدة المصرية لاحتلال فلسطين ؟
- نعم ، وقد ذكر الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : أسلفنا القول بأن الحكومة الإنجليزية استدعت السير ونجت إلي لندن لتقف منه علي تطور الأحداث في مصر ، فلما تفاقمت الحوادث بعد رحيله وشبت الثورة رأت أن تستبدل به مندوباً آخر أكثر شكيمة وأقوي بأساً ، وأقدر علي مواجهة الثورة وقمعها ،، بتعيين الجنرال اللنبي مندوباً سامياً فوق العادة في مصر والسودان ، أما أسماء الموقعون علي النداء فكان منهم : شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل الجيزاوي ، مفتي الديار المصرية محمد بخيت ، بطريرك الأقباط كيرلس ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية عبد الحميد البكري ، رئيس المحكمة

---

[٨٢٥] من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

الشرعية العليا محمد ناجي ، نقيب الأشراف عمر مكرم[٨٢٦] ، حسين رشدي باشا ، عدلي يكن باشا ، أحمد مظلوم باشا ، إسماعيل سري باشا ، يوسف وهبه باشا ، عبد الخالق ثروت باشا ، أحمد حلمي باشا ، يوسف سابا باشا ، أحمد زيور باشا ، نجيب بطرس غالي باشا ، علي شعراوي باشا ، عبد العزيز فهمي بك ، أحمد لطفي السيد بك ، جورج خياط بك ، سينوت حنا بك ، وغيرهم ، وقد ذكر الرافعي أسمائهم بالكامل في كتابه بعد أن أورد نص النداء

- واضح من هذه الأسماء أنهم ينتمون إلي طبقة مختلفة عن عموم الشعب المصري فيما أظن ، فهل لديك معلومات أكثر تفصيلاً عنهم أو عن بعضهم
- هناك كتاب طريف اسمه (في المرآة) كتبه الشيخ عبد العزيز البشري وكان يتناول كل أسبوع شخصية عامة في جريدة السياسة الأسبوعية بأسلوب ساخر وقد ذكر بعض المذكورة أسمائهم كعدلي يكن وعبد الخالق ثروت وأحمد زيور والشيخ أبو الفضل الجيزاوي وأحمد مظلوم باشا وغيرهم بالإضافة إلي سعد زغلول بالطبع
- وهل متوفر لديك الآن هذا الكتاب لتقرأ منه ؟
- بالتأكيد ولكن هذا سيأخذنا بعيداً عن موضوعنا وعن سرد أحداث الثورة
- لا توجد مشكلة بل بالعكس فإن إلقاء الضوء علي بعض شخصيات ذلك العصر سيوضح الكثير

بعض ما ورد في كتاب(في المرآة) لعبد العزيز البشري عن شخصيات ذلك العصر

- لا مانع ولنبدأ مثلاً بالشيخ أبو الفضل الجيزاوي أول الموقعين علي هذا النداء حيث كتب عن الشيخ البشري ما يلي : ألا من شاء أن يقدر مبلغ التطور الذي دخل علي رجال الدين عندنا ، ويعرف مدي الطفرة العظيمة التي طفروها فليسمع القصة التالية : كان في الأزهر من ستين أو سبعين سنة عالم جليل المقدار يُدعي الشيخ الاسماعيلي ، وكان يسكن الجامع المؤيد وله تلميذ خاص علي عادة كبار العلماء في ذلك الزمان يقرأ بين يديه درسه إذا أقبل علي حلقته ويتلوه عليه إذا خلا لمذاكرته ويعينه إذا سعي ويصب له ماء وضوئه – – إلخ ، وهذا التلميذ كان يُدعي الشيخ حسناً ، وكان الشيخ الاسماعيلي رجلاً شديد الزهد في الدنيا قوي الرغبة عنها ، لا يتعلق منها بسبب إلا ما كان من شأن دينه وتعليم طلبته ، وكانت وظيفته كل يوم بضعة رُغفان يتبلغ بها وتلميذه ، وفي كل شهر ثلاثين قرشاً يأتَدِم بها وصاحبه ، ويتجمل بما فضل منها لسائر حاجاتهما ، ويدعو أحد التجار ذلك الشيخ ليتغدي عنده التماساً لبركته فيأبي الشيخ ويعتذر ، ويلح الرجل في الدعوة فيلح الشيخ في إبائه واعتذاره ، فلما أيس الرجل من إسلاس الشيخ ، طلب وجه الحيلة في الأمر فاختلي بالشيخ حسن وقال له : إذا رُضتَ لي نفس الشيخ وقدته إلي داري ليفطر عندي في رمضان ، وقد أصبحوا من رمضان

---

[٨٢٦] لاحظ وجود تشابه أسماء بين نقيب الأشراف والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف في عهد محمد علي باشا

علي أيام ، اجتعلت لك علي هذا نِحيين من السمن ، وغِرارتين من القمح ، وأربعة أعدال من السكر والصابون والشمع والبن ، فجمع الشيخ حسن كل عزمه وانصب علي شيخه يقبل يديه ورجليه ويسأله ألا يخيّب رجاء داعيه ، إذ الشيخ ما يزال في نفوره وإبائه ، والشيخ يلح في الاعتذار محتجاً بأنه ما زال في خزانته خبز كثير ، ولما طال إلحاح التلميذ فطن الأستاذ إلي أن في الأمر شيئاً فقال له : هل اجتعل لك الرجل علي هذا جُعلاً ؟ فقال : بلي يا مولاي لقد جعل لي كيت وكيت ، وأنا رجل كما تعلم ذو زوجة وأولاد ، وإني أرجو أن أعود بهذا علي شملي وأوسع في النفقة دهراً علي عيالي ،، وحينئذ طابت نفس الشيخ الأكبر بإجابة الدعوة رحمةً بعيال الشيخ الأصغر ، وعيَّن يوماً من أيام رمضان ليفطر فيه عند ذلك التاجر ، ويطير عم الشيخ حسن إليه يبشره بقبول الشيخ ، ويحتفل الرجل للأمر فيدعو بأجود الطهاة ويتقدم إليهم بطهي أزكي الأطعمة ، كما يدعو لليوم المعين أعيان التجار والسراة وكل ذي خطر في الحي لينعموا بطلعة الشيخ ويتشرفوا بمؤاكلته ، حتي إذا كان عصر ذلك اليوم لاحظ الشيخ حسن علي أستاذه فتوراً وإغضاء وتربُّد وجه وانقباضاً عن الحديث حتي إذا تهيأت الشمس للنزول قال لصاحبه : هلم بنا ، وانطلقا يطلبان حي الجمالية مثوي الداعي وما كادا يتشرفان علي حارته حتي أبصرا علائم الزينة من بنود خافقة وثريات آلقة ترتجف أثناء ذلك بطاطيخ الزجاج في ألوانها ، ورأيا كبار الأعيان وهم ميممون دار الداعي علي أُتُنهم وبراذينهم الفارهة ، فجمد الشيخ واصفر وجهه وتهدلت شفته وأرعشت يداه وصاح في تلميذه : كم اجتعل لك الرجل يا شيخ ؟ فقال : جعل لي كيت وكيت ، قال : فكم يبلغ ثمنها ؟ قال : حول الأثني عشر جنيهاً ، قال : فقسِّطها عليَّ كل شهر ثلاثين شهراً ، ودار علي محوره وجري طلقاً إلي مثواه في جامع المؤيد حيث يبسُط خِوانه مما ادخر من الخبز في خزانته ، وفينا اليوم علماء كبار ، ولنا اليوم شيخ إسلام جليل المقدار ، لم يمنعهم علمهم ولا دينهم ولا شدة ورعهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاوروها في مظاهر حضارتها حتي لا يطلقوا فينا القالة ولا يبعثوا الألسن بتنقُّص الدين والقول بأنه يدعو إلي الجمود ، وذكرت مرجع ذلك الشيخ الجامد وهربه من تناول طعام لعله قد دخله ما لا يحل ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي رجل عصامي حقاً فقد خرج من بلدته الورَّاق من أعمال مركز إنبابة إلي الأزهر وجد في طلب العلم وكدح في ذلك كدحاً عنيفاً قام عنده مقام شدة الذكاء وقوة الاستعداد ، وانتهي أمره لا أدري بأية وسيلة إلي المرحوم الشيخ العباسي المهدي الذي كره له لقبه فدعاه (أبا الفضل) فذهب له هذا اللقب من ذلك اليوم ولما استوي عالما مدرسا كان المرحوم العباسي يعتمد عليه في بعض وسائل امتحان العالمية في الأزهر ، ورأي الشيخ أبو الفضل أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا كما يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، فحرص علي جمع المال ، وكم واسي به عاتيا وكم فرج به كربة محتاج ، علي أن الله تعالي قد أنعم عليه وجازاه فيما أعطي أضعافاً مضاعفة ، وظل الشيخ مدرساً في الأزهر معروفاً بشدة الاجتهاد والمطاولة في الدرس وقوة الصبر علي التفهم علي عادة الأكثرين من علماء الأزهر في عهده فكان درسه من أحفل الدروس

بطلبة هذا النوع من التعليم ، وهو رجل معروف بحب القرآن وتلاوة القرآن فلم يتبطر وهو عالم كبير علي أن يلي مقرأة السلطان الحنفي لقاء ريال في كل شهر وعشرين رغيفا في كل أسبوع ، ثم ولي مشيخة معهد الإسكندرية وظل فيها إلي أن أفضت إلي مشيخة الإسلام في سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧ م ، ويأبي الله إلا أن يفسح له في الخير ويبسط له في الرزق - - - إلي ما أضيف إلي ذلك من وظائف عدة تجري علي مولانا الشيخ الأكبر في كل شهر مكافأة علي حضور مجلس إدارة مدرسة القضاء الشرعي وأخري لمدرسة دار العلوم ، وثالثة علي حضور مجلس الأوقاف الأعلي ، ورابعة لمجلس البلاط وخامسة وسادسة ،، ، إلي تلك الأوقاف الواسعة التي دخلت علي مشيخة الأزهر والتي لا يعلم حسابها إلا الله تعالي وما شاء الله كان ، وقد أصبح من المرض وتزاحم السنين أشبه بمومياء حتي لو قد استدرجته إلي يوماً إلي دار الآثار ما استطعت أن تستخرجه منها إلا بعد جدال وجهد في الإثبات[٨٢٧]

- واضح أن أسلوب الشيخ عبد العزيز البشري أسلوب رشيق وممتع وقد خفف كثيراً من جدية الحوار ، ولنعد مرة أخري للحديث عن الثورة
- إن الموضوع باختصار شديد أن الثورة استمرت في جميع أنحاء مصر إلي أن قام الإنجليز بمهادنتها والسماح للوفد المصري أن يتوجه إلي مؤتمر الصلح في باريس حيث أعادوا سعد زغلول ورفاقه من منفاهم وسمحوا لهم بالسفر ولحق بهم باقي أعضاء الوفد من مصر
- فماذا حدث للوفد المصري في أوروبا ؟
- اكتشف سعد زغلول في أوروبا أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية كما ذكرت لك من قبل ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها إلي محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها : منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلي نتيجة ، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول علي الاستقلال التام ، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- عاد الوفد إلي مصر وقام الشعب باستقبال سعد باشا زغلول استقبال وصفه الأستاذ العقاد وصفاً بليغاً
- فكيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا ؟
- كيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال

[٨٢٧] نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله ورحم الله كل من أدرجهم في مرآته وجميع موتى المسلمين ورحم الله الشيخ أبو الفضل الجيزاوي وغفر لهم أجمعين

<u>**استقبال سعد زغلول عند عودته بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال**</u>

- **يقول العقاد : - - - ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلي شاطئ الإسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوي قوة في سياسة مصر القومية وأن كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم علي الرغم من هذا الرجل أو مع إغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل ، لقد كان اليوم الرابع من إبريل –يوم وصوله إلي الإسكندرية– يوم الجيل بأسره في العالم بأسره ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين ، فقد انتظمت مصر موكباً واحداً للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلي عاصمة الديار المصرية وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة إلي حجرته في فندق كلاردج الذي نزل فيه وكان الناظر لا يري في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره ، وانقضي اسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم علي الاسكندرية من أقصي القطر إلي أقصاه حتي تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس إلي البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم إلي مكان يسكنون إليه ريثما يحين اليوم الموعود ، ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالي المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتي نيفت أجرة الشرفة علي أجرة البيت ، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز إلي مجاز ، ولما استقل القطار من الإسكندرية إلي القاهرة تلاحقت الجموع علي طول الطريق تأبي إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون علي القضبان في بعض القري الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم علي المستقبلين ، وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة إلي الطريق ما بين باب الحديد إلي بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان علي الإرادة أن أناساً كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك الأيدي من خطر الوقوع ، ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطريق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين ، وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه ، وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهزة الجمهور ، ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فإنما أردنا الأثر الطبيعي المفاجئ الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة مما له دلالة قومية ، ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة ، ويكفي أن نقول ان مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر علي**

حضوره أو المشاركه فيه ، وانقضي يوم الوصول إلي الإسكندرية ويوم الوصول إلي القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف من أهلهما والوافدين إليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن في سائر الأيام ، كأنما غاب الأفراد في غمار (أمة واحدة) فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء - - - - - فلم يخرج الشعب لفرجة - - ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلي حيث تتلاقي أفواجه وتتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت إلي سريرتها فإنما تجدها وتهتدي إليه في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلي مرآه[٨٢٨]

- **إن هذا الاستقبال يؤكد بما لا يدع مجالا للشك نجاح الإنجليز في صناعة زعيم شعبي علي أعلي مستوي ليكون بديلاً رائعاً للحزب الوطني المتشدد كما يقولون ، فهو رجل سياسة وليس رجل حرب كعرابي وهو يفضل المفاوضات وليس المواجهات كمصطفي كامل ولا مانع من أن يتولي الوزارة ويسيطر علي مصر نيابة عنهم بل ويحملونه مسئولية تأمين قواتهم ومنشآتهم ورعاياهم دون أن يسبب لهم أي مشاكل من أي نوع فهو زعيم قومي وليس إسلامي وبيته أصبح هو بيت الأمة وزوجته أصبحت أم المصريين وليس معني هذا أنه لا يريد الاستقلال أو لا يعمل لصالح مصر بل إنه يبذل أقصي مجهود لتحقيق مصالح الشعب المصري وللحصول علي الاستقلال ولكن بأسلوب غير مزعج**
- **أعتقد أنك قد وقفت علي المخطط البريطاني لترويض الشعب المصري وإفقاده لهويته الإسلامية ودعم قوميته المصرية كما فعلوا مع القومية العربية والقومية التركية**
- **يبدو أن ثورة ١٩١٩ كانت بالفعل نقطة تحول في تاريخ الشعب المصري حيث جعلته يهتم بقضاياه الوطنية أكثر من أي شئ آخر في العالم الإسلامي وفصلته عنه بشكل كبير ، فأصبح له زعماءه ورموزه وقوميته الخاصة ، فماذا حدث بعد ذلك ؟**
- **استمرت مقاومة الاحتلال البريطاني رغم كل جهود رجال السياسة في مصر لاستبدال العنف بالمفاوضات ، مما أزعج الإنجليز**
- **إن الذين قاوموا الاحتلال البريطاني بعيداً عن المناورات والمفاوضات السياسية كانوا فيما أعتقد يفهمون طبيعة التعامل مع الإنجليز بالأسلوب الذي يليق بهم فهو الأسلوب الوحيد الذي يمكنه تغيير الموقف في مصر ، فالمستعمرون لا يفهمون إلا لغة القوة فهل لديك معلومات عن الانقسام التاريخي الشهير الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ؟**

---

[٨٢٨] نقلاً عن كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس محمود العقاد

- كان قد حدث انقسام بين صفوف الشعب واختلاف علي من سيقوم بتمثيل الشعب في المفاوضات بعد ذلك هل سعد زغلول الزعيم الشعبي أم عدلي يكن الذي تولي رئاسة الوزارة ؟ وكل هذه الأحداث بالطبع تمت في عهد تولي السلطان فؤاد الأول عرش مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل
- فهل لديك معلومات عن هذا الانقسام ؟

انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١

- كان عدلي باشا يكن يتولي رئاسة الوزراء وقام بتشكيل وفد رسمي لاستئناف المفاوضات مع الاحتلال الإنجليزي وعرض علي سعد باشا زغلول ومن معه المشاركة فيه ليصبح الوفد الشعبي جزء من الوفد الرسمي مما أغضب سعد زغلول ومؤيديه والذي كان يرأس الوفد الشعبي الذي سافر إلي أوروبا من قبل بعد ثورة ١٩١٩ وسدت جميع الأبواب في وجهه ، فانقسمت البلاد بين مؤيد للوفد الرسمي ومؤيد للوفد الشعبي ، ثم تطورت إلي أحداث مؤسفة
- فماذا كتب الرافعي عن هذا الانقسام ؟
- إليك بعض مما كتبه عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع : - - - وقد زادت المظاهرات عنفاً بعد تأليف الوفد الرسمي سواء في القاهرة أو الاسكندرية وفي كثير من المدن الأخري واتخذت طابع العداء لكل من خالف سعداً في رأيه ، والنداء بسقوطهم والاعتداء علي منازلهم بالطوب والحجارة ، وكان هذا من الظواهر الأليمة للانقسام ، ومن الأسلحة الممقوتة في الخصومة السياسية لأن النضال السياسي بين المختلفين في الرأي من أبناء الأمة يجب أن يكون مقصوراً علي نضال الآراء ومقارعة الحجة بالحجة وبذلك ينضج الشعب وترقي أفكاره ومداركه ، أما تحريض الجماهير علي الخصوم السياسيين واتخاذ الاعتداء وسيلة لإكراههم علي تغيير آرائهم فهو وسيلة تفسد الحياة السياسية وتهدم حرية الرأي والعقيدة ، ولقد نشر الأمير عمر طوسون نداءً بتاريخ ٢١مايو سنة ١٩٢١ يستنكر فيه هذا الاعتداء قال فيه : (يا أبناء بلدي الأعزاء ، بلغني مع أشد الأسف ما حدث من بعض أشخاص غير مسئولين في أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم في الرأي والتقاذف بالأحجار في الشوارع الأمر الذي ما كنا ننتظر صدوره من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطلب الحرية وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر وعدم الحظر علي أحد وإن شذ في رأيه ، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا نشكو من ضغط الإنجليز علي حريتنا ومصادرتهم لنا في آرائنا وكيف بعد هذا تريد طائفة منا إرغام مخالفيها علي اتباع رأيها بالقوة ؟ ، فأرجوكم أشد الرجاء الإقلاع عن هذه الخطة التي تضر قضيتنا المقدسة أكبر ضرر وتشين سمعتنا وتحط من كرامتنا ، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبلاده أن يجتهد في منع ما يثير شبه الأجانب فينا ويبعد عطفهم ويخلق التهم بالباطلة لنا ، إنني لأقول هذا لا انحيازاً إلي جانب الوزارة لأني غير موافق علي خطتها كما أظهرت في اقتراحي ولكن

الواجب هو الذي دفعني أن أبين لكم الخطر الذي ينجم عن سلوك طائفة منا غير المسلك القويم ، هدانا الله جميعاً إلي الصواب)

- إن أكثر ما لفت انتباهي في بيان الأمير عمر طوسون هو جملة (ما يثير شبه الأجانب فينا يبعد عطفهم) فإلي هذا الحد كان النظر إلي رأي ألد الأعداء والخوف من اتهاماتهم لنا واستدرار عطفهم وهم من يريدون لنا الشر دائماً ، والأعجب من كل هذا أنهم السبب في كل ما أحدثوه في مصر من أفكار هدامة أبعدت الشعب عن الترابط والاعتصام بحبل الله ، وجعلتهم يفهمون الديموقراطية فهم خاطئ
- هذا صحيح فالغرب لا يريد لنا النجاح والنهوض لا بثوابتنا الإسلامية ولا حتي بتطبيق النموذج الغربي كما يدعون ، فهم يريدون لنا الضياع في اليم بين النموذجين دون الوصول إلي بر الأمان بحيث لا نصل إلي البر الخاص بهم ولا نتمكن من العودة إلي البر الخاص بنا
- فماذا حدث لبيان الأمير ؟
- يضيف الرافعي : ولكن هذا النداء الحكيم ذهب عبثاً في تيار الفتنة التي فرقت بين الناس وألقت بينهم العداوة والبغضاء وازدادت المظاهرات عنفاً في الاسكندرية ، واشتبك المتظاهرون يوم الأحد ٢٢ مايو سنة ١٩٢١ مع بعض الأجانب من الطبقات المتأخرة في حي الهماميل وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص واشتعلت النار في عدة منازل ونهبت بعض المحال التجارية الأجنبية ، وبالجملة تحولت هذه المظاهرات إلي اضطرابات ألقت الفزع في النفوس ، وقد تدخل البوليس ثم الجيش المصري لقمعها ، ولم يعد النظام إلا في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، واستمرت الاضطرابات الدامية يوم الاثنين ٢٣ مايو وتبودلت العيارات النارية من جديد بين الوطنيين والأجانب ، فتدخل جيش الاحتلال وتولي قومندان القوة البريطانية المرابطة في الاسكندرية قيادة المدينة ، وأصدر أمراً عسكرياً بمنع المرور في الشوارع بين الساعة التاسعة والنصف مساءاً إلي الساعة الرابعة صباحاً ما لم يكن بيد الشخص إذن بالمرور ، وبغلق جميع المحال العمومية في الساعة التاسعة مساء ، وقد عاد الهدوء إلي المدينة منذ مساء ذلك اليوم
- من الملفت أن يدفع الإنجليز أولاً بقوات الأمن المصرية فإذا فشلت في السيطرة علي الأمور يقومون بالمهمة بأنفسهم ، وعلي أي حال إنها أحداث مؤسفة بالفعل ، والسياسيون المصريون يتحملون مع الإنجليز مسئولية ما حدث ، لقد كان يجب علي أي سياسي وطني كما يدعي أن يوضح للشعب أن هناك انقسامات عديدة تحدث في جميع بلاد العالم وتلجأ الشعوب المتحضرة كما يدعون إلي الصناديق لحسم هذه الانقسامات ، أما في الشعوب المتخلفة التي فقدت هويتها وثقتها بنفسها فتتحول الانقسامات إلي اضطرابات وقد تصل إلي حروب أهلية ، فكم بلغ عدد الضحايا في هذه الأحداث ؟
- يقول الرافعي : بلغ عدد ضحايا تلك الاضطرابات الممقوتة ٤٣ قتيلاً و ١٢٩ جريحاً من المصريين و ١٥ قتيلاً و ٧١ جريحاً من الأوروبيين فكان لهذه المأساة وقع أليم في النفوس ورأي سعد أن

المظاهرات قد تعدت إلي الأجانب وتحولت إلي اضطرابات هي أبعد ما تكون عن التظاهر وأدرك خطورة العواقب السيئة التي نجمت عنها فنشر نداء ٢٤مايو بالحث علي الهدوء والسكينة وحسن معاملة الأجانب[٨٢٩] ، وجدير بالذكر ان مفاوضات الوفد الرسمي برئاسة عدلي باشا يكن قد باءت بالفشل أيضاً كمفاوضات الوفد الشعبي برئاسة سعد زغلول ثم استقالت الوزارة ، وعندما أدرك الإنجليز عدم جدوي المفاوضات قاموا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب واحد وفرضوا فيه ما رفضه المصريون في المفاوضات وهو وجود قاعدة عسكرية بريطانية في مصر وإعلان الاستقلال وقيام حكومة دستورية في البلاد مع وجود مندوب لبريطانيا يتمتع بنفوذ خاص

إعلان بريطانيا تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد

- بالطبع لن يقبل أي مفاوض مصري بما جاء بهذا التصريح فاضطر الإنجليز لإعلانه من جانب واحد ، وهل صدق المصريون أن هذا التصريح قد أعطي لمصر الاستقلال ؟
- علي أي حال لقد تم وضع التصريح موضع التنفيذ وعمل علي تفعيله رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا الذي كان يرفض قبول الوزارة إلا بعد أن تم صدور هذا التصريح وقام السلطان فؤاد بإصدار أوامره للحكومة بإعداد الدستور وقانون للانتخابات لبدء حياة سياسية جديدة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فؤاد ملكاً علي البلاد بدل من لقب سلطان ، وأصبح لمصر وزير للخارجية بعد أن كانت شأن من شئون بريطانيا ، وأهم ما يميز هذا التصريح أن الإنجليز قد حملوا الحكومة المصرية مسئولية تأمين الجيش البريطاني والرعايا الأجانب بدلاً منهم ، أي جعل المصريين يواجهون بعضهم بعضاً
- فما أبرز أحداث المقاومة التي تمت ضد الاحتلال البريطاني ؟
- حدثت هذه الاعتداءات في عهد اللورد أللنبي ووزارة عبد الخالق ثروت باشا وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :وتعددت حوادث اغتيال الموظفين البريطانيين ولم يعرف الفاعلون في معظمها وتحرج لها موقف الوزارة ، ففي مارس ١٩٢٢ أطلق مجهولان الرصاص علي المستر مكنتوش بك مدير قسم القطارات بالسكك الحديدية بالقرب من منزله بالزيتون فأصيب بإصابات بليغة وفي مايو أطلق مجهول الرصاص علي البكباشي كيف مساعد حكمدار فرقة ب بشارع الفلكي فمات من جراء إصابته ، وبلغت هذه الحوادث سبعاً ولم تهتد الحكومة إلي الجناة فيها ، وتم احتجاج الحكومة البريطانية علي حوادث الاغتيال فقد أدي تكرار هذه الحوادث وعدم ظهور الفاعلين فيها إلي انزعاج الحكومة البريطانية فاحتجت رسمياً لدي الحكومة المصرية ، وأبلغ هذا الاحتجاج كتابة إلي ثروت باشا رئيس الوزراء في مايو سنة ١٩٢٢ علي يد اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني وقد جاء فيه :" إن عدم الاهتداء إلي مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة القانون يدل اوضح

[٨٢٩] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

الدلالة علي عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته" ، ورد ثروت باشا علي هذا الاحتجاج بأن الحكومة المصرية أول من يأسف لوقوع تلك الاعتداءات التي تنكرها وينكرها الشعب المصري ، وأنها اتخذت التدابير الأدبية والمادية لمنع وقوعها وهي لا تتأخر عن التشديد علي جهات البوليس بمضاعفة اليقظة والانتباه مبالغة في العمل علي زيادة تأثير التدابير التي سبق اتخاذها ، وأما عن التعويض فمع أن الحكومة لا تري بأنها مسئولة بأكثر من توفير شرطة تقوم بأداء واجباتها قياماً حسناً ، إلا أن ما تعودته من حسن الضيافة نحو الأجانب يجعلها لا تتردد في أن تمنح براً منها وكرماً من وقع به أمثال هذه الاعتداءات السياسية ما تري أن الظروف تقضي به من التعويضات وأن الحكومة أظهرت استعدادها للجري علي هذه الخطة في أحوال سابقة وأنها ستظهر مثل هذا الاستعداد كلما رأت الظروف تدعو إلي ذلك ، ويضيف الرافعي فيقول :وفي الحق أن الرد صيغ في قالب مملوء حكمة وكرامة واتزاناً ، ولم تقف حوادث الاعتداء إثر هذا الاحتجاج والرد عليه ، ففي ٣ يوليه اكتشف مؤامرة لاغتيال المستر برت المفتش بالسكة الحديدية ، وفي ١٥ يوليه أطلق بعض المتآمرين الرصاص علي الكولونيل بيجوت الموظف بالمصلحة المالية التابعة للجيش البريطاني فاصيب بإصابات بليغة ، فأرسل اللورد أللنبي إلي ثروت باشا كتاباً في ٢٠ يوليه يبلغه فيه أن الحكومة البريطانية تنظر بقلق متزايد إلي الاعتداءات المتكررة التي لم يتوصل إلي معاقبة مرتكبيها وآخر مثل منها محاولة أغتيال الكولونيل بيجوت وان الحكومة المصرية يتعلق بها أن تتخذ إجراءات شديدة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ، وأن تضع حداً قاطعاً لحملة الجرائم السياسية ، علي أنه كلف بأن يخبره بأنه إن لم يتم ذلك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر أن المسألة ذات خطورة كبري ، فرد عليه ثروت باشا بأن المندوب السامي لا يجهل أن الحكومة المصرية لم تقصر في اتخاذ تدابير خاصة في هذا الشأن وأخصها زيادة عدد القوات الأوروبية في البوليس لكي يتيسر له زيادة عدد دورياته وإذا كانت هذه التدابير لم تؤد إلي منع وقوع تلك الجرائم وتعرف مرتكبيها فإن الحكومة المصرية أول من يأسف علي ذلك علي أنها ستثابر علي الخطة التي أبلغها في رده السابق وأنها عملاً بهذه الخطة لن تألو جهداً في أن تزيد علي قدر المستطاع أشد التدابير المتخذة لمنع وقوع هذه الجرائم والبحث عن فاعليها وأنها تنوي أن تنشئ في وزارة الداخلية فرعاً خاصاً تحصر في يده التحقيقات الخاصة بالاعتداءات السياسية والإشراف علي الأبحاث المتعلقة بها[٨٣٠] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا(1928 - 1873) ، كان رئيس

[٨٣٠] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

وزراء مصر في عهد الملك فؤاد الأول .وقد تولى رئاسة الوزراء لفترتين من 1 مارس 1922 إلى 30 نوفمبر 1922 ، ومن 26 أبريل 1927 إلى 16 مارس 1928.

علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء

- إن أكثر يلفت النظر فيما ذكرت هو تولي الإنجليز وظائف دقيقة في مصر وأن الوزارة تشعر بأنها في وضع تحتاج فيه للدفاع عن نفسها وتعلن أسفها علي الضحايا الإنجليز بصدق ، فكيف كانت علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء ؟
- يقول الرافعي : الواقع أن المغفور له الملك فؤاد لم يكن يميل إلي بقاء ثروت باشا في الحكم بل لم يكن ميالاً في الأصل إلي إسناد الوزارة إليه ولكن ضغط الحوادث كان فوق إرادته فاحتمل ثروت باشا علي كره منه ، مضمراً انتهاز الفرص لإسقاطه ، هذا إلي أنه لم يكن يميل إيضاً إلي صدور الدستور ، أما عدم ميله إلي ثروت فلأنه كان ذا شخصية كبيرة لا تخضع في كل الأمور لما يطلب الملك ، وليس هذا هو الطراز الذي يرتضيه ، بل كان يؤثر الرؤساء والوزراء الذين لا شخصية ولا إراده لهم ، - - ولذلك كان يضمر إسقاط ثروت من اليوم الذي ألف فيه وزارته ، ولم يشفع له أنه كان له الفضل بحسن مسعاه في التعظيم من شأنه ، إذ صار صاحب الجلالة الملك بعد أن كان سلطاناً تحت الحماية البريطانية ، لم يكن لهذا الفضل أثر في نفسه بل كان له فيها أثر عكسي ، لأن من خصائص الملوك الحاكمين بأمرهم أن يحقدوا علي من له فضل عليهم ، ومن ناحية أخري فقد كان ثروت باشا جاداً في وضع الدستور واستصدار المرسوم الملكي به وكان يستحث لجنة الدستور علي إنجازه حتي يصدر وهو لا يزال في الوزارة - - ولكن الملك فؤاد لم يكن يميل إلي إصداره ، لأنه رأه كما يقول يغل سلطته ويجعل الحكم مرجعه إلي الشعب وهذا ما لا يبغيه الملك - -مع أنه قبل إعلان الاستقلال (بتصريح ٢٨فبراير١٩٢٢) لم يكن يملك سلطة ما ، بل كان سلطاناً تحت الحماية لا يصدر عنه إلا ما يأمره به عمال الحماية ، ولكن هكذا شأن الملوك الحاكمين بأمرهم ، يتناسون الحقائق إذا كان في ذكرها ما يتعارض مع أهوائهم ، ولا يفكرون إلا في الاستزادة من سلطتهم علي حساب سلطة الشعب ، كان لابد إذن للملك من تنحية ثروت عن الحكم ، لكي تغير مجري الأمور من بعده فيتعطل صدور الدستور وقد يقبر قبل أن يولد[٨٣١] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا هو أول من تولي رئاسة الوزارة بعد تصريح ٢٨ فبراير الذي صدر من بريطانيا من جانب واحد لإلغاء الحماية علي مصر وإقامة حكومة دستورية في البلاد مع وجود قاعدة عسكرية بريطانية بها ، وقد حاول ثروت باشا كما ذكرنا تفعيل هذا التصريح فيما يخص صدور الدستور ولكن من المعروف أن الدستور صدر سنة ١٩٢٣

---

[٨٣١] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩)–الجزء الأول– عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

دستور ١٩٢٣ وقيام أول حكومة منتخبة دستورية في البلاد برئاسة سعد زغلول

- وهل تم عمل دستور للبلاد ؟
- بالطبع إنه دستور ١٩٢٣ الذي يُعتبر منحة من الملك للشعب بناء علي تصريح فبراير الذي كان منحة من الإنجليز أيضاً وتم عمل انتخابات للنواب لتشكيل الحكومة وقد فاز الوفد بالطبع بالأغلبية
- وهل وافق الزعيم الشعبي سعد زغلول علي الاشتراك في عملية انتخابية في ظل الاحتلال وطبقاً لشروط تصريحهم ودستور الملك فؤاد ؟ لأن هناك فرق كبير بين الدستور الذي انتزعه الشعب بالثورة العرابية في عهد الخديوي توفيق وبين دستور جاء بتعليمات من الملك تحت إشراف الاحتلال
- نعم لقد اشترك سعد وحزبه في الانتخابات وأصبح أول رئيس للوزراء بعد دستور ١٩٢٣ وقام الملك فؤاد بإرسال خطاب يكلف فيه سعد زغلول باشا بتأليف الوزارة بناءاً علي حصول الوفد علي الأغلبية
- فهل لديك نص هذا الخطاب ؟
- نعم لقد أورده الرافعي كالآتي : -- عزيزي سعد باشا ،،،، لما كانت أمالنا ورغائبنا متجهة دائماً نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهته وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهداً جديداً من أسمي أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجو لها من رفعة الشأن وسمو المكانة ولما أنتم عليه من الصدق والولاء وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأي في تصريف الأمور وبما لنا فيكم من الثقة التامة قد اقتضت إرادتنا توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للأخذ في تأليف هيئة الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالي به ، ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود علي بلادنا بالخير والسعادة إنه سميع مجيب ،، صدر بسراي عابدين في ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣٤٢ (٢٨يناير سنة ١٩٢٤)
- إن هذا الخطاب لم ترد فيه أي إشارة لفوز سعد بالأغلبية
- نعم وقد قال الرافعي عن ذلك : - - ومما يلاحظ في كتاب الملك أنه لم يجعل من أسباب تكليفه سعداً بتأليف الوزارة أنه نال ثقة الأمة في الانتخابات ، بل لم يشر إليها إطلاقاً واقتصر الكتاب علي العبارات التقليدية التي تكتب لمن يختاره ولي الأمر لتأليف الوزارة ولعل الملك أراد بهذا الإغفال المتعمد أن لا يعترف بالأساس الدستوري لقيام الوزارات وسقوطها ولا يعترف بسلطة الأمة وبحقها في اختيار حكامها ، وقد أكمل سعد هذا النص في جوابه إلي الملك ، إذ جعل أول سبب لولايته الحكم احترامه إرادة الأمة وارتكاز الحكومة علي ثقة وكلائها
- فكيف كان رد سعد زغلول علي خطاب الملك ؟
- إليك بعض مما جاء في جواب سعد زغلول إلي الملك فؤاد رداً علي جواب تكليفه بتأليف الوزارة : ،،، مولاي صاحب الجلالة ،،، إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف توجب علي والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضي باحترام إرادتها وارتكاز حكومتها علي ثقة

وكلائها ألا أتنحي عن مسئولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخري وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتكم تكليفي بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصري الذي لا أزال متشرفاً برياسته ، إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة علي تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمي إلي ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد إيقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدت من حرية أفرادها وشكواها من سوء التصرفات المالية والإدارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران ، فكان حقاً علي الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهداً مسئولاً منها أن توجه عنايتها إلي هذه المسائل الأهم فالمهم منها – – – – –ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وتري فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلاً أميناً أميناً يسعي لخيرها ، وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها ، فكان علي الوزارة الجديدة أن تعمل علي استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلي إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام ، – – –هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة – – –فأرجو إذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزارة علي الوجه الآتي مع تقليدي وزارة الداخلية : محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، محمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، أحمد مظلوم باشا لوزارة الأوقاف ،،،، – – – –وأدعو الله أن يطيل في أيامكم ويمد في ظلالكم حتي تنال البلاد في عهدكم كل ما تتمناه من التقدم والارتقاء وإني علي الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم ، ، سعد زغلول[٨٣٢]

- إن أكثر ما يلفت النظر في كتاب سعد باشا هو مقولته الشهيرة (ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد) ، ولعله بالفعل قد صحح للملك مفهومه عن تكليف زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة لأنه اختيار الشعب وليس اختيار الملك
- علي أي حال فإن بقبول سعد الاشتراك في الانتخابات ثم قبوله الوزارة قد أصبح مسئول عن تأمين البلاد في ظل الاحتلال البريطاني وعندما فشل في ذلك تمت الإطاحة به
- وهل تمت الإطاحة به بانتخابات أخري ؟
- لا بل تم استغلال حادث مقتل السير لي ستاك في ذلك كما سنري بعد ذلك
- فما أهم ما وقع من أحداث بين سعد باشا زغلول والملك ؟

[٨٣٢] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

- لقد حدث أن سعد باشا زغلول والملك فؤاد قررا يوماً أن يحتكما لبارون بلجيكي وهذا الموقف رواه البارون البلجيكي فيرمين فان دن بوش في مذكراته التي كتبها بعنوان عشرون عاما في مصر حيث كان يشغل منصب النائب العام في المحاكم المختلطة في مصر ، وقد تدخل لحل النزاع الذي نشب بين الملك والوزارة بشأن تفسير مادة في الدستور حيث كان هذا الدستور مستمداً في كثير من نصوصه من الدستور البلجيكي
- فماذا حدث بعد ذلك

حادث مقتل السير لي ستاك وتأثيره علي الحياة السياسية في مصر

- لقد حدث حادث أثر علي الحياة السياسية في مصر وهذا الحادث هو مقتل السير لي ستاك باشا Lee Stack (1868-1924) سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام
- فماذا كتب الرافعي عن الحادث ؟
- يقول الرافعي : – – – – ففي نحو الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما كان السردار عائداً في سيارته من مكتبه بوزارة الحربية إلي داره بالزمالك ، أطلق عليه الرصاص خمسة أشخاص كانوا متربصين في سيارة – – فأصيب السردار إصابات خطرة – – وقد توفي متأثراُ من جراحه يوم ٢٠ نوفمبر حوالي منتصف الليل ، ، شيعت جنازة السردار باحتفال مهيب في صباح السبت ٢٢ نوفمبر ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ذهب اللورد أللنبي المندوب السامي البريطاني إلي رئاسة مجلس الوزراء في مظاهرة عسكرية يتقدمه مائتان وخمسون جندياً بريطانياً من حملة الرماح ، ويتبعه مثل هذا العدد ، وقابل سعداً في مكتبه مقابلة جافة ، وقدم إليه بلاغين (إنذارين) محررين باللغة الإنجليزية بعد أن تلا عليه نصهما ، – – –إلي حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء ، يا صاحب الدولة ، أقدم لدولتكم من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالي : أن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصري الذي كان أيضاً ضابطاً ممتازاً في الجيش البريطاني قد قُتِل قتلاً فظيعاً في القاهرة – – –فبناء علي ذلك تطلب حكومة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية : ١ – أن تقدم اعتذاراً كافياً وافياً عن الجناية٢ – أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص البحث عن الجناة وأن تنزل بالمجرمين أياً كانوا ومهما تكن سنهم أشد العقوبات ، ٣ – أن تمنع من الآن فصاعداً وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية ، ٤ – أن تدفع في الحال إلي حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، ٥ – أن تصدر خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصري البحتة من السودان – –٦ – – – –وإذا لم تلب هذه المطالب في الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة علي الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها في مصر والسودان – – – – – – –وفي اليوم التالي ٢٣ نوفمبر ذهب واصف بطرس غالي باشا وزير الخارجية إلي دار المندوب السامي

البريطاني وقدم رد الحكومة علي هذين الإنذارين ويتلخص في نفي المسئولية عن الحكومة المصرية وقبول المطالب الأربعة الأولي - - - - -لم يرض هذا الرد الحكومة البريطانية - - -أول تدبير اتخذه -المندوب السامي البريطاني - هو صدور التعليمات إلي الجنود البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية - -وكان مفهوماً من المراسلات التي تبودلت بين اللورد أللنبي وسعد باشا أن الحكومة البريطانية لا تريد بقاء سعد في الوزارة بعد مقتل السردار وأنها اعتبرت وزارته مسئولة عن الحادث ، فعرض سعد علي الملك استقالة الوزارة- - وتم قبول الاستقالة يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، ويضيف الرافعي : إن نظرة فاحصة إلي البلاغات البريطانية في حادث مقتل السردار يتبين منها مبلغ الظلم والعسف الذي بدا من الجانب البريطاني إثر هذا الحادث ، فإن الاعتداء علي السردار كان ولا شك حادثاً فردياً فمن الظلم أن تحمل الحكومة والبلاد مسئوليته ، ومن أفظع مظاهر الظلم أن ترتب عليه الحكومة البريطانية إقصاء الجيش المصري عن السودان وإطلاق يد الإدارة الإنجليزية فيه - - - البلاغات الجائرة والمطالب الظالمة التي توجهت بها إنجلترا إلي مصر في أعقاب حادثة السردار لم تكن إلا مظهراً لسياسة العدوان التي درجت عليها بإزاء مصر من قبل ومن بعد وهي منطق القوة الغشوم في الاعتداء علي الحق ، وما كانت حادثة السردار إلا فرصة سنحت فاتخذتها ذريعة لتحقيق أغراضها وبعبارة أخري كانت هذه المطالب برنامجاً سابقاً لإنجلترا حيال مصر ، تلك حقيقة دلت عليها الحوادث المترادفة وقد أيدها الكاتب الفرنسي موريس برنو في كتابه (قلق الشرق-أو علي طريق الهند) الذي ظهر في منتصف سنة ١٩٢٧ ، فقد ذكر صفحة ٢٥ ، أنه قابل اللورد أللنبي بعد مقتل السردار وسأله عن وجهة نظره ، فأجابه في صراحة : إن كل ما حدث كان متوقعاً وقد كان البلاغ النهائي في درج مكتبي قبل أن يقتل السردار بوقت طويل ، ولكني غيرت فقط صيغته التي جعلتها أكثر شدة ، اجتمع مجلس النواب والشيوخ في جو مضطرب مكفهر - - وقرر بالإجماع الاحتجاج علي تصرف الحكومة البريطانية - - -فلذلك يعلن مجلس النواب المصري علي ملأ العالم شديد احتجاجه علي هذه التصرفات الجائرة الباطلة ، ويشهد الأمم المتمدينة علي فداحة تلك المطامع الاستعمارية التي لا تتفق مع روح هذا العصر وحقوق الأمم المقدسة ، ويبلغ احتجاجه إلي برلمانات العالم ويرفع الأمر إلي مجلس عصبة الأمم طالباً إليه التدخل في الأمر لرفع الحيف عن أمة بريئة تتمسك بحقوقها المقدسة في الحياة والحرية ولا تبغي عن استقلالها بديلاً - - ،، ولم تبد أية دولة عطفاً ما علي مصر في محنتها بل إن معظمها أيد الحكومة البريطانية في مطالبها - - - فاستقلال الدول الشرقية جريمة في نظر أولئك الاستعماريين الذين لا يريدون للشرق إلا أن يكون حقلاً لاستعمارهم وبغيهم ، ويخشون من نزعاته الاستقلالية ويرونها خطراً علي مطامعهم فما أشد ما في هذه السياسة من ظلم وبغي وعدوان ، تألفت الوزارة الجديدة برئاسة أحمد زيور باشا في نفس اليوم الذي قبلت فيه استقالة سعد باشا وكأن الأمر مبيتاً من قبل - - ولقد سلمت وزارته ببقية المطالب البريطانية التي وردت في إنذار ٢٢ نوفمبر

– – – فكان لهذا التسليم الشائن وقع أليم في أرجاء البلاد – –استصدرت وزارة زيور في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤ مرسوماً بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً وكان هذا التأجيل نذيراً بما سيعقبه من حل مجلس النواب[٨٣٣]

- إذن فقد استغل الاحتلال البريطاني هذا الحادث الفردي لتحقيق ما كان يهدف إليه
- ليس هذا فحسب بل إن هذا الحادث قد أدي إلي حل البرلمان وتغيير الوزارة وفقاً لهوي الملك وهي وزارة زيور باشا الذي أجل عقد البرلمان ثم حله ، وهذه الإجراءات تُعد انقلاب علي الحياة الدستورية ، وهو ما أدي إلي تكررها بعد ذلك فأصبحت الحياة الدستورية في مصر تحت رحمة الملك والاحتلال يعبثون بها كما يشاءون فتارة يقف الاحتلال مع الوفد ضد الملك وتارة أخري يقف مع الملك ضد الوفد وأصبحت مسألة حل البرلمانات المنتخبة لعبة في أيديهم
- إذن لم تتمكن مصر من تجربة حياة دستورية حقيقية في ظل الاحتلال البريطاني وملك من سلالة محمد علي وقادة سياسيون انفصلوا عن قوميتهم الحقيقية وبحثوا عن هوية أخري

إلغاء الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م

- علي أي حال اسمح لي أن نترك زيور باشا ووزارته والملك فؤاد وعبثه بالدستور والبرلمانات والحكومات والمندوب السامي الذي يتلاعب بالجميع علي أن نعود إليهم بعد أن نقف معاً عند حادث جلل في تاريخ الأمة الإسلامية ألا وهو إلغاء الخلافة العثمانية وذلك بعد أن تمكن الاتجاه القومي العلماني في تركيا من السيطرة علي الأمور بمساعدة الغرب وتصعيد مصطفي كمال أتاتورك كزعيم قومي تركي وقد قام أتاتورك بتحويل تركيا إلي دولة علمانية وإلغاء الخلافة العثمانية وكان هذا من شروط بريطانيا للاعتراف بجمهورية تركيا برئاسة أتاتورك وقد وردت هذه الشروط في مؤتمر لوزان الشهير
- فما قصة هذا الموضوع الخطير ؟
- دعني أبحث عن معلومات عن هذا الموضوع في أحد الالكترونية علي شبكة المعلومات الدولية الانترنت لعلي أجد تلخيصاً بليغاً لما حدث ليغنيني عن اختيار كلمات مناسبة لهذه المأساة
- لا مانع ،، فلنبحث معاً عن أكثر المواقع مصداقية
- لقد وجدت الموضوع تحت عنوان إلغاء الخلافة.. وانفراط عقد المسلمين في ذكرى إلغاء الخلافة العثمانية: ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ[٨٣٤]
- حسناً فلنقرأ مقتطفات من هذا الموقع

---

[٨٣٣] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

[٨٣٤] نقلاً عن موقع islamonline.net

- يقول الموقع : – – – ولم يدخر الغرب في معركته ضد الخلافة سلاحًا إلا استخدمه، بدءًا من الإرساليات التبشيرية والغزو الفكري، وإشعال الثورات والفتن الطائفية والمذهبية، واصطناع الجواسيس والأعوان وشراء الذمم بالمال، حتى تم تقويض الخلافة على يد مصطفى كمال. ويذكر المؤرخ الفرنسي "دين جروسيه" في كتابه "وجه آسيا" أن عملية تصفية الخلافة العثمانية استغرقت ٢٢٠ عامًا، بدأت بمعاهدة "كارلوفجة" سنة (١١١١ هـ = ١٦٩٩م)، تضافرت فيها جهود الدول الكبرى عبر السنين الطوال، إلا أن اختلاف أطماع هذه الدول وتضارب مصالحها في تركة الدولة العثمانية كان سببًا في إطالة عمرها. ،، دور "الاتحاد والترقي" :كانت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م) انضمت حكومة الاتحاد والترقي إلى جانب ألمانيا، ودخلت تركيا حربًا لا دخل لها بها وأجهضت قوتها البشرية والاقتصادية والعسكرية، حيث تمزق الجيش التركي على جميع الحدود والجبهات نتيجة للقيادة الفاشلة والعميلة، وانتهت الحرب سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨م) بهزيمة ألمانيا وتركيا، وتحطُّم دولة الخلافة وتمزق أوصالها، حيث استولى الإنجليز على قلاع الدرنديل، واحتلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية مدينة إستانبول، واحتلت اليونان أزمير، ووقعت هدنة "مدروز" التي نصت على استسلام الدولة العثمانية دون قيد أو شرط، وبدأت القوات العثمانية تلقي سلاحها، واستعد الحلفاء لاحتلال الأستانة وغيرها من المدن التركية، وأدت روح التشفي التي صدرت عن الحلفاء والأقليات الدينية إلى نمو روح المقاومة لدى الأتراك. ، أما كبار رجال حزب الاتحاد والترقي الذين كانت في أيديهم مقدرات البلاد فقد فروا من البلاد، وكان السلطان العثماني الجديد "محمد وحيد الدين" يدرك أن وجود تركيا لازم لدول الغرب لإقامة التوازن بينها، كما أن بريطانيا وفرنسا لن تسمحا بالقضاء على تركيا قضاءً مبرمًا؛ لأن ذلك يفسح المجال أمام روسيا الشيوعية للاستيلاء على الأناضول، وبالتالي على مضيق البوسفور والدرنديل، بل كل ما تريدانه هو جعل الدولة العثمانية دولة صغيرة مثل الدول التي ستقوم على أنقاضها؛ لذا رأى السلطان أن ما أُخذ من الدولة العثمانية لا يسترد إلا بالقتال، وبالتالي فلا بد من القيام بثورة في البلاد؛ لذلك استعان بمصطفى كمال، وعهد إليه بأن يقوم بثورة في شرقي الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة أن يستخدموا هذه الثورة كورقة ضغط أثناء عقد الصلح مع الحلفاء حتى يحصلوا على أكثر ما يمكن من المكسب، وللتغطية على هذه الثورة خاصة من الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على إستانبول، عين السلطان "وحيد" "مصطفى كمال" مفتشا لجيوش الأناضول بصلاحيات واسعة، وزوده بمبلغ كبير من المال، ووضع فيه ثقته، لكنه خان الأمانة وغدر بالسلطان وعمل لنفسه.
- من هو أتاتورك؟
- ولد مصطفى كمال سنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨٠م) بمدينة "سالونيك" التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، أما أبوه فهو "علي رضا أفندي" الذي كان يعمل حارسًا في الجمرك، وقد كثرت الشكوك حول

نسب مصطفى، وقيل إنه ابن غير شرعي لأب صربي، أما لقب "كمال" الذي لحق باسمه فقد أطلقه عليه أستاذه للرياضيات في المدرسة الثانية، ويذكر الكاتب الإنجليزي "هـ.س. أرمسترونج" في كتابه: "الذئب الأغبر" أن أجداد مصطفى كمال من اليهود الذين نزحوا من إسبانيا إلى سالونيك وكان يطلق عليهم يهود الدونمة، الذين ادعوا الدخول في الإسلام. وبعد تخرجه في الكلية العسكرية في إستانبول عين ضابطًا في الجيش الثالث في "سالونيك" وبدأت أفكاره تأخذ منحنى معاديًا للخلافة، وللإسلام، وما لبث أن انضم إلى جمعية "الاتحاد والترقي"، واشتهر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حين عين قائدًا للفرقة ١٩، وهُزم أمامه البريطانيون مرتين في شبه جزيرة "غاليبولي" بالبلقان رغم قدرتهم على هزيمته،

- هكذا يصنعون الأبطال علي أيديهم
- وبهذا النصر المزيف رُقّي إلى رتبة عقيد ثم عميد، وفي سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨/) تولى قيادة أحد الجيوش في فلسطين، فقام بإنهاء القتال مع الإنجليز – أعداء الدولة العثمانية – وسمح لهم بالتقدم شمالاً دون مقاومة، وأصدر أوامره بالكف عن الاصطدام مع الإنجليز.
- فكيف كانت علاقة السلطان مع أتاتورك ؟
- غادر مصطفى كمال إستانبول في (شعبان ١٣٣٧هـ = مايو ١٩١٩) بعدما عهد إليه السلطان العثماني بالقيام بالثورة في الأناضول، واختار معه عددًا من المدنيين والعسكريين لمساعدته، وبعدما استطاع جمع فلول الجيش حوله هناك بدأ في ثورته، فاحتج الحلفاء على هذا الأمر لدى الوزارة القائمة في إستانبول المحتلة، وهددوا بالحرب، فاضطرت الوزارة إلى إقالته، وعرضت الأمر على السلطان، الذي أوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة، لكنه اضطر بعد ذلك إلى إقالته فلم يمتثل أتاتورك لذلك وقال في برقية أرسلها للخليفة: "سأبقى في الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد."
- انتصار مزيف وثورة كاذبة
- وبدأ يشعل ثورته التي يحميها الإنجليز، وانضم إليه بعض رجال الفكر وشباب القادة الذين اشترطوا عدم المساس بالخلافة، واستمر القتال عاما ونصف العام ضد اليونانيين، استعار خلالها أتاتورك الشعار الإسلامي ورفع المصحف، وأعلن الحلفاء أثناءها حيادهم، أما الإنجليز فكانوا يعملون جهدهم لإنجاح هذه الثورة، فبعد تجدد القتال بين أتاتورك واليونانيين في (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) انسحبت اليونان من أزمير ودخلها العثمانيون دون إطلاق رصاصة، وضخمت الدعاية الغربية الانتصارات المزعومة لأتاتورك، فانخدع به المسلمون وتعلقت به الآمال لإحياء الخلافة، ووصفه الشاعر أحمد شوقي بأنه "خالد الترك" تشبيهًا له بخالد بن الوليد.
- أنا أعرف مطلع هذه القصيدة : الله أكبر كم في الفتح من عجبِ   يا خالد الترك جدد خالد العربِ

- وعاد مصطفى كمال إلى أنقرة حيث خلع عليه المجلس الوطني الكبير رتبة "غازي"، ومعناه الظافر في حرب مقدسة، وهو لقب كان ينفرد به سلاطين آل عثمان، فتعزز موقفه الدولي والشعبي، ووردت عليه برقيات التهاني من روسيا وأفغانستان والهند والبلدان الإسلامية المختلفة، وسار العالم الإسلامي فخورًا بثورة مصطفى كمال سنوات عدة، استغلها في كسب عواطف المسلمين وأموالهم بعدما كسا ثورته لباسًا إسلاميًا سواءً في أحاديثه أو في معاملته للزعماء المسلمين مثل الزعيم الليبي أحمد السنوسي.
- فمتي قام بإلغاء الخلافة العثمانية ؟
- وبعد انتصارات مصطفى كمال انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيًا للحكومة، فأرسل مبعوثه "عصمت باشا" إلى بريطانيا (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) لمفاوضة الإنجليز على استقلال تركيا، فوضع اللورد كيرزون – وزير خارجية بريطانيا – شروطه على هذا الاستقلال وهي: أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامي، وأن تلغي الخلافة الإسلامية، وأن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة، وأن تختار تركيا لها دستورا مدنيًا بدلاً من الدستور العثماني المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية. ، ،نفذ أتاتورك ما أملته عليه بريطانيا، واختارت تركيا دستور سويسرا المدني، وفي (ربيع أول ١٣٤١هـ = نوفمبر ١٩٢٢م) نجح في إلغاء السلطنة، وفصلها عن الخلافة، وبذلك لم يعد الخليفة يتمتع بسلطات دنيوية أو روحية، وفرض أتاتورك آرائه بالإرهاب رغم المعارضة العلنية له، فنشر أجواء من الرعب والاضطهاد لمعارضيه، واستغل أزمة وزارية أسندت خلالها الجمعية الوطنية له تشكيل حكومة، فاستغل ذلك وجعل نفسه أول رئيس للجمهورية التركية في (١٨ربيع أول ١٣٤٢هـ = ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م) وأصبح سيد الموقف في البلاد. وفي (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ = ٣ مارس ١٩٢٤م) ألغى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك الخلافة العثمانية، وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، وألغى وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدنية، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية.
- كل هذه الإجراءات دفعة واحدة ؟
- وكانت هذه الإجراءات المتتابعة منذ إسقاط الخلافة تهدف إلى قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي بل وصلتها بالإسلام، ولم يقبل المسلمون قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة؛ حيث قامت المظاهرات العنيفة التي تنادي ببقاء هذا الرباط الروحي بين المسلمين، لكن دون جدوى.
- ألم يقم أحد من المسلمين بتنصيب نفسه خليفة عوضاً عن الخليفة العثماني ؟
- حاول "حسين بن علي" حاكم الحجاز تنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لكن الإنجليز حبسوه في قبرص، كما عمل الإنجليز على فض مؤتمر الخلافة بالقاهرة، وإلغاء جمعية الخلافة بالهند.. وهكذا نجحت أحقاد الغرب في إلغاء الخلافة الإسلامية التي لم تنقطع منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

- فهل ذكر هذا الموقع مصادر هذه المعلومات ؟
- نعم لقد كتب أن من مصادر الدراسة: محمد فريد وجدي: تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حنفي – دار النفائس – بيروت – الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م. ، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م. ،، موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض – مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر – الكويت مايو ١٩٨٤.
- فماذا عن مؤتمر لوزان ؟
- لقد وردت معلومات عن هذا المؤتمر في موقع آخر علي الانترنت حيث كتب ما يلي عن سقوط الدولة العثمانية[٨٣٥] : أدى إلغاء الخلافة الإسلامية إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، حيث تولى السلطان محمد وحيد الدين الخلافة العثمانية عام ١٩١٨، وذلك بعد وفاة أخيه السلطان محمد رشاد، ولم يمضِ على حكمه إلّا أشهر معدودة حتّى تعرضت البلاد للغزو والنهب الغربي، وفي ظل هذه الأحداث السياسية قام السلطان محمد بالاستعانة بمصطفى كمال أتاتورك، وذلك لإنقاذ البلاد من الغزو الغربي لبلاد المسلمين، ولكنّ مصطفى كمال خان الأمانة، وبدأ يعمل على إخضاع الأمور لصالحه، وليس لمصلحة البلاد، وكسب الجماهير إليه من خلال خطبه الحماسية، وبالتالي قاد حرب الاستقلال، وآمن به الكثير من أهل تركيا ومن خارجها، ثمّ تأسس الحزب الوطني، ونودي بمصطفى كمال رئيساً له، وهكذا قويت شوكته، وأصبح يتمادى على السلطان محمد وحيد الدين، وبعد مرور فترةٍ من الوقت، عقد مؤتمر لوزان، ووضع رئيس الوفد الإنجليزي شروطاً لاستقلال تركيا، وبات نجاح المؤتمر معتمداً على تحقيق هذه الشروط، وهي كالآتي: إلغاء الخلافة الإسلامية بشكلٍ نهائي. إعلان تركيا دولة علمانية، وإنهاء علاقتها بالإسلام. طرد الخليفة العثماني، وجميع آل عثمان خارج حدود تركيا. إلغاء الدستور العثماني، وإعداد دستورٍ مدني. وقد قام مصطفى كمال وأتباعه بتنفيذ جميع هذه الشروط، بل وزادوا عليها، وبذلك انتهت الدولة العثمانية، وحلّت مكانها دولة تركيا.
- فهل ذكر هذا الموقع أسباب سقوط الدولة العثمانية من وجهة نظره ؟
- أما عن أسباب سقوط الإمبراطورية العثمانية فكتب ما يلي : هناك العديد من الأسباب التي أدّت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، ومنها ما يأتي: وراثة المنصب العلمي: أصبحت المناصب العلمية في أواخر الخلافة العثمانية تُورّث؛ فأصبح التدريس، والفتوى، والإمامة والقضاء يورّث للأولاد أو الأخوة أو أحد الأقارب حتّى لو كان هؤلاء الورثة ليسو أكفياء في وظائفهم.، رفض فتح باب الاجتهاد: أصبحت دعوى فتح باب الاجتهاد في أواخر الخلافة العثمانية من التهم الكبيرة التي تصل عند بعض المقلّدين إلى حدّ الكفر، وإقفال باب الاجتهاد يعني توقّف الحياة عن النمو؛ وذلك كونها محصورةً في قوالب لم

[٨٣٥] نقلاً عن موقع : https://mawdoo3.com/

تعد تناسبها، ويعني أيضاً خروج الحياة في وقتٍ لاحق على هذه القوالب لتخرج في الوقت ذاته عن الشريعة؛ لأنّ الشريعة تفتقد الاجتهاد وبالتالي تعجز عن مدّ الحياة به.،. انتشار الظلم في الإمبراطورية: إنّ وجود الظلم في أيّ نظام حكم يُهدّد بزوال الدولة عاجلاً أم آجلاً؛ وقد انتشر الظلم في الإمبراطورية العثمانية؛ فقد اقترف بعض الباشاوات أفعالاً قبيحة، وسفكوا الدماء، ونهبوا الأموال، واعتدوا على الأعراض، كما ظلم بعضهم أهل مصر وأهل الشام والحجاز، وقد اشتدّ ظلمهم لهم بمجيء الاتحاد والترقي للحكم، فقامت تلك المجموعة بظلم الناس داخل تركيّا وخارجها.، الترف والغرق في الشهوات: كانت الإمبراطورية العثمانية في بداياتها وفي أوج قوّتها وعزّها بعيدةً عن هذا الانحراف؛ حتّى أوصى محمد الفاتح وليّ عهده بالحفاظ على أموال بيت المال من التبدّد، ونهاه عن صرف أموال الدولة في اللهو والترف، وأخبره أنّ الترف من أسباب الهلاك، إلّا أنّ الإمبراطورية انغمست في الشهوات في أواخر عهدها؛ الأمر الذي أضاع مقوّمات بقائها.، الاختلاف والفُرقة: وُجدت العديد من الفرق في أواخر الإمبراطورية العثمانية، وكلّ فرقةٍ كانت تعيب على الأخرى وتدّعي امتلاكها للحقّ وحدها، ثمّ يزول تأثير هذه الجماعة في المجتمع وتندثر؛ لتظهر جماعة جديدة تكرّر ذات الأفعال، وقد أصبحت الإمبراطورية العثمانية في أواخر عهدها تفرّق بين الزعماء والسلاطين، وقد أدّى الصراع بين الحكّام المحلّيين إلى إضعاف الدولة ومن ثمّ سقوطها.، وقد أضاف الموقع أيضا ما يلي تحت عنوان : أخطاء الإمبراطورية العثمانية : وقعت الإمبراطورية العثمانية في أخطاءٍ عديدة، ومنها ما يأتي: اعتمادها نظام حكمٍ مطلق؛ حيث كان يضع مصير وإمكانيات الإمبراطورية كاملةً في يدّ السلطان وحده، وكان يمتلك سلطاناً لا حدود له. فساد مالية الدولة، وانعدام وجود الميزانية والإصلاحات، وشيوع الرشوة، وضياع الحرّية، وانتشار الجواسيس في كلّ مكان. إضعاف العرب خشية بروزهم؛ فتمّ عزلهم عن الوظائف ذات المكانة العالية، وأهملوهم؛ ممّا أدّى إلى انتشار الجهل، والمرض، والتخلّف والفقر بينهم. إعطاء العسكريين أكثر ممّا يستحقّون؛ ممّا دفعهم للفساد والطغيان، والتسلّط والتدخّل في شؤون الحكم.

- فما تعليقك علي ما ورد في تلك المواقع ؟
- لا شك أن الدولة العثمانية قد وقعت في العديد من الأخطاء ولكن المؤكد أنها قد تعرضت أيضاً لمؤامرات ومكائد وتم اختراقها ، والعمل علي فصل القوميات داخلها كما ذكرنا
- فماذا قال الرافعي عن الاتجاه القومي داخل تركيا ؟
- لقد كان الرافعي بلا شك ككاتب قومي معجب بما صنعه القوميون الأتراك ، وإليك مقتطفات مما كتبه عن هذا الموضوع : نفضت تركيا عن نفسها أكفان الانحلال الذي أصابها في نهاية الحرب العالمية الأولي وبعثت الحياة من جديد علي يد زعيمها مصطفي كمال وصحبه وأنصاره بالرغم من الهزائم التي حاقت بها في تلك الحرب - - - انبعثت الحركة الوطنية في الأناضول عقب احتلال أزمير ، وأنشئت

الجمعية الوطنية (المجلس الوطني الكبير) في أنقره وتولت تنظيم الجهاد الوطني وإدارة شئون البلاد وقطعت صلتها بحكومة الآستانة ، ونشبت الحرب بين القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني فظفر الترك باليونان في معارك عدة واضطرت اليونان لعقد الهدنة مع الترك ، وعلي أثر هذه الانتصارات الحاسمة تغير وجه المسألة الشرقية واتفق الحلفاء مع الحكومة الوطنية التركية علي عقد مؤتمر دولي في لوزان لإبرام الصلح مع تركيا الجديدة وكان لابد أن يتناول هذا المؤتمر المسألة المصرية[٨٣٦]

- بالطبع أكثر ما يهم الرافعي في مؤتمر لوزان المسألة المصرية
- بالتأكيد فقد قامت القوي السياسية في ذلك الوقت المتمثلة في حزب الوفد والحزب الوطني بإرسال وفد غير حكومي لتعذر إرسال وفد رسمي لعدم استقرار الوزارة في ذلك الوقت وكانت مهمة هذا الوفد أن تنازل تركيا عن سيادتها علي مصر يكون لمصر لا لبريطانيا ، ولم يصل الوفد إلي نتيجة مرضية
- فما تعليقك علي رأي الرافعي في الاتجاه القومي الجديد الذي سيطر علي تركيا ؟
- لا أريدك أن تقسو في الحكم علي الرافعي فأنت إذا نشأت في الأوساط السياسية التي نشأ فيها والبيئة الفكرية التي عاصرها قد يؤدي بك الحال إلي تبني نفس أفكاره وآراءه ولا تنسي أن التيار القومي في ذلك الوقت كان قوياً جداً والانبهار بالحضارة الغربية كان سائداً وخاصة مع التراجع الحضاري الإسلامي وحتي الآن هناك المفتونين بالغرب ويقلدونهم في كل شئ إلا من رحم ربي ، ولقد عاش الرافعي رحمه الله حياته كلها مدافعاً عن القضية الوطنية وكان شديد الإخلاص لها وأفني حياته كلها من أجل الاستقلال مستخدماً جميع الأساليب التي كان يعتقد صحتها ويؤمن بها وحسابه علي الله وحده
- لديك كل الحق لقد تعرض جيل الرافعي وما تلاه من أجيال لموجة تغريب قل من صمد أمامها ولكننا للأسف حالياً قد أصابنا داء الحكم المسبق علي أي شخص دون تروّي وتفكير إلا من رحم ربي ، فهل شعر أحد بمدي خطورة سقوط الخلاف الإسلامية ؟

فقرة من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

- بالتأكيد ، فقد كانت الرابطة الإسلامية هي أساس قيام الخلافة فهي لا تعتمد علي جنس أو قومية معينة فالعرب كما قلنا لم يؤسسوا دولة عربية ودعني أقرأ لك فقرة من كتاب ممتع قام بتأليفه عالم مسلم من الهند اسمه أبو الحسن الندوي وهذا الكتاب اسمه ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ، يقول في أحد فقراته عن المسلمين ما يلي: (– – أنهم لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أو وطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه علي جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلي

---

[٨٣٦] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

حكم العرب وإلي حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلي عبادة الله وحده كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلي سعتها ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام " فالأمم عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي علي عجمي ولا لعجمي علي عربي إلا بالتقوي "" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ""١٣الحجرات ، وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص –وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه – قائلاً : خذها من ابن الأكرمين فاقتص منه عمر– : متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ،، فلم يبخل هؤلاء علي ما عندهم من دين وعلم وتهذيب علي أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادي مزنة أثني عليها السهل والوعر وانتفعت بها البلاد والعباد علي قدرقبولها وصلاحها ،،، في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب –حتي المضطهدة منها في القديم– أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين حتي قال ابن خلدون : "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي " ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم فضيلة ومروءة وعبقرية وديناً وعملاً لا يحصيهم إلا الله –)[٨٣٧]

- إنه كلام رائع بالفعل ، فماذا كان وقع سقوط الخلافة علي المصريين ؟
- هناك قصيدة رثاء لأمير الشعراء أحمد شوقي ينعي الخلافة وتتضمن هذه القصيدة الإجابة التي تنتظرها
- فهل ممكن أن تتلو مقتطفات منها ؟
- أنشد أمير الشعراء أحمد شوقي :

عادت أَغاني العرسِ رَجْعَ نُواح ... ونُعيتِ بين معالم الأَفراحِ
كُفِّنْتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تبلُّج الإصباح
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرَةِ ضاحكٍ ... في كلّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابر ... وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ
والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟

---

[٨٣٧] نقلاً عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي صفحة ١٠٦،١٠٧

وأَتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأْتماً ... فقعدن فيه مَقاعدَ الأَنواح

يا لَلرّجال لحُرة مَوءُودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح

إنَّ الَّذين أَسَتْ جراحَكِ حربُهم ... قتلتْكِ سلهمُ بغير جِراح

هتكوا بأَيديهم مُلاءَةَ فخرِهِم ... مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح

نزعوا عن الأَعناق خيرَ قِلادة ... ونَضَوْا عن الأَعطاف خير وِشاح

حَسَبٌ أَتى طولُ الليالي دونَه ... قد طاح بين عشيةٍ وصباح

وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أَسبابها ... كانت أَبرَّ علائقِ الأَرواح

جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ، وربما ... جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح

نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم ... في كلِّ غُدوةِ جُمعة ورواح

بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع، عِرْبيدِ القضاءِ، وَقاح

أَفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً ... وأَتى بكفر في البلاد بواح

إنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ ... خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح

إن حدّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ ... أَو خوطبوا سمِعوا بصُمِّ رِماح

استغفرُ الأَخلاقَ، لستُ بجاحدٍ ... من كنتُ أَدفعُ دونَه وألاحي

ما لي أُطوّقُهُ الملامَ وطالما ... قلَّدتُه المأْثورَ من أَمداحي

هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ ... وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح

أَأَقولُ مَن أَحيا الجماعةَ مُلحِدٌ ... وأَقول مَن رد الحقوقَ إباحي

الحقُّ أَولى من وليِّك حرمةً ... وأَحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح

فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُم ... أَو خَلِّ عنك مَواقفَ النصاح

ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم ... هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفّاحِ

فإذا قذفتَ الحق في أَجلاده ... ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح

أَدُّوا إلى الغازِي النصيحةَ يَنتصحْ ... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح

إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه ... كيف احتيالُك في صريع الراح

نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى ... والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح

تركتْه كالشبح المؤلَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عباد الأَشباح

هُم أَطلقوا يده كقيصرَ فيهم ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباح

غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ ... وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح

وإذا أَخذتَ المجدَ من أُمِّيةٍ ... لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللّماح

منْ قائلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يوحها غيرَ النصيحة واحِ؟

عهدُ الخلافةِ فِيَّ أَوّلُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعةٍ نضَّاح

حبٌّ لذاتِ اللَّهِ كان، ولم يزل ... وهوىً لذاتِ الحقِّ والإِصلاح

إِني أَنا المِصباحُ، لست بضائع ... حتى أَكونَ فراشةَ المصباح

غزواتُ أَدهم كُلِّلَت بذوابِلٍ ... وفتوحُ أَنورَ فُصِّلت بِصفاح

ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما ... وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح

لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ ... عُزُلٍ، يدافِعُ دونَه بالراح

بالأَمس أَوهى المسلمين جراحةً ... واليوم مدّ لهم يَدَ الجرّاح

فلتَسمَعُنّ بكل أَرضٍ داعياً ... يدعو إِلى الكذّابِ أَو لسَجاح

ولتشهدُنّ بكل أَرض فِتنةً ... فيها يباعُ الدِّين بيعَ سَماح

يُفتَى على ذهبِ المُعزِّ وسيفِه ... وهوى النفوس، وحِقْدِها الملحاح

- الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ ،،، والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟ يا لها من كلمات مؤثرة بالفعل
- لقد كانت مأساة بالفعل لم يشعر بها إلا كل مسلم غيور علي أمته
- وهكذا عبثت بريطانيا بالأتراك كما عبثت بالعرب وبالمصريين ، وها نحن سنعود للحديث عن مصر والمصريين في ظل الاحتلال البريطاني البغيض الماكر
- حسناً فلنكمل الحديث عن الحياة الدستورية المزعومة في مصر في ظل الاحتلال البريطاني وعبث الملك فؤاد بالبرلمان
- فهل لديك نماذج من الحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال البريطاني ؟
- بالتأكيد سوف أذكر لك بعض المواقف التي أوردها الرافعي في كتابه والتي توضح كيف كان يتم العبث بالحياة النيابية في مصر
- كلي آذان صاغية

مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣مارس سنة ١٩٢٥

- يقول الرافعي : – – استقالت وزارة سعد زغلول بعد حادث مقتل السير لي ستاك وتولي أحمد زيور رئاسة الوزارة وتم حل مجلس النواب ثم تم الدعوة لانتخاب مجلس جديد ثم تم حله في نفس يوم انعقاده ،
- تم حله في نفس يوم انعقاده يا للعجب
- وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه : افتتح البرلمان بمجلسيه في هيئة مؤتمر صبيحة يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ برئاسة محمد توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الشيوخ وحضر #الملك_فؤاد جلسة الافتتاح وتلا زيور باشا خطاب العرش ثم انفض المؤتمر ، واجتمع

مجلس النواب في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وبدأ في انتخاب رئيسه ، فظهر من نتيجة الانتخاب أن أغلبية النواب من الوفديين إذ كان التنافس علي الرآسة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، فنال سعد ١٢٣ صوتاً ونال ثروت ٨٥ صوتاً فقط فظهرت بذلك النتيجة التي لا شك فيها في الانتخابات العامة لمجلس النواب الجديد ، وأنها أسفرت عن أغلبية وفدية خلافاً لما زعمته الحكومة في بلاغها يوم ١٣ مارس ، وظهر أن الوزارة لا تحوز ثقة المجلس الجديد ، فكانت هذه النتيجة صدمة شديدة للوزارة ، وتأجل اجتماع المجلس إلي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم لمتابعة أعماله وأولها انتخاب وكيلي المجلس والسكرتيرين والمراقبين (أعضاء مكتب المجلس) ، ولو اتبعت أحكام الدستور وكان الغرض من حل مجلس النواب الأول هو الرجوع إلي الأمة لكان واجباً علي الوزارة أن تستقيل ، وقد أعدت استقالتها فعلاً عقب انتخاب سعد لرآسة المجلس ولكن كان الأمر مبيتاً علي أن تكون الاستقالة صورية وأن تكون اتهاماً للأغلبية وأن لا يقبل الملك هذه الاستقالة ، فرفع زيور باشا كتاب الاستقالة إلي الملك ، ومما جاء فيه قوله : "بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذي تضمنه خطاب العرش ظهرت في المجلس روح عدائية علي الإصرار علي تلك السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية في أن المجلس اختار لرياسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها"، ، والسياسة التي أشار إليها زيور في هذا الكتاب هي سياسة البرلمان الأول[٨٣٨] التي أغضبت الحكومة البريطانية إذ رفض مطالبها الجائرة ، لم يقبل الملك استقالة الوزارة وجدد ثقته فيها علي الرغم من خذلان مجلس النواب الجديد لها ، فرفع زيور إلي الملك كتاباً آخر عرض فيه حل هذا المجلس فأصدر الملك علي الفور مرسوماً بحله ، استأنف المجلس اجتماعه في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ورأس الجلسة سعد باشا ، وأخذ الأعضاء في انتخاب الوكيلين – – – وفيما كانت الأوراق تفرز دخل زيور باشا ومعه الوزراء وخاطب الأعضاء قائلاً : أتشرف بإخبار المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها إلي جلالة الملك فأبي قبولها ، فأشارت الوزارة علي جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم الآتي نصه وتلاه وهو يقضي بحل المجلس وبدعوة المندوبين لإجراء انتخابات جديدة في ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥ وأن مجلس النواب الجديد سيجتمع أول يونيه ، ، كانت تلاوة مرسوم الحل قبيل الساعة الثامنة مساءاً ، فلم يعش ذلك المجلس سوي تسع ساعات ، لأنه انعقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وحل في الثامنة مساءاً فكان أقصر المجالس النيابية عمراً

- فماذا كان رد فعل النواب علي هذا القرار ؟
- يضيف الرافعي قائلاً : قوبل حل مجلس النواب بالدهشة والألم لأنه كان مفهوماً أن يبقي وتستقيل الوزارة ، وكان هناك طرائق كثيرة لمعالجة هذه الأزمة بان تؤلف وزارة جديدة من حزب الأغلبية أو

---

[٨٣٨] جدير بالذكر أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي كان عضواً في هذا البرلمان عن الحزب الوطني

موالية لها وتنال ثقة المجلس وتسير الأمور طبقاً لأحكام الدستور ولكن العناد الذي يشبه عناد الأطفال جعل الوزارة باتفاقها مع السراي والإنجليز تستصدر المرسوم بحل مجلس النواب ، منتهكة بذلك حرمة الدستور وإرادة الأمة ، وكان الباعث علي هذا الذي وقع هو تعلق بضعة نفر من الوصوليين بكراسي الوزارة فحسب ورغبتهم الجامحة في ألا تفلت هذه الكراسي من أيديهم ، صار الحكم منذ تأليف وزارة زيور باشا حكماً غير دستوري لأن الوزارة بدلاً من أن تواجه البرلمان لكي تنال ثقته وبدلاً من أن تنزل علي إرادته حلت مجلس النواب الأول ثم حلت مجلس النواب الثاني حين آنست أن الأغلبية ليست في جانبها وبذلك حل مجلس النواب لسبب واحد مرتين وهذا نقض لأحكام الدستور – – – واستفحل نفوذ السراي في ظل هذا النظام لأن الوزارة لم يكن لها سند غير السراي ، بعد أن أهدرت إرادة الأمة – – – وهكذا عطل الدستور ، ومن عجب أن من هؤلاء السادة من صبروا علي حكم الاحتلال السنين الطوال ولم يتبرموا به أو يقاوموه أو يعارضوه ثم هم أولاء لم يصطبروا علي حكم الشعب أشهر معدودات[٨٣٩]

- يبدو أن أحمد زيور باشا كان محل ثقة الملك والإنجليز ويفعل ما يتفق مع سياساتهم ، فهل لديك معلومات عن هذا الرجل عدو الدستور ؟
- بالطبع إن خير ما يمكن أن يقال عنه ما كتبه الشيخ عبد العزيز البشري في كتابه
- فماذا كتب عنه بأسلوبه الساخر الطريف ؟

أحمد زيور باشا في مرآة عبد العزيز البشري

- أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلي فن دقيق وهندسة بارعة ، والواقع أن زيور باشا رجل –إذا صح هذا التعبير– يمتاز عن سائر الناس في كل شئ ، ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ، فإن في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحداً ، أما صاحبنا فإذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وإنك لتري بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره وفيها المتيبس المتحجر وفيها المسترخي المترهل ، – – – وإنك لتجد ناساً يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة بينما تري آخرين ينعتونه بالبساطة وقد يتدلون به إلي حد الغفلة ، كما تجد خلقاً يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، إذ غيرهم ينحطون به إلي ما لا تجاوره مكرمة ، ولا يسكن إليه خلق محمود ، كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة – – – وإذا كان هذا مما لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس إذ حسبوا زيور رجلاً واحداً ، – – فإذا أدهشك التباين في أخلاقه – فذلك أن هذا الجرم العظيم مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق لكل

[٨٣٩] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول – لعبد الرحمن الرافعي

منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب ، - - والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه علي كل هذه الممتلكات الواسعة عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف ، وما دامت الإدارة المركزيه فيه قد فشلت كل هذا الفشل ، فأحري به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها الحكم الذاتي علي أن تعمل مستقلة بنفسها علي التدرج في سبيل الرقي والكمال ، - - - تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونـهم زيور باشا فإذا تمثلوا شخصاً وبدوا للعيون رجلاً واحداً فذلك مصداق قول أبي نواس : ليس علي الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحد ، وإن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يحصي من الجرائم علي القضية الوطنية ، وإنهم ليعدون عليه سفهه في أموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهل والأقربين والأصحاب والمحبين وذوي أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع هؤلاء الرجل شأن إذا أقبل يوم الحساب ، وإن ظلماً أن يؤخذ البرئ بجريرة الآثم ، فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام كوع زيور باشا الأيسر ، أو القسم الأسفل من لغده أو المنطقة الوسطي من فخذه اليمني ، أو غيرها من تلك الكائنات التي تجمعت في هيكله العظيم - - إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب إن شاء الله لجنة تقوم بعمل التحقيق في جسم صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوا عضوا وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا حتي يفرق منها بين المحسن والمسئ - - ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما أُرتكب من الآثام هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك ولا دخل في شئ من كل ما حصل - - - - وفي -زيور باشا- صفة جامعة هي شدة احترامه للبرنيطة وعمله علي إرضائها بكل الوسائل فما عُرِف أن زيور رد في حياته طلباً لبرنيطة مهما كان حاملها في الناس[٨٤٠]

- وماذا كان رد فعل زيور باشا علي ما كتبه البشري ؟
- لقد كان يضحك من مثل هذه الأمور ويأخذها ببساطة شديدة
- حسناً ، فهل من الممكن أن نختصر الحديث عن الحكم الدستوري في مصر لأن الخوض في التفاصيل لن يكون مجدياً ، لأن الملك والإنجليز يتلاعبون بالوزارات ومجالس النواب فليس من الضروري أن نتحدث عن هذه الألاعيب ويكفي أن نتحدث بشكل عام عنها
- بالفعل لقد كان الملك يتلاعب بالدستور وبالحكومات المنتخبة ويقوم الإنجليز بدعم الموقف الذي يتماشي مع سياساتهم ويحقق أهدافهم ومع ذلك لا يعلنون ذلك صراحةً بل كان موقفهم الرسمي هو الحياد بين الملك والقوي السياسية ولكنه كان حياد كاذب كما وصفه شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله
- فماذا قال حافظ إبراهيم عن هذا الحياد الكاذب ومتي كان ذلك ؟

---

٨٤٠ ملحوظة : نشرت هذه المرآة في جريدة السياسة الأسبوعية وزيور باشا في رياسة الوزراء نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله – الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – تصميم غلاف الكتاب محمد الطويجي

شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب

- كانت الأفكار تتناقل الإشاعات المختلفة عما تبيته الحكومة للحياة الدستورية وكان الظن أن تلجأ إلي تعديل قانون الانتخاب لتضمن تدخلها وضغطها علي حرية الناخبين أو توقف الحياة الدستورية كما فعلت وزارة محمد محمود ولكن وزارة اسماعيل صدقي كانت أمعن في العدوان مما ظنه الناس إذ استقر عزمها علي إلغاء الدستور ووضع دستور آخر يضيق من سلطة الأمة ، صدر الأمر الملكي في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ بإلغاء دستور ١٩٢٣ ويحل مجلسي النواب والشيوخ وإعلان الدستور الجديد ووقع الملك فؤاد علي هذا الأمر وعلي الدستور الجديد ووقع مع الوزراء اسماعيل صدقي ---وصدر في نفس اليوم قانون الانتخاب الجديد منسجماً مع الدستور الذي ابتدعته الوزارة ، وعرضت الوزارة خفية أمر هذا الدستور علي الحكومة البريطانية قبل إصداره وأطلعت وزارة الخارجية البريطانية علي نصوصه وكانت هذه علي علم باليوم المحدد لصدوره ، فكان جوابها أن هذه من المسائل الداخلية التي لا شأن لها بها ومدلول الجواب موافقتها علي هذا الاعتداء فمضت الوزارة مطمئنة إلي إنفاذه وكان موقف الحكومة البريطانية تحت ستار الحياد ينطوي علي الانتقام من الأمة لعدم قبول حكومتها البرلمانية مشروع المعاهدة ، فسياستها هي إما قبول السيطرة البريطانية وإما حرمان الأمة حقوقها الدستورية بواسطة الوزارات الرجعية ، - - أشارت جريدة الديلي ميل الإنجليزية بقولها قبيل صدور الدستور الجديد : (تدبر أزمة جديدة في سراي عابدين - - الملك فؤاد بمعاونة صدقي باشا قد سنا دستوراً جديداً تماماً - - إلي أن قالت ومعني هذا أن الحكومة تكون حكومة السراي وأن الحكومة هي الملك نفسه وستكون نتيجة هذا التغيير المنتظر نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المضادين للبريطانيين إلي الملك الذي يتسني له إذ ذاك أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، أما الذين يعلمون طريقة سير الحوادث في مصر فيقولون إنه من المستحيل علمياً أن تتبع بريطانيا سياسة عدم التدخل في الشئون المصرية ، فما دامت بريطانيا واضعة جنودها في القاهرة وأسطولها علي مقربة من الإسكندرية فإن عدم تدخلها يعتبر علي الأقل معادلاً للتأييد السلبي)- - - -قال شاعر النيل حافظ إبراهيم مخاطباً الإنجليز منددا بسياسة الحياد ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة :

بنيتم علي الأخلاق أساس ملككم فكان لكم بين الشعوب ذمام

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة فليس لملك الظالمين دوام

أضعتم وداداً لو رعيتم عهوده لما قام بين الأمتين خصام

أبعد حياد لا رعي الله عهده وبعد الجروح الناغرات وئام ؟

وقال في هذا المعني :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان

حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان

وقال عن الحياد الكاذب :

قصر الدوبارة قد نقضت العهد نقض الغاصب

أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب

الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

وقال مخاطباً المندوب السامي البريطاني منددا بحياد الإنجليز المصطنع :

ألم تر في الطريق إلي كياد تصيد البط بؤس العالمينا

الم تلمح دموع الناس تجري من البلوي – ألم تسمع أنينا

الم تخبر بني التايمز عنا وقد بعثوك مندوباً أمينا

بأنا قد لمسنا الغدر لمساً وأصبح ظننا فيكم يقينا

كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا

سنجمع أمرنا فترون منا لدي الجلي كراماً صابرينا

فهل يجديكم الأسطول نفعاً إذا ما نازل الحق المبينا ؟

وقال أيضاً : أمحايد أم حائد عن منهج الحق المبين ؟

نازلت شعباً أعزلاً بمدرعين مدججين

وأمنت عقبي الظالمين وبئس عقبي الظالمين

مهما تصب منا فلسنا الجازعين اليائسين

إنا بجبار السماء وبالعقيدة نستعين

إن العقيدة لا تزلزلها حراب الغاصبين

فلئن ملكتم يومكم لغد لرب العالمين

أأمنتمو صرف الزمان وفتكه بالغاشمين

وقال مخاطباً اسماعيل باشا صدقي :

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماه يضام

صبوا البلاء علي العباد فنصفهم يجبي البلاد ونصفهم حكام

أشكو إلي قصر الدبارة ماجني صدقي الوزير وماجبي علام

ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام[٨٤١]

- كل ما سبق بالطبع كان مجرد أمثلة فقط علي العبث بالحياة الدستورية في مصر ، فهل هناك أمثلة أخري ؟

---

[٨٤١] نقلاً باختصار عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي الجزء الثاني –دار المعارف

- بالتأكيد فقد كان تصريح فبراير ١٩٢٢ منحة من الإنجليز وكان الدستور ١٩٢٣ منحة من الملك وبالتالي فقد كانوا يعتقدون أن لهم الحق في تعطيل أو تفعيل ما منحوه للشعب في أي وقت ، بل إن من الأمثلة الواضحة جداً علي ذلك أن القوي السياسية في أحد هذه المراحل أرسلت خطاب إلي الملك تستجدي منه العودة للدستور وإجراء انتخابات
- وهل لديك نص هذا الخطاب ؟

كتاب الجبهة الوطنية إلي الملك_فؤاد – ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥

- بالتأكيد فقد ورد به ما يلي : نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف : حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ،،، نتشرف نحن الموقعين علي هذا بأن نرفع إلي سدتكم الرفيعة هذا الملتمس الذي تتمثل فيه إرادة الشعب المصري مجتمعة كلمته منيعة جبهته ، فلقد حلت بالبلاد أزمة سياسية خطيرة اجتمع فيها الخطر الخارجي الذي يهدد البلاد بحرب جائحة إلي الخطر الداخلي الذي يهدد حريتها وطمأنينتها ويمس حقها المعترف به في تصريف أمورها والاستمتاع بدستورها مما دعا إلي انتشار روح القلق في البلاد واضطراب المصالح العامة والخاصة معاً ،، وإننا لنري بكل احترام أنه ما من مخرج من هذه المحنة أو علاج حاسم لها إلا أن يعود إلي الأمة فوراً دستورها الصادر في سنة ١٩٢٣ ، وما كنا فيما نري صادرين إلا عن الرأي الذي ارتضته حكمة جلالتكم السامية في كتابكم الملكي الصادر إلي مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ إبريل سنة ١٩٣٥ ، والذي ورد فيه ما يأتي بحروفه : (إن أعز أمانينا كما تعلمون هو أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترضاها ، سواء بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ معدلاً علي النحو يرتئيه حسب المقتضيات نواب الأمة طبقاً لأحكام المواد ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ من ذلك الدستور أو وضع دستور تصدق عليه جمعية تمثيلية وطنية وإنا مع ذلك نفضل الطريقة الأولي) ،، (يا صاحب الجلالة) ،، ،(إذا كان الشعب ممثلاً في هيئاته وأحزابه السياسية قد أجمع هذا الإجماع الرائع علي وجوب عودة دستور الأمة منذ الآن فإنه إنما يقصد إلي استقرار نظام الحكم علي أساس سلطة الأمة توصلاً لإيجاد حكومة دستورية تعمل لإصلاح ما فسد وتحقق استقلال البلاد) ،، ولما كان الدستور من حق جلالتكم والشعب المصري ،، ولما كنا نعلم أن أسمي رغبات جلالتكم أن تطمئن الأمة إلي صيانة حقوقها ومرافقها فتهيأ لنفسها المصير الذي ينتظرها والمكان اللائق بها بين الأمم ،،، لذلك ،، نلتمس من جلالتكم ،،، التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ فوراً ونرفع إلي سدتكم مع هذا الالتماس أسمي فروض الولاء لعرشكم والإخلاص لذاتكم ،،، ولازلنا يا صاحب الجلالة لمقامكم العالي المطيعين المخلصين ،،، ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ ويقول الرافعي : وقد وقع علي هذا الكتاب كل من :

مصطفي النحاس رئيس الوفد المصري[٥٤٢] ، محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، اسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب ، يحيي إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ، حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ، عبد الفتاح يحيي ، حمد الباسل وحافظ عفيفي عن المستقلين وتسلمه علي ماهر رئيس الديوان الملكي ورفعه إلي الملك

- يا لها من صيغة مهينة أكثر ما لفت نظري فيها قولهم نلتمس من جلالتكم التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ حقاً لقد كان منحة من الملك
- أما عن ملخص علاقة الملك فؤاد بالحياة الدستورية في مصر فقد كتب عنها الرافعي في موضع آخر من كتابه في معرض حديثه عن مراحل حياة الملك فؤاد ما يلي : ومن هنا صارت المرحلة الثالثة من حياة الملك فؤاد –وهي معظم سني حكمه– نضالاً مستمراً بينه وبين الأمة وقعت فيها ثلاثة انقلابات حطمت الحياة الدستورية ، وهذا لعمري مما لا يشرف صفحة الملك ، وخاصة إذا لاحظنا أنه لم يبذل مثل هذا النضال ولا أقل منه في ميدان آخر كان هو الجدير به ، ونعني به ميدان النضال ضد الجانب البريطاني جانب الاحتلال والعدوان علي الاستقلال – – بل كان يعمل علي مسايرة السياسة البريطانية وتفادي الصدام بها اعتبر ذلك قبل ثورة ١٩١٩ وفي خلالها وفي أعقابها ، ومن المحقق أيضاً أن هاتيك الانقلابات الثلاثة التي وقعت في عهده كانت تتم باتفاق بينه وبين الجانب البريطاني مع اختلاف في المقاصد والأغراض ، فالجانب البريطاني كان يري فيها عقوبة لمصر علي عدم إذعانها لسياسته ، والملك والمستوزرون يرون فيها استرداداً للحكم المطلق علي حساب سلطة الأمة ، ولا ينهض عذراً للملك فؤاد في مناوأته للدستور ما يدعيه بعض الرجعيين من أن الأمة لم تنضج لهذا النظام ، فإن هذه الدعاية إنما ابتدعها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢ ليسوغ بها عدوانه علي استقلال البلاد إلغاء دستورها سنة ١٨٨٣ – –ويكفيك للتحقق من بطلانها أن تقارن بين الوزارات التي اختارها الشعب والوزارات التي اختارها الملك فؤاد وفرضها علي الشعب فرضاً ، سواء في عهد الحماية أو في عهد ثورة ١٩١٩ أو في أعقابها فإنك من غير تردد أو تحيز تقطع بأن اختيار الشعب في مجموعه كان خيراً من اختيار الملك فهذا دليل ناطق علي أن الشعب ناضج للحياة الدستورية كفء لأن يختار الحكومة التي يرضاها
- هل من الممكن أن تذكر لي أسماء جميع رؤساء الحكومات في عهد الملك فؤاد والملك فاروق بالترتيب كملخص عام للعصر الملكي ؟

---

[٥٤٢] كان قد خلف مصطفي النحاس باشا سعد زغلول في رئاسة الوفد بعد وفاته

بيان أسماء رؤساء وزراء مصر في العصر الملكي

- كان أول رئيس وزراء في عهد فؤاد هو حسين رشدي باشا وفي عهده قامت ثورة ١٩١٩ وكان قد تولي الوزارة من قبل تعيين فؤاد سلطان علي مصر ثم تولي رئاسة الوزراء بعده بفترة محمد سعيد باشا ثم يوسف وهبة باشا ، ثم محمد نسيم باشا ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا بعد تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ وفي عهده أصبح فؤاد ملك بدلا من سلطان ، ثم تولي محمد توفيق نسيم باشا الوزارة ، ثم يحيي إبراهيم باشا وفي عهده صدر دستور ١٩٢٣ ثم تم عمل انتخابات وأصبح سعد زغلول باشا رئيساً للوزراء وهي أول حكومة منتخبة بعد الدستور ، ثم حدث انقلاب علي الدستور بعد مقتل السير لي ستاك وتم تعيين أحمد زيور باشا رئيساً للوزارة ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا ، وفي عهده توفي سعد باشا زغلول ، مصطفي النحاس باشا ، محمد محمود باشا ، عدلي يكن باشا ، مصطفي النحاس باشا ، اسماعيل صدقي باشا ، عبد الفتاح يحيي باشا ، محمد نسيم باشا ، علي ماهر باشا وفي عهده توفي الملك فؤاد وتم ارتقاء الملك فاروق عرش مصر وفي عهده تولي رئاسة الوزراء علي الترتيب كل من : مصطفي النحاس باشا وفي عهده تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، محمد محمود باشا ، علي ماهر باشا ، حسن صبري باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا بضغط من الإنجليز في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وفي عهده كانت أحداث الحرب العالمية الثانية ومعركة العلمين، أحمد ماهر باشا ، النقراشي باشا وفي عهده انتهت الحرب العالمية الثانية وتم تأسيس هيئة الأمم المتحدة وتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية ، اسماعيل صدقي باشا ، محمود فهمي النقراشي باشا وفي عهده وقعت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، إبراهيم عبد الهادي باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا وقام بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء المقاومة في القناة وحدوث مجزرة للشرطة المصرية في الاسماعيلية واستبسالها في قتال الإنجليز وهو اليوم الذي أصبح عيداً للشرطة في ٢٥يناير ١٩٥٢ وحدث حريق القاهرة وإقالة وزارة الوفد وتعيين علي ماهر باشا ، أحمد نجيب الهلالي باشا ، حسين سري باشا ، الهلالي باشا وفي عهده قامت ثورة يوليو ١٩٥٢
- من الواضح بالفعل أن كل هذه الحكومات كانت نتيجة لعدم استقرار الحياة الدستورية وتدخل الإنجليز والملك في إقالة وتعيين من يريدون وكان حادث ٤ فبراير بالطبع مثال صارخ علي نفوذ الاحتلال وسيطرته علي الأمور ، ولكن ما عرضته لا يشبع الظمأ بل يزيد الأمور غموضاً فهل من الممكن أن نلقي الضوء علي بعض ما ذكرته من نقاط مهمة كحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وحرب فلسطين وغيرها من أحداث مثيرة كعيد الشرطة وحريق القاهرة ولنبدأ مثلاً بحادث ٤ فبراي
- معك كل الحق وسوف نعود للحديث عن كل النقاط المهمة التي وردت أثناء عرض أسماء رؤساء الحكومات ، أما حادث ٤ فبراير فسببه يرجع إلي أن الإنجليز كانوا بالطبع يخوضون معارك الحرب العالمية الثانية وكان النحاس باشا أثناء توليه الوزارة قد وقع معهم معاهدة سنة ١٩٣٦ والتي تفرض

علي مصر مساعدة بريطانيا في هذه الحرب مقابل حصولها علي الاستقلال، لذلك أصر الإنجليز علي تولي النحاس باشا السلطة أثناء الحرب لينفذ ما وقع عليه من التزامات ، وإليك ما كتبه الرافعي عن هذا الحادث

- كلي آذان صاغية

حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة بضغط علي الملك فاروق من الإنجليز بالقوة

- نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثالث –دار المعارف – حيث كتب ما ملخصه : اتجهت نية الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية إلي إسناد الوزارة إلي النحاس أو اشتراك حزبه (الوفد) في الوزارة ، وأبلغوا هذه الرغبة إلي جلالة الملك ، – – فلما تحرجت الأمور في أواخر عهد وزارة حسين سري جدد السفير البريطاني (لورد كيلرن) إبداء هذه الرغبة إلي جلالة الملك فاستدعي النحاس وحدد له يوم ٣ فبراير سنة ١٩٤٢ للمقابلة الملكية وعرض عليه جلالة الملك أن يؤلف وزارة قومية برآسته ، وكان من الممكن أن يتم الأمر في هدوء وبغير حاجة إلي التدخل البريطاني المسلح الذي حدث يوم ٤ فبراير ، لو أن النحاس قبل أن يؤلف وزارة قومية ، ولكنه أبي ذلك استجابة لأنانيته واتباعاً لعادته في رفض الائتلاف إلا مكرهاً ، واعتذر لجلالة الملك من عدم إجابته هذا الطلب مستنداً إلي عدم استطاعته الاشتراك في الحكم مع رجال الانقلاب –علي الدستور– – – – ولما علم السفير البريطاني علي أثر هذه المقابلة بأن النحاس رفض تأليف وزارة قومية برآسته قابل رئيس الديوان الملكي (أحمد محمد حسنين) وأخبره بأنه علم برفض النحاس تأليف وزارة قومية – من جميع الأحزاب–، وطلب إليه أن يرفع إلي جلالة الملك نصيحة السفير أن يكلف النحاس بتأليف وزارة وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب ، وفي اليوم التالي (٤فبراير) دعي رؤساء الأحزاب وبعض الشخصيات البارزة – – فاجتمعوا بالقصر في نحو الساعة الرابعة مساء ورأس جلالة الملك الاجتماع وتلا أحمد محمد حسنين رئيس الديوان بياناً باسم جلالته أشاد فيه بفضل الاتحاد ونوه إلي أن جلالته بدأ منذ أمس يستدعي بعض المجتمعين ليدعوهم إلي تأليف وزارة قومية ولكن قبل أن تبدأ المشاورات طلب إلي السفير البريطاني استدعاء النحاس باشا وتكليفه بتشكيل الوزارة – – – وأن السفير طلب اليوم ٤ فبراير مقابلة رئيس الديوان وسلمه إنذاراً هذا نصه : (إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءاً أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب علي ذلك من نتائج) ،
- إنه تهديد مهين يدل علي الحجم الحقيقي للملك وللحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال فما صيغة النص باللغة الإنجليزية ؟

- **Unless I hear by 6 p.m. that Nahas Pasha has been asked to form a cabinet His Majesty King Farouk must accept the consequences.**
- **فماذا كان رد فعل الملك ؟**
- **يضيف الرافعي : وختم البيان بدعوة المجتمعين إلي تبادل الرأي في هذا الموقف وانصرف جلالة الملك تاركاً لهم حرية التشاور في الأمر ، تشاور المجتمعون فيما ذا يكون الرد علي الإنذار وكانت الفكرة الغالبة أن تؤلف وزارة قومية برآسة النحاس ولكن النحاس رفض فكرة الوزارة القومية وكانت عاقبة هذا الرفض أن وقع هذا الحادث الذي يعد من الأحداث الخطيرة في تاريخ مصر الحديث ، وانتهي المجتمعون إلي الاحتجاج علي الإنذار وكتب الاحتجاج ووقعوا عليه جميعاً وهذا نصه :(أن في توجيه التبليغ البريطاني اعتداء علي استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة) ، وعاد جلالة الملك إلي الاجتماع وعلم بما تم عليه الاتفاق من الاحتجاج فأقره ، حمل رئيس الديوان إلي السفير البريطاني نص الاحتجاج ، فأجاب أن هذا ليس رداً وأنه سيحضر لمقابلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء ، وقبيل هذا الموعد جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع ورابطت أمام القصر ، ثم حضر السفير البريطاني بصحبة الجنرال استون قائد القوات البريطانية في مصر وقتئذ وبعض الضباط مسلحين بالمسدسات ودخل السفير والجنرال استون إلي غرفة جلالة الملك واجتمعا به بحضور رئيس الديوان وكان السفير يحمل ورقة بالتنازل عن العرش فاختلي رئيس الديوان بالملك وأسدي إليه النصيحة بقبول الإنذار فقبله**
- **وبالطبع قام النحاس بتنفيذ كل ما تعهد به للإنجليز أثناء الحرب**
- **بالطبع ولكنه قد فقد الكثير من شعبيته وهو وحزبه بعد هذا الحادث بلا شك ، وهكذا قامت مصر بتسخير كل إمكانياتها لدعم الجيش البريطاني خلال الحرب وخاصة عندما تقدم القائد الألماني الشهير روميل وحقق انتصارات ساحقة ووصل إلي العلمين ، والطريف أن بعض المصريين كانوا يتمنون وصوله للقاهرة وإنهاء الاحتلال البريطاني وانتشرت مقولة (إلي الأمام يا روميل) نكاية في الإنجليز ، ولكن أوضاع القتال تغيرت عندما وصل القائد البريطاني مونتجمري واستلم قيادة الجيش البريطاني**
- **عجباً لمن يريد استبدال احتلال باحتلال آخر ، ألم يدرك المصريون حتي ذلك الوقت العبث الذي يتم من الاحتلال والسراي بحياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ألم يفهم حتي أحد المثقفين من النخبة كل هذا ، فماذا كتب الرافعي عما فعله الاحتلال البريطاني بمصر والمصريين ؟**

كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ؟

- **لقد قام المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بتوضيح كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني حيث كتب ما يلي : ، ، ، والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعب قد ساءت حالتهم في عهد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم – – وهو**

بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية وساءت حالتهم المادية والمعنوية وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض ، واجتمعت إلي ذلك رعاية الحكومة للآفات الاجتماعية التي جاءت من أوروبا ورعاها الاحتلال وحماها ، فعمت طبقات الشعب علي السواء ، كبيرها ومتوسطها وصغيرها ، وأولي هذه الآفات الربا ، فقد انتشر انتشاراً ذريعاً ، وساعد علي ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات في بلادنا من قصر النظر وعدم تقدير العواقب وحب الظهور والإسراف ، ووجد المرابون من هذا الضعف ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقري القريبة والبعيدة فكبلوا الأهلين بالديون ، مما أفضي إلي ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة ، وانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصارت محلات المسكرات تفتح علناً في القري بين الفلاحين ، وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن ، برعاية الحكومة وحمايتها ، وفي كنف الامتيازات الأجنبية ، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وأفسدت عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم ، ونقصت مقدرتهم علي العمل والإنتاج ، وساعدت علي ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام ، فبينما الحكومات الأوروبية والأمريكية التي لا تحرم الخمور تحاربها وتمنع انتشارها وبخاصة بين الفلاحين والعمال وتعقد المؤتمرات الدولية وتنشئ اللجان والنظم لمكافحتها والحد من أضرارها ، كانت هذه الآفة تلقي من الحكومة الرعاية والتنشيط ، وصار تجار الخمور في المدن والأرياف ذرائع للتسليف بالربا الفاحش واستلاب أموال الأهلين وإفساد أخلاقهم ، وانتشرت أيضاً آفة الميسر إلي جانب آفة الخمر فساءت حالة الشعب الاجتماعية تبعاً لذلك ، لم تتقدم إذن حالة الشعب الاجتماعية في عهد الاحتلال بل ساءت وصارت وبالاً وزادته هذه الآفات بؤساً وانحلالاً وفي ذلك يقول الأمير (السلطان) حسين كامل في حديث له نشرته جريدة ذي إجبشيان استاندرد – اللواء المصري – (عدد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٨) يصف بؤس الفلاح : إن الفلاح يقضي حياته مثقلاً بالدين ، لا يزيد إيراده علي الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائماً إلي الاستدانة بالربا الفاحش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخري ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقي الفلاح غريقاً في بحار الضنك لا يعرف لنفسه مخلصاً منها ، وصفوة القول أن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسباب تأخر البلاد الاجتماعي وتشاركه في حمل هذه المسئولية الحكومات الأهلية والبيئات المصرية[٨٤٣]

– يا لها من مأساة

[٨٤٣] نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف

بيرم التونسي يسخر من الملك والاحتلال البريطاني والقوي السياسية

- لقد كانت فترة الاحتلال البريطاني ووصول أحفاد محمد علي باشا للحكم فترة من أحلك الفترات في تاريخ مصر خاصة بعد استطاع الإنجليز استبدال الزعامة الشعبية الحقيقية بزعامات تتسم بالمهادنة والمرونة واستخدموهم في تهدئة الشعب عندما يثور أو يقاوم بل جعلوا منهم حكومات تساعدهم علي القمع والظلم ونشر الجهل والفجور بين طبقات الشعب المختلفة وكان بيرم التونسي الشاعر الشعبي المعروف في تلك الفترة دائماً ما كان يسخر من هؤلاء السياسيين ومفاوضاتهم العقيمة مع الاحتلال حتي أنه أنشد يقول :

الحماس ما تبط من أيام عرابي وانتهينا
لنجليز شالوا المدافع والطوابي واتلهينا
الخازوق ماسك متين والفرقة تبني بالمدافع
والحقوق تطلبها بالروب والجوانتي وابقي رافع
للبلد جايبين حكمدار من جلاسكو واستلمها
متحمص لو كان في مدريد ولا مسكو كان هدمها
في الفوتيل قاعد أمير والشغل داير حمري جمري
ون زغر لاعظم وزير بردون يا ماهر بطنه تجري
مشروعات اتنفذت وسيادنا تنهب في الفوايد
من سكات ون كنت تزعل يللا هبهب في الجرايد
المعسكر ينبني يوم المفاوضة ونت مالك
دي الأوامر ، والمرافعات والمعارضة خلوها لك
وقت ما يهف الغرام قول ياللابينا عالمراتب
ستميت كبتن يجولك ع المدينة م المراكب
نتفق أو نختلف برضه انت تطلع بالبشاشة
والنشان الحلو في صدرك بيلمع وانت باشا
ياللي قصر الزعفران[٨٤٤] مقفول عليكم كلمونا
سلمتكم مصر روحها بين يديكم طمنونا

- إن هذه القصيدة تعبر تعبير ساخر وعميق عن الفرق بين زعامة عرابي وزعامة من جاء بعده ، فهل كتب بيرم التونسي أشعار أخري في هذا السياق ؟

[٨٤٤] كان قصر الزعفران أحد الأماكن التي كان تتم فيها المفاوضات

- بالتأكيد وإليك قصيدة يسخر فيها من اهتمام الملك بأحياء الأجانب في الوقت الذي لا يبالي بالأحياء الشعبية حيث أنشد يقول تحت عنوان أهل الوطن والغرباء :

وحول منازل الغرباء عنا غرست الورد ثم الياسمينا

وأخضلت الغصون لهم سماء ومهدت الرخام الجذع حينا

وما قرموا للحم الطير حتي منحتهم الأوز العائمينا

تفجر تحت أرجلهم عيونا وتفقأ وسط أعيننا عيونا

وترضي عنهمو وتصد عنا وقد سخطوا ونحن الشاكرونا

فمر بها علينا كل عام بحي الأشقياء البائسينا

تري الوحلات جاثمةً وفيها بنات قد تعلمن العجينا

إذا كنت الطبيب ونحن مرضي فأوص الناس خيراً بالبنينا

- فهل شارك شعراء آخرين في وصف الأحوال في ظل الاحتلال ؟
- بالتأكيد فالشعر يعبر عن الأحوال خير تعبير ويغني عن العديد من المقالات بل والكتب أيضاً ، ومن خير الأمثلة علي ذلك ما كان يكتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم وخاصة عندما وجد انتشار الانحلال في عدة مناطق بالقاهرة كالأزبكية وشارع عماد الدين وغيرها
- فماذا كتب ؟
- لقد أنشد يقول :

حَطَمْتُ اليَراعَ[٨٤٥] فلا تَعْجَبِي وعِفتُ البَيانَ فلا تَعتُبي

فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبَلَدِ الطَّيِّبِ

وكمْ فيكِ يَا مصرُ مِنْ كاتبٍ أقالَ اليَراعَ ولم يَكتُبِ

فلا تُعذُليني لهذا السكوت فقد ضاقَ بي منكِ ما ضاقَ بي

وكم غَضب الناسُ من قبلِنا لسَلبِ الحُقوقِ ولمْ نغضَبِ

أنابتَةَ العصرِ إنّ الغريبَ مُجِدٌّ بمصرَ فلا تلعبي

يقولون: في النَّشْءِ خيرٌ لنا ولَلنَّشْءُ شرٌّ من الأجنبي

أفي (الأزبكيّة) مثوى البنينِ وبين المساجد مثوى الأب؟

وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ كما قال فيها أبو الطيِّب

أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يُمِرُّ ونحن من اللَّهو في ملعب

وشعب يفرُّ من الصالحاتِ فرارَ السَّليم من الأجرب

وقالوا: دخيلٌ عليه العفاء ونعم الدَّخيلُ على مذهبي!

---

[٨٤٥] القلم

رآنا نياماً ولما نُفِقْ فشمَّرَ للسَّعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب؟
ألفنا الخمولَ ويا ليتنا ألفنا الخمولَ! ولم نكذب!
فيا أمّةً ضاقَ عن وصفها جَنانُ المفوَّهِ والأَخْطَبِ
تضيعُ الحقيقةُ ما بيننا ويَصلى البريءُ مع المذنب
ويُهضَمُ فينا الإمام الحكيم ويُكْرَم فينا الجهولُ الغَبِي
على الشَّرق منِّي سلامُ الودود وإنْ طأطأ الشَّرقُ للمغرب
لقد كان خِصباً بجدب الزّمانِ فأجدبَ في الزَّمن المُخْصِبِ!

ما قدمته مصر لبريطانيا من دعم خلال الحرب العالمية الثانية

- هل من الممكن أن توضح لي بشئ من التفصيل ما قدمته مصر لبريطانيا من دعم خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن فرض الإنجليز النحاس باشا علي الملك لينفذ معاهدة ١٩٣٦ ؟
- لقد التزم النحاس باشا بتلك المعاهدة نصاً وروحاً كما قيل ، وإليك بعض ما ورد عن هذا الموضوع بكتاب "المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر" –تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق ، وتحديداً في الفصل العاشر بعنوان فاروق ونهاية العصر الملكي –أحمد زكريا الشلق حيث كتب ما ملخصه : (--- وعلي الرغم أن مصر لم تعلن الحرب علي ألمانيا وإيطاليا فقد ساهمت بنصيب كبير في العمليات الحربية منذ بدأت عام ١٩٣٩ مما ساهم في انتصار بريطانيا وحلفائها ، فقامت بتموين جيوش الحلفاء بالمنتجات الغذائية والصناعية ، وعاني المصريون من غلاء الأسعار وشُح السلع ، كما تولت مدفعيتها المضادة للطائرات صد غارات طائرات المحور علي منطقة القناة ، فضلاً عن حراسة المنشآت والمرافق العامة مما سهل مهمة قوات الحلفاء ، كذلك جعلت مصر خطوطها الحديدية وطرق ووسائل مواصلاتها جميعاً تحت تصرف قوات الحلفاء
- كل هذا قدمته مصر من أجل استقلالها الذي لم يتم بسبب تلك التضحيات علي أي حال ، سبحان الله ، لم يتعلم العرب من دروس التاريخ وظلوا يثقون في وعود الغرب ويلبون جميع طلباتهم كما حدث في الحرب العالمية الأولي من أجل لا شئ دائماً ، وربما إلي الآن
- وعموماً تكبدت مصر خسائر جسيمة في الأموال والأرواح وكانت سنوات الحرب من أقسي السنوات التي مرت علي مصر والمصريين حيث شهدت البلاد خلالها أزمات اقتصادية طاحنة نتج عنها صراع اجتماعي وحالة من الغليان الثوري خلال السنوات التي أعقبت الحرب)[٨٤٦]
- فماذا حدث بعد ذلك ؟

---

[٨٤٦] المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر –المجلس الأعلي للثقافة٢٠٠٩ –لجنة التاريخ– تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق – الفصل العاشر –عهد الملكية(٢)– فاروق ونهاية العصر الملكي –(١٩٣٦–١٩٥٣) –أحمد زكريا الشّلق – مقتطفات من صفحة٥٣٧ وما بعدها

- خطب النحاس باشا خطبة في أغسطس ١٩٤٤ بمناسبة مرور ثمانية أعوام علي توقيع معاهدة ١٩٣٦ وأبرز خلالها ما قدمته مصر من تضحيات ودعم للحلفاء خلال الحرب وطالب بريطانيا بتنفيذ وعودها لمصر وإستقلال البلاد ولكن لم يحدث ذلك الاستقلال بالطبع ، وكل ما حدث أن الملك قام بإقالة وزارة النحاس الوفدية في أكتوبر ١٩٤٤ والتي كان يريد إقالتها قبل ذلك ولم يتمكن بسبب رفض الإنجليز ،
- ولكن لم يمانع الإنجليز في إقالة النحاس هذه المرة بعد انتهاء الحرب
- بالفعل لقد تم تشكيل حكومة ائتلافية من مختلف الأحزاب عدا الوفد برئاسة أحمد ماهر باشا وقد أجرت هذه الحكومة انتخابات قاطعها حزب الوفد ، وظل أحمد ماهر رئيساً للوزراء حتي تم اغتياله في فبراير ١٩٤٥ وتولي بعده محمود فهمي النقراشي باشا رئاسة الحكومة
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- كان أحمد ماهر باشا قد أرسل مذكرة للزعماء الثلاثة للحلفاء أثناء اجتماعهم في القاهرة ليضعوا ترتيبات ما بعد الحرب وطلب في هذه المذكرة جلاء القوات البريطانية عن مصر
- ومن هم الزعماء الثلاثة ومتي اجتمعوا في القاهرة ؟
- الزعماء هم روزفلت وتشرشل وشيانج كاي شيك وقد عقدوا مؤتمرهم في القاهرة في أكتوبر ١٩٤٤
- ولماذا اجتمعوا في القاهرة تحديداً ؟
- إنهم القادة المنتصرون في حرب عالمية ، فهل يصح أن تسأل لماذا اجتمعوا في مكان معين ، إن لهم الحق أن يختاروا أي مكان في العالم ليجتمعوا فيه
- عفواً لم أكن أدرك حجم المأساة التي وصلنا إليها منذ تفككت أمتنا وتعامل كل منا منفرداً مع الطواغيت والأقوياء في العالم كله . فماذا قرر المنتصرون ؟
- قرر المنتصرون عقد مؤتمر موسع في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية في أبريل سنة ١٩٤٥ لتأسيس هيئة الأمم المتحدة كبديل لعصبة الأمم ، واشترطوا علي أي دولة تريد أن تشترك في هذا المؤتمر أن تعلن الحرب رسمياً علي دول المحور قبل بداية مارس ١٩٤٥ وكان رئيس الحكومة المصرية قد تلقي بلاغاً بهذا المعني من الحكومة الأمريكية ، وكان أحمد ماهر باشا من دعاة إعلان الحرب علي ألمانيا منذ بداية الحرب
- ولكن الحرب كانت قد انتهت بالفعل وهذا مجرد إجراء شكلي
- نعم ورغم ذلك شن حزب الوفد هجوماً عنيفاً علي أحمد ماهر باشا لإتخاذه قرار إعلان الحرب علي ألمانيا واليابان حتي أن أحد الشباب المتحمسين في هذا الجو المشحون اغتال أحمد ماهر باشا بعد

إعلانه الحرب رسمياً في مجلس النواب وأثناء انتقاله من مجلس النواب إلي مجلس الشيوخ ، وهذا الشاب كان يعتقد أن أحمد ماهر قد ضحي بمصالح مصر[٨٤٧]

- ألم يكن يعرف النحاس باشا أن هذه الخلافات السياسية قد يتأثر بها الشباب المتحمس فيصل الأمر لاتهام بعض السياسيين بالخيانة
- للأسف كانت الاغتيالات السياسية ظاهرة قد انتشرت في تلك الفترة والسبب فيها علي ما أعتقد تخبط السياسيين وفشل المفاوضات وحالة الاختناق والقهر الذي كان يعيش فيها الشعب وخاصةً الشباب والله أعلم
- إذن فقد مات أحمد ماهر باشا دون أن يعرف ما حدث في سان فرانسيسكو
- نعم وقد تم في هذا المؤتمر ما تم من قبل في مؤتمر باريس الذي عُقِد بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي وهو ترتيب أوضاع العالم بعد الحرب طبقا لما يراه المنتصرون
- كما كان تحتمس الثالث يرتب أوضاع العالم قديماً وكذلك الإسكندر المقدوني والإمبراطور أغسطس وهارون الرشيد والظاهر بيبرس وسليم الأول وغيرهم ممن زحفت جيوشهم لتفرض سيطرتهم وإرادتهم
- نعم ويمكنك الآن إضافة روزفلت وتشرشل إلي هذه القائمة وقادة الحرب العالمية الثانية المنتصرون ، وقد تم بالفعل عقد المؤتمر ثم بعد ذلك تم تأسيس هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وحق الفيتو وما إلي ذلك من إجراءات يسيطر بها المنتصرون علي باقي دول العالم

عندما تم عرض قضية مصر علي مجلس الأمن الدولي

- إذا سمحت لي أن أسأل عن تأثير مؤتمر سان فرانسيسكو وتأسيس هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن علي حالة مصر السياسية بشكل عام وهل استفادت من هذه التطورات العالمية وهل تم حل مشكلة قضيتها الوطنية؟
- بالفعل لقد عرضت مصر قضيتها علي مجلس الأمن ولكن للأسف فشلت المحاولة ، وقد ورد عن هذا الموضوع ما يلي : (--- بعد فشل مفاوضات صدقي واستقالته وتولية محمود فهمي النقراشي رئاسة الوزراء "ديسمبر١٩٤٦–ديسمبر١٩٤٨" التي تقاسمها السعديون والدستوريون ، كان لابد من الخروج بالقضية الوطنية من طور العلاقات الثنائية إلي المجال الدولي ، أي بعرضها علي هيئة الأمم المتحدة ، خصوصاً بعد أن حاول رئيس الوزراء الجديد استئناف المفاوضات مع السفير البريطاني في القاهرة ، ووجد إصراراً من الحكومة البريطانية علي موقفها ، لذلك قرر مجلس الوزراء في يناير ١٩٤٧ عرض القضية علي مجلس الأمن ، وترأس النقراشي وفد بلاده خلال الفترة بين أغسطس وسبتمبر ١٩٤٧

---

[٨٤٧] نقلا عن كتاب –المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر –تقديم ومراجعة –يونان لبيب رزق –صفحة ٥٣٨

- ألم يقرأ هؤلاء التاريخ ليعرفوا ماذا حدث لمحمد علي ولعرابي ولسعد زغلول من المجتمع الدولي أم أن علينا أن نكرر نفس المقدمات دائماً لنحصل علي نفس النتائج ؟ سبحان الله
- وقدم رئيس الوزراء عريضة دعوي مصر التي تحدثت عن احتلال القوات البريطانية لمصر احتلالاً غير مشروع منذ عام ١٨٨٢ مما يعد امتهاناً لكرامة دولة عضوة في الأمم المتحدة ، كما احتلت الجزء الجنوبي من وادي النيل أي السودان واتبعت سياسة ترمي إلي فصله عن مصر ، وإن هذا الاحتلال يعد تهديداً غير مشروع لأمة مستقلة ولوحدتها ، كما أثار نزاعاً بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية من شأنه استمرار تعريض السلم العام والأمن الدوليين للخطر
- إنني أشعر بالإشفاق علي هؤلاء الذين يعتقدون أنهم أعضاء في هيئة الأمم المتحدة وهم في الواقع ليسوا كذلك ، وخاصة بعد أن تفرقوا وأصبح كل منهم وحيداً ضعيفاً محتلاً يستجدي الاستقلال ، بعد أن كانوا أمة كبيرة مرهوبة الجانب كان من الممكن تقويم أحوالها وحل مشاكلها بنفسها دون تدخل سافر من دول لم تكن تحلم بالتواجد في هذه المنطقة ، وكم حاولت وفشلت بالقوة ، ثم نجحت بسبب تشرذمنا واختلافاتنا وبحث كل منا عن هويته وهي واضحة أمامه ، وإنني أعتذر لانفعالي ولكنني شعرت بغيظ شديد عندما تخيلت مصر كأحد الدول الإسلامية أصبحت تقف علي أبواب الطغاة تتسول استقلالها
- شعرت بالغيظ ولم تعرف بعد ماذا كان رد فعل مجلس الأمن من الدعوي المقدمة من مصر
- لم أعرف ولكنني أتوقع ماحدث بالتأكيد ، فماذا حدث علي أي حال ؟
- يضيف الكاتب : طالب ألكسندر كادوجان مندوب بريطانيا بشطب القضية المصرية من جدول أعمال مجلس الأمن متذرعاً بأن معاهدة ١٩٣٦ خولت بلاده إبقاء قواتها في مصر والسودان حتي عام ١٩٥٦ ، وكذلك اتفاقية ١٨٩٩ التي أقرت لها المشاركة في إدارة السودان
- يريد شطب القضية المصرية من جدول الأعمال دون حتي مناقشتها ؟ فماذا فعل النقراشي ؟
- وقد رد عليه النقراشي في مساجلة تاريخية دمغ فيها خطاب المندوب البريطاني بأنه يدافع عن الاستعمار ووصف الإنجليز بأنهم "ضيوف طفيليون" وأن وجودهم يثير مشاعر المصريين وسخطهم وأن الزمام سيفلت إذا فشلت المساعي السلمية ، وعبثاً حاولت مصر إثبات بطلان المعاهدة والاتفاقية لمخالفتهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، ورغم وضوح حق مصر ، فقد امتنع مجلس الأمن عن أن يصدر قراراً بجلاء القوات البريطانية وتركها مدرجة في جدول الأعمال دونما قرار ،
- وبالطبع لم يعجب ذلك حزب الوفد
- يضاف إلي ذلك إحراج حزب الوفد للنقراشي بإرساله برقيات إلي مجلس الأمن يذكر فيها أن رئيس الوزراء المصري ، مما أساء إلي سمعة المصريين أمام المحفل الدولي)[٨٤٨]

---

[٨٤٨] المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر– تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق – الفصل العاشر —أحمد زكريا الشّلق – مقتطفات من صفحة ٥٤٥ وما بعدها

- لقد أراد الوفد أن يزيد الفشل فشلاً ويزيد الطين بلة كما يقال ، فكيف لوطني مخلص كما يدعي أن يعوق محاولة لتحقيق مصالح الوطن حتي ولو كانت فاشلة ، وأنا أسأل : في حالة حدوث حريق داخل مقر حزب الوفد هل سيسمح للجميع بالمشاركة في محاولات الإطفاء أم سيسمحون للوفديين فقط ؟
- في الحقيقة إنها مأساة تكررت للأسف في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، فأي حل أو حتي اقتراح حل لأي مشكلة من أي فصيل سياسي يُقابل بالرفض من باقي الفصائل السياسية ، بل قد يحاولون إفشاله لإثبات عدم جدواه ، لقد غابت معاني المصلحة العامة وسط الصراعات السياسية ، وهو نموذج للغباء الجماعي في أوضح صوره والله أعلم
- فماذا قرر النقراشي بعد عودته من مجلس الأمن ؟
- (قبل أن يعود النقراشي إلي مصر صرح في نيويورك بأن مصر لن ترضي باستئناف المفاوضات مع إنجلترا إلا بعد جلاء قواتها عن البلاد ، وعند عودته أُستقبل استقبالاً وطنياً باعتباره وقف موقفاً وطنياً رفع صوت مصر عالياً وتمسك بمطالبه الوطنية وخاصم بريطانيا علناً أمام الهيئة الدولية ، وفي مصر أعلن أن خطة حكومته تتلخص في تجاهل إنجلترا تجاهلاً تاماً ، وأنها في خصومة سافرة معها ، وأننا سنولي وجهنا شطر الجيش المصري سياج الوطن فنقويه بزيادة عدده والاستعانة بالدول الأخري لجلب عِدده والخبراء والمستشارين اللازمين له ، وسندعم الإصلاح الداخلي بكل ما في وسعنا ،،)[٨٤٩]
- فماذا حدث بعد ذلك ؟

إعلان قيام دولة إسرائيل ونشوب حرب ١٩٤٨

- (– – بعد أن خذل مجلس الأمن القضية الوطنية المصرية ، أصدر قراراً آخر في أواخر نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلي دولتين :دولة عربية ودولة يهودية صهيونية ، وأعلنت بريطانيا أنها ستنهي انتدابها علي فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ وكان واضحاً أنها كانت متفقة مع اليهود علي أن يحلوا محلها في فلسطين ، وساعدتهم علي إعداد قواتهم لتحقيق أهدافهم وفي المقابل اتفقت الدول العربية علي أن تدخل فلسطين بجيوشها بمجرد خروج القوات البريطانية منها ، لكي يعيدوها إلي أهلها
- هل سيدخلونها بجيوشهم وهي دول تحت الاحتلال ؟، وهل سيدخلونها تحت راية العروبة وليس راية الإسلام ، وهل دعا أحد للجهاد ؟ ألم يكوّنوا جيشاً إسلامياً واحداً قبل أن يتقاتلوا عرب وأتراك ومصريون ، يا لها من مهزلة أن تقوم دولة تحت الاحتلال بإرسال جيشها لتحرير دولة أخري تحت نفس الاحتلال ، والأعجب من كل هذا أن ما يسمي بالتجريدة المصرية هي التي قامت باحتلال فلسطين سنة ١٩١٧ بقيادة اللورد اللنبي ليرفرف عليها العلم البريطاني ، فماذا كتب أيضاً عن هذا الموضوع ؟

---

[٨٤٩] المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر– تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق – الفصل العاشر —أحمد زكريا الشّلق – صفحة ٥٤٧

- وثبت أن سياسة الدول العربية بهذا الشأن لم تكن مدروسة وأنها سايرت مقاصد السياسة البريطانية إلي حد كبير ، فضلاً عن افتقارها إلي العتاد والسلاح والقيادة المخلصة ، ولم يكن الجيش المصري بالذات ، الذي وقع عليه العبء الأكبر في هذه الحرب ، علي استعداد كاف للمعركة ، علي الرغم من أنه أدي دوره كاملاً في ميدان القتال ، وبطبيعة الحال فإن الولايات المتحدة الأمريكية كانت أول دولة اعترفت بالدولة الصهيونية في ١٤ مايو ١٩٤٨ ، –)[٨٥٠] وعلي أي حال تم هزيمة الجيوش العربية مجتمعة في هذه الحرب التي تم وقف إطلاق النار خلالها مرتين بقرارات من مجلس الأمن وكان اليهود هم المستفيدون في المرتين من وقف إطلاق النار ، والجدير بالذكر أن الكثير من المتطوعين المصريين قد شارك في هذه الحرب مع الجيش المصري وتم ضرب مصالح اليهود والإنجليز وعملائهم في مصر
- فماذا حدث داخل مصر خلال تلك الفترة ؟
- (شهدت مصر خلال نفس الفترة موجة من عمليات الاغتيال السياسي ، وتولي الوزارة أحد أبرز أعضاء الهيئة السعدية ورئيس الديوان الملكي "إبراهيم عبد الهادي" الذي استمر في الحكم لنحو سبعة أشهر ، لتنتهي وزارته بعد عجزها عن توحيد الصفوف ، ليؤلف حسين سري باشا وزارة ائتلافية في يوليو ١٩٤٩)[٨٥١] ، وتم إجراء انتخابات حصل فيها الوفد بالطبع علي الأغلبية فقام النحاس باشا بتأليف الوزارة وهي آخر وزارة وفدية قبل ثورة يوليو واستمرت حوالي عامين ، حتي ٢٧ يناير ١٩٥٢
- وطبعاً عادت المفاوضات مع الإنجليز أليس كذلك ؟
- بالتأكيد فحيث يوجد الوفد توجد المفاوضات
- أرجوك لا تخبرني بأي تفاصيل عن هذه المفاوضات ، لأن الأمر أصبح لا يُحتمل ، كما أنه لا جدوي من الحديث عن مفاوضات عقيمة تكررت كثيراً
- هذا صحيح ، فالأمر لم يعُد محتمل أيضاً بالنسبة للنحاس باشا نفسه فقام بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد ، بعد أن شعر بعدم جدوي المفاوضات

إلغاء معاهدة ١٩٣٦

- أخيراً فهم النحاس ما فهمه سعد زغلول من قبل ولكن بعد فوات الأوان ، وهل اتخذ إجراءات مناسبة قبل أن يلغي المعاهدة لاحتواء أي رد فعل قد يحدث وخاصة في منطقة القناة ؟
- كل ما فعله أنه قام بإلغاء المعاهدة وقال قولته الشهيرة : من أجل مصر وقعنا معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر ألغينا معاهدة ١٩٣٦ ، يقول الرافعي : (كانت وزارة الوفد بعد إلغاء المعاهدة تعلن علي

---

[٨٥٠] المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر– تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق – الفصل العاشر —أحمد زكريا الشّلق – صفحة ٥٤٧

[٨٥١] المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر– تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق – الفصل العاشر —أحمد زكريا الشّلق – صفحة ٥٤٨

لسان النحاس وغيره من الوزراء أنها أعدت لكل شئ عدته فيما ستواجهه مصر من مشاق الجهاد -- -- ، وكان الجميع يعتقدون بعد هذه التصريحات المتكررة أن الوزارة قد قدرت جميع الاحتمالات التي ستعقب الإلغاء ، واتخذت لكل احتمال عدته ،والخطوات العملية التي ستواجهها بها ، ولكن تبين مع الزمن أنها لم تتخذ أية عدة لمواجهة الموقف ، فلا هي نظمت المقاومة ، سلبية أو إيجابية ، ولا هي دربت المتطوعين علي حرب العصابات ، ولا سلحتهم أو أعدت تنظيمات الكفاح ، ولا زودت رجال البوليس في مدن القنال بالسلاح والذخيرة الكافيين لمواجهة الموقف ، بل لم تزود هذه المدن بالتموين الكافي قبل الكفاح أو في خلاله ، وخاصة بعد أن تعطلت المواصلات إليها ، وكل ما عنيت به إعداد خطبة مستفيضة ألقاها النحاس في البرلمان ---وأذيعت في الراديو غير مرة -)[٨٥٢]

- فماذا ورد عن موضوع إلغاء المعاهدة في كتاب المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ؟
- أرجو أن تسمح لي أن ننتقل إلي كتاب آخر كي نكسر حدة الملل ونغير في الأسلوب ،وخاصة أننا سنقترب من ثورة يوليو المثيرة للجدل والتي تعددت الكتب والآراء التي تتناولها وكثرت المذكرات التي دونها بعض قادتها
- لا مانع بالطبع من تغيير المرجع ولو مؤقتاً ، فأي الكتب سوف نطالعها ؟
- إنه كتاب بعنوان "سقط النظام في أربعة أيام–ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية" للأستاذ محسن محمد
- ولماذا كتب "بالوثائق السرية " في عنوان الكتاب ؟ وعن أي الوثائق يتكلم ؟
- الوثائق التي يعنيها الأستاذ محسن محمد عبارة عن وثائق تم الإفراج عنها في المركز المختص بحفظ الوثائق في إنجلترا ، وهو مركز يحتفظ بالعديد من الوثائق القديمة ، ولا ينشرها إلا إذا مر عليها فترة من الزمن تتناسب مع محتوي الوثيقة ، فقد يتم الإفراج عن وثيقة ما بعد ٥٠ سنة أو بعد ١٠٠ سنة أو أكثر ،
- وما معايير تحديد هذه الفترة ؟
- بالتأكيد يتم الإفراج عن أي وثيقة عندما لا يؤثر نشرها علي الأمن القومي البريطاني أو علي أمن أي دولة حليفة لها ، أما إذا كانت الوثيقة مثلاً عبارة عن رسالة سرية أرسلها أحد ملوك إنجلترا في العصور الوسطي مثلاً إلي أحد ملوك أوروبا وإذا تم كشفها في عصره كانت ستحدث اضطرابات وحروب بسببها ، ولكن حالياً هي مجرد تاريخ يستفيد منه المؤرخون ، وبالتالي يذهب المؤرخون والمهتمون بالتاريخ إلي هذا المركز بصفة شبه دورية ويتابعون أخباره ليقفوا علي ما يتم نشره أولاً بأول
- وما المقصود بنشر الوثيقة أو الإفراج عنها ؟ أو ما الذي يحدث ؟
- يقوم المركز بتسليم الباحث نسخة مصورة منها معتمدة من المركز ، مقابل رسوم معينة علي ما أعتقد ، ولقد استطاع الأستاذ محسن محمد الحصول علي مجموعة من البرقيات تخص مصر وتم الإفراج

[٨٥٢] نقلاً عن كتاب –مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢–عبد الرحمن الرافعي–دار المعارف –الطبعة الثالثة ١٩٨٧–صفحة ٢٧

عنها مؤخراً وكلها تمت خلال أهم الأحداث التي عاشتها مصر سنة ١٩٥٢ ، فقام بنشرها في هذا الكتاب

- وهل كانت هذه البرقيات تحتوي علي أسماء مصرية سواء راسل أو مرسل إليه ؟
- ليس معني أنها تخص مصر أن الذي أرسلها أو استقبلها مصريون ، بل بالعكس إن جميع هذه البرقيات كانت بين أشخاص بريطانيين بالكامل ، فمثلاً برقيات من السفير البريطاني بالقاهرة إلي قائد القاعدة البريطانية في القناة ، والعكس ، وبرقيات من السفير نفسه إلي وزارة الخارجية البريطانية ومنها إلي السفير البريطاني في واشنطن وهكذا
- وكلها تخص مصر بالطبع ؟
- بالتأكيد وقد تجد في أحد هذه البرقيات مثلاً ما يوضح طلبات الملك فاروق من السفير وغير ذلك من مواقف خاصة بالأيام الأولي لحركة الجيش المصري ، وبالتالي فإنها برقيات مثيرة جداً وتحتوي علي الكثير من الأسرار
- وأكيد تم حدوث ضجة كبري عند نشر هذا الكتاب
- لقد استفاد منه المهتمون بالتاريخ فقط علي ما أعتقد وعدا ذلك فالكتاب موجود علي رفوف المكتبات العامة والخاصة ، فالقليل في مصر من يقرأ التاريخ أو يهتم به والله أعلم
- أفهم ما تعنيه بالطبع ، ولكن ألا يوجد في هذا الكتاب سوي الوثائق فقط ، أقصد ماذا عن باقي الأحداث التي لم ترد عنها وثائق سرية ؟
- بالطبع لقد كتب المؤرخ تاريخ تلك الفترة من المصادر المصرية المتاحة للجميع عن ثورة يوليو، وأورد كل وثيقة في مكانها وطبقاً لتسلسلها الزمني من الأحداث ، فهو كتاب تاريخ كأي كتاب آخر ولكنه يتميز إلي حد ما عن غيره بنشر تلك الوثائق في سياق سرده للأحداث
- فماذا ورد في هذا الكتاب عن موضوع إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ؟
- لقد ورد ما يلي : (أعلن مصطفي النحاس باشا رئيس الوزراء ورئيس حزب الوفد يوم ٨ من أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا ومعاهدة الحكم الثنائي المصري البريطاني للسودان التي عقدت بين مصر وإنجلترا أيضاً عام ١٨٩٩ . ونادي بفاروق ملكاً علي مصر والسودان ، وافق الملك فاروق وصدر قانون إلغاء المعاهدتين في ١٥ من أكتوبر ١٩٥١ ، ورفض الإنجليز ذلك وأعلنوا أنه لا يجوز إلغاء هذه المعاهدة من طرف واحد ---- أخذت الحكومة المصرية تشجع العمال المصريين علي ترك العمل في المعسكرات البريطانية وبدأت أعمال الفدائيين ضد الإنجليز بتشجيع من حكومة الوفد ، احتج الإنجليز وقدم السفير البريطاني أول مذكرة احتجاج كتابية إلي الحكومة المصرية في ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٥١ ، بدأ صاحب الجلالة يتآمر مع الإنجليز ضد رئيس وزرائه الذي ألغي المعاهدة فأوفد ادجار جلاد صاحب جريدتي "الزمان" و "الجورنال ديجيبت" وأحد رجال القصر إلي كريز

ويل الوزير البريطاني المفوض –يوم ١١ من ديسمبر ١٩٥١– لإبلاغه أن علي ماهر سيعين رئيساً للوزارة بعد إقالة النحاس ، وطلب جلاد من كريزويل التفاهم مع علي ماهر ، ويلتقي الرجلان ، رئيس وزراء مصر السابق ، والوزير البريطاني المفوض ، قال علي ماهر أنه يوافق علي تولي الوزارة وستكون وزارة ائتلافية تضم عناصر قوية ، وطلب من بريطانيا أمرين : ألا يقدم أنتوني ايدن وزير خارجية بريطانيا أية تنازلات إلي الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر عند لقائهما – – أثناء اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة وأن تتخذ السلطات البريطانية إجراءات في منطقة القناة ضد الإرهابيين–يقصد الفدائيين– ،، تتابعت مذكرات الاحتجاج من السفير البريطاني بشأن أعمال الفدائيين فاكتمل عددها إلي ٤ مذكرات آخرها بتاريخ ١٩ من يناير عام ١٩٥٢ ، –––ويقرر الإنجليز يوم ٢٥ من يناير ١٩٥٢ نزع سلاح قوات الشرطة في منطقة القناة –وتلقت واشنطن من الحكومة البريطانية تفصيلات العملية قبل بدئها بنصف ساعة ، رفض قائد القوة المصرية التسليم فأطلق عليهم الإنجليز النار ، بعد الحصار فقتل ٥٢ من رجال بلوك النظام وأصيب ٧٢ ، وقُتِل في هذه المذبحة من الإنجليز ضابط وثلاثة جنود ، استسلم البوليس المصري بعد نصف ساعة من المقاومة الباسلة ، وتبلغ بريطانيا واشنطن بأن هذا الإجراء كان ضرورياً لأمن القوات البريطانية في منطقة القناة

- يبدو أن بريطانيا قد عرفت حجمها الحقيقي بعد الحرب العالمية الثانية واختلال ميزان القوي في العالم فبريطانيا العظمي لم تعد عظمي وكذلك فرنسا ، بل أصبح هناك قوي عظمي جديدة في العالم تتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي ، ولابد من الحصول علي إذن من أحدهما قبل التورط في أعمال قتال ، فماذا كان رد أمريكا علي ما فعلته بريطانيا مع الشرطة المصرية ؟
- يضيف الكاتب : ولكن الوزير الأمريكي أبدي أسفه للسفير البريطاني ، لأن العملية لم تتم كما وعدت بريطانيا وكانت عنيفة وسيئة ، وعد انتوني ايدن وزير خارجية بريطانيا القيام بالمصالحة مع مصر
- فماذا حدث لقوات الشرطة بعد انتهاء المذبحة ؟

حريق القاهرة في اليوم التالي لمعركة الشرطة

- زحف جنود بلوكات النظام علي القاهرة في صباح اليوم التالي ، وينفجر الشعب في القاهرة–يوم ٢٦ من يناير– وتحترق المدينة ويدمر أكثر من ٧٠٠ من المحلات والمنشآت أغلبها مملوك للأجانب ويهدد ١٢ ألفاً من المصريين بالتشرد ، ويقتل في هذه الأحداث ٢٦ شخصاً ويصاب ٥٥٢ آخرون منهم ٩ قتلي من البريطانيين والمفوض التجاري لحكومة كندا في مصر ، .... وكان المصريون هم الذين أحرقوا القاهرة
- وأين كان الملك في ذلك الوقت ؟
- كان الملك يقيم مأدبة غداء لضباط الجيش احتفالاً بميلاد ولي عهده أحمد فؤاد ، وظل صاحب الجلالة يرحب بضيوفة الستمائة ، وبينهم ضابط لا يعرفه صاحب الجلالة هو البكباشي –المقدم– جمال عبد

الناصر ، استمر تقديم الأطباق الثمانية واحداً بعد الآخر بينما يري ضباط الجيش الدخان يتصاعد من العاصمة المحترقة ، قيل إن فاروق تأخر في استدعاء الجيش لأنه أراد جعل الوفد يحترق بالنار ، وليتخلص من هذا الحزب إلي الأبد

- هل من المعقول أن يترك العاصمة تحترق ليتخلص من خصومه السياسيين ؟، لا أستطيع أن أتخيل هذا ، فماذا أيضاً مكتوب في هذه السطور ؟
- وتبعث أيضاً وزارة الخارجية البريطانية "برقية" إلي سفيرها في القاهرة ، في الثالثة والنصف من بعد الظهر تقول : "إذا عجز الجيش المصري عن حفظ النظام ، وطلب مساعدتنا عبر الملك ، أو قائد الجيش ، فإن هذا أفضل حل للتدخل ، وهو الحل الذي نرحب به ، وإذا تلقينا طلباً مسئولاً بشروط ، تعتبرها مرضية ، فأنت مفوض للإجابة بالتشاور مع القائد العام البريطاني " .
- فمن كان السفير البريطاني في ذلك الوقت وماذا فعل بعد وصول هذه البرقية ؟
- حاول السفير البريطاني السير رالف ستيفنسون أكثر من مرة الاتصال بأي وزير مصري دون جدوي فلم يكن بين وزراء مصر من يرغب في الحديث إلي السفير البريطاني . كان السفير حائراً ، هل يتصل بالجنرال ارسكين قائد القوات البريطانية في منطقة القناة ، ويطلب منه التدخل والزحف بقواته إلي القاهرة ، إن قوات ارسكين كانت مستعدة ، الفرقة الأولي وكتيبة المظلات رقم ١٦ ، وكان ارسكين قد أبلغ السفير بأنه يستطيع الوصول إلي القاهرة خلال ست ساعات إذا قاومه الجيش المصري أما إذا لم يجد مقاومة فإنه سيقتحم القاهرة خلال ١٢ ساعة لأنه سيتقدم بحذر ، وقال أن المقاومة العلنية من المصريين تجعل عملية الزحف أيسر ، أما إذا اتبعوا اسلوب حرب العصابات فإن ذلك يجعل عملية الزحف تستغرق وقتاً أطول ، في الثالثة بعد الظهر أبلغ إبراهيم فرج باشا "وزير الخارجية المصري بالنيابة" فإن محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية كان في الخارج ،السفير البريطاني، بأن السلطات المصرية تستطيع حفظ الأمن والنظام وأنها مسئولة عن حماية أرواح الأجانب ، فإن صاحب الجلالة أمر الجيش بالتدخل)[٨٥٣] وطلب الملك من النحاس إعلان الأحكام العرفية فأعلنها
- وتم إقالة النحاس باشا ووزارته وتعيين علي ماهر باشا ؟
- نعم ولكن لم يحدث ذلك بسهولة نظراً لتحذير الفريق محمد حيدر باشا قائد الجيش بأن هناك العديد من الضباط الوفديين في الجيش قد يغضبوا من إقالة النحاس ، فقام الملك بإجراء مشاورات بالقصر أدت إلي تأليف وزارة علي ماهر
- ولكن كيف يكون هناك ضباط في الجيش لهم ميول حزبية ؟

---

[٨٥٣] نقلاً عن كتاب –سقط النظام في أربعة أيام – ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية –محسن محمد–دار الشروق–الطبعة الأولي ١٩٩٢–مقتطفات من صفحة ٧ وما بعدها

- في ذلك الوقت كان هناك ضباط ينتمون إلي كافة القوي السياسية كالوفد والشيوعيين بل والإخوان أيضاً وهذا لم يعد موجود بعد ذلك ، والعجيب أن علي ماهر عندما قام بتشكيل الوزارة رشح اللواء محمد نجيب ليكون وزيراً للحربية نظراً لشعبيته داخل الجيش ولكن الملك رفض ذلك ، فتولي أحمد مرتضي المراغي وزارتي الحربية والداخلية
- وبالطبع كان الملك سعيداً بتخلصه من الوفد والنحاس ، وبوقوف الجيش إلي جانبه
- يضيف الأستاذ محسن محمد في كتابه (--ويصبح فاروق-كما تقول برقيات السفير البريطاني-واثقاً من نفسه لتخلصه من الوفد في لحظة تدهور فيها نفوذ الحزب إلي درجة الصفر وخاصة بعد إعلانه الأحكام العرفية ، ويكتب ايدن في مذكراته : ترك الخوف من أن قواتنا ستأتي للقاهرة أثرا عندما أقال الملك النحاس باشا بعد مناقشة طويلة دارت في القصر)[٨٥٤]
- فمن تم اتهامه بإشعال الحريق في القاهرة ؟
- طلب الملك والإنجليز من علي ماهر اتهام وزارة الوفد بالمسئولية عن الحريق والفوضي ومحاكمة المسئولين عن هذا الحريق وحل البرلمان الوفدي ولكن علي ماهر كان يريد تهدئة الأمور ورفض الدخول في معركة مع حزب الوفد مما أثار غضب الملك والإنجليز عليه ، وكان علي ماهر في السبعين من عمره وهو سياسي محنك أراد أن يهادن الجميع ليكون مرضي عنه من كافة الأطراف حتي تمر الأزمة بسلام ،
- ولكن من المسئول فعلاً عن الحريق ؟
- في رأي الرافعي أن كل من الإنجليز والملك وحكومة الوفد مسئولين عن عدم السيطرة علي الحريق بعد حدوثه وعن عدم منع السلب والنهب الذي صاحبه ولكن الذي بدأ الحريق هم جموع الشعب الغاضب بسبب ما حدث لقوات الشرطة في الاسماعيلية ، كما أن تأخر الملك في استدعاء الجيش زاد الموقف سوءاً بلا شك ولذلك أشارت أصابع الاتهام إلي عدة أطراف منها الملك نفسه ، وتطورت الأحداث (أراد الملك أن يحطم علي ماهر الوفد وأن يقدم رجاله إلي القضاء بتهمة إحراق القاهرة .. أما علي ماهر فظن أنه يستطيع أن يناور الملك ، والوفد ، والإنجليز ، وأن يكون الرجل الذي يثق به كل الزعماء لأنه أعاد لمصر الأمان ، كانت للإنجليز في منطقة القناة قاعدة تقدر قيمتها بـ ١.٥ بليون دولار وفيها نحو ٧٥ ألف جندي بريطاني وهي أكبر قاعدة غربية خارج بريطانيا والولايات المتحدة ، وتعتبر نقطة قوية في سلسلة الحلقات الدفاعية الإقليمية والعالمية التي أنشأها الغرب .

---

[٨٥٤] نقلاً عن كتاب -سقط النظام في أربعة أيام – ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية -محسن محمد-دار الشروق-الطبعة الأولي ١٩٩٢-صفحة ١١

- طبيعي أن تهتم الولايات المتحدة بهذه القاعدة علي الأقل إلي أن تعد البديل وتعيد ترتيب وتوزيع قواتها في العالم طبقاً لترتيبات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي ، ولكن دع الحديث عن القوي العظمي مؤقتاً ، وحدثني عن المشاكل التي واجهها علي ماهر وهو يقوم بالمناورات والمهادنات ؟
- -- بعد تشكيل الوزارة رُسِمت الصُلبان الحمراء والسوداء بأعداد كثيرة علي شقق ، ومنازل ، المسيحيين والأجانب المعروفين في مصر ، وتسلمت المتاجر الكبري تحذيرات مجهولة تقول : "غفلنا عنكم في المرة السابقة –أي أثناء الحريق– ولكننا سنصل إليكم في المرة القادمة " قال السفير الأمريكي :"هذه عملية شيوعية" وأعلن مدير الأمن العام المصري عن اتخاذ إجراءات مشددة لوضع نهاية لحرب الأعصاب وأذاع علي ماهر بياناً أشار فيه إلي أن الواجب الأساسي للحكومة هو استقرار السلام والهدوء تأكيداً لحقوق المصريين والأجانب وإعادة الثقة في الإدارة ، وكان واضحاً أن رئيس الوزراء يعتمد في تأييده علي حزب الأحرار الدستوريين والسعديين ، وأعلن الإخوان ، وارتباطهم قديم بعلي ماهر ، تأييدهم لحكومته وأدانوا أعمال السلب والنهب التي جرت يوم حريق القاهرة ، قال حسن الهضيبي المرشد العام للجماعة : "إحراق ملهي لا يمحو الشر والانتهازية مادام القانون يسمح بوجوده" وطالب المرشد العام بمقاطعة منظمة للبضائع الإنجليزية بدلاً من تحطيم المنشآت ، أما الوفد وله أغلبية في مجلس النواب ، فقد أحس بالإهانة لأن هذه هي المرة الرابعة التي يقال فيها ، كما أن عملية الإقالة تمت بعد إعلان الأحكام العرفية ، وبذلك لا يستطيع الوفد أن ينتقدها فقد أعلنها بنفسه)[٨٥٥]

الملك والإنجليز يتآمرون علي رئيس الوزراء ويتم تعيين نجيب الهلالي بدلاً منه

- وإلي متي صبر الملك والإنجليز علي مناورات علي ماهر بشأن مهادنة الوفد وعدم محاسبته ؟
- لقد قرر الملك التخلص من علي ماهر بافتعال أزمة وزارية حيث قدم اثنان من الوزراء استقالتهما مما وضع علي ماهر في مأزق فقدم استقالته بعد أن أمضي أقل من خمسة أسابيع في منصبه ، وقام الملك بتعيين أحمد نجيب الهلالي باشا رئيساً للوزراء وبالطبع تم تعيين الوزيرين المستقيلين بالوزارة مرة أخري مكافأة لما فعلوه من أزمة وزارية
- الهلالي هذا هو من تحرك الجيش في عهده ؟
- نعم فقد كان آخر رئيس حكومة في عهد الملك فاروق قبل أن يختار الضباط الأحرار علي ماهر ليعود للحكم مرة أخري ليطلب من الملك التنازل عن العرش

---

[٨٥٥] نقلاً عن كتاب –سقط النظام في أربعة أيام – ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية –محسن محمد–دار الشروق–الطبعة الأولي ١٩٩٢–صفحة ١٢

- لقد تعرض علي ماهر لمؤامرة ولم يتم إقالته بشكل مباشر لأنه شخصية لها وزنها ومن الصعب التخلص منها ، والعجيب أن يتآمر الإنجليز مع الملك ضد علي ماهر والوفد ، مع أن الإنجليز قد وقفوا من قبل إلي جانب الوفد ضد الملك في حادث ٤ فبراير الشهير ، إنهم قوم لا تحركهم سوي مصالحهم
- (إن علي ماهر فشل في مواجهة المؤامرات ، متعددة الأطراف من الجميع ، وكان هو نفسه أول المتآمرين ، بريطانيا والولايات المتحدة تريد انضمام مصر لاتفاقية الدفاع المشترك . وبريطانيا وصاحب الجلالة يسعيان لهدم الوفد نهائياً بينما يرغب الحزب في عدم المساس به أو إلقاء مسئولية حريق القاهرة فوق أكتافه . ولم يفطن كل المتآمرين إلي أن الحريق عصف بأسلوب الحكم القديم في مصر فإن الجيش أصبح العنصر الحاسم في الموقف –)[٨٥٦]
- يبدو أننا وصلنا في الحديث إلي ما حدث في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فهل كانت ثورة فعلاً أم انقلاب ؟
- عندما بدأت قيل عنها أنها حركة الجيش ، ثم تم تسميتها بالحركة المباركة ، ثم أصبحت تسمي ثورة بعد أن نالت تأييد الشعب
- وهل لديك كتب ومراجع كافية لنعرف منها ما حدث في تلك الفترة ؟
- أحياناً تكون كثرة الكتب والمذكرات حول حدث واحد مشكلة لأي مؤرخ خاصة عندما تتناقض الروايات
- يمكن لنا أن نختار مرجع أساس للحوار ثم نقارنه بما ورد في كل المذكرات لنحاول الوصول للحقيقة بقدر الإمكان ، فما هي المراجع وما هي المذكرات المتوفرة عن الثورة لديك ؟
- لدينا الآن كتاب الأستاذ محسن محمد (سقط النظام في أربعة أيام) ولدينا كتاب (مقدمات ثورة ٢٣ يوليو) وكتاب (ثورة ٢٣ يوليو) للأستاذ عبد الرحمن الرافعي وكتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر) للأستاذ يونان لبيب رزق ، ويمكن الاستعانة بكتب أخري تناولت أحداث الثورة ، أما المذكرات فلدينا مذكرات الرئيس جمال عبد الناصر في كتابه (فلسفة الثورة) ومذكرات الرئيس محمد نجيب في كتابه (كنت رئيسا لمصر) ، ومذكرات الرئيس محمد أنور السادات في كتابه (البحث عن الذات) ، ومذكرات الأستاذ خالد محيي الدين في كتابه (والآن أتكلم) ويمكن إذا دعت الحاجة أن نستعرض أي معلومات من علي شبكة الانترنت عن أي حدث من أحداث الثورة
- بالفعل إن كثرة الكتب والمذكرات أصابتني بالحيرة قبل حتي أن تقرأ منها حرفاً واحداً
- علي أي حال لن نقع فيما يقع فيه البعض وتستغرقنا التفاصيل فالحدث واضح عندما نراه بشكل عام والتفاصيل قد تدور بنا في دوائر لا نهائية دون الحصول علي العبرة مما حدث ، ولذلك أرجو أن تساعدني علي تناول أحداث الثورة دون الاستفسار كثيراً عن أحداث جانبية تأخذنا بعيداً عن سياق الحديث

---

[٨٥٦] سقط النظام في أربعة أيام – ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية –محسن محمد–دار الشروق–الطبعة الأولي ١٩٩٢–صفحة ٢٢

- لا مانع ، ولكن قبل أن نتحدث عن الثورة أريد أن أعرف متي بدأ زيادة اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بمصر ويما يحدث بها بشكل خاص أكثر من الاهتمام الطبيعي ؟

تاريخ بدء الاهتمام الأمريكي بمصر خلال فترة الحرب الباردة

- (زاد الاهتمام الامريكي بمصر خلال الحرب العالمية الثانية – – – وكانت مصر تأمل مساعدة أمريكا في الضغط علي بريطانيا لتحقيق جلاء القوات الأجنبية عن مصر بغير قيد ولا شرط – – – ورغم أن مصر تقع جنوب الخط الذي حددته الولايات المتحدة لاحتواء الاتحاد السوفييتي فإن واشنطن رأت أن القاعدة البريطانية في منطقة السويس استطاعت تموين ٤١ فرقة محاربة أثناء الحرب العالمية الثانية كما أن القناة تمثل شرياناً حيوياً للتجارة العالمية ، وفي تقرير لمجلس الأمن القومي الأمريكي تاريخه ٢٣ من نوفمبر عام ١٩٤٨ وآخر عام ١٩٥٠ تنبأ المجلس بأن الجيش الأحمر –السوفييتي – يمكنه في حالة الحرب الوصول إلي القاهرة ومحو أكبر قاعدة عسكرية غربية في الشرق الأوسط ، وأجري السوفييت تجربتهم النووية الأولي في سبتمبر ١٩٤٩ مما غير الموازين الاستراتيجية بين واشنطن وموسكو ، ويجتمع رؤساء البعثات الأميريكية في الشرق الأوسط ، ، اعترف الحاضرون بانتشار الفساد في هذه الدول ولكنهم وجدوا أن الاستقرار في مصر ودول الشرق الأوسط أهم من الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وخافوا من معارضة الفساد وما قد تؤدي إليه ، وعلي هذا الأساس انتهي قرار الدبلوماسيين إلي ضرورة مساعدة نظام حكم الملك فاروق اقتصاديا مهما كانت درجة فساد هذا النظام ، وقال الدبلوماسيون إن النظام السياسي فاسد ولا يمكن إصلاحه ولكن من مصلحة الولايات المتحدة المحافظة عليه – – – لأن أي تغيير سريع في النظام القائم في مصر سيستغله الشيوعيون ، ووجدت الولايات المتحدة أن بقاء بريطانيا في مصر أمر ضروري لأن مصر لا تستطيع الدفاع عن نفسها وما حدث في حرب فلسطين يؤكد عجز القوات المصرية كما أن ميثاق الضمان الجماعي العربي يعتبر نمراً من ورق ، وقال لويس جونز مدير قسم الشرق الأدني بوزارة الخارجية أن النزاع المصري البريطاني لن يُحل بشروط مصر أو بريطانيا ، وفي يوليو ١٩٥٢ حذر هنري بايرود وكيل الخارجية الأمريكية من أن الفشل في إيجاد مخرج للنزاع المصري البريطاني سيفضي إلي اندلاع المظاهرات والقلاقل التي قد لا تستطيع الحكومة المصرية السيطرة عليها ، ولذلك ظل الأمريكيون يتابعون الموقف بعناية ، وبعد نجاح حركة الضباط قال مايلز كوبلاند : غمرت المسئولون في واشنطن موجة من السرور وأدركوا جميعاً أنهم أصبح في حوزتهم علي المسرح العالمي لاعب جديد من الطراز الذي بذلوا قصاري جهدهم للعثور عليه وأن كل ما سيضعونه معاً من الخطط سيحظي بنسبة عالية من التعاون

المثمر ، وأجمع كل المراقبين علي أن الأمريكيين ساعدوا الثورة في أيامها الأولي بإقناع الملك بالاستسلام وإقناع الإنجليز بعدم التدخل)٨٥٧

- إنه كلام في منتهي الأهمية ، ولكن أكثر ما لفت نظري فيه هو ما قاله الدبلوماسيون إن النظام السياسي فاسد ولا يمكن إصلاحه ولكن من مصلحة الولايات المتحدة المحافظة عليه ، فإلي هذا الحد كان لا يعنيهم ما تعانيه شعوب المنطقة في ظل أنظمة حاكمة فاسدة ؟
- بالتأكيد فالمصالح هي الأساس
- واضح أن هناك فرق كبير بين موقف بريطانيا من ثورة الجيش في عهد توفيق وموقفها من ثورة الجيش في عهد فاروق

بريطانيا أيام فاروق ونجيب تختلف عن بريطانيا أيام توفيق وعرابي

- (كان فاروق يستغيث بالسفير الأمريكي لإقناع زميله البريطاني وقائد القوات البريطانية بالتدخل العسكري لصالحه بواسطة القوات البريطانية في منطقة القناة وهي تفوق جيش مصر عددا وعتاداً ، ولم يكن فاروق يعرف موقف الحكومة الأمريكية منه ،، في الساعة الواحدة و ٤٦ دقيقة بتوقيت واشنطن أي السادسة و ٤٦ دقيقة صباحاً بتوقيت لندن بعث السير أوليفر فرانكس السفير البريطاني في الولايات المتحدة ببرقية إلي وزارة الخارجية حسمت الموقف بالنسبة للتدخل البريطاني في مصر ، قال السير فرانكس : "تري وزارة الخارجية الأمريكية ألا نتدخل بقوات بريطانية إلي جانب فاروق" ، وصلت هذه البرقية إلي لندن ولم يعلم بها الملك فاروق ، ولم يعرف فاروق أبداً أن الحكومة الأمريكية طلبت من الحكومة البريطانية ألا تتدخل لصالحه ، اجتمع مجلس الوزراء البريطاني بعد وصول برقية واشنطن برئاسة رئيس الوزراء ونستون تشرشل في الساعة الحادية عشرة والنصف بتوقيت بريطانيا الصيفي ، منتصف الواحدة ظهراً بتوقيت القاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكانت مصر هي المادة الأولي في جدول الأعمال ، قال انتوني ناتنج وزير الدولة البريطاني إن طلب فاروق بتدخل بريطانيا رُفِض بعد مشاورات عاجلة بين لندن وواشنطن ، وفي كتاب (واشنطن تخرج من الظل) قال المؤلف جيفري أرونسون : نقل قائد القوات البريطانية في مصر إلي ايدن طلب الملك فاروق بالتدخل فأبلغه ايدن إلي واشنطن ، وكان رد الرئيس الأمريكي هاري ترومان سلبياً فإن الولايات المتحدة لا تقر أي تدخل أجنبي لإنقاذ فاروق ، وجدير بالذكر أن الموقف الدولي اختلف تماماً عن الموقف أثناء الثورة العرابية فقد كانت بريطانيا العظمي لا تحتاج إلي تأييد من أي دولة أخري كي تتدخل عسكرياً لصالح الخديوي توفيق وتقضي علي الثورة العرابية وتحتل مصر وتلقي القبض علي الزعيم أحمد عرابي

---

٨٥٧ مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب سقط النظام في ٤ أيام – ثورة ٢٣ يوليو بالوثائق السرية – محسن محمد – دار الشروق – تحت عنوان الدور الأمريكي من صفحة ١٩٥ وما بعدها

وتحاكمه بتهمة الخيانة العظمي ، أما الموقف الدولي أثناء ثورة يوليو فلم يسمح لبريطانيا أن تتدخل عسكرياً لصالح الملك فاروق لتراجع قوي عظمي وصعود قوي عظمي جديدة بعد الحرب العالمية الثانية واختلاف ميزان القوي العالمية وكل ذلك كان من أهم عوامل نجاح ثورة يوليو ، فإن الملك فاروق عندما طلب تدخل بريطانيا عسكرياً لم توافق الولايات المتحدة ربما ليعلم الجميع أن دور بريطانيا قد انتهي ، وعندما حاولت بريطانيا التدخل عسكرياً مرة أخري سنة ١٩٥٦ بعد تأميم قناة السويس وتزعمت العدوان الثلاثي علي مصر جاء الرفض هذه المرة من القوة العظمي الثانية في العالم وهو الاتحاد السوفييتي وأرسل إنذار شديد اللهجة لوقف هذا العدوان ، ومنذ ذلك الحين عرف الجميع أن للعالم سادة جدد يديرون الأمور طبقاً لمصالحهم)٨٥٨

- ولكن بالرغم من رفض الولايات المتحدة تدخل بريطانيا لصالح الملك إلا أنها كانت حريصة علي استمرار وجود القاعدة العسكرية البريطانية كقاعدة غربية للحلفاء في مصر إلي أن يتم تدبير البديل كما أنها طلبت من الضباط المصريين المحافظة علي حياة الملك كما عرفت والله أعلم
- بالفعل لقد قام الضباط بالمحافظة علي حياة الملك ولكن لست متأكد هل كان قرار خاص بهم كما ورد عن المحاكمة التي عقدوها للملك فيما بينهم بين مؤيدي إعدامه ومؤيدي المحافظة علي حياته والتي تمت في الإسكندرية ووردت في بعض الكتب ، أم كان ذلك بناء علي طلب من السفير الأمريكي ، علي أي حال سوف نناقش ذلك أثناء الحوار
- ولكن هل يمكن علي أي حال أن نلقي الضوء علي أحداث الثورة ولو في عجالة ؟

---

٨٥٨ مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب سقط النظام في ٤ أيام – ثورة ٢٣ يوليو بالوثائق السرية – محسن محمد – دار الشروق – من صفحة ١٥٥ وما بعدها تحت عنوان البرقية الحاسمة

الفصل رقم (١٧) العصر الجمهوري

الرافعي يكتب عن بدء أحداث ثورة يوليو ١٩٥٢

- يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي عن بداية أحداث الثورة ما يلي : (---وفي صباح يوم ٢٢ يوليو اجتمعوا في مصر الجديدة ، وقرروا أن تكون ساعة الصفر "بدء الثورة" الليلة –ليلة الأربعاء ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢–واتفقوا علي أن يكون مركز شبوب الثورة في منطقة ثكنات الجيش من نهاية شارع العباسية إلي مصر الجديدة ، ووضعت الخطة بحيث يشترك في تنفيذها وحدات من جميع أسلحة الجيش ، واتفقوا علي الترتيبات الأخيرة للثورة ، وكانوا من قبل قد حددوا ساعة الصفر بالساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الخميس ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ولكن كانت الشائعات قد وصلت إلي بعض الأسماع بأن التذمر في صفوف الجيش آخذ في الازدياد ، فقررت اللجنة تقديم موعد التنفيذ أربعاً وعشرين ساعة ، أي في الساعة الواحدة والنصف من صبيحة يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأصدرت الهيئة أمرها إلي جميع الضباط في الجيش أن يكونوا علي استعداد للبدء بالثورة في هذا الموعد ، والتأهب لها قبل الموعد المذكور بوقت كاف ، واجتمع فريق من الهيئة التأسيسية في مساء ٢٢ يوليو ثم انصرفوا من الاجتماع في نحو الساعة التاسعة مساء إلي منازلهم ثم إلي ثكناتهم متفقين علي خطوات التنفيذ ، وكانت خطة الثورة تقضي باحتلال المراكز الهامة لأسلحة الجيش ووضع ضباط من الأحرار علي رأس هذه المراكز ، وبذلك يتم الاستيلاء علي الجهاز الحربي الذي تتركز فيه قوة الجيش ، وقسمت القاهرة إلي أربعة قطاعات ، وانتدبت الهيئة التأسيسية لكل قطاع بعض الضباط الأحرار ، تصحبهم قوة من الجند بأسلحتهم ومصفحاتهم للسيطرة عليها ، وقضت تعليمات قيادة الثورة باعتقال كبار الضباط القدامي من قواد الأسلحة ومن في حكمهم قبل ساعة الصفر بوقت مناسب ، لأن قيادة الثورة خشيت أن يكون وجودهم أحراراً سبباً في فشل الحركة ، وقد نُفذت هذه التعليمات منذ منتصف الليل ، واعتقل أولئك الضباط الكبار في منازلهم أو مراكزهم أو في الطريق إليها ، دون أن يعرفوا سبب اعتقالهم ، ونقلوا مع الاحترام الواجب إلي الكلية الحربية ، وحجز كل منهم في غرفة بها ، وكان الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش موجوداً وقتئذ في مبني رآسة الجيش بكوبري القبة ، إذ كان قد بلغته أنباء غامضة عن وجود تذمر بين بعض ضباط الجيش أو حركة يريدون القيام بها ، فاجتمع عند منتصف ليلة ٢٣ يوليو بمقر رآسة الجيش ببعض كبار اللواءات من قواد الأسلحة ، فكانت فرصة سانحة لاعتقالهم هناك ، فذهب إليهم بعض الضباط الأحرار ومعهم قوة من جنود الثورة ، واعتقلوا حسين فريد كما اعتقلوا من معه من كبار اللواءات وأرسلوهم مخفورين إلي الغرف التي أعدت لاعتقالهم في الكلية الحربية ، واحتلوا مبني رآسة الجيش ، فكان ذلك انتصاراً للثورة ، وحدثت هناك مقاومة يسيرة ، إذ أطلق الحرس المعين أمام الرآسة النار دفاعاً عن الدار ، فرد الضباط الأحرار

بإطلاق النار ، وقُتِل في هذه الحركة اثنان من الجنود ، أحدهما من حرس حسين فريد وهو الأونباشي عطية سيد أحمد دراج من نهطاي مركز زفتي غربية من قوة رآسة الجيش ، وواحد من جنود الثورة وهو المرحوم الأونباشي عبد الحليم محمد الشرفي من الكتيبة الأولي من قوة مدافع الماكينة ومن مواليد منقباد بأسيوط ، وجُرِح اثنان آخران ، وهي المقاومة الوحيدة التي حصلت للثورة في تلك الليلة ،

- إذن فلم تكن ثورة بيضاء تماماً بنسبة ١٠٠%
- ولما تلقت وحدات الجيش الموالية للحركة الأوامر بالتحرك من ثكناتها بادرت بتنفيذ هذه الأوامر ، وبلغت قوتها في بداية الحركة نحو ثلاثة آلاف جندي يقودهم نحو مائتين من الضباط الأحرار ، وكان الضباط علي استعداد للتحرك منذ الساعة العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم ، ومن الساعة الحادية عشرة بدأت الحركة ، وأخذت القوات الثائرة تعززها الدبابات والمصفحات والسيارات تحتل المراكز الهامة في منطقة الثكنات ، واستمرت إلي الساعة الثانية من صبيحة يوم الأربعاء ٢٣يوليو حيث استولت علي جميع هذه المراكز ،
- من الواضح أنه كان تخطيطاً محكماً وتم تنفيذه بدقة وحسم
- وحينما بدأ تنفيذ الخطة المرسومة سد رجال الجيش الطريق بين العباسية من أول شارع الخليفة المأمون إلي منشية البكري ومعهم الدبابات والمصفحات والمدافع الرشاشة ، وحاصروا هذه المنطقة ، وكان الضباط الأحرار يوقفون السيارات في طريق مصر الجديدة ويتحققون من شخصية أصحابها ، ولم يسمحوا بالمرور لأحد من المدنيين ، أما الضباط فكانوا يعتقلون منهم من لم يكن موالياً للثورة ،
- واضح أن الرافعي رحمه الله مُصِر علي تسميتها ثورة وهذا شئ عجيب فعلاً
- وأرسلت قيادة الثورة عدة قوات إلي أماكن مختلفة للاستيلاء عليها ، فحاصرت إحداها سلاح الحدود ، وحاصرت قوة أخري المطارات لمراقبة الداخلين والخارجين ، واحتلت سرايا من الجيش حديقة الأزبكية والمرافق العامة بالمدينة مثل محطة القاهرة ومصلحة التلغرافات والتليفونات ، والكباري الهامة عند مداخل العاصمة ، وسارت فصائل أخري إلي بعض الميادين العامة في العاصمة فعسكرت فيها ، وسيطر الضباط الأحرار علي العاصمة في مختلف نواحيها ، وتكلم الفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة وقتئذ بالتليفون من الإسكندرية[٨٥٩] في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل "صبيحة يوم ٢٣يوليو" وطلب التحدث إلي اللواء حافظ بكري مدير سلاح المدفعية ، إذ بلغه أن هناك حركة تمرد ، وكان حافظ بكري في تلك اللحظة معتقلاً ، فرد عليه أحد الضباط الأحرار وطمأنه علي الحالة ، وكانت الساعة وقتئذ الواحدة والربع ، وكانت المدافع قد أخذت تغادر الثكنات ووراءها عربات

---

[٨٥٩] كانت الوزارة بالكامل تنتقل إلي الإسكندرية في الصيف وتعود إلي القاهرة في الشتاء وكذلك الملك بطبيعة الحال ، وتوجد إلي الآن مباني الوزارة التي كانت تستخدم في الإسكندرية صيفاً ، ولم تعد تستخدم حالياً ، وقد ساعد ذلك بالطبع علي نجاح الحركة نسبياً إلي حد ما

الجنود بأسلحتهم وذخائرهم . وتحدث حيدر بالتليفون من الإسكندرية مرة ثانية بعد ثلث ساعة وطلب حافظ بكري فرد عليه الضابط الحر –وكان برتبة يوزباشي – وقال حيدر لمحدثه إن الأخبار التي وصلته من البوليس السياسي تقول إن بعض الدبابات والمدافع نزلت فعلاً إلي الشوارع ليلاً ، فقال اليوزباشي الذي مثل دور حافظ بكري إن هذه مجرد إشاعات وطمأنه من جديد ، واتجهت قوة مصفحة في قلب العاصمة ، فاحتلت دار الإذاعة المصرية ومقر شركة ماركوني بشارع علوي ، واحتلت قوة أخري دار الإذاعة في أبي زعبل ، وتم احتلال دار الإذاعة في الساعة الرابعة من صبيحة يوم ٢٣ يوليو ، وفي الصباح الباكر دخل البكباشي أنور السادات أحد قادة الثورة غرفة المذيع التي تتلي فيها نشرة الأخبار الصباحية وأذاع بنفسه علي الشعب البيان الأول للثورة[٨٦٠] بلسان القائد العام للقوات المسلحة في الساعة السابعة والنصف من صبيحة ٢٣ يوليو)[٨٦١]

- **السيطرة علي الإعلام تعني السيطرة علي الدولة بالكامل**

<u>سيطرة الضباط الأحرار علي الدولة بعد نجاح حركتهم</u>

- **بالفعل لقد قام تنظيم الضباط الأحرار بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر في ذلك الوقت بحركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقد سُميت هذه الحركة بالحركة المباركة ثم استقر اسمها ثورة ٢٣ يوليو لما لاقته من ترحيب واسع من كافة طوائف الشعب المصري وقد اختار الضباط الأحرار اللواء محمد نجيب[٨٦٢] لقيادة هذه الحركة**

---

[٨٦٠] كتب هذا البيان المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد الذي كان في ذلك الوقت أحد الضباط الأحرار ، وقد قام اللواء نجيب بإضافة تعديل علي البيان وأضاف عبارة (في ظل الدستور)

[٨٦١] نقلاً عن كتاب –ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢–تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢–١٩٥٩– بقلم عبد الرحمن الرافعي – الناشر دار المعارف –الطبعة الثانية ١٩٨٩–من صفحة ٢٨ وما بعدها

[٨٦٢] اللواء أركان حرب محمد نجيب - 1901 – 1984 سياسي وعسكري مصري، أول رئيس لجمهورية مصر بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في 18 يونيو 1953 ، كما يعد قائد ثورة ٢٣ يوليو 1952 التي انتهت بعزل الملك فاروق ورحيله عن مصر، تولى منصب رئيس الوزراء في مصر خلال الفترة من 8 مارس 1954. 18أبريل 1954 ، وتولى أيضاً منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية ثم وزير الحربية عام ١٩٥٢. ولد محمد نجيب بالسودان، والتحق بكلية غردون ثم بالمدرسة الحربية وتخرج فيها عام ١٩١٨، ثم التحق بالحرس الملكي عام ١٩٢٣. حصل على ليسانس الحقوق في عام1927 وكان أول ضابط في الجيش المصري يحصل عليها . حصل على دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي عام 1929 ودبلوم آخر في الدراسات العليا في القانون الخاص عام1931. في ديسمبر 1931 رقي إلى رتبة اليوزباشي نقيب ونقل إلى سلاح الحدود عام 1934 في العريش، ثم أصبح ضمن اللجنة التي أشرفت على تنظيم الجيش المصري في الخرطوم بعدمعاهدة ١٩٣٦، وقد أسس مجلة الجيش المصري عام 1937 ورقي لرتبة الصاغ رائد في 6 مايو .1938 قدم محمد نجيب استقالته عقب حادث 4 فبراير 1942 الذي حاصرت فيه الدبابات البريطانية قصر الملك فاروق لإجباره على إعادة مصطفى النحاس إلى رئاسة الوزراء، وقد جاءت استقالته احتجاجاً لانه لم يتمكن من حماية ملكه الذي أقسم له يمين الولاء، إلا أن المسؤولين في قصر عابدين شكروه بإمتنان ورفضوا قبول استقالته. رقي إلى رتبة القائمقام عقيد في يونيو .1944 وفي تلك السنة عين حاكماً إقليمياً لسيناء، وفي عام1947 كان مسؤولا عن مدافع الماكينة في العريش .ورقي لرتبة الأميرالاي عميد عام .1948 شارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وأصيب ٧ مرات، فمنح نجمة فؤاد العسكرية الأولى تقديراً لشجاعته بالإضافة إلى رتبة البكوية، وعقب الحرب عين مديرا لمدرسة الضباط، وتعرف على تنظيم

- ولماذا تم اختيار اللواء نجيب ليكون قائداً للحركة أمام الملك والوزارة والشعب ؟
- لقد كان اختياراً موفقاً بكل تأكيد لما له من شعبية كبيرة داخل الجيش المصري وكان ينافس مرشح الملك علي رئاسة نادي الضباط فكان الضباط يحبونه ويحترمونه ،
- فهل تعد مجرد موافقته علي قيادة هذه الحركة من عوامل نجاحها ؟
- أعتقد ذلك لأن الضباط الأحرار بالتأكيد ليسوا جميع ضباط الجيش المصري فكان الضباط الذين ليسوا أعضاء في هذا التنظيم يؤيدون الحركة لمجرد معرفتهم بأن قائدها هو اللواء نجيب فسهل ذلك علي ما يبدو من سرعة انتشار التأييد داخل الجيش ، كما أن اللواء نجيب كان رجلاً ناضجاً وله وزنه ومعروف ، وبالتالي فإن التفاوض معه من جانب القصر ومجلس الوزراء سيكون أفضل لمعرفة أهداف الحركة
- وماذا كانت أهداف الحركة في بدايتها ؟
- لقد تدرجت الأهداف من إصلاحات داخل الجيش إلي تنازل الملك عن العرش ومغادرة البلاد إلي أن انتهت بالإطاحة بحكم أسرة محمد علي بالكامل ، وكما ذكرنا أن بريطانيا لم تعد أقوي دولة في العالم بعد الحرب الثانية[٨٦٣] وبالتالي لم تتمكن من إنقاذ الملك والسيطرة علي العاصمة كما فعلت من قبل مع الثورة العرابية والخديوي توفيق ، وقد كان لبريطانيا قاعدة عسكرية ضخمة في قناة السويس تضم أكثر من سبعين ألف مقاتل بريطاني مزودين بأحدث الأسلحة ولكنها رأت أن تستشير الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تحرك جندي واحد في اتجاه القاهرة ، وإليك نص البيان الأول لثورة يوليو ١٩٥٢ من اللواء محمد نجيب إلي الشعب المصري وقد ألقي هذا البيان الرئيس الراحل محمد أنور السادات الذي كان برتبة بكباشي في ذلك الوقت وعضو مجلس قيادة الثورة : (اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير علي الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد

الضباط الأحرار من خلال الصاغ عبد الحكيم عامر، وفي ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ نفذت الحركة خطة يوليو والتي سميت بـ(الحركة التصحيحة) وانتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش لوريثه ومغادرة البلاد، وفي عام ١٩٥٣ أصبح نجيب أول رئيس للبلاد بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية . أعلن مبادىء الثورة الستة، وحدد الملكية الزراعية، لكنه كان على خلاف مع ضباط مجلس قيادة الثورة بسبب رغبته في إرجاع الجيش لثكناته وعودة الحياة النيابية المدنية، ونتيجة لذلك قدم استقالته في فبراير، ثم عاد مرة ثانية بعد أزمة مارس، لكن في 14 نوفمبر 1954 أجبره مجلس قيادة الثورة على الاستقالة،ووضعه تحت الإقامة الجبرية مع أسرته في قصر زينب الوكيل بعيداً عن الحياة السياسية ومنع أي زيارات له ، حتى عام ١٩٧١ حينما قرر الرئيس السادات إنهاء الإقامة الجبرية المفروضة عليه ، لكنه ظل ممنوعاً من الظهور الاعلامي حتى وفاته في 28 أغسطس 1984 ، بالرغم من الدور السياسي والتاريخي البارز لمحمد نجيب، إلا أنه بعد الإطاحة به من الرئاسة شُطب أسمه من الوثائق وكافة السجلات والكتب ومنع ظهوره أو ظهور أسمه تماما طوال ثلاثين عام حتى اعتقد الكثير من المصريين أنه قد توفي، وكان يذكر في الوثائق والكتب ان عبد الناصر هو أول رئيس لمصر، وأستمر هذا الأمر حتى أواخر الثمانينيات عندما عاد اسمه للظهور من جديد وأعيدت الأوسمة لأسرتة، وأطلق اسمه على بعض المنشآت والشوارع

[٨٦٣] بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت خريطة القوي العظمي في العالم وأصبح انسحاب بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط مسألة وقت

تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة علي الجيش وتولي أمره إما جاهل أو فاسد حتي تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلي ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولي أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولابد أن مصر كلها ستتلقي هذا الخبر بالابتهاج والترحيب ، أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب ، وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور ، مجرداً من أي غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس من صالح مصر ، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقي فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس ، وإني أطمئن إخواننا الأجانب علي مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم ، والله ولي التوفيق)[٨٦٤]

- ومما سبق يتضح أن قادة الثورة حرصوا حرصاً شديداً علي أرواح الأجانب حتي يفوتوا الفرصة علي بريطانيا إذا أرادت التدخل لحمايتهم وسيكون ذلك مبرراً قوياً لها ، ولكن أكثر ما لفت نظري في هذا البيان قوله : وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقي فاعله جزاء الخائن في الحال
- بالتأكيد فهو تهديد واضح وحاسم لمن يفكر في إثارة الاضطرابات
- وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مصر حكم فيها العسكريون
- نعم لقد عاد الحكم للمصريين رسمياً بعد سنة من قيام الثورة وانتهي حكم أسرة محمد علي
- ولكننا لا نريد أن ننساق وراء تفاصيل أكثر من ذلك عن أحداث الثورة ، لأن ما يهمنا هو معرفة ما الأسباب التي أدت إلي عدم عودة الضباط إلي ثكناتهم بعد نجاح حركتهم وسيطرتهم علي الحكم وإنهاء العصر الملكي ، فلماذا مثلاً لم يتم عودة الحياة السياسية كما كانت وعودة البرلمان وانتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد وخاصة أن البلاد كانت تمارس هذه الحياة بالفعل وكانت هناك أحزاب وقوي سياسية وبنية تحتية للديمقراطية إذا جاز التعبير ؟

بداية التأسيس لحكم المؤسسة العسكرية

- ألا تريد أن تعرف ماحدث عندما حكموا البلاد ؟
- قد أهتم بمعرفة بعض الأحداث المهمة ولكن هذا لا يعنيني الآن ، فالذي أعرفه جيداً أن الجيش لم يترك الحكم منذ ذلك الحين ، وتحكمت المؤسسة العسكرية في كل مفاصل الدولة إلي الآن وأصبح حكم الفرد المطلق هو السائد وبالتالي فإن الشعب قد اختفي من المشهد تماماً ، لأن المؤسسة العسكرية

---

[٨٦٤] نقلاً عن كتاب –مقدمات ثورة يوليو سنة ١٩٥٢– عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

مؤسسة لها أقدام ثقيلة ولا تسمح بتداول السلطة خارجها إلا نادراً وفي حالات خاصة جداً ، فماذا تريدني أن أعرف ، فكل الإنجازات هي من شخص واحد وكل الإخفاقات والهزائم هي مسئولية شخص واحد أيضاً فتاريخ مصر أصبح هو السيرة الذاتية للحاكم نفسه ، فالحكم أصبح له طابع شخصي بحت

- هذا صحيح إلي حد ما ويذكرني بما كتبه د جمال حمدان عن الاستمرارية والانقطاع في مصر حيث قال : (لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسي بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهري في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا ، المتغير الوحيد هو الشكل ، – – فقديما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد الرئيس ، فنحن يقيناً مازلنا بين فراعنة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، – – – وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت – الخديو اسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخري ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة – – هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخري ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية – – إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط – – من هنا جميعاً فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصيلة والأصلية ، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شئ نسبية إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضاً أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث – – – وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس – –وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة

السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم - - - وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها - - إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد - - - - لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المُعدية ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس)[٨٦٥]

- إن كل هذا الكلام الذي ذكره د جمال حمدان هو الذي يجعلني ألح في السؤال ، لماذا لم يعود الجيش إلي ثكناته بعد نجاح حركته ؟
- في الحقيقة إن الإجابة علي هذا السؤال يجب أن تكون من الضباط الأحرار أنفسهم
- وكيف سنعرف آراءهم في هذا الموضوع ؟
- من مذكراتهم بالطبع ، فدعنا نستعرض ما كتبوه في كتبهم ثم نعلق عليه
- لا مانع ، فمن الذي سنبدأ باستعراض ما كتبه ؟
- فلنبدأ بالعقل المدبر لهذه الحركة وقائدها الحقيقي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر
- فماذا كتب ؟
- سأقرأ لك من كتاب فلسفة الثورة الذي كتبه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ولكن أرجو أن تستمع للنهاية حتي انتهي من القراءة ثم اسأل عما تريد
- كلي آذان صاغية

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يوضح في كتابه فلسفة الثورة أسباب عدم عودة الجيش للثكنات

- لقد كتب ما يلي : (- - - لقد كنت أتصور قبل ٢٣يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلي الهدف الكبير ،، وكنت أتصور دورنا علي أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا

---

[٨٦٥] مقتطفات مختصرة من الجزء الرابع من كتاب- شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان -د جمال حمدان- والكتاب صادر عن دار الهلال - وهذه الفقرة في الباب العاشر تحت عنوان (آفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين ، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع ، من صفحة ٦٠٤ وما بعدها

يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلي الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشط بي أحياناً فيخيل إلي أني أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلي الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ،، ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو ،،،، قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنظمة إلي الهدف الكبير ،، ،، وطال انتظارها ،، ،، لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ،،، ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ،، كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة ، وفلولاً متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلي الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ،، وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، بل إنها من هذه الساعة بدأت ، ، كنا في حاجة إلي النظام فلم نجد وراءنا إلا الفوضي ،،، وكنا في حاجة إلي الاتحاد فلم نجد وراءنا إلا الخلاف ،،، وكنا في حاجة إلي العمل فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل ،،، ومن هنا وليس من أي شئ أخذت الثورة شعارها ،، ولم نكن علي استعداد ،، وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها ،، ومن سوء حظنا لم نعثر علي الشئ الكثير ،، كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلي قتل رجل آخر ، وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلي هدم فكرة أخري ولو أننا أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نفعله ، إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس ، وانهالت علينا الشكاوي والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو أن هذه الشكاوي والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الانصاف أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ، كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الحاقدين والمبغضين ، ولو أن أحداً سألني في تلك الأيام ، ما أعز أمانيك ؟ لقلت له علي الفور : أن أسمع مصرياً يقول كلمة انصاف في حق مصري آخر ،، وأن أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ،، وأن أري مصرياً لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري آخر ، وأن لا أري هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة ، كانت كلمة أنا علي كل لسان ،، كانت هي الحل لكل مشكلة ،، وكانت الدواء لكل داء ،، وكثيراً ما كنت أقابل كبراء –أو هكذا تسميهم الصحف – من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلاً لها ولم أكن أسمع إلا "أنا" ، مشاكل الاقتصاد هو وحده يفهمها أما الباقون جميعاً فهم في العلم بها أطفال يحبون ،، ومشاكل السياسة هو وحده الخبير بها أما الباقون جميعاً فما زالوا في ألف باء لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً ،،، – – – – – – كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها إطار واحد يبعد عنهم إلي حد ما

صراع الأفراد والطبقات ،، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب وأن يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً سريعاً حاسماً ،،

- ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا علي الجيش)٨٦٦
- لا تنطبق هذه الشروط إلا علي الجيش ، سبحان الله ، هل اعتقد أن اختلاف الآراء والتنوع مشكلة في المجتمع وأن أهل الثقة أهم من أهل الخبرة ، أم كان يريد أن تتحد جميع القوي السياسية مع اختلاف مشاربها وتوجهاتها في حزب واحد ورؤية واحدة لحل جميع المشاكل وتخطي العقبات
- إن هذا ما حدث بالفعل فقد تم إلغاء جميع الأحزاب وتم القضاء علي جميع القوي السياسية وتم تأسيس ما يسمي بالاتحاد القومي –الاتحاد الاشتراكي– ليكون المنبر الوحيد لممارسة السياسة في مصر
- فهل ذكر ما هو الهدف الكبير الذي تكلم عنه ؟
- لقد كانت هناك بالطبع أهداف ستة معلنة للثورة درسناها جميعاً في كتب التاريخ في المدارس وهي : (١– القضاء على الإقطاع. ٢– القضاء على الاستعمار. ٣– القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم. ٤– إقامة جيش وطني قوي. ٥– إقامة عدالة اجتماعية. ٦– إقامة حياة ديمقراطية سليمة.
- إنها أهداف كبيرة فعلاً بلا شك ، ولكن ألم يكن القضاء علي الاستعمار سيتحقق علي أي حال بعد سيطرة قوي عظمي جديدة علي العالم وكان انسحاب بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط أمر حتمي وبالتالي مغادرة الاحتلال البريطاني لم تجد نتيجة من نتائج مفاوضات الثورة مع الإنجليز فقط بل كانت هناك عوامل أخري أدت إلي ذلك ، أما عن القضاء علي الإقطاع وسيطرة رأس المال علي الحكم فأعتقد أنه لم يحدث جديد في هذا الشأن فرجال الأعمال الجدد أصبحوا يشكلون بديلاً للبشوات وسيطروا بالفعل علي الحكم ، أما عن الحياة الديمقراطية فحدث ولا حرج ، وأما عن الجيش القوي فقد تولي أمره عبد الحكيم عامر المنعدم الخبرة تقريباً وأثبت فشلاً ذريعاً في حرب ١٩٦٧ وانتحر كما يقولون ، وكل ما يمكن أن نتناوله من إنجازات الثورة إذا جاز التعبير هو قانون الإصلاح الزراعي وهو عليه تحفظات كثيرة كما أعلم
- لقد اعتبر الضباط الأحرار في ذلك الوقت أن قانون الإصلاح الزراعي أهم إنجاز لحركتهم ، واعتبروا كل من يعارضه هو عدو للثورة
- علي أي حال هذا عن ما كتبه جمال عبد الناصر فماذا كتب السادات مع الاحتفاظ بالألقاب عن تطور علاقة الضباط الأحرار بالسُلطة ؟

---

٨٦٦ نقلاً عن كتاب –فلسفة الثورة– تأليف الرئيس جمال عبد الناصر ، –بيت العرب للتوثيق العصري –طبعة ١٩٩٦– مقتطفات من صفحة ٢٦ وما بعدها

فقرة من كتاب (البحث عن الذات) للرئيس الراحل محمد أنور السادات

- لقد كتب السادات في كتابه الشهير "البحث عن الذات" ما يلي : (في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد اتضحت أمامنا ،، فقانون الإصلاح الزراعي مرفوض من رئيس وزراء الثورة علي ماهر[٨٦٧] ومن الأحزاب جميعاً ، وتطهير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط ، يجب إذن أن نتولي السلطة ، وهذا فعلاً ما كان ، فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلي علي ماهر في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكراً ، لقد أديت مهمتك علي أحسن وجه ، فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة علي أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين ، هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة ، كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة ، أما هو فيكبرنا بكثير ، ولكن للأسف فإن الذي حدث هو العكس ، فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب ، وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضدي يقودها محمد نجيب وصلاح سالم[٨٦٨] كما أخبرني عبد الناصر في ذلك الوقت ، لم يكن هذا بالأمر الذي يهمني أو يشغل بالي ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أي ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نفاجأ باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً

---

٨٦٧ كان علي ماهر باشا هو من وقع عليه اختيار الضباط الأحرار ليتولي رئاسة الوزراء مؤقتاً فور نجاح حركتهم وبداية سيطرتهم علي السلطة وقد ورد عنه في موسوعة ويكيبيديا ما يلي : علي ماهر باشا (1960 - 1881) من أعيان الشراكسة في مصر، والده محمد ماهر باشا وكيل وزارة البحرية ومحافظ القاهرة. سياسي مصري بارز شارك في ثورة ١٩١٩ .تسلم وزارة المعارف عام ١٩٢٥ وشغل منصب رئيس وزراء مصر أربعة مرات كان أولها في 30 يناير 1936 وآخرها عند قيام ثورة ، يوليو 1952 حيث عُهد إليه برئاسة أول وزارة مصرية في عهد الثورة المصرية. اعتقله مصطفى النحاس باشا في أثناء الحرب العالمية الثانية بتهمة موالاته للمحور حاول الهروب لكن البوليس المصري قبض عليه، وهو الأخ الشقيق لرئيس الوزراء الدكتور أحمد ماهر باشا. شغل منصب رئيس الديوان الملكى المصري في عهد الملك فؤاد وحصل على نيشان فؤاد الأول أيضا. عرف بحنكته السياسية ودهائه في معالجة المهمات الصعبة فسمّي برجل الأزمات، ورجل الساعة تقديرا لحنكته ومهاراته السياسية. توفي في 25 أغسطس1960 م في مدينة جنيف ودفن بالقاهرة.

٨٦٨ صلاح مصطفى سالم ١٩٢٠ –١٩٦٢ ضابط مصري، ولد في سبتمبر 1920 في مدينة سنكات شرق السودان، حيث كان والده موظفا هناك. أمضى طفولته هناك، وتعلم في كتاتيب السودان. وهو الأخ الأصغر لجمال سالم عندما عاد إلى القاهرة مع والده تلقى تعليمه الابتدائي، ثم حصل على البكالوريا، وتخرج في الكلية الحربية سنة .1940 تخرج في كلية أركان الحرب سنة1948 ، وشارك مع قوات الفدائيين التي كان يقودها الشهيد أحمد عبد العزيز ، تعرف على جمال عبد الناصر أثناء حصاره في الفالوجة، وانضم إلى الضباط الأحرار، وكان عضوا في اللجنة التنفيذية لهذا التنظيم، وعندما قام الضباط الأحرار بحركتهم في يوليو 1952 كان صلاح في العريش، وسيطر على القوات الموجودة هناك. ومما عرف عن صلاح سالم شدته وحزمه في اي قضيه تخص الثورة. ، تولى وزارة الإرشاد القومي (الإعلام) في الفترة من ١٨ يونيو ١٩٥٣ وحتى ٧ أكتوبر ١٩٥٨. ، كان عضوا في المجلس الأعلى لهيئة التحرير. من الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو حيث كان عضواً بمجلس قيادة الثورة. اشتغل بالصحافة حيث تولى الاشراف على صحيفتي الشعب والجمهورية. أول مسئول مصري سافر إلى جنوب السودان عام ١٩٥٤ لتحقيق المصالحة الوطنية بين الشماليين والجنوبيين قبل انسحاب بريطانيا من مصر عام ١٩٥٤ ومن السودان عام ١٩٥٦. اشتغل بالصحافة وتولى رئاسة مجلس إدارة دار التحرير للطباعة والنشر. رأس تحرير جريدة الجمهورية . كان صلاح سالم أول من توفى من أعضاء مجلس قيادة الثورة، حيث توفي في سن صغيرة عن عمر ٤١ عاما في 18 فبراير 1962 بمرض السرطان. وقد شيع جثمانه في جنازة مهيبة تقدمها جمال عبد الناصر وجميع زملائه والوزراء، حيث بدأت الجنازة من جامع شركس بجوار وزارة الأوقاف الي ميدان إبراهيم باشا. وهنا تجدر الإشارة إلى أن عبد اللطيف البغدادي وحينما كان يقوم بالانتهاء من أحد أعماله الانشائية العظيمة واشهرها طريق الكورنيش والطريق الجديد الذي استقطع جزءا من المقطم وامتد في أرض صحراوية أصبحت بعد ذلك مدينة نصر ؛ قد تصادف مع موعد وفاة صلاح سالم، فاطلق اسمه على هذا الطريق الطويل شارع صلاح سالم الذي أصبح من أشهر شوارع مصر .نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا

،، وهو أن الأحزاب التي كانت تتصارع علي الحكم بالتقرب إلي الملك تارة وإلي الإنجليز تارة أخري أو إلي الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة في الأيام الثلاثة الأولي لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيدة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة الذي يتكون من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعني آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلماذا لا تحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز ؟ ، وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع الجديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن ، وكان لابد من اتخاذ إجراء فوري لتأكيد هذا المعني ،، وضعنا السياسيين في المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا محاكمة عسكرية ، وفي ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بالغاء الأحزاب ووضع السلطة التنفيذية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهي في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ ، هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح ، ، فصدر قرار من مجلس الثورة بحل الجماعة ، ولكنهم ظلوا علي نشاطهم إلي مارس ٥٤ ، ثم إلي أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية ، المهم أن الأحزاب كلها ألغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكنا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات ،، وقد كان ،، ففي ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ أعلنا الدستور المؤقت ، ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً ----وفي يوم واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رُقي عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ إلي رتبة لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفي نفس اليوم أعلنا الجمهورية فتخلصنا من مجلس الوصاية وصادرنا أموال العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية بعد أن أُرغم علي ترك القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة ، ، ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارات ، هذا كله مجتمعاً كان الحدث الأول المهم في عام ١٩٥٣ وفيه نري أنه في أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما اتضحت حقيقة لم أكن أنا علي الأقل أدركها من قبل ، وهي أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برؤوسهم ،، هذا أمر بشري علي ما أعتقد ، ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأني فالإنسان عندما يكون في دخيلة نفسه أكبر من أي شئ يصبح في غني عن كل شئ-)[٨٦٩]

- إن أكثر ما لفت نظري في هذا الكلام أن مجلس قيادة الثورة كانت به صراعات وهو ما يتناقض مع ما كتبه عبد الناصر في كتابه عندما قال بالحرف (كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها

---

[٨٦٩] نقلاً عن كتاب –البحث عن الذات–قصة حياتي–تأليف الرئيس محمد أنور السادات –المكتب المصري الحديث –مقتطفات من صفحة ١٣٦ وما بعدها

إطار واحد يبعد عنهم إلي حد ما صراع الأفراد والطبقات ،، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب وأن يكون في استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون في يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً سريعاً حاسماً ،، ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا علي الجيش)

- لا أعتقد أن أي مجلس أياً كان يخلو من الخلافات علي أي حال ولعله يقصد الثقة المتبادلة
- وما لفت نظري أيضاً بل وأعجبني في كلام السادات قوله (أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برؤوسهم ،، هذا أمر بشري علي ما أعتقد)
- بالفعل إنها كلمات معبرة جداً عن الحقيقة
- ولكنني اشتقت لأسمع ما قاله محمد نجيب في كتابه الشهير (كنت رئيساً لمصر)

مقتطفات من كتاب كنت رئيساً لمصر – مذكرات اللواء محمد نجيب

- في الحقيقة إن ما كتبه كان قاسياً جداً علي مجلس قيادة الثورة وقد يكون ذلك بسبب ما لاقاه منهم من تعنت واعتقال ، فقد هاجمهم رحمه الله في كتابه الذي كتبه في آخر أيامه هجوماً شديداً واتهمهم بالعداء للديمقراطية
- علي أي حال لا مانع من قراءة بعض الفقرات من كتابه إن أمكن ، فكل فقرة من أي كتاب يمكن تجميعها مع زميلاتها كجزء صغير من صورة كبيرة وكلما كثرت الأجزاء الصغيرة ووضعت في مكانها الصحيح تتضح الصورة الكبيرة كاللعبة المعروف
- لا مانع ، ولكن المهم أن تضع كل صورة في مكانها الصحيح
- كلي آذان صاغية كالعادة
- إليك بعض مما كتبه اللواء نجيب : (كان للثورة أعداء ، وكنا نحن أشدهم خطورة ، كان كل ضابط من ضباط الثورة يريد أن يملك .. يملك مثل الملك .. ويحكم مثل رئيس الحكومة ، لذلك فهم كانوا يسمون الوزراء بالسعاة ، أو بالطراطير ، أو بالمحضرين ، وكان زملائهم الضباط يقولون عنهم : طردنا ملكاً وجئنا بثلاثة عشر ملكاً آخر[٨٧٠] ، هذا حدث بعد أيام قليلة من الثورة ، هذا حدث منذ أكثر من ٣٠ سنة ، وأنا اليوم أشعر أن الثورة ، تحولت بتصرفاتهم إلي عورة ، وأشعر أن ما كنت أنظر إليهم علي أنهم أولادي ، أصبحوا بعد ذلك مثل زبانية جهنم ، ومن كنت أتصورهم ثواراً ، أصبحوا أشراراً ، فيا رب لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، – – – لقد خرج الجيش من الثكنات ، وانتشر في كل المصالح والوزارات المدنية ، فوقعت الكارثة التي لانزال نعاني منها إلي الآن في مصر ، كان كل ضابط من ضباط القيادة يريد أن يكون قوياً فأصبح لكل منهم "شلة" وكانت هذه الشلة غالباً من المنافقين الذين

---

[٨٧٠] أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة كالآتي مع حفظ الألقاب : ١محمد نجيب–٢جمال عبد الناصر–٣محمد أنور السادات–٤عبد الحكيم عامر –٥ جمال سالم=٦صلاح سالم=٧زكريا محيي الدين= ٨ حسين الشافعي–٩عبد اللطيف البغدادي–١٠كمال الدين حسين –١١خالد محيي الدين–١٢حسن إبراهيم–١٣يوسف صديق . عبد المنعم أمين

لم يلعبوا دوراً لا في التحضير للثورة ، ولا في القيام بها ، والمنافق دائماً مثل العسل علي قلب صاحب النفوذ ، لذلك فهو يحبه ويقربه ، ويتخلص بسببه من المخلصين الحقيقيين ، الذين راحوا وراء الشمس ، لأن إخلاصهم كان هماً وحجراً ثقيلاً علي قلوب الضباط من أصحاب الجلالة ، تعددت الشلل والتنظيمات داخل الجيش ، وحول ضباط القيادة ، وبدأ الصراع بين هذه الشلل ، بعد أيام من نجاح الثورة ، وتحول من يومها إلي قتال يومي شرس ، وظهرت مراكز القوي ، بعد شهور قليلة ، من قيام الثورة ، داخل مجلس القيادة وخارجه ، ومما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر كان أكبر مركز قوة داخل المجلس ، وعندما ساعده الآخرون في التخلص مني ، استدار إليهم ، وتخلص منهم واحداً بعد الآخر . وقوة عبد الناصر في شخصيته ، وشخصيته من النوع الذي يتكيف ويتغير حسب الظروف ، فهو مرة مع الشيوعيين ومرة مع الإخوان ، وعشرات المرات ضد الجميع ومع نفسه ، لقد خلصتهم من فاروق ، وخلصهم سليمان حافظ[٨٧١] من كبار السياسيين والأحزاب ، وخلصهم يوسف صديق[٨٧٢] من

---

٨٧١ سليمان حافظ ١٨٩٦ – ١٩٦٨ نائب رئيس مجلس الدولة المصرى عند قيام ثورة ٢٣ يوليو. وهو الرجل الذى اقترح على الضباط طرد الملك وأفتى لهم بالوصاية المؤقتة هربا من دعوة مجلس الأمة الوفدى المنحل حيث كان مناوئا صريحا للوفد مما أدى في النهاية الى تثبيت أركان الحكم العسكرى في البلاد. ولم يقل جزاؤه عن جزاء رئيسه المباشر عبد الرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة، فقد اعتقل لفترة ثم أفرج عنه وللحق لم يضرب بالحذاء مثل الآخر. ولد سليمان حافظ في الإسكندرية عام ١٨٩٦ في عائلة نوبية .وحصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية قسم أدبي عام ١٩١٣، من الإسكندرية. وحصل على ليسانس الحقوق من مدرسة الحقوق بالجامعة المصرية. كان متطرفاً في وطنيته، شديد الشجاعة مقداماً، رمزاً للجرأة والتضحية والوفاء. وفي العشرينات كان عضواً بارزاً في جماعة وطنية تناضل ضد الإنجليز، وقد افلت من حبل المشنقة بأعجوبة خلال نضاله ضد الإنجليز ضمن مجموعة تابعة لتلك الجمعية الوطنية السرية. وعمل بالمحاماة فترة من الوقت، ثم عين في سلك القضاء، وكان مستشاراً بالنقض حين نقل ليعمل وكيلاً لوزارة العدل. وكان بطبيعته لا يستطيع العيش إلا في مجال المحاماة الحر أو في صومعة القضاء. فانتقل في أوائل عام ١٩٤٩ إلى مجلس الدولة نائباً لرئيس المجلس لقسمي الرأي والتشريع. وكان يرأس المجلس آنذاك زميل صباه الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا. نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا

٨٧٢ بدأت قصة يوسف صديق مع الثورة قبل ليلة 23 يوليو في أحد ايام أكتوبر سنة ١٩٥١ حينما زاره الضابط وحيد رمضان الذي عرض عليه الانضمام للضباط الاحرار واطلعه على برامجهم والتي كانت تدعو للتخلص من الفساد وارساء حياة ديمقراطية سليمة فوافق واسندت اليه من قبل تنظيم الثورة قيادة الكتيبة الأولى مدافع ماكينة، وقبل الموعد المحدد بقليل تحرك البكباشي يوسف صديق مع مقدمة كتيبته مدافع الماكينة من العريش إلي مقر الكتيبة الجديد في معسكر هايكستب قرب مدينة العبور ومعه معاونه عبد المجيد شديد. ويروي أحمد حمروش في كتابه "قصة ثورة يوليو، فيقول: اجتمعت اللجنة القيادية للثورة وقررت أن تكون ليلة ٢٢-٢٣ يوليو 1952 هي ليلة التحرك وأعطيت الخطة اسماً كودياً(نصر) وتحددت ساعة الصفر في الثانية عشرة مساء إلا أن جمال عبد الناصر عاد وعدل هذ الموعد إلى الواحدة صباحاً وابلغ جميع ضباط الحركة عدا يوسف صديق لكون معسكره في الهاكستيب بعيد جدا عن مدي تحركه ذلك اليوم فآثر انتظاره بالطريق العام ليقوم برده إلى الثكنات وكان لهذا الخطأ البسيط على العكس أعظم الأثر في نجاح الثورة. فقد كان تم ابلاغ يوسف صديق (بواسطة رسول قيادة الحركة الضابط زغلول عبد الرحمن كما ورد علي لسان يوسف صديق نفسه في مذكراته التي نشرها الدكتور عبد العظيم رمضان باسم أوراق يوسف صديق عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٩م – ص١٠٠) ووفقا لذلك فقد تم ابلاغ يوسف صديق أن ساعة الصفر هي ٢٤٠٠ أي منتصف الليل وليست الواحدة صباحا وهو الموعد الذي تم التعديل له (دون إمكانية تبليغ يوسف بالتعديل)، وكان يوسف قائداً ثانياً للكتيبة مدافع الماكينة ولم يخف الموقف على ضباطه وجنوده، وخطب فيهم قبل التحرك وقال لهم إنهم مقدمون هذه الليلة على عمل من أجل الأعمال في التاريخ المصري وسيظلون يفتخرون بما سيقومون به تلك الليلة هم وأبناؤهم واحفادهم واحفاد احفادهم. تحركت القوة من معسكر الهايكستب دون أن تدري ما يدبر في مركز القيادة، وكان يوسف صديق راكباً عربة جيب في مقدمة طابور عربات الكتيبة المليء بالجنود وما أن خرجت القوة من المعسكر حتى فوجئت باللواء عبد الرحمن مكي قائد الفرقة يقترب من المعسكر فإعتقلته القوة بأوامر من يوسف صديق وتم اقتياده بصحبة طابور القوة بسيارته التي يرفرف عليها علم القيادة محصورا بين عربة الجيب التي يركب بها يوسف في المقدمة والطابور وعند اقتراب القوة من مصر الجديدة صادفت أيضاً الأميرالاي عبد الرؤوف عابدين قائد ثاني الفرقة الذي كان يسرع بدوره للسيطرة علي معسكر هايكستب فأمر يوسف صديق أيضا باعتقاله وأركبه إلى جانب اللواء المعتقل من قبل بنفس سيارة اللواء وساروا مع القوة والمدافع موجهة عليهما من العربات الأخرى. ولم تقف الاعتقالات عند هذا الحد، فقد فوجيء يوسف ببعض جنوده يلتفون حول رجلين تبين أنهما جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وكانا حسبما روي يوسف في ملابس

نفسه ، وخلصهم ضباط المدفعية من عبد المنعم أمين[٨٧٣] وخلصهم ضباط الفرسان من خالد محيي الدين وتخلصوا مني ثم تخلص عبد الناصر من أغلبهم ، وبقي هو وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعي ، أما هو وعامر فقد تخلص منهما اليهود في حرب يونيو ١٩٦٧ ، وتخلص حسين الشافعي من متاعبهم وبقي في بيته ، ولم يبق من ضباط الثورة سوي أنور السادات الذي كان يعرف بدهاء الفلاح المصري ، كيف يتجنب الأهواء والعواصف ، وكان يقول عن كل شئ "صح" وكانت هذه الكلمة لا تعني أنه موافق أو غير موافق ، دائماً كانت تعني أنه يفكر وينتظر الفرصة ، هذا هو أسرع ملخص لسيناريو الثورة ، لكن لقطات هذا السيناريو التفصيلية أهم وأمتع بكثير من هذا التلخيص

مدنية، ولما استفسر يوسف عن سر وجودهما حدث جدل بين جمال عبد الناصر ويوسف صديق حيث رأى جمال خطورة تحرك يوسف قبل الموعد المحدد ضمن الخطة الموضوعة سابقا للثورة على أمن ضباط الحركة الأحرار وعلى إمكانية نجاح الثورة ورأى رجوعه إلى الثكنات لكن يوسف صرح له انه لم يعد يستطيع العودة مرة ثانية دون اتمام العمل (الثورة) وان الثورة قد بدأت بالفعل حينما قامت قوة يوسف بالقبض على قائده اللواء عبد الرحمن مكي ثم الأميرالاي عبد الرؤوف عابدين (قائده الثاني) وقرر انه مستمر في طريقه إلى مبني قيادة الجيش لاحتلاله ولم يكن أحد يعلم على وجه اليقين مايتم في رئاسة الجيش (حيث كان خبر الثورة قد تسرب إلى الملك الذي ابلغ الأمر للقيادة لإتخاذ إجراء مضاد على وجه السرعة وكانت قيادة الجيش -التابع للملك- مجتمعة في ساعته وتاريخه تمهيدا لسحق الثورة أو الانقلاب بقيادة الفريق حسين فريد قائد الجيش قبل الثورة) (وقد حسم يوسف صديق الجدل بينه وبين جمال حينما أصر على مواصلة طريقه لاحتلال القيادة وأغلب الظن اتفاق الرجلين على ذلك لأن جمال عبد الناصر الذي استمر يراقب التحركات عن كثب وجه بعد ذلك بقليل بارسال تعزيزات من أول الأجنحة التابعة للثورة التي تحركت في الموعد الأصلي اللاحق لمساندة يوسف بعد أن قام يوسف صديق مع جنوده باقتحام مبنى القيادة العامة للجيش والسيطرة عليه بالفعل.(بعد هذا اللقاء وفي الطريق أعد يوسف خطة بسيطة تقضي بمهاجمة مبنى قيادة الجيش وبالفعل وصل يوسف إلى المبنى وقام يوسف صديق وجنوده باقتحام مبنى القيادة بعد معركة قصيرة مع الحرس سقط خلالها اثنان من جنود الثورة واثنان من قوات الحرس ثم استسلم بقية الحرس فدخل يوسف مع جنوده مبنى القيادة وفتشوا الدور الأرضي وكان خالياً، وعندما أراد الصعود إلى الطابق الأعلى اعترض طريقهم شاويش حذره يوسف لكنه أصر على موقفه فأطلق عليه طلقة أصابته في قدمه، وعندما حاول فتح غرفة القادة وجد خلف بابها مقاومة فأطلق جنوده الرصاص علي الباب ثم اقتحموا الغرفة، وهناك كان يقف الفريق حسين فريد قائد الجيش، والأميرالاي حمدي هيبة وضباطاً آخرين أحدهم برتبة عقيد وآخر غير معروف رافعين منديلاً أبيضاً، فتم القبض عليهم حيث سلمهم لليوزباشي عبد المجيد شديد ليذهب بهم إلى معسكر الاعتقال المعد حسب الخطة في مبنى الكلية الحربية. وبذلك يعتبر يوسف صديق هو بطل الثورة الحقيقي الذي أنقذ ثورة يوليو من الانتكاسة في اللحظة الأخيرة وهو الذي نفذ خطة الاستيلاء على قيادة الجيش ومن ثم السلطة بأسرها في مصر في ذلك التاريخ (الساعة الثانية عشرة مساء ٢٣/٢٢ يوليو ١٩٥٢.(وفي فجر 25 يوليو تحرك عدد من قادة الثورة ومنهم يوسف صديق وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين ليواجهوا الملك فاروق الذي كان متمركزاً مع أعوانه. ثم عاد الشافعي ويوسف إلى الإسكندرية في طائرة هليكوبتر مع أنور السادات وجمال سالم ومحمد نجيب وزكريا محي الدين . وفي أغسطس 1952 دخل يوسف الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار مع محمد نجيب وزكريا محي الدين. ،، عقب نجاح حركة الضباط الأحرار دعا يوسف صديق لعودة الحياة النيابية، وخاض مناقشات عنيفة من أجل الديموقراطية داخل مجلس قيادة الثورة .ويقول يوسف عن تلك الخلافات في مذكراته: "كان طبيعياً أن أكون عضواً في مجلس قيادة الثورة، وبقيت كذلك حتي أعلنت الثورة أنها ستجري الانتخابات في فبراير 1953 ، غير أن مجلس الثورة بدأ بعد ذلك يتجاهل هذه الأهداف، فحاولت أكثر من مرة أن أترك المجلس وأعود للجيش فلم يُسمح لي بذلك، حتي ثار فريق من الضباط الأحرار علي مجلس قيادة الثورة يتزعمه اليوزباشي محسن عبد الخالق وقام المجلس باعتقال هؤلاء الثائرين ومحاكمتهم، فإتصلت بالبكباشي جمال عبد الناصر وأخبرته أنني لايمكن أن أبقي عضواً في مجلس الثورة وطلبت منه أن يعتبرني مستقيلاً، فاستدعاني للقاهرة، ونصحني بالسفر للعلاج في سويسرا في مارس."1953 وعندما وقعت أزمة فبراير ومارس عام1954 ، طالب يوسف صديق في مقالاته ورسائله لمحمد نجيب بضرورة دعوة البرلمان المنحل ليمارس حقوقه الشرعية، وتأليف وزارة ائتلافية من قبل التيارات السياسية المختلفة من الوفد والإخوان المسلمون والاشتراكيين والشيوعيين، وعلى أثر ذلك اعتقل هو وأسرته، وأودع في السجن الحربي في أبريل1954 ، ثم أفرج عنه في مايو 1955 وحددت إقامته بقريته بقية عمره إلى أن توفي في ٣١ مارس.1975 نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا

٨٧٣ أحمد أحمد أمين وشهرته عبد المنعم أمين، قائد سلاح الفرسان و رئيس حرس الحدود ومحافظ سابق لمحافظة أسوان، انضم إلى حركة الضباط الأحرار قبل ثورة ٢٣ يوليو مباشرةً ورشح لرئاسة الجمهورية.[١] يوجد له تمثال في المتحف الحربي. ولد في قرية محلة دياي بمركز دسوق، تعلم في كتاب القرية وحفظ القرآن بها. واصل تعليمه حتى التحق بالكلية الحربية عام ١٩٣٢م وتخرج برتبة ملازم أول ثم تدرج في الترقيات العسكرية المختلفة وعاش بالقاهرة. توفي في عام1978 م و دفن بقرية محلة دياي كما وصى بذلك.

المبتور ، ولأنني لا أريد التشهير بأحد ، ولأنني لا أحمل في صدري أي حقد أو كراهية أو بغض أو ضغينة لأحد منهم ، ولأنني أقول هذا الكلام وأنا علي بعد سنتيمترات قليلة من لقاء ربي ، فإنني سأتعرض لبعض الوقائع والانحرافات التي نتجت عن استيلاء الضباط علي السلطة ، دون أسماء ولا تواريخ محددة ، وقد لا يحب التاريخ عدم فضح الأشخاص ، لكن الإنسانية بالتأكيد معي في ذلك ، إن أول شئ فعله ضباط القيادة بعد أن استقرت الأمور هو أنهم غيروا سياراتهم الجيب وركبوا سيارات الصالون الفاخرة ، للتمييز بينهم وبين باقي الضباط الأحرار ، أوحي جمال عبد الناصر لمصطفي أمين بكتابة مقالة بعنوان "سر الضباط التسعة" نشرت هذه المقالة في جريدة الأخبار ، في سبتمبر ١٩٥٢ ، في الصفحة الأولي بجانب صورة كبيرة لجمال عبد الناصر ومع بقية المقال في الصفحة الثالثة نشرت صور باقي ضباط القيادة من أعضاء المجلس ، وفي هذه المقالة طلب جمال عبد الناصر من مصطفي أمين أن يوحي للقارئ بأنه بطل الثورة ورئيسها الذي يختفي في الظل ، وأنا لم أهتم بهذا الكلام ، لكن الذي اهتم به باقي الضباط الأحرار الذين غضبوا من نشره ، خاصة وان هناك اتفاق قديم فيما بينهم بعدم نشر صورهم في الجرائد ، ورفض الدعاية ، وإنكار الذات ، وأثارت مقالة مصطفي أمين الفتنة بين صفوف الضباط الأحرار ، وحرضت بعض منهم علي التمرد والإنقلاب ، كما حدث مع ضباط المدفعية ، وكان ضباط المدفعية قد بدأوا في رصد انحرافات ضباط القيادة ، وكانت فضائحهم في الحقيقة كثيرة ، فقد ترك أحدهم شقته المتواضعة واستولي علي قصر من قصور الأمراء في جاردن سيتي ، حتي يكون قريباً من إحدي الأميرات التي كان قصرها قريباً من ذلك القصر الذي استولي عليه --)[٨٧٤]

- عفواً للمقاطعة ولكني لا أريد أن نسترسل في سرد مثل هذه الأمور وأود أن ننتقل لما كتبه عن الخلافات التي حدثت بين المؤيدين والمعارضين من ضباط القيادة لتطبيق الديمقراطية بعد نجاح حركتهم في السيطرة علي السلطة
- إنك محق بلا شك في طلبك حتي لا نسهب في مثل هذه الأحاديث ، وعلي أي حال لقد وصلت رسالة اللواء نجيب بطريقة أو بأخري ، ولننتقل إلي صفحة ٢٤٥ وما بعدها من كتابه المثير لنقرأ ما حدث للديمقراطية علي أيدي قادة الثورة حيث كتب ما ملخصه : (--طبيعة الأحزاب كانت قد تغيرت ، والانتخابات الديمقراطية التي نطلبها لم تكن خطوة للخلف ، وإنما كانت خطوة إلي الأمام لأنها تحمل تعبيراً عن إرادة الجماهير في الرقابة الشعبية والمشاركة الفعلية في شئون الحكم ، هذا ما كنت أؤمن به ، وهذا ما كنت سأطالب به الحكومة والمجلس في أول اجتماع مشترك وكان موعد هذا الاجتماع في ٢٠ مارس لكن قبل يوم واحد من هذا الموعد وقعت مفاجأة مذهلة غيرت خطتي ، وقعت ستة انفجارات

---

[٨٧٤] نقلاً عن كتاب (مذكرات محمد نجيب-كنت رئيساً لمصر)- الطبعة الثانية ١٩٨٤- الناشر : المكتب المصري الحديث- مقتطفات من صفحة ٢٠١ وما بعدها

في ذلك اليوم ، لكن في أماكن متفرقة ، منها السكة الحديد ، والجامعة ، وجروبي ، ولم يقبض علي الفاعل ، وقد عرفت بعد سنوات أن هذه الانفجارات كانت بتدبير من جمال عبد الناصر ، كما اعترف البغدادي في مذكراته ، وذلك لإثبات أن الأمن غير مستقر ، ولابد من العودة بالبلاد إلي الحالة غير العادية ، وأنا في الحقيقة شممت هذه الرائحة القذرة في اجتماع اليوم التالي ، فقد تعالت الصيحات التي تطالب بالضرب علي أيدي المخربين ، وقلت لهم في صراحة أقرب للاتهام : لا يوجد صاحب مصلحة في التخريب إلا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب إلي الديمقراطية ، وعندما أحس البعض بالبطحة التي فوق رؤوسهم ، طالبوا بتخلي أعضاء المجلس عن السلطة وانسحابهم من الميدان ، وتكهرب الجو ، كنت أريد أن تمر هذه الأيام في سلام حتي موعد الانتخابات الذي فتحنا له القيد في جداول الناخبين في ١٥مارس ، وكانوا هم يضعون الأمور علي طرف نقيض ، وعلي كف عفريت ، وأدركت أنهم يسعون لتفجير الموقف ، وإلي هدم المعبد ، وفي مساء نفس اليوم كنت أنا وعبد الناصر في قصر عابدين ، في انتظار حضور الملك سعود لدخول مأدبة العشاء الرسمية المقامة علي شرفه ، عندما لمح جمال عبد الناصر ، سليمان حافظ قادماً ، فناداه ، وسأله : هل من الضروري دستورياً أن تعود الأحزاب المنحلة قبل انتخابات الجمعية التأسيسية ؟ ، فقال سليمان حافظ : لا بل والأولي لخير البلاد ومصلحتها ألا تكون كذلك ، . وكدت أن أضحك من هذه المسرحية الساذجة ، فأي دستور يتحدثان عنه ؟ الدستور الذي سقط ؟ أم الدستور الذي يُعد ؟ ثم إنني أنظر من وجهة النظر السياسية ، أليس من الأفضل أن تكون الأحزاب موجودة قبل الانتخابات ؟ من يختلف علي ذلك ، إلا من يريد الديكتاتورية ويخشي علي نفسه من الديمقراطية ؟ ولأنني أعرف أن الحوار بين عبد الناصر وسليمان حافظ كان مسرحية أمامي ، ولأنني أردت أن أحرق عليهما ما يرميان إليه ، حولت الحوار إلي اتجاه آخر مفاجئ ، قلت لسليمان حافظ : لابد الآن من إجراء استفتاء شعبي علي رئاستي للجمهورية ، كنت أريد أن أحصل علي تفويض من الشعب بكل الإجراءات الديمقراطية والشرعية التي كنت أسعي إلي المضي فيها ، فقال سليمان حافظ : لا مبرر لذلك ، ويمكننا الاستفتاء مع انتخابات الجمعية التأسيسية في نفس الوقت ، وجاء الملك سعود ليفض هذا الحوار العابر)[٨٧٥]

- علي أي حال أنا أعرف أن هناك من مجلس الثورة من كان مع الديمقراطية وهناك من كان ضدها ولكنني أريد أن أعرف تحديداً ما الذي حسم الموقف ضد التحول الديمقراطي بالرغم من أن الاتفاق كان علي إجراء انتخابات ؟

---

[٨٧٥] نقلاً عن كتاب (مذكرات محمد نجيب-كنت رئيساً لمصر)- الطبعة الثانية ١٩٨٤- الناشر : المكتب المصري الحديث- مقتطفات من صفحة ٢٤٥ وما بعدها

- الذي حدث أن هناك مظاهرات قد قامت لتأييد الثورة وكانت تهتف ضد الحزبية والديمقراطية ، كما حدث عدة إضرابات عمالية كبيرة لنفس السبب ، وقد أكد اللواء نجيب أن كل هذا كان من تدبير أعداء الديمقراطية بمجلس قيادة الثورة وعلي رأسهم عبد الناصر بالطبع
- ولكن هل أيد أحد كلام اللواء نجيب في مذكراته لنحسم هذا الأمر ؟
- يمكننا أن ننتقل لمذكرات خالد محيي الدين لنحاول مقارنة ما جاء بها مع كلام عبد الناصر والسادات ومحمد نجيب مع حفظ الألقاب ، بالرغم من أن هذا الموضوع قد استغرق منا الكثير من الوقت في هذا الحوار
- وما المانع من الإطالة فهو موضوع خطير ، ومرحلة حرجة في تاريخ مصر
- علي أي حال يمكننا أن نتصفح كتاب "والآن أتكلم" لخالد محيي الدين علي أن نترك الحديث عن المذكرات الخاصة بالثورة ونتحول للحديث عن فترة حكم جمال عبد الناصر ، كي نستمر في سرد تاريخ مصر ، الذي تعلمنا من دراسته الكثير من الدروس ، التي أهمها هو درس
- أعرف أهم درس وهو أنني لن أعرف ما سيحدث فلا داعي لأن اهتم به وأن اكتفي بفعل ما يجب أن أفعله دون انتظار مشاهدة النتائج
- بالتأكيد فكل هذه الأسماء التي ذكرناها لأشخاص قد رحلوا عن الدنيا دون أن يعرفوا ما حدث بعد موتهم ولم يبق لهم إلا ما سجلوه من مواقف

فقرة من كتاب (والآن أتكلم) لخالد محيي الدين

- فما الذي سجله خالد محيي الدين في مذكراته عن هذا الموضوع ؟
- إليك بعض ما كتبه : (--- فبرغم قرارات ٥ مارس ١٩٥٤[٨٧٦] الباعثة علي البهجة ، كان الارتباك يغلف كل المواقف ، وكل التصرفات ، ومع صدور هذه القرارت اشتعلت حملة في جريدة "المصري" وغيرها من الصحف ضد الثورة والضباط ، وارتفعت المطالبة بعودة الجيش لثكناته ، ومحاكمة المسئولين عن كل ما ارتكب من أخطاء ، ولعل هذه المقالات قد أفزعت العديد من الضباط ، ومارست ضغطاً نفسياً عليهم ، أخافهم من مواصلة السير علي درب الديمقراطية ، ومهد لهم سبيل التراجع عنها ، ولعله مهد السبيل للبعض الذي تقبل قرارات ٥ مارس أو صاغها كمحاولة لكسب الوقت ، أو كخطوة للتمويه ، كي يستجمع نفوذاً بين الزملاء في المجلس وبين ضباط الجيش يمكنه من التراجع عن القرارات ، وفي اجتماع مجلس قيادة الثورة "الأحد ١٤مارس" كان واضحاً أن الكثيرين يستشعرون وطأة هذه القرارات
- (وطأة هذه القرارت)؟ ، يا له من تعبير

---

[٨٧٦] كانت هذه القرارت خاصة بإجراء الانتخابات والتحول إلي المسار الديمقراطي وعودة الجيش إلي الثكنات

- كان أكثر الجميع فزعاً جمال سالم وصلاح سالم ، قال صلاح بصراحة : أنا لا أستطيع أن أمارس سلطاتي الآن ، الناس لن تستمع إلي كلامي أو قراراتي ، أما جمال سالم فقال : كيف سأواصل اصطدامي مع كبار الملاك خلال عملية تطبيق قانون الإصلاح الزراعي ، الأفضل أن انسحب ، وأكد صلاح سالم أيضاً فكرة الانسحاب . كان كل منهما يشعر أن نفوذه وهيبته مستمدة من هيبة السلطة ، فإذا فقد السلطة فلا هيبة ولا نفوذ ، وبدأ بغدادي هو أيضاً يتراجع ، فأخذ يردد أن الديمقراطية سابقة لأوانها ، وكانت الحالة النفسية لكمال الدين حسين سيئة للغاية ، وتقدم عبد الناصر بعدة اقتراحات : طرد أفراد أسرة محمد علي وإسقاط الجنسية المصرية عنهم ، إغلاق نادي الجزيرة الذي تحول إلي نقطة ارتكاز وتجمع للعناصر الارستقراطية المعادية للثورة وأصبح مصدراً للعديد من الشائعات ، محاكمة الطلاب الذين نظموا مظاهرات ضد الثورة ، وكانوا من الإخوان المسلمين والشيوعيين ، وطلب محمد نجيب تأجيل المناقشة في هذه الاقتراحات ، وهنا بدأ جمال عبد الناصر في ترديد مقولة ظل متمسكاً بها طوال الأيام التالية : "إما ديمقراطية مطلقة ، وإما سياسة الحزم واستمرار الثورة إما حريات كاملة وتخلينا عن دورنا ، وإما أن يعود مجلس الثورة ليمارس كل سلطاته بحزم" . وكان واضحاً من هذه العبارة أنها تحاول عمل استقطاب داخل المجلس ، وبطبيعة الحال كان الاستقطاب لصالح استمرار سلطة مجلس قيادة الثورة ، وكنت أحاول القول بأنه لا ضرورة لوضع الاختيارين وجهاً لوجه ، وأنه بالإمكان استمرار الثورة في ظل الديمقراطية ، لكن عبد الناصر تمسك بمقولة "إما...وإما" ، وبدأ صلاح سالم يقول : إذا كنتم عايزين انتخابات وديمقراطية ، وأن نظل نلعب دورنا ونرشح نفسنا في الانتخابات ، فلابد أن نقدم تنازلات كي نكسب أصوات الناخبين ، فما هي التنازلات التي يجب أن نقدمها ؟ ، وتحدث عبد الحكيم عامر فقال : إن الثورة تخوض معركة ضد الإخوان والشيوعيين والأحزاب القديمة ، كل منهم يريد أن يفرض إرادته ورؤيته ، ونحن لنا موقف ورؤية اشتراكية ، "وكانت أول مرة تُنطق فيها كلمة اشتراكية في اجتماعاتنا والاشتراكية لا تأتي بالديمقراطية ، وإنما تُفرض فرضاً" ، وهنا عاد عبد الناصر ليقول : لهذا أنا أؤكد إما سياسة الحزم وفرض إرادة الثورة ، أو الديمقراطية الكاملة ، ومرة أخري تهطل الاقتراحات غير الناضجة–)[٨٧٧]
- فهل ذكر خالد محيي الدين شيئاًعن الانفجارات التي ذكرها اللواء نجيب في مذكراته ؟
- نعم في صفحة ٣٠٤ وما بعدها كتب ما يلي : (–– وثمة واقعة أخري لابد من وضعها في الاعتبار ، فقبل زيارة الملك سعود مباشرة وقعت ستة انفجارات دفعة واحدة في مدينة القاهرة – – صحيح أنها لم تتسبب في خسائر مادية لكنها أثارت هواجس شديدة وسط الجميع حول مخاطر انفلات الوضع ، ومخاطر إطلاق العنان دون قبضة حازمة للدولة ، وبدأ البعض يستشعر أن الزمام يفلت ، وأن الأمن

[٨٧٧] نقلاً عن كتاب –والآن أتكلم–خالد محيي الدين–الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر –مؤسسة الأهرام–الطبعة الأولي ١٩٩٢–مقتطفات من صفحة ٣٠١ وما بعدها

غير مستقر ، وأنه من الضروري إحكام قبضة النظام وإلا سادت الفوضي ، وقد روي لي بغدادي "وعاد فأكد ذلك في مذكراته" أنه في أعقاب هذه الانفجارات زار جمال عبد الناصر في منزله هو وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم ليناقشوا معه تطورات الأوضاع ، وأبلغهم عبد الناصر أنه هو الذي دبر هذه الانفجارات لإثارة مخاوف الناس من الاندفاع في طريق الديمقراطية ، والإيحاء بأن الأمن قد يهتز وأن الفوضي ستسود)

- أنا أو الفوضي
- وأضاف خالد محيي الدين : (--وبطبيعة الحال فإن الكثيرين من المصريين لا يقبلون أن تسود الفوضي بصورة تؤدي إلي وقوع مثل هذه الانفجارات . ،) ، واستمر خالد محيي الدين في سرد ما يحدث في اجتماعات الضباط بمجلس قيادة الثورة وكتابة الاقتراحات والاقتراحات المضادة إلي أن قال : (---فجأة انبثقت في عقلي فكرة لست أدري كيف غابت عن ذهني طوال الأيام السابقة ، لقد أحسست أن ثمة مؤامرة تحاك ، وأن الاقتراحات والاقتراحات المضادة هدفها الحقيقي إرباك كل الأطراف ، وتمييع الموقف ، وأدركت أن ثمة شيئاً ما يجري إعداده في الخفاء ، وأدركت أن الزملاء يرتبون أمورهم فيما بينهم وعلي غير علم مني ، وأن الاقتراحات غير الناضجة كان المقصود بها إحباط عملية الاستمرار في تنفيذ القرارات ، وتمييع المواقف حتي تنضج للتنفيذ العملي فكرة عبد الناصر التي ظل يرددها في حماس مثير للدهشة "إما الثورة وإما الديمقراطية" .)[٨٧٨]
- فماذا كتب عن المظاهرات المعادية للديمقراطية ؟
- كتب عن هذا الموضوع ما يلي : (كان الملك سعود لم يزل في مصر ، وكنا ممزقين بين متابعة زيارته والاحتفاء به ، وبين محاولة حل خلافاتنا وإيجاد مخرج لهذه الأزمة الخانقة ، وفي ٢٧مارس ١٩٥٤ وكان يوم سبت حدثني نجيب تليفونيا ليدعوني للسفر معه ومع الملك سعود بالقطار إلي الإسكندرية ، وكان هناك أيضاً كمال الدين حسين ، وما إن تحرك القطار نحو أول محطة في الطريق حتي أحسست بأن هواجسي التي سيطرت عليّ في الجلسة السابقة لمجلس الثورة كانت صائبة ، وأن شعوري بأن هناك ترتيباً خفياً يجري إعداده كان صحيحاً ، فعلي كل محطة كان هناك حشد من الناس يهتف بحياة نجيب وحياة الملك سعود ثم يهتف : "تحيا الثورة" ، "لا حزبية" ، وأحسست أن ثمة ترتيباً لهذا الأمر كله ، كانت الحشود متوسطة الحجم ، حوالي مائتين في كل محطة ، لكن الذي يؤكد الترتيب أن الشعارات كانت موحدة ، فكيف يمكن التصديق أنه دون ترتيب خاص سرت هذه الشعارات وسط جميع المحتشدين في كل المحطات علي طول الطريق من القاهرة إلي الإسكندرية ؟ ، وأعتقد أن "هيئة التحرير" وأجهزة الدولة والأمن كانت وراء هذه الحشود . وتغير الموقف عندما وصلنا إلي الإسكندرية ،

---

[٨٧٨] نقلاً عن كتاب –والآن أتكلم–خالد محيي الدين–الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر –مؤسسة الأهرام–الطبعة الأولي ١٩٩٢–مقتطفات من صفحة ٣٠٩ وما بعدها

فقد كان هناك حشدان ، حشد يهتف للنحاس وفؤاد سراج الدين ، وحشد يهتف "تحيا الثورة" ، "ولا للحزبية" ، ---------والي هنا فإنني أود أن أوضح نقطة بالغة الأهمية ، صحيح أن عبد الناصر رتب الأمر وحشد المظاهرات ، ثم حشد بعد ذلك بعض قطاعات العمال ودفعهم للإضراب ، وخاصة عمال النقل العام ، وقد اعترف لي عبد الناصر صراحة –كما قلت في السابق– بأنه أنفق أربعة آلاف جنيه علي هذه الترتيبات ، وبعد عودتي من المنفي عاد فاعترف لي أنه رتب "حركة ٢٧-٢٨-٢٩مارس" كرد علي حركة الفرسان واجتماع "الميس الأخضر" وقال باسماً : واحدة بواحدة ، ونبقي خالصين ، لكن هذه الترتيبات ما كان لها أن تنجح لو لم تجد صدي لها وسط الجماهير ،، فالطبقي الوسطي مثلاً كانت تخشي من عودة الحياة النيابية والأحزاب ، خاصة وأن أحزاب ما قبل الثورة كانت قد كسبت احتقار الجماهير سواء بتصرفاتها السابقة علي الثورة ، أو بسبب الحملة الإعلامية الضارية التي شنتها الصحف وأجهزة الإعلام ضدها ، والفلاحون كانوا يوشكون أن يستمتعوا بثمار الإصلاح الزراعي ، وبدأوا يشعرون أن تراجع الثورة يعني إلغاء الإصلاح الزراعي وانتزاع الأرض منهم ، وعودة القهر والنفوذ الإقطاعي الظالم ، والعمال بدأوا يستمتعون ، وخاصة النقابيين منهم بنص قانوني –كنت أنا الذي صممت علي إصداره ، واستقلت فعلاً من مجلس الثورة ولم أعد إلا بعد صدوره – يحميهم من الفصل التعسفي ، وهناك فوق هذا وقبل هذا كله ضباط الجيش الذين فزعوا من الحملة الضارية التي شنتها جريدة "المصري" و "الجمهور المصري" و "روز اليوسف" للمطالبة بعودة الجيش إلي ثكناته ، ومحاكمة المسئولين عما أُرتكب من أخطاء ، وبدأوا يشعرون أن مصيرهم كجماعة امتلكت نفوذا وسطوة هائلة بعد ليلة ٢٣يوليو وكأفراد حصلوا علي موقع ممتاز ، ومهابة اجتماعية ذات وزن ، أن هذا كله مهدد ، وأن الثورة التي حققوها مهددة أيضاً ، وهكذا فإن عبد الناصر إذ رتب لهذا الرجوع عن القرارات الديمقراطية ، كان يستند إلي ميزان قوي لصالحه ، فمعه أغلبية ضباط الجيش ، ومعه قطاع كبير من الجماهير الشعبية ، ومعه قطاع هام من الطبقة الوسطي ، ومعه أيضاً الصحف والإذاعة والأمن والمخابرات و "هيئة التحرير" . ولابد من الإشارة هنا إلي أن مصطفي وعلي أمين وغيرهما من كبار الكتاب في "الأهرام" و "الأخبار" و "الجمهورية" كانوا يؤيدون مواقف عبد الناصر ، وكانوا يروجون لفكرة "إما ...وإما" ومن ثم فقد كانوا رافداً هاماً من روافد التفكير المعادي للديمقراطية –)[٨٧٩]

- أعتقد أننا قد أسهبنا كثيراً في تفاصيل وصول عبد الناصر للسلطة وانفراده بها
- هذا صحيح ، وعلي أي حال وبدون تفاصيل لا طائل من وراءها ، تولي عبد الناصر حكم مصر في النهاية
- دعنا إذن نتحدث عن العصر الناصري

[٨٧٩] نقلاً عن كتاب –والآن أتكلم–خالد محيي الدين–صفحة ٣١٢

- **لا مانع ولكن عن أي المجالات سنتحدث فقد شهدت مصر في عهده تطورات وتغيرات في جميع المجالات ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإن شئت فقل دينياً وثقافياً وفنياً ، كما تغيرت الظروف العالمية أيضاً وأصبح هناك معسكر شرقي ومعسكر غربي وعدم انحيار ، كما شهدت مصر في عهده العديد من الأحداث والمعارك كالجلاء وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي ، والوحدة مع سوريا وحرب اليمن وحرب ١٩٥٦ وحرب الاستنزاف فضلاً عن الحرب الباردة وغيرها من الأحداث الساخنة في مصر والعالم ، وهي موضوعات كثيرة وتحتوي علي العديد من التفاصيل ، فكيف لنا أن نتناولها جميعاً في هذا الحوار دون أن نغفل إحداها ؟**
- **إن كل ما ذكرته من أحداث معروف ومشهور ومتوفر في جميع المراجع تقريباً وقد نتطرق للحديث عنها ولكن أهم ما يعنيني حالياً هو ما حدث للإنسان المصري نفسه في عهد عبد الناصر وهل تغيرت شخصيته وثوابته وما تأثير عصر عبد الناصر علي الهوية الإسلامية والثوابت الدينية وما فعله الإعلام والفن في عصره في تغيير ثقافة المجتمع وأسلوب تفكيره ، وماذا حدث للحريات في عهده وهل نجا في عهده أي صاحب رأي أو فكر يخالف أفكاره ؟ ، أما الأحداث بشكل عام فهي لا تعدو أن تكون نتائج حكم رئيس ديكتاتور لا يراجعه أحد في قراراته فيخطئ ويصيب ، وبالتالي فهو الوحيد المسئول عن كل ما حدث من إنجازات وإخفاقات**
- **أنا أفهم تماماً ما تعنيه ، ولكن علي الأقل يجب أن نذكر فكرة عامة ونبذة مختصرة عن السيرة الذاتية له ، لندرك ما حدث في عصره بشكل أفضل ، حتي أننا يمكن أن نبحث عن ذلك علي شبكة المعلومات الانترنت ، ونقرأ عنه من خلال موقع من المواقع الإلكترونية ، ثم بعد ذلك نتحاور في ما ذكرته من موضوعات**
- **لا مانع**

جمال عبد الناصر يتولي حكم مصر وينفرد بالسلطة

- **إليك ما ورد عن الرئيس جمال عبد الناصر في دراسة[880] أعدها أحد المواقع الإلكترونية تحت عنوان : جمال عبد الناصر.. طريق الآمال والآلام – في ذكرى مولده: ٢ ربيع الآخر ١٣٣٦هـ ، حيث كتب**

[880] أهم مصادر الدراسة: أبطال الفالوجا في الأراضي المقدسة بفلسطين: أمين الحسين غانم- مطبعة الرياض- القاهرة (١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م).-ثورة الجنرال "جمال عبد الناصر": د. رفعت سيد أحمد- دار الهدى للنشر والتوزيع- القاهرة (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م).-ثورة الضباط الأحرار في مصر: أ. ف. كوفتو نوفيتش- ترجمة عزة الخميسي- حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي- القاهرة (١٤١١ هـ = ١٩٩١م).- ثورة يوليو الأمريكية: محمد جلال كشك- الزهراء للإعلام العربي- القاهرة (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).- الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو (١٩٥٢- ١٩٧٠م): طارق البشري (كتاب الهلال: ٤٩٢)- دار الهلال – القاهرة (١٤١١هـ = ١٩٩١م).- عبد الناصر: فتحي رضوان (كتاب الهلال :٤٨٧)- دار الهلال- القاهرة (١٤١١هـ = ١٩٩١م). – المرأة التي أحبها عبد الناصر: شفيق أحمد علي- دار نوبار للطباعة- القاهرة (١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م). نقلاً عن موقع https://archive.islamonline.net/?p=8982 (رابط الدراسة علي الانترنت)

ما يلي : لم تحظَ شخصية وطنية أو قيادة شعبية في تاريخ مصر الحديثة بقدر من الجدل والاهتمام مثلما حظيت شخصية جمال عبد الناصر. فالبرغم مما أُشيع حول ديكتاتورية عبد الناصر وبطشه بمعارضيه، فإنه ظل يحظى بجماهيرية غير مسبوقة وشعبية جارفة حتى بين الجيل الذي لم يعاصره، ونُسبت إليه بطولات وأمجاد، ونُسجت حوله روايات تصل إلى حد الأساطير؛ حتى صار وكأنه أحد أبطال التراث الشعبي، لا في وجدان المصريين فحسب؛ وإنما في وعي ووجدان الأمة العربية على امتداد أقطارها من الخليج إلى المحيط. وبالرغم من مُضي نحو نصف قرن على قيام الثورة، وأكثر من ثلاثين عاما[٨٨١] على رحيله، فإنه يظل دائما الغائب الحاضر بكل إيجابياته وسلبياته.

- فماذا ورد في هذه الدراسة عن ميلاد "ناصر" ونشأته ؟
- وُلد "جمال عبد الناصر" بالإسكندرية قبيل أحداث ثورة ١٣٣٥هـ = ١٩١٩م، التي هزّت مصر، وحركت وجدان المصريين، وألهبت مشاعر الثورة والوطنية في قلوبهم، وبعثت روح المقاومة ضد المستعمرين. وكان أبوه "عبد الناصر حسين خليل سلطان" قد انتقل من قريته "بني مر" بمحافظة أسيوط؛ ليعمل وكيلا لمكتب بريد باكوس بالإسكندرية، وقد تزوج من السيدة "فهيمة" ابنة "محمد حماد" تاجر الفحم المعروف في الإسكندرية. وفي منزل والده– رقم ١٢ شاعر الدكتور قنواتي– بحي باكوس وُلد في (٢ من ربيع الآخر ١٣٣٦هـ = ١٦ من يناير ١٩١٨م). وكان والده دائم الترحال والانتقال من بلدة إلى أخرى؛ نظرًا لطبيعة وظيفته التي كانت تجعله لا يستقر كثيرا في مكان. ولم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى تُوفيت أمه في (١٨ من رمضان ١٣٤٤هـ = ٢ من إبريل ١٩٢٦م) وهي تضع مولودها الرابع "شوقي"، وكان عمه "خليل"، الذي يعمل موظفا بالأوقاف في القاهرة متزوجًا منذ فترة، ولكنه لم يُرزق بأبناء، فوجد في أبناء أخيه أبوته المفتقدة وحنينه الدائم إلى الأبناء؛ فأخذهم معه إلى القاهرة؛ ليقيموا معه حيث يوفر لهم الرعاية والاستقرار بعد وفاة أمهم. وبعد أكثر من سبع سنوات على وفاة السيدة "فهيمة" تزوج عبد الناصر من السيدة "عنايات مصطفى" في مدينة السويس سنة (١٣٥٢ هـ =١٩٣٣م)، ثم ما لبث أن تم نقله إلى القاهرة ليصبح مأمورا للبريد في حي "الخرنفش" بين الأزبكية والعباسية؛ حيث استأجر بيتا يملكه أحد اليهود المصريين، فانتقل "جمال" وإخوته للعيش مع أبيهم، بعد أن تم نقل عمه "خليل" إلى إحدى القرى بالمحلة الكبرى، وكان في ذلك الوقت طالبًا في الصف الأول الثانوي.
- فماذا عن حياته العسكرية ؟
- وعندما حصل جمال على شهادة البكالوريا من مدرسة النهضة المصرية بالقاهرة في عام (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م)، كان يتوق إلى دراسة الحقوق، ولكنه ما لبث أن قرر دخول الكلية الحربية، بعد أن قضى بضعة أشهر في دراسة الحقوق. دخل الكلية الحربية، ولم يكن طلاب الكلية يتجاوزن ٩٠ طالبا، وعُرف

---

[٨٨١] بالنسبة لتوقيت إعداد الدراسة

بين زملائه وأساتذته باستقامته واعتزازه بنفسه وميله إلى حياة الجد. وبعد تخرجه في الكلية الحربية عام (١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م) التحق بالكتيبة الثالثة بنادق، وتم نقله إلى "منقباد" بأسيوط؛ حيث التقى بأنور السادات وزكريا محيي الدين. وفي سنة (١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩م) تم نقله إلى الإسكندرية، وهناك تعرف بعبد الحكيم عامر، الذي كان قد تخرج في الدفعة التالية له من الكلية الحربية، وفي عام (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م) تم نقله إلى معسكر العلمين، وما لبث أن نُقل إلى السودان ومعه عامر. وعندما عاد من السودان تم تعيينه مدرسا بالكلية الحربية، والتحق بكلية أركان الحرب؛ فالتقى خلال دراسته بزملائه الذين أسس معهم تنظيم "الضباط الأحرار".

- فماذا عن حرب فلسطين ؟
- كانت الفترة ما بين (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م) و(١٣٦٦هـ= ١٩٤٧م) هي البداية الحقيقية لتكوين نواة تنظيم الضباط الأحرار؛ فقد كان معظم الضباط، الذين أصبحوا- فيما بعد- اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار، يعملون في العديد من الوحدات القريبة من القاهرة، وكانت تربطهم علاقات قوية بزملائهم؛ فكسبوا من بينهم مؤيدين لهم. وكانت حرب (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) هي الشرارة التي فجّرت عزم هؤلاء الضباط على الثورة ضد الفساد، بعد النكبة التي مُنِيَ بها العالم العربي في فلسطين. وفي تلك الأثناء كان كثير من هؤلاء الضباط منخرطين بالفعل في صفوف "الإخوان المسلمين"، الذين كان لهم دور بارز في حرب فلسطين، ومن هنا توطدت العلاقة بين "الإخوان المسلمين" وضباط الجيش، وبخاصة الضباط الأحرار.
- فماذا عن نشأة تنظيم الضباط الأحرار ؟
- وفي صيف ١٣٦٨هـ= ١٩٤٩م نضجت فكرة إنشاء تنظيم ثوري سري في الجيش، وتشكلت لجنة تأسيسية ضمت في بدايتها خمسة أعضاء فقط، هم: جمال عبد الناصر، وكمال الدين حسين، وحسن إبراهيم، وخالد محيي الدين، وعبد المنعم عبد الرءوف، ثم زيدت بعد ذلك إلى عشرة، بعد أن انضم إليها كل من: أنور السادات، وعبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف بغدادي، وزكريا محيي الدين، وجمال سالم. وظل خارج اللجنة كل من: ثروت عكاشة، وعلي صبري، ويوسف منصور صديق. وفي ذلك الوقت تم تعيين جمال عبد الناصر مدرسا في كلية أركان الحرب، ومَنحُهُ رتبة البكباشي (مقدم)، بعد حصوله على دبلوم أركان الحرب عام (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م) في أعقاب عودته من حرب فلسطين، وكان قد حوصر هو ومجموعة من رفاقه في "الفالوجا" أكثر من أربعة أشهر، وبلغ عدد الغارات الجوية عليها أثناء الحصار ٢٢٠ غارة. عاد بعد أن رأى بعينه الموت يحصد أرواح جنوده وزملائه، الذين رفضوا الاستسلام لليهود، وقاوموا برغم الحصار العنيف والإمكانات المحدودة، وقاتلوا بفدائية نادرة وبطولة فريدة؛ حتى تم رفع الحصار في (جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ = مارس ١٩٤٩م).
- فماذا ورد بالدراسة عن الوصول إلى السلطة ؟

- وفي (أول ليلة من ذي القعدة ١٣٧١هـ = ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م)، قامت الثورة؛ فلم تلقَ مقاومة تُذكر، ولم يسقط في تلك الليلة سوى ضحيتين فقط، هما الجنديان اللذان قُتلا عند اقتحام مبنى القيادة العامة. وكان الضباط الأحرار قد اختاروا "محمد نجيب" رئيسا لحركتهم، وذلك لِمَا يتمتع به من احترام وتقدير ضباط الجيش؛ لسمعته الطيبة وحسه الوطني، فضلا عن كونه يمثل رتبة عالية في الجيش، وهو ما يدعم الثورة ويكسبها تأييدا كبيرا؛ سواء من جانب الضباط، أو من جانب جماهير الشعب.
- وكان عبد الناصر هو الرئيس الفعلي للجنة التأسيسية للضباط الأحرار؛ ومن ثم فقد نشأ صراع شديد على السلطة بينه وبين محمد نجيب، ما لبث أن أنهاه عبد الناصر لصالحه في (١٧ من ربيع الأول ١٣٧٤هـ = ١٤ من نوفمبر ١٩٥٤م)، بعد أن اعتقل محمد نجيب، وحدد إقامته في منزله على نحو مهين، وانفرد وحده بالسلطة. واستطاع أن يعقد اتفاقية مع بريطانيا لجلاء قواتها عن مصر في (٢١ من صفر ١٣٧٤هـ = ١٩ من أكتوبر ١٩٥٤م). وما لبث أن اصطدم بجماعة "الإخوان المسلمين" (حلفاء الأمس)، الذين ساهموا بقدر كبير في إنجاح الثورة وتوطيد دعائمها، لما كانوا يتمتعون به من قاعدة شعبية كبيرة وتأثير جماهيري قوي. واعتقل عبد الناصر الآلاف من أعضاء تلك الجماعة؛ فلاقوا صنوف التنكيل والتعذيب، وعقدت لهم محاكمات صورية، انتهت بإعدام عدد من رموز التيار الإسلامي، مثل: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وسيد قطب...وبدأت حملة تصفية أخرى للمعارضين شملت الشيوعيين، وامتدت إلى النقابات المختلفة؛ فقد تم حلّ مجلس نقابة المحامين في (أول جمادى الأولى ١٣٧٤هـ = ٢٦ من ديسمبر ١٩٥٤م)، ثم تلتها نقابة الصحفيين في عام (١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م).
- فماذا عن مساندة حركات التحرر في الوطن العربي ؟
- واتجه عبد الناصر، بعد أن استقرت له الأمور، إلى تحقيق المزيد من المكاسب السياسية على الصعيدين العربي والعالمي؛ فساهم بدور كبير في مساندة وتأييد حركات التحرر الوطني، ودعا إلى وحدة الصف العربي في مواجهة التحالفات والتكتلات الغربية، وكان مؤتمر "باندونج" سنة (١٣٧٥هـ= ١٩٥٥م) نقطة انطلاقه إلى العالم الخارجي وانتهاجه سياسة عدم الانحياز، ورفع شعار الحياد الإيجابي، ورفض التبعية السياسية للدول الكبرى، كما دعا إلى مقاومة التحالفات التي تهدف إلى السيطرة على البلاد العربية. وكان لعبد الناصر دور بارز في مساندة ثورة الجزائر وتبني قضية تحرير الشعب الجزائري في المحافل الدولية، وسعى كذلك إلى تحقيق الوحدة العربية؛ فكانت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا في (شعبان ١٣٧٧هـ = فبراير ١٩٥٨م) تحت اسم "الجمهورية العربية المتحدة"، وقد تولى هو رئاستها بعد أن تنازل الرئيس السوري "شكرى القوتلي" له عن الحكم، إلا أنها لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات. كما ساند عبد الناصر الانقلاب الذي قام به "عبد الله السلال" في اليمن سنة (١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م)، وأرسل نحو ٧٠ ألف جندي إلى اليمن، وهو ما أدى إلى توتر العلاقات المصرية السعودية، وكان له أثره السيئ في استنزاف موارد مصر وإضعاف قوتها العسكرية، وكانت

أبرز عواقبه الوخيمة تلك الهزيمة العسكرية الفادحة التي مُنِيَت بها القوات المسلحة في حرب (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م).

- فماذا ورد عن الاتجاه نحو التصنيع ؟
- شهدت مصر في الفترة من مطلع الستينيات إلى ما قبل النكسة نهضة اقتصادية وصناعية كبيرة، بعد أن بدأت الدولة اتجاها جديدا نحو السيطرة على مصادر الإنتاج ووسائله، من خلال التوسع في تأميم البنوك والشركات والمصانع الكبرى، وإنشاء عدد من المشروعات الصناعية الضخمة، وقد اهتم عبد الناصر بإنشاء المدارس والمستشفيات، وتوفير فرص العمل لأبناء الشعب، وتوَّج ذلك كله ببناء السد العالي الذي يُعد أهم وأعظم إنجازاته على الإطلاق؛ حيث حمى مصر من أخطار الفيضانات، كما أدى إلى زيادة الرقعة الزراعية بنحو مليون فدان، بالإضافة إلى ما تميز به باعتباره المصدر الأول لتوليد الكهرباء في مصر، وهو ما يوفر الطاقة اللازمة للمصانع والمشروعات الصناعية الكبرى.
- فماذا عن الحرية والحياة السياسية في عهد عبد الناصر ؟
- وبالرغم من حالة الاستقرار التي مرت بها البلاد، وتعاظم النفوذ السياسي والدور القيادي والشعبي لعبد الناصر، فإنه توسّع في البطش بمعارضيه، وتمادى في التنكيل بهم، وبالغ من قمعه وعدائه لصفوة المجتمع من المفكرين والسياسيين حتى الأدباء والمبدعين، الذين وجد في أفكارهم خروجا عن المنظومة التي اختارها ليسير عليها الجميع والنهج الذي رسمه ليلتزمه الكافة؛ فلم يكن يؤمن بالتعددية، أو الرأي الآخر، ولم يكن ليسمح أن يرتفع صوت آخر سواه. اختزل كل الرموز والمسميات في ذاته وشخصه، وطغت ديكتاتوريته على الجميع؛ فأصبحت مصر هي عبد الناصر، كما صار عبد الناصر هو الثورة وهو رمز الحرية والنضال. تعاظم دوره بقدر ما تقلصت مساحة الحرية المتاحة، ولم تعد الثورة وليدة تحتاج الحماية والرعاية حتى لا ينقض عليها المتآمرون والمتربصون، ولم يعد كبت الحريات من أجل المحافظة على الثورة ومكاسبها الاشتراكية، وإنما صار ذلك سمت العصر وسمة الحكم. وبالرغم من اتساع قاعدة الانتخاب والتشدق بمقولات الاشتراكية وحكم الشعب والممارسات السياسية، فإن المجالس النيابية شهدت قصورا شديدا وواضحا في أدائها؛ فقد سيطر الحزب السياسي الحاكم وهو "الاتحاد الاشتراكي" على مقاليد الأمور، وأصبح الانتماء إليه هو المَعْبَر الوحيد لدخول البرلمان، كما فقد القضاء استقلاله في تلك الفترة، بعد تشكيل عدد من المحاكم الخاصة للنظر في قضايا معينة؛ فتم تشكيل محكمة الثورة، ومحكمة الغدر، ومحكمة الشعب وغيرها، وقد خضعت السلطة التشريعية للسلطة التنفيذية تماما. وحاول عبد الناصر إدخال القضاء في التنظيم السياسي، وإعادة صياغة الهيكلة القضائية من خلال إدخال عناصر من غير أعضائه، وعندما تصدى له رجال القضاء؛ رافضين ذلك الاتجاه، قام بمذبحة القضاء الشهيرة؛ فحل رجالها، وفي الوقت نفسه أنشأ المحكمة الدستورية العليا لمراقبة دستورية القوانين، وإلغاء ما يصدر غير متفق مع مبادئ الدستور.

- فهل ورد شئ عن عبد الناصر في حياته الخاصة ؟
- كان بشهادة معارضيه متصفًا بالنزاهة وعلو الهمة والبعد عن المحاباة أو استغلال النفوذ، وكان حريصًا على ألا يميز أحدا من أفراد أسرته عن بقية أبناء الشعب. كما كان متمسكا بالقيم والمبادئ، محافظا على التقاليد؛ فحينما زار اليونان سنة (١٣٨٠٩هـ ١٩٦٠م) رفض أن يضع يديه في يد ملكة اليونان؛ حتى لا تضطر زوجته إلى أن تلتزم هي الأخرى بالبروتوكول، وتفعل مثل ذلك مع ملك اليونان. ولم تظهر زوجته السيدة "تحية كاظم" في الحياة العامة إلا في وقت متأخر؛ فحتى عام (١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م) لم تظهر إلا في حفلين رسميين. وكان يفزع من حياة القصور، ويبرر ذلك دائما بقوله: "في القصر سوف يعيش كل منا في جناحه الخاص، وبالتالي سوف نصبح أسرة مفككة، أما هنا في منزلنا فإننا جميعا نعيش معا ونأكل معا ويطمئن كل منا على الآخر". ويظل يعمل في مكتبه حتى الساعات الأولى من الفجر، بينما تجلس السيدة قرينته في ركن حجرة مكتبه تشغل نفسها بالتطريز أو شغل الإبرة؛ حتى لا تفارقه وهي معه في البيت نفسه.
- فماذا ورد بالدراسة عن عبد الناصر من الهزيمة إلى التنحي ؟
- كانت هزيمة (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م) بمثابة الزلزال الذي هز مصر كلها، فقد كانت تلك الهزيمة أكبر هزيمة عسكرية تلحق بمصر في تاريخها الحديث. ولم تكن تلك الحرب هي أولى حلقات الصراع المصري الإسرائيلي؛ فقد سبقتها عدة جولات، كانت أولها حرب فلسطين التي حسم الغدر والعمالة والخيانة نتائجها لصالح العدو الصهيوني الطامع في أرض فلسطين العربية المسلمة، ثم كان حادث غزة في (٥ من رجب ١٣٧٤ هـ = ٢٨ من فبراير ١٩٥٥م) حينما قتلت إسرائيل ٤٢ جنديا مصريا، ثم أسفرت إسرائيل عن وجهها القبيح وعداوتها السافرة في العدوان الثلاثي على مصر سنة (١٣٨٦هـ = ١٩٥٦م). وفي حرب (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م) فقدت مصر ١٠ آلاف مقاتل و١٥٠٠ ضابط، ونحو ٨٠% من قواتها العسكرية، وتم تدمير سلاح الطيران المصري واحتلال سيناء. ودفعت تلك الهزيمة القاسية عبد الناصر إلى إعلان تنحّيهِ عن الحكم، واستعداده لتحمل التبعات؛ لأنه يعتبر نفسه المسؤول الأول عما حل بالبلاد؛ فخرجت الجماهير تطالبه بالبقاء وتدعوه إلى التراجع عن قراره بالتنحي. وسرعان ما عدل عن فكرة تنحيه، واتخذ خطوات سريعة نحو تصفية مراكز القوى وإعادة بناء الجيش الذي دمرته الهزيمة، وبدأ مرحلة جدية من حرب الاستنزاف ضد إسرائيل، كان يسعى من ورائها إلى توجيه ضربات موجعة لإسرائيل؛ بهدف استنزاف قوتها، ومحاولة إعادة بناء الثقة في نفوس المصريين، واستمرت تلك الحرب حتى (جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ = أغسطس ١٩٧٠م) بعد مبادرة "روجرز"[٨٨٢]. وما لبثت الأمة العربية أن عصفت بها رياح الحرب من جديد، ولكنها هذه المرة كانت

---

٨٨٢ مبادرة روجرز بالإنگليزية Rogers Plan ، هى مبادرة قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية على لسان وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكي في عهد ريتشارد نيكسون، وقد جاءت هذه المبادرة لعمل فترة وقف إطلاق النار بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية. أول ما ظهرت المبادرة

حربًا بين الأشقاء؛ فقد اندلعت الحرب بين الأردن والفلسطينيين في (صفر ١٣٩٠هـ = إبريل ١٩٧٠م). وبذل عبد الناصر جهودا كبيرة لاحتواء الموقف، وتدارك تلك الكارثة؛ فدعا إلى عقد مؤتمر قمة عربي؛ لوقف نزيف الدم بين الأشقاء، ووضْع حد للحرب والصراع، وتنقية الأجواء بين العرب. وفي اليوم الذي انتهى فيه المؤتمر تُوفِّي عبد الناصر فجأة، بعد أن ودّع آخر ضيوف مصر المشاركين في هذا المؤتمر في (٢٧ من رجب ١٣٩٠هـ = ٢٨ من سبتمبر ١٩٧٠م). وإلي هنا انتهت الدراسة بوفاة جمال عبد الناصر

- **لقد كانت دراسة مركزة ، وواضح جداٍ الجهد المبذول فيها ، ولكنها لم تذكر تفاصيل موضوع تأميم قناة السويس[٨٨٣] الذي أعقبه العدوان الثلاثي ، وعلي أي حال دعنا نتحدث عن النقاط التي تعنينا أولاً حول العصر الناصري ثم نعلق علي بعض الأحداث التي تمت فيه**

كانت مشروع حل أمريكي للصراع الإسرائيلي–العربي في 9ديسمبر .1969 عبدالناصر لم يرد، واسرائيل - كيسنجر - تأخرت بالرفض. ثم أعلنها روجرز كمبادرة بصفة رسمية في 19يونيو 1970 وكانت من شقين: وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر، وتطبيق القرار ٢٤٢ ،، جاءت مبادرة روجرز بعد ان تبين ان الهزيمة رغم مرارتها وقسوتها لم تجبر العرب على رفع اعلام الاستسلام البيضاء، وانما تواصل القتال تعبيرا عن رفض الهزيمة، وكان شهر سبتمبر هو البداية الحقيقية لعودة القتال عندما قامت معركة بالمدفعية في منطقة القنطرة خسر فيها الاسرائيليون حوالي ٨٠ قتيلا و 250جريحا مما جعل يوثانت أمين عام الأمم المتحدة في ذلك الوقت يطلب من) أودبول (كبير المراقبين الدوليين قطع اجازته والعودة فورا الى القاهرة، وفي ٢٥ اكتوبر، أغرقت البحرية المصرية المدمرة الاسرائيلية إيلات ، ورغم صدور قرار مجلس الامن في ٢٥ نوفمبر عام ١٩٦٧ بوقف اطلاق النار، فقد قال جمال عبد الناصر ان ما يفعله الاسرائيليون في الارض المحتلة يؤكد انهم لن يخرجوا منها الا اذا اجبروا على ذلك، وقال قولته المشهورة (إن ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة)، وهكذا تواصل القتال وتصاعد حتى دخل حرب الاستنزاف التي كثفت فيها اسرائيل غاراتها الجوية بغية اصابة النظام بالشلل كما صرحت رئيسة الوزراء (جولدا مائير)، ووضحت في نفس الوقت روح المقاومة والبسالة المعبرة عن الاصرار على تحرير الوطن وزادت خسائر اسرائيل بشكل ملحوظ دفع جولدامائير الى القول ان «كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب كلما دمرنا احداها نبتت بدلها اخرى» ودفعت أبا إيبان وزير الخارجية الى القول «لقد بدأ الطيران الاسرائيلي يتآكل.« كانت الولايات المتحدة هي التي طرحت هذه المبادرة، لإيقاف القتال مدة ثلاثة أشهر، نتيجة المعارك الجوية التي دارت بين القوات المسلحة المصرية والقوات الإسرائيلية المعادية، وأسقط فيها طائرات حديثة جداً –أمريكية الصنع– تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي. وأيضاً وقوع إسرائيل في مأزق عسكري داخلي كبير جداً، بسبب الخسائر البشرية اليومية في صفوف قواته المسلحة. وافقت مصر بقيادة جمال عبد الناصر على هذه المبادرة ، ومن ثم الأردن بقيادة الملك حسين. لكن منظمة التحرير الفلسطينية رفضت الالتزام بها. نقلاً عن موقع المعرفة :

https://www.marefa.org/%D9%85%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D8%B1%D8%A9_%D8%B1%D9%88%D8%AC%D8%B1%D8%B2

٨٨٣ تأميم قناة السويس أي نقل الملكية من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المصرية مقابل تعويضات تمنح للأجانب. وقد تم ذلك في عهد الرئيس المصري جمال عبد الناصر وذلك في 26يوليو عام ١٩٥٦ .وذلك بسبب رفض البنك الدولي تمويل الحكومة المصرية لبناء السد العالي . وكان تأميم قناة السويس سبباً للعدوان الثلاثي الذي قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر. وكانت قد بدأت محادثات تمويل السد العالي، في أواخر سنة ١٩٥٥م، مع البنك الدولي والولايات المتحدة وبريطانيا، وأعلن التوصل إلى اتفاق من حيث المبدأ في ١٦ ديسمبر ١٩٥٥م، يقضي أن يتولى البنك الدولي، والولايات المتحدة، وبريطانيا، تمويل مشروع السد العالي بتكلفة تقديرية قدرها ١.٣ مليار دولار، على مرحلتين. المرحلة الأولى تقدر نفقاتها بنحو ٧٠ مليون دولار، تتحمل بريطانيا منها مبلغ ١٤ مليون دولار، وتتحمل الولايات المتحدة ٥٦ مليون دولار . والمرحلة الثانية: اقتراض مبلغ ٢٠٠ مليون دولار من البنك الدولي، و٨٠ مليون دولار من بريطانيا، و١٣٠ مليون دولار من الولايات المتحدة الأمريكية، وتستحق فوائد عن هذه القروض بنسبة (٥%) سنوياً وعلى فترة سداد ٤ سنوات، أمّا باقي مبلغ تكلفة إنشاء السد فتتحمله مصر بالعملة المحلية، إضافة إلى منحتين، الأولى من الولايات المتحدة وقدرها ٢٠ مليون جنيه، والثانية من بريطانيا بمبلغ خمسة ونصف مليون جنيه. وعندما علم الاتحاد السوفيتي بذلك، أعلن سفيره لدى مصر، في ١٨ ديسمبر ١٩٥٦م، عن رغبة بلادة في المساهمة في المشروع. وفي ٨ فبراير ١٩٥٦م، تم الاتفاق بين مصر والبنك الدولي على تقديم القرض، لم تألو الصحف والإذاعة البريطانية جهداً، في مهاجمة عبدالناصر والدعوة إلى وقف أي تعاون مع مصر، وتأليب الشعب السوداني وحكومته ضد مشروع السد العالي. كما أبلغت وزارة الخارجية البريطانية سفيرها في القاهرة التمهل في المفاوضات مع مصر، في شأن المشروع مدعيةً أن لديها نقص في العملة الإسترلينية. اتفقت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية

- **حسناً فما هي النقطة التي تريد أن نبدأ حوارنا حولها ؟**
- **هناك فكرة تحيرني ، أريد أن أطرحها للنقاش معك إن أمكن**
- **وما هي ؟**
- **الفكرة عبارة عن مدي تأثير اتفاق أو اختلاف القوي العظمي علي أوضاع الدول الصغيرة ، بمعني ، هل اتفاق القوي العظمي يكون في صالح الدول الصغري أم في غير صالحها ؟ وكذلك العكس ، هل عدم اتفاق القوي العظمي هو الذي يكون في صالح الدول الصغري أم في غير صالحها ؟ ، مع تحفظي الشديد علي كلمة الدول الصغري ، لأن الأمة الإسلامية لم تكن أبداً دولة صغري منذ نشأتها ، وإنما نجح أعداءها في تفتيتها إلي مجموعة دول صغري قد لا تقوي علي مواجهة التحديات التي تفرضها عليها الظروف العالمية الجديدة ، أما السؤال المهم الذي يعنينا من كل هذا هو ماذا فعل عبد الناصر بمصر والمصريين في ظل الظروف العالمية الجديدة التي عاصرها ؟**

وضع مصر في العصر الناصري بين توازنات القوي العظمي العالمية

- **لقد فهمت ما تعنيه تماماً ، وأعتقد أن اتفاق الدول الكبري وتحالفها لا يكون في صالح الدول الصغري ، فعلي سبيل المثال عندما تحالفت بريطانيا العظمي مع فرنسا ووقعتا اتفاقية سايكس بيكو المعروفة ، تم استغلال الدول التي شملتها حدود خرائط سايكس بيكو وتم استعمارها جميعاً واستنزاف ثرواتها والعبث بمقدراتها وهويتها بل وتم تغيير ثقافاتها ولغاتها كما حدث في بعض الدول التي أصبحت تتحدث اللغة الفرنسية حتي بعد مغادرة الاحتلال الفرنسي لها ، وبالتالي فإن اتفاق الأقوياء لا يأتي بأي فائدة علي الضعفاء في هذا العالم ، أما عندما يختلف الأقوياء في العالم كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية وتحول العالم إلي معسكرين كبيرين وحلفين رئيسيين ، تكون هنا فرصة رائعة لباقي الدول كي تتنفس وتحاول تحقيق كل ما يمكن تحقيقه من إنجازات في جميع المجالات نظراً لانشغال القوي العظمي بعضها ببعض ، فنري الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية قد حدث بينهما ما يسمي بالحرب الباردة ، وقامت كل قوة عظمي منهما بإجراء تجارب نووية لتحقيق سياسة الردع ، فكانت حركة عدم الانحياز الذي ساهم فيها جمال عبد الناصر حركة إيجابية في ذلك الوقت لتساعد الدول**

على وأد المشروع، وذلك بسحب عرض تمويل مشروع السد العالي. فأعلن (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكي، في ١٩ يوليو ١٩٥٦م، سحب العرض الأمريكي لتمويل مشروع السد العالي، وتبعته بريطانيا وسحبت هي الأخرى عرضها، وتلا ذلك البنك الدولي لارتباطه في تقديم القرض بكل من الدولتين. اتخذ جمال عبدالناصر قرار تأميم قناة السويس ظهر يوم السبت، ٢١ يوليو 1956م الموافق ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٧٥هـ، ثالث أيام عيد الأضحى المبارك، رداً على قرار البنك الدولي والولايات المتحدة وبريطانيا بسحب تمويلهم لبناء السد العالي، والذي علم به جمال عبد الناصر يوم الخميس ١٩ يوليو ١٩٥٦م. –خطة تنفيذ قرار تأميم القناة والاستيلاء علي مرافقها: كان عبدالناصر يحرص علي أن يحقق السرية التامة والمفاجأة، لذا لم يصرح بقرار تأميم قناة السويس إلاّ عندما استدعى المهندس محمود يونس، رئيس الهيئة العامة للبترول، في ذلك الوقت، في يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٦م، إلى مقر مجلس الوزراء وأبلغه بعزمه على تأميم قناة السويس، وأنه سيصدر قرار بذلك مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦م أثناء خطبته في الإسكندرية، وكلفه بتنفيذ هذه المهمة .

الصغري في النهوض بعيداً عن الصراعات الدولية ، ولكن للأسف لم يُحسن جمال عبد الناصر استغلالها للنهوض بمصر كما حدث للعديد من الدول

- **وهل هناك دول استفادت من فترة الحرب الباردة ؟**
- **بالتأكيد ، فقد استمر التوازن الدولي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية حتي عام ١٩٩٠م ، وهو العام الذي انهار فيه الاتحاد السوفييتي وانفردت فيه الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم ، وخلال الفترة التي سبقت تغير الموقف الدولي لصالح الولايات المتحدة نهضت العديد من دول العالم وتفرغت لبناء الإنسان والاهتمام بالتعليم والبحث العلمي والصحة فوصلت بعض الدول إلي أعلي المستويات كاليابان وألمانيا ودول شرق آسيا التي تسمي بالنمور الآسيوية ، وأصبحت الهند دولة نووية وباكستان أيضاً وغيرها ، ومما لا شك فيه أن أي دولة لم تنهض قبل عام ١٩٩٠ لن تتمكن من ذلك إلا إذا تغير الموقف الدولي مرة أخري**
- **فماذا حدث لمصر خلال تلك الفترة ؟**
- **مصر خلال تلك الفترة لم تمتلك إرادتها ، ولم يتمكن شعبها من تحديد مصيره واستغلال الفرص المتاحة للنهوض ، فقد سيطر علي مصر حكم مطلق لجمال عبد الناصر ، فقام بالعديد من المغامرات الدولية واهتم باهتمامات كثيرة خارج حدود مصر وأقحم مصر وجيشها في مشاكل دولية وأحداث إقليمية لم تكن مصر علي استعداد للتدخل فيها ، مما أضعف جيشها وأنهك اقتصادها ودمر مواردها ، والطريف أن الاستعمار البريطاني والفرنسي كان سيغادر المنطقة علي أي حال في ظل التوازنات الدولية الجديدة ، فلن تسمح روسيا وأمريكا باستمرار الوجود البريطاني الفرنسي في الشرق الأوسط بأي حال من الأحوال ، وكل ما فعله عبد الناصر مستغلاً الموقف الدولي أنه قام بتأميم قناة السويس التي كانت ستؤول ملكيتها لمصر سنة ١٩٦٨ بعد انتهاء فترة الامتياز ، ولم تتمكن بالطبع بريطانيا وفرنسا من الرد علي هذه الصفعة التي وجهها لهم جمال عبد الناصر في ظل الأوضاع الدولية الجديدة حيث فشل العدوان الثلاثي فشل ذريع[٨٨٤] كما نعرف وهذا بالتأكيد لا يقلل أبداً من الدور البطولي الرائع الذي قامت به**

---

٨٨٤ نص الانذار السوفيتي الصريح و الشهير و الذي تم توجيهه من المارشال السوفييتي بولجانين الي دول العدوان الثلاثي بريطانيا و فرنسا و الي الكيان الصهيوني و الذي صدر بعد الصمود الأسطوري لشعب بورسعيد الباسل أثناء العدوان الثلاثي علي مصر و الذي بدأ في في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ و انتهي بهزيمة دول العدوان و انسحابهم في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ السيد/ دافيد بن جوريون إن الحكومة الإسرائيلية المجرمة التي تفتقر إلى الشعور بالمسئولية، تتلاعب الآن بأقدار العالم وبمستقبل شعبها بالذات. السير/ انتوني ايدن المسيو / جي مولية تري الحكومة السوفيتية أنها مضطرة إلى لفت نظركم إلى الحرب العدوانية، التي تشنها بريطانيا وفرنسا ضد مصر، والتي لها أوخم العواقب على قضية السلام.كيف كانت بريطانيا تجد نفسها إذا ما هاجمتها دولة أكثر قوة، تملك كل أنواع أسلحة التدمير الحديثة؟ إن هناك دولة الآن لا يلزمها إرسال أسطول أو قوة جوية إلى سواحل بريطانيا، ولكن يمكنها استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ.إننا مصممون على سحق المعتدين، وإعادة السلام إلى نصابه في الشرق الأوسط، عن طريق استخدام القوة. إننا نأمل في هذه اللحظة الحاسمة أن تأخذوا حذركم، وتفكروا في العواقب المترتبة على ذلك.––مارشال بولجانين ، نقلاً عن موقع :
https://www.youm7.com/story/2014/11/7/%D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%AD%D8%A7%D8%AA-%D9%8A%D9%83%D8%AA%D8%A8-%D8%B0%D8%A7%D8%AA-%D9%8A%D9%88%D9%85-7-%D9%86%D9%88%D9%81%D9%85%D8%A8%D8%B1-1956-%D8%AF%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AF%D9%88%D8%A7%D9%86/1940657 (رابط الموضوع علي الانترنت)

المقاومة الشعبية خلال العدوان الثلاثي ، كما يعتبر بناء السد العالي من أهم إنجازات عبد الناصر خلال تلك الفترة

عصر الفرص الضائعة

- ولكن وقبل أن أنسي ، إن مسألة تفويت الفرصة علي مصر في فترة التوازن الدولي قد استمرت بعد عبد الناصر وحتي عام ١٩٩٠ كما ذكرت ، فهل استمر عدم استغلال الموقف الدولي حتي ذلك التاريخ؟
- نعم للأسف فلم يتغير أسلوب الحكم كما سنري ولم يحصل الشعب علي إرادته ، وبالتالي لم يتم استغلال هذه الفترة في النهوض الحقيقي ، بل تم اعتبار هذا الإنسان عبئاً ثقيلاً علي الدولة وأن الزيادة السكانية هي التي تعطل التقدم والتنمية فلم يتم الاستفادة منها بأي أسلوب ، بل ساهم الإعلام والفن في تشويه ثقافة العمل في المجتمع فتم احتقار العديد من المهن ، فيهرب الشباب إلي الخارج ليمارس أعمال يخجل أن يمارسها في بلده ، لنظرة المجتمع له بشكل مختلف
- وتم تفويت الفرصة علي مصر بسبب الحكم المطلق والانفراد بالسلطة مرة أخري وحتي عام ١٩٩٠ ؟
- هذا صحيح ولكنني أعتقد أن فرصة النهوض في عصر عبد الناصر بالذات كانت متاحة بشكل كبير بالنسبة للعصور التي تلته
- وكيف ذلك؟
- لقد كان الشعب المصري في عصر عبد الناصر مستعد لتحقيق الكثير والكثير لأسباب عديدة ، منها أنه وجد أمامه حاكم وطني بعد فترة استعمار وحكم ملكي اشتهر بالفساد ، وتم إلغاء الألقاب والبشوات والبكوات وتوجد عملة محلية لها سعر صرف محترم وظروف دولية مثالية كما قلنا فضلاً عن أن عبد الناصر كان يتسم بشخصية لها جاذبية خاصة وخطبه كانت تلهب الحماس وكان يهاجم بريطانيا العظمي دون أن يدرك الكثيرين أنها لم تعد عظمي ، وكانت الروح المعنوية لمعظم أفراد الشعب عالية فيما أظن ، ولم تكن هناك أي مصادر للمعلومات أو إعلام إلا ما تريده السلطة فقط ، وغير ذلك من العوامل التي لم تجتمع من قبل ، ولكن للأسف الشديد لقد ساق عبد الناصر الوطن في طريقه هو وطبقاً لأولوياته هو لا طبقاً لأولويات الوطن دون أن يستطيع أن يراجعه أحد في قراراته ، فلم يحسن استثمار الفرصة للنهوض بمصر فأخذ يوجه كل طاقات الشعب والوطن في اتجاهات رأي أنها أهم من بناء الإنسان نفسه ، فترك لمن بعده وطن قد خسر الكثير من أراضيه وجيش منهك القوي
- أعتقد أن ما ذكرته أهم بكثير من تحليل أحداث تلك الفترة فنقع في خطأ عدم تقدير الموقف بشكل إجمالي ، فيسوقنا الحديث إلي تفاصيل كثيرة عقيمة لعنوان كبير هو حكم شخص واحد أخطأ وأصاب فنراجع كل موقف وقرار له ونحكم عليه هل هو صواب أم خطأ ، فنغفل عن حقيقة تاريخية واضحة وضوح الشمس ، وهي أن عصر عبد الناصر كان من الفرص الضائعة علي الوطن والله أعلم

- بكل تأكيد ، بل وأضف إلي كل هذا ما فعله بالحياة السياسية في مصر ، وبجميع القوي السياسية علي اختلاف توجهاتها ومذاهبها ، فقضي علي الحياة السياسة وأطاح بمعارضيه
- أعتقد أن هذا لا يقل خطورة عن باقي الأخطاء التي وقع فيها ، حتي أن الشعب المصري قد فقد الكثير من ثقافة الديمقراطية مع الزمن ، فلم يتمكن من ممارستها بعد ذلك بشكل صحيح عندما أتيحت له الفرصة ، فكيف استطاع جمال عبد الناصر تدمير الحياة السياسية في مصر ؟

أحوال أصحاب الرأي في عصر عبد الناصر

- إذا تحدثنا عن أصحاب الرأي أو إن شئت فقل سجناء الرأي في عهد عبد الناصر فحدث ولا حرج ، ويمكن أن نستعرض معاً نماذج أو أمثلة علي علاقة عبد الناصر بأصحاب الرأي من سياسيين وصحفيين ، ولنبدأ بذكر ما كتبه الكاتب الصحفي الشهير أنيس منصور رحمه الله شارحاً مهام الرقيب علي الصحف في عصر عبد الناصر ويروي موقف حدث في أحد اللقاءات التي جمعت عبد الناصر بالصحفيين حيث كتب ما يلي : (لا أزال أقول "عندنا" في أخبار اليوم –رغم أنني تركت العمل بها من عشر سنوات رئيسا لدار المعارف ومجلة أكتوبر– ولكن لأنني أمضيت بها ٢٤ عاماً محرراً وعضو مجلس إدارة ورئيساً لتحرير مجلات : الجيل وهي وآخر ساعة ، فلم تنقطع صلتي العاطفية بها والعاملين فيها ، فعندنا في أخبار اليوم رأينا عجائب المخلوقات وغرائب العادات بعد تأميم الصحافة سنة ١٩٦١ ، رأينا الوزراء والمديرين والسكرتيرين والسعاة لهم القدرة جميعاً علي عمل أي شئ لأي أحد في أي وقت ، يكفي أن نتذكر أن أحد رجال الأمن بدرجة صول كان يستطيع أن يحذف ويضيف لأي مقال لأي كاتب ابتداء من الأستاذ محمد التابعي وانتهاء بصحفي تخرج لتوه في الجامعة ، حدث وقراره نهائي ، وفي أخبار اليوم من عايش هذه الفترة السوداء في تاريخ الصحافة في مصر . وجاء أخبار اليوم عن طريق المخابرات صحفيون أجانب يعلموننا كيف نحب مصر ونحتقر أنفسنا ، ونكره الصحافة ، وتهون علينا أخبار اليوم وكرامة الإنسان ، لا يعرف الصحفيون الشبان من هو "الرقيب" ولا يعرفون بالضبط ما هي مهمة هذا الرقيب ، وقد اختلفت التعريفات لهذا الموظف سيئ السمعة ، فهو شخص غلبان يجئ غالباً من وزارة التموين ، ليضاعف دخله ، أي إنها خدمة له ، ويجلس في صالة التحرير وتتكدس عنده كل مواد التحرير : إعلانات ووفيات وأخبار وموضوعات وصور ومقالات ، يقرأ ويحذف ويصحح ويقرأ ويحذف ، ولا يقبل المناقشة ، فإذا ناقشناه وطال النقاش هدد بمنع الصحيفة من الصدور . ويملك ذلك ، فهو "غربال" واسع الفتحات وأحياناً ضيق الفتحات ، وأحياناً غربال مسدود يرفض السماح بأي شئ .. وهي قصة طويلة ، ولابد أن تشغل من تاريخ الصحافة فصولاً كثيرة ، وضحايا أكثر ، أما علاقته بوزارة التأمين –فالله أعلم– ربما كان الشبه هو أن الصحفيين باعة سريحة ، أو أنه لا فرق بين الطماطم والمقالات ، وبين النقاشات والنداء الصارخ علي الخيار والباذنجان ، أو أنه إهانة للصحفيين : فمن يظنون أنفسهم ؟ فأي موظف جاهل بالقراءة والكتابة في استطاعته أن

يمسح بهم بلاط صاحبة الجلالة –الصحافة– إن كانت لها جلالة ،، ويوم اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر برؤساء تحرير الصحف ، ذهبنا وجلسنا نتواري بعضنا في بعض كأننا مجموعة من المجرمين ، وجريمتنا أننا نرفض الهوان ولكن لا نملك أن ندفعه عنا ، ومن الذي يملك أو يجاهر بذلك ؟ لقد كان الهمس أعلي درجات الثورة ، وكان الدعاء إلي الله أن تنفتح الأرض وتبتلع السيد الرئيس والذين حوله من زبانية الحكم والثورة ، وسَأَلَنا الرئيس عبد الناصر إن كنا نضيق بالرقابة فهو علي استعداد لأن يرفعها فوراً –أي إن كنا لا نحب الرقابة فلنكن نحن الرقباء ، نحذف ونترك ما نريد –أي نروح في داهية ، وتكون الداهية من اللون والحجم الذي يعجبنا ، لأنه لا تعليمات لدينا ، ولا نعرف ماذا يريد أو ماذا لا يريد . وتعالت الأصوات : ربنا يخليك يا ريس دع الرقابة والرقيب ، وأسعده أن يري التوسل في عيون رؤساء التحرير ، وضايقه أنهم كشفوا المقلب الذي دبره لهم ، فأعاد علينا إن كنا نريد الرقابة أو لا نريدها ، وكان الجواب : بل نريدها ونموت في سبيلها –)[٨٨٥]

- إنه أمر عجيب بالفعل ، فماذا كتب أيضاً الأستاذ أنيس منصور ؟
- لقد كتب في موضع أخر من نفس الكتاب موقف فصله من العمل بسبب أحد مقالاته ، فقال (–وفي ذلك الوقت كان الرئيس جمال عبد الناصر يعتز بعبارة مشهورة له وهي : إن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا ،، أي أنها اشتراكية جديدة ، لا هي روسية ولا هي صينية ولا هي أمريكية ولا هي يوغسلافية ، وبحثت أنا في قاموس العلوم السياسية ، ودائرة معارف العلوم الاجتماعية بحثاً عن حرف النون الموجود في كلمة "اشتراكيتنا" أو في "نابعة" أو في "ذاتنا" فلم أجد لهذه الاشتراكية أي وجود ، ولكن مادام الرئيس قد قال إنها نابعة من ذاتنا ، فمن الواجب أن تكون كذلك ، وأن تكون أخبار اليوم إحدي محطات التشويش علي الاشتراكية : انظر ماذا نشرت مجلة الجيل وماذا نشرت الأخبار في صفحاتها الأولي ، إذن هي نابعة من ذاتنا مثل العرق والسعال وأشياء أخري ، خرجت منا ويجب أن نيسر لها الخروج إلي الوجود – هذا قرار وواجب خبراء الماركسية الذين تسلطنوا في أخبار اليوم أن يشيعوا هذه المعاني في الشعب – فلا أفلح ولا أفلحوا ، في هذا الجو المريب الرهيب في أخبار اليوم عشنا لا نعرف لنا رأساً ولا قدماً ولا طريقاً ولا هدفاً ، ولكن كان لدينا شعور مؤكد أننا وحدنا القادرون علي أن نعمل فتبقي صحف أخبار اليوم علي قيد الحياة .. أي أننا أصحاب التجربة والخبرة والموهبة ، أما هؤلاء التتار من وزراء ومديرين فمثل كل الغزاة الذين دخلوا مصر ولم يخرجوا ، فكما كانت مصر مقبرة الغزاة فأخبار اليوم أيضاً ،، دعاني أو استدعاني السيد علي إسماعيل الإمبابي ، مدير مكتب الوزير كمال رفعت المشرف علي أخبار اليوم . وهذا الاستدعاء حدث مرموق ، يرويه عامل الأسانسير والساعي الواقف أمام مكتبي وأمام مكتبه ، وفرصة ليعرف العاملون في أخبار اليوم نوع اللقاء من النظر إلي

---

[٨٨٥] نقلاً عن كتاب –عبد الناصر المُفترَي عليه والمُفترِي علينا–وخطاب مصطفي أمين إلي الرئيس عبد الناصر–أنيس منصور–نهضة مصر للطباعة والنشر–صفحة١٦

وجهي ذهاباً وأياباً ، وأكون أو يجب أن أكون ضاحكاً ، لأعطي انطباعاً أنه لقاء ودي وأن نتائجه مثمرة ، وقد ناقشنا الأوضاع بكل تفاصيلها ، وأن نتائج هذا اللقاء سوف سوف تظهر قريباً ، –كما يقول وزراء الخارجية عادةً– ويكون كلامهم لا معني له لأنه كليشيه واحد يجئ قبل وبعد أي لقاء من هذا النوع ، -----وتكلمنا في كل شئ .. في تخلف كل الصحف وتقدم صحف أخبار اليوم ، وفي لعن أجداد المحررين المنافقين الذين ينقلون إليه أخبار السخط والغضب في صحف أخبار اليوم ، وينقلون إليه ما قاله مصطفي أمين وعلي أمين وغيرهما ------وقبل أن أبدي دهشتي أو أناقش أو أعترض يكون كلام السيد علي اسماعيل الإمبابي : طبيعي أن تغضب لما أصاب الدار .. لكننا لسنا بهذا السوء ولا بهذا الجهل ، ثم أننا ننفذ الأوامر الصادرة إلينا ، لا رأي لنا في شئ ، افعل هذا .. تمام يا فندم .. فقط .. فنحن عبد المأمور .. ----------وشربت اليانسون وشكرته ومددت يدي أصافحه ، فوقف لتحيتي وقبل أن أغادر المكتب –قال لي : علي البيت ، تخرج من هنا إلي البيت .. فقد صدر قرار بوقفك عن العمل .. ولا أعرف لماذا ؟ كان ذلك يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٦١ . --------ويعد ذلك عرفت السبب فقد كتبت مقالاً بعنوان : "حمار الشيخ عبد السلام" وفي المقال غمز ولمز وإيماءات وإسقاطات واضحة ، فقد كانت صورة لأعماقي الغاضبة الساخطة علي الذي أصابنا جميعاً ..)[٨٨٦]

- ولكن ألم يذكر أنيس منصور شيئاً في كتابه عن مفهوم الناصرية في ذلك الوقت ؟
- لقد أشار إليها إشارة غامضة في مقدمة الكتاب أثناء تعليقه السريع علي العدوان الثلاثي وهزيمة حرب ١٩٦٧[٨٨٧] بعد حديثه وانفصال الوحدة مع سوريا: (---وكما أن الخطوات أطوال وسرعات . فكذلك حروبه انتصارات بدرجات متفاوتة وكانت الثورة انتصاراً له ولزملائه .. انتصاراً كبيراً له وصغيراً لزملائه ، والعدوان الثلاثي كان انتصاراً شخصياً له .. فالعدوان الثلاثي لم يستهدف جيش مصر ولا شعب مصر

---

[٨٨٦] نقلاً عن كتاب –عبد الناصر المُفترَي عليه والمُفترِي علينا–وخطاب مصطفي أمين إلي الرئيس عبد الناصر–أنيس منصور–نهضة مصر للطباعة والنشر–صفحة١٩

٨٨٧ حرب ١٩٦٧ وتُعرف أيضاً في كل من سوريا والأردن باسم نكسة حزيران وفي مصر باسم نكسة ٦٧ وتسمى في إسرائيل حرب الأيام الستة ، هي الحرب التي نشبت بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن بين 5 حزيران/يونيو ١٩٦٧ والعاشر من الشهر نفسه، وأدت إلى احتلال إسرائيل لسيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والجولان وتعتبر ثالث حرب ضمن الصراع العربي الإسرائيلي وقد أدت الحرب لمقتل ١٥,٠٠٠ – ٢٥,٠٠٠٠ شخص في الدول العربية مقابل ٨٠٠ في إسرائيل، وتدمير ٧٠ – ٨٠% من العتاد الحربي في الدول العربية مقابل ٢ – ٥٥% في إسرائيل، إلى جانب تفاوت مشابه في عدد الجرحى والأسرى كما كان من نتائجها صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وانعقاد قمة اللاءات الثلاثة العربيّة في الخرطوم وتهجير معظم سكان مدن قناة السويس وكذلك تهجير معظم مدنيي محافظة القنيطرة في سوريا، وتهجير عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الضفة بما فيها محو قرى بأكملها، وفتح باب الاستيطان في القدس الشرقية والضفة الغربية. لم تنته تبعات حرب ١٩٦٧ حتى اليوم، إذ لا تَزال إسرائيل تحتلّ الضفة الغربية، كما أنها قامت بضم القدس والجولان لحدودها، وكان من تبعاتها أيضًا نشوب حرب أكتوبر عام1973 وفصل الضفة الغربيّة عن السيادة الأردنيّة، وقبول العرب منذ مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ بمبدأ «الأرض مقابل السلام» الذي ينصّ على العودة لما قبل حدود الحرب لقاء اعتراف العرب بإسرائيل، ومسالمتهم إياها رغم أن دول عربيّة عديدة باتت تقيم علاقات منفردة مع إسرائيل سياسيّة أو اقتصادية. – نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا

، وإنما زعيم مصر .. وإيه يعني الجيش المصري نعمل غيره –كلمات الرئيس عبد الناصر– وإيه يعني الشعب المصري .. ماهو علي قفا من يشيل –كلمات الرئيس عبد الناصر– ولكن هو شخصياً المقصود بالعدوان الثلاثي –كلمات شيخ مشايخ الطرق الناصرية– فماذا حدث؟ لم يحدث شئ ، فالرئيس ظل حياً يرزق بعد العدوان الثلاثي .. والنطام قائم علي أربع .. وهزيمة ١٩٦٧ ، لم تكن هزيمة ، وإنما هي "وعكة" عسكرية .. عطس أو زكام .. سعال ديكي خفيف .. وبقي الرئيس جمال عبد الناصر .. وجاءت الجماهير تطالب بعودته وفداك ألف جيش وجيش يا ريس ، وراحت الجماهير التي ساقها النظام تبوس القدم وتبدي الندم علي غلطتها في حق زعيم الغنم ، أما ممثلو الغنم فهم يرقصون ويطبلون في مجلس الشعب ... هذه النوعية من التراتيل الكهنوتية التي يرددها مشايخ الطرق الناصرية استفزازية ، لأنها إهانة للإنسان وتجاهل لويلات ملايين المصريين والعرب ، وصفعات وركلات لنصف مليون جندي ، كانوا يلحسون الرمال ، ويعتصرون الماء من علب الصفيح بحثاً عن قطرة ماء . ومئات الألوف من الضحايا ذهبوا في "نزهة عسكرية" ولم يعودوا ، لقد ماتوا بحسرتهم ، وعاش بغيظهم : آباء وأمهات وزوجات وأولاد وبنات ، وعندما أفاق المدنيون والعسكريون من هول المصيبة تساءلوا : من فعلها ؟ من ارتكبها ؟ من أجرم ؟ من خان ؟ من ضرب مصر كلها ؟ لم يجدوا البطل صاحب القرار . وإنما سمعوا من يقول علي لسانه : وهو ماله ؟ أمال مين ؟ بطولة من ؟ ، سمعوه يقول : لست أنا وإنما هو ؟ ومن هو ؟ ... المشير عبد الحكيم عامر الذي صوروه غائباً عن الوعي .. فغاب الجيش كله .. وضاع الطريق إلي الحدود المصرية .. وقالوا احتقاراً لشأن عبد الحكيم عامر ، ليس هو .. بل هناك طراز من القادة من نوعية عبد الحكيم عامر .. مائة .. ألف .. عشرة آلاف .. الجيش كله .. المهم إنه ليس هو الذي فعل .. إنما هو مظلوم فقد اعتدي عبد الحكيم عامر علي قداسته ، ولكن ما السبب ؟ . إنها الصداقة ، الرئيس وثق في المشير إلي أقصي درجة .. أعطاه مفتاح مصر .. فأضاع مصر .. لماذا ؟ لأن الرئيس لو كان هو الذي في يده مفتاح كل شئ ، لانتصرنا في كل الجبهات .. ولدخلنا القدس صباحاً وتل أبيب ظهراً ، وتوقف القتال ليلاً : فقد انتحر اليهود في البحر ... ولكن عبد الحكيم عامر قد خان الأمانة وفضح قداسة الزعيم فحقت عليه اللعنة حياً وميتاً ، والسبب الثاني : أن هناك قضايا كثيرة لم نصل فيها إلي حل ––––قضايا الحرب –كل قضايا الاشتراكية –––قضايا اليمن –––والوحدة –مع سوريا– ثم الانفصال–––وإدارة طواحين الهواء في الميكرفون وعلي الشاشة وفي الصحف وتخبط الاجتهادات ––– ثم جاءت الهزيمة العسكرية ،–– آه لو اعترف أحد بالهزيمة وأخطائها .. آه لو قال أحد : أخطأ الرئيس خطأ فادحاً ويطلب الصفح والعفو ، ولكن أحداً لم يقل ، وإنما دراويش الناصرية –التي لم يعرف أحد ما هي بالضبط – يؤكدون أن ١٩٦٧ كانت النصر، وإن الضحايا قد تشرفوا بذلك .. وعلي آبائهم وأبنائهم أن يرقصوا فرحاً –)[٨٨٨]

---

[٨٨٨] نقلاً عن كتاب –عبد الناصر المُفترَى عليه والمُفترِي علينا–وخطاب مصطفي أمين إلي الرئيس عبد الناصر–أنيس منصور–

- الناصرية هي أن يكون الزعيم ليس فقط هو مصر بل أهم من مصر ، سبحان الله
- ما ذكرته كان مقتطفات فقط مما كتبه الأستاذ أنيس منصور لعدم الإطالة ولقد كتب كلام أكثر من ذلك بكثير ويمكنك مراجعة الكتاب إن شئت
- حسناً فهل هناك من كتب أيضاً عن سجناء الرأي في عصر عبد الناصر ؟
- سأقرأ لك ما كتبه أحد هؤلاء السجناء ، والطريف أنه كان من أكثر المعجبين بجمال عبد الناصر ، ولكنه دخل السجن نتيجة لسوء تفاهم أو خطأ في تقدير الموقف
- ومن يكون هذا السجين الذي سيشترك معنا في الحوار ؟ وكيف حدث هذا الخطأ ؟
- إنه الكاتب الصحفي الساخر الشهير محمود السعدني رحمه الله ، والخطأ حدث عندما قرر عبد الناصر اعتقال جميع الشيوعيين في مصر كما حدث مع الإخوان المسلمين ، وبالطبع لم يكن الأستاذ السعدني من الشيوعيين ولا من الإخوان المسلمين ، ولكن تم اعتقاله عن طريق الخطأ وبقرار جمهوري ، وسأتركه يروي لك ما حدث بنفسه بأسلوبه الممتع الذي يتسم بخفة الظل حتي في أحلك الأوقات داخل المعتقل كما ستري ، حيث روي القصة كالآتي : (وهكذا بدأت رحلة الضني والعذاب .. وأصل الحكاية أن العبد لله[٨٨٩] كان في دمشق في شتاء عام ١٩٥٧ ، وكانت دمشق وقتئذ واحة الديمقراطية والحرية وحلبة الآراء المتصارعة في العالم العربي ، كان فيها الحزب الشيوعي السوري برئاسة بكداش[٨٩٠] ، هو الحزب الشيوعي العربي الوحيد المعترف به في الكرملين[٨٩١] --- في تلك الأثناء كان زعماء الحزب الشيوعي العراقي يعيشون في دمشق هربا من جحيم نوري السعيد[٨٩٢] ، وقدر للعبد لله أن يجتمع بهم عدة مرات مع سياسي مصري توفاه الله هو المرحوم الدكتور فؤاد جلال وكان رجلاً من أخيار الناس

نهضة مصر للطباعة والنشر –صفحة ٨

[٨٨٩] يقصد نفسه ، وهو تعبير شائع في ذلك الوقت عندما يتحدث شخص عن نفسه يقول العبد لله

٨٩٠ خالد بكداش ٢٤ تموز ١٩١٢ –١٩٩٥ ، سياسي سوري ولد لأبوين كرديين، انتسب إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٣٠ على يد فوزي الزعيم 1931 .كان مسؤول الحزب في دمشق وفي عام ١٩٣٣ سمي الأمين العام للحزب الشيوعي السوري اللبناني. وهو أول نائب وبرلماني شيوعي عربي، ومؤسس جريدة صوت الشعب عام .1937 وهو أول من ترجم بيان الحزب الشيوعي للعربية .بقي أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري حتى وفاته، وكان أحد أعضاء الجبهة الوطنية التقدمية السورية. وبقي صامداً على النهج الماركسي اللينيني حتى وفاته رغم الأزمات التي تعرض لها الحزب الشيوعي السوري وخصوصاً تميزه بموقف رافض للبيروسترويكا التي أسسها غورباتشوف في الإتحاد السوفيتي السابق. كما رفض حل الحزب في فترة خراتشوف الذي حاول طرح نظرية التخلي عن الحزب الشيوعي ودمجه بحزب البعث، وكان يعتبر من أبرز الشخصياتالشيوعية العربية وقد سمي بعميد الشيوعيين العرب. نقلاً عن ويكيبيديا

٨٩١ الكرملين) بالروسية (Кремль: كلمة روسية معناها القلعة أو الحصن وتطلق هذة الكلمة اليوم علي مركز موسكو القديم بمبانيه وهو محاط بجدار ضخم طوله ميلان ونصف وارتفاعه ٦٥٥ قدما، ويضم الكرملين عدة قصور فاخرة كانت قديما ملكا للقيصر ورجاله قبل أن تتحول إلى متاحف. يقع الكرملين موسكو على تل "بوروفيتسكي" وذلك على الطرف الأيسر لنهر موسكوفا حيث يصب فيه نهر نيغلينايا. ويبلغ ارتفاعا نحو ٢٥ مترا. نقلاً عن ويكيبيديا – وكان الكرملين الرمز الأول للشيوعية في العالم كله قبل أن ينهار الاتحاد السوفييتي ويتفكك سنة ١٩٩٠

٨٩٢ نوري باشا السعيد(1958 - 1888) ، سياسي عراقي شغل منصب رئاسة الوزراء في المملكة العراقية 14 مرة من وزارة 23 مارس 1930 إلى وزارة 1 مايو .1958 كان نوري السعيد ولم يزل شخصية سياسية كَثُر الجدل حولها ولقد اختلفت الآراء عنه. ولقد اضطر إلى الهروب مرتين من العراق بسبب انقلابات حيكت ضده. ولد في بغداد وتخرج من المدرسة الحربية في إسطنبول، حيث خدم في الجيش العثماني وساهم في الثورة العربية وانضم إلى الأمير فيصل في سوريا، وبعد فشل تأسيس مملكة الأمير فيصل فيسوريا على يد الجيش الفرنسي، عاد إلى العراق وساهم في تأسيس المملكة العراقية والجيش العراقي. نقلاً عن ويكيبيديا

وكان أول وزير للإرشاد في حكومة الثورة----- و-لأن الشيوعيين العرب كانت لديهم هواية التحليل فقد حللوا مسألة العبد لله ، خرجو بنتيجة تقول : إنني من كبار المسئولين في مصر ----فوجئت بالأستاذ عامر عبد الله والأستاذ عزيز شريف والدكتور صفاء وهم من قادة الشيوعيين العراقيين المقيمين في دمشق يتصلون بالعبد لله ويدعونني إلي سهرة سياسية في منزل أحدهم ، ولأن العبد لله هلهلي وعلي بركة الكريم فقد تصورت أنها دعوة للسهر والسمر فلبيت الدعوة وبالفعل قضيت سهرة ممتعة-----وفي نهاية السهرة قال لي عزيز شريف : نريد منك طلباً ونرجو أن نجد استجابة لديك ، وتصورت أنهم يريدون اقتراض بعض النقود ، أو شيئاً اشتريه لهم من القاهرة ، فقلت سأفعل علي قدر ما أستطيع ، ولكني فوجئت به يُخرج مظروفاً كبيراً وقال لي في هذا المظروف رسالة ونريد توصيلها للرئيس عبد الناصر ، وفي براءة منقطعة النظير قلت لعزيز شريف : إذن سأسلمها في الصباح للسفير محمود رياض ، ورد عامر عبد الله : نحن نعرف محمود رياض ونتصل به دائماً ولو أردنا توصيلها عن طريقه لفعلنا ، ولكن اخترناك أنت لأننا ندرك ونعلم أنك تستطيع أن تفعل ذلك فلا تقع الرسالة في يد إنسان آخر ، لأن الهدف أن يسمع عبد الناصر صوتنا وأن تصل الرسالة إليه ، وببراءة أشد قلت : ولكني لا أعرف عبد الناصر ولم أقابله من قبل ، وارتسمت ابتسامة علي شفاه الجميع ، لقد تصوروا أنني باعتباري من كبار المسئولين لا ينبغي لمثلي أن يكشف سره ، ---ولما ابتسموا عملت بنصيحة عمنا المتنبي فابتسمت أنا الآخر : " وَلمّا صَارَ وُدّ النّاسِ خِبّاً جَزَيْتُ على ابْتِسامٍ بابْتِسَامِ " وانتهت السهرة علي خير ما يرام وذهبت إلي الفندق وقد نسيت الأمر كله ، ولكن الرسالة لا تزال في جيبي ومرت ثلاثة أيام وإذا بالعبد لله يتلقي برقية من جريدة الجمهورية تدعوني للعودة بسرعة إلي القاهرة ، وتصورت أن هذه البرقية نتيجة منافسة بين بعض الزملاء في الجريدة وان البعض يريد ايفاد أحد غيري لينقل للجريدة أخبار دمشق ، ولذلك قرأت البرقية وصهينت ، ولكني تلقيت برقية بعدها بيومين تدعوني للعودة ثانياً وبعد فترة أصبحت عادة أن استيقظ كل يوم من النوم فأتلقي مع الإفطار برقية من القاهرة تدعوني إلي العودة-----وبعد اسبوعين من تسلمي رسالة الحزب الشيوعي العراقي وصلت إلي القاهرة ، وكان أول من التقيت به هو السيد أنور السادات رئيس تحرير الجمهورية وقتئذ وهو المسئول الوحيد من رجال الثورة الذي أعرفه ، كما أنه رئيسي المباشر ، وأخبرته بالرسالة التي في جيبي ، وسلمته الرسالة وعندما وجدها مغلقة لم يحاول فتحها ، ولكنه اتصل تليفونيا بجهة مجهولة وطلب منها ايفاد مندوب لتسلم الرسالة التي جاء بها السعدني من دمشق ،

- يبدو أنه قد تورط في موقف خطير أدي إلي اعتقاله ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ فهي قصة مثيرة للغاية ؟
- وبعد دقائق قليلة حضر رجل دخل الغرفة وسلم علي رئيس التحرير وصافح العبد لله أيضاً ثم تسلم الرسالة ومضي ، وجلست مع الرئيس أنور السادات يرحمه الله أحكي له عما شاهدته في دمشق وعن آخر التطورات هناك ، ثم قال لي وأنا أغادر مكتبه : يلا بقي روح استلم شغلك وعاوزك تشد حيلك ،

وقضيت شهر ابريل كله أشد حيلي ---وكما تصور الشيوعيون العراقيون الذين يقيمون في دمشق أنني من كبار المسئولين في مصر ، تصورت الأجهزة في مصر أنني من كبار الشيوعيين في العالم العربي ، وإلا فلماذا اختارني الحزب الشيوعي العراقي دون بقية خلق الله لكي أحمل الرسالة وأذهب بها إلي الرئيس عبد الناصر ---وفي أول شهر مايو ذهبت إلي خزينة جريدة الجمهورية لتسلم المرتب ، ولكن مسئول الخزينة الطيب انتحي بي جانباً وراح يعتذر للعبد لله عما حدث ، ولم أكن قد فهمت بعد ما هو الذي حدث ، ثم قدم لي ورقة لكي أوقع عليها ، ثم قدم لي خطاباً فإذا به فصل من الجريدة ، – ---فسألت رئيس الخزينة ، هل هناك كثيرون ؟ قال : حوالي ٦٠ شخصاً ----وبعد شهر من فصلي اتصل بي الأستاذ كامل الشناوي وطلب مني الذهاب إلي الأستاذ إحسان عبد القدوس في روز اليوسف ، فذهبت وعرض علي العمل كسكرتير تحرير لروز اليوسف فوافقت علي الفور ، --وتصورت أن الحياة صفت للعبد لله ولم أكن أدرك أن المصائب الحقيقية لم تبدأ بعد ، وهي مصائب ونوائب وكوارث كسرت ظهري ولونت حياتي بعد ذلك بلون الهباب –)[٨٩٣]

- بالطبع يقصد الاعتقال
- بالتأكيد ، فقد تم اعتقاله مع مجموعة كبيرة من الشيوعيين وبدأ الاعتقال في سجن القلعة ثم تم ترحيله بعد ذلك لأكثر من معتقل في الفيوم والواحات
- فما هو أصعب يوم مر عليه في هذه المعتقلات ؟
- لقد كان الأستاذ السعدني يسخر من المواقف التي تمر بها ويمكن أن يضحك حتي في أصعب الظروف فهو يتكيف مع الأحوال كما يبدو في كتابه ، وهناك موقف قد اندهشت كثيراً عندما ذكر أنه ضحك فيه ، وهو موقف كان المعتقلين عراة تماماً وفي وضع السجود طبقاً للأوامر التي صدرت إليهم ، وإليك بعض ما كتبه باختصار شديد : (----ومر الشاويش -- علي جموع الساجدين في خشوع ومؤخراتهم في مواجهة الباشا[٨٩٤] همت ، وراح يوزع ضرباته بالشومة علي رؤوس وظهور ومؤخرات المعتقلين بوحشية وبضراوة ، بينما كان الباشا همت يقهقه عالياً ، وزيادة في جلب السرور علي قلب الباشا ، اختاروا بعض المعتقلين وربطوهم علي العروسة وجلدوهم بلا رحمة وكان الجلد يتوقف اذا فقد المعتقل وعيه ، عندئذ يفكون وثاقه ويرشونه بعدة جرادل من الماء
- أعتقد أن هذا النوع من رجال الأمن الذين يقومون بتعذيب المعتقلين بوحشية يتم اختيارهم بأسلوب خاص فلا يمكن أن يقوم إنسان عادي بالاستمتاع بهذه المشاهد ، ولكن علي أي شئ ضحك الأستاذ السعدني وسط كل هذا ؟

---

[٨٩٣] نقلاً باختصار عن كتاب –الطريق إلي زمش– بقلم محمود السعدني– من سلسلة كتاب اليوم التي تصدر عن أخبار اليوم–مقتطفات من بداية الكتاب – وكلمة زمش عبارة عن أربعة حروف ز م ش ومقصود بها (زي ما انت شايف) وقد اعتقد بعض رجال الأمن أنه تنظيم سري علي عكس الحقيقة

[٨٩٤] لقب باشا هنا للسخرية فقط من الأوضاع وليس لقب حقيقي للضابط المشرف علي التعذيب

- وبعد أن نال الباشا كفايته من اللذة والسرور ، وزعوا علينا بدل السجن ، وهي بدل من باب الدلع ، بنطلون وقميص من الدمور المصبوغ بالنيلة ، واكتشفنا أنها مستعملة وأنها ممزقة لا تستر عورة ولا تحمي من تقلبات الجو ، وعدنا عرايا إلي العنبر نحمل هلايلنا بين أيدينا ، وعندما ألقيت نظرة علي القطيع البائس وهو يقطع فناء السجن ، انتابتني نوبة ضحك لم استطع مقاومتها ، كان بينهم المحامي والصحفي والمهندس والطبيب والكاتب والأديب والمثقف والمفكر والعامل النقابي الذي يقود الألوف ، وهزني منظر معتقل طويل كلوح الخشب ، كان يدب علي الأرض في خيلاء وقد قبض علي بدلة السجن باصابعه ، ------وكان يعمل مدرساً إلزامياً علي ما اعتقد ، ولكنه كان يشغل منصباً هاماً داخل سجن الواحات ، فقد كان مسئول المنطقة وهو الذي يقود الحزب الشيوعي المصري داخل سجن الواحات –وكان شديد البراعة في علم الحنجوري ، وكان يحفظ المنافستو كما يحفظ الطالب الأزهري النشيط ألفية ابن مالك ، ولكن خارج هذه الدائرة كان يبدو قليل الحيلة ، فلم يسبق له في حياته قراءة كتاب خارج نطاق الكتب الشيوعية وكان لا يقرأ الجرائد ، لأنها لسان حال البرجوازية والامبريالية والكمبرادوية ويفضل عليها قراءة المنشورات خصوصاً المنشورات المكتوبة علي ورق بفرة ، كان منظره وهو يمشي في فناء السجن مشية الأوزة وقد أمسك بملابسه بيده ، بينما هو نفسه يمضي زلط ملط كما ولدته أمه منظراً ينتزع الضحك---لقد كان يقوم بدور ستالين[٨٩٥] الواحات ، وكان يحلم أن يكون ستالين مصر كلها يوماً ما ، ولقد تحققت أحلامه كلها بعد ذلك ، فأصبح ستالين مصر أخيراً ، ولكن بعد أن أفلس الحزب الشيوعي السوفييتي وانهارت الأحزاب الشيوعية الورقية في شرق أوروبا ، واضطرت الأحزاب الشيوعية الأوروبية إلي التبرؤ من تهمة الشيوعية ، وكانت قمة المأساة عندما حل الحزب الشيوعي البريطاني نفسه وهجر السياسة الي الابد واختفي عن الأنظار --)[٨٩٦]
- حسناً ، كانت هذه نماذج لما حدث في العصر الناصري لأصحاب الرأي والسياسيين والصحفيين وغيرهم من المعارضين لسياسات عبد الناصر ، ولكنني أريد أن أسألك سؤال بسيط ومباشر حتي نحسم هذا الأمر علي الأقل بالنسبة لي
- فما هو السؤال ؟
- هل كان جمال عبد الناصر متدينا أم علمانيا ؟

---

٨٩٥ جوزيف فيساريونوفيتش ستالين ١٨٧٨ – ١٩٥٣ كان القائد الثاني للاتحاد السوفييتي، فحكم من منتصف عشرينيات القرن العشرين حتى وفاته عام ١٩٥٣ وهو من إثنية جورجية، وشغل منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢، ومنصب رئيس مجلس الدولة من ١٩٤١ حتى ١٩٥٣. ترأس في بادئ الأمر حكومة جماعية قائمة على نظام الحزب الواحد وأصبح بحلول ثلاثينيات القرن العشرين دكتاتوراً بحكم الأمر الواقع .يتبع ستالين أيديولوجياً للتفسير اللينيني .وأسهم ستالين في وضع أفكار الماركسية اللينينية ويُطلق على مجموع السياسات التي انتهجها" الستالينية." عُرف بسلطويته وقسوته إلى درجة أنه أطلقت عليه ألقاب مثل "الرجل الحديدي"، حيث أدت سياساته الاستبدادية إلى قتل الملايين من مواطنيه، وفي المقابل قام بنقل الاتحاد السوفييتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي، مما مكن الاتحاد السوفييتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية والصعود إلى مرتبة القوى العظمى التي نافست الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة والتي انتهت بفوز الأمريكيين وإلى انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١.نقلاً عن ويكيبيديا

[٨٩٦] نقلاً باختصار عن كتاب –الطريق إلي زمش– بقلم محمود السعدني– من سلسلة كتاب اليوم التي تصدر عن أخبار اليوم –صفحة ٩٢

- أعتقد أن الله وحده سبحانه وتعالي هو الذي سيحاسب الخلق وليس لنا أن نحاسب أحد
- أنا لم أقصد بسؤالي أن نحاسب أحد ، ولكننا بصدد دراسة وبحث عن مراحل تطور الشخصية المصرية عبر العصور التاريخية حتي وصلت إلي ما هي عليه الآن ، ولا شك أن فترة حكم عبد الناصر كانت من أكثر الفترات تأثيراً علي عقل الإنسان المصري ، وبما أن عبد الناصر كما اجتمعت الآراء قد انفرد بالسلطة وسيطر علي كل شئ في الدولة وخاصة الإعلام والفن فقد ساهم في تشكيل الشخصية المصرية طبقاً لتصوره الشخصي الذي يقتنع به ، فإذا فهمنا تصور عبد الناصر للدين والحياة سيتيسر لنا فهم ما أحدثه من تغيير في الشخصية المصرية ، وإنني أعتقد أيضاً أن المصريين قد تقبلوا من عبد الناصر ما لم يتقبلوه من قبل ، فمثلاً لعلك لاحظت معي أن المسلمين في مصر تقبلوا من محمد علي كحاكم مسلم ما لم يتقبلوه من نابليون ، ثم تقبلوا من أولاد محمد علي بعد ذلك بمساعدة الاحتلال ما لم يتقبلوه أيام محمدعلي نفسه وهكذا تدرجت درجة القبول للأفكار الجديدة علي المجتمع بما يتناسب مع قرب الحاكم من الشعب ومدي ثقته به ، فما بالك بحاكم مسلم مصري وطني جاء بعد عصر اتسم بالفساد والاستعمار
- في الواقع إن جيلنا لم يعاصر حكم جمال عبد الناصر ولكنه شاهد الكثير من الأعمال الفنية التي تم إنتاجها في تلك الفترة وهي بالكامل تقريباً سواء كانت مسرحية أو سينمائية أو تليفزيونية ، معظم النساء فيها غير محجبات وعاريات الأكتاف والأظهر ، وقد استمر هذا الوضع حتي أصبح مألوفاً للكثير من الناس فيتم تركيزهم علي قصة العمل الفني نفسه دون الالتفات لما أصاب فطرتهم وثوابتهم من تغير كما يقوم أبطال هذه الأعمال أحياناً في بعض المشاهد باحتساء الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من المحرمات ، وقد قام العديد من الرجال والنساء في مصر بتقليد هؤلاء الممثلين في ما يرتدونه من ملابس ؛ حتي أنك نادراً ما تجد أي إمرأة محجبة بين جمهور أي حفلة من الحفلات الفنية التي كانت تذاع في ذلك الوقت ، وكأن مصر لم تكن يوماً بها إمرأة واحدة محجبة
- بالفعل فقد كان جميع رجال مصر ملتحين وجميع نساء مصر محجبات ويضعن البراقع علي وجوههن حتي عصر اسماعيل ثم تراجع ذلك تدريجياً بعد ثورة سنة ١٩١٩ ثم انحدر الوضع في ظل الاحتلال حتي جاء العصر الناصري الذي تحول فيه الممثل إلي نجم من نجوم المجتمع بعد أن كان يسمي بالمشخصاتي وكانت لا تُقبل شهادته في المحاكم ، كما تلاحظ سخرية هذه الأعمال الفنية من رجال الدين
- المؤسف حقاً أن هناك اليوم من يعتبر أن زمن عبد الناصر هو القاعدة وأن الحجاب هو الاستثناء مع أن زمن عبد الناصر وما بعده كان هو الاستثناء الوحيد في تاريخ مصر الإسلامية

- سيدفعنا ذلك لنتحدث ولو بإيجاز عن علاقة عبد الناصر بالفن والفنانين وعن حجم الإنتاج الفني في ذلك العصر ، فمن الواضح أنه كان يهتم بشكل خاص بالفن ويعتمد عليه بدرجة كبيرة في تحقيق أهدافه
- العجيب أن هناك من يفخر بهذا النوع من الإنتاج الفني الذي يسمح بالاختلاط والتغني بكلمات تثير الغرائز ، بل إن البعض يعتبر التعري للفنانة نوع من أنواع الجرأة فيقولون عنها الفنانة الجريئة ، أو التي قامت بمشهد جرئ ، وترتدي ملابس جريئة وما إلي ذلك ، ولا أدري جرأة علي ماذا ، هل هي جرأة علي تعاليم الدين ، أم جرأة علي قيم المجتمع وثوابته ، وقد انطلق الفنانون بلا شك في العصر الناصري في هذا الاتجاه لأن السلطة قد سمحت بذلك وهو ما اعتبروه حرية إبداع ، فحرية الإبداع التي أتاحها عبد الناصر تسمح بالتحرر من هذه الثوابت والقيم الدينية وتستبدلها بقيم وثوابت الغرب
- فهل هناك إحصائية لحجم الإنتاج الفني في العصر الناصري ؟
- لقد ورد بالفعل عدد الأعمال الفنية في عصر عبد الناصر في أحد المواقع الاكترونية فكانت ٧٠٠ فيلم و ١٥ ألف أغنية عاطفية[٨٩٧] وعدد لا بأس به من الأغاني الوطنية
- وبالطبع تم من خلال هذه الأعمال الفنية نشر الأفكار الأوروبية المتحررة من تعاليم الدين
- الأمر لم يعد يحتاج أفكار من أوروبا ، فلا تنس أنه قد أصبح في مصر مفكرين وأدباء أكثر تأثيراً من الغرب ، وهذه النخبة التي تم انتاجها علي المدي الطويل خلال فترة حكم أسرة محمد علي وبمساعدة البعثات للخارج وتأثير الاحتلال البريطاني ، وكلها عوامل أدت إلي تبني فكر الغرب عن قناعة تامة
- أعتقد أننا تحدثنا عن الرئيس جمال عبد الناصر بما فيه الكفاية بالنسبة لسياق الحديث ، ويمكن أن ننتقل إلي الحديث عن العصر الذي يليه ، وهو عصر الرئيس أنور السادات
- حسناً لقد انتهي عصر عبد الناصر بعد أن أحدث تغييرات ملحوظة في شخصية الإنسان المصري ، وقد انتهي عصره بوفاته بالطبع ، وإن كان هناك من يؤكد أن وفاته كانت غامضة[٨٩٨] ومفاجأة للجميع وكانت يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وقيل أنها بسبب نوبة قلبية
- مات إذن عبد الناصر بعد أن قضي علي القوي السياسية في مصر وترك مصر ولها حدود مختلفة عن حدودها قبل توليه الحكم ، وبني السد العالي وأمم قناة السويس ودفع الجيش إلي حرب غير محسوبة فانهزم ، ولست أستطيع تخيل كيف كان سينتهي عصره إلا بموته ، فقد كان فيما أعتقد سيظل رئيسا لمصر مدي الحياة
- ولا تنسي أيضاً أنه قد مات بعد أن جعل الفن له مكانه غير عادية في نفوس الكثيرين ، وأصبحت الأغاني والشعارات أهم ما يميز سلوكيات المجتمع

---

٨٩٧ نقلاً عن موقع : http://gate.ahram.org.eg/News/1371253.aspx (رابط الموضوع علي شبكة الانترنت)

٨٩٨ ترددت بعض الشائعات بأن الرئيس عبد الناصر قد مات مسموماً وليس بأزمة قلبية ولكن ليس هناك ما يؤكد ذلك

- فهل يمكن أن نلقي الضوء علي مسألة وفاته ولو في إيجاز قبل أن ننتقل للحديث عن عصر الرئيس السادات ؟ فقد سمعت أن جنازته كانت تاريخية وارتدت النساء السواد في معظم أنحاء مصر وانتشر الحزن والبكاء والحداد بين جموع الشعب المصري والعربي وبعض الدول الأخري

وفاة الزعيم جمال عبد الناصر

- لا مانع بالطبع من الحديث عن ذلك ، فوفاته وجنازته تعتبر حدث تاريخي ، ولكي تدرك ما أحدثه خبر وفاته في مصر والعالم سأتلو عليك جزء من مقال بعنوان يوم رحيل الاب بقلم محمد شوقى السيد وقد وجدته في نتائج البحث علي أحد مواقع الانترنت[٨٩٩] حيث ورد ما يلي : خبر وفاة عبد الناصر بالإعلام العربى والعالمى وصورة من بيروت ، أولاً : الصحافة العربية : خرجت جريدة الأهرام القاهرية الثلاثاء ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ وكتبت تحت عنوان كبير "" عبد الناصر فى رحاب الله "" وأعلنت مصر الحداد الرسمى أربعين يوما وتعطيل المصالح والشركات والمدارس والجهات الحكومية ثلاثة أيام واهتمت الصحافة الكويتية اهتمام بالغ بالخبر لأثر وداع الرئيس لسمو أمير الكويت كآخر مسئول يودعه فنشرت "جريدة الرأى العام " بعنوان ""مات جمال عبد الناصر"" مع صورة ضخمة على خمسة أعمدة وهو يودع الشيخ صباح السالم وافتتاحية يشرح فيها توديع الرئيس لأمير الكويت ومشاركته فى مؤتمر القمة العربى ومجهودات الزعيم لحل أزمة ونزيف الدم العربى بين السلطة الأردنية والفلسطينية ، جريدة "الهدف" وهى جريدة أسبوعية عربية نشرت بالعدد رقم ٤٥٨ أول أكتوبر ١٩٧٠ ووضعت عنواناً ""أدفنونى معه "" وهى كلمة وردت على لسان زوجته السيدة تحية مع صورة لجمال عبد الناصر وسط حشود الشعب الكويتى الذى خرج متأثراً وحزيناً وفى الصفحة الأولى بيان الديوان الأميرى الكويتى والنعى الرسمى وأُعلن الحداد أربعين يوما وقرر مجلس الوزراء بتنكيس الأعلام وإغلاق المدارس والمسارح والسينما ثلاثة أيام ، جريدة الأنوار اللبنانية والصادرة ٢٩ سبتمبر كتبت فى الافتتاحية بقلم رئيس التحرير سعيد فريحة مع صورة كبيرة لعبد الناصر بعنوان "" وداعاً يابطل العروبة الخالد" ، جريدة البعث السورى نشرت بعنوان فاجعة الأمة العربية بوفاة الرئيس عبد الناصر وعنوان إعلان الحداد بسوريا أربعين يوماً ، ثانياً : الأعلام العالمى : نقلت وكالة رويترز للأنباء الأخبار التالية أن الآلاف من الناس طافت فى شوارع القاهرة أمس وهى تغنى نشيد بلادى بلادى لك حبى وفؤادى وأن حوالى ٢٥٠٠ شخصا قد أغمى عليهم لدى سماعهم نبأ وفاة الرئيس وقد نقل أن امرأة قد ماتت بنوبة قلبية ونقلت أيضا أن أحد الاشخاص حرق نفسه ونُقِل إلى أحد مستشفيات الإسكندرية ، ونقلت رويترز أن السيدة تحية قرينة الرئيس هرعت مع ابنتيها هدى ومنى وابنها عبد الحكيم عندما شعرت بوفاة زوجها وأخذت يد زوجها وقبلتها وقالت لا أريد شيئا لم اكن اريد فى حياتى غير زوجى ، ونقلت رويترز عن القدس أن

---

[٨٩٩] نقلاً عن موقع : https://www.facebook.com/NasserNewsNetwork3n/posts/813396195414052:0

الآلاف من الفلسطينيين طافت شوارع القدس فى أكبر مسيرة حزن على وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وأن القوات المحتلة منعت المسيرة من دخول الحى الصهيونى فى المدينة وأضافت أن المحلات فى القطاع العربى فى المدينة قد أغلقت أبوابها وأكتظت المساجد لسماع القرآن الكريم وأشارت الوكالة إلى أن قوات الشرطة دخلت مدن الضفة الغربية أمس حيث أغلقت معظم المدارس أبوابها وبدأ الطلاب العرب مسيرات حزن على وفاة قائدهم العربى الكبير وفى موسكو مسيرة حداد فى شوارع موسكو: ذكرت وكالة تاس أنه أخترقت شوارع موسكو الرئيسية مسيرة ضخمة من الطلاب العرب ومن الروس المحبين للرئيس عبد الناصر وذكرت الوكالة أن المسيرة كانت صامتة وتحت شعار ذكرى القائد العربى ستبقى حية فى نفوسنا وانتهت المسيرة أمام مبنى المكتب الثقافى للجمهورية العربية المتحدة ، جريدة التايمز البريطانية نشرت بعنوان " أنه أضخم تجمع بشرى فى التاريخ" ، وفى تعليق مجلة نيوزويك على جنازة الرئيس عبد الناصر قالت : لم يشهد العالم جنازة تماثل فى ضخامتها جنازة عبد الناصر وسط مشاهد من عويل المصريين والعرب عليه بلغت حد التخلى عن الموكب الجنائزى عندما ضغطت الألوف المؤلفة على الموكب فى محاولة لإلقاء نظرة أخيرة على النعش الذى يحمل جثمان بطلهم الراحل ، إن جنازات كيندى وستالين وكمال أتاتورك تبدو كصور فوتوغرافية إذا ما قورنت بجنازة عبد الناصر لقد أحس العرب أنهم فقدوا الأب والحامى لهم ،، جريدة الوفيجارو الفرنسية معلقة على خبر وفاة الرئيس عبد الناصر " لو أن وفاة جمال عبد الناصر حدثت فى ظروف سياسية عادية لكان لها أثر عميق فى أبعاده فى العالم أما أنها حدثت فى الوقت الحاضر وفى هذه اللحظة الحرجة التى يجتازها الشرق الأوسط منذ أكثر من ثلاث سنوات فإنها مأساة حقيقية لا يمكن حساب نتائجها وتقول وكالة الصحافة الفرنسية أن الصحافة اعتبرت أن فقد عبد الناصر هو فقد عنصر كبير الأهمية فى المأساة التى يعيشها الشرق الأوسط أما صحيفة بارى جور فقالت أن خلفاء عبد الناصر سيلقون إرثاً ثقيلاً ، أما المدن الالمانية فيذكر الدكتور لطفى ناصف أن مدينة ليبزج الألمانية شهدت أكبر جنازة شهدتها المدينة أو فى أى مدينة أوروبية أخرى من الطلاب العرب إلى جانب المبعوثين الأجانب وشارك معهم المسئولين بالمدينة وفى الجامعة فى تلك الجنازة الرمزية التى خرجت من الجامعة مارة بالشوارع الرئيسية إلى أن وصلت إلى إحدي القاعات الكبرى بالمدينة وهم يمسكون بالعلم المصرى ويرفعون صورة كبيرة لعبد الناصر رسمها أحد الطلبة الفلسطينيين من عرب ٤٨ والذين يحملون جنسية اسرائيل وقام ممثلون لكل الروابط الطلابية بالقاء كلمات بعد القاء محافظ المدينة كلمته لرثاء عبد الناصر وقبل انتهاء العزاء وقف طالب كردى يمثل اتحاد الطلاب الأكراد فى أوروبا ليعبر عن حزن الأكراد على وفاة الرئيس جمال الذى كان يمثل لهم الأمل فى الحصول على حقوقهم المشروعة ، وفى تقرير لواحدة من الصحف الألمانية حول جنازة ناصر كتبت تقول " لقد شهد العالم كثيرا من المواكب الجنائزية ابتداء من جنكيز خان إلى لينين وأتاتورك وغاندي وكينيدى ولكن من المؤكد أن أكبر جنازة فى تاريخ العصر

الحديث قد سارت بالعاصمة المصرية القاهرة يوم الأول من أكتوبر ١٩٧٠ فى وداع ناصر ، وفى عدد السبت ٤ أكتوبر أعادت صحيفة «الجارديان» البريطانية نشر تقريرها عن جنازة الرئيس جمال عبدالناصر أمس الأول، تحت عنوان «جنازة ناصر اكتظت بالحشود الباكية.«ووصفت الصحيفة في تقريرها، الذي أعده كل من هارولد جاكسون وديفيد هيرست، جنازة عبدالناصر في الثاني من أكتوبر عام ١٩٧٠ بأنها الجنازة الرسمية المذهلة والأكثر إثارة في العصر الحديث، مشيرة إلي أن ملايين المصريين «المتواضعين» خرجوا لتوديع زعيمهم «الذي عبدوه طوال ١٨ عاماً» علي حد قولها، إلي جوار حشود من القادة وزعماء العالم ، أما «جان لاكوتير» الكاتب والمؤرخ والأديب الفرنسي فقد وصف أحداث تشييع جنازة جمال عبدالناصر في كتابه «ناصر» بقوله «إن هذه الجموع الغفيرة في تدافعها الهائل نحو الجثمان إلي مثواه الأخير لم تكن تشارك في تشييع الجثمان إلي مثواه الأخير، لكنها كانت في الحقيقة تسعي في تدفقها المتلاطم للاتصال بجمال عبدالناصر الذي كانت صورته هي التجسيد المطلق لكينونتها ذاتها. لقد قفلت الآن الدائرة ولكن ماذا تحوي في داخلها ؟ انقلاب ٢٣ يوليو.. باندونج.. السويس.. السد العالي.. دمشق.. الجزائر.. قوانين ١٩٦١. إن كل ذلك قد أصبح الآن تاريخاً، لقد مضت فترة الانتقال من عهد الملك الدمية إلي الجمهورية والعروبة والاشتراكية، لكن ما هو باق هو صورة عبد الناصر وما أصبحت ترمز إليه من الإحساس بالكرامة وروح التحديث والشعور بالأهمية الدولية».. هل عرفت الآن لماذا كانت جنازة عبد الناصر هي الأعظم في التاريخ الحديث؟ (انتهي المقال)

- لقد شاهدت بالفعل صور لهذه الجنازة تؤكد الكثير مما جاء في هذا المقال ، وسرح بي خيالي فقلت ما الذي كان من الممكن أن يصنعه رجل مثل هذا إذا قاد قومه إلي نهضة حقيقية يستثمر فيها الإنسان المصري خير استثمار ليحيا حياة أفضل ، وتحتل مصر مكانتها الحقيقية بين الدول علي أسس حقيقية وليس علي شعارات وأوهام لازلنا نعاني منها حتي الآن
- علي أي حال لقد مات الزعيم دون أن يعرف ما حدث للاشتراكية والناصرية في مصر وبعد أن فقد الشعب ثقافة الديمقراطية وحرية الرأي كما تم ترويضه ليستسلم للديكتاتورية العسكرية
- هل يمكن أن تقرأ نعي الرئيس السادات للرئيس عبد الناصر الذي تم إذاعته في ذلك الوقت ، حيث كان السادات يشغل منصب نائب الرئيس ؟
- (هو بيان تمت صياغته من قبل محمد حسنين هيكل الذي أنهى كتابته بقصر القبّة وتم سريعا اتخاذ القرار بإخبار وزير الإعلام بقطع كافة البرامج العادية وإذاعة القرآن الكريم بصفة مستمرة بعد أن تم صياغة بيان النعي الذي سيذاع على الشعب المصري وكان كالتالي.....»:فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الأمة العربية وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال، وأشجع الرجال وأخلص الرجال وهو الرئيس جمال عبد الناصر الذى جاد بأنفاسه الأخيرة فى الساعة السادسة والربع

من مساء يوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، بينما هو واقف فى ساحة القتال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ومن أجل يوم انتصارها......، .لقد تعرّض البطل الذى سيبقى ذكره خالدا إلى الأبد فى وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه فى الساعة الثالثة والربع بعد الظهر، وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من مراسم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذى انتهى بالأمس فى القاهرة والذى كرّس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروّعة دهمت الأمة العربية ....، إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الوزراء لا يجدان الكلمات التى يمكن بها تصوير الحزن العميق الذى ألمّ بالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربى والإنسانى إزاء ما أراد الله امتحانها به فى وقت من أخطر الأوقات ....، إن جمال عبد الناصر كان أكبر من الكلمات وهو أبقى من كل الكلمات، ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجلّه فى خدمة شعبه وأمته والإنسانية مجاهدا عن الحرية ومناضلا من أجل الحق والعدل ومقاتلا من أجل الشرف إلى آخر لحظة من العمر ..، ولعلّ هذه الكلمات لا تكفي لعزاء جمال عبد الناصر رغم أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفي بحقه وبقدره هو أن تقف الأمة العربية كلها الآن وقفة صابرة صامدة، شجاعة، قادرة حتى تحقق النصر الذى عاش وأستشهد من اجله إبن مصر العظيم وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها حيث يقول تعالى «..... يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلي جنتي...». والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[٩٠٠]

- .حسناً ها نحن قد انتهينا من الحديث عن عصر جمال عبد الناصر في عجالة ، والآن فلنبدأ الحديث عن عصر الرئيس أنور السادات
- لا مانع بالطبع ولكن بدون تفاصيل كما اتفقنا
- يكفي أن تلقي الضوء علي طبيعة عصره بشكل عام وأهم الأحداث التي وقعت فيه ومدي تأثيرها علي المصريين ، والتركيز علي ما حدث لشخصية الإنسان المصري في عهده لنتابع تطورها وتطور سلوكيات المجتمع في ظل حكمه

السادات يتولي حكم مصر

- لقد كان السادات كما هو معروف عضو في مجلس قيادة الثورة وأصبح بعد ذلك نائباً للرئيس جمال عبد الناصر أي الرجل الثاني في الدولة ، وبالتالي فقد شارك في جميع الأحداث التي شهدتها مصر في فترة عبد الناصر ، فلا شك أنه يتحمل الكثير من المسئولية عن جميع ما تم من إخفاقات سواء بالموافقة أو الصمت ، أو عدم الانسحاب والاستقالة مثلاً عند تعقد الأمور كما فعل غيره

---

[٩٠٠] نقلاً عن موقع : https://www.maghress.com/almassae/161764

- **العجيب حقاً أن هذه الحقيقة رغم وضوحها وضوح الشمس إلا أن البعض يتجاهلها تماماً ويعتبر أن ما حدث في عصر عبد الناصر مسئوليته وحده**
- **نعم فبالرغم من انفراد عبد الناصر بالسلطة المطلقة وعدم إمكانية معارضته إلا أن هناك من انسحب من الحياة السياسية بالكامل عندما تعارض موقفه مع موقف عبد الناصر وقد ذكرنا بالفعل أمثلة علي ذلك من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهو ما لم يفعله السادات**
- **لقد كان بالطبع عصر السادات امتداد لعصر الانفراد بالسلطة المطلقة**
- **بالتأكيد فقد تخلص السادات من رجال عبد الناصر في ما يسمي بثورة التصحيح[٩٠١] وكان قد أطلق عليهم مراكز القوي ، ولاشك أنه كان أكثر دهاءاً وقوة من الجميع ، ووضع الدستور والقوانين التي تناسبه ، فكما تعرف أن من يتولي حكم مصر يصبح هو القانون بل ويصبح هو نفسه مصر ، ولم يجرؤ السادات أن يقدم نفسه كبديل لعبد الناصر في البداية بل جعل صورته توضع بجوار صورة عبد الناصر ، إلي أن استطاع بعد ذلك تشويه عصر عبد الناصر باستخدام الفن أيضاً**
- **فما هي أبرز الأحداث التي وقعت في عصره ؟**

---

٩٠١ تحل اليوم الذكرى ٤٥ على يوم عالق في ذاكرة التاريخ وعقل الناصريين سطر ملامحه الرئيس الراحل محمد أنور السادات، عندما أطاح بمن أطلق عليهم اسم مراكز القوى، في مثل هذا اليوم ١٥مايو من عام ١٩٧١ وأطلق السادات على اطاحته بأتباع الفكر الناصري واليساريين بعيدًا عن الحكم والسلطة، مصطلح «ثورة التصحيح»، لتمثل هذه الواقعة أكبر أزمة واجهها منذ توليه الرئاسة، بعد وفاة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في ١٩٧٠ وجاءت ثورة تصحيح السادات، للتخلص من رجال عبد الناصر الذين كانوا يحيطون به في الحكم، ومن بينهم على صبرى نائب رئيس الجمهورية وشعراوى جمعة وزير الداخلية، ومحمد فايق وزير الإعلام، ومحمد لبيب شقير رئيس البرلمان، وسامى شرف سكرتير رئيس الجمهورية واتخذ السادات هذه الخطوة، بعد أن حضر إليه ضابط شرطة يعمل فى إدارة الرقابة على الهاتف فى وزارة الداخلية في منزله، مساء ١١ مايو من عام ١٩٧١، وقدم له مجموعة تسجيلات، بينها شريط يحمل مكالمة بين اثنين من مراكز القوى يتآمران عليه ويخططان لاغتياله فقرر السادات إقالة وزير الداخلية شعراوي جمعة، الأمر الذي لم يمرره اليساريين، فتقدمت مراكز القوى باستقالات جماعية، في محاولة منهم للانقلاب على نظام الحكم وإحداث فراغ دستوري، ففاجئهم السادات بقبول الاستقالة وفي ١٥ مايو ١٩٧١ تم إذاعة خبر استقالة ٥ من أهم الوزراء أبرزهم وزراء الحربية والداخلية والإعلام، لتتشكل أول وزارة تخلو من مراكز القوى منذ ثورة يوليو ١٩٥٢، ليستعين السادات بعدد ممن كان يثق بهم، على رأسهم قائد الحرس الجمهورى الليثى ناصف وألقى السادات وقتها خطابًا تاريخيًا للأمة أعلن فيه اعتقال من أطلق عليهم مراكز القوى، وسرد تفاصيل المؤامرة التى تعرض لها، ومحاولة الوزراء المستقيلين إحداث فراغ سياسى فى البلاد، وقيام أعوانهم بالتجسس عليه لإحراجه والتطاول عليه، وأنه ألقى القبض عليهم داخل مبنى الإذاعة والتليفزيون وقال السادات في خطابه الشهير :«أنا هسيب لكم كشعب، تفاصيلها كاملة، هسيبلكم كشعب تستنتجون منها ما تستنتجون، لكن هقرر أمامكم إحقاقًا للحق ولمسئوليتى التاريخية جملة أمور، أولها أنني لن أفرط في المسئولية إطلاقًا، ولن أسمح بقيام أي مركز من مراكز القوى، مهما كان مكانه، ومهما كانت قوته أبدًا وتابع: «لن أفرط في الأمانة، ولن أسمح بقيام مراكز قوى أبدًا، سأتقدم للشعب لإجراء انتخابات حرة من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكى، وسأشرف بنفسى ولجنة قضائية في مكتبى، ومستشارون من وزارة العدل، للإشراف على كل صغيرة وكبيرة، بدءًا بتوزيع التذاكر من الوحدة الأساسية، لكى نأتى باتحاد هو الذي يمثل شعبًا صنع هذا التاريخ.«وفي المقابل، يري بعض المؤرخين أن الموضوع لم يكن ثورة تصحيح، بقدر ماكان صراعا على السلطة بسب الخلافات السياسية المتعددة. ----نقلا عن موقع : الوفد ، في ذكري ثورة التصحيح ١٥مايو ، والجدير بالذكر أن نتائج المحاكمات كانت كالآتي : حُكم على الفريق أول محمد فوزي بالأشغال الشاقة، وخُفف إلى ١٥ عاما، كما تم الحكم بالأشغال الشاقة على محمد فائق وزير الإعلام، بينما أصدرت المحكمة أحكاما قاسية بالإعدام شنقا، على شعراوي جمعة، وعلي صبري، وسامي شرف، وجرى تخفيف الأحكام إلى الأشغال الشاقة بقرار من الرئيس، لتنتهي أسطورة مراكز القوى، حسب رواية السادات، ولكن كما هو الحال في كافة الأحداث التاريخية، دائما هناك روايات أخرى
https://alwafd.news/%D8%A3%D8%AE%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D9%88%D8%AA%D9%82%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%B1/1178183-%D9%81%D9%8A-%D8%B0%D9%83%D8%B1%D8%A7%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%80-45-%C2%AB%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%AA%C2%BB-%D8%A3%D8%B7%D8%A7%D8%AD-%D8%A8%D8%A8%D9%82%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%86%D8%B8%D8%A7%D9%85-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A7%D8%B5%D8%B1-%D9%81%D9%8A-%C2%AB%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D8%AD%D9%8A%D8%AD%C2%BB

- لاشك أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعبور القوات المسلحة قناة السويس كان أهم حدث في عصره ، وقد تم أيضاً الانفتاح الاقتصادي وعودة المنابر ثم الأحزاب تحت سيطرته ، ومعاهدة كامب ديفيد وهناك أحداث أخري بالطبع سوف تأتي في سياق الحديث
- حسناً فلنبدأ الحديث عن عصره المثير
- فمن أين نبدأ ؟
- نبدأ بحرب أكتوبر بالطبع ، لأنه الحدث الأبرز في عصر السادات ، فأنا لا تعنيني كثيراً تفاصيل وصوله للسلطة وانفراده بها ، فقد فعل ذلك الكثيرون قبله ، وتاريخ مصر شاهد علي ذلك ، أما نصر أكتوبر فسيظل مقروناً باسم الرئيس السادات ؟
- إذا تحدثنا عن حرب أكتوبر لابد أن نذكر مقدمات هذه الحرب ، فقد أعد لها جمال عبد الناصر ثم استكمل السادات الطريق إليها ، وقد قرر السادات قرار الحرب بعد أن حاول حل الموضوع سياسياً وقد سجل الأستاذ محمد حسنين هيكل موقف قيام السادات بإرسال مبعوث إلي الرئيس الأمريكي لتحريك القضية ولكن المحاولة لم تنجح ، فقد صرح الرئيس الأمريكي أنه يتدخل في المناطق الساخنة في العالم ، وحيث أن الأوضاع مستقرة بين مصر وإسرائيل فلا وجود مبرر للتدخل
- فاضطر السادات لتنفيذ خطة الحرب أليس كذلك ؟
- هذا صحيح ، فقد تأكد أنه يستطيع أن يحرك القضية سياسياً ولكن بعد إشعال المنطقة عسكرياً وخاصة أن الجيش المصري كان قد تم حشده وتسليحه وتدريبه علي هذه الخطة ومنتظر أن ينفذها ، وكان الشخص الوحيد الذي يمكن أن يتخذ قرار الحرب هو السادات
- فماذا كتب هيكل عن مقدمات حرب أكتوبر ؟

مقدمات حرب أكتوبر ١٩٧٣

- يقول هيكل في كتابه : (-- والحقيقة أن السادات كان يبحث عن أعذار في سنة ١٩٧١ كان قد أعلن سنة الحسم التي سوف تشهد المعركة لا محالة ، ولكن شيئاً لم يحدث ، وكان عذره الذي تذرع به هو الأولوية التي أخذتها الحرب في شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان ، وجاءت سنة ١٩٧٢ ولم تقع المعركة . وكان يمكن أن يكون العذر هو تأخر السوفييت في إمدادات السلاح ، الأمر الذي لم يترك له خياراً سوي أن يطرد خبراءهم من مصر ، وسارع السوفييت إلي تقديم إمدادات من السلاح لم يسبق لها مثيل ، خصوصاً عقب زيارة قام بها لموسكو الفريق "أحمد اسماعيل علي" الذي خلف الفريق :صادق" كوزير للحربية ، وجاءت سنة ١٩٧٣ معبأة بالاحتمالات ، وكانت الشواهد حافلة بالنذر الخطيرة بالنسبة لجيش طالت تعبئته وتزايد استعداده واستكمال تدريبه علي عملية العبور إلي درجة أن مناورات لهذه العملية المعقدة عبر مانع مائي جرت عشرات المرات وعلي مستوي الفرق ، ----ولم تكن القوات المسلحة وحدها هي التي بدأت تظهر فيها علامات التململ ، ولكن الأمة كلها بدت فعلاً في

حالة تململ ، كان شحنها تزداد طاقته كل يوم من أجل هدف لا يبدو أنه سيتحقق ، وكان ذلك يخلق نوعاً من الاحباط شعر به أنور السادات وإن راح ينسبه لغير أسبابه الحقيقية . وكان الطلاب قد قاموا بمظاهرات تعبيراً عن هذا الإحباط ، واعتقلت أعداد كبيرة منهم ، وأغلقت الجامعات

- فماذا عن ما قاله الأمريكيون لمبعوث السادات ؟
- في فبراير سنة ١٩٧٣ كان "السادات" قد أرسل مستشاره للأمن القومي "حافظ اسماعيل" إلي واشنطن للقاء رسمي أحيط بكل أضواء الدعاية اللازمة مع "ريتشارد نيكسون" رئيس الولايات المتحدة –ثم لقاء سري مع نظيره الأمريكي "هنري كيسنجر" في مزرعة يملكها "دونالد كندل" –رئيس مجلس إدارة "بيبسي كولا" والذي كان صديقاً شخصياً للرئيس "نيكسون" ولم يسفر هذا الاجتماع السري بين "حافظ اسماعيل" و "هنري كيسنجر" عن شئ يذكر . وفي الحقيقة فإن "كيسنجر" لم يكن تحت ضغط يفرض عليه أن يقترب بتناول أزمة الشرق الأوسط ، فقد كان يراها أزمة خامدة ، وهو لا يقترب إلا من الأزمات الساخنة ، وقد عبر عن ملاحظته تلك أكثر من مرة ، ليس فقط أثناء لقائه السري مع "حافظ رمضان" ، ولكن أيضاً خلال تصريحات صحفية نقلت عنه أكثر من مرة ، كما نقلها عنه إلي الرئيس "السادات" عديدون ممن قابلوه ثم قابلوا الرئيس "السادات" بعده ، وبينهم "أرنو دي بورشجراف" مندوب مجلة "نيوزويك" في الشرق الأوسط ، وكان من المراسلين الأجانب المقربين في ذلك الوقت لدي الرئيس "السادات" ، كان الالحاح من دوائر عديدة علي ضرورة الحركة والتسخين ، كان مطلب الحركة الحقيقية مطلباً وطنياً مصرياً وقومياً عربياً ----من الصعب علي أي إنسان أن يتصور المشاعر التي كانت تعتمل في أعماق أنور السادات في تلك الأيام الحاسمة ، كان قد استقر علي الحركة ، فلم يكن أمامه سبيل غير ذلك ، وكان أكثر ما يضغط عليه وجود جيش ضخم جُهِّز وأُعد لهدف واحد لا بديل له وهو دخول معركة . وما لم يصدر إليه أمر البدء فإن العواقب يمكن أن تكون وخيمة
- مشكلة كبري عندما يكون شخص واحد مسئول عن اتخاذ القرارت دون الرجوع إلي الشعب نفسه من خلال نوابه وممثليه ، وكل ما يهم الحاكم هو عدم استفزاز القوي العظمي ، والحصول علي إشارة ما تفيد بأنه لا مانع من دخول حرب محدودة لتحريك القضية
- كان السادات يُدفع دفعاً بفعل عوامل كثيرة إلي دخول المعركة – وربما يمكن للانصاف فهم بعض أسباب تردده بسبب ضخامة القرار وفداحة العواقب التي يمكن أن تترتب علي أي خطأ في الحساب ، فالمسؤولية التي كان يتحملها هائلة والمخاطر علي كل خطوة من الطريق
- فهل تم تنسيق بين مصر وسوريا قبل الحرب ، عفواً أقصد التنسيق بين الرئيس السادات والرئيس السوري حافظ الأسد ؟
- علي أي حال فقد كان للحالة النفسية للسادات في تلك الفترة آثار جانبية بالغة الحساسية . فلم يكن قادراً علي الصراحة حتي مع حلفائه ، وحينما أتم اتفاقه النهائي مع الرئيس "حافظ الأسد" علي المعركة

وتوقيتاتها وخططها ، فإنه أخطر السوريين بأنه سينفذ خطة "جرانيت ٢" التي كانت تقتضي الوصول إلي المضايق في سيناء لكنه في أمره لبدء العمليات للفريق "أحمد اسماعيل" طلب إليه في الواقع تنفيذ خطة "جرانيت ١" التي كانت تقتضي مجرد عبور قناة السويس والاحتفاظ بخمسة رؤوس كباري علي الضفة الشرقية لقناة السويس ، إن ذلك لم يؤد فقط إلي سوء فهم بينه وبين السوريين في المراحل الحساسة للمعركة ، لكنه أدي أيضاً إلي نتيجة أخري أكثر خطورة ، ---)[٩٠٢]

- علي أي حال قام الرئيس السادات بشجاعة باتخاذ قرار الحرب وتم العبور العظيم لقناة السويس ، فهل لديك كتاب عن الحرب نفسها وتطوراتها ، أقصد أن يكون كتاب لمؤرخ عسكري ؟
- بالتأكيد ، فهناك كتاب[٩٠٣] عن هذه الحرب كتبه المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد وقد وردت فيه تفاصيل الحرب وهو كتاب ممتع ومزود بصور وخرائط أيضاً
- حسناً فلننتقل إلي كتاب اللواء جمال حماد ليشترك معنا في هذا الحوار
- يقول اللواء جمال حماد في مقدمة كتابه :(– لقد نشبت أربع حروب بين العرب وإسرائيل خلال ربع القرن الذي أعقب إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وبسبب سياسة دولية مناوئة لمصر وأوضاع داخلية سيئة ، وأخطاء عسكرية فادحة ارتكبتها قيادات غير واعية ، لم يتمكن الجيش المصري من إثبات جدارته واستعادة أمجاده وانتصاراته في الحروب الثلاث الأولي التي خاضها ، إذ لم تتهيأ أمامه الفرصة التي كان ينشدها ، كي يخوض غمار القتال بعد إتمام استعداداته ، ولمواجهة عدوّه وجهاً لوجه تحت قيادة عسكرية واعية بأصول الفن الحربي ، لقد كانت حرب فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ حرباً قديمة الطراز في معظم مراحلها وإن كانت قد وقعت في زمان حديث ، ورغم الأطراف العديدة التي اشتركت فيها فلم يكن ضمنها ما يستحق أن يطلق عليه جيش عصري ، وبسبب الاحتلال البريطاني الذي كان ما يزال مسيطراً علي الدول العربية التي قامت جيوشها[٩٠٤] بأدوار رئيسة في هذه الحرب ، فقد دخلت القوات العربية أرض فلسطين دون تدريب جيد أو تسليح كاف أو إعداد مسبق ، ولعبت السياسة البريطانية المتواطئة مع الصهيونية والتي كانت تؤازرها معظم القوي الغربية وقتئذ وبخاصة الولايات المتحدة ، دوراً مهماً في إلحاق الهزيمة بالعرب . فلم تكد الجيوش العربية تقترب – رغم كل ما صادفها من عقبات ومؤامرات– من تل أبيب حتي تم الضغط علي الحكومات العربية

---

٩٠٢ نقلاً عن كتاب –خريف الغضب–قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات =محمد حسنين هيكل –الناشر :سلسلة جدران المعرفة ٢٠٠٦–صفحة ١١٤

٩٠٣ كتاب المعارك الحربية علي الجبهة المصرية للواء جمال حماد دار الشروق – الطبعة الأولي ٢٠٠٢

٩٠٤ شارك في هذه الحرب جيوش كل من : مصر والأردن والعراق وسوريا ولبنان والسعودية ضد المليشيات الصهيونية المسلحة في فلسطين والتي تشكلت من البلماخ والإرجون والهاجاناه والشتيرن والمتطوعين اليهود من خارج حدود الانتداب البريطاني على فلسطين.وكانت المملكة المتحدة قد أعلنت إنهاء انتدابها على فلسطين وغادرت تبعا لذلك القوات البريطانية من منطقة الانتداب، وأصدرت الأمم المتحدة قرارا بتقسيم فلسطين لدولتين يهودية وعربية الأمر الذي عارضته الدول العربية وشنت هجوما عسكريا لطرد المليشيات اليهودية من فلسطين في مايو 1948 استمر حتى مارس.1949

الخاضعة وقتذاك لسطوة الاستعمار للموافقة علي وقف القتال وقبول الهدنة الأولي في ١١ يونيو ثم الهدنة الثانية في ١٨ يوليو ١٩٤٨ ، وتحت ستار الهدنة ، تدفقت الأسلحة والمعدات والإمدادات العسكرية والمساعدات المادية علي إسرائيل ، في الوقت الذي تم فيه حرمان العرب من أي إمدادات أو مساعدات خارجية ، وفي ظل وقف إطلاق النار قامت إسرائيل–كما اعتادت بعد ذلك في جميع حروبها–بخرق الهدنة وفاجأت القوات العربية بالهجوم وتمكنت عن طريق الغدر من احتلال القسم الأكبر من الأراضي الفلسطينية . وقد اتضح أن إسرائيل قد قامت دولتها علي مساحة من الأرض تتجاوز كثيراً المساحة التي خصصت للدولة اليهودية ، وفقاً لقرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ ، إذ زادت من ٥٦.٥% من المساحة الكلية لفلسطين إلي ٧٧.٤% ولم يبق للعرب بعد انتهاء الحرب سوي أراضي الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة ،

- هذا عن حرب ١٩٤٨ فماذا كتب عن حرب ١٩٥٦ ؟
- نشبت الحرب الثانية في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ في ظل التواطؤ البريطاني الفرنسي مع إسرائيل ، رداً علي القرار الذي أصدره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ولم تقع خلال هذه الحرب معارك واسعة النطاق مع إسرائيل علي أرض سيناء ، فقد صدرت الأوامر قبل نشوب الحرب بسحب القوات المصرية الرئيسية من شبه جزيرة سيناء انتظاراً للغزو البريطاني الفرنسي المتوقع في اتجاه الإسكندرية أو بورسعيد ، ولم تبق في سيناء سوي ثماني كتائب مشاه ، وزع سبع منها علي مثلث أبو عجيلة–رفح–العريش وتمركزت الكتيبة الثامنة في شرم الشيخ ، وعندما بدأ الهجوم الإسرائيلي بإسقاط كتيبة من رجال المظلات في الساعة الخامسة مساء يوم ٢٩ أكتوبر بالقرب من المدخل الشرقي لممر متلا علي مسافة ٦٥ كيلومتراً من قناة السويس ثم تسلمت مصر في اليوم التالي ٣٠أكتوبر إنذاراً بريطانياً فرنسياً بطلب انسحاب القوات المصرية عشرة أميال غرب قناة السويس ، وأن تقبل الاحتلال المؤقت من قوات الدولتين لبورسعيد والإسماعيلية والسويس ، ليتسني الفصل بين الطرفين المتحاربين وضمان حرية مرور السفن بالقناة وفقاً لأحكام القانون الدولي ، عندئذ انكشفت بجلاء أبعاد المؤامرة الثلاثية ، فأصدرت القيادة السياسية أمرها بالانسحاب العام لجميع القوات المصرية في سيناء إلي غرب القناة لإفساد المخطط الموضوع لقطع خط الرجعة علي هذه القوات تمهيداً لإبادتها
- فماذا عن حرب ١٩٦٧ (الحرب الثالثة) ؟
- وفي الحرب الثالثة التي بدأت في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، لم تسنح الفرصة للقوات المصرية للقتال ، فقد تم حشد هذه القوات في سيناء بطريقة مظهرية وبعيدة عن أي أصول حربية ، كما لم توضع لها أي خطة أو تحدد لها أي أهداف استراتيجية ، بل فرضت عليها أوضاع خاطئة تخالف كل المبادئ والأصول التكتيكية ، ونتيجة لارتباك القيادة العسكرية واهتزاز أعصابها في إثر ضربة الطيران الإسرائيلي صباح

٥ يونيو ، صدر أمر الانسحاب المشئوم مساء يوم ٦ يونيو بدون وضع أي خطة أو تنظيم للانسحاب ، الأمر الذي أدي إلي تحويل الانسحاب من عملية حربية إلي حالة شاملة من الفوضي والاضطراب ، انتهت بإخلاء سيناء وفقد القوات المسلحة المصرية بصفة عامة ما يعادل ٨٠% من أسلحتها ومعداتها . ووصلت القوات الإسرائيلية يوم ٨ يونيو إلي الضفة الشرقية لقناة السويس ، ووقعت أرض سيناء العزيزة في قبضة الغزاة ، وكان للانتصار الخاطف الذي أحرزته إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ تأثير كبير علي كل من العرب والإسرائيليين . ورغم أن هذا الانتصار كان يرجع في الدرجة الأولي إلي الأخطاء التي ارتكبتها بعض القيادات العسكرية العربية وليس إلي مقدرة الجيش الإسرائيلي وبراعته ، فإن إسرائيل أثملها النصر بعد أن استطاع جيشها إلحاق الهزيمة بثلاثة جيوش عربية في ستة أيام ، وأن يضم إليها من الأراضي العربية ما يزيد عن ثلاثة أمثال مساحتها ، ولهذا انتاب إسرائيل الصلف والغرور ، وآمنت بأوهام لم تلبث أن أصبحت بالنسبة لها حقائق ثابتة ومعتقدات راسخة ، من بينها أسطورة التفوق النوعي الإسرائيلي علي العرب وجيشها الذي لا يُقهر ، وذراع إسرائيل الطويلة القادرة علي سحق أعدائها العرب في أي مكان مهما نأت ديارهم ، فضلا عما كانت تردده عن تلك الفجوة الحضارية الواسعة التي تفصل بينها وبين العرب والتي تحتاج لعدة قرون حتي يستطيع العرب الاقتراب منها ، ونتيجة لضم الأراضي العربية الشاسعة إليها ، آمنت إسرائيل بنظرية حاولت إقناع العالم وقتئذ بها ، وهي نظرية الأمن الإسرائيلي ، التي تقوم علي أساس ارتكاز قواتها خلف موانع طبيعية والاحتفاظ بالأراضي المحتلة التي توفر لها العمق الاستراتيجي ، وتبعد ميادين العمليات الحربية عن قلب إسرائيل والأماكن ذات الكثافة السكانية فيها ، وتوفر لقواتها مجال التعبئة وحرية العمل والمناورة ، وتهدد عمق الدول العربية المجاورة ، ورغم الجهود العربية والدولية التي بذلت لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي بطريقة سلمية ، فإن إسرائيل رفضت في عناد وإصرار أي تسوية سلمية ، كما رفضت الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ [٩٠٥] الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ والذي ينص علي الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة في حرب يونيو ١٩٦٧ ، فقد كانت علي يقين من عجز العرب عسكرياً عن التحرك ضدها ، وكانت علي ثقة تامة بعدم مقدرة مصر ، وهي الجبهة العربية الرئيسية من جبهات دول المواجهة ، علي القيام بأي هجوم شامل ضدها ، وأن أي محاولة مصرية لعبور القناة

---

٩٠٥ القرار رقم ٢٤٢ هو قرار أصدره مجلس الأمن الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة في 22 نوفمبر 1967 ، وجاء في أعقاب الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة والتي وقعت في يونيو ١٩٦٧ والتي أسفرت عن هزيمة الجيوش العربية واحتلال إسرائيل لمناطق عربية جديدة. وقد جاء هذا القرار كحل وسط بين عدة مشاريع قرارات طرحت للنقاش بعد الحرب. وورد في المادة الأولى، الفقرة أ» :انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلت في النزاع الأخير .«وقد حذفت "أل" التعريف من كلمة "الأراضي" في النص الإنجليزي بهدف المحافظة على الغموض في تفسير هذا القرار. وإضافة إلى قضية الانسحاب فقد نص القرار على إنهاء حالة الحرب والاعتراف ضمنا بإسرائيل دون ربط ذلك بحل قضية فلسطين التي اعتبرها القرار مشكلة لاجئين. ويشكل هذا القرار منذ صدوره صُلب كل المفاوضات والمساعي الدولية العربية لإيجاد حل للصراع العربي الإسرائيلي.

للحصول ولو علي موطئ قدم علي ضفتها الشرقية ، سوف تقضي عليها قواتها في ساعات معدودة ، كما رسخ في أذهان قادتها استحالة تسيق أي هجوم عربي ضدها علي أكثر من جبهة ، بسبب عدم مقدرة القيادات العسكرية العربية علي التخطيط ، وضعف شأن القوات العربية وعجزها عن مواجهة جيش إسرائيل الذي لا يقهر ، ونتيجة لهذا الغرور القاتل ، آمن القادة الإسرائيليون بأنهم يملكون التفوق التام ، وأنه ليس أمام العرب سوي الاستسلام لشروط إسرائيل والسكوت المطلق عن المطالبة بأراضيهم التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧ ، ولكن مصر علي خلاف ما كانت إسرائيل تتوقع لم تستسلم لليأس ، ولم يكن هناك مصري واحد يقبل أن يبقي جزء من تراب الوطن –وهو سيناء– خاضعاً للاحتلال الإسرائيلي البغيض ، وبدأت مصر علي الفور في إعادة بناء قواتها المسلحة بمعاونة الاتحاد السوفييتي ، الذي أمدها بالأسلحة والمعدات عوضاً عما فقدته في حرب يونيو ١٩٦٧ ، فضلاً عن إمدادها بالخبراء والمستشارين السوفييت ، هذا ولم تهدأ الجبهة المصرية عسكرياً كما كانت إسرائيل تتوقع ، فما كادت الدفاعات تقوي وتتماسك علي طول مواجهة قناة السويس حتي بدأت حرب الاستنزاف في سبتمبر ٦٨ ، والتي استمرت لمدة عامين . وبرزت خلال هذه الحرب قوة نيران المدفعية المصرية ، وتكبدت إسرائيل خسائر كبيرة في الأرواح والأسلحة والمعدات ، مما دفعها إلي إقامة خط من الدفاعات والتحصينات والموانع والسواتر الترابية العالية أطلقت عليه اسم خط بارليف . وقد أنفقت إسرائيل علي نظامها الدفاعي الذي أنشأته في سيناء حوالي ٥٠٠ مليون دولار ، أنفق منها علي تحصينات خط بارليف وحدها ٢٠٠ مليون دولار ، وكانت مصر علي يقين من أن استرداد أرضها السليبة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق حرب تحرير شاملة مع إسرائيل ، ولكن كان من الواجب وضع استراتيجية عليا لهذه الحرب ، فإن سياسة الوفاق بين القوتين العظميين والتي كانت تدعو إلي الاسترخاء العسكري في المنطقة ، لم تكن تتقبل نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط ، وكان الموقف الدولي يتطلب أسلوباً خاصاً في إدارة الصراع المسلح في المنطقة .

- فماذا فعلت مصر مع وجود كل هذه التغييرات والتحديات ؟
- وإزاء هذه الحقائق ، تم التخطيط لحرب أكتوبر علي أنها حرب محدودة "local conflict" لا تستخدم فيها سوي الأسلحة التقليدية ، ويكون لها أهداف استراتيجية حاسمة بحيث تقوّض نظرية الحدود الآمنة الإسرائيلية ، وتهدم أسس استراتيجية إسرائيل القائمة علي أساس التفوق العسكري والسبق في توجيه الضربة الأولي ، للحصول علي المبادأة كوسيلة لإحراز المفاجأة الاستراتيجية ، وهي الاستراتيجية التي تدعو إلي توجيه ضربة إجهاض ضد أي تحضيرات هجومية عربية ، وأن تكون الحرب قصيرة وحاسمة مع نقل المعركة إلي الأراضي العربية فور بدء أي اشتباكات ، وكان التغلب علي هذه الاستراتيجية الإسرائيلية يتطلب تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي عن طريق عمل عسكري يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بإسرائيل ، وإقناعها بأن مواصلة احتلالها للأراضي المصرية يفرض عليها ثمناً باهظاً لا

تستطيع تحمله ، علي أن يمتد هذا العمل العسكري لفترة زمنية طويلة مما يكبد إسرائيل خسائر مادية ومعنوية لا قبل لها باحتمالها[٩٠٦] ، ويتيح الفرصة في الوقت نفسه للطاقات العربية الأخري للتدخل وفرض تأثيرها علي نتائج الحرب-)[٩٠٧]

- ولكن ألا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تمد إسرائيل بما تحتاجه خلال الحرب ؟
- يمكنها بالطبع إمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات ولكنها لا تستطيع أن تمدها بموظفين وعمال ليعملوا في الشركات والمصانع المتوقفة ، وهناك طرفة تقول أن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في ذلك الوقت إذا تم عمل تعبئة للجيش لا تجد من يصنع لها فنجان من القهوة ، لأن الذي يقوم بذلك متواجد علي جبهة القتال

العبور العظيم

- إذن فقد تم التخطيط للحرب جيداً ، وبدأت بالفعل ، فكيف كان رد الفعل ؟
- (وعندما بدأت الحرب في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كانت إسرائيل ما تزال تبدو أمام العالم قلعة عسكرية منيعة لا يمكن اقتحامها . ووصل الغرور بالإسرائيليين إلي الاعتقاد بأن هذه الحرب ما هي إلا اليوم السابع من حرب الأيام الستة السابقة . ومن قاعة دار "سوكولوف" التي شهدت المؤتمرات الصحفية الخاصة بأنباء الانتصارات الإسرائيلية الباهرة في حرب يونيو ٦٧ ، أعلن موشي ديان وزير الدفاع مساء ٦ أكتوبر في مؤتمر صحفي "سوف يدحر جيش الدفاع الإسرائيلي المصريين بضربة شديدة في سيناء ، وسوف ينتهي القتال بانتصارنا في الأيام القادمة" ،، وصرح الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان في مؤتمر صحفي يوم ٨ أكتوبر وسط تصفيق الحاضرين ، "بأن الجيش الإسرائيلي سيواصل ضرب العدو وتحطيم عظامه " . ولكن هذه الأوهام الإسرائيلية لم تلبث أن تبددت منذ الساعات الأولي من القتال ، فقد نجحت القوات المصرية في اقتحام قناة السويس واجتياح حصون خط بارليف ، وبدأت في إنشاء منطقة رءوس الكباري –وفقاً للخطة الموضوعة– علي الضفة الشرقية للقناة ، كما تمكنت من تدمير ثلاثة ألوية مدرعة إسرائيلية تدميراً يكاد يكون كاملاً ، وعلي الجبهة السورية ، نجحت القوات السورية في عبور الخندق الصناعي الذي أقامته إسرائيل ، واندفعت كالسهل الجارف تشق طريقها في مرتفعات الجولان من الشرق إلي الغرب ، علي ثلاثة محاور رئيسية ، وهكذا انهارت نظرية الأمن الإسرائيلي بكل أسسها ومقوماتها ، وتقوضت سمعة الجيش الإسرائيلي الذي

[٩٠٦٩٠٦] كانت إسرائيل في ذلك الوقت تعاني نقصاً حاداً في التعداد السكاني ، فلم تكن تستطيع أن تحشد جيشاً دون أن يتأثر اقتصادها ، فالشعب يتحول بالتعبئة إلي جيش وبالتالي يتوقف العمل والإنتاج حتي تنتهي المعركة ويعود الموظفون والعمال إلي مصانعهم وشركاتهم ليستأنفوا العمل والإنتاج ، وبالتالي فإسرائيل لا تتحمل طول فترة الحرب لأنها تصاب بشلل تام في جميع مناحي الحياة ، لذلك تعتمد علي الخطوط الدفاعية والموانع والتحصينات بحيث يكون أقل عدد من المقاتلين يدافعون عن مساحات كبيرة من الأرض ، وحروبها خاطفة وقصيرة المدة ، (ذات نفس قصير كما يقال)

[٩٠٧] نقلاً عن كتاب – المعارك الحربية علي الجبهة المصرية–اللواء جمال حماد–دار الشروق طبعة ٢٠٠٢ –صفحة ٧

ذاعت شهرته في الآفاق بأنه الجيش الذي لا يُقهر ، وأصيب الشعب الإسرائيلي بصدمة عنيفة وصفها بعض المحللين العسكريين بالعبارة الشهيرة "زلزال في إسرائيل" . لقد كانت حرب أكتوبر حدثاً فريداً بلا شك ، بل نقطة تحول "turning point" في مسار الصراع العربي الإسرائيلي فقد تعرضت إسرائيل كدولة لمفاجأة استراتيجية كاملة أفقدت الإسرائيليين ثقتهم في جيشهم وفي جهاز مخابراتهم ، الذي كان يدّعي أنه أقدر جهاز مخابرات في العالم خبرة بشئون الشرق الأوسط ، كما تعرضت القوات الإسرائيلية علي جبهتي سيناء والجولان لمفاجأة تكتيكية أفقدت أفرادها توازنهم ، وأجبرتهم علي الانسحاب من المواقع الأمامية . وكان الأمر الذي أدهش العالم هو نجاح مصر وسوريا في تحقيق المفاجأة علي مستويين الاستراتيجي والتكتيكي –رغم التطور الهائل في وسائل الاستطلاع الحديثة – وقدرتهما علي خداع جهازي المخابرات الإسرائيلية والمخابرات الأمريكية في وقت واحد . ولقد تمكنت القوات المصرية من تقويض أسس العقيدة القتالية للقوات الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ، ففقدت بالتالي مميزاتها الرئيسية وأهمها خفة الحركة والقدرة علي المناورة وتحقيق السيادة الجوية علي ميدان المعركة ، فقد هبطت قدرات وفعالية الدبابات الإسرائيلية إلي درجة خطيرة عندما واجهت القواذف والصواريخ المضادة للدبابات المصرية ، كما اضطرت الطائرات الإسرائيلية إلي تجنب الاقتراب من قناة السويس ، حتي لا تقع فريسة لشبكة الصواريخ المصرية أرض جو سام المنتشرة غرب قناة السويس ، وإزاء كثافة الصواريخ المصرية وفعاليتها ضد كل من الطائرات والدبابات ، وهما السلاحان الرئيسيان لإسرائيل اللذان كانا يهيئان لها القدرة علي شن الحرب الخاطفة القصيرة المدي فيما مضي ، فقد ارتبكت خططها العسكرية وتجمدت عقيدتها الهجومية وعجزت عن إحراز التفوق الذي كانت تحصل عليه دائماً في الحروب السابقة مع العرب ، وفي الوقت نفسه استرد العرب كرامتهم وثقتهم في أنفسهم وسمعتهم أمام العالم ، واسترد الجندي العربي ثقته في نفسه وفي سلاحه وفي قياداته ، وكان أحسن تعبير عما جري هو أن العرب قد عبروا الهزيمة ، هذا ولم تقدم الخطوط الدفاعية والتحصينات القوية علي جبهتي سيناء والجولان في بداية الحرب الوقاية التي كانت تنشدها إسرائيل من إقامتها ، فقد سقطت حصون خط بارليف الشامخة في ساعات معدودة ، كما تمكنت القوات العربية من اقتحام هذه التحصينات واكتساحها علي الجبهتين ، وثبت أن الموانع الطبيعية والصناعية والدفاعات الحصينة لا يمكنها أن تقف حائلاً أمام الجيوش الحديثة ، بما لديها من تجهيزات وأسلحة ومعدات ، وبخاصة إذا كان لديها العزيمة والإرادة والتصميم علي القتال ، ولا شك في أن حرب أكتوبر قد قلبت موازين القوي في الشرق الأوسط رأساً علي عقب

- فكيف كان ذلك ؟
- فقد كانت إسرائيل تركز بعد حرب يونيو ١٩٦٧ علي نغمة التفوق النوعي للفرد الإسرائيلي ومقدرته علي استخدام التكنولوجيا الحديثة ، مما يقلل إلي حد كبير من ميزة التفوق العددي العربي ، وجاءت

حرب أكتوبر ، فكان من أبرز سماتها ظهور كفاءة المقاتل العربي ومدي ارتفاع مستوي نوعيته وقدرته علي استيعاب واستخدام الأسلحة الحديثة والمعقدة بما فيها الأسلحة الإلكترونية ، لقد أثبت كل من المخطط والقائد والمقاتل العربي كفاءته وقدراته الحقيقية في ميدان القتال ، ولذا فإنه بإضافة النوعية العربية المتفوقة علي الكم العددي فسوف تكون للعرب الكفة الراجحة في أي صراع مقبل في الشرق الأوسط ، ولقد أفرزت حرب أكتوبر العديد من الدروس المستفادة

- رائع ، لقد كنت سأسأل عن الدروس المستفادة من هذه الحرب ، فماذا كتب عنها ؟
- الدروس المستفادة التي كان لها تأثير كبير في إعادة تقييم النواحي الاستراتيجية والسياسية بالنسبة للشرق الأوسط ، وفرضت علي العالم أن يعيد حساباته بالنسبة لموقفه من النزاع العربي الإسرائيلي ، -----وقد أثبتت نتائج الاشتباكات أن الحرب باهظة التكاليف فادحة الخسائر ، وأن من المستحيل علي أي دولة صغيرة أن تستمر في القتال لمدة طويلة دون أن تتلقي الإمدادات من دولة عظمي تساندها . ولولا الإمدادات الإمريكية التي زودت بها الولايات المتحدة إسرائيل عن طريق الجسرين البحري والجوي ولولا الإمدادات السوفييتية التي أمد بها الاتحاد السوفييتي سوريا ومصر عن طريق الجسرين البحري والجوي ، لما كان في الإمكان أن يواصل الطرفان هذه الحرب طوال المدة التي استغرقتها ، إذ ان معدلات الاستهلاك كانت عالية للغاية ، وبهذا لن تكون هناك وسيلة للتقليل من نفوذ الدولة العظمي التي تورد السلاح والمعدات للدولة الصغري ، والتي تتحكم تبعاً لذلك في فرض وقف إطلاق النار في الموعد الذي يتمشي مع مصالحها ، إلا باللجوء إلي سياسة تنويع مصادر السلاح والعمل علي توافر القدرة الذاتية علي التصنيع الحربي
- أعتقد أن العمل علي توافر القدرة الذاتية علي التصنيع الحربي هو أهم درس مستفاد من هذه الدروس فالقوي العظمي التي تمدنا بالسلاح هي صاحبة النفوذ الحقيقي ولا يمكن أن تستمر الدول الصغري في القتال بدون موافقتها ، والتصنيع الحربي يحتاج إلي وجود قاعدة صناعية كبيرة تعتمد علي البحث العلمي وهو ما يتطلب الاهتمام بالتعليم بشكل عام ، فالتعليم هنا مسألة أمن قومي بلا شك ، فماذا كتب أيضاً من الدروس المستفادة ؟
- ولقد أثارت حرب أكتوبر العديد من التساؤلات حول مستقبل بعض الأسلحة الرئيسية في حروب المستقبل ، فقد صار التساؤل حول مدي سيادة الدبابة لميدان القتال وهل ستظل محتفظة بالمكانة العالية التي تحتلها في المعركة الهجومية ؟ لقد نجح المشاة المصريون المجردون من أي تدريع ومن مسافات قصيرة ، في صد أقوي أنواع الدبابات الإسرائيلية ، وفي إلحاق خسائر جسيمة بها خاصة في المرحلة الأولي من الحرب ، -----وقد أثبت الدفاع الجوي المصري فعاليته في الحد من التفوق الجوي الإسرائيلي علي أرض المعركة ---وبفضل شبكة الدفاع الجوي المشكلة أساساً من الصواريخ

أرض جو سام ، عجزت الطائرات الإسرائيلية عن تدمير الكباري التي أقامتها القوات المصرية علي قناة السويس ، وبذا تم تأمين تدفق القوات والإمدادات طوال مراحل الحرب إلي الضفة الشرقية

- فماذا كتب عن نتائج هذه الحرب ؟
- وعن النتائج الاستراتيجية للحرب ، يمكن التأكيد بأن من أهم النتائج هو تحقيق الهدف الرئيسي الذي كان ينشده الرئيس الراحل أنور السادات ، وهو إنهاء حالة اللاسم واللاحرب التي كان استمرارها لا يعني سوي انهيار مصر وتعرضها لدمار محقق ، فقد أرغمت القوتان العظميان علي التدخل المباشر لمحاولة إيجاد حل للنزاع العربي الإسرائيلي وعلي ممارسة تأثيرهما القوي لإنهاء حالة الركود الذي ساد الموقف السياسي منذ انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧ ، وذلك بهدف التوصل إلي إقرار السلام في الشرق الأوسط
- أعتقد أن السادات تأكد من أن الحل السياسي لن يحدث إلا إذا سبقه حل عسكري ، والقوي العظمي علي أي حال هي التي يمكنها تسوية الأمور طبقاً لمصالحها ، وماذا كتب عن الدور العربي في الحرب
- كما أظهرت الحرب بجلاء مدي أهمية التضامن العربي في مواجهة الخطر الإسرائيلي ، فقد اتخذت الدول العربية جميعاً خطوات عملية لتدعيم مصر وسوريا ، فقامت تسع دول منها بتقديم الدعم العسكري لهما بنسب متفاوتة ، وهي العراق والجزائر وليبيا والأردن والمغرب والسعودية والسودان والكويت وتونس ، كما قررت دول الخليج والمملكة السعودية تقديم الدعم المالي لهما ، فقدمت السعودية مائتي مليون دولار وقدمت الإمارات مائة مليون دولار لمصر وخمسين مليون دولار لسوريا ، وأسهمت قطر بخمسة عشر مليون دولار وبمعونات عينية من الأدوية والقمح ، ووضع الرئيس الجزائري بومدين خلال زيارته للاتحاد السوفييتي مائة مليون دولار تحت تصرف كل من مصر وسوريا لدي الحكومة السوفييتية لتدبير ما قد تحتاجه الدولتان من تسليح
- سبحان الله ، كل هذه الدول في يوم من الأيام كانت دولة واحدة عظمي وقوية وغنية ، ثم تفككت إلي مجموعة من الدول التي توصف بالدول الصغري الضعيفة ، وتطلب حل لمشاكلها من القوي العظمي الجديدة في العالم وتستجدي اهتمامها ، وعفواً للمقاطعة
- وعلي الجبهة الاقتصادية ، اتخذت الدول العربية المنتجة للبترول قراراً بتخفيض إنتاجها من البترول[٩٠٨] ، ثم أعلنت تطبيق الحظر الكامل علي صادراتها إلي الولايات المتحدة وبذلك تأكد دور

---

٩٠٨ وصرح الملك فيصل فى أعقاب اتخاذ قراره بحظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة بأن الحظر لن يرفع قبل انسحاب إسرائيل من كل الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧م.وعندما ظهرت آثار أزمة النفط فى الولايات المتحدة، ولدى حلفائها واضحة فى الطوابير عند محطات التزود بالوقود، هرع هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية لزيارة الرياض فى ٨ نوفمبر ١٩٧٣م، علَّه يحصل على وعد باستئناف تصدير النفط، وطوال نحو أربع ساعات قضاها فى مباحثات مع الملك فيصل أولا ثم مع عمر السقاف وزير الشئون الخارجية السعودية بعدها، وبدأ هنرى كيسنجر حديثه مع الملك فيصل بمداعبة قائلاً « إن طائرتى تقف هامدة فى المطار بسبب نفاد الوقود، فهل تأمرون جلالتكم بتموينها، وأنا مستعد للدفع بالأسعار الحرة»، وكان جواب الملك له محدداً « وأنا رجل طاعن فى السن، وأمنيتى أن أصلى ركعتين فى المسجد الأقصى قبل أن أموت، فهل تساعدنى على تحقيق هذه الأمنية « .وعندما هددت الدول الغربية باستخدام القوة للسيطرة على منابع البترول، قال الملك فيصل: «ماذا

البترول كسلاح فعال لتحقيق الأهداف السياسية العربية ، فقد ارتبط أمام العالم بإعادة اسرائيل إلي حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وقد أثر الحظر البترولي تأثيراً فعالاً علي دول أوروبا الغربية واليابان ، مما جعلها تضغط بقوة علي الولايات المتحدة للاستجابة إلي الحق العربي ، وعلي المستوي السياسي اتسع نطاق المعركة إلي آفاق بعيدة غير متوقعة ، فقد أصيب حلف الأطلنطي بشرخ كبير نظراً لغضب الأعضاء من موقف الولايات المتحدة المتسلط تجاهها ، وكانت صدمة كبيرة لهذه الدول عندما طلبت منها الولايات المتحدة أن تقدم لطائراتها تسهيلات الهبوط والتزود بالوقود في مطاراتها وقواعدها الجوية ، لتمكينها من إقامة الجسر الجوي الطويل لنقل الإمدادات والأسلحة والذخائر من القواعد الجوية الأمريكية إلي إسرائيل ، وقد اعتذرت بعض هذه الدول عن عدم إمكانها تقديم هذه التسهيلات

- بالطبع حدث كل هذا قبل أن تصبح الولايات المتحدة هي القوة العظمي الوحيدة في العالم وحاملات الطائرات الخاصة بها تجوب البحار والمحيطات في العالم دون أن تحتاج موافقة من أحد
- ورفضت بعض الدول الأخري رفضاً باتاً صريحاً حرصاً علي عدم إثارة العرب ضدها ، وخشية رفض إمدادها بالبترول من جهة ، ولإيمان معظمها بعدالة قضية العرب من جهة أخري ، ولم تتمكن الطائرات الأمريكية إلا من استخدام مطار واحد فقط في جزر الأزور في محيط الأطلنطي التابعة للبرتغال ، -- وعلي المستوي الإفريقي ، قامت اثنتان وعشرون دولة بقطع علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل ،)[٩٠٩]
- فكيف وصف السادات هذا النصر والعبور العظيم في خطابه الشهير بمجلس الشعب ؟
- بالفعل لقد كان خطاباً تاريخياً تمت كتابته بأسلوب أدبي رائع ، كما كان إلقاء الخطاب أروع ، فالرئيس السادات كانت لديه قدرة خاصة علي الخطابة ، فكان مما قال ما يلي : (لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف أمامكم لكي نتفاخر معاً ونتباهي بما حققناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر بل أعظم وأمجد أيام تاريخنا ، وربما جاء يوم نجلس فيه معا لا لكى نتفاخر ونتباهى، ولكن لكى نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلا بعد جيل ، قصة الكفاح ومشاقة، ومرارة الهزيمة و ألامها، وحلاوه النصر وآماله، نعم سوف يجئ يوم نجلس فيه لنقص ونروى ماذا فعل كل منا فى موقعه .... وكيف حمل كل منا أمانته وأدى دوره، كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الامة فى فترة حالكة ساد فيها الظلام، ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى تستطيع أمتهم ان تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء

يخيفنا؟ هل نخشى الموت؟ وهل هناك موت أفضل وأكرم من أن يموت الإنسان مجاهدًا فى سبيل الله؟ أسأل الله سبحانه أن يكتب لى الموت شهيدًا فى سبيل الله».وبعد نصر أكتوبر، زار الملك فيصل بن عبد العزيز مصر وطاف موكبه فى عدد من المدن المصرية فى استقبال شعبى بهيج، وقد رفعت رايات ترحيب كان من ضمنها لافتة (مرحبًا ببطل معركة العبور «السادات» وبطل معركة البترول «فيصل»).وسيظل يذكر التاريخ للملك فيصل جملته تلك التى قال فيها « إن ما نقدمه هو أقل القليل مما تقدمه مصر وسوريا من تقديم أرواح جنودهما فى معارك الأمة المصيرية، وإننا قد تعودنا على عيش الخيام ونحن على استعداد الرجوع إليها مرة أخرى وحرق آبار البترول بأيدينا وألا تصل إلى أيد أعدائنا»

[٩٠٩] نقلاً عن كتاب – المعارك الحربية علي الجبهة المصرية–اللواء جمال حماد–دار الشروق طبعة ٢٠٠٢ –صفحة ١١

- إن القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة علي أي مقياس عسكري ، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها ، استوعبت العصر كله تدريباً وسلاحاً ، وعلماً واقتداراً ، وحين أصدرت لها الأمر أن ترد علي استفزاز العدو وأن تكبح جماح غروره فإنها أثبتت نفسها ، وأن هذه القوات أخذت في يدها بعد صدور الأمر لها زمام المبادأة وحققت مفاجأة العدو وأفقدته توازنه بحركتها السريعة ، ولست أتجاوز إذا قلت أن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً بالفحص والدرس أمام عملية السادس من أكتوبر ١٩٧٣ حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياح خط بارليف المنيع وإقامة رؤوس جسور لها علي الضفة الشرقية من القناة بعد أن أفقدت العدو توازنه كما قلت في ست ساعات ، إن هذا الوطن يستطيع أن يطمئن ويأمن بعد خوف أنه قد أصبح له درع وسيف ، وقد كنا نطمئن بعطف العالم ونحن الان نعتز باحترامه ، واقول لكم بصدق وأمانه أننى افضل احترام العالم ولو بغير عطف ، على عطف العالم اذا كان بغير احترام ، وأحمد الله ،)[٩١٠]
- إنه خطاب رائع بلا شك ، فماذا أنشد الشعراء بهذه المناسبة ؟
- لقد كان هناك العديد من الأشعار والأغاني الوطنية في ذلك الوقت وسأقرأ لك مقتطفات من قصيدة – إلي أول جندي رفع العلم – شعر صلاح عبد الصبور

تملىناك ، حين أهلَّ فوق الشاشة البيضاء ،

وجهك يلثم العلما

وترفعه يداك ،

لكي يحلق في مدار الشمس ،

حر الوجه مقتحما

ولكن كان هذا الوجه يظهر، ثم يستخفي.

ولم ألمح سوي بسمتك الزهراء والعينين

ولم تعلن لنا الشاشة نعتا لك أو إسما

ولكن، كيف كان اسم هنالك يحتويك ؟

وأنت في لحظتك العظمي

تحولت إلي معني

كمعني الحب ، معني الخير ، معني النور ، معني القدرة الأسمي.

تراك ،

وأنت في ساح الخلود ، وبين ظل الله والأملاك

تراك ، وأنت تصنع آية ، وتخط تاريخا

---

[٩١٠] مقتطفات من خطاب الرئيس محمد أنور السادات بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣

تراك ، وأنت أقرب ما تكون

إلي مدار الشمس والأفلاك

تراك ذكرتني ،

وذكرت أمثالي من الفانين والبسطاء

وكان عذابهم هو حب هذا العلم الهائم في الأنواء

وأضحى ظلك المرسوم منبهما

رأيتك جذع جميز علي ترعة

رأيتك قطعة من صخرة الأهرام منتزعة

رأيتك حائطا من جانب القلعة

رأيتك دفقة من ماء نهر النيل

وقد وقفت علي قدمين

لترفع في المدي علما

يحلق في مدار الشمس،

حر الوجه مبتسما.

- إنها معاني جميلة بالفعل ، ولكن هل بالفعل تم عبور قوات إسرائيلية من الشرق إلي الغرب فيما يُعرف بالثغرة ؟

الثغرة

- تبدأ قصة الثغرة عندما توقف القتال علي الجبهة المصرية وتوقفت القوات المصرية حوالي خمسة أيام داخل رؤوس الكباري واتخذت أوضاع دفاعية ، بينما استمر القتال علي الجبهة السورية وتم ضغط الجيش الإسرائيلي بعنف علي الجبهة السورية فانسحبت القوات السورية وتدهور الموقف حتي اندفعت القوات الإسرائيلية داخل العمق السوري وأصبحت علي بعد ٤٠كم فقط من العاصمة دمشق ، (وعندما لاحظت القيادة السورية أن القوات المصرية –ما تزال رغم وقوع هذه التطورات الخطيرة في سوريا– باقية في أماكنها شرق القناة دون أن تبدو في الأفق أي إشارات تدل علي أن من المنتظر صدور الأمر لها بالتحرك شرقاً في اتجاه المضايق وفقاً للخطة المتفق عليها بين الجيشين ، أخذت القيادة السورية بدمشق تمطر هيئة عمليات القيادة الاتحادية بالقاهرة بسيل من البرقيات تستفسر فيها عن الموعد الذي سوف تقوم فيه القوات المصرية بالتقدم للأمام لتخفيف الضغط علي الجبهة السورية . وكان اللواء بهي الدين نوفل رئيس هيئة العمليات الاتحادية المشتركة يشعر بمزيد من الحرج وهو يعرض بين ساعة وأخري ما تلقاه من هذه البرقيات علي الفريق أحمد اسماعيل قائد القيادة الاتحادية . وإزاء هذا الضغط السوري المركز والإلحاح المستمر اضطر الرئيس الراحل السادات إلي الاستجابة

لمطالب السوريين ، فاتخذ قراره السياسي الخطير بتطوير الهجوم المصري شرقاً صباح ١٣ أكتوبر الذي تم تأجيله ٢٤ساعة ليجري صباح ١٤أكتوبر . ومما يؤسف له أن هذا القرار الصحيح قد صدر في موعد خاطئ فأصبح شأنه شأن القرار الخاطئ الذي يصدر في الموعد الصحيح سواء بسواء ، وكان له أسوأ النتائج علي مجري الحرب .

- فكيف صدر القرار السياسي بتطوير الهجوم ؟
- أوضح الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر الظروف التي صدر فيها القرار السياسي بتطوير الهجوم ، فذكر في الصفحتين ٢٤٥ و ٢٤٦ من مذكراته ما يلي : "بعد عودتي من الجبهة يوم الخميس ١١أكتوبر فاتحني الوزير –الفريق أحمد اسماعيل– في موضوع تطوير هجومنا نحو المضايق ، ولكني عارضت الفكرة وأبديت له الأسباب ، وبدا لي أنه اقتنع بهذا وأغلق بذلك الموضوع . ولكنه عاد وفاتحني بالموضوع مرة أخري في صباح اليوم التالي –الجمعة ١٢أكتوبر– مدعياً هذه المرة أن الهدف من هجومنا هو تخفيف الضغط علي الجبهة السورية . عارضت الفكرة علي أساس أن هجومنا لن يخفف الضغط علي الجبهة السورية إذ ان لدي العدو ٨ ألوية مدرعة أمامنا ، ولن يحتاج إلي سحب قوات إضافية من الجبهة السورية ، حيث أن هذه القوات قادرة علي صد أي هجوم نقوم به . وليس لدينا دفاع جوي متحرك إلا أعداداً قليلة جداً لا تكفي لحماية قواتنا . وقواتنا البرية ستقع فريسة للقوات الجوية الإسرائيلية نظراً لتفوقها بمجرد خروجها من تحت مظلة الدفاع الجوي ، أي بعد حوالي ١٥ كيلو متر شرق القناة . إذا نحن قمنا بهذه العملية فإننا سوف ندمر قواتنا دون أن نقدم أي مساعدة لتخفيف الضغط علي الجبهة السورية . وحوالي الظهر تطرق الوزير لهذا الموضوع للمرة الثالثة خلال ٢٤ساعة ، وقال هذه المرة : القرار السياسي يحتم علينا ضرورة تطوير الهجوم نحو المضايق ويجب أن يبدأ ذلك صباح الغد ١٣أكتوبر . وبعد الظهر كانت التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم قد تم إعدادها ، وتحرك اللواء محمد غنيم إلي الجيش الثاني ، واللواء طه المجدوب إلي الجيش الثالث حاملين معهما تلك الأوامر إلي قائدي الجيشين ، وبمجرد وصول التعليمات كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني يطلبني علي الهاتف ، وقال بغضب : سيادة الفريق أنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي أرسلتموها مع اللواء غنيم ، ولم تمض بضع دقائق حتي كان اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث هو الآخر علي الخط الهاتفي وأبدي معارضة شديدة لتلك التعليمات التي وصلته مع اللواء طه المجدوب . وفي محادثتي مع كل من اللواء سعد مأمون واللواء عبد المنعم واصل لم أخف عنهما أنني أنا أيضاً قد عارضت هذه التعليمات ، ولكني أُجبرت عليها . فاتحت الوزير مرة أخري في الموضوع ، وتقرر استدعاء سعد مأمون وعبد المنعم واصل لحضور مؤتمر بالقيادة في مساء اليوم نفسه ، وفي خلال هذا المؤتمر الذي امتد حتي الساعة الحادية عشرة مساء كرر كل منا وجهة نظره مراراً وتكراراً ، ولكن كان هناك إصرار من الوزير

علي أن القرار سياسي ، ويجب أن نلتزم به ، وكل ما أمكن عمله هو تأجيل الهجوم إلي فجر يوم ١٤ بدلاً من فجر يوم ١٣ كما كان محدداً لقد كان هذا القرار هو أول غلطة كبيرة ترتكبها القيادة المصرية خلال الحرب ، وقد جرتنا هذه الغلطة إلي سلسلة أخري من الأخطاء التي كان لها أثر كبير علي سير الحرب ونتائجها . ولكي نطور هجومنا للشرق مع المحافظة علي رءوس الكباري قوية ومؤمنة كان لابد لنا من أن ندفع الأنساق الثانية إلي المعركة " انتهت أقوال سعد الشاذلي ، وهكذا أصبح من الواضح بعد الاطلاع علي ما أورده سعد الشاذلي في مذكراته ، وهو حقيقة يعلمها معظم قادة حرب أكتوبر –أن قرار تطوير الهجوم شرقاً الذي جري صباح يوم ١٤أكتوبر كان قراراً سياسياً اتخذه الرئيس الراحل أنور السادات علي مسئوليته بوصفه رئيساً للقيادة السياسية في الدولة وقائداً أعلي للقوات المسلحة –)[٩١١]

- وما هي الخطورة في تطوير الهجوم ؟ وتسبب في قلق القادة ؟
- تطوير الهجوم يعني عبور القوات المدرعة المصرية من غرب القناة إلي شرق القناة ثم التقدم شرقاً في اتجاه المضايق ، مما سيتسبب في خطرين ، الخطر الأول هو ترك فراغ في الغرب يسمح بعبور قوات العدو من الشرق إلي الغرب دون أن يواجهوا أي تهديدات ، والخطر الثاني يتمثل في خروج القوات القائمة بتطوير الهجوم من مظلة الدفاع الجوي فتتعرض للتدمير من طائرات العدو
- وهل تم ذلك بالفعل ؟
- نعم للأسف فقد تعرضت القوات التي قامت بتطوير الهجوم لخسائر فادحة وصدرت لها الأوامر بالانسحاب إلي داخل رءوس الكباري لاستعادة الكفاءة ، وعبرت قوات إسرائيلية من الشرق إلي الغرب في منطقة الدفرسوار التي كانت أضعف نقطة علي الجبهة المصرية في الفاصل بين الجيشين الثاني والثالث وقامت بحصار مدينة السويس للاستيلاء عليها ولكنها فشلت في احتلالها
- معني هذا أن أصبح لنا قوات في الشرق وأصبح للعدو قوات في الغرب
- نعم وحاولت إسرائيل احتلال مدينة السويس قبل وقف إطلاق النار حتي تصبح ورقة ضغط تستخدمها لتنسحب قواتنا إلي الغرب وقد حاول هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي أن يساعد إسرائيل بتأجيل وقف إطلاق النار ليمنحها الفرصة الكافية لاحتلال مدينة السويس ، وقد فطن الرئيس السوفييتي لمناورات كيسنجر فأرسل له رسالة مباشرة كي يفهم أن ألاعيبه مفضوحة للسوفييت ،
- وكيف حدث هذا ؟
- ورد بكتاب المعارك الحربية علي الجبهة المصرية للمؤرخ العسكري اللواء جمال حماد ما يلي : ولكن كيسنجر في غمرة مناوراته الملتوية نسي أن زعماء الكرملين في موسكو كانوا يدركون جيداً حقيقة أهدافه ومراميه في سبيل خدمة إسرائيل ، ولذا أدركته الدهشة حينما نقل إليه القائم بالأعمال السوفييتي مذكرة عاجلة موجهة إليه من الرئيس السوفييتي بريجينيف ، إذ إن ذلك الإجراء لم يسبق

---

[٩١١] نقلاً عن كتاب – المعارك الحربية علي الجبهة المصرية–اللواء جمال حماد–دار الشروق طبعة ٢٠٠٢ –صفحة ٢٤٢

حدوثه من قبل ، فإن بريجينيف وفقا للأعراف الدبلوماسية لا يوجه رسائله إلا إلي الرئيس الأمريكي نيكسون ، وفهم كيسنجر علي الفور أن الرئيس السوفييتي يريد أن يلفت نظره بهذه الرسالة المباشرة المرسلة إليه ، إلي أنه يدرك جيداً حقيقة الدور الذي يلعبه في الخفاء لكي يخدم إسرائيل ، وسجل بريجينيف في رسالته أن القوات الإسرائيلية تتحرك جنوباً بمحازاة الضفة الغربية لقناة السويس وأن هذه الأعمال الإسرائيلية غير مقبولة وتمثل خداعاً وتحايلا فاضحا ، ولذا فهو يقترح اجتماعاً عاجلا لمجلس الأمن ظهراً لإعادة تأكيد وقف إطلاق النار وإصدار الأمر للقوات الإسرائيلية بالعودة إلي المواقع التي كانت عليها لحظة صدور القرار رقم ٣٣٨ في اليوم السابق ، وفور تلقي كيسنجر رسالة بريجينيف سارع بالاتصال بالسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتز لإبلاغه بهذا التطور ، وخلال دقائق معدودات كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علي سماعة الهاتف تطلب كيسنجر من تل أبيب وأخبرها كيسنجر بأن الولايات المتحدة لن تتمكن من الاعتراض علي مشروع قرار يتقدم به الاتحاد السوفييتي إلي مجلس الأمن لعودة القوات المتحاربة إلي خط ٢٢ أكتوبر وفقا لقرار رقم ٣٣٨ الذي اشتركت الولايات المتحدة نفسها في صياغته وتقديمه ، وعندما لاحظ كيسنجر قلقها أخذ يهدئ من روعها فقال لها وفقا لما ورد في مذكراته بالحرف (إنني اقترح عليك أن تنسحب قوات إسرائيل في هذه الحالة مئات قليلة من الياردات من أي مواقع تكون قد وصلت إليها الآن ، ثم تقف وتقول إن هذا هو خط ٢٢ أكتوبر) ، وأضاف كيسنجر متهكما لرئيسة وزراء إسرائيل : (كيف يمكن لأي شخص أن يعرف علي الإطلاق أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر في الصحراء) ، وهكذا أعطي كيسنجر الضوء الأخضر لإسرائيل لكي تمضي قواتها في عملياتها الحربية منتهكة قرار وقف إطلاق النار دون خوف من العقاب ، إذ إن الحل بسيط فيما لو تأزمت الأمور ، هو أن تنسحب قوات إسرائيل بضع مئات من الياردات وتقول : هذا هو خط ٢٢ أكتوبر، لقد كان هنري كيسنجر هو وزير خارجية إحدي القوتين العظميين ، ويمكنها أن تعرف بسهولة بوسائلها المتطورة في الاستطلاع الجوي أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبرعلي وجه التحديد

- فهل صمدت القوات الإسرائيلية في مواقعها غرب القناة ؟
- جدير بالذكر أن القوات الإسرائيلية بعد حدوث الثغرة لم تتمكن من الصمود غرب القناة لفترة طويلة وتم انسحابها بالكامل إلي شرق القناة بعد مباحثات الكيلو ١٠١ التي جرت بين القادة المصريين والقادة الإسرائيليين بينما استمرت القوات المصرية في مواقعها شرق القناة دون انسحاب جندي واحد بعد العبور العظيم
- هل كانت لدينا قوات كافية قريبة لتصفية الثغرة والتعامل معها ؟

- لقد حدثت مناقشات واختلافات بين كبار القادة حول عودة جزء من قواتنا من الشرق لتتعامل مع القوات الإسرائيلية غرب القناة ولكن الرئيس الراحل أنور السادات حسم الموقف وأصدر أوامره بعدم عودة جندي واحد
- ولكن كيف صمدت السويس وأفشلت محاولات العدو[٩١٢] لاحتلالها ؟

ملحمة السويس الخالدة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣

- عن هذا الموضوع ورد بكتاب اللواء جمال حماد ما يلي : ولم تكتف القوات الإسرائيلية بالحصار البري الذي ضربته علي السويس بقطع كل الطرق المؤدية إليها ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي إلي الخليج والبحر الأحمر ، بل عمدت إلي توجيه أقسي أساليب الحرب النفسية ضد سكانها وبغير شفقة أو رحمة بقصد ترويعهم والضغط علي أعصابهم لحملهم علي التسليم ، ولهذا تم لها قطع ترعة السويس المتفرعة من ترعة الاسماعيلية والتي تغذي المدينة بالمياه الحلوة ، كما دمرت شبكة الضغط العالي التي تحمل التيار الكهربي من القاهرة إلي السويس ، وقطعت بعد ذلك أسلاك الهاتف التي تربط المدينة بالعالم الخارجي وكانت القيادة الإسرائيلية علي يقين بأن أهل السويس سوف يقابلون دباباتهم ومدرعاتهم بالأعلام بالبيضاء حال ظهورها في الشوارع بعد أن أصبحوا في هذه الظروف المعيشية التي لا يمكن لبشر أن يتحملها فلا مياه ولا طعام ولا كهرباء ولا معدات طبية أو أدوية للمرضي والمصابين ولا اتصالات هاتفية مع الخارج ، وفضلاً عن ذلك ركزت مدفعيتها قصفها العنيف علي أحيائها السكنية وانطلقت طائراتها تملأ سماء المدينة لتصب علي مرافقها ومنشآتها الحيوية وابلاً من صواريخها لتشعل في المدينة النار والدمار وليخر تحت قصفها المدمر مئات من الشهداء وآلاف من الجرحي حتي ضاق المستشفي العام بالجرحي والمصابين وأصبحوا لفرط الازدحام يوضعون علي الأرض في طرقات المستشفي ، وكان الهدف من هذه الحرب النفسية الشرسة هو إقناع الجميع في السويس بأنه لا جدوي من المقاومة وأن الحل الوحيد للخلاص من كل متاعبهم هو الاستسلام للغزاة
- فكيف تم تنظيم الدفاع عن المدينة ؟
- كان أول نبأ رسمي يصل إلي بدوي الخولي محافظ السويس وقتئذ عن التحركات الإسرائيلية حول المدينة هو التبليغ الهاتفي الذي تم له تلقيه عن طريق العقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٢٣ أكتوبر فقد أبلغه أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلي منطقة شركات البترول بالزيتية وأنها في طريقها إلي ميناء الأدبية وبناء علي دعوة المحافظ انعقد مؤتمر عسكري بالمحافظة – – لبحث إجراءات الدفاع عن المدينة وتأمين مداخلها – – ورغم الظروف

[٩١٢] لم تكن إسرائيل تتحمل أن تستمر الحرب لفترة طويلة لأن تعبئة جيشها يعني شل الحياة في إسرائيل

العصيبة التي كانت تواجه السويس كان الأمل ما يزال قوياً في قهر العدوان الذي أوشك أن يطبق علي المدينة فلقد كان من بين مواطنيها فتية آمنوا بربهم ووطنهم وصمموا علي الدفاع عن مدينتهم الخالدة حتي آخر رمق في حياتهم ، – – – وكان العميد أح يوسف عفيفي يتولي قيادة الفرقة ١٩ مشاة التي كانت تحتل مساحة كبيرة من رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة ، وعندما أدرك الخطر الذي باتت تتعرض له السويس قرر بمبادرة شخصية منه ضرورة الدفاع عن المدينة التي ارتبطت بها فرقته بأوثق الروابط منذ سنوات طويلة ، وفي يوم ٢٣ أكتوبر أرسل سرية مقذوفات موجهة ضد الدبابات بقيادة المقدم حسام عمارة لصد العدو علي طريق المعاهدة وقد قامت السرية بالاشتباك مع دبابات العدو ، وبالإضافة إلي هذه السرية أرسل قائد الفرقة إلي السويس صباح يوم المعركة طاقم اقتناص دبابات بقيادة الملازم أول عبد الرحيم السيد – – وعلي الرغم من أن الدفاع عن السويس كان خارج مهمة الفرقة القتالية فقد تم للفرقة ١٩ احتلال السواتر الترابية علي ضفتي القناة وتم توجيه بعض مواسير مدافع الميدان لتغطية بعض القطاعات الحيوية غرب القناة ، – – – واستعدت الشرطة بأقسامها ووحداتها للمعركة وأصبحت غرفة عمليات الدفاع المدني بميدان الأربعين مقراُ لقيادة أعمال الدفاع الشعبي ، وبذلت أجهزة الإطفاء والإنقاذ جهودا جبارة خلال الغارات الجوية ، كما فتحت الشرطة مخازن السلاح لإمداد المتطوعين بالأسلحة والذخائر ، وأصبحت الشبكة اللاسلكية الخاصة بشرطة النجدة هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة ، لم تنم المدينة الباسلة وظل جميع أبنائها ساهرين طوال الليل في انتظار وصول الأعداء وعندما نادي المؤذن لصلاة الفجر اكتظت المساجد بالناس وفي مسجد الشهداء بجوار مبني المحافظة أم المصلين الشيخ حافظ سلامة وعقب الصلاة ألقي المحافظ كلمة قصيرة أوضح فيها للناس أن العدو يستعد لدخول السويس وطالبهم بالهدوء وضبط الأعصاب وأن يسهم كل فرد بما يستطيعه واختتم كلمته بالهتاف (الله أكبر) وارتفع الدعاء من أعماق القلوب إلي السماء

- فكيف بدأ الهجوم علي المدينة ؟
- وابتداء من الساعة السادسة صباحاً بدأت الطائرات الاسرائيلية في قصف أحياء المدينة لمدة ثلاث ساعات متواصلة في موجات متلاحقة وبشدة لم يسبق لها مثيل وكان الغرض هو تحطيم أي مراكز للمقاومة داخل المدينة والقضاء علي أي تصميم علي القتال لدي أهل السويس – – وتنبه أفراد المقاومة إلي ظاهرة مهمة ، وهي أن الطائرات في أثناء هجماتها الشرسة تتجنب إصابة الشوارع الرئيسية في المدينة والتي تمثل امتداد المحاور الثلاثة التي اعتزم العدو التقدم عليها بمدرعاته ، (محور المثلث – محور الجناين – محور الزيتية) -- –وعبرت قوة مدرعة منطقة المثلث وأخذت تجتاز الطريق في ثبات وتؤدة وقد بلغت ثقة الإسرائيليين بعدم تجرؤ أحد من أهل المدينة علي مقاومتهم إلي الحد الذي جعل قادة الدبابات يقفون جميعاً ليطلوا من أبراج دباباتهم المفتوحة للفرجة

علي الشوارع التي يمرون من خلالها ووصلت الموجة الأولي إلي ميدان الأربعين دون أن تصطدم بأي مقاومة ، وأمسك البطل ابراهيم سليمان بالقاذف أر بي جي ٧ وعندما أصبحت الدبابة الأولي التي تتقدم الرتل المدرع علي بعد حوالي ١٢ متر صوب بدقة نحوها لتنطلق القذيفة وتستقر أسفل برج الدبابة التي اختل توازنها وتوقفت ومالت ماسورة مدفعها إلي الأرض ، وفي الوقت الذي توقفت فيه مدرعات الموجه الأولي أمام قسم شرطة الأربعين بتأثير المفاجأة خرجت آلاف حاشدة من الجنود والمواطنين إلي الميدان والشوارع المحيطة بقسم الشرطة وهم يهتفون في حماسة (الله أكبر ، الله أكبر) وأخذوا في إطلاق نيران بنادقهم ورشاشاتهم علي أطقم الدبابات بينما ألقي البعض بقنابله اليدوية داخل ابراج الدبابات التي أخذت تنفجر ويشتعل بعضها بالنار حتي تحولت المنطقة إلي قطعة من الجحيم – – وعندما أبصرت دبابات الموجتين الثانية والثالثة ما لحق بمدرعات الموجة الأولي من فتك وتدمير حاولت الاستدارة إلي الخلف في ارتباك شديد للعودة إلي منطقة المثلث ونظراٍ لضيق الشارع اصطدمت بعضها بالبعض وأثناء عودتها خرجت حشود ضخمة من البيوت المهدمة علي طول الشارع وأخذوا يطلقون النيران ويقذفون الدبابات بالقنابل اليدوية وهي تفر أمامهم كالفئران المذعورة

- إنها ملحمة بالفعل جعلتني أتذكر كلمات الأغنية الجميلة (يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي ، نستشهد تحتك وتعيشي إنتي)
- بالتأكيد فقد فشلت كل محاولات احتلال المدينة الباسلة
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- تم وقف إطلاق النار وجرت مباحثات بين الجانبين عند علامة الكيلومتر ١٠١ طريق القاهرة السويس ، واشتهرت باسم مباحثات الكيلو ١٠١ بين الطرفين المصري والإسرائيلي عام ١٩٧٤ ، وهي محادثات ذات طابع عسكري جرت بين مصر وإسرائيل بإشراف الأمم المتحدة للوصول إلى تحديد خطوط وقف إطلاق النار في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٣٣٨ في هذا الصدد. ، كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة قد تقدما بمشروع قرار مشترك إلى مجلس الأمن تضمن دعوة جميع الأطراف المشاركة في القتال إلى وقف إطلاق النار بصورة كاملة وإنهاء جميع الأعمال العسكرية في مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة من لحظة اتخاذ هذا القرار. وقد وافق مجلس الأمن على القرار في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وصدر تحت رقم ٣٣٨ فوافقت عليه مصر فور صدوره، ووافقت عليه سوريا بعد يومين (٢٤ أكتوبر) ضمن شروط محددة كانت قد أعلنتها، في حين لم تحدد إسرائيل موقفها منه. ورغم ذلك فقد استمر وقف إطلاق النار عدة ساعات على الجبهة المصرية، ثم عادت إسرائيل إلى مواصلة عدوانها قاصفة مدينة السويس ودافعة بقوات جديدة لتعزيز قواتها في ثغرة الدفرسوار. ازاء هذا الوضع عقد مجلس الأمن اجتماعاً ثانياً في ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣ وأصدر قراراً جديداً حمل الرقم 339 دعا فيه مجدداً إلى وقف إطلاق النار وعودة الأطراف المتحاربة إلى المواقع التي كانت تحتلها قبل ٢٢ أكتوبر

١٩٧٣. لم ترضخ إسرائيل لقرار مجلس الأمن الدولي الجديد، واستمرت في إطلاق النار والتقدم داخل الأراضي المصرية بهدف حصار السويس والجيش الثالث الميداني .عندها اجتمع مجلس الأمن الدولي للمرة الثالثة في ٢٥ أكتوبر، وأصدر قراراً ثالثاً حمل الرقم 340 كرر فيه دعوته لوقف النار فوراً، وقرر إنشاء قوة طوارئ تابعة للأمم المتحدة مؤلفة من أفراد تقدمهم الدول الأعضاء في المنظمة الدولية باستثناء الدول التي تتمتع بعضوية دائمة في مجلس الأمن. إثر صدور هذا القرار توقف إطلاق النار على الجبهة المصرية، فدعا الجنرال إنزيو سيلاسفو قائد قوة الطوارئ الدولية مصر وإسرائيل إلى عقد اجتماع يبحث في الترتيبات اللازمة لوقف إطلاق النار. عقد الاجتماع الأول في خيمة تابعة للأمم المتحدة نصبت عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة-السويس .وقد تم بإشراف الجنرال أنزيو سيلاسفيو ممثلاً للأمم المتحدة، وحضور وفد مصري برئاسة الفريق محمد عبد الغني الجمسي، ووفد إسرائيلي برئاسة الجنرال أهارون ياريف. تركزت النقاشات خلال الاجتماع الذي استمر طوال ليلة ٢٨ أكتوبر على المسائل التالية: وضع الأسرى وجرحى الطرفين. تزويد مدينة السويس والجيش المصري الثالث بالمواد الغذائية وماء الشرب. تحديد المواقع التي يمكن أن ترابط فيها قوات الطوارئ الدولية. رسم خطوط ٢٢ أكتوبر لتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي.

- فماذا كانت البنود التي تم الاتفاق والتوقيع عليها من الجانبين ؟
- تضمنت الاتفاقية البنود التالية: ١- تراعي مصر وإسرائيل بكل دقة وقف إطلاق النار في الأرض والبحر والجو المنصوص عليه بقرار مجلس الأمن وتمتنعان منذ لحظة توقيع الاتفاقية عن جميع الأعمال العسكرية وشبه العسكرية التي يقوم بها طرف ضد الآخر. ٢- يتم الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية طبقاً للمبادئ التالية: -جميع القوات المصرية الموجودة على الجانب الشرقي للقناة يعاد توزيعها وانتشارها غرب الخط المشار إليه بخط والمحدد على الخريطة المرفقة. -جميع القوات الإسرائيلية بما فيها الموجودة غرب القناة والبحيرات المرة يعاد توزيعها شرق الخط المشار إليه بخط على الخريطة المرفقة. -3المنطقة بين الخط المصري والإسرائيلي منطقة عازلة تتواجد فيها قوات للأمم المتحدة تتألف من وحدات لدول غير أعضاء دائمين في مجلس الأمن. -يتم تحديد عدد الأفراد والأسلحة بين الخط المصري وقناة السويس -.يتم تحديد عدد أفراد القوة والأسلحة الموجودة في المنطقة بين الخط الإسرائيلي (خط ب) والخط المرمز له بالخط (ج) والمحدد بالخريطة المرفقة والذي يمتد بامتداد السفوح الغربية للجبال الواقعة في ممري الجدى وميتلا. -التحديد المشار إليه في البند ٣ ،٤ يتم التفتيش عليه بواسطة قوات الأمم المتحدة مع استمرار استخدام النظام الساري الآن الذي يتضمن وجود ضباط اتصال مصريين وإسرائيليين يتعاونون مع ضباط الاتصال التابعين للقوة الدولية-.يسمح بالطيران فوق المناطق المحددة لكل جانب دون اعتراض من الآخر ٣- يتم الاتفاق على تنفيذ مراحل

الفصل بين القوات بواسطة ممثلين للجانبين ٤- هذه الاتفاقية لا تعتبر اتفاق نهائي، وتمثل خطوة أولى نحو سلام نهائي عادل ودائم تنفيذاً لأحكام قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ وفي إطار مؤتمر جنيف

- **حسناً ، لقد انتهت الحرب علي أي حال وبدون تفاصيل تم انسحاب القوات الإسرائيلية ، من الغرب إلي الشرق طبقاً للخطوط التي تم تحديدها في مباحثات الكيلو ١٠١ ، وانتصرت مصر في النهاية وأصبح الجيش المصري متواجد شرق القناة**
- **هذا صحيح ، فإذا جادلك أحد عن نصر أكتوبر والثغرة وما إلي ذلك فقل له أن عبور قواتنا إلي شرق القناة قد نجح أما عبور قوات العدو إلي غرب القناة فقد فشل والدليل هو وضع قواتنا قبل وبعد الحرب ، فلم يعد هناك مانع مائي بين الجيشين المصري والإسرائيلي بعد انتهاء الحرب**
- **أعتقد أن النصر الحقيقي هو عندما قام الرئيس السادات بإعادة افتتاح قناة السويس للملاحة**
- **بالتأكيد فإن مرور السفن عبر قناة السويس بعد إعادة افتتاحها أكبر شهادة علي نجاح العبور والثقة في العسكرية المصرية التي أصبحت تؤمن استخدام المجري الملاحي لقناة السويس ، وقد اختار الرئيس الراحل محمد أنور السادات يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ليمحو فيه ذكرى نكسة ١٩٦٧، عن طريق إعادة افتتاح قناة السويس البحرية أمام حركة الملاحة العالمية بعد أن أغلقت لمدة ٨ سنوات كاملة، بعد جلاء الاحتلال الإسرائيلى منها. ولم يتوقف العمل، منذ ذلك الحين، داخل غرفة التحكم ومراقبة الملاحة بالمجرى الملاحى لقناة السويس، وكان عزم وقوة المصريين من مهندسى الهيئة وضباط الهيئة الهندسية للقوات المسلحة والقوات البحرية فى أن يكون إعادة افتتاح القناة فى نفس يوم إغلاقها، ليسطروا ملحمة جديدة بعد انتصار حرب أكتوبر، ويتم تطهير قناة السويس وتعميقها وافتتاحها للملاحة الدولية أمام العالم بعد انتصار عظيم وإرادة قوية.**
- **حسناً ، لقد تحدثنا عن حرب أكتوبر وإعادة افتتاح قناة السويس ، فما الأحداث المهمة الأخري التي وقعت في عصر السادات كي ننتقل للحديث عنها ؟**
- **إن من أبرز الأحداث أيضاً في عهد السادات ما يسمي بالانفتاح الإقتصادي**
- **فما هو الانفتاح الإقتصادي ؟ وماذا تم فيه ؟**

الانفتاح الإقتصادي في عهد السادات

- **فلنبحث معاً عن موضوع الانفتاح الاقتصادي في عهد السادات علي شبكة الانترنت لمعرفة معلومات عن هذا الموضوع ، حسناً ، فماذا لدينا هنا ؟**
- **هناك مقال بعنوان الانفتاح الاقتصادي للسادات.. القطط السمان وفخ التبعية وحل برلمان ٧٦ ، تحرير:نجوى إبراهيم ١٩ مارس ٢٠١٥ - ٠٧:١٦ م**
- **فلنقرأ ما جاء في هذا المقال : (-- لم يكن يتوقع السادات أن تقابل قراراته بوابل من الاعتراضات والتظاهرات، ولم يكن يعلم أيضًا أنه سيخلق وحش رأسمالي عرف وقتها بمراكز القوى الاقتصادية أو**

"القطط السمان." ، جعل نصر أكتوبر من السادات العبقري الاستراتيجي الذي حقق النصر، كما جعل منه بطل العبور، ووضعه في وضع سياسي مماثل لما كان عليه عبد الناصر في أعقاب حرب السويس ١٩٥٦، فقد بدأ بعد الحرب في إعادة توجيه الاقتصاد المصري، وكان يأمل في جذب العملة الأجنبية، وتمكين المساعدات الأجنبية الخاصة بالتنمية من خلق فرص جديدة للعمل، فيما عرف بسياسة الانفتاح. أقر السادات حزمة من القوانين الاقتصادية "القانون ١١٨ لسنة ١٩٧٥ للاستيراد والتصدير، وقانون النقد الأجنبي رقم ٩٧ لسنة ١٩٧٦، والقانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ وتعديلاته الخاص بفتح باب الاقتصاد المصري لرأس المال العربي والأجنبي في شكل استثمار مباشر في كل المجالات تقريبًا" بالإضافة إلى نظام الاستيراد دون تحويل عملة وإنهاء العمل باتفاقات التجارة والدفع، والتي أدت إلى الانتقال لممارسة التجارة الخارجية على أساس المعاملات الحرة وأصبح بذلك تخطيط التجارة الخارجية مستحيلًا، وجعل تجارة مصر الخارجية عرضه لقوى السوق وتقلباتها الحادة. أدت تلك السياسات إلى زعزعة الاستقرار الاجتماعي للمواطن المصري، وزعزعة سيطرة القطاع العام على القطاعات الاستراتجية للاقتصاد القومي وإضعافه، وتجزئة الاقتصاد المصري، وظهور مراكز قوى اقتصادية جديدة، ونموًا هشًا في الاقتصاد المصري؛ لأنه نمو خدمي بالدرجة الأولى لم تكن الأولوية فيه للقطاعات السلعية؛ كالزراعة والصناعة، وإنما للقطاعات غير السلعية؛ كالتجارة والتوزيع والمال والإسكان الفاخر والنقل الخاص وسياحة الأغنياء.

- فماذا ورد في المقال عن رد فعل الشارع ؟
- كان من مردود تلك السياسات والإجراءات، انتفاضة المواطن المصري معترضًا على عدم الحصول على عائد ذلك النمو وسوء الأحوال المعيشية ورفع الدعم. فقد كان شعب مصر يحلم بالرخاء الاقتصادي الذي وعد به أنور السادات، بعد حرب ١٩٧٣ وتحوله من الاشتراكية للرأسمالية وتقربه من الولايات المتحدة الأمريكية، إلّا أنه في يوم ١٧ يناير ١٩٧٧، أعلن نائب رئيس الوزراء للشؤون المالية والاقتصادية، الدكتور عبدالمنعم القيسوني، في بيان له أمام مجلس الشعب مجموعة من القرارات الاقتصادية؛ منها رفع الدعم عن مجموعة من السلع الأساسية، وبذلك رفع أسعار الخبز والسكر والشاي والأرز والزيت والبنزين و٢٥ سلعة أخرى من السلع الهامة في حياة المواطن البسيط. بدأت الانتفاضة بعدد من التجمعات العمالية الكبيرة في منطقة حلوان بالقاهرة، وتحديدًا داخل شركة مصر حلوان للغزل والنسيج والمصانع الحربية، وفي مصانع الغزل والنسيج بشبرا الخيمة، وعمال شركة الترسانة البحرية في منطقة المكس بالإسكندرية، وبدأ العمّال يتجمعون ويعلنون رفضهم للقرارات الاقتصادية، وخرجوا إلى الشوارع في مظاهرات حاشدة تهتف ضد الجوع والفقر، وبسقوط الحكومة والنظام.
- وكم من الوقت استمرت هذه المظاهرات ؟

- **استمرت الانتفاضة يومي ١٨ و ١٩ يناير وفي ١٩ يناير؛ حيث خرجت الصحف الثلاثة الكبرى في مصر تتحدث عن مخطط شيوعي لإحداث بلبلة واضطرابات في مصر وقلب نظام الحكم، وقامت الشرطة وقتذاك بإلقاء القبض على الكثير من النشطاء وزاد العنف في ذلك اليوم، ثم أعلن في نشرة أخبار الثانية والنصف عن إلغاء القرارات الاقتصادية، ونزل الجيش المصري لقمع المظاهرات، وأعلنت حالة الطوارئ وحظر التجول من السادسة مساءً حتى السادسة صباحًا. ومع استمرار السياسات الاقتصادية المتبعة في تعميق الانقسامات الاجتماعية في مصر، وظهور ما عرف بـ"القطط السمان" وهم الأثرياء الجدد الذين حققوا ثرواتهم من خلال مشروعات الاستيراد الخاص، أو من خلال العمل كمقاولين من الباطن لدى الحكومة، أو استبدال العملة، أو من خلال تمثيلهم لمصالح أمريكية، وبحلول نهاية ١٩٧٥ كشف تقريرًا أعده مجلس الشعب عن وجود 500 مليونير بالفعل في مصر. تبنى نواب المعسكر الاشتراكي- آنذاك- في مجلس ١٩٧٦ الاعتراض على ما أنتجته تلك السياسات؛ فبدأ نواب التحالف العربي الاشتراكي في شن هجوم علي الحكومة والسادات من خلال الاستجوابات وطلبات الإحاطة والتنديد بمراكز القوى الاقتصادية التي أنتجتها تلك السياسات وتضرر المواطن البسيط، فقد وقف النائب محمود القاضي، والمستشار ممتاز نصار، وأبو العز الحريري مع عدد من نواب المجلس في تلك الدورة ضد الرئيس أنور السادات، وضد سياسات الانفتاح، وضد تصالحه مع إسرائيل، وضد كامب ديفيد، فلم يعجب الأمر الرئيس السادات، وأصدر قرارًا بحل مجلس ٧٦ لإسقاط هؤلاء النواب.**
- **ما أسهل حل البرلمان في ظل الحكم المطلق**
- **لقد كانت النتيجة النهائية لسياسة "الانفتاح الاقتصادي" وقوع الاقتصاد المصري في فخ التبعية؛ فلم يعد محلًا للجدل أن مصر في عهد الانفتاح صارت تابعة تبعية كاملة للمركز الرأسمالي العالمي.)[٩١٣]**
- **كيف يتم التحول من الاشتراكية إلي الرأسمالية بهذا الشكل المفاجئ ؟ وهل تم دراسة هذه القرارات قبل اتخاذها ؟**
- **لنقرأ عن نفس الموضوع في موقع آخر لعلنا نفهم ما حدث (------أكدت نانسى الشامى الباحثة بمركز دراسات الشرق الأوسط والتاريخ الاقتصادى بجامعة كولومبيا أن الانفتاح الاقتصادى لم يحقق أى شىء لمصر، ولكنه كان بمثابة مسكن لما كانت تعانى منه مصر فى فترة السبعينيات والحكومة لم تركز على تطبيق سياسة الانفتاح لصالح البلد، فكان الانفتاح (سداح مداح)، أما أفكار عبد الناصر كانت تسعى لإصلاح القطاع العام ولكن فى عصره انتشر الفساد والمركزية فى الحكم مما أجهض مشروعه القومى وذلك فى مناقشة دراسة بعنوان "من القطاع العام إلى الخصخصة: الصناعة المصرية**

---

[٩١٣] نقلا عن موقع التحرير –رابط الموضوع علي الانترنت :

https://www.tahrirnews.com/Story/117379/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%81%D8%AA%D8%A7%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D9%8A-%D9%84%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B7%D8%B7-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%85%D8%A7%D9%86-%D9%88%D9%81%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A8%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%AD%D9%84-%D8%A8%D8%B1%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%86-76/%D9%85%D8%B5%D8%B1

بين السياسات الاقتصادية لناصر والسادات "والتى نوقشت على هامش المنتدى السنوى السابع للتوثيق والتأريخ الاقتصادى بقاعه المجلس الأعلى للثقافة بدار الأوبرا مساء أمس الأحد .وأضافت نانسى الشامى أن التغيير فى السياسات الاقتصادية بين نظامين جمال عبد الناصر وأنور السادات كان له تأثير عميق على الاتجاه الذى سلكه القطاع الصناعى المصرى فى بداية تطوره .وأكدت نانسى الشامى أن السبب الذى دعا السادات إلى التخلى عن برنامج مصر لإيجاد بدائل للواردات والحرص على التصنيع والتخبط الاقتصادى للدولة الذى بدأ فى عهد ناصر كان للاتجاه نحو الانفتاح، وأضافت أن أهداف وخطط الحكومة للانفتاح كانت للاكتفاء الذاتى والتقليل من الاستيراد وزيادة معدل الصناعة للمنتج المصرى والتشجيع على التصدير وتحويل الاقتصاد إلى اقتصاد كبير يعتمد على رأس المال والاستفادة من الثورة التكنولوجية، فالانفتاح جاء فى المقام الأول تشجيعا لجذب الاستثمار ولكنه لم يسمح بزيادة الصادرات فالصناعة كانت تمثل ٤٤ % فى عهد عبد الناصر وفى عهد السادات كانت تمثل ٢٤ % بسبب توجه الدولة إلى قطاع البترول والاستفادة من قناة السويس لجلب رأس المال.
وفى تعليقه على الدراسة، أكد الدكتور عادل جزارين الرئيس الشرفى لجمعية رجال الأعمال المصريين ورئيس شركة النصر للسيارات سابقا، أن أكبر أخطاء عبد الناصر هو تأميم شركات القطاع الخاص، فالحكومة أدخلت البيروقراطية الحكومية بالترقية بالأقدمية وليس بالكفاءة والضرورة الاجتماعية فى تشغيل العمالة الزائدة عن الحد وتشويه اللوائح الداخلية، فالحكومة عجزت عن تدبير الموارد والشركات أصبحت تعانى من نقص النقد العام لأن مفهوم عبد الناصر للصناعة كان من أجل الاستقلال الذاتى وليس من أجل التصدير، أما فى عهد السادات فكانت هناك ضرورة للتوجه للانفتاح فالاقتصاد كان يعانى من انهيار بعد حرب ٧٣ والاقتصاد العالمى اتجه إلى العولمة وكان من الصعب الإبقاء على النظم الاشتراكية.ولكن الإشكالية تكمن فى أن الانفتاح أعلن قبل أن تكون الدولة مؤهلة له

- لم تكن الدولة مؤهلة له
- ولم تكن هناك رؤية ومفهوم واضح لماهية الانفتاح، فكان المفهوم السائد أن الانفتاح هو فتح البلاد للاستثمار الأجنبى .كما أن التخبط فى عملية الخصخصة ومعارضة العمال لها والحكومة ليس لديها رؤية واضحة للخصخصة وشركات القطاع العام بعد الخصخصة تحولت إلى استثمار عقارى وحتى عندما حاولت شركات القطاع العام الشراكة مع الشركات الأجنبية كانت الحكومة تطلب التدخل فى كل صغيرة وكبيرة، كما حدث عندما كنت رئيسا لشركة النصر للسيارات عقدنا شراكة مع شركة فيات العالمية وكانت شراكة ناجحة إلى أن بدأ الحصول على الموافقات الحكومية وطالبت الحكومة بأن تسعر السيارات وهو ما رفضته الشركة الأجنبية.)[٩١٤]

---

[٩١٤] نقلاً عن موقع اليوم السابع – رابط الموضوع علي الانترنت :
https://www.youm7.com/story/2010/5/24/%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%81%D8%AA%D8%A7%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D9%89-%D8%AD%D9%88%D9%84-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%B3%D8%AF%D8%A7%D8%AD-%D9%85%D8%AF%D8%A7%D8%AD/231608

- وفي النهاية اجتمعت الرأسمالية مع الاشتراكية في مكان واحد ولم يعد أحد يفهم ما نوع النظام الاقتصادي في مصر
- طالما أن الرئيس يريد تطبيق الاشتراكية فلا مانع من تطبيقها ، ثم يأتي رئيس آخر ليطبق الرأسمالية ، وإذا اعترض البرلمان يتم حله بسهولة ،
- المؤكد في كل ما سبق هو بالفعل عدم وجود رؤية اقتصادية واضحة ، وكل ما هنالك عملية تجارب يمارسها شخص واحد ويفرضها علي الجميع ، وكلما حدث خطأ يعالجه بنفس الأسلوب الفردي فهي لم تكن دولة مؤسسات والله أعلم
- إن اجتماع النظامين الرأسمالي والاشتراكي في بلد واحد دون دراسة سيؤدي إلي أن الطبيب مثلاً الذي يجري الكشف الطبي علي المرضي في المستشفيات العامة سيحصل علي مرتب ثابت كل شهر أياً كان عدد الحالات المرضية التي كشف عليها وعالجها ، فحالة واحدة مثل مائة حالة ، بينما يري زميله في العيادات والمستشفيات الخاصة يتغير دخله طبقاً لعدد الحالات التي يكشف عليها وبالقياس سنجد المهندس كذلك والمدرس والمحاسب بل وباقي المهن والحرف ، فكيف يكون حال الفرد المحدود الدخل بالقطاع العام والحكومي عندما يري زميله في المهنة في القطاع الخاص يحقق أرباح تتناسب مع حجم العمل الذي يقوم به ،
- لا يوجد أفضل من الاقتصاد الإسلامي الذي يسمح بتنافس رأس المال والسماح بالملكيات الخاصة دون تأميم ، وفي نفس الوقت يجمع الزكاة من الأغنياء ليوفر حياة كريمة للفقراء ، ففيه وسطية بين النظامين ، فهو يتضمن أفضل ما في الرأسمالية وأفضل ما في الاشتراكية ، فالتنافس الحر موجود ويستفيد منه الشعب للحصول علي أفضل منتج بأقل الأسعار ، مع عدم غياب دور الدولة في تحسين المعيشة للفقراء
- هذا صحيح تماماً ، أما عن السادات فقد انخفضت شعبيته كثيراً بعد تطبيق الانفتاح الاقتصادي ، بعد أن كانت في السماء بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣
- هل لديك ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل عن أحداث ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧ ، لنعرف أكثر من وجهة نظر عن هذا الموضوع ؟

أحداث ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧

- لقد كتب هيكل عن هذه الأحداث في الفصل الخامس من كتابه (خريف الغضب) ، وعنوان الفصل (شرخ في شرعية النظام) ويبدأ القصة من مقترحات صندوق النقد الدولي كالآتي : (وهكذا مرة أخري ، وكما حدث في عصر "اسماعيل" ، وجدت مصر نفسها غارقة في الديون . مرة أخري فإن الدائنين الذين تسابقوا في تقديم الديون إليها كانوا هم أنفسهم نفس الدائنين الذين بدأوا في إحكام الحصار وتشديد الرقابة . في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٦ ، بعث "بول ديكي" –ممثل صندوق النقد الدولي بالقاهرة– بمذكرة

سرية وشخصية إلي الدكتور "زكي شافعي"–وزير الاقتصاد –جعل عنوانها "بعض الأفكار حول مسألة الإصلاح الإقتصادي" . وفي هذه المذكرة أوضح "ديكي" أن الحاجة أصبحت ماسة –من وجهة نظره– لبعض الإجراءات الحازمة ، ومن ضمنها تخفيض سعر الجنيه المصري "ما أصبح يسمي تأدباً توحيد سعر الصرف " إلي جانب رفع–أو تخفيض الدعم– علي بعض السلع الضرورية التي كانت الحكومة لسنوات طويلة تقوم بدعمها لصالح سواد الشعب "بين هذه السلع الخبز والسكر والوقود وبعض أنواع الأقمشة الشعبية" ، وباختصار ، كان رفع الدعم–أو تخفيضه– عن هذه السلع موضوعاً حيوياً بالنسبة لمعيشة ملايين من الناس العاديين في مصر . كانت هذه التوصيات الاقتصادية ذات أبعاد سياسية بالغة الخطورة في نفس الوقت . ومن ناحية أخري فإن مصر التي كان اقتصادها موجهاً من الخارج – وبتعبير أدق من واشنطن– كان يمكن عزلها ببساطة عن بقية العالم العربي ، كما أن أموال البترول يمكن أن تستخدم ببساطة في إبقائها طافية علي السطح لا تغرق وفي نفس الوقت لا تقدر علي السباحة –وفي كل الأحوال فإن ذلك كان يعرقل أداءها لدورها كقيادة للعالم العربي – ولقد أدت مقترحات "ديكي" إلي شعور بالقلق العميق لدي الدكتور "زكي شافعي" وزملائه في المجموعة الاقتصادية ، داخل مجلس الوزراء وأبدوا بعض الاعتراضات وكان بين ما حاولوا شرحه لممثل صندوق النقد الدولي أن مصر تحولت في حقيقة الأمر من دولة مصدرة إلي دولة مستوردة ، فإذا جري تخفيض قيمة الجنيه المصري فمعني ذلك ببساطة أن فاتورة الواردات سوف ترتفع ، ولقد كانت الرعشة تصيبهم حين يتصورون ما يمكن أن يترتب علي إلغاء الدعم من آثار –––ولقد بذل الدكتور القيسوني كل جهده لكي يفند مقترحات صندوق النقد الدولي ، لكن الجميع ما لبثوا أن وجدوا أن ما قدمه ممثل صندوق النقد الدولي هو في واقع الحال "طلبات" وليس مجرد اقتراحات ، ––وهكذا جرت الموافقة في مجلس الوزراء علي إلغاء الدعم عن بعض السلع تحت شعار "ترشيد الأسعار" . وصدرت صحف يوم ١٧ يناير ١٩٧٧ تحمل علي صفحاتها الأولي قوائم بخمس وعشرين سلعة ضرورية قفزت أسعارها إلي أعلي مرة واحدة ، كان رئيس الوزراء في ذلك الوقت هو ممدوح سالم . كان بحكم خبرته الطويلة في مسائل الأمن قد اتخذ بعض الاحتياطات التي وجدها ضرورية لتعزيز قوي الأمن في العاصمة ، خصوصاً من قوات الأمن المركزي ، ومع ذلك فقد شهد الصباح الباكر من يوم ١٨ يناير انفجاراً شعبياً هائلاً –––اندفعت إلي الشوارع في كل مكان كتل بشرية من عشرات ألوف الرجال والنساء في مظاهرات ساخطة صاخبة تعلن معارضتها القوية لقرارات انقضت علي رؤوسهم مفاجئة كالصواعق ، وكان من شأنها أن تجعل الحياة مستحيلة بالنسبة لهم ولأسرهم ، ولم يكد النهار ينتصف حتي كانت المظاهرات تجتاح مصر من أقصاها إلي أقصاها من الإسكندرية وحتي أسوان ، ––وكان الموقف يتطور في القاهرة فقد بدأ ممدوح سالم إزاء حجم وكثافة المظاهرات وعنفها يشعر بالحاجة إلي تدخل الجيش – واتصل بالفريق محمد عبد الغني الجمسي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة . ولكن الفريق

الجمسي بدا رافضاً لفكرة اشتراك الجيش في قمع المظاهرات . ولقد قام بتذكير رئيس الوزراء بأنه طلب بعد حرب أكتوبر من الرئيس السادات وعدا بألا يستعمل الجيش علي الإطلاق في أية عمليات ضد جماهير الشعب مهما كانت الظروف . وقال وزير الحربية لرئيس الوزراء : "إنني اتفقت مع الرئيس علي أن حرب أكتوبر وضعت الجيش بالنسبة للشعب في موضع لائق وعزيز ، ولا ينبغي لهذه العلاقة أن تشوهها أي طوارئ سياسية . وقد وافقني الرئيس وأعطاني هذا الوعد" –وإزاء الحاح رئيس الوزراء فقد تصور وزير الحربية أنه وجد لنفسه مخرجاً حين قال إنه علي أي حال لا يستطيع أن يحرك أية وحدات من القوات المسلحة إلي الشوارع إلا بأمر الرئيس بوصفه رئيسا للدولة وقائدا أعلي للقوات المسلحة . وجاءه الأمر بعد اتصال بين رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية ، ومع الأمر بالتدخل صدر قرار باعلان الأحكام العرفية وفرض حظر التجول وتكليف الجيش بمسؤولية السيطرة علي الموقف . – ––وبدأ الجيش يتحرك مسبوقا باعلانات متكررة في الإذاعة والتليفزيون بأن الرئيس قد أمر بإلغاء توصيات المجموعة الاقتصادية التي أدت إلي رفع الأسعار –)[٩١٥]

- وانتهت أزمة يناير ١٩٧٧ ولكنها بالتأكيد قد تركت شرخاً كبيراً في علاقة السادات بالشعب
- هذا صحيح ، لقد فقد جزء كبير من شعبيته بسبب هذه الأزمة
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- أبرز ما حدث بعد ذلك هو ذهابه إلي فلسطين المحتلة وإلقاء خطاب في الكنيسيت الإسرائيلي
- بالتأكيد كانت زيارته مفاجئة وصادمة وخاصة بالنسبة للعرب

مبادرة السلام مع إسرائيل

- يقول هيكل في كتابه عن هذه الزيارة ما يلي (––وجاء الموعد المحدد للرحلة المثيرة . أول رئيس عربي يضع قدمه في القدس المحتلة ، ثم يكون ذلك في وقفة عرفات . كان العالم كله مشدوداً بالانبهار ، وكان العالم العربي علي العكس مشدوهاً بالصدمة . حتي أن الملك خالد ملك المملكة العربية السعودية وقتها ، ––– قال "يومها كنت ذاهباً لأغسل الكعبة الشريفة في وقفة عرفات ودخلت البيت العتيق . ولم أتعود في بيت الله أن أدعو علي أحد ، وإنما تعودت أن أدعو لكثيرين . وبالرغم مني في ذلك اليوم فقد وجدتني ابتهل إلي الله بأن تسقط الطائرة التي تقل السادات إلي القدس وتتحطم قبل أن يصل إليها ، وحتي لا يفضح المسلمين والعرب بذهابه هناك . ولقد راعني أن أدعو علي مسلم داخل الكعبة ، لكن الرجل لم يترك لي خياراً"––)[٩١٦]
- فمتي كانت خطبة السادات التي أكد فيها استعداده للذهاب إلي الكنيست الإسرائيلي ؟

---

[٩١٥] نقلاً عن كتاب –خريف الغضب –محمد حسنين هيكل–مقتطفات مختصرة من صفحة ١٨٥ وما بعدها

[٩١٦] خريف الغضب –محمد حسنين هيكل–صفحة ٢٠١

- هناك تحقيق صحفي عن مبادرة السلام في موقع بوابة الأهرام علي شبكة الانترنت سيساعدنا في معرفة ما حدث وقد جاء فيه ما يلي : (فاجأ الرئيس محمد أنور السادات الشعب المصري والوطن العربي والعالم، حين قال في خطابه أمام مجلس الشعب في ٩ نوفمبر ١٩٧٧ "ستُدهش إسرائيل حينما تسمعني الآن أقول أمامكم إني مستعد إلى الذهاب لبيتهم نفسه، إلى الكنيست الإسرائيلي ذاته".
- فماذا كان رد فعل قادة إسرائيل ؟
- رحّب رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك مناحيم بيجن والأمريكيون بإعلان السادات، وتحدد لزيارته يوم السبت الموافق ١٩ من نوفمبر ١٩٧٧.وبالرغم من إعلان بيجن سياسة حكومته حينها، وهي أن إسرائيل لا يمكن أن تعود إلى حدود عام ١٩٦٧، وأنها لن تعترف بالدولة الفلسطينية، ولن تقبل بإجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية، لم يتراجع الرئيس السادات عن القيام برحلته.وبالفعل في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، هبطت طائرة الرئيس السادات، في مطار بن جوريون في تل أبيب، في لحظة أنهت صفحة الحرب بين مصر وإسرائيل، إلى الآن، وزار السادات البرلمان الإسرائيلي، وألقى خطابًا أكد فيه أن السلام في الشرق الأوسط ممكن، لكنه بحاجة إلى زعماء شجعان. وفي استقبال عسكري حافل رحب قادة إسرائيل ورؤساء حكوماتها السابقين وزعماء طوائفها بالسادات وقابله الشعب الإسرائيلي بحفاوة شديدة.
- فما أهم ما جاء بالخطاب ؟
- قال : "السلام لنا جميعًا .. على الأرض العربية وفي إسرائيل.. وفي كل مكان من أرض العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، والمهدد بين الحين والآخر بالحروب المدمرة، تلك التي يصنعها الإنسان ليقضي بها على أخيه الإنسان، وفي النهاية، وبين أنقاض مابني الإنسان وبين أشلاء الضحايا من بني الإنسان فلا غالب ولا مغلوب، بل إن المغلوب الحقيقي دائما هو الإنسان". وقال " قد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين، لكي نبني حياة جديدة، لكي نقيم السلام وكلنا على هذه الأرض، أرض الله، كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود.. نعبد الله ولا نشرك به أحدًا، وتعاليم الله ووصاياه هي حب وصدق وطهارة وسلام".. هكذا بدأ الرئيس الراحل محمد أنور السادات خطابه أمام الكنيست الإسرائيلي.
- فهل اعترف السادات بدولة إسرائيل ؟
- كما جاء في خطابه أنه يعترف بوجود دولة إسرائيل كواقع، ولذلك فهو مستعدّ لعقد تسوية معها، لكنه لم يعترف بها كـ"دولة يهودية". وقال: "ولقد أعلنت أكثر من مرة، أن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، اعترف بها العالم، وحملت القوّتان العُظميان أمنها وحماية وجودها، ولما كنّا نريد السلام، فعلاً وحقًّا، فإننا نرحب بأن تعيشوا بيننا، في أمن وسلام، فعلاً وحقًّا". وبرغم الاعتراف المؤوّل بإسرائيل، كان ما

طلبه الرئيس المصري أمام الإسرائيليين واضحًا وقاطعًا "هناك أرض عربية احتلتها، ولا تزال تحتلها، إسرائيل بالقوة المسلحة، ونحن نصرّ على تحقيق الانسحاب الكامل منها، بما فيها القدس العربية".

- **فماذا كانت ردود الأفعال العربية ؟**
- **ولم تكن ردود الفعل العربية جميعها إيجابية على الزيارة، حيث قاطعت الدول العربية مصر، معلقة عضويتها في الجامعة العربية التي نقل مقرها الدائم من القاهرة إلى تونس العاصمة، بناء على قرار اتخذ في القمة العربية التي عقدت في بغداد، بدعوة من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، في نوفمبر ١٩٧٨. وقدّم وزير الخارجية المصري الراحل إسماعيل فهمي، استقالته بعد تأكده من زيارة السادات للقدس، وقال إنها "حطمت دور مصر تجاه الفلسطينيين، وعزلت مصر عربياً، كما عزلت السادات داخل بلاده". وكانت هناك بعض ردود الفعل العنيفة، إذ اندلعت المظاهرات المعارضة له فى بيروت والعديد من المدن اللبنانية، كما تم تفجير مكاتب الخطوط الجوية المصرية فى بيروت ودمشق وفقا لإحدى وثائق المخابرات الأمريكية التي تم الإفراج عنها. وجاء موقف السعودية رافضا أيضًا، إذ أصدر الملك خالد بياناً ينأى ببلاده من الزيارة وينتقدها؛ لأنها قسمت العرب، فيما وصف الصحف الغربية الزيارة بـ"المغامرة". ونتيجة لزيارة السادات للقدس، تم توقيع اتفاقية "كامب ديفيد" بين الرئيس الراحل أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى "مناحيم بيجن " فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨.)٩١٧**
- **فما المعلومات المتوفرة عن اتفاقية كامب ديفيد باختصار ؟**
- **(اتفاقية كامب ديفيد عبارة عن اتفاقية تم التوقيع عليها في 17 سبتمبر 1978 بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن بعد ١٢ يوما من المفاوضات في منتجع كامب ديفيد الرئاسي في ولاية ميريلاند القريب من عاصمة الولايات المتحدة واشنطن .حيث كانت المفاوضات والتوقيع على الاتفاقية تحت إشراف الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر .ونتج عن هذه الاتفاقية حدوث تغييرات على سياسة العديد من الدول العربية تجاه مصر، وتم تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية من عام 1979 إلى عام 1989 نتيجة التوقيع على هذه الاتفاقية ومن جهة أخرى حصل الزعيمان مناصفة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٨ بعد الاتفاقية حسب ما جاء في مبرر المنح للجهود الحثيثة في تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط .وتوجد مطالب بالإفصاح عن تفاصيلها التي تبقى سرية حتى اليوم، كما أنّها لم تُعرض على البرلمان المصري.)٩١٨**
- **فما هي شروط اتفاقية كامب ديفيد ؟**

---

٩١٧ نقلاً عن موقع بوابة الأهرام – مقال ريم مصطفي – رابط الموضوع http://gate.ahram.org.eg/News/1643582.aspx

[٩١٨] نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا –رابط الموضوع علي شبكة الانترنت https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8%AA%D9%81%D8%A7%D9%82%D9%8A%D8%A9_%D9%83%D8%A7%D9%85%D8%A8_%D8%AF%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%AF

- **(شروط اتفاقية كامب ديفيد إنهاء حالة الحرب بين مصر وإسرائيل، والبدء في تطبيع العلاقات بين البلدين . انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء المحتلة بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م، مع تحديد عدد القوات المصرية الموجودة في سيناء، ونوعية السلاح المسموح حمله في هذه المنطقة . السماح للسفن الإسرائيلية بالعبور من خلال قناة السويس . اعتبار خليج العقبة ومضائق تيران ممرات دولية لتجنيبها الصراعات العسكرية. الدعوة إلى مباحثات بين مصر، وإسرائيل، والأردن، وممثلين عن الفلسطينيين للبحث في منح حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة)[٩١٩].**
- **إذن فقد عادت سيناء إلي مصر**
- **نعم ولكن لم تصبح لمصر سيادة كاملة عليها**
- **وكيف ذلك ؟**
- **إن السيادة الكاملة للدولة علي أراضيها تعني أن تنشر قواتها في أي مكان وفي أي وقت ، أما السيادة المنقوصة فتجعلك مقيد بأعداد محددة من القوات وبتسليح محدد أيضاً**
- **أعتقد أن إسرائيل طلبت ذلك طبقاً لنظرية الحدود الآمنة التي تحرص علي تنفيذها ، بحيث تحتل جزء من أراضي دول الجوار ، حتي إذا نشبت أي حرب تكون في خارج حدودها الآمنة ، ويقع القتال لدي الدولة المجاورة لها ، وبالتالي عدم وجود قوات مصرية في سيناء بالكامل يؤدي إلي تحقيق هذه النظرية ، فالحرب إذا وقعت ستقع في سيناء علي أي حال أليس كذلك ؟**
- **هذا صحيح ، والأسوأ من ذلك هو عدم وجود قوات كافية لتتعامل مع أي تهديدات أخري غير إسرائيلية قد تتعرض لها سيناء**
- **أفهم ما تقصده ، فالجيش المصري والجيش الإسرائيلي قد تركوا فراغاً يمكن لطرف ثالث أن يحتله بسهولة لعدم وجود قوات كافية من أي جانب لتدافع عن سيناء**
- **إن أفضل وسيلة للدفاع عن سيناء هي التعمير والتنمية ، واحتواء أهلها وتمكينهم من الأرض التي يعيشون عليها ، فقد يشعر المواطن السيناوي بنوع من الجفاء بينه وبين وطنه ، لأسباب كثيرة منها إصرار الحكومات المتعاقبة علي الحلول الأمنية فقط في سيناء ، وعدم اللجوء إلي حلول أخري اقتصادية وسياسية وإجتماعية لتنمية الولاء والانتماء لمصر كوطن لأهالي سيناء الذين قد يشعرون بأنهم غير مصريين فيتولد انعدام الثقة بينهم وبين الحكومة المصرية**
- **حسناً لقد تحدثنا بإيجاز عن أبرز الأحداث في عصر السادات ، كانفراده بالسلطة وحرب أكتوبر والثغرة والانفتاح الاقتصادي ومظاهرات يناير ١٩٧٧ ومبادرة السلام ، فماذا عن الفن في عصر السادات ؟**

---

[٩١٩] رابط الموضوع علي الانترنت :
https://mawdoo3.com/%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%B7_%D9%85%D8%B9%D8%A7%D9%87%D8%AF%D8%A9_%D9%83%D8%A7%D9%85%D8%A8_%D8%AF%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%AF

- لقد كان السادات نفسه فناناً ويحب التمثيل كما كان له خيال واسع ، وهناك مقال يوضح ذلك بموقع الأهرام علي شبكة المعلومات الدولية الانترنت
- فماذا ورد عن هذا الموضوع ؟

السادات والفن

- لقد ورد ما يلي : (-- وأنور السادات هو الوحيد من رجال مجلس قيادة الثورة الذى نجا من مصير الإبعاد لأنه كان الأهون شأناً والأقل خطورة. لكن من عجائب الأقدار أن السادات هو الذى قضى تماما على أفكار ومشروعات عبد الناصر حتى قال المصريون ساخرين : إنه يمشى على خطى عبد الناصر بأستيكة. وهذه أهم مشاكل الحكم فى العالم الثالث عندما يركن الحاكم إلى شخص ضعيف فيسلم له السلطة خوفا من ذكاء الأقوياء. لكن المفارقة أن الضعيف الذى كان ينحنى لتمثال الفرعون بعد موته.. كما فعل السادات عندما انحنى لتمثال عبد الناصر، سريعاً ما أصبح هو الفرعون الجديد. ولم يتأخر الوقت بالسادات حتى يصبح كذلك بعد أن منحه نصر أكتوبر القوة والمجد اللذين كان يبحث عنهما. فراح يتقمص دور الفرعون باقتدار.. وقال أنا وعبد الناصر آخر الفراعنة فى حكم مصر. وساعد السادات على ذلك موهبته الفنية المعروفة، كان يحب التمثيل حتى أنه شارك فى أحد الأفلام، كما كانت قدرته على التقليد والإضحاك هى جواز المرور لقلوب أصحابه، وتجلت قدرته التمثيلية عندما ظل يمثل دور الرجل الضعيف بجانب عبد الناصر لمدة ١٨ عاما حتى يحمى نفسه من مصير الظل الذى أعده عبد الناصر لأصحابه فى مجلس قيادة الثورة. وحتى الذين اسندوا للسادات دور البطولة خلفا لعبد الناصر، كانوا يظنون أنه ضعيف ويسهل السيطرة عليه، لكنه بمجرد أن جلس على الكرسى تخلص منهم جميعاً فى مايو ١٩٧١ وانفرد بالحكم تماماً. قدرات السادات التمثيلية البارعة، ساعدته على أن يقوم بأكبر عملية خداع لإسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. حتى أن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قالت أمام لجنة أجرنات التى حققت معها بعد النصر: إننى لم آخذ تصرفات السادات أبداً على محمل الجد، كان يقول الشىء ويفعل عكسه، كنت أقول هذا الرجل يجب أن يحاكمه شعبه على تصرفاته هذه، لكنه كان يخدعنا. بالفن والخيال الجامح، استطاع السادات أن يحكم مصر وأن ينتصر فى حرب أكتوبر وأن يقوم بزيارة إسرائيل، ويبرم معاهدة كامب ديفيد، لأنه لم يوجد هذا الخيال الذى يتصور أن يقوم رئيس مصر بزيارة إسرائيل، وإلقاء خطاب فى الكنيست. هنا لابد أن يتوقف العقل ليبرز الفنان الجامح أنور السادات وهو يقوم بأصعب أدواره فى السياسة والسينما والحياة. وهو ينزل مطار بن جوريون مبتسما يسلم على من كان يحاربهم بالأمس. ثم وهو يخطب فى الكنيست الإسرائيلى، فأى إنسان كان هذا الرجل ؟ هذه قدرات لا يقوم بها إلا فنان موهوب جامح الخيال لرجل عاش الحياة وعرف الفقر والحرمان حتى أصبح ضابطاً، ثم فصلوه وعرف السجن والتشرد، وعاد للجيش مرة أخرى. وصعد من

دور الكومبارس إلى دور البطولة فى حكم مصر، وكان فى الحالتين بارعاً وتلك عظمة الفن وعبقريته، فالفن يعصم الناس من الجنون والحكام من السقوط.)[٩٢٠]

- **فماذا حدث للتيار الإسلامي في عهد السادات ؟**

السادات والتيار الإسلامي

- **(-- تغيير آخر قدمه السادات عن عصر عبد الناصر كان الإنحناء أمام الصحوة الإسلامية. قلل السادات من القيود على الإخوان المسلمين، سامحا لهم بنشر مجلة شهرية "الدعوة" والتي ظهرت بشكل منتظم حتى سبتمبر ١٩٨١ رغم أنه لم يسمح بإعادة تأسيس الجماعة في ١٩٧١، تم إغلاق معسكرات الإعتقال التي كان يتم احتجاز الإسلاميين بها، وبدأ النظام تدريجيا في إطلاق سراح الإخوان المسلمين المعتقلين، إلا أن التنظيم نفسه ظل غير شرعي، آخر من ظل منهم خلف القضبان حصل على حريته في العفو العام في ١٩٧٥. اعتبر السادات الإسلاميين، بالأخص الجماعة الإسلامية، "ثقل موازن مفيد" لمعارضته الماركسية واليسارية، والمجموعات الطلابية كونها نشطة وذات صوت مسموع. من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٩ نمت الجماعة الإسلامية بمساعدة من نظام السادات من جماعة من الأقليات إلى كونها "في تحكم تام بالجامعات" فيما تم دفع التنظيمات اليسارية إلى الأرض**
- **فمتي تم تسميته بالرئيس المؤمن محمد أنور السادات ؟**
- **في نهاية السبعينات، بدأ بتسمية نفسه "الرئيس المؤمن" والتوقيع باسم "محمد أنور السادات". وأمر تليفزيون الدولة بقطع البرامج لعرض الأذان 5 مرات في اليوم وبزيادة البرامج الدينية. تحت حكمه، منع الحكام المحليون بيع الكحول إلا في الأماكن التي تقدمه للسياح الأجانب في أكثر من نصف محافظات مصر الـ٢٦ مع ذلك، تصادم الإسلاميون مع السادات الذي دعم حقوق المرأة وعارض الحجاب الإلزامي عارضوا بالأخص ما سموه "السلام المخزي مع اليهود" المعروف بمعاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل. بحلول أواخر السبعينات انقلبت الحكومة على الإسلام السياسي. في يونيو ١٩٨١، بعد قتال طائفي عنيف بين المسلمين والأقباط في حي الزاوية الحمراء الفقير في القاهرة، تم حل الجماعة الإسلامية بواسطة الدولة وتدمير بنيتهم التحتية واعتقال قادتهم." وفقًا للمقابلات والمعلومات التي جمعها الصحفي لورانس رايت، كانت جماعة الجهاد الإسلامي المصرية المتطرفة تستدعي ضباط الجيش وتجمع الأسلحة، منتظرة اللحظة المناسبة لشن حملة "إسقاط كامل للنظام الحالي" في مصر، بقتل القادة الرئيسيين للدولة، والإستيلاء على المقرات المصيرية للمؤسسات النظامية، ونشر أخبار عن انقلاب إسلامي كانوا يأملون بأنه سيطلق العنان لانتفاضة شعبية ضد**

---

[٩٢٠] نقلاً عن موقع الأهرام – رابط الموضوع علي الانترنت :

http://www.ahram.org.eg/News/202587/4/642063/%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%A1/%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A7%D8%B5%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9.aspx

السلطة العلمانية في جميع أرجاء البلاد. في فبراير ١٩٨١، تم تحذير السلطات المصرية من خطة جماعة الجهاد عن طريق اعتقال جاسوس يحمل معلومات مصيرية. في سبتمبر، أمر السادات بالقبض على أكثر من ١٥٠٠ شخص، من بينهم العديد من أعضاء جماعة الجهاد، وأيضا بابا الكنيسة

- بابا الكنيسة شخصياً ؟
- نعم ، وغيره من رجال الدين الأقباط، ومثقفين وناشطين من جميع الإتجاهات الفكرية. تم منع كل الوسائل الصحفية غير الحكومية كذلك. فوت الاعتقال الجماعي خلية جهادية في الجيش بقيادة الملازم خالد الإسلامبولي والذي نجح في اغتيال أنور السادات في أكتوبر. وقد خلف السادات في منصبه نائب الرئيس حسني مبارك.)[٩٢١] ، فما الذي تريد معرفته أيضاً عن عصر السادات ولم أحدثك عنه ؟
- أريد أن أعرف كيف عادت الأحزاب في عصره لتمارس نشاطها الذي كان قد توقف في عصر عبد الناصر ؟

كيف نشأت الأحزاب في عهد السادات

- يوجد مقال عن هذا الموضوع علي الانترنت بعنوان (نشأة الأحزاب في عهد السادات.. كيانات شكلية تواكب الانفتاح ومستمرة حتى اليوم جاء فيه ما يلي : في يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٦ ألقى الرئيس الراحل محمد أنور السادات بياناً في مجلس الشعب بمناسبة افتتاح دور انعقاده الأول، وجاء فيه: «قد اتخذت قراراً سيظل تاريخياً يرتبط بكم وبيوم افتتاح مجلسكم الموقر، هو أن تتحول التنظيمات الثلاثة ابتداء من اليوم إلى أحزاب.«كانت هذه الجملة بداية لتجربة جديدة سطرها الرئيس الراحل بقرار منه لتحويل ما كان يسمى بـ«المنابر» إلى أحزاب سياسية لم تأتِ في سياق تطور تاريخي بقدر ما جاءت بقرار رئاسي، ما جعل ولادتها مبتورة ولا تلبي أسباب وجودها.
- فما هي حكاية هذا القرار؟ وما هي المعطيات السياسية والاقتصادية التي وقفت وراء اتخاذه؟
- فى مارس عام ١٩٧٦ وافق الرئيس السادات على تأسيس ثلاثة منابر، تمثل اليمين «الأحرار الاشتراكيون»، واليسار «التجمع الوطني الوحدوي»، والوسط «تنظيم مصر العربي الاشتراكي»، ثم أصدر قراره في خطبة نوفمبر عام ١٩٧٦ بتحويل هذه المنابر إلى أحزاب سياسية، ثم أسّس هو حزبًا جديدًا أُطلق عليه بعد ذلك اسم الحزب الوطني الديمقراطي، ودعا أعضاء حزب مصر الاشتراكي إلى الانضمام إليه، وتولى رئاسته .وقتها اشترط الرئيس السادات لتكوين أي حزب أن يتوافر فيه عددا من الشروط، منها «أن يتقدم ببرنامج يختلف عن برامج الأحزاب الموجودة، وأن تتوافق المبادئ والأهداف

---

[٩٢١] نقلا عن موسوعة ويكيبيديا – رابط الموضوع :

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE_%D9%85%D8%B5%D8%B1_%D8%AA%D8%AD%D8%AA_%D8%AD%D9%83%D9%85_%D8%A3%D9%86%D9%88%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%AA

والبرامج والسياسات مع مبادئ الشريعة الإسلامية، ومبادئ ثورتي يوليو ١٩٥٢ وثورة التصحيح في مايو ١٩٧١، ومقتضيات الحفاظ على النظام الاشتراكي والديمقراطي والمكاسب الاشتراكية.«كما حظر إقامة أيّة أحزاب على أسس طبقية أو دينية، أو إعادة الحياة للأحزاب السياسية التي تم حلّها في عام ١٩٥٢. بناء على ذلك ووفق ما تشير الدكتورة ليلى عبدالوهاب في دراستها «الأحزاب السياسية وعلاقتها بالقوى الاجتماعية في مصر» صدر القانون رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧، وبمقتضاه تأسس عدد من الأحزاب هي: حزب مصر في عام ١٩٧٧ والذي تحول إلى الحزب الوطني الديموقراطي عام ١٩٨٧، وحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي عام ١٩٧٧، وحزب الأحرار الاشتراكيين عام ١٩٧٧، وحزب العمل الاشتراكي عام ١٩٧٨، وحزب الوفد الجديد عام ١٩٧٨، ثم توالى ظهور وتأسيس الأحزاب حتى وصلت إلى ٢٢ حزبا في ٢٠٠٧.وبأي حال لا يمكن فصل هذه التجربة عن إطارها السياسي الذي بدأ في التبلور بتولي السادات الحكم بعد وفاة جمال عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠، والتي خاض في بدايتها صراعاً سياسياً مع من عُرفوا وقتها بمراكز القوى، وانتهى بسيطرة السادات وإحكام قبضته على مقاليد الحكم فيما أسماه بثورة التصحيح في مايو ١٩٧١. في نفس العام صدر دستور ١٩٧١ الذي احتفظ في مواده بالمبادئ والأسس التي تقوم على الاشتراكية والعدالة الاجتماعية وحقوق العمال والفلاحين، مع إضافة مواد تحفظ للمواطن حريته وحقوقه العامة، والاستمرار في الحفاظ على الصيغة السياسية للتنظيم السياسي الواحد. إلا أن الواقع السياسي نحى منحى آخر خاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، فبعد ٣ سنوات من صدور دستور ١٩٧١، صدر قانون ٧٣ لعام ١٩٧٤ المعروف باسم «قانون الاستثمار لرأس المال العربي والأجنبي والمناطق الحرة» والذي سمح لرأس المال الخاص بالعودة لمختلف مجالات النشاط الاقتصادي كالتصنيع، والتعدين، والطاقة، والسياحة، والنقل، واستصلاح الأراضي، والإسكان، وشركات وبنوك الاستثمار، إلى غير ذلك من المجالات.من ثم لم يعد المسار السياسي القديم ملائما للاقتصاد الحر الذي بدأ نشاطه في ضوء قانون ١٩٧٤ والذي بدأ مرحلة جديدة من التغييرات التنظيمية والإدارية أطُلق عليها «الثورة الإدارية»، ومهد ذلك لظهور القانون ٤٠ لسنة ١٩٧٧ الذي يسمح بعودة الأحزاب ليكون مواكبا للنظام الاقتصادي الحر، والذي تأسس بناء عليه ٥ أحزاب، ذُكرت سلفاً.لم يتجه القطاع الخاص والحر، على غرار ما حدث في المجتمعات الغربية من تشجيع للعلم والتكنولوجيا، وتوسيع وزيادة الطاقة الإنتاجية للاقتصاد الرأسمالي، وخلق سوق تنافسية عن حق

- وهل تحققت هذه الأهداف بواسطة القطاع الخاص والحر ؟
- على العكس اندفع بجنون نحو استيراد السلع من الخارج على حساب الصناعة المصرية وتطويرها وتحسينها لتصبح مؤهلة للمنافسة في السوق العالمي، كما حدث مع نماذج من دول شرق آسيا التي تحولت إلى نمور اقتصادية. أما من الناحية الاجتماعية، فقد تشكلت طبقة طفيلية سيطر نمط حياتها

الترفي على المجتمع، كما بدأ نسق جديد من القيم الاستهلاكية يسود مع ازدياد معدلات الفقر واتساع الفجوة بين الطبقات، وضعف في التعليم النظامي مع زيادة الاتجاه نحو التعليم الخاص والأجنبي، كما أخذت معدلات التضخم والبطالة في الازدياد. في ظل هذه الأزمات وجدت الأحزاب السياسية الوليدة فرصة للعمل والاتصال بالجماهير، وزادت فرصتها عند زيارة السادات للقدس وتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وهو الأمر الذي لم يكن الشعب المصري مستعداً لقبوله. أخذت الأزمة السياسية تزداد بين السادات والمعارضة بعد أحداث انتفاضة الخبز عام ١٩٧٧، إلى أن جاءت أحداث سبتمبر ١٩٨١ باعتقال معظم رموز مصر من الكتاب والمفكرين ورجال الدين وغيرهم من المثقفين وطلاب الجامعات، حتى انتهى الأمر بحادث المنصة على يد أعضاء بـ«الجماعة الإسلامية» وقتل السادات في أكتوبر ١٩٨١. تولى الرئيس الأسبق حسني مبارك الحكم في ظل أزمات اقتصادية وسياسية تنذر بحرب أهلية، فكان أول قرار يصدره هو الإفراج عن جميع المعتقلين، كما عقد مؤتمراً اقتصادياً لبحث سبل حل الأزمة الاقتصادية. ورغم أن الأحزاب قد وصلت إلى ٢٢ حزباً، إلا أنه من الملاحظ أنها عاشت أزمة حقيقية وكانت في واد والجماهير في واد آخر، وليس أدل على ذلك من النسب الضعيفة للمشاركة السياسية في إطار هذه التجربة التي سبقت ثورة يناير ٢٠١١ سواء في الانتخابات البرلمانية أو المجالس المحلية أو حتى في انتخابات النقابات.)٩٢٢، وعلي أي حال لقد تكلمنا عن محاولة إعادة الحياة الديمقراطية والتعددية الحزبية في عهد السادات فهل هناك موضوعات أخري تريد أن نذكرها عن ذلك العصر ؟

- بقي فقط حادث المنصة الذي تم فيه اغتيال الرئيس السادات أثناء العرض العسكري

حادث المنصة وإغتيال السادات

- اغتيال الرئيس المصري الأسبق محمد أنور السادات أو حادث المنصة كانت خلال عرض عسكري أقيم بمدينة نصر بالقاهرة في 6 أكتوبر 1981 احتفالاً بالانتصار الذي تحقق خلال حرب أكتوبر 1973. نفذ عملية الاغتيال الملازم أول خالد الإسلامبولي الذي حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص لاحقاً في أبريل 1982. تولى لفترة مؤقته صوفي أبو طالب رئاسة الجمهورية لمدة ثمانية أيام وذلك من 6 إلى 14 ، أكتوبر 1981 حتى تم انتخاب محمد حسني مبارك رئيساً للجمهورية. بدأ العرض العسكري في 6 أكتوبر 1981 م الساعة ١١ وجلس الرئيس السادات وإلى يمينه نائبه محمد حسني مبارك، ثم الوزير العُماني شبيب بن تيمور مبعوث السلطان قابوس، وإلى يساره المشير عبد الحليم أبو غزالة وزير الدفاع

٩٢٢ نقلاً عن موقع شبابيك –رابط المقال علي الانترنت: http://shbabbek.com/show/136675

ثم سيد مرعي، ثم عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر في ذلك الوقت. كان الحاضرون يستمتعون بمشاهدة العرض، خصوصاً طائرات" الفانتوم "وهي تمارس ألعاباً بهلوانية في السماء، ثم انطلق صوت المذيع الداخلي "الآن تجيئ المدفعية". وتقدم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وحوله عدد من راكبي الدراجات النارية، وفجأة توقفت إحدى الدّراجات بعد أن أصيبت بعطل مفاجئ، ونزل قائدها وراح يدفعها أمامه، لكن سرعان ما انزلقت قدَمه، ووقع على الأرض، والدّراجة فوقه فتدخّل جندي كان واقفاً إلى جوار المنصة، وأسعفه بقليل من الماء. كل هذا حدث أمام الرئيس والجمع المحيط به، وأسهمت تشكيلات الفانتوم وألعابها في صرف نظر الحاضرين واهتمامهم، لذا عندما توقفت سيارة خالد الإسلامبولي، فيما بعد ظُنَّ أنها تعطّلت، كما تعطّلت الدّراجة النارية. في تمام الثانية عشرة وعشرين دقيقة، كانت سيارة الإسلامبولي، وهي تجرّ المدفع الكوري الصنع عيار ١٣٠مم، وقد أصبحت أمام المنصة تماماً، وفي لحظات وقف القناص "حسين عباس"، وأطلق دفعة من الطلقات، استقرت في عنق السادات، بينما صرخ خالد الإسلامبولي بالسائق يأمره بالتوقف، ونزل مسرعاً من السيارة، وألقى قنبلة ثم عاد وأخذ رشاش السائق وطار مسرعاً إلى المنصة. كان السادات قد نهض واقفاً بعد إصابته في عنقه وهو يصرخ، بينما اختفى جميع الحضور أسفل كراسيهم. وتحت ستار الدخان، وجّه الإسلامبولي دفعة طلقات جديدة إلى صدر السادات، في الوقت الذي ألقى فيه كل من عطا طايل بقنبلة ثانية، لم تصل إلى المنصة، ولم تنفجر، وعبدالحميد بقنبلة ثالثة نسي أن ينزع فتيلها فوصلت إلى الصف الأول ولم تنفجر هي الآخرى. بعدها قفز الثلاثة وهم يصوّبون نيرانهم نحو الرئيس. وكانوا يلتصقون بالمنصة يمطرونه بالرصاص. سقط السادات على وجهه مضرجاً في دمائه، بينما كان سكرتيره الخاص فوزي عبد الحافظ يحاول حمايته برفع كرسي ليقيه وابل الرصاص، فيما كان أقرب ضباط الحرس الجمهوري، عميد يدعى "أحمد سرحان"، يصرخ بهستيريا" إنزل على الأرض يا سيادة الرئيس"، لكن صياحه جاء بعد فوات الأوان. صعد عبدالحميد سلم المنصة من اليسار، وتوجّه إلى حيث ارتمى السادات، ورَكَله بقدَمه، ثم طعنه بالسونكي، وأطلق عليه دفعة جديدة من الطلقات، فيما ارتفع صوت الأسلامبولي يؤكد أنهم لا يقصدون أحداً إلا السادات. بعدها انطلقوا يركضون عشوائياً، تطاردهم عناصر الأمن المختلفة، وهي تطلق النيران. لم يكن السادات هو الضحية الوحيد للحادث فقد سقط سبعة آخرون هم: اللواء أركان حرب حسن علام. خلفان ناصر محمد من الوفد العماني –المهندس سمير حلمي إبراهيم.–الأنبا صموئيل.–محمد يوسف رشوان –المصور الخاص بالرئيس–سعيد عبد الرؤوف بكر.–شانج لوي صيني الجنسية . الناجين من الحادث: محمد حسني مبارك رئيس مصر ١٩٨١ – ٢٠١١ – المشير عبد الحليم أبو غزالة وزير الدفاع ١٩٨١ – ١٩٨٩

<u>الرئيس مبارك يتولي حكم مصر</u>

- ها قد وصلنا ألي عصر مبارك فماذا تعرف عنه بشكل عام ؟

- سأتلو عليك بعض المكتوب عنه علي مواقع الانترنت : --- يمتد تاريخ مصر تحت حكم حسني مبارك ، بدءا من عام ١٩٨١ مع اغتيال الرئيس أنور السادات حتى ثورة "يناير عام ٢٠١١ "[٩٢٣] حيث تم الإطاحة بمبارك في ثورة شعبية كجزء من الربيع العربي[٩٢٤]في ذلك الوقت. اتسمت فترة رئاسته باستمرار السياسات المتبعة من قبل الرؤساء السابقين مثل ليبرالية الاقتصاد المصري والالتزام باتفاقية كامب ديفيد لعام ١٩٧٩. وقد حافظت الحكومة المصرية برئاسة مبارك على علاقات وثيقة مع باقي الدول العربية وكذلك مع الولايات المتحدة وروسيا والهند وكثير من الدول الغربية. وبالرغم من ذلك فقد قامت المنظمات الدولية غير الحكومية مثل منظمة العفو الدولية ومنظمة حقوق الإنسان بانتقاد سجلات حقوق الإنسان تحت إدارته مرارا وتكرارا. كان هناك قلق بشأن الرقابة السياسية ووحشية الشرطة والاعتقالات التعسفية والتعذيب، بالإضافة لقيود على حرية الرأي والتعبير والتجمهر .أثرت الفترة الرئاسية لمبارك على المجتمع والسياسات المصرية. ويعزى ذلك بشكل كبير إلى النظام السياسي المصري والذي يقتضي موافقة الرئيس على كافة التشريعات القانونية والنفقات الحكومية قبل إصدارها ، أصبح حسني مبارك رئيسا لمصر بعد اغتيال أنور السادات 6 أكتوبر ١٩٨١، وتم تشريع ذلك القرار بعد أسابيع عبر الاستفتاء في مجلس الشعب والذي يعد الأهم ضمن نظام التشريع المصري الذي يقوم على مجلسين تشريعيين. كان مبارك قد تولى منصب نائب الرئيس منذ عام ١٩٧٥، وقد وصل لذلك

---

٩٢٣ انتشرت دعوات على مواقع التواصل الاجتماعي للتظاهر في عيد الشرطة ٢٥ يناير ٢٠١١، ثم تحولت بعد ذلك لثورة شعبية أدت إلى تنحي الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك.

٩٢٤ الثورات العربية، أو الربيع العربي أو ثورات الربيع العربي في الإعلام، هي حركات احتجاجية سلمية ضخمة انطلقت في بعض البلدان العربية خلال أوخر عام 2010 ومطلع2011، متأثرة بالثورة التونسية التي اندلعت جراء إحراق محمد البوعزيزي نفسه ونجحت في الإطاحة بالرئيس السابق زين العابدين بن علي، وكان من أسبابها الأساسية انتشار الفساد والركود الاقتصاديّ وسوء الأحوال المَعيشية، إضافة إلى التضييق السياسيّ والأمني وعدم نزاهة الانتخابات في معظم البلاد العربية. ولا زالت هذه الحركة مستمرة حتى هذه اللحظة. نجحت الثورات بالإطاحة بأربعة أنظمة حتى الآن، فبعدَ الثورة التونسية نجحت ثورة ٢٥ يناير المصرية بإسقاط الرئيس السابق محمد حسني مبارك، ثم ثورة ١٧ فبراير الليبية بقتل معمر القذافي وإسقاط نظامه، فالثورة اليمنية التي أجبرت علي عبد الله صالح على التنحي. وأما الحركات الاحتجاجية فقد بلغت جميع أنحاء الوطن العربي، وكانت أكبرها هي حركة الاحتجاجات في سوريا .تميزت هذه الثورات بظهور هتاف عربيّ ظهر لأول مرة في تونس و أصبح شهيرًا في كل الدول العربية وهو" :الشعب يريد إسقاط النظام ."، ثم بعدها كانت الثورة في تونس عندما أضرم الشاب محمد البوعزيزي النار في نفسه احتجاجاً على الأوضاع المعيشية والاقتصادية المتردية، وعدم تمكنه من تأمين قوت عائلته، فاندلعت بذلك الثورة التونسية، وانتهت في 14 يناير عندما غادر زين العابدين بن علي البلاد بطائرة إلى مدينة جدة في السعودية، واستلم من بعده السلطةمحمد الغنوشي الوزير الأول السابق، فالباجي قائد السبسي .وبعدها بتسعة أيام، اندلعت ثورة 25 يناير المصرية تليها بأيام الثورة اليمنية، وفي 11 فبراير التالي أعلن محمد حسني مبارك تنحيه عن السلطة، ثم سُجن وحوكم بتهمة قتل المتظاهرين خلال الثورة. وإثر نجاح الثورتين التونسية والمصرية بإسقاط نظامين بدأت الاحتجاجات السلميَّة المُطالبة بإنهاء الفساد وتحسين الأوضاع المعيشية بل وأحياناً إسقاط الأنظمة بالانتشار سريعاً في أنحاء الوطن العربي الأخرى، وفي 17 فبراير اندلعت الثورة الليبية، التي سُرعان ما تحولت إلى ثورة مسلحة، وبعد صراع طويل تمكن الثوار من السيطرة على العاصمة في أواخر شهر أغسطس عام2011 ، قبل مقتل معمر القذافي في 20 أكتوبر خلال معركة سرت، وبعدها تسلّم السلطة في البلاد المجلس الوطني الانتقالي .وقد أدت إلى مقتل أكثر من خمسين ألف شخص، وبذلك فإنها كانت أكثر الثورات دموية. وبعد بدء الثورة الليبية بشهر تقريباً، اندلعت حركة احتجاجات سلمية واسعة النطاق في سوريا في 15 مارس، وأدت إلى رفع حالة الطوارئ السارية منذ ٤٨ عاماً وإجراء تعديلات على الدستور، كما أنها أوقعت أكثر من ثمانية آلاف قتيل ودفعت المجتمع الدولي إلى مُطالبة الرئيس بشار الأسد بالتنحي عن السلطة. وفي أواخر شهر فبراير عام 2012 أعلن الرئيس اليمني علي عبد الله صالح تنحيه عن السلطة التزاماً ببنود المبادرة الخليجية لحل الأزمة اليمنية، التي كان قد وقع عليها قبل بضعة شهور عقبَ الاحتجاجات العارمة التي عصفت بالبلاد لعام كامل.

المنصب بعدما ارتقى في رتب القوات الجوية المصرية خلال العقدين السابقين. وقد تولى كذلك منصب نائب وزير الدفاع خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣.

- هل تمت أية محاولات للإصلاح السياسي ؟
- كان الإصلاح السياسي محدودا خلال هذه الفترة، فقبل عام ٢٠٠٥ لم يكن مسموحا لأطراف المعارضة بالترشح للرئاسة، حيث كان المنصب يوكل للرئيس بشكل منتظم من خلال الاستفتاء في مجلس الشعب كل ست سنوات. وقد تغير هذا النظام بعد التعديلات الدستورية في الخامس والعشرين من مايو عام ٢٠٠٥ والتي نصت على تعيين حكومة شرعية منتخبة تعبر عن المواطنين المصريين. عقدت الانتخابات الرئاسية بعد أربعة أشهر ضد اثنين من المرشحين وتحصل فيها مبارك على ٨٩% من أصوات الناخبين. وقد كان من شروط الترشح للمنصب أن يحصل المرشح على تأييد حزب سياسي وموافقة لجنة قومية للانتخابات. وقد دعت الأحزاب السياسية المعارضة لمقاطعة الاستفتاء لفقدانه المعنى، ولكن تم تمريره في النهاية بنسبة موافقة ٨٠.% ، بعد فترة وجيزة من إطلاق حملة رئاسية غير مسبوقة، كانت الأحزاب المعارضة ضعيفة ومنقسمة مقارنة بالحزب الوطني الديموقراطي .وقد شهدت انتخابات مجلس الشعب لعام ٢٠٠٠ فوز أفراد المعارضة بـ٣٤ مقعدا من إجمالي ٤٥٤ من مقاعد المجلس، مقارنة بأغلبية عظمى مقدارها ٣٨٨ مقعد تابعين بالكامل للحزب الوطني الحاكم.
- فماذا عن السياسة الخارجية في عهد مبارك ؟
- لقد حافظ مبارك على إلتزام مصر بمعاهدة كامب ديفيد للسلام في نفس الوقت الذي أعاد فيه العلاقات مع الدول العربية الأخرى. وأحيا أيضا العلاقات مع الاتحاد السوفييتي بعد طرد السادات للخبراء السوفيتيين ، وانضمت مصر من جديد لمنظمة التعاون الإسلامي، وفي نوفمبر ١٩٨٧ أتاح قرار القمة العربية استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الدول العربية، وفي ١٩٨٩ تم إقرار مصر ثانية في جامعة الدول العربية .وكان لمصر دور معتدل في المنصات الدولية كالأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز. وكانت مصر في ظل حكم مبارك حليف قوي للولايات المتحدة، والتي بلغت إعاناتها لمصر متوسط ٢ بليون دولار سنويا منذ توقيع اتفاق كامب ديفيد للسلام عام ١٩٧٩. كانت مصر عضوا في تآلف الحلفاء في حرب الخليج عام ١٩٩١ حيث كانت قوات المشاة المصرية من أول من وطأت أقدامهم في المملكة العربية السعودية لإجلاء القوات العراقية من الكويت .وقد اعتبرت الحكومة الأمريكية دخول مصر في التحالف مصيريا من أجل جمع دعم عربي أوسع لتحرير الكويت. على الرغم من عدم معرفة المصريين بذلك، إلا أن مشاركة القوات المصرية ساهمت بفوائد مالية للحكومة المصرية. فقد نشرت تقارير في وسائل الأخبار أن مبالغ كبيرة دفعت أو بالأحرى محيت من الدين العام. فطبقا لما ورد في مجلة الاقتصادي: ، "لقد كان مفعول الأمر سحريا مثلما تنص عليه الكتب "كما وثق صندوق النقد الدولي ."فقد حالف الحظ حسني مبارك عندما كانت الولايات المتحدة تبحث عن تحالف عسكري

لإجبار العراق على الخروج من الكويت، لم يتردد الرئيس المصري عن المشاركة. فكانت مكافأته بعد الحرب عفو أمريكا والدول العربية في الخليج العربي وأوروبا عن ما يقارب ١٤ بليون دولار من ديون مصر ". وقد توسطت مصر بين سوريا وتركيا في نزاع حول الحدود عام ١٩٩٨ وتحويل تركيا لمجري الماء والادعاء بدعم سوريا لحركات التمرد الكردية. علي الرغم من ذلك فإن مبارك لم يدعم الحرب علي العراق عام ٢٠٠٣ من قبل الولايات المتحدة معللا بأن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني كان يجب أن يحل أولا . وفي ٢٠٠٩ وعندما لمحت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما إلى تفكيرها في مد حمايتها لحلفائها في الشرق الأوسط "إذا استمرت إيران في أنشطتها النووية "، أكد مبارك بأن "مصر لن تكون جزءا من أية مظلة نووية أمريكية على دول الخليج ".

- وماذا ورد عن الاقتصاد ؟
- باشر مبارك بداية من عام ١٩٩١ في تنفيذ برنامج إصلاح اقتصادي محلي طموح لتقليل حجم القطاع العام والتوسعة من دور القطاع الخاص. وفي خلال التسعينات كان هناك سلسلة من إجراءات صندوق النقد الدولي بالإضافة إلى التخفيف الهائل في ديون مصر الخارجية بسبب مشاركتها في تحالف حرب الخليج والذي ساعد مصر على تحسين الأداء الاقتصادي الكلي. وفي خلال آخر عقدين في عهد مبارك تم تقليل التضخم .وفي الفترة من ١٩٨١ إلى ٢٠٠٦ زاد نصيب الفرد من الناتج المحلي أربعة أضعاف استنادا على القوة الشرائية " من ١٣٥٥ دولار عام ١٩٨١ إلى ٤٥٣٥ دولار عام ٢٠٠٦ و ٦١٨٠ دولار في ٢٠١٠" ، وبالرغم من ذلك كان هذا النمو بعيدا كل البعد عن عدالة التوزيع. حيث أن إعادة الهيكلة النقدية وخاصة تعويم الجنيه المصري وتحرير سوق المال المصري وتعديل نظام الضرائب والتقليل الاستراتيجي في الإنفاق الاجتماعي من قبل الحكومة كان سببا في "مصاعب هائلة على أغلبية الشعب المصري" طبقا لأكثر من ملاحظ. وقد أصبح الزواج أصعب كثيرا على الشباب حيث قلت فرص الإسكان وزاد سعرها حتى أصبح من الشائع أن تعيش أسرة مكونة من ستة أفراد في غرفة واحدة ". ومنذ عام ١٩٨٩ في بداية حقبة مبارك، استمر التوزيع غير العادل للثروة في مصر، حيث زاد الدخل السنوي ل ٢٠٠٠ أسرة عن ٣٥٠٠٠ جنيه مصري، بينما كان دخل أكثر من ٤ مليون مواطن يقل عن ٢٠٠ جنيه .وقد بين البنك الدولي أنه "في الوقت الذي تحسن فيه الوضع الاجتماعي في مصر لم تنجح الحداثة في الوصول للكتلة الحرجة من المواطنين. وعلاوة على ذلك فقد انعكست بعض المكاسب الأخيرة نتيجة لأزمة أسعار الغذاء والوقود عام ٢٠٠٨ وكذلك الأزمة الاقتصادية العالمية والتي بطأت من النشاط الاقتصادي" قلت نسبة الوفيات في الأطفال الرضع وكذلك سوء التغذية في الأطفال الأقل من خمس سنوات إلى النصف، وزاد العمر الافتراضي من ٦٤ إل ٧١ عام . وقد تحسن الاقتصاد والمستوى المعيشي للغالبية العظمى من الشعب وإن كان ذلك بشكل غير متساو .وبالرغم من أن ١٨% من الشعب المصري مازال يعيش تحت خط الفقر، فإن هذه النسبة تزيد في قرى صعيد مصر إلى

٤٠%، وبالإضافة إلى ذلك فقد عاش ٢٠% من الشعب في حالة فقر في مرحلة ما خلال العقد الأخير، مما يعمق الإحساس بالهشاشة الاجتماعية وعدم الأمان. وفقا لمقال نشر في صحيفة "سياتل تايمز" في يناير ٢٠١١: " يعيش قرابة نصف الشعب المصري يوميا على دولارين أو أقل"

- وماذا ورد عن المجتمع والتعليم ؟
- في بداية رئاسة مبارك ١٩٨٦ قدر الإحصاء الرسمي للسكان بـ ٥٠.٤ مليون مشتملا على ٢.٣ مليون مصري يعملون في دول أخرى. أكثر من ٣٤% من الشعب في عمر ١٢ عاما أو أصغر، و ٦٨% أصغر من ثلاثين عاما. أقل من ٣% من المصريين في عمر ٦٥ عاما أو أكبر. كأغلبية الدول النامية كان هناك تدفق ثابت لسكان الريف للمناطق الحضرية، ولكن عاش أكثر من نصف السكان في القري. في ١٩٨٩ كان معدل العمر الافتراضي عند الولادة للذكور ٥٩ و ٦٠ للإناث. ومعدل وفيات الرضع حوالي ٩٤ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة. وفي ظل القانون الذي تم تمريره مباشرة قبل رئاسة مبارك، تم هيكلة نظام التعليم الحكومي قبل الجامعي في مصر الذي نص على تسع سنوات تعليم إجبارية. وعلى الرغم من ذلك فقد أخرج معظم الأهالي أولادهم من الدراسة قبل اتمامهم الصف التاسع. وقد ضم النظام الأساسي ست سنوات من الدراسة الابتدائية تليها ثلاث سنوات من الدراسة الإعدادية بعد النجاح في اختبارات خاصة .وبعد اختبارات خاصة أخري يتم قبول الطلاب في المرحلة الثانوية الغير إجبارية "من الصف العاشر للثاني عشر". يختار طلاب المرحلة الثانوية بين النظام العام "قبل الجامعي" والذي يضم منهجا من العلوم الإنسانية والرياضيات والعلوم، والنظام الفني مشتملا الزراعي والتجاري والصناعي. وينقل الطالب للصفوف التالية بعد إحراز درجات كافية في الاختبارات الموحدة . وكعديد من الدول النامية فقد تخلف معدل تسجيل الفتيات في المدارس عن الفتيان. حيث شكلت نسبة الفتيات ٤٥% فقط من التلاميذ في المرحلة الابتدائية عام ١٩٨٥-٨٦ "في بداية عصر مبارك". وسجل في المرحلة الابتدائية نسبة تقدر ب ٧٥% من الفتيات تتفاوت أعمارهن بين ست سنوات واثنا عشر سنة بينما وصلت تلك النسبة ل ٩٤% في البنين. وفي الصعيد كان أقل من ٣٠% من التلاميذ فتيات. فكانت الفتيات تخرج من الدراسة الإبتدائية أكثر من البنين. شكلت الفتيات ٤١% من تلاميذ المرحلة الإعدادية و ٣٩% من تلاميذ المرحلة الثانوية. ومن بين كل الفتيات في سن ١٢-١٨ عام ١٩٨٥-٨٦ انضم ٤٦% منهم فقط للدراسة .
- فكيف انتهي عهد مبارك ؟
- تم خلع مبارك بعد ١٨ يوم من المظاهرات خلال الثورة المصرية عام ٢٠١١، عندما أعلن نائب الرئيس عمر سليمان في ١١ فبراير أن مبارك قد استقال من منصبه كرئيس للجمهورية مفوضا صلاحياته للمجلس الأعلى للقوات المسلحة. و في ١٣ أبريل، أمر النائب العام بحجز مبارك ونجليه لمدة

١٥ يوم على ذمة التحقيق في مزاعم فساد واستغلال للسلطة. ثم صدر الأمر بمحاكمته بتهمة القتل المتعمد للمتظاهرين السلميين خلال ثورة يناير .)[٩٢٥]

- **هل لديك آراء أو مقالات عن تردي أحوال الشعب في عصر مبارك ؟**
- **هناك مقالات قد تفي بالغرض كتبها الأستاذ فهمي هويدي ، ويمكن اعتبارها مرجع نعتمد عليه في وصف تلك الفترة من تاريخ مصر**

١. مقال تحت عنوان (بشرى للفقراء والمهمشين) بقلم الأستاذ فهمي هويدي

- **، فمتي كتب هذه المقالات وماذا ورد فيها ؟**
- **يوجد في أرشيف مقالات الأستاذ فهمي هويدي علي موقع بوابة الشروق[٩٢٦] مقال تحت عنوان (بشرى للفقراء والمهمشين) نشر فى : السبت ١٣ نوفمبر ٢٠١٠ ورد فيه ما يلي : يثير الاهتمام لا ريب إعلان الرئيس حسنى مبارك عن أن السنوات الخمس المقبلة ستكون من أجل الفقراء والمهمشين، وقد أدركت جريدة الأهرام أهمية هذا الكلام فاختارت الجملة عنوانا نشر بالحبر الأحمر على صدر صفحتها الأولى لعدد الخميس ١١/١١. وقد ضاعف من أهمية الكلام أنه قيل فى مناسبة إطلاق البرنامج الانتخابى للحزب الوطنى فى الانتخابات التشريعية التى تجرى هذا الأسبوع، لتعقبها الانتخابات الرئاسية فى العام القادم. وهو ما يعنى أن البرنامج المعلن ليس للحزب الحاكم فقط، لكنه للرئيس أيضا، الذى فهمنا أخيرا أنه سيرشح نفسه لولاية سادسة. ولأن إشارته تحدثت عن السنوات الخمس القادمة فقد طمأننا الرئيس أيضا إلى أن الفقراء والمهمشين سيظلون فى بؤرة اهتمامه إذا ما تحقق له الفوز فى الانتخابات الرئاسية المقبلة .صحيح أن كلام الرئيس صدر فى ذات اليوم الذى نشرت فيه صحف القاهرة صور المظاهرات الغاضبة لمئات الموظفين والعمال المهمشين من موظفى التربية والتعليم ومراكز المعلومات والعاملين بالشركات البترولية، وقد انتشرت تلك المظاهرات فى محافظات القاهرة والمنوفية وأسيوط، إلا أن ذلك لا يتعارض أو يضعف الكلام الذى قيل، لأن التعهد الرئاسى انصب على السنوات الخمس المقبلة، وليس فيه ما يدعو إلى الالتزام فى الوقت الراهن أو سريانه بأثر رجعى .ولأننى أحد الذين أدركوا أهمية الرسالة فى هذا الكلام، ولاحظوا أن صدوره عن رئيس الجمهورية يضاعف من تلك الأهمية ويكسبه وزنا أكبر، يتجاوز كونه كلام مناسبات أو كلام جرايد، فقد عَنَّتْ لى بعض الأسئلة الاستفسارية من وحى المشهد، أردت بها الاطمئنان على مصير أهلنا ومستقبلهم.. من هذه الأسئلة ما يلى: إذا كانت السنوات الخمس القادمة ستكون لأجل الفقراء والمهمشين، فهل معنى**

[٩٢٥] رابط الموضوع علي الانترنت :
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE_%D9%85%D8%B5%D8%B1_%D8%AA%D8%AD%D8%AA_%D8%AD%D9%83%D9%85_%D9%85%D8%A8%D8%A7%D8%B1%D9%83

[٩٢٦] رابط مقالات فهمي هويدي علي موقع بوابة الشروق : https://www.shorouknews.com/columns/fahmy-howaidy

ذلك أن تلك الفئات لم يكن لها حظها من الاهتمام فى الثلاثين سنة الأخيرة؟ وهل صحيح ما يروج من أن فترة الثلاثين سنة السابقة كانت حظوظ الميسورين فيها أكبر، وأن هؤلاء شبعوا واستكفوا، ومن ثم حل الدور على المهمشين والمستضعفين؟ وإذا صح أن السنوات التى خلت كانت لصالح الميسورين والمحظوظين، فهل نتوقع أن يكونوا قد تركوا شيئا للمستضعفين بعدما ظلوا ينعمون بخيرات البلاد وثروتها العقارية وقروضها وتسهيلاتها طوال ثلاثين عاما؟. وإذا كان إرضاء الميسورين وإشباع حاجاتهم استغرق ثلاثين عاما، فما هى المدة الكافية لإرضاء المهمشين والمستضعفين؟ الأمر ليس سهلا كما رأيت، مما قد يقتضى إطالة مدة السنوات الخمس المقترحة فى كلام الرئيس، ويستدعى تكثيف الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى ـ بحق الأيام المفترجة التى نحن بصددها ـ لكى يطيل فى عمره لكى يفى بما وعد، ويشبع رغبات عشرات الملايين من المصريين الذين انتعشت أحلامهم وشاعت الفرحة فى أوساطهم حينما وجدوا أن الرئيس تذكرهم وسط شواغله وهمومه التى لاحقته طوال الثلاثين عاما الماضية، بحيث حل عليهم الدور أخيرا وأصبحوا يأملون خيرا فى السنوات الخمس التالية. وحتى إذا كانت الفترة محدودة، إلا أن الأهم أنهم استعادوا الأمل أخيرا، ولاحت لهم ابتسامة الأقدار بعد طول انتظار هذه التداعيات توقفت عندى حين لمحت فى القاعة التى ألقى فيها الرئيس خطابه لافتة عريضة طبعت عليها صور خمسة أطفال، وإلى جانبهم عبارة تقول: «علشان تطمِّن على مستقبل ولادك ـ صوتك لمن يملك برنامج حقيقى.. وهاينفذو ..«لم أفهم ما إذا كان هؤلاء الأطفال من خارج المهمشين المقصودين أم لا، وصدمتنى ركاكة اللغة وفضيحتها فى الجملتين المكتوبتين. مما جعلنى أصدق ما يقال عن الاستعانة بخبراء أجانب فى إخراج مثل هذه المناسبات. الأمر الذى دفعنى إلى التساؤل عما إذا كان أعضاء الفريق الذين نظموا العملية يعرفون شيئا عن اللغة الفصحى أو عن الفقراء والمستضعفين فى مصر، ولم استبعد أن يكونوا قد شرعوا فور انتهاء الرئيس من خطابه فى الدخول على محرك بحث «جوجل» لكى يعثروا على عناوين المستضعفين وأرقام هواتفهم النقالة، لكى يبعثوا إليهم بالبشارة المعلنة عبر «الإيميل

- إنه مقال يصف الأحوال في تلك الفترة بأمانة كما لا يخلو من السخرية والتهكم ويشير إلي وجود مساحة حرية سمح بها مبارك للتنفيس عن الغضب المكبوت، فهل كتب فهمي هويدي عن مقدمات ثورة يناير ٢٠١١ ؟
- هناك مقال يحذر فيه النظام من احتمال قيام ثورة قريبة وهو تحت عنوان (لا تدفنوا الرءوس فى الرمال)
- فمتي تم نشره وماذا ورد فيه ؟

٢. فهمي هويدي يحذر ويكتب لا تدفنوا الرءوس فى الرمال

- تم نشر المقال يوم : الخميس ٢٠ يناير ٢٠١١ وكتب فيه ما يلي : أصل الداء الذى ساعد على قتل النظام، قمعه الشديد لحرية الرأى والتعبير، وتكميمه لكل الأفواه، وسيطرته على كل وسائل الإعلام التى لم تكن تستطيع أن توجه نقدا لحكومته أو تصرفات بطانته. وكانت نتيجة هذه السياسات استمرار الغليان تحت السطح .بهذه القيود التى كبلت حرية التعبير حرم النظام نفسه من فهم أبعاد ما يجرى تحت السطح، الذى ازدحم بمظاهر الزلفى والنفاق والحرص على ألا يسمع سوى ما يرضيه.. من ثم فإنه فقد جسور التواصل مع أجيال جديدة نهشت البطالة روحها وكرامتها، وكانت تلك الأجيال قوام الغضب العارم الذى اجتاح المدن .قد يكون صحيحا أن النظام حمى البلاد من أخطار تنظيمات متطرفة عصفت بأمن الجيران. لكن الاستقطاب الحاد الذى عاشته البلاد طيلة السنوات الأخيرة، والاعتماد بالكامل على قوى الأمن فقط، والعداء الشديد لكل رأى مخالف حرم النظام من مساندة قوى عديدة كان يمكن أن تكون جزءا من جبهته فى الحرب على التطرف .حين يقرأ المرء الفقرات السابقة سيجد أنها تصف الأوضاع فى أقطار عربية عدة. صحيح أن حالة تونس التى تتصدر نشرات الأخبار هى أول ما يخطر على البال، لكن القارئ سيلاحظ أيضا أن تونس لا تنفرد بتلك الصفات، لأنها تنطبق أيضا على أقطار عربية أخرى مغربية ومشرقية. والحق أن الفقرات كتبت فى التعقيب على ما جرى فى تونس، ولا غرابة فى ذلك، حيث لا نكاد نجد فى الحيثيات التى أوردتها أية مفاجأة .لكن المفاجأة الحقيقية أن تلك الحيثيات تم إيرادها للتدليل على أن ما حدث فى تونس يمثل حالة متفردة خاصة لا تنطبق على غيرها من الدول. والمفاجأة الأخرى أن الذى كتب هذا الكلام زميلنا الأستاذ مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين المصريين (الأهرام ٢٠١١/١/١٧). للدقة فإنه لم ينفرد بهذا الخطاب، لأن الصحف القومية تضمنت تعليقات أخرى عبرت عن نفس الموقف، وبذلت جهدا ملحوظا لإقناعنا بأن ما حدث هناك لايمكن أن يتكرر فى مصر، وإن الذين يلمحون إلى احتمال انتقال العدوى إلى مصر يعبرون عن تمنياتهم الخاصة، بحيث إن أملهم ذاك لا يختلف عن عشم إبليس فى الجنة. لا أعرف إن كان الترويج لفكرة خصوصية وتفرد الحالة التونسية تم تطوعا من جانب بعض كتاب الصحف القومية الذين التقوا عليها «مصادفة»، أم أن ثمة توجيها بذلك، ولكن الذى أعرفه أن هناك فرقا حقا بين الأوضاع فى تونس ونظائرها فى مصر، ولكنه بخلاف ما ادعى زملاؤنا فرق فى الدرجة وليس فى النوع. أعنى أن ثمة أزمة واحدة فى البلدين، ولكن تفاصيلها مختلفة فى كل منهما .أزمة الحريات وإقصاء الرأى المخالف واحدة، والاعتماد على الأمن واحد. واحتكار السلطة والتفاف المنافقين والمهللين حول القائمين على أمرها مشهود هنا وهناك .أما الغلاء الذى طحن الناس والبطالة التى أذلتهم ودفعت بعضهم إلى الانتحار، والفساد الضارب أطنابه فى دوائر عدة، ذلك كله يكاد يكون وباء لم يسلم منه كل منهما. ولا أنكر أن ثمة فرقا لابد من الاعتراف به فى درجة تكميم الأفواه ومصادرة الآخرين وقمعهم، وربما كانت

هناك فروق مماثلة فى المجالات الأخرى، ولكن تلك الفروق لا تلغى وجود أصل الأمراض. وتظل محصورة فى درجة الإصابة بها، وللعلم فثمة أوضاع فى مصر أسوأ منها فى تونس، أخص بالذكر منها حالة المجتمع المدنى، الذى هو فى تونس أقوى وأصلب عودا منه فى مصر. ونظرة على وضع اتحادات العمال والنقابات المهنية فى البلد تشهد بذلك. إذ هى حاضرة هناك بقوة فى حين أنها غائبة أو مغيبة تماما فى مصر .رغم أى تشابه يمكن رصده بين البلدين، فالذى لاشك فيه أن أحدا لا يتمنى لمصر أن تواجه ذات المصير الذى واجهته تونس .لكن التمنى وحده لا يكفى، كما أن دفن الرءوس فى الرمال لا يفيد. وللعلم فإن تجنب ذلك المصير ليس فيه سر ولا سحر، حيث طريق الاستقرار وكسب رضى الناس معروف للكافة. وهذا الطريق لا ينفع إلا من خلال الإصلاح السياسى الحقيقى وليس المزور، ومن خلال الالتزام بقيم الممارسة الديمقراطية وليس غشها أو الالتفاف عليها. والعبر فى هذه الحالة عديدة وماثلة بين أيدينا .لكن المشكلة تكمن فى كثرة العبر وندرة المعتبرين. إن الذين لا يتعلمون من دروس التاريخ ينبغى ألا يلوموا إلا أنفسهم إذا ما ضاقت بهم الشعوب فانتفضت وألقت بهم فى مزبلة التاريخ

- فهل هناك كتب تتناول مبارك وعصره ؟

٣. فقرة مختصرة من كتاب هيكل عن مبارك

- نعم هناك كتاب اسمه (مبارك وزمانه –من المنصة إلي الميدان) لمحمد حسنين هيكل فما الموضوع الذي تريد معرفته من هذا الكتاب ؟
- أريد أولاً معرفة رأي هيكل في محاكمة مبارك
- يقول هيكل في كتابه ما يلي : (--ومع أن مبارك وصل إلي قاعة محكمة –ممدداً علي سرير طبي دخل به إلي زنزانة حديدية – فإن التهم التي وُجهت إليه لم تكن هي التهم التي يلزم توجيهها ، بل لعلها الأخيرة فيما يمكن أن يوجه إلي رئيس دولة ثار شعبه عليه ، وأسقط حكمه وأزاحه . والمنطق في محاكمة أي رئيس دولة أن تكون محاكمته علي التصرفات التي أخل فيها بالتزامه الوطني والسياسي والأخلاقي ، وأساء بها إلي شعبه ، فتلك هي التهم التي أدت للثورة عليه ، أي أن محاكمة رئيس الدولة –أي رئيس وأي دولة– يجب أن تكون سياسية تثبت عليه –أو تنفي عنه– مسئولية الإخلال بعهده ووعده وشرعيته ، مما استوجب الثورة عليه ، أما بدون ذلك فإن اختصار التهم في التصدي للمظاهرات –قلب للأوضاع يستعجل الخاتمة قبل المقدمة ، والنتائج قبل الأسباب ، ذلك أنه إذا لم يظهر خروج "مبارك" علي العهد والوعد والشرعية ، إذن فقد كان تصديه للمظاهرات ممارسة لسلطته في استعمال الوسائل الكفيلة لحفظ الأمن العام للناس ، والمحافظة علي النظام العام للدولة ، وعليه

يصبح التجاوز في إصدار الأوامر أو تنفيذها –رغبة في حسم سريع ، ربما تغفره ضرورات أكبر منه ، أو في أسوأ الأحوال تزيُّداً في استعمال السلطة قد تتشفع له مشروعية مقاصده

- لا يوجد أي مبرر علي الإطلاق لقتل متظاهر سلمي تحت أي مسمي ، فماذا كتب أيضاً
- وكذلك فإنه بعد المحاكمة السياسية –وليس قبلها– يتسع المجال للمحاكمة الجنائية ، ومعها القيد والقفص ، بمعني أن المحاكمة السياسية هي الأساس الضروري للمحاكمة الجنائية لرئيس الدولة ، لأنها التصديق القانوني علي موجبات الثورة ضده ، وحينئذ يصبح أمره بإطلاق النار علي المتظاهرين جريمة يكون تكييفها القانوني إصراره علي استمرار عدوانه علي الحق العام ، وإصراره علي خرقه المستمر لعهده الدستوري مع الأمة ––)[٩٢٧]
- فهل ذكر هيكل أسباب تأليفه كتاب عن مبارك وزمانه ؟
- يقول هيكل : (––لكني رحت أسأل نفسي عن الهدف من جمع هذا السجل ، ثم ما هو النفع العام بعد جمعه ؟ – وبداية فقد ورد علي بالي أن تسجيل ما جري في حد ذاته قد يكون وسيلة إلي فهم مرحلة من التاريخ المصري المعاصر مازالت تعيش فينا ، ومازلنا نعيش فيها ، –ثم ورد علي بالي أن كثيراً من قضايا ما جري مازالت مطروحة للحوار ، وبالتالي فالتسجيل سند للوصل والاستمرار ،
- فماذا ورد أيضاً علي باله ؟
- يستطرد فيقول : ثم ورد علي بالي أن بعض الملامح والإشارات في سياق ذلك الحوار ربما تكون مفيدة في التعرف أكثر علي لغز رجل حكم مصر ، وأمسك بالقمة فيها ثلاثين سنة لم يتزحزح ، وتغيرت فيها الدنيا ، وظل هو ، حيث هو لا يتأثر ، وذلك لابد له من فحص ودرس . وتركت خواطري تطل علي كل النواحي ، ثم اكتشفت أن الاتجاهات تتفرع وتتمدد –لكن الطرق لا تصل إلي غاية يمكن اعتبارها نقطة تصل بالسؤال إلي جواب ، وعدت إلي ملفاتي وأوراقي ، ومذكراتي وذكرياتي ، وبرغم آثار كثيرة وجدتها ، ومشاهد عادت إليّ بأجوائها وتفاصيلها ، فقد طالعني من وسط الزحام سؤال آخر يصعب تفاديه – مجمله : –ماذا أعرف حقيقة وأكيداً عن هذا الرجل الذي لقيته قليلاً ، واشتبكت معه –ومع نظامه – طويلاً ؟ والأهم من ذلك : ماذا يعرف غيري حقيقة وأكيدا عن الرجل ؟ ، وقد رأيت –ورءوا– صورا له من مواقع وزوايا بلا عدد ، لكنها جميعاً لم تكن كافية لتؤكد لنا اقتناعاً بالرجل ، ولا حتي انطباعاً يسهل الاطمئنان إليه والتعرف عليه ، أو الثقة في قراره ، بل لعل الصور وقد زادت عن الحد ، ضاعفت من حيرة الحائرين ، أو علي الأقل أرهقتهم ، وأضعفت قدرة معظمهم علي اختيار أقربها صدقاً في التعبير عنه ، وفي تقييم شخصيته ، وبالتالي في الحكم عليه ؟ ، وإذا أخذنا الصورة الأولي للرجل كما شاعت أول ظهوره ، وهو تشبهه بـ "البقرة الضاحكة" –إذن فكيف استطاعت "بقرة ضاحكة" أن تحكم

---

[٩٢٧] نقلاً عن كتاب –مبارك وزمانه –من المنصة إلي الميدان–محمد حسنين هيكل –دار الشروق–الطبعة الرابعة٢٠١٣– من صفحة ٧ وما بعدها

مصر ثلاثين سنة ؟ ، وإذا أخذنا الصورة الأكثر بهاءً ، والتي قدمت الرجل إلي الساحة المصرية والعربية بعد حرب أكتوبر باعتباره قائداً لما أطلق عليه وصف "الضربة الجوية" إذن فكيف تنازلت "الأسطورة" إلي تلك الصورة التي رأيناها في المشهد الأخير له علي الساحة بظهوره ممددا علي سرير طبي وراء جدران قفص في محكمة جنايات مصرية ، مبالغاً في إظهار ضعفه ، يرخي جفنه بالوهن ، ثم يعود إلي فتحه مرة ثانية يختلس نظرة بطرف عين إلي ما يجري من حوله ، ناسياً- أنه حتي الوهن له كبرياء من نوع ما ، لأن إنسانية الإنسان ملك له في كافة أحواله ، واحترامه لهذه الإنسانية حق لا تستطيع سلطة أن تنزعه منه -إلا إذا تنازل عنه بالهوان ، والوهن مختلف عن الهوان

- فماذا عن الصور الأخري لمبارك من وجهة نظر هيكل ؟
- وإذا أخذنا صورة الرجل كما حاول بنفسه وصف عصره ، زاعماً أنه زمن الإنجاز الأعظم في التاريخ المصري منذ "محمد علي" إذن فكيف يمكن تفسير الأحوال التي ترك مصر عليها ، وهي أحوال تفريط وانفراط للموارد والرجال ، وتجريف كامل للثقافة والفكر ، حتي أنه حين أراد أن ينفي عزمه علي توريث حكمه لابنه رد بحدة علي أحد سائليه وهو أمير سعودي تواصل معه من قديم ، قائلاً بالنص تقريباً : -"يا راجل حرام عليك" ، ماذا أورّث ابني – أورِّثه "خرابة" ؟! ، ولم يسأله سامعه متي وكيف تحولت مصر إلي "خرابة" حسب وصفه !! وهل تولي حكمها وهي علي هذا الحال ، وإذا كان ذلك فماذا فعل لإعادة تعميرها طوال ثلاثين سنة ، وهذه فترة تزيد مرتين عما أخذته بلاد مثل الصين والهند والملايو لكي تنهض وتتقدم !! ثم إذا كان قد حقق ما لم يستطعه غيره منذ عصر "محمد علي" إذن فأين ذهب هذا الإنجاز ؟!! -وكيف تحول- تحت نظامه إلي "خرابة" ثم لماذا كان هذا الجهد كله من أجل توريث "خرابة" ، خصوصاً وأن الإلحاح عليه كان حقل الألغام الذي تفجر في وسطه نظام "الأب" حطاماً وركاماً ، ما زال يتساقط حتي هذه اللحظة بعد قرابة سنة من تصدعه وتهاويه !! --)[٩٢٨]

[٩٢٨] نقلاً عن كتاب -مبارك وزمانه -من المنصة إلي الميدان-محمد حسنين هيكل -دار الشروق-صفحة ١١

الفصل رقم (١٨) الفصل الأخير شاهد علي العصر

وصف المجتمع :

- إلي هنا يمكن أن نكتفي بسرد الأحداث حتي لا نسهب في التفاصيل وننسي الغرض من الفصل الأخير وهو وصف المجتمع الذي نعيش فيه لأن هذا سيكون أكثر فائدة ودقة من وصف الأحداث
- لا مانع فالأحداث سيتم معرفتها علي أي حال يوماً ما في المستقبل بشكل أوضح بعد أن تنجلي الأمور ، ولكن ما قد تحتاجه مني الآن هو وصف المجتمع بإيجابياته وسلبياته والتي وعدتك بالكتابة عنها
- فكيف تري الشعب المصري حالياً
- ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حالياً أنهم شعب عاطفي إلي أبعد الحدود ، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص ، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسي أي إساءة ممن يحب
- وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا
- والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جداً في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخص في غير مكانه الصحيح وقد تزيح أيضاً شخص من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضاً بالفطرة السوية ، فإذا فكر مجتمع عاطفي مثلاً في ممارسة الحياة السياسية علي الطريقة الديموقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين ، فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائماً نحتاجها ونحتاجه
- فماذا عن العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن ؟
- حبنا للوطن قد يصل بنا إلي نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديداً في الجزء الأول حيث يقول : (– – فنحن كشعب – لابد لنا بصراحة أن نعترف – لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يريضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا

– إن هي وجدت علي الإطلاق – فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المقنعة أو المقنّعة ، ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاُ فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشداُ كفضائل مصر مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولي كماُ وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، – – – ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا – أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ، وبديهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنطناتنا

- فماذا كتب عن رؤيتنا للمستقبل ؟
- حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها) ، ومن جهة أخري خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم ، لا غرابة بعد هذا كله أن نجد معظم ما يُكتب عن مصر غالباً ما يجنح إلي المغالاة والتطرف إما نحو التهويل أو التوهين ، التمجيد أو التنديد ، لا يمكن لكاتب أو عالم أو مفكر أن يوجه إلي مصر نقداً موضوعياً بنّاء صادقاً ومخلصاً إلا وعُد علي التو والفور وللغرابة والدهشة عدواً بغيضاً أو حاقداً موتوراً إن كان أجنبياً ، وخائناً أعظم أو أحقر إن كان مصرياً ، وهذا وذاك إنما افتراءات علي مصر والمصريين أو أكاذيب وأباطيل ، ، إلخ ، وبالاختصار فنحن المصريون أكبر جداً من النصح ، ومصر فوق النقد
- الحقيقة أن ابن مصر البار الغيور علي أمه الكبري إنما هو وحده الذي – لصالحها – ينقدها بقوة وبقسوة إذا لزم الأمر وبلا مداراة أو مداورة

- القاعدة تقريباً عند كل حاكم أننا – بزعمه – نعيش دائماً في عصره أروع وأمجد فترة في تاريخنا وحياتنا بلا استثناء ، كل عصر عند صاحبه هو ، وهو وحده ، عصر مصر الذهبي ، تلك نغمة أزلية وبضاعة مزجاة يكررها كل حاكم منذ الفراعنة في نقوشهم وسجلاتهم الهيروغلوفية علي جدران الآثار ، ولأن الحاكم بالنظرية والتطبيق بالوراثة أو بالممارسة ، يتوهم مصر دائماً ملكاً له ، هو الدولة وهو الوطن ، والولاء للوطن هو وحده الولاء للنظام ، فإنه يعتبر أن كل نقد موجه لمصر إنما هو موجه إليه شخصياً ، وبالتالي فهو خيانة وطنية

أخلاق الشعوب وأخلاق الدول :

- هل هناك فرق بين أخلاق الشعوب وأخلاق الدول ؟ أو يمكن إعادة السؤال بطريقة أخري ، هل الضوابط والقيم والمبادئ التي تحكم العلاقات بين الأفراد كالصدق والأمانة والشفافية والإيثار وما إلي ذلك من الصفات الجميلة ، هل يمكن أن تنطبق علي العلاقات بين الدول بعضها ببعض؟
- المصالح القومية لكل دولة تفرض نفسها علي علاقاتها مع باقي دول العالم فقد تكذب وتماطل وتجند العملاء وتتآمر بل وقد تعلن الحرب أيضاً وخاصة فيما يتعلق بأمنها القومي ، فلا مكان هنا للمبادئ وإنما تتحكم المصالح دائماً أو غالباً ، الطريف أن الدول الكبري التي طالما تتحدث عن الديموقراطية واحترام إرادة الشعوب تنسي كل هذا عندما يتعلق الأمر بمصالحها ، فهي تفضل التعامل مع الأنظمة الديكتاتورية لتضمن لها تحقيق مصالحها أما إرادة الشعوب فحتماً ستتعارض مع مصالحها أو علي الأقل ستطالب شعوب هذه الدول بحقوقها المشروعة عند كل تعامل مع الدول الكبري أما الأنظمة الديكتاتورية فهي أقل كلفة في التعامل فمصالحها مقدمة علي مصالح شعوبها ومصالحها مرتبطة عادةً بمصالح الدول العظمي بل ليس مصالحها فقط بل وجودها من الأساس في السلطة مرتبط بالدول الكبري ، ومن السهل أن ترضي شخصاً واحداً عن أن ترضي شعباً كاملاً فتحقيق رغبات فرد أهون كثيراً من تحقيق إرادة شعب ،

المطرقة والسندان :

- فما رأيك في ما يسمي بنظرية المؤامرة ؟
- تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان ، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما علي الأخري في وجودها واستمرارها ، وهما قوي المؤامرات الخارجية وقوي الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهوين من شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب علي النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي ، وكذلك من الصعب جداً أن يجد الاستبداد الداخلي مبرراً لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلي ضياع هذا الشعب ، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما

حقيقة لا مفر منها ، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالباً ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر ، وخاصة عندما يري تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دولاً تحولت إلي أطلال وشعوباً تحولوا إلي لاجئين

الذكاء الفردي وكراهية المجتمع :

- فماذا عن سلوكيات المجتمع نفسه ؟
- عندما يقوم الفرد بالقيام بعمله ناقص فسوف تحتاج أن تقوم بإكمال هذا النقص حتي تحصل علي خدمة كاملة ، والمفترض أن يقوم كل فرد بأداء عمله كاملاً فيؤدي نفس الخدمة بنفس الجودة للجميع ، وهذا ما يمكن أن نسميه الذكاء الجماعي ، أما عندما يسود الغباء الجماعي فكل شخص في المجتمع مطلوب منه أن يستكمل أعمال الآخرين التي تخصه ، فلابد له أن يفهم في أعمال الآخرين ويلم بها حتي لا يضيع وسط المجتمع ، فهو مثلاً يفهم في أعمال السباكة والكهرباء والميكانيكا ويعرف الأدوية المناسبة لأولاده عندما يشعرون ببعض الأعراض المرضية كما أنه يشرح لهم الدروس المقررة عليهم في المدارس كما أنه لو دخل في قضية مثلاً لابد أن يفهم في ثغرات القانون وإذا أراد أن يبني بيتاً لابد أن يفهم في أسلوب البناء ، وغير ذلك الكثير والكثير من الأعمال التي لابد أن يلم بها حتي يتابع ما يجب أن يعمله الآخرون لصالحه ، وبالتالي ينمو ذكاءه الفردي ومعارفه ومعلوماته ومهاراته الفردية وعلاقاته وهو ما يجعله يتكلم في كل شئ ويحاول أن يفهم كل شئ وسيؤدي ذلك بالطبع إلي عدم إمكانية أن يكمل عمله هو شخصياً كاملاً فيؤثر ذلك علي الآخرين ، وهكذا ، إن هذا النوع من المجتمعات يعتمد الفرد فيه علي نفسه ولا يثق في المجتمع ولا يشعر بالأمان إلا عندما يتولي كل شئونه بنفسه أو علي الأقل يتابع ما يفعله الآخرون لخدمته ، وقد تتولد كراهية المجتمع لدي الفرد ، أما مجتمع الذكاء الجماعي فلا يعرف أحد أي معلومات بالكاد إلا عن عمله فقط ولا يفتي إلا في تخصصه فقط ويمكن اتهامه بالغباء الفردي وقد يكون سعيد بغباءه الفردي في نظير ذكاء مجتمعه الذي لا يشعره بأي مشاكل من أي نوع في جميع تفاصيل حياته

هل تعرف أحد في المكان الفلاني ؟ :

- فما أكثر الأقوال شيوعاً في مجتمعات الغباء الجماعي كما تسميه ؟
- (هل تعرف أحد في المكان الفلاني ؟) هذا السؤال منتشر بكثرة في مجتمعات الغباء الجماعي فأنت لن تتمكن من إنهاء مصلحتك في أي مكان غالباً إلا إذا كنت تعرف أحد في هذا المكان كي يخدمك أو علي الأقل تعرف أحد الأشخاص الذين لهم علاقة بهذا المكان فكل شخص في هذا النوع من المجتمعات يستخدم وظيفته أولاً في خدمة نفسه وأسرته وأقاربه ومعارفه ومن العيب جداً أن يتوجه إليه قريب له أو صديق ولا يخدمه خدمه خاصة تليق بالصداقة أو القرابة مع أنه من المفروض كما ذكرنا

أنه يجب أن يؤدي نفس الخدمة بنفس الجودة للجميع ، كما يحدث في مجتمع الذكاء الجماعي فهناك لا تحتاج لأن تعرف أحد في أي مكان كي تنهي مصلحتك في أمان وسرعة ، ولكن للأسف الشديد في مجتمعات الغباء الجماعي تحتاج إلي علاقاتك ومعارفك وذكاءك الفردي ، الذي يجعلك تنهي جميع مصالحك دون أن تشعر بالذل والإهانة أو البطء وعدم الاهتمام ، كما أن هذا المجتمع قد يؤدي إلي انتشار الرشاوي فهي البديل الوحيد للعلاقات ، فأنت إن لم تتمكن من تنفيذ خدمة من مكان عملك للشخص الذي ذهبت أنت لمكان عمله كمصالح متبادلة تنتهي بجملة (أي خدمة يا باشا من المكان الذي أعمل فيه) إذا كنت لا تملك ذكاء فردي أو خدمات متبادلة فقد تحتاج لتخليص الموضوع بالرشوة أما إذا لم تكن تملك مالاً ففوت علينا بكرة يا سيد لأن أوراقك غير كاملة ، في حين أن هناك من ينهي لنفسه هذه المصلحة وليس فقط أوراقه غير كاملة بل إنه لم يغادر منزله أساساً وكل حاجة تخلص ، لأنه علي علاقة جيدة بمن في أيديهم هذه المصلحة

- فهل تنصح الناس بعدم استخدام الذكاء الفردي كما تسميه ؟
- أنا لا ألوم أحد علي الإطلاق في مجتمع الغباء الجماعي لاستخدامه ذكاءه الفردي طالما أنه يريد الحصول علي حقه فقط وليس أكثر ، فهي ثقافة عامة سائدة في المجتمع بل يفخر بها الكثير من الناس فهي في نظرهم جدعنة أو شهامة فكيف أكون أعمل في مكان ما وأعز أحبابي وأصدقائي يتعثرون فيه ؟ هذا لا يمكن حدوثه
- الذكاء الفردي يا عزيزي قد يوقف قطار مثلاً في محطة لا يجب أن يقف فيها
- بل من الممكن أن يقف في مكان ليس فيه محطة أساساً ، والذكاء الفردي قد يدخل بضائع إلي البلد لا تصلح للاستخدام أو أدوية أو قطع غيار أو أغذية أو أي شئ ليس في صالح المجتمع ، والذكاء الفردي قد يعطي شهادات دراسية بل قد تصل إلي شهادات عليا لمن لا يستحقها ، وكل واحد في مكانه باشا كبير والجميع في حاجة إليه ، وعندما يذهب إلي مكان آخر أصبح في حاجة إلي من في المكان الآخر ، وعليه أن يقوم بما يرضي الباشا الآخر ، وهنا نجد روح الانتقام إلي حد ما تسود مجتمع الغباء الجماعي ، فكل منهم ينتظر الآخرين عند حضورهم إلي ملعبه ليشبع غروره ويريهم سلطاته وإمكانياته فيعذب المجتمع نفسه بنفسه
- فكيف يرانا من يعيشون في الدول التي تسمي بالمتقدمة والتي تتصف بالذكاء الجماعي ؟
- الطريف أنه عندما يتصادف وجود شخص من مجتمعات الغباء الجماعي وسط مجموعة من مجتمعات الذكاء الجماعي يحدث لهم انبهار واندهاش بمعلوماته الغزيرة في كل الأمور فهو يفهم في كل الموضوعات التي يتم فتحها خلال الحوار وهم لا يعرفون عنها شيئاً لأن كل منهم لا يفهم ولا يتكلم إلا في تخصصه فقط ، ومعلوماتهم محدودة جداً في باقي الأمور ، فكل فرد في مجتمع الغباء الجماعي يمكنه أن يصبح خبيراً استراتيجياً أو مدير فني لكرة القدم أو محلل سياسي أو فقيه دستوري أو مفتي

شرعي حسب الأحوال وحسب موضوع الحوار ، وهو قد لا يعرف عن تخصصه ما يجب أن يعرفه علي الوجه الأكمل ، ويتسائل الناس في مجتمع الذكاء الجماعي كيف تكون ملماً بالمعلومات لهذا الحد وأنت في مجتمع متخلف إلي هذا الحد ، والإجابة في غاية البساطة ، لأن في مجتمع الغباء الجماعي كل شخص يُسخِّر معلوماته وقدراته ومهاراته لخدمة مصالحه الشخصية التي هي أهم من الصالح العام فهو يكره المجتمع الذي لا يخدمه فيحاول أن يخدم نفسه فيوفر كل مجهود وكل طاقة لخدمة مصالحه الشخصية ، فيمكن أن تجده يهتم بنظافة منزله ولا يكترث لنظافة الأماكن العامة

دفع العربة في الاتجاه الصحيح :

- فمتي من وجهة نظرك يمكن لمجتمعات الغباء الجماعي أن تتقدم وتدفع العربة في الإتجاه الصحيح ؟
- في مجتمعات الغباء الجماعي الكل يحاول أن يدفع العربة في الاتجاه الذي يوافق مصالحه فقط فمنهم من يدفعها من الخلف ومنهم من يدفعها من الأمام بل إن هناك من يدفع العربة من الأجناب متصوراً أنها ستتحرك في الاتجاه الذي يرغب فيه ، والنتيجة الحتمية أن العربة لن تتحرك أبداً في أي اتجاه ، الكل يدفع دون أن يكلف نفسه حتي مشقة النظر إلي وضع العربة وأين توجد مقدمتها فهو لا يري سوي هدفه هو فقط والعربة بشكل عام ، أما مكانه بالنسبة للآخرين ومكانهم بالنسبة له وبالنسبة للعربة كل هذا لا يكون واضحاً في مجتمع الغباء الجماعي ، في حين أن الجميع يدفع العربة في مجتمع الذكاء الجماعي في اتجاه واحد فقط فهي دائمة الحركة وتمر علي جميع الأهداف والأماكن حسب أولوياتها وترتيبها والكل ينتظر في اطمئنان لتأكده من أن العربة حتماً ستمر بالمكان الذي يرغب فيه ، هذا هو الفرق ، الإحساس بالأمان والاستقرار نتيجة للذكاء الجماعي ، والإحساس الدائم بعدم الثقة في الغد في مجتمع الغباء الجماعي فالجميع يتصور أنه علي حق وأنه الوحيد الذي يعمل عملاً محترماً مفيداً أما الآخرين فلا يهتم بما يفعلونه بل إنه يحتقر أحياناً ما يفعله الآخرون ، في مجتمع الذكاء الجماعي كل عمل محترم مهما صغر فالكل يشعر بعمل الكل والكل يستفيد من أعمال الآخرين لأن الجميع يدفعون العربة في الاتجاه الصحيح ، ولا يهم نوع العمل طالماً أنه يخدم الجميع دون تفرقة أو محسوبية أو وساطة

لن يُفلت أحد من الغباء الجماعي

- فهل من الممكن أن يفلت أحد من الغباء الجماعي وهو يعيش فيه ؟
- واهم من يتصور أنه بذكاءه الفردي وأمواله ونفوذه وعلاقاته سيصبح في أمان في مجتمع الغباء الجماعي فهو لابد سيقع في يوم ما دون أن يشعر في خطأ ناتج عن هذا الغباء قد تكون قطعة غيار غير صالحة تم تركيبها في سيارته قد يكون دواء فاسد أدخله شخص فاسد فشربه ابنه أو ابنته ، قد يكون تصميم خطأ لمهندس فاشل نتج عن نظام تعليم فاسد يقع المبني بمن فيه ، إن من يتصور أنه

فوق القانون أو وصل به ذكاءه الفردي أنه يضع بنفسه القوانين سوف يصبح ضحية لشخص آخر يخالف القانون ، فمن يخالف قوانين محددة لا يجب أن يلوم الآخرين علي مخالفة قوانين أخري مثل قانون المرور مثلاً ، فيصطدم به شخص يسير في الاتجاه المعاكس ، فيقول عنه أنه متخلف وغبي ويخالف القانون ، لا يجب عليه أن يقول ذلك لأنه هو نفسه يخالف قانون آخر لا يشترط أن يكون قانون المرور ، ولكن قانون يري من مصلحته مخالفته وكذلك الآخر يري نفس الرأي ولكن لا مكان للقانون في مجتمع الغباء الجماعي ، فالقانون والإجراءات والأوراق وكل شئ يخضع للذكاء الفردي وحتي الأدلة تخضع للذكاء الفردي سواء من حيث الإخفاء أو الإظهار طبقاً لما تقتضيه المصلحة

- فماذا يحدث إذا اختلف اثنان في مجتمه الغباء الجماعي ؟
- الطريف أنه عندما يختلف اثنان من مستخدمي الذكاء الفردي فسوف تشاهد معركة علي أعلي مستوي يُستخدم فيها النفوذ والعلاقات والأموال ، وكل قوي هناك من هو أقوي منه وكل ذكي هناك من هو أذكي منه ، وستستمع بلا شك إلي السؤال الشائع في هذا النوع من المجتمعات (انت مش عارف انت بتكلم مين ؟)
- الطريف أن القانون الوحيد الذي يطبق علي الجميع بلا استثناء في مجتمع الغباء الجماعي هو قانون الجاذبية الأرضية فقط فلا يستطيع أن يخالفه أحد مهما بلغ ذكاءه الفردي

الشماعة :

- عندما ينتشر الفساد في مجتمع ما يكون له ميزة رائعة للبعض ولا أريد أن أقول لمعظم أفراد المجتمع فهذا العبث العام يصبح شماعة لجميع الأخطاء ومبرر قوي ومقنع لكل مخالفة ، فهناك مصطلح يستخدمه البعض فيقول (الدنيا خربانة) ، ما أكثر ما يستخدم هذا المصطلح لتبرير الأخطاء ، فإذا لام شخص شخص آخر علي خطأ فادح ارتكبه يرد علي الفور أن الدنيا خربانة وهذا الخطأ ليس السبب الوحيد في خرابها فالأسباب كثيرة جداً وليس من المعقول أن يكون هذا الخطأ فقط هو المسئول عن كل ما يحدث في الدنيا التي يراها خربانة ، بل يتمني البعض أن يظل هذا العبث مستمر وهذا الخراب مستمر لكي لا يعمل بالشكل الصحيح فالجميع كذلك ولن تقف الدنيا عليه هو فقط
- يا له من مبرر ومخدر للضمير
- تصور أن كل شئ يسير بشكل منضبط يا للهول ، سوف يكون عليه أن يؤدي عمله علي أكمل وجه ، ولن يلجأ إلي الطرق الملتوية لتحقيق أهدافه كم سيكون ذلك شاقاً ومؤلماً ، فالأفضل أن تظل الدنيا خربانة والشماعة جاهزة والضمير في غيبوبة مريحة ، بل الطريف أن في هذا المجتمع الذي يتسم بالغباء الجماعي عندما يقوم أحدهم بعمله كما ينبغي يصبح مثار للسخرية والتهكم من الآخرين ويقولون أنه عايش الدور وكلام من هذا القبيل فهم يكرهون من يفضح مسلكهم ويقطع الطريق علي مبرراتهم فالمناخ من وجهة نظرهم لا يصلح للعمل ويريدونه هكذا دائماً فكيف يعمل هذا الشخص في

هذا المناخ ، وقد قيل من قبل أنه إذا أردت أن تعمل فابحث عن الوسائل ، وإذا أردت أن لا تعمل فابحث عن المبررات ،

- فكيف يمكن الحكم علي السلوك الجماعي كسمة من السمات الأصيلة في شعب ما ؟
- لا يمكن أن نحكم علي شعب ما بأنه شعب غير أصيل وغير طيب إلا عندما نعرف الظروف التي يمر بها والدوافع التي تجعل تصرفاته تتسم بصفات غير حميدة ، فقد يكون هناك من يدفعه دفعاً لهذا السلوك دون رغبة منه ، فتراه يتصرف كشعب أصيل ورائع عندما تختفي هذه المؤثرات ، فالمصري مثلاً ينجح بشكل منقطع النظير عندما يعمل خارج مصر ، فهو يجد نفسه في مجتمعات تتسم بالذكاء الجماعي ، وهو يحمل ذكاءه الفردي من مصر فيتفوق تفوق يندهش له الجميع ، بل إن هناك مثل أفضل من ذلك ورد في كتاب موسوعة وصف مصر الذي قام بإعداده مجموعة من علماء الحملة الفرنسية وقد وصفوا فيه مصر وصفاً دقيقاً وكان سلوك الشعب من الأمور التي قاموا بوصفها وتحليلها تحليلاً علمياً بل قاموا بتبرير بعض هذه الصرفات في تلك الفترة من تاريخ مصر مما يؤكد أن كل ظروف يمر بها الشعب تؤثر علي تصرفاته بشكل مختلف عن سلوكه الأصيل الطبيعي

كيف وصف علماء الحملة الفرنسية الشعب المصري

- فكيف وصف علماء الحملة الفرنسية الشعب المصري ؟
- مما كتبه علماء الحملة الفرنسية في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن عادات وتقاليد الشعب المصري في ذلك الوقت : (يوجد في مصر – شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان ، بمختلف أديانهم وأصولهم ، – – – ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا في سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب ، أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : إحمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم ، ويمكننا أن نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، – – – ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموماً – نوعاً من

الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يُعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الاشتباه ، كما لو كان ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية ، لذا فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين علي وجه العموم ، فالشكاوي والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة ، ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر والله غفور ، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي علي لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهي نفسها التي تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبري ألمت به ، ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتي لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ، وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين علي الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً علي ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة علي التذكر تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة – – إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين ، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك ، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، – – ومن جهة أخري يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد ، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقي تشجيعاً من الحكومة ، ولكن أن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لا ينضب ، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر ، فهي تقوده إلي الثروة في بعض الأحيان ، وهي – في هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبري في وطنهم ، انظروا إذن إلي أي حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ، ولسوف يظل المصري عبداً بائساً سلبياً خاملاً تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن ، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه علي الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع)

الفن والوعي العام :

- إذا سلمنا بأن الكثير من المصريين لا يهتمون بالقراءة فكيف يتشكل وعيهم إذن ؟ ومن المسئول عن ذلك ، هل يمكن أن يكون رجال الدين هم المسئولون عن ذلك ؟
- لا أعتقد فجميع الأديان تحث علي اتقان العمل ومساعدة الآخرين والتعاون وكل القيم الجميلة التي تؤدي إلي مجتمع الذكاء الجماعي الذي نتمناه
- فهل التعليم هو السبب ؟
- التعليم جزء من الغباء الجماعي الذي تكلمنا عنه
- فمن الذي يشكل وعي هذا الشعب ؟
- قد يكون الفن هو أكبر عامل مؤثر في تشكيل الوعي العام ، وأقصد بالفن هنا جميع الأعمال الفنية من مسرحيات وأفلام سينيمائية ودراما ومسلسلات تليفزيونية وربما يمكن إضافة الأغاني والإعلانات أيضاً ، ولا يمكن أن ننكر أن التليفزيون يقوم بنقل كل هذه الأعمال الفنية بعد عرضها سواء في المسارح أو دور السينيما ، أي أن التليفزيون في النهاية هو المصدر الذي يمكن من خلاله مشاهدة كل هذه الأعمال ، ولا ننكر أيضاً دور الفن في التأثير علي المجتمع ، فيكفي أن نعرف أن مسرحية واحدة أفسدت الكثير من الطلبة في المدارس ، بعد عرضها بكثرة حيث زادت نسبة سوء الأدب مع المعلمين بشكل ملحوظ عن النسبة العادية التي كانت موجودة قبل عرض هذه المسرحية ، كما أن مسرحية أخري أفسدت أيضاً الكثير من الأبناء في بيوتهم مع آبائهم وأمهاتهم ، فلم يكن الأبن يجرؤ علي أن يتكلم مع والده أو والدته بتهكم أو سخرية إلا بعد عرض هذه المسرحية كما لو كانت مقررة علي الأبناء ، ولا ندعي أن مستوي الأخلاق قبل المسرحية كان مثالياً ولكن هذا العمل المسرحي أدي إلي نتائج لا يمكن أن ينكرها أحد ، ويمكن القياس أيضاً علي ذلك ببعض الأفلام السينيمائية التي يكون فيها بطل الفيلم لا يتكلم بشكل طبيعي وفي حالة غيبوبة دائمة مثيرة للضحك ويرتدي ملابس لا تليق ، وكل هذا يؤثر علي مرحلة عمرية معينة ، وحدث ولا حرج عن العري والكلمات البذيئة والإيحاءات الجنسية ، والأفكار التي يتم بثها من خلال الدراما التليفزيونية
- هل كل هذا الزخم الفني غير قادر علي تنمية روح الذكاء الجماعي بنفس الدرجة التي نشر فيها سلبيات عديدة لا يزال يعاني منها المجتمع ؟
- أنا علي يقين أن الفن والإعلام والقنوات الفضائية ببرامجها الجذابة كل هذا يمكنه أن ينشر ثقافة الذكاء الجماعي في المجتمع ، أما إذا سألت أحد القائمين بهذه الأعمال الفنية عن سر هذه النماذج السيئة التي يطرحها في أعماله ، فسيجيب علي الفور بأن هذه ظاهرة موجودة في المجتمع ولابد من رصدها ، ويأتي السؤال هل الفن مسئول عن رصد كل ما هو سلبي فقط في المجتمع ونشره لكي يزيد

وينمو ويتضخم ؟ أم أن عليه أن يبحث عن كل ما هو جميل في المجتمع ؟ ما هي الرسالة المطلوب أن يقوم بها الفن ، هل الإيجابيات لا تحقق الربح ؟

- فهل يستغل الغرب المتقدم الفن في نهضة مجتمعاتهم ؟
- إذا تأملنا الأعمال الفنية لدولة كبيرة وعظمي مثل الولايات المتحدة الأمريكية سنجد العجب العجاب ، فمعظم الأعمال السينيمائية مثلاً تجعلك تشعر بالانبهار بالمجتمع الأمريكي والحياة علي الطريقة الأمريكية فكل شئ هناك هو الأفضل ، فمثلاً نجد الطفل الأمريكي هو الأكثر ذكاء في هذه الأفلام والجندي الأمريكي هو أشجع وأقوي وأفضل الجنود في العالم والعلماء والعمال والرجال والنساء وكل المجتمع يشعر بالفخر لانتمائه لهذا المجتمع حتي أفلام الخيال العلمي نجد أن أمريكا دائماً تنقذ العالم عندما يتعرض لغزو فضائي خارجي
- ألا توجد سلبيات في هذا المجتمع ؟
- بالتأكيد توجد كأي مجتمع في العالم ولكن لماذا تركز الأعمال الفنية علي عظمة هذه البلاد ؟ لأنهم يريدونها كذلك ، أنت تعرض علي الشعب النموذج الذي تريد أن يكونه ، حتي ولو كان علي خلاف ذلك ، ولا ننكر أن هناك أعمال فنية مصرية تناولت عظمة مصر ومعدن هذا الشعب العظيم ولكنها تكاد لا تبدو وسط كل هذه الأعمال التي تشعرك بالإحباط وتنشر كل ما هو سئ وقبيح في المجتمع ، بالرغم أن شعبنا به من الصفات الرائعة والنماذج الطيبة الكثير والكثير فهو شعب أصيل وقد ظهرت أصالته في العديد والعديد من المواقف علي مر التاريخ ، ومهما حاول البعض تشويهه وتشويه تاريخه فسيظل شعباً عظيماً ، وكل أو معظم ما به من سلبيات ليس مسئول عنها فهي إذا جاز التعبير مجرد سلوك ناتج عن دوافع تدفعه دفعاً إليه فكل أفعاله عبارة عن ردود أفعال لأفعال أخري تجعله في معظم الأحيان يتصرف تصرف المحروم الخائف القلق علي مستقبله دائماً وهذه الأوصاف عادةً لا تنتج سلوكيات مرضية

ثقافة الديموقراطية :

- دائماً يتهم هذا الشعب بأنه غير جاهز للديموقراطية ولا يفهم كيف يمارسها
- هل قام أحد بتعريف هذا الشعب معني الديموقراطية ، هل قامت وسائل التأثير وتشكيل الوعي بنشر هذه الثقافة ، هل مارس السياسيون مرة واحدة العمل السياسي أم أن معاركهم السياسية تكون إما في المنابر الإعلامية أو في ساحات القضاء ، هل قال أحد لهذا الشعب أن الديموقراطية هي الوسيلة الوحيدة في هذا العصر التي تحافظ علي حياة خصمك السياسي ، وهي الوسيلة الآمنة لتداول

السلطة[٩٢٩] ، وأن أول خطوة في الديموقراطية هي أن تكون مستعد للتنازل عن رغباتك وإرادتك الشخصية نزولاً علي إرادة الأغلبية وأن الحل الوحيد لأي انقسام هو اللجوء إلي الصناديق والرضا بنتائجها ، فلا يوجد في العالم كله دولة ليس بها انقسام ، فليس كل الفرنسيين مثلاً يريدون الرئيس الفرنسي المنتخب ، ويمكن مجازاً أن نقول أن نصف الشعب الفرنسي لا يريدون هذا الرئيس (إلا قليل منهم انضموا إلي النصف الثاني) ، ولكنها ثقافة الصناديق ، ولا يوجد رئيس أو حزب أو أي كيان منتخب في العالم المتحضر بالكامل حاصل علي نسبة ١٠٠% في أي انتخابات ، ومع ذلك لا توجد أي مشاكل تحدث في هذه المجتمعات ، فمن الذي نشر هذه الثقافة هناك ومن المسئول عن تشكيل هذا الوعي ، إن الانقسام المجتمعي موجود في كل مكان في العالم ولكن تأثيره يختلف طبقاً لمستوي الوعي العام للشعب ، فالانقسام في الدول المتحضرة يتحول إلي صناديق ، أما الانقسام في الدول المتخلفة فيتحول إلي حرب أهلية

<u>شعب مصر عظيم :</u>

- **كلامك يوحي بأنك معجب بالشعب المصري وتلتمس له مبررات سلوكياته**
- **إن هذا الشعب عظيم رغم أنف كل من يحاول أن ينال من سمعته ، ولا أقول كلمة شعب عظيم كما تقال في المناسبات المختلفة علي سبيل المجاملة ، بل أقولها بعد أن قرأت تاريخ هذا الشعب بقدر المستطاع ، لقد أطعم هذا الشعب شعوب كثيرة علي مر التاريخ وكان جزء من العديد من الإمبراطوريات والكيانات العظمي بل أهم جزء فيها بلا مبالغة أو تحيز ، وتعرض لظروف ومواقف تنوء بحملها الجبال ، وظل معدنه الأصيل المعطاء الكريم كالورد ينفح بالشذي حتي لأنوف سارقيه ، كم قسي عليه الطغاة وكم استغله الظالمون وكم سخر منه العابثون وكل هذا كان كفيلاً بأن يتحول هذا الشعب إلي مسخ مشوه لا قيمة له ولا يحمل أي مبادئ ، ولكنه رغم كل هذا ظل أصيلاً كريماً صبوراً ، وشعاره كان دائماً (اصبر علي جار السوء ، يرحل أو تيجي مصيبة تأخذه) ، وبمجرد أن تزول كل غمة علي مر التاريخ يعود لطبيعته السمحة المرحة الطيبة التي لم تتغير أبداً ، فهو دائماً يسخر من ظروفه ومشاكله بل ويسخر حتي من نفسه ، ولكنه كالذهب الذي يعلوه التراب ، وكلما أزالها تعمد البعض أن يعيدها مرة أخري ، إن الذي يحب هذا الشعب لابد أن يأخذ بيده إلي الطريق الصحيح الذي هو جدير به ، ولنتأمل معاً كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان**

---

[٩٢٩] وعندما يمارس شعب ما الديموقراطية لأول مرة ويمتلك إرادته الحرة فلا تنتظر منه أن يحسن اختيار من يمثله بنسبة ١٠٠% فلابد أن تحدث أخطاء كثيرة في المرة الأولي ولكن الديموقراطية تصحح الأخطاء عن طريق الاستمرار في الممارسة الديموقراطية وبنفس آلياتها بحيث يتم التصحيح مع كل مرة يتم فيها الاختيار الحر وعلي الشعب الذي يسير في طريق الديموقراطية أن يتحمل مرارتها الأولي مهما حدث حتي يستكمل البناء الديموقراطي ويعبر إلي بر النجاة ، ومن الجائز جداً بل من المؤكد أن هناك من سيضع العراقيل في طريقه حتي ييأس ويعود أدراجه ويشعر بعدم جدوي ممارسة الديموقراطية ، وهنا لابد من رفع مستوي الوعي العام للشعب بدلاً من السخرية منه طول الوقت واتهامه بعدم استعداده لهذه الممارسة

المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي : (– – وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن – – –)

الكتب والمراجع

- كتاب مصر الفرعونية "لأحمد فخري"
- كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق
- كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري)
- كتاب شخصية مصر – د جمال حمدان
- كتاب القاهرة – د جمال حمدان
- موسوعة مصر القديمة – سليم حسن
- كتاب (مصر علمت العالم) للدكتور وسيم السيسي – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ٢٠١٣
- كتاب عندما دخلت مصر في دين الله للدكتور محمد عمارة
- كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢
- كتاب (تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة)– من فجر التاريخ إلي الفتح العربي– تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف
- موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين
- موسوعة حكام مصر – د ناصر الأنصاري
- قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير تحقيق عصام الدين الصبابطي دار الفجر للتراث(الطبعة الأولي) ١٩٨٠
- كتاب (مختارات٣– من شخصية مصر) د جمال حمدان – مكتبة مدبولي
- كتاب دراسات في العصر الهللينستي ، إعداد د فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية
- كتاب محمد علي وأولاده (جمال بدوي)
- كتاب المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي)
- كتاب عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس محمود العقاد)
- كتاب عبقرية الصديق (عباس محمود العقاد)
- كتاب عبقرية خالد (عباس محمود العقاد)
- كتاب السيرة النبوية –د علي الصلابي
- كتاب تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفي دار الفجر للتراث(الطبعة الأولي)١٩٩٩

- كتاب تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال)- دار المعارف
- كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لينبول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، وإداور حليم – مكتبة الأسرة ١٩٩٧- الهيئة المصرية العامة للكتاب
- كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤) – قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية
- كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
- كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام الأجزاء من ١ إلي ٥ فقط – الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- دار الغد العربي-(الطبعة الثالثة)١٩٩٦
- كتاب حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه – عثمان بن محمد الخميس
- كتاب الإسلام والحرب الدينية (د محمد عمارة)
- كتاب الثورات الشعبية في مصر الإسلامية (د حسين نصار)
- كتاب معاوية بن أبي سفيان (عباس العقاد)
- كتاب مصر في العصور الوسطي " الأوضاع السياسية والحضارية " (د محمود الحويري)
- كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩
- كتاب صقر قريش (علي أدهم)
- كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها (ابن زولاق)
- كتاب (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د شوقي ضيف – دار المعارف
- كتاب مصر من تاني (محمود السعدني)
- كتاب بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي)
- كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد)
- كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقريزي)
- كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
- صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨
- كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة سبتمبر٢٠٠٧
- كتاب مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان)

- كتاب الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي
- كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)
- كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨
- كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦
- كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠
- كتاب طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد)
- كتاب تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي)
- كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي)
- كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦
- كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م
- كتاب مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر – ترجمة وتقديم كاميليا صبحي
- كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي
- كتاب تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢ – ١٧٩٨-١٩٥٢- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو
- كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي)
- الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر- وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية ١٩٩٦ – مكتبة مدبولي
- كتاب ودخلت الخيل الأزهر – محمد جلال كشك
- كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الكتاب الأول – دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون – تأليف ج دي شابرول

- كتاب (موسوعة وصف مصر– جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع– مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
- كتاب موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
- كتاب (الفرعون الأخير محمد علي) تأليف جيلبرت سينويه –تقديم ديروش نوبلكور–ترجمة عبد السلام المودني
- كتاب عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي)
- كتاب محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي
- كتاب العطاء الحضاري للإسلام للدكتور محمد عمارة (سلسلة اقرأ – دار المعارف – العدد ٦٢٦– سنة ١٩٩٧)
- كتاب الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة – للدكتور محمد عمارة –دار نهضة مصر – سلسلة التنوير العدد ١٨ (نقلاً عن الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة الطهطاوي – ج٢ – صفحة ١٥٩ وما بعدها – طبعة بيروت سنة ١٩٧٣)
- كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)– د يونان لبيب رزق– المجلس الأعلي للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)– عبد الله محمد عزباوي
- كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد – الطبعة الثانية ١٩٨٣ – دار المعارف
- كتاب –أنا المصري– للمؤرخ الكبير جمال بدوي – هيئة الكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
- كتاب – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي – تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف
- كتاب خليها علي الله للكاتب الكبير يحيي حقي – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
- كتاب أسرة محمد علي (سهير حلمي)
- كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي– الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف
- كتاب " مرآة الإسلام " طه حسين– دار المعارف – طبعة ١٩٥٩
- كتاب "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ" – د عماد أحمد هلال –الطبعة الثانية ٢٠٠٦
- كتاب – دراسات في ثورة ١٩١٩– للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد– الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥
- كتاب(في المرآة) لعبد العزيز البشري
- كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس محمود العقاد

- كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧
- كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي
- كتاب –مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢–عبد الرحمن الرافعي–دار المعارف –الطبعة الثالثة ١٩٨٧
- كتاب –سقط النظام في أربعة أيام – ثورة ٢٣يوليو بالوثائق السرية –محسن محمد–دار الشروق– الطبعة الأولي ١٩٩٢
- كتاب –ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢–تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢–١٩٥٩– بقلم عبد الرحمن الرافعي –الناشر دار المعارف –الطبعة الثانية ١٩٨٩
- كتاب –فلسفة الثورة– تأليف الرئيس جمال عبد الناصر ، –بيت العرب للتوثيق العصري –طبعة ١٩٩٦
- كتاب –البحث عن الذات–قصة حياتي–تأليف الرئيس محمد أنور السادات –المكتب المصري الحديث
- كتاب (مذكرات محمد نجيب–كنت رئيساً لمصر)– الطبعة الثانية ١٩٨٤– الناشر : المكتب المصري الحديث
- كتاب –والآن أتكلم–خالد محيي الدين–الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر –مؤسسة الأهرام–الطبعة الأولي ١٩٩٢
- كتاب –عبد الناصر المُفترَي عليه والمُفترِي علينا–وخطاب مصطفي أمين إلي الرئيس عبد الناصر– أنيس منصور–نهضة مصر للطباعة والنشر
- كتاب –الطريق إلي زمش– بقلم محمود السعدني– من سلسلة كتاب اليوم التي تصدر عن أخبار اليوم
- كتاب –خريف الغضب–قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات =محمد حسنين هيكل –الناشر :سلسلة جدران المعرفة ٢٠٠٦
- كتاب – المعارك الحربية علي الجبهة المصرية–اللواء جمال حماد–دار الشروق طبعة ٢٠٠٢
- كتاب –مبارك وزمانه –من المنصة إلي الميدان–محمد حسنين هيكل –دار الشروق–الطبعة الرابعة٢٠١٣

فهرس المحتويات

Contents